بحوث فى الملل والنحل

دراسةٌ موضوعيةٌ مقارنةٌ للمذاهب الاسلامية

فهرستنويسى پيش از انتشار توسط : موسسه تعليماتى وتحقيقاتى امام صادق عليه السلام
السبحاني التبريزي ، جعفر : ١٣٤٧ هـ. ق ـ
بحوث في الملل والنحل / تاليف جعفر السبحانى . - قم : موسسه الامام الصادق عـليه السـلام ، ١٤٢٣ ق .= ١٣٨١
ج .
كتابنامه به صورت زيرنويس .
چاپ دوم ؛ فهرستنويسى بر اساس جلد ششم .
ISBN : 964 - 357 - 066 - 5
١ . اسلام ـ ـ فرقه‌ها. الف. موسسه الامام الصادق عليه السلام. ب . عنوان .
٣ ب٢ س / ٢٣٦ BP ٥ / ٢٩٧

اسم الكتاب: ..... بحوث في الملل والنحل
الجزء: ..... السادس
المؤلـف: ..... آية الله جعفر السبحاني
الطبعـة: ..... الثانية
التاريخ: ..... ١٤٢٤ هـ
المطبعـة: ..... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ قم
الكمّيّـة: ..... ١٥٠٠ نسخة
الناشـر: ..... مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام
الإخراج الفني: ... مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام ـ السيد محسن السيد هاشم البطاط
حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

توزيع
مكتبة التوحيد
ايران ـ قم ؛ سـاحة الشهداء
تلفن ٧٧٤٥٤٥٧ ـ ٢٩٢٥١٥٢
البريد الإلكتروني : **info@imamsadeq.org**
العنوان في شبكة المعلومات: **www.imamsadeq.org**

بحوث

فـــى

فى الملل والنحل

دراسة موضوعيةٌ مقارنةٌ للمذاهب الإسلامية

الجزء السادس

يتناول تاريخ الشيعة

نشأتهم، عقائدهم، فرقهم وشخصيّاتهم

تأليف

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله
وعلى رواة سنّته وحملة أحاديثه وحفظة كلمه.

الحمد للّه الّذي علا بحوله، ودنا بطوله، والصلاة والسلام على سيّد رُسله وخاتم أنبيائه، الّذي بعثه لإنجاز عدته، وإتمام نبوّته، وعلى آله الّذين هم موضع سرّه، وملجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، صلاة دائمة مادام الفرقدان، وكرّ الجديدان .

أمّا بعد: فهذا هو الجزء السادس من موسوعتنا في دراسة تاريخ المذاهب الإسلامية وقد درسنا الفِرَق المشهورة، ولم تبق إلّا الشيعة بفرقها الثلاث المنتشرة في العالم: الإمامية، والزيدية، والإسماعيلية.

نسأل اللّه سبحانه أن يوفّقنا في دراسة مذهب الشيعة، الّذين جنى عليهم كثير من المؤرّخين و كُتّاب المقالات و الفرق، و كتبوا عنهم أشياءً كثيرة هم برآء منها. ولم يرجعوا عند البحث عن عقائد هذه الفرقة إلى مؤلّفاتهم وكتبهم وآثارهم، وإنّما اعتمدوا على أفواه الرجال ونقلة الأخبار، فصاروا كحاطب ليل يجمع في حزمته كلّ رطب ويابس، والحقّ كما يقول بعض الأساتذة: إنّه تطوّر كلّ شيء إلّا الكتابة عن الشيعة، ولكلّ بداية نهاية إلّا الافتراء على الشيعة، ولكلّ حكم مصدره ودليله إلّا الأحكام على الشيعة.[1]

---

١. عبداللّه بن سبأ: ١ / ٩ (مقدّمة الطبعة الثالثة بقلم الأُستاذ المغفور له محمّد جواد مغنية).

ونشكر القرّاء الكرام الذين شجّعونا برسائلهم على مواصلة بحث ودراسة هذه المواضيع الهامّة في تاريخ أُمّتنا المجيدة، ونتقدّم بالشكر إلى العلماء الذين يقدّمون لنا النقد البنّاء، فإنّ العصمة للّه ولمن عصمه.

جعفر السبحاني

قم المقدّسة

٢٨ شعبان المعظم ١٤١٢ هـ

الشيعة لغةً و اصطلاحاً

الشيعة لغة هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد في قضاياهم، يقال تشايع القوم إذا تعاونوا، وربّما يطلق على مطلق التابع، قال سبحانه: ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبْراهيمَ * إذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيم**﴾[2]، فالشيعة هم الجماعة التابعة لرئيس لهم .

وأمّا اصطلاحاً فلها إطلاقات عديدة بملاكات مختلفة:

١- الشيعة: مَن أحبّ عليّاً وأولاده باعتبارهم أهل بيت النبيّ الذين فرض اللّه سبحانه مودّتهم قال عزّوجلّ: ﴿**قُلْ لا أسْئَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرَاً إلّا المَوَدَّةَ فِى القُربَى**﴾[3]، والشيعة بهذا المعنى تعمّ كلّ المسلمين إلّا النواصب، بشهادة أنّهم يصلّون على نبيّهم وآله في صلواتهم وأدعيتهم ويتلون الآيات النازلة في حقّهم صباحاً ومساءً، وهذا هو الإمام الشافعي يصفهم بقوله:

يا أهلَ بيتِ رسول اللّه حبُّكُمُ فَرضٌ من اللّهِ في القرآن أنْزلهُ

كَفاكُمُ من عَظيم الشّأن أنّكمُ من لم يُصلِّ عليكم لا صلاة لَهُ[4]

وأمّا النواصب فهم الذين نصبوا لعلي وأهل بيته العداء وتلقّوه فريضة دينية وأعانهم على ذلك مرتزقة أصحاب البلاط، وترجع جذور هذه الفكرة إلىٰ

---

١. القصص: ١٥. ٢. الصافّات: ٨٣ـ ٨٤.

٣. الشورى: ٢٣. ٤. الصواعق المحرقة: ١٤٨.

معاوية حيث سنّ سبّ عليّ علىٰ المنابر وتبعه أولاده وعشيرته إلى أواخر الدولة الأموية، وكتب ابن أبي سفيان إلىٰ عمّاله في جميع الآفاق: انظروا إلى من أُقيمت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه».

ثمّ كتب نسخة أُخرى إلى عمّاله وشدّد الأمر فيها وقال: من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به و اهدموا داره .

وعلى هذا المنشور قام الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يَلعَنون عليّاً ويبرأون منه و يقعون فيه وفي أهل بيته....[1]

٢ ـ الشيعة: مّن يفضّل عليّاً على عثمان أو على الخلفاء عامّة مع اعتقاده بأنّه رابع الخلفاء، وإنّما يقدّم لاستفاضة مناقبه وفضائله عن الرسول الأعظم، والّتي دوّنها أصحاب الحديث في صحاحهم ومسانيدهم، وهي تُلزم الإنسان الاعتقاد بأنّه أفضل الصحابة، وعلى ذلك معتزلة بغداد وقليل من أهل الحديث، وعلى ذلك الاصطلاح جرىٰ أكثراً من كتب في الرجال والتراجم والمقالات حيث يصفون قليلاً من الصحابة وكثيراً من التابعين بأنّه يتشيّع، أو أنّه شيعي، وربّما يعدّونه من أسباب الجرح، وكأنّ حبّ أهل البيت عمل إجرامي، أو أنّ تقدّم الخلفاء على عليّ أصل من أُصول الدين لا يجوز تجاوزه، مع أنّ الإمامة من الفروع عند أهل السنّة فكيف درجات الخلفاء ورتبهم؟!

وربّما يختلط الأمر على من ليس له إلمام بالاصطلاح، فلا يفرّق بينهما،

---

١. وسيوافيك مصدره وبيان عداء ابن أبي سفيان للإمام وعترته وشيعته .

وأكثر من يستعمل هذا الاصطلاح هو الذهبي في «ميزان الاعتدال» و«سير أعلام النبلاء» فيصف بعض التابعين و المحدّثين بالتشيّع ملمّحاً بذلك إلى ضعفهم، وقد رُمي أبو عبداللّه الحاكم النيسابوري بالتشيّع كمعتزلة بغداد، والمقصود تفضيلهم عليّاً على سائر الخلفاء لا أنّه الإمام المنصوص بالخلافة .

٣ ـ الشيعة: مَن يشايع عليّاً وأولاده باعتبار أنّهم خلفاء الرسول و أئمّة الناس بعده، نصبهم لهذا المقام بأمر من اللّه سبحانه، وذكر أسماءهم وخصوصيّاتهم، والشيعة بهذا المعنى هو المبحوث عنها في المقام، وقد اشتهر بأنّ عليّاً هو الوصي حتّى صار من ألقابه، وذكره الشعراء بهذا العنوان في قصائدهم[١] وهو يقول في بعض خطبه:

«لا يقاس بآل محمّد من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة...».[٢]

ومجمل القول: إنّ هذا اللفظ يشمل كل من قال: إنّ قيادة الأُمّة لعليّ بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه يقوم مقامه في كل ما يمت إليه سوى النبوة ونزول الوحي عليه. كل ذلك بتنصيص من الرسول، وعلى ذلك فالمقوّم للتشيّع وركنه الركين

١. خطب الإمام أبو محمّد: الحسن السبط حين قتل أمير المؤمنين خطبته الغرّاء فقال: «أنا ابن النبي وأنا ابن الوصي». أخرجه الحاكم في مستدركه: ١ / ١٧٢؛ وقد ذكر ابن أبي الحديد أشعاراً وأراجيز تتضمّن توصيف الإمام بالوصاية عن الصحابة والتابعين، لاحظ شرح النهج: ١ / ١٤٣ ـ ١٥٠ باب ماورد في وصاية عليّ من الشعر .

٢. نهج البلاغة: الخطبة الثانية .

هو القول بالوصاية والقيادة بجميع شؤونها للإمام عليه السلام، فالتشيّع هو الاعتقاد بذلك، وأمّا ما سوى ذلك فليس مقوّماً لمفهوم التشيّع ولا يدور عليه إطلاق الشيعة .

لا شك أنّ للشيعة عقائد وآراء في مجالي الأُصول والفروع، وربّما يشاركون غيرهم فيها وربّما يخالفونهم، ولكنّها ليست من سماتهم وأعرافهم وإنّما هي أُصول وأحكام دعاهم الدليل إلى تبنّيها من الكتاب والسنّة والعقل .

مثلاً إنّ الشيعة تقول باتّحاد الصفات الذاتية للّه سبحانه معها، وكونه سبحانه غير مرئي في الدارين، وأنّ كلامه مخلوق له، و أنّه لا يكلّف ما لا يطاق، وأنّ حقيقة الأمر في أفعال العباد لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين، وأنّ الأنبياء معصومون، إلى غير ذلك من الآراء، ولكنّها آراء كلامية للشيعة لا أنّها المقوّم للتشيّع بحيث لو خالف فيها رجل منهم، ولكنّه قال بالوصاية لعلي وبالقدوة لعترته، لخرج عن إطار التشيّع وأُصوله.

إنّ التشيّع بهذا المعنى عبارة عن الاعتقاد باستمرار القيادة الإسلامية في قالب الوصاية لعلي وعترته، والشيعة تدّعي أنّ هذه الفكرة غرست بيد النبي في أيّام حياته، وتبنّاها لفيف من المهاجرين في عصره، وبقوا عليها بعد حياته واقتدى بهم لفيف من التابعين لهم بإحسان وتواصل الاعتقاد به من تلك العصور إلى زماننا الحاضر، وهذا هو الّذي تدّعيه الشيعة وعليه بُني صرح التشيّع، ونحن في غنى عن الإتيان بنصوص أعلامهم وأكابرهم في المقام الّتي تدلّ على أنّ الوصاية للإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فالأولى طرح

الموضوع على بساط البحث وعرضه على المرتكزات العقلية، ولأجل تسليط الضوء على المسائل المهمة نبحث عن الجهات التالية وكل واحدة منها في فصل خاص بها:

١- في تبيين متطلّبات الظروف في عصر النبي، فهل كانت تقتضي أن تكون صيغة الحكم هي التنصيص أو كانت تقتضي تفويض الأمر إلى اختيار الأُمّة لتنتخب الحاكم والقائد عليها؟

٢- ما هو المرتكز في الأذهان في عصر الرسولﷺ وبعده في أمر القيادة؟

٣- ما هو مقتضىٰ الكتاب والسنّة في القيادة بعد الرسول؟

٤- ما هو السر في مخالفة الجمهور لنصّ الرسول وتصريحه؟

٥- مبدأ التشيّع وتاريخه ورواد التشيّع في عصر الرسول والصحابة والتابعين.

٦- افتراضات وهميّة حول تاريخ الشيعة .

٧- صيغة الحكومة الإسلامية عند أهل السنّة .

٨- نصوص الخلافة والركون إلى الأمر الواقع .

٩- الشيعة في عصر الدولتين الأموية والعبّاسية.

١٠- عقائد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية .

١١- أئمّة الشيعة الاثنا عشر ونبذة عن حياتهم .

١٢- دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وتطوير العلوم .

١٣- دول الشيعة وبلدانهم عبر التاريخ .

١٤- مصادر علوم الشيعة .

فالذي نعتقد أنّ تحليل هذه الجهات يكشف الواقع للمحقّق، ولا يُبقي له شكاً في أصالة التشيّع وأنّه استمرار للإسلام عبر الحقب والأعوام .

الفصل الأوّل:

بيان متطلّبات الظروف في عصر الرسول في مجال القيادة الإسلامية

لاشك أنّ الدين الإسلامي دين عالمي، وشريعة خاتمة، وقد كانت قيادة الأُمّة من شؤون النبي الأكرم مادام على قيد الحياة، ثمّ إنّه وقع الاختلاف بين أصحاب المقالات والفرق في صيغتها بعد الرسولﷺ، فهل كانت متبلورة في صيغة النص أو في انتخاب الأُمّة ؟

الشيعة ترى أنّ القيادة منصب تنصيصي، والّذي ينصّ على خليفة الرسول هو اللّه سبحانه عن طريقهﷺ، بينما يرى أهل السنّة غير ذلك، ولكلّ من الاتّجاهين دلائل وبراهين، و المقصود هنا دراسة متطلّبات الظروف وتقييمها في عصر الرسالة، فهل كانت المصالح تكمن في تعيين القائد، أو كانت تكمن في خلافه؟ فدراستها تُسلّط الضوء على البحث الثالث و هو وجود النص من الرسول وعدمه، وإليك بيان ذلك:

إنّ الظروف السياسية الّتي كانت سائدة في المنطقة كانت توجب على الرسول أن يعيّن القائد، وكانت المصلحة الإسلامية تقتضي ذلك، لأنّ المجتمع الإسلامي كان مهدّداً على الدوام بالخطر الثُّلاثي: الروم، الفرس، المنافقين،

وخطرهم يتمثّل بشنّ هجوم مفاجئ كاسح أو إلقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين.

فمصالح الأُمّة كانت توجب توحيد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الخارجي والداخلي، وذلك بتعيين قائد سياسي من بعده، وبذلك يسد الطريق على نفوذ العدو في جسم الأُمّة الإسلامية والسيطرة عليها، وعلى مصيرها، وبذلك يخسر الذين كانوا يتآمرون على ضرب الإسلام بعد وفاة النبيﷺ .

أمّا العدوّ الأوّل فقد كان الامبراطورية الرومانية الّتي كانت تشكّل إحدى أضلاع المثلّث الخطر الّذي كان يحيط بالكيان الإسلامي ويهدّده من الخارج .

وكانت هذه القوّة الرهيبة تتمركز في شمال الجزيرة العربية، وكانت تشغل بال النبيﷺ على الدوام، حتّى أنّ التفكير في أمر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتّى لحظة الوفاة، والالتحاق بالرفيق الأعلى .

وكانت أوّل مواجهة عسكرية بين المسلمين والجيش المسيحي الرومي في السنة الثامنة من الهجرة في أرض فلسطين، وقد أدّت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم: «جعفر الطيار» و «زيد بن حارثة» و«عبداللّه بن رواحة» .

ولقد أدّى انسحاب الجيش الإسلامي بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جرأة الجيش القيصري المسيحي، فكان يخشىٰ بصورة متزايدة أن تتعرّض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش .

من هنا خرج رسول اللّهﷺ في السنة التاسعة للهجرة (غزوة تبوك) على رأس جيش كبير جدّاً إلى حدود الشام ليقود بنفسه المواجهة العسكرية،

وقد استطاع الجيش في هذه الرحلة الصعبة المضنية أن يستعيد للأُمّة الإسلامية هيبتها من جديد .

غير أنّ هذا الانتصار المحدود لم يُقنع رسول اللّهﷺ، فأعدّ قبيل ارتحاله جيشاً كبيراً من المسلمين. وأمّر عليهم «أُسامة بن زيد» وكلّفهم بالتوجّه إلىٰ حدود الشام والحضور في تلك الجبهة.

أمّا الضلع الثاني من المثلث الخطير الّذي كان يهدّد الكيان الإسلامي، فكان الامبراطورية الإيرانية (الفارسية) وقد بلغ غضب هذه الامبراطورية على رسول اللّهﷺ ومعاداتها لدعوته، أن أقدم امبراطور إيران: «خسرو پرويز» على تمزيق رسالة النبيﷺ، وتوجيه الإهانة إلى سفيره بإخراجه من بلاطه، والكتابة إلى واليه وعميله في اليمن بأن يوجّه إلى المدينة من يقبض على رسول اللّهﷺ أو يقتله إن امتنع.

و«خسرو» هذا و إن قتل زمن رسول اللّهﷺ إلّا أنّ استقلال اليمن ـ الّتي رزحت تحت استعمار الامبراطورية الإيرانية ردحاً طويلاً من الزمن ـ لم يغب عن نظر ملوك إيران آنذاك، وكان غرور أُولئك الملوك وتجبّرهم وكبرياؤهم لا يسمح بتحمّل منافسة القوّة الجديدة (القوّة الإسلامية) لهم .

والخطر الثالث وهو الأعظم (لأنّ القلعة الحصينة لا تهزم إلّا من داخلها) كان هو خطر حزب النفاق الّذي كان يعمل بين صفوف المسلمين كالطابور الخامس، على تقويض دعائم الكيان الإسلامي من الداخل، إلى درجة أنّهم قصدوا اغتيال رسول اللّهﷺ في طريق العودة من تبوك إلى المدينة.

فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخَطِر يقول في نفسه: إنّ

الحركة الاسلامية سينتهي أمرها بموت رسول الله ﷺ ورحيله، وبذلك يستريح الجميع[١] .

ولقد قام أبو سفيان بن حرب بعد وفاة رسول اللّهﷺ بمكيدة مشؤومة لتوجيه ضربة إلى الأُمّة الإسلامية من الداخل، وذلك عندما أتى عليّاًعليه السلام وعرض عليه أن يبايعه ضدّ مَن عُيِّن في السقيفة، ليستطيع بذلك شطر الأُمّة الإسلامية الواحدة إلى شطرين متحاربين متقاتلين، فيتمكّن حينها من الصيد في الماء العكر .

ولكنّ الإمام عليّاًعليه السلام أدرك بذكائه نوايا أبي سفيان الخبيثة، فرفض مطلبه وقال له كاشفاً عن دوافعه ونواياه الشرّيرة:

«واللّه ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنّك واللّه طالما بغيت للإسلام شرّاً. لاحاجه لنا في نصيحتك» ومع أنّ الإمام ردّه خائباً، لكنّه استمرّ في فتنته لشقّ عصا الأُمّة فأخذ يتردّد في أزقّة المدينة منادياً:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرّة أو عدي
فما الأمر إلّا فيكم وإليكم وليس لها إلّا أبو حسن علي[٢]

ولقد بلغ دور المنافقين الهدّام من الشدة بحيث تعرّض القرآن الكريم لذكرهم في سور عديدة هي: سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والعنكبوت، والأحزاب، ومحمّد، والفتح، والمجادلة، والحديد، والمنافقون، والحشر .

---

١. لاحظ الطور: ٣٠.

٢. الكامل في التاريخ: ٢ / ٣٢٥؛ العقد الفريد: ٢ / ٢٤٩.

فهل مع وجود مثل هؤلاء الأعداء الأقوياء الذين كانوا يتربّصون بالإسلام الدوائر، ويتحيّنون الفرص للقضاء عليه، يصحّ أن يترك رسول اللّهﷺ أُمّته الحديثة العهد بالإسلام، الجديدة التأسيس من دون أن يعيّن لهم قائداً دينياً سياسياً؟

إنّ المعطيات الاجتماعية توحي بأنّه كان من الواجب أن يدفع رسول الإسلام ـ بتعيين قائد للأُمّة ـ ظهور أيّ اختلاف وانشقاق فيها من بعده، ويضمّن بذلك استمرار وبقاء الأُمّة الإسلامية وإيجاد حصن قوي وسياج دفاعي متين حولها.

إنّ تحصين الأُمّة وصيانتها من الحوادث المشؤومة والحيلولة دون مطالبة كل فريق الزعامة لنفسه دون غيره وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة، لم يكن متحقّقاً إلّا بتعيين قائد للأُمّة وعدم ترك الأُمور للأقدار .

إنّ هذه المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحّة نظرية «التنصيص على القائد بعد الرسول» ولعلّ لهذه الجهة ولجهات أُخرىٰ طرح الرسول مسألة الخلافة في بدء الدعوة واستمر بذلك إلى آخر ساعة من عمره الشريف كما ستوافيك نصوصها.

***

ثمّ إنّي بعدما حرّرت ذلك في سالف الأيّام وأوردته في بعض محاضراتي الكلامية[1] وقفت على تقرير للمحقّق الشهيد السيد محمد باقر الصدر المغفور له فقد بيّن متطلّبات الظروف في تقديمه لكتاب «تاريخ الشيعة» للدكتور عبداللّه

١. الإلهيات: ٢ / ٥٥٤ ـ ٥٨٤، لولدنا الروحي الفاضل الشيخ حسن مكّي العاملي ـ حفظه اللّه ـ.

فياض بنحو آخر، وهو تقرير رصين نقتطف منه ما يلي:

كان النبي الأكرم يدرك منذ فترةٍ أنّ أجله قد دنا، وأعلن ذلك بوضوح في حجّة الوداع ولم يفاجئه الموت مفاجأة، وهذا يعني أنّه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة، وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أنّه كانت أمام النبي ثلاثة طرق بالإمكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة:

الطريق الأوّل: أن يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الأُمّة وتوجيهها فترة حياته ويترك مستقبلها للظروف والصدف، وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبيﷺ، لأنّها انّما تنشأ من أحد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه :

١- «الاعتقاد بأنّ هذه السلبية والإهمال لا تؤثّر على مستقبل الدعوة، وأنّ الأُمّة قادرة على التصرّف بالشكل الّذي يحمي الدعوة، ويضمن عدم الانحراف».

وهذا الاعتقاد لا مبرّر له من الواقع إطلاقاً، لأنّ الدعوة الإسلامية بما أنّها كانت تغييراً انقلابياً في بدايته، تستهدف بناء أُمّة، واستئصال كل جذور الجاهلية منها، تتعرّض لأكبر الأخطار إذا خلت الساحة من قائدها، وتركها دون أي تخطيط. فهناك الأخطار تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط سابق، فإنّ الرسول إذا ترك الساحة دون تخطيط لمصير الدعوة، فسوف تواجه الأُمّة لأوّل مرّة، مسؤولية التصرّف بدون قائدها، تجاه مشاكل الدعوة، وهي لا تملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد. وسوف يتطلّب منها الموقف تصرّفاً سريعاً آنيّاً بالرغم من خطورة المشكلة، لأنّ الفراغ لا يمكن أن يستمر .

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي شيئاً يمكن أن يخفى على أي قائد مُمارس للعمل العقائدي فضلاً عن خاتم الأنبياء .

٢- الّذي يمكن أن يفسّر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومسيرها بعد وفاته، أنّه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضدّ ذلك الخطر، لأنّه ينظر إلى الدعوة نظرة مصلحيّة، فلا يهمّه إلّا أن يحافظ عليها مادام حيّاً ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها ولا يعني بحماية مستقبلها بعد وفاته.

وهذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي حتّى لولم نلاحظه بوصفه نبيّاً ومرتبطاً باللّه سبحانه وتعالى في كل ما يرتبط بالرسالة، وافترضناه قائداً رسالياً كقادة الرسالات الأُخرى، لأنّ تاريخ القادة الرساليّين لا يملك نظيراً للقائد الرسول، في إخلاصه لدعوته، وتفانيه فيها، وتضحيته من أجلها إلى آخر لحظة من حياته، وكلّ تاريخه يبرهن على ذلك.

الطريق الثاني: أن يخطّط الرسول القائد لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتّخذ موقفاً إيجابياً فيجعل القيمومة على الدعوة ممثّلة على أساس نظام الشورىٰ الّذي يضم مجموع المهاجرين والأنصار، فهذا الجيل الممثّل للأُمّة هو الّذي سيكون قاعدة للحكم ومحوراً لقيادة الدعوة في خط نُمُوّها. وفيما يلي ما يرد تلك الفكرة:

١- لو كان النبي قد اتّخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً إيجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته مباشرة، وإسناد زعامة الدعوة إلى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام، لكان من أبده الأشياء الّتي يتطلّبها هذا الموقف الإيجابي، أن يقوم الرسول القائد بعملية توعية للأُمّة والدعاة، على نظام

الشورى وحدوده وتفاصيله وإعطائه طابعاً دينياً مقدّساً، وإعداد المجتمع الإسلامي إعداداً فكريّاً وروحيّاً لتقبّل هذا النظام، وهو مجتمع نشأ من مجموعة من العشائر لم تكن قد عاشت قبل الإسلام وضعاً سياسياً على أساس الشورى وانّما كانت تعيش في الغالب وضع زعامات قبليّة وعشائريّة تتحكّم فيها القوّة والثروة وعامل الوراثة إلى حدّ كبير.

فإنّ الإسلام إذا كان أرسى نظام الحكم على أساس الشورى وجعله طريقاً لتعيين الحاكم بحيث تكون هي مبدأ الولاية والحاكمية؛ فإنّ من الطبيعي بل والضروري ان يقوم الإسلام بتوعية الأُمّة، وإيقافها ـ بصورة واسعة ـ على حدود الشورى وتفاصيلها وخطوطها العريضة حتّى لا تتحيّر الأُمّة وتختلف في أمرها، ولكنّنا رغم هذه الأهمية القصوى لا نجد لهذه التوعية الضرورية أي أثر في الكتاب والسنّة في مجال انتخاب الحاكم.

ثمّ إنّه (ﷺ) استشهد بفعل الخليفة الأوّل حيث لم يمارس نظام الشورىٰ في حال حياته وقام بتنصيب عمر مكانه، كما فعل ذلك أيضاً الخليفة الثاني في نطاق خاص فجعله محصوراً في ستّة أشخاص، وسيوافيك تفصيل ذلك في الفصل الثاني .

الطريق الثالث: وهو الطريق الوحيد الّذي بقىٰ منسجماً مع طبيعة الأشياء ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبيّ. وهو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً إيجابياً، فيختار بأمر من اللّه سبحانه وتعالى شخصاً يرشّحه عمق وجوده فيكيان الدعوة، فيعدّه إعداداً رسالياً وقيادياً خاصّاً تتمثّل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية، وليواصل بعده (بمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والأنصار)، قيادة الأُمّة

وبناءها عقائدياً وتقريبها باستمرار نحو المستوى الّذي يؤهّلها لتحمّل المسؤوليات القيادية.

وهكذا نجد أنّ هذا هو الطريق الوحيد الّذي كان بالإمكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة الحكم من الانحراف في خط نموّها وهكذا كان.[١]

وعلى ذلك فالقول بالتشيّع عبارة عن القول بوجود ضمان لاستمرار الدعوة بتعيين الوصيّ من جانب الرسول بأمر من اللّه، وقد عرفت أنّ طبيعة الظروف في عصر الرسول كانت تقتضي ذلك على الوجه الكلّي، أي كان يتطلّب تعيين القائد وأن لا يترك الأمر إلى الأُمّة، وعدم إهماله وتركه للصدف، وستعرف في الفصل الثالث أنّه قد صدّق الخبرُ الخبرَ، وأنّ الرسول قد قام بتلك الوظيفة الّتي تضمن استمرار الدعوة وسلك هذا الطريق سلوكاً واضحاً .

* * *

وهناك بيان ثالث يعطي نفس ما أعطاه الوجهان، وهو دراسة طبيعة الحكم من زاوية طروء الفراغ الهائل بعد رحلة الرسول فيما يمت إلى صلب الدين وهداية الأُمّة إلى الحق والحقيقة:

لقد درسنا متطلّبات الظروف ومقتضيات عصر النبي في مجال القيادة وإدارة دفّة الحكم ووصلنا إلى أنّ مصالح المسلمين كانت تكمن في تعيين القائد دفعاً للأخطار المحدقة بالإسلام والمسلمين بوفاة النبيّ، ومفاجأة الأُمّة بفراغ مكانه القيادي.

---

١. مقدّمة تاريخ الإمامية: ٥ ـ ١٦ بتلخيص .

ويمكن لنا دراسة طبيعة الحكم من زاوية أُخرى وهي ملاحظة الفراغات الهائلة الحاصلة بعد رحلة القائد، لا من جهة القيادة السياسية والاجتماعية، بل في جانب حاجة الأُمّة إلى قائد رسالي يسد تلك الفراغات المعنوية فيما يمت إلى صلب الدين وأمر هداية الأُمّة في مجال تفسير الكتاب وشرح مقاصده أوّلاً، وتبيين ما لم يبيّنه الرسول في مجال الأحكام ثانياً، وصيانة الدين الحنيف من محاولات التحريف ثالثاً فالأُمّة تواجه وتفاجئ هذه الفراغات الثلاثة، فمن الّذي يسدّها، فهل الأُمّة جميعاً، أو المهاجرون والأنصار، أو أهل الحل والعقد؟ والجواب: لا، لأنّ المفروض ـ كما سيأتي ـ قصورهم عن ملء الفراغ، فما هو الحل لهذا المشكل؟ وهذا هو الّذي يستهدفه هذا البحث. فنقول:

إنّ الرسول الأكرم لم تقتصر مسؤولياته على تلقّي الوحي الإلهي وإبلاغ الآيات النازلة عليه، بل كانت تتجاوز عن ذلك كثيراً، فقد كانت وظائف ثلاث تقع على عاتقه بالإضافة إلى ما يقوم به من سائر الوظائف:

١- كان النبي الأكرم يفسّر الكتاب العزيز ويشرح مقاصده ويبيّن أهدافه ويكشف رموزه وأسراره.

٢- وكان يبيّن أحكام الحوادث الجديدة الطارئة على المجتمع الإسلاميّ عن طريق القرآن الكريم وسنَّته.

٣- وكان يصون الدين من التحريف والدس، فكان وجوده مدار الحق وتميزه عن الباطل، وكانت حياته ضماناً لعدم تطرّق الدس والتحريف إلى دينه.

ولا شك أنّ موت النبيّ وفقدانه سيوجدان فراغات هائلة في المجالات الثلاثة فيجب إعداد قائد له القابلية والصلاحية في سد تلك الفراغات، ولا

يقوم به إلّا من كان يتمتّع بما كان يتمتّع به الرسول عدا خصيصة النبوّة وتلقّي الوحي، فيكون وعاء علم النبي ومخزن أسراره، ومودع حكمه، حتّى يقوم بتلك الوظيفة العظيمة.

ومن الواضح أنّ هذه الكفاءات والمؤهّلات المعنوية لاتحصل لشخص بطريق عادي ولا بالتربية البشرية المتعارفة، بل لابدّ من إعداد إلهي خاص وتربية إلٰهية خاصّة هذا من جانب، ومن جانب آخر لا يمكن للأُمّة أن تتعرّف بنفسها على هذا الشخص وتكتشف من تتوفّر فيه تلك المؤهّلات والكفاءات بالطرق العادية.

كلّ ذلك يثبت نظرية التنصيص وأنّه لا محيص عن تعيين القائد بتنصيص الرسول بأمر من اللّه سبحانه، أي تنصيب من يتّصف بتلك الكفاءات الّتي لا يكتسبها إلّا من تربّى في حضن الرسالة والرسول. وإليك تفاصيل هذه الفراغات، ونكتفي في كلّ مورد بموجز القول:

١- القرآن الكريم والابهامات الطارئة:

إنّ اللّه سبحانه يصف القرآن بأنّه نزل إلى النبيّ ليبيّن للناس ما نزل إليهم فيقول: ﴿**وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ**﴾[١] وقال: ﴿**وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾[٢] فقد وصف النبي في هاتين الآيتين بأنّه مبيّن لما في الكتاب لا قارئ فقط، فكم فرق بين أن يقول: «لتقرأ للناس» وبين: ﴿**لتبيّن لهم**﴾ .

١. النحل: ٤٤.
٢. النحل: ٦٤.

إنّ هذه الآيات تكشف لنا عن أنّ القرآن رغم وضوحه من حيث اللفظ والمعنى ورغم أنّه منزّه عن مشابهة كتب الألغاز والطلاسم، يحتاج إلى مبيّن ومفسّر لسببين:

١- وجود المجملات في أحكام العبادات والمعاملات الواردة في آياته .

٢- غياب القرائن الحالية الّتي كانت الآيات محفوفة بها حين النزول، وكانت معلومة للمخاطبين في ذلك الوقت .

وقد كان النبيّ بنفسه يقوم بتفسير القرآن الكريم وتبيين مجمله وتقييد مطلقه وما أشبه ذلك. وكانت القرائن الحالية معلومة وواضحة لدى الأصحاب. ولمّا ارتحل النبيّ الأكرم إلى الرفيق الأعلى وحصل الفصل الطويل بينه وبين أُمّته، حدث هناك فراغ هائل في تفسير القرآن فلاترى آية من الآيات إلّا وفي تفسيرها آراء متضاربة إلى حدّ اختلفوا في تفسير الآيات الّتي تتعلّق بأعمالهم اليومية:

١- قال سبحانه في آية الوضوء: ﴿**فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلى المَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ**﴾ [1] وقد تضاربت الآراء في فهم هذه الآية وصارت الأُمّة إلى قولين: فمن عاطف لفظ «**أَرجلكم**» على الرؤوس فيحكم على الأرجل بالمسح، ومن عاطف له على الأيدي فيحكم على الأرجل بالغسل .

ومن المعلوم أنّ إعراب القرآن الكريم إنّما حدث بعد النبيﷺ، فأيّ الرأيين هو الصحيح؟

---

١. المائدة: ٦.

٢- لقد حكم اللّه تعالى على السارق والسارقة بقطع الأيدي حيث قال: ﴿**وَالسَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾[١]، وقد اختلفت الأُمّة في مقدار القطع وموضعه: فمن قائل إنّ القطع من أُصول الأصابع دون الكف وترك الإبهام كما عليه الإمامية، وجماعة من السلف؛ ومن قائل إنّ القطع من الكوع، وهو المفصل بين الكف والذراع، كما عليه أبو حنيفة ومالك والشافعي؛ ومن قائل إنّ القطع من المنكب كما عليه الخوارج.[٢]

٣- سئل أبوبكر عن الكلالة في قوله تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾[٣] فقال: إنّي سأقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن اللّه، وإن يكن خطأً فمنّي ومن الشيطان، واللّه ورسوله بريئان، أراه ما خلا الولد والوالد. فلمّا استخلف عمر قال: إنّي لأستحيي اللّهَ أن أردّ شيئاً قاله أبوبكر.

٤- أمر اللّه سبحانه الورثة بإعطاء السدس للكلالة في قوله سبحانه: ﴿**وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ**﴾[٤] وفي الوقت نفسه يحكم سبحانه بإعطاء الكلالة النصف أو الثلثين كما قال: ﴿**إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا**

---

١. المائدة: ٣٨.

٢. راجع الخلاف للطوسي (كتاب السرقة) ١٨٤.ونقل الجصاص في أحكام القرآن: ٤٢١: عن أبي هريرة انّ رسول اللّه قطع يد سارق من الكوع. ونقل ابن قدامة الخلاف إذا سرق ثانياً: فعن عطاء وربيعة وداود أنّه تقطع يده اليسرى، وعن الآخرين: تقطع رجله اليسرى. المغني: ١٠ / ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

٣. النساء: ١٧٦.

٤. النساء: ١٢.

إِن لَمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمّا تَرَكَ﴾[١] .

فما هو الحل وكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟ لا شك انّه لم يكن ثمّة إبهام في مورد هاتين الآيتين، بل حدث الإبهام في ذلك فيما بعد .

ألا يدلّ هذا على ضرورة من يخلف النبي حتّى يرفع الستار عن وجه الحقّ بما عنده من علوم مستودعة .

٢- الرسالة الإسلامية والحوادث المستجدّة:

إنّ اتّساع رقعة الدولة الإسلامية ومخالطة المسلمين للشعوب والأقوام المختلفة جعلهم أمام موضوعات مستجدّة ومسائل مستحدثة، لم تكن معهودة ولا معروفة في عهد النبي الأكرم الّذي لم تكن فيه الدولة الإسلامية قد توسّعت كما توسّعت بعد وفاته، والتحاقه بالرفيق الأعلى .

وكان من الأمر المشكل أن يتحدّث النبي عن أحكام موضوعات لم يعرف المسلمون شيئاً من ماهياتها وتفصيلاتها، ولم يشاهدوا لها نظيراً في حياتهم، ولأجل ذلك كانوا يجهلون أحكام الموضوعات المستجدّة من دون أن يجدوا لها حلولاً وأجوبة، هذا من جانب .

ومن جانب آخر أنّ الأحاديث الّتي رواها الصحابة والتابعون عن النبي الأكرم في مجال الأحكام لاتتجاوز عن خمسمائة حديث.[٢] حتّى قال الإمام الرازي: إنّ المنصوص حكمه من الموضوعات قليل جدّاً.[٣] ولنذكر للموضوع نماذج:

---

١. النساء: ١٧٦. ٢. الوحي المحمدي: ٢١٢.
٣. تفسير المنار: ٥ / ١٨٩.

١. شغلت مسألة العول بال الصحابة فترة من الزمن وكانت من المسائل المستجدّة بعد الرسول الّتي واجهها جهاز الحكم، ويعني منه قصور التركة عن سهام ذوي الفروض. مثال ذلك: إذا ترك الميّت زوجة وأبوين وبنتين، ولمّا كان سهم الزوجة ـ حسب نص القرآن ـ الثمن وفرض الأبوين الثلث، وفرض البنتين الثلثين، والتركة لا تسع للثمن والثلث والثلثين، فلمّا عرضت المسألة على عمر ابن الخطاب قال: واللّه ما أدري أيّكم قدّم اللّه وأيّكم أخّر، ما أجد شيئاً هو أوسع لي من أن أُقسّم المال عليكم بالحصص، وأدخل على كلّ ذي حقّ ما أدخل عليه من عول الفريضة.(١)

٢. رجل طلّق امرأته قبل الإسلام مرّتين وفي الإسلام مرّة فهل تحرم عليه أو لا؟ فقال عمر بن الخطاب للسائل: لا آمرك ولا أنهاك، وقال عبدالرحمن بن عمر: ولكنّي آمرك ليس طلاقك قبل الإسلام بشيء.(٢)

٣. إنّ الجيل المعاصر للرسول لم يكن يملك تصوّرات واضحة محدّدة حتّى في مجال القضايا الدينية الّتي كان يمارسها النبي مئات المرّات وعلى مرأى ومسمع من الصحابة، ونذكر على سبيل المثال لذلك، الصلاة على الميّت، فإنّها عبادة، كان النبي قد مارسها عادة مئات المرّات وأدّاها في مشهد عام من المشيّعين والمصلّين، وبالرغم من ذلك يبدو أنّ الصحابة كانوا لا يجدون ضرورة لضبط صورة هذه العبادة مادام النبي يؤدّيها ومادامو يتابعون فيها النبي فصلاً بعد فصل، ولهذا وقع الاختلاف بينهم بعد وفاة النبي في عدد التكبيرات في صلاة الميّت، فقد أخرج الطحاوي عن إبراهيم قال: قبض رسول اللّه والناس

١. أحكام القرآن: ٢ / ١٠٩؛ مستدرك الحاكم: ٤ / ٣٤٠.
٢. كنز العمال: ٥ / ١٦١.

مختلفون في التكبير على الجنازة لا تشاء أن تسمع رجلاً يقول: سمعت رسول اللّهﷺ يكبّر سبعاً، وآخر يقول: سمعت رسول اللّه يكبّر خمساً، وآخر يقول: سمعت رسول اللّه يكبّر أربعاً، فاختلفوا في ذلك حتّى قبض أبوبكر، فلمّا ولّي عمر ورأى اختلاف الناس في ذلك شقّ عليه جدّاً، فأرسل إلى رجال من أصحاب رسول اللّه، فقال: إنّكم معاشر أصحاب رسول اللّه متى تختلفون على الناس يختلفون من بعدكم، ومتى تجتمعون على أمر يجتمع الناس عليه فانظروا أمراً تجتمعون عليه، فكأنّما أيقظهم، فقالوا: نعم ما رأيت يا أميرالمؤمنين الخ.[١]

ولأجل هذا القصورترى أنّ الخلفاء ومن بعدهم تمسّكوا بمقاييس لا تمت إلى الكتاب والسنّة، فروى ميمون بن مهران انّه: إذا ورد الخصم على أبي بكر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، فإن أعياه سأل المسلمين، فإن أعياه أن يجد فيه سنّة عن رسول الله، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، وإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به [٢]

فقد لمس الخليفة أنّ الكتاب والسنّة النبوية غير وافيين بالحاجات الفقهية، ولهذا كان يعمد إلى الأخذ بالرأي والمقاييس المصطنعة لاستنباط حكم الموضوع.

فهذه تكشف بوضوح عن أنّ الصحابة يواجهون وقائع وحوادث جديدة لا يجدون لها حلولاً في الكتاب والسنّة أو فيما تلقّوه من النبيﷺ ولذلك كانوا يحاولون استنباط قواعد ومقاييس لاتستند على أيّ دليل، فهل يصحّ هذا؟ مع

---

١. عمدة القارئ: ٤ / ١٢٩؛ ولاحظ مقدّمة السيد الشهيد محمد باقر الصدر على كتاب «تاريخ الإمامية»، للدكتور عبداللّه فيّاض.

٢. دائرة المعارف لفريد وجدي: ٣ / ٢١٢ (مادة جهد).

أنّه سبحانه يصرّح بأنّه أكمل دينه، وأتمّ نعمته فكيف يجتمع هذا الفراغ الفقهي في المسائل المستجدّة مع الإكمال؟

٣- المسلمون وصيانة الدين من التحريف:

إنّ أبرز ما كان يتمتّع به المسلمون في عصر الرسول هو صيانة الدين من الدسّ والتحريف، وهو الخطر الّذي تعرّضت له جميع الشرائع السالفة، قال سبحانه: ﴿**مِنَ الَّذِيَنَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِه**﴾[١] .

إنّ الأُمّة الإسلامية قد وصلت عند رحلة الرسول بفضل جهود صاحب الدعوة إلى درجة مرموقة من الوعي حفظت كتابها عن محاولات الزيادة والنقصان، نرى أنّ الصحابي الجليل أُبي بن كعب له موقف عظيم من عثمان في كيفيّة كتابة آية الكنز ـ أعني قوله: ﴿**وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**﴾[٢] ـ فإنّ عثمان أراد إثبات الآية في المصحف بلا واو فقال أُبي: «لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفي على عاتقي»، فألحقوها.[٣]

ومع هذه المقدرة لم تستطع حفظ مفاهيمه وصيانة دينها عن الدس والتحريف، فتفرّقت إلى مشبّهة تتخيّل أنّ لربّها أعضاءً كأعضاء الإنسان، إلى جبري يرىٰ الإنسان مسيّراً لامخيّراً، ويصوّر بعث الأنبياء أمراً لاجدوى فيه، إلى مرجئة لا ترىٰ للعمل قيمة وتعطي للإيمان تمام القيمة، إلى ناصبيّ ينصب العداء

١. النساء: ٤٦. ٢. التوبة: ٣٤.
٣. الدر المنثور: ٣ / ٢٣٢.

للعترة الطاهرة، إلى إلى...، حتّى تفرّقت أُمّة النبي الأكرم كتفرّق الأُمم السالفة، وهذا دليل واضح على أنّ الأُمّة الإسلامية ما بلغت يومذاك في الكفاءة والمقدرة العلمية إلى المستوىٰ الّذي يؤهّلها لحفظ الإسلام أصله ولبّه، وقد مرّ في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة أنّ الوضّاعين والدجّالين من الأحبار والرهبان، والمغترّين بهم دسّوا بين المسلمين أحاديث موضوعة وإسرائيليات ومسيحيات ومجوسيات كثيرة، ولقد عرفت الموضوعات الهائلة في عصر البخاري وشيوخه وتلاميذه، حتّى أنّه أخرج صحيحه من ستمائة ألف حديث.[١]

جاء في مسند أحمد ثلاثون ألف حديث وقد انتخبها من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وكان يحفظ ألف ألف حديث.[٢]

نحن نفترض أنّ متوسّط عدد الكلمات في الحديث عشرون كلمة فيكون مجموع ما صدر عن النبيﷺ عشرين مليون كلمة في هذه الفترة القصيرة أي العشرة أعوام بالإضافة إلى ما كان لديه من أعمال ووظائف، وحروب وغزوات، واتفاقيات مع شيوخ القبائل، وارتياد إلى الأرياف، وتسيير دفّة الحكم، فهل كان بإمكانه أن يتكلّم بهذا العدد من الكلمات، سبحان اللّه، ما أجرأهم على البهتان! ولو رجعت أنت إلى قائمة الموضوعات والمقلوبات الّتي عرضناها لك في الجزء الأوّل[٣]، لجزمت بعدم كفاءة الأُمّة لصيانة الدين من الدس والتحريف.

هذه هي الفراغات الحاصلة بعد وفاة النبي الأكرم، فمقتضى الحكمة

---

١. الهدى الساري، مقدّمة فتح الباري: ٥٤.
٢. طبقات الذهبي: ٩ / ١٧.
٣. الجزء الأوّل من هذه الموسوعة: ٧٤.

وتجسيد إكمال الدين الّذي جاء به الكتاب الكريم في قوله: ﴿**اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً**﴾[1] أن تعالج هذه المشاكل أي تفسير الكتاب العزيز برفع الستار والإبهامات الطارئة على مفاهيمه، والإجابة على المسائل المستجدّة، والدفاع عن حمىٰ الشريعة ولاتحل عقدة المشكلة ولا تسدّ تلك الفراغات إلّا بإمام تمتّع بتربية إلٰهية، وإعداد غيبي، ولا تصل إليه الأُمّة إلّا بتعيين الرسول أو بتعيين من عيّنه كما في الأئمة الباقين، فعندئذ يتجسّد قوله سبحانه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمِتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ وإلّا لبقيت تلك الفراغات الهائلة وجرّت على الأُمّة الويل والويلات كما جرّتها ـ وللأسف ـ لأجل إعراض الأُمّة عن الإمام المنصوب .

هذا هو الّذي نفهمه من معنى الإمام وهو ميزان الحق والباطل وأنّه يرجع إليه في التعرّف على الصحيح والزائف.

وأمّا إذا كان الرجل على حدّ يقول: ولّيتكم ولست بخيركم فإن استقمت فأعينوني وإن زِغْت فقوّموني، فلا يصلح أن يكون إماماً بل يكون مأموماً، فتصبح الرعية إماماً، والإمام مأموماً، ونعم ما يقول الشاعر الشيعي ابن حماد العبدي:

وقالوا رسول اللّه ما اختار بعده ... إماماً ولكنّا لأنفسنا اخترنا

أقمنا إماماً إن أقام على الهدى ... أطعنا وإن ضلّ الهداية قوَّمنا

فقلنا إذا أنتم إمام إمامكم ... بحمد من الرحمٰن تُهْتم وما تُهْنٰا

---

١. المائدة: ٣.

ولكـنّنا اخـترنا الّـذي اخـتار ربّـنا لنا يوم خم مـا اعـتدينا ولا جُـرنا

وهناك كلمة قيّمة للفيلسوف ابن سينا تشير إلى فائدة تنصيب الإمام فيقول: «ثمّ إنّ هذا الشخص الّذي هو النبي ليس ممّا يتكرّر وجود مثله في كل وقت، فإنّ المادّة الّتي تقبل كمال مثله يقع في قليل من الأمزجة، فيجب لا محالة أن يكون النبي قد دبّر لبقاء ما يسنّه ويشرّعه في أُمور المصالح الإنسانية تدبيراً عظيماً[١] ـ إلى أن قال: ـ والاستخلاف بالنص أصوب، فإنّ ذلك لا يؤدّي إلى التشعّب[٢] والتشاغب والاختلاف»[٣] .

إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة: انّ مصالح الإسلام والمسلمين كـانت تكـمن فـي تـعيين الإمام، لا تفويض الأمر إلى الأُمّة، وترك الأمر للظروف والصدف لترسيه على أي شاطئ تختاره .

١. إشارة إلى سدّ الفراغات الحاصلة بعد وفاته .
٢. إشارة إلى أنّ مصالح الإسلام تكمن في النص .
٣. الشفاء: ٢ / ٥٥٨ ـ ٥٦٤ (الفن الثالث عشر من الإلهيات، الفصل الثالث والخامس) .

الفصل الثاني :

ما هو المرتكز في أمر القيادة في ذهن الرسول والأُمّة؟

قد عرفت أنّ مقتضيات الظروف ومتطلّباتها كانت تستدعي تعيين الإمام من جانب الرسول، كما أنّ كمال الدين في أبعاده الثلاثة المختلفة المذكورة آنفاً تستدعي ذلك أيضاً، فهلمّ معي ندخل في الموضوع الثاني الّذي ألمحنا إليه في بداية البحث ضمن الأُمور الّتي لا مناص للمحقّق إلّا دراستها، وهو تبيين المرتكز في الأذهان في أمر الزعامة يوم بعث الرسول وبعده.

إنّ النصوص التاريخية تشهد بأنّ الرسول الأكرم خيّب آمال الطامحين في تولّي الخلافة من بعده وقال بأنّه بيداللّه، يعني لابيدي ولا بيد الناس، ويكفي في ذلك ما نتلوه:

١- لمّا عرض الرسولﷺ نفسه على بني عامر في موسم الحج ودعاهم إلى الإسلام قال له كبيرهم: «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثمّ أظهرك اللّه على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟» فقال النبي: «الأمر إلى اللّه يضعه حيث يشاء».[1]

---

١. السيرة النبوية: ٢ / ٤٢٤ فلو كان الأمر ملقىً على عاتق الأُمّة فما معنى كون الأمر إلى اللّه؟

ولم يكن ذلك الأمر مختصّاً بالنبي الأكرم، بل الإمعان في تاريخ أصحابه والخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة بعد النبي يدلّ على أنّهم انتهجوا أيضاً نهج تنصيب الخليفة، لا تفويض أمره إلى الأُمّة. فلو أغمضنا النظر عن خلافة أبي بكر وما جرىٰ حولها من لغط وشغب، وضرب وشتم وإرعاب وإرهاب وغير ذلك من الأُمور الّتي تجعلها بعيدة كل البعد عن الشورى والانتخاب النزيه، فلنا في انتخاب الخليفتين الآخرين دليل واضح على أنّ المتصوّر من الخلافة عندهم هو تعيين الخليفة شخصاً لا تفويض أمر انتخابه للظروف والأُمّة .

٢- قال ابن قتيبة: دعا أبوبكر عثمان بن عفّان فقال: اكتب عهدي، فكتب عثمان وأملى عليه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبوبكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها و أوّل عهده بالآخر داخلاً فيها، انّي أستخلف علكيم عمر بن الخطاب....[١]

ويظهر من ابن الأثير في كامله أنّه غشي على الخليفة أثناء الإملاء وانّما أكمله عثمان وكتب فيه استخلاف عمر من عند نفسه، ثم أفاق أبوبكر فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه فكبّر أبوبكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن متّ في غشيتي.[٢]

فهل يمكن للخليفة أن يلتفت إلى الخطر الكامن في ترك الأُمّة دون خليفة، ولا يلتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

٣- وأمّا استخلاف عثمان، فقد اتّفقت كلمة المؤرّخين على أنّ عمر طلب

---

١. الإمامة والسياسة: ١ / ١٨.

٢. الكامل في التاريخ: ٢ / ٢٩٢، الطبقات الكبرىٰ: ٣ / ٢٠٠.

ستة أشخاص من أصحاب النبي وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيداللّه، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبدالرحمن بن عوف، وكان طلحة غائباً.

فقال: يا معشر المهاجرين الأوّلين، انّي نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، فتشاوروا ثلاثة أيّام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك، وإلّا فأعزم عليكم باللّه أن لا تتفرّقوا في اليوم الثالث حتّى تستخلفوا.[١] حتّى قال لصهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيّام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبىٰ واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتّفق أربعة وأبىٰ اثنان فاضرب رؤوسهما... وإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً، فحكّموا عبداللّه بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبداللّه بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع فيه الناس».[٢]

وهناك كلمات صدرت من الصحابة في ثنايا خلافة الخلفاء وبعدهم تعرب عن أنّ الرأي السائد والمرتكز في أذهانهم هو تعيين الخليفة، وانّ مسألة نظام الشورىٰ شعار رفعه معاوية مقابل عليعليه السلام على الرغم من أنّه استخلف عندما مات، ولم يعتدّ بمنطقه وإنّما جرّده سلاحاً على عليّ، وإن كنت في ريب من هذا الأمر نتلو عليك كلماتهم الّتي صدرت عفواً وارتجالاً عند موت الخليفة وارتحاله:

٤- نقل أنّ عمر بن الخطاب لمّا أحسّ بالموت قال لابنه عبداللّه: اذهب إلى عائشة وأقرأها منّي السلام، واستأذن منها أن أُقبر في بيتها مع رسول اللّه ومع

١. الإمامة و السياسة: ١ / ٢٣.
٢. الكامل في التاريخ: ٣ / ٣٥.

أبي بكر، فأتاها عبداللّه بن عمر فأعلمها... فقالت: نعم وكرامة. ثمّ قالت: يا بنيّ أبلغ عمر سلامي فقل له: لا تدع أُمّة محمّد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإنّي أخشى عليهم الفتنة[١]، فأتى عبداللّه (إلى أبيه) فأعلمه.[٢]

٥- نقل الحافظ أبو نعيم الاصفهاني المتوفّى عام ٤٣٠ هـ أنّ عبداللّه بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته فقال: إنّي سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها لك، وزعموا أنّك غير مستخلف، وأنّه لو كان لك راعي إبل ـ أو راعي غنم ـ ثم جاءك وتركها لرأيت أن قد ضيع، فرعاية الناس أشد.[٣]

٦- قدم معاوية المدينة ليأخذ من أهل المدينة البيعة ليزيد، فاجتمع مع عدّة من الصحابة إلى أن أرسل إلى ابن عمر فأتاه و خلا به فكلّمه بكلام وقال: إنّي كرهت أن أدع أُمّة محمّد بعدي كالضأن لاراعي لها.[٤]

هذه النصوص تدلّ بجلاء على أنّ ادّعاء انتخاب الخليفة عن طريق الاستفتاء الشعبي أو بمراجعة أهل الحلّ والعقد، أو اتّفاق الأنصار والمهاجرين لم يكن له أصل ولا ذكر في دراسات المتقدّمين من أعلام التاريخ و كتّاب السيرة وعلماء المسلمين، وسيوافيك الكلام في استخلاف الصحابة بعضهم لبعض.

ولو دلّ هذا الأمر على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الأصل الّذي كان يعتقد به جميع الصحابة والخلفاء في مسألة الخلافة والقيادة كان هو التنصيص والتعيين وعدم ترك الأمر إلىٰ نظر الأُمّة وانتخابها.

---

١. وهل يمكن أن تلتفت أُمّ المؤمنين إلى هذه النكتة ولا يلتفت إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

٢. الإمامة و السياسة: ١ / ٣٢.

٣. حلية الأولياء: ١ / ٤٤.

٤. الإمامة والسياسة: ١ / ١٦٨.

الفصل الثالث :

ماهو مقتضى الكتاب والسنّة في صيغة الخلافة بعد الرسول؟

إنّ مقتضى الكتاب والسنّة في صيغة القيادة بعد الرسول هو التنصيص لا التفويض إلى الأُمّة ولا ترك الأمر إلى الظروف والصدف، فنقدّم الكلام في السنّة فإنّها صريحة في التعيين وأمّا الكتاب فسيأتي البحث عنه.

فنقول: إنّ سيرة النبي الأكرم ونصوصه في مواقف مختلفة تثبت بوضوح أنّهﷺ غرس النواة الأُولى في أمر القيادة منذ أن أصحر بالدعوة وتعاهدها إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

وهذه النصوص من الكثرة والوفرة بحيث إنّه لا يمكن استيعابها ولا ذكر كثير منها، ويكفينا مؤونة ذلك، الموسوعات الحديثية في المناقب والفضائل والمؤلّفات الكلامية في أمر الولاية، ونحن نكتفي بالقليل من الكثير .

١- التنصيص على الخليفة في حديث بدء الدعوة:

بُعث الرسول الأكرم لهداية الناس وإخراجهم من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشرّ إلى الخير، ومن الشقاء إلى السعادة، و كانت الظروف المحدقة به قاسية جدّاً، لأنّه بعث في أُمّة عريقة في الوثنية، ويخاطبهم سبحانه: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْماً**

ما أُنذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[١]، فأخذ بالدعوة سرّاً ونشر دينه خفاءً سنوات عديدة إلى أن نزل قوله سبحانه: ﴿**وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[٢]، فعند ذلك أمر الرسول علي بن أبي طالب وهو شاب يافع يتراوح عمره بين (١٣ إلى ١٥ سنة) أمره رسول اللّه أن يعد طعاماً ولبناً ثم دعا (٤٥) رجلاً من سُراة بني هاشم ووجوههم، وبعد أن فرغوا من الطعام قال رسول اللّه: «إنّ الرائد لا يكذب أهله، واللّه الّذي لا إله إلّا هو إنّي رسول اللّه إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة، واللّه لتموتنّ كما تنامون، و لتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وانّها الجنّة أبداً والنار أبداً ـ ثم قال: – يا بني عبدالمطلب إنّي واللّه ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة، وقد أمرني اللّه عزّوجل أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيّي وخليفتي فيكم» .

ولمّا بلغ النبيﷺ إلى هذا الموضع وقد أمسك القوم وسكتوا عن آخرهم، قام عليعليه السلام فجأة وقال: «أنا يا رسول اللّه أكون وزيرك على ما بعثك اللّه»، فقال له رسول اللّه: اجلس، ثم كرّر دعوته ثانية وثالثة، ففي كلّ مرّة يحجم القوم عن تلبية دعوته ويقوم علي ويعلن استعداده لمؤازرة النبي ويأمره رسول اللّه بالجلوس، حتّى إذا كان في المرّة الثالثة، أخذ رسول اللّه بيده والتفت إلى الحاضرين من عشيرته الأقربين وقال: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».[٣]

---

١. يس: ٦. ٢. الشعراء: ٢١٤.

٣. مسند أحمد: ١ / ١١١، تاريخ الطبري: ٢ / ٦٢ ـ ٦٣، تاريخ الكامل: ٢ / ٤٠ ـ ٤١، إلى غير ذلك من المصادر المتوفّرة يقف عليها من سبر كتب السيرة ـ عند سرد حوادث بدء الدعوة ـ وكتب التفسير في تفسير الآية الآنفة في سورة الشعراء.

نحن لا نُريد أن نحوم حول الرواية ونعرض عن الإشارة إلى ما جنى عليها بعض المؤرّخين والكتّاب الجدد[١] ولكن نذكر نكتة أنّ النبي أعلن وزيره وخليفته ووصيّه يوم أعلن رسالته وكأنّهما فرقدان في سماء الوحي لا يفترقان، وما القيادة بعد النبي إلّا استمراراً لوظائف النبوّة، وإن كانت النبوّة مختومة ولكن الوظائف والمسؤوليات كانتا مستمرّتين.

٢- حديث المنزلة:

روى أصحاب السير والحديث أنّ رسول اللّه خرج إلى غزوة تبوك وخرج الناس معه، فقال له علي: «أخرج معك»؟ فقالﷺ: «لا»، فبكى علي، فقال له رسول اللّه: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، انّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي». أخرجه البخاري في صحيحه.[٢] والاستثناء يدلّ على ثبوت ما لهارون من المناصب لعلي سوى النبوّة وسيأتي توضيحه.

وروى مسلم في صحيحه أنّ إمام الفئة الباغية قال لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: امّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول اللّه فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منها أحبّ إليّ من حمر النعم، سمعت رسول اللّه يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه بعد ما شكا إليه علي بقوله: «يا رسول اللّه خلّفتني مع النساء والصبيان»: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبوّة بعدي» .

---

١. كالدكتور محمد حسين هيكل في حياة النبي، لاحظ محاضراتنا في سيرة النبي، وقد طبعت باسم «سيّد المرسلين»: ١ / ٣٩٤ ـ ٣٩٧.

٢. صحيح البخاري: ٥ / ٢٤، باب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي.

وسمعته يقول يوم خيبر: «لأُعطينّ الراية رجلاً يحبّ اللّه ورسوله، ويحبّه اللّه ورسوله» قال: فتطاولنا لها، فقال: «ادعوا لي عليّاً»، فأُتي به أرمد العين، فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ**﴾ دعا رسول اللّه عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللّهمّ هؤلاء أهلي».[1]

٣- حديث الغدير:

إنّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة رواه الصحابة والتابعون والعلماء في كل عصر وجيل، ولسنا بصدد إثبات تواتره وذكر مصادره فقد قام غير واحد من المحقّقين بهذه المهمّة، وانّما الهدف إيقاف القارئ على نصوص الخلافة في حقّ علي حتّى يقف على أنّ النبي الأعظم هو الباذر الأوّل لبذرة التشيّع والدعوة إلى علي بالإمامة والوصاية، وعلى أنّ مسألة التشيّع قد نشأت قبل رحلته، ونذكر في المقام ما ذكره ابن حجر وقد اعترف بصحّة سنده، يقول: إنّه صلى الله عليه وآله وسلم خطب بغدير خم تحت شجرات، فقال: «أيّها الناس أنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمّر نبي إلّا نصف عمر الّذي يليه من قبله، وانّي لأظن أنّي يوشك أن أُدعىٰ فأُجيب، وانّي مسؤول وانّكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وجهدت ونصحت فجزاك اللّه خيراً، فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلّا اللّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حق، وأنّ ناره حقّ، وأنّ الموت حق، وأنّ البعث حق بعد الموت، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ اللّه يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللّهمّ اشهد» ثمّ قال: «يا أيّها

---

١. صحيح مسلم: ٦ / ١٢٠ ـ ١٢١، باب فضائل علي .

الناس إنّ اللّه مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا ـ يعني عليّاً ـ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه وعاد من عاداه» ثمّ قال: «يا أيّها الناس إنّي فرطكم وانّكم واردون عليّ الحوض، حوض أعرض ممّا بين بصرى إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضّة، وانّي سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب اللّه عزّوجلّ سبب طرفه بيد اللّه وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلّوا ولا تبدّلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنّه نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن ينقضيا حتّى يردا عليّ الحوض».[١]

وأخرجه غير واحد من أئمة الحديث، منهم الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم قال: نزلنا مع رسولﷺ بواد يقال له وادي خم، فأمر بالصلاة فصلّاها بهجير، قال: «فخطبنا وظُلِّل لرسول اللّهﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فقال: «ألستم تعلمون، أو لستم تشهدون، أنّي أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه».[٢]

وأخرجه الحاكم في مناقب علي من مستدركه عن طريق زيد بن أرقم من طريقين صحّحها على شرط الشيخين، قال: لمّا رجع رسول اللّه من حجّة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، فقال: «إنّي دعيت فأجبت، قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب اللّه وعترتي، فانظروا كيف

---

١. الصواعق: ٤٣ ـ ٤٤، وأخرجه من طريق الطبراني وغيره، وحكم بصحّته.

٢. مسند أحمد: ٤ / ٣٧٢، وأخرجه أحمد أيضاً في مسنده من حديث البراء بن عازب من طريقين، لاحظ الجزء الرابع الصفحة ٢٨١.

تخلّفوني فيهما، فانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ـ ثمّ قال: ـ إنّ اللّـه عـزّوجلّ مولاي وأنا مولى كل مؤمن ـ ثمّ أخذ بيد علي فقال: ـ من كنت مولاه فهذا وليّه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه...».[١]

وأخرجه النسائي في خصائصه عن زيد بن أرقم قال: لمّا رجع النبي من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، ثمّ قال: «كأنّي دعيت فأجبت، وإنّي تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب اللّه وأهل بيتي، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، فانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ـ ثمّ قال:ـ إنّ اللّه مولاي وأنا ولي كل مؤمن ـ ثمّ أخذ بيد علي فقال: ـ من كنت وليّه فهذا وليّه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه» قال أبو الطفيل: فقلت لزيد: سمعته مـن رسول اللّهﷺ؟ فقال: وإنّه ما كان في الدوحات أحد إلّا رآه بعينه وسمعه بأُذنه.[٢]

إنّ سؤال أبي الطفيل يعرب عن حقيقة مرّة، وهو أنّه يرى التنافي بين مضمون الحديث وعمل الأُمّة، فإنّ الحديث نصٌّ على ولايته وخلافته والأُمّة صرفتها عن علي، فلأجل ذاك عاد يتعجّب ويسأل، وليس التعجّب مختصّاً به، فهذا هو الكميت يصرّح به في هاشمياته ويقول:

ويوم الدوح دوح غدير خـم أبـان له الخـلافة لو أُطـيعا

ولكــن الرجــال تــبايعوها فلم أر مـثلها خـطراً مـبيعا

---

١. المستدرك: ٣ / ١٠٩، مع أنّ الذهبي في تعليقته على المستدرك يعلّق على مواضع من تصحيحات الحاكم صرّح في هذا المقام بصحّة الحديث.

٢. الخصائص العلوية: ٢١.

ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقّاً أُضيعا[١]

ولو أردنا استقصاء مصادر الحديث ومسانيده ورواته من الصحابة والتابعين والعلماء لأحوجنا ذلك إلى تأليف مفرد، وقد قام بحمداللّه أعلام العصر ومحقّقوه بذلك المجهود.[٢]

والمهم هو دلالة الحديث على الولاية العامّة والخلافة الكبرى لعلي بعد الرسول، ويكفي في ذلك التدبّر في الأُمور التالية:

١- إنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته: «أنا أولى بهم من أنفسهم ـ ثمّ قال: ـ فمن كنت مولاه» وهذا قرينة لفظية على أنّ المراد من المولى هو الأولى، فالمعنى أنّ اللّه أولى بي من نفسي، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن كنت أولى به من نفسه، فعلي أولى به من نفسه. وهذا هو معنى الولاية الكبرى للإمام.

٢- ذيل الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه» وفي بعض الطرق: «وانصر من نصره واخذل من خذله» فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا نصّبه إماماً على الأُمّة بعده، كان يعلم أنّ تطبيق هذا الأمر رهن توفّر الجنود والأعوان وطاعة أصحاب الولايات والعمّال، مع علمه بأنّ في الملأ من يحسده، وفيهم من يحقد عليه، وفي زمرة المنافقين من يضمر له العداء، فعاد يدعو لمن والاه ونصره، وعلى من عاداه وخذله، ليتمّ أمر الخلافة، ولِيُعْلم الناس أنّ موالاته موالاة للّه وأنّ عداءه عداؤه.

---

١. الهاشميات طبعت غير مرّة، وشرحها غير واحد من أُدباء العصر، كالرافعي المصريّ، والأُستاذ محمد شاكر الخياط، وقد دبَّ إليها الدس والتحريف. لاحظ الغدير: ٢ / ١٨١.

٢. العبقات للسيد مير حامد حسين (المتوفّى ١٣٠٦ هـ)، والغدير للعلّامة الفذ عبدالحسين الأميني (المتوفّى ١٣٩٠ هـ)، وكلاهما من حسنات الدهر.

والحاصل: أنّ هذا الدعاء لا يناسب إلّا من نصب زعيماً للإمامة والخلافة.

٣- إنّه ﷺ أصدر كلامه بأخذ الشهادة من الحضّار بأن لا إله إلّا اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه، ثمّ قال: إنّ اللّه مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فقال: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه» .

٤- إنّه ﷺ ذكر قبل بيان الولاية قوله: «كأنّي دعيت فأجبت» أو ما يقرب من ذلك، وهو يعرب أنّه ﷺ لم يبق من عمره إلّا قليل يحاذر أن يدركه الأجل، فأراد سد الفراغ الحاصل بموته ورحلته بتنصيب عليّ إماماً وقائداً من بعده .

هذه القرائن وغيرها الموجودة في كلامه، توجب اليقين بأنّ الهدف من هذا النبأ في ذلك المحتشد العظيم ليس إلّا إكمال الدين وإتمام النعمة من خلال ما أعلن عنه ﷺ انّ علياً قائد وإمام الأُمّة، ومن أراد التوسّع في الاطّلاع على هذه القرائن فليرجع إلى الأثر القيّم «الغدير».[١]

إنّ مَن درس مضمون حديث الغدير وما حوله من القرائن يقف على أنّ المراد منه هو نصب علي للإمامة والخلافة، وهذا هو الّذي فهمه الحضّار من المهاجرين والأنصار في ذلك المحفل كما فهمه من بلغه النبأ بعد حين ممّن يُحتجّ بقوله في اللغة، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء ورجال الأدب إلى العصر الحاضر، وهذا هو حسّان بن ثابت الحاضر مشهد الغدير وقد استأذن رسول اللّه أن ينظم الحديث في أبيات منها قوله:

وقال له قم يا علي فانّني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا[٢]

١. الغدير: ١ / ٣٧٠، وقد ذكر هناك ما يقرب من عشرين قرينة على ما هو المراد من الحديث .

٢. رواه غير واحد من حفّاظ الفريقين، لاحظ الغدير: ٢ / ٣٥ ـ ٣٧.

حتّى أنّ عمرو بن العاص الّذي لا يخفى عداؤه لعلي على أحد يقول في قصيدته الّتي أرسلها إلى معاوية شاكياً إيّاه:

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصّصة في علي
وفي يوم خم رقى منبراً ... وبلّغ والصحب لم ترحل
فأمنحه إمرة المؤمنين ... من اللّه مستخلف المنحل
وفي كفّه كفّه معلناً ... ينادي بأمر العزيز العلي
وقال: فمن كنت مولى له ... علي له اليوم نعم الولي[1]

شبهتان واهيتان:

وقد توالى فهم الأُدباء والعلماء على ذلك في طيّات القرون عبر النظم والنثر.

غير أنّ هناك لفيفاً من الناس ممّن يعاند الحقيقة ولا يرضى بقبولها، أبدئ شبهتين ضعيفتين نذكرهما على وجه الإجمال:

الشبهة الأُولى:

إنّ المولى يراد به معان مختلفة فمنها،المحبّ والناصر، فمن أين علم أنّ المراد بها المتولّي والمالك للأمر والأولى بالتصرّف؟

يلاحظ عليه: أنّ لفظ المولى ليس له إلّا معنى واحد وهو: الأولى. قال

١. والقصيدة تربو على ٦٦ بيتاً، نقل قسماً منها ابن أبي الحديد في شرحه: ١٠ / ٥٦ـ ٥٧، ونقلها برمّتها الأميني في الغدير: ٢ / ١١٥ـ ١١٧.

سبحانه: ﴿**فَالْيَوْمَ لا يُؤخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئسَ المَصير**﴾[1]، وقد فسّره غير واحد من المفسّرين بأنّ المراد أنّ النار أولى بكم، غير أنّ الّذي يجب التركيز عليه هو أنّ الأُولى هو المعنى الوحيد للمولى، وانّ كلّما ذكر من المعاني المختلفة له إنّما هي من موارد استعماله ومتعلّقاته، فقد ذكروا له من المعاني سبعة وعشرين معنى، خلطوا فيها المتعلّق بالمعنى، ومورد الاستعمال بالموضوع له، فقد قيل إنّ من معانيه الرب، والعم، والمعتق، والعبد، والمالك، والتابع، والمحب، والناصر وكلّها متعلّقات للمعنى، وليس له إلّا معنى واحد وهو الجامع لهاتيك المعاني جمعاء، ومأخوذ في كل منها بنوع من العناية، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلّا بمناسبة.

١- فالربّ سبحانه هو أولى بخلقه من أي قاهر عليهم، خلق العالمين كما شاءت حكمته يتصرّف فيه بمشيئته.

٢- والعم أولى الناس بكلاءة ابن أخيه والعطف عليه وهو القائم مقام والده الّذي كان أولى به.

٣- و«المعتِق» أولى بالتفضّل على من أعتقه، كما أنّ المعتق أولى بأن يعرف جميل من أعتقه عليه .

۴- والمالك أولى بالتصرّف في ماله وكلاءة مماليكه .

۵- والتابع أولى بمناصرة متبوعه ممّن لا يتبعه .

۶- والمحب والناصر أولى بالدفاع عمّن أحبّه أو التزم بنصرته.

---

۱. الحديد: ۱۵.

فإذن ليس للمولى إلّا معنى واحد، وتختلف هذه الأولوية بحسب الاستعمال في الموارد المختلفة .

الشبهة الثانية:

المراد أنّه أولى بالإمامة مآلاً وإلّا كان هو الإمام مع وجود النبي ولا تعرض فيه لوقت المآل، فكان المراد حين يوجد عقد البيعة له، فلا ينافي حينئذ تقديم الأئمة الثلاثة عليه.[١]

وهذه الشبهة من الوهن بمكان، وذلك لأنّه لا يجتمع مع حكمة المتكلّم وبلاغته ولا مع شيء من أفعاله العظيمة وأقواله الجسيمة، وهو يستلزم أن لا تعم ولايته جميع الناس والحضّار، فيخرج عن ولايته الخلفاء الثلاثة، مع أنّ الشيخين ـ حينما سمعا قول رسول اللّه ـ قالا له: بخ بخ لك يا علي، أمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.[٢]

حصيلة البحث:

إنّ من سبر غضون السير والتواريخ يقف على أنّ النبي الأكرم لم يبرح يدعو الناس إلى علي بالتصريح تارة، والاشارة أُخرى من بدء الدعوة إلى ختامها. فتارة يعرّفة بأنّه خليفته ووصيّه ووزيره، وأُخرى بأنّ منزلته منه منزلة هارون من موسى، وأنّ له كل المناصب الثابتة لهارون إلّا منصب واحد وهو النبوّة، والدليل على ذلك هو الاستثناء «إلّا أنّه لا نبي بعدي»، وقد كان هارون وزيراً لموسى

١. الصواعق المحرقة: ٤٤.
٢. مسند أحمد: ٤ / ٢٨١.

وشريكاً له في النبوّة، قال سبحانه: ﴿**وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآياتِنا أَنتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ**﴾[1]، وقال سبحانه حاكياً عن موسى: ﴿**وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسىٰ**﴾[2].

وثالثة ينصبه قائداً وإماماً في هواء حار وأرض جافة في محتشد عظيم مبتدئاً كلامه بما يرجع إلى أُصول الدين من أخذ الشهادة من الناس على ولاية اللّه و ولاية الرسول ثم يأخذ بيد علي وهو على المنبر محرّكاً شعور الحاضرين وليشد القلوب نحو علي ويقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» .

ودلالة هذه الأحاديث على خلافة من عيّنه الرسول على وجه لا ينكره إلّا مكابر ولا يردّه إلّا معاند، وكفانا في الموضوع ما ألّفه أصحابنا حول هذه الأحاديث الثلاثة .

* * *

مرجعية أهل البيت الفكرية بعد الرسول:

دلّت الأحاديث السابقة على أنّ الزعامة السياسية والخلافة بعد الرسول تتمثّل في علي وعترته، وهناك أحاديث متوفّرة تسوقنا إلى مرجعيتهم الفكرية وأنّهم الأئمة والأوصياء بعد الرسول وأنّه لابدّ للمسلم أن يرجع إليهم في دينه،

---

١. القصص: ٣٤ ـ ٣٥. ٢. طه: ٢٩ ـ ٣٦.

ويأخذ عنهم أُصوله وفروعه، وأنّ النبي الأكرم جعلهم المفزع بعده، والعترة والكتاب توأمان لايفترقان، وإليك بعض ما ورد عن الرسول في المقام:

٤- حديث الثقلين:

إنّ النبي الأكرم أيقظ الغافلين وبيّن مرجع الأُمّة بعد رحلته بهتافه المدوي وقال: «يا أيّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب اللّه، وعترتي أهل بيتي».[١]

وقال: «إنّي تركت ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي: كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».[٢]

وقال: «إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[٣]

وقالﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه، وأهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[٤]

وقال: «إنّي أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه عزّوجلّ، وعترتي. كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا

---

١. كنز العمال: ١ / ٤٤، أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.
٢. كنز العمال: ١ / ٤٤، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.
٣. مسند أحمد: ٥ / ١٨٢، ١٨٩.
٤. المستدرك للحاكم: ٣ / ١٤٨.

عـليّ الحـوض، فانظـروا كيـف تخلفـوني فيهمـا».[١]

وقال في منصرفه من حجّة الوداع ونزوله غدير خم: «كأنّي دعيت فاجبت، انّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب اللّه وعترتي، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، فانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[٢]

٥- حديث السفينة:

إنّ النبي الأكرم يشبّه أهل بيته بسفينة نوح ويقول: «ألا إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».[٣]

وفي حديث آخر يقول: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق ؛ وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له».[٤]

وفي حديث ثالث: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأُمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس».[٥]

---

١. مسند أحمد: ٣ / ١٧و ٢٦، أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري.
٢. المستدرك للحاكم :٣ / ١٠٩، أخرجه من حديث زيد بن أرقم.
٣. مستدرك الحاكم: ٣ / ١٥١ بسنده إلى أبي ذر.
٤. الأربعون حديثاً للنبهاني: ٢١٦، نقله عن الطبراني في الأوسط.
٥. مستدرك الحاكم: ٣ / ١٤٩ بسنده إلى ابن عباس.

ومن المعلوم أنّ المراد ليس جميع أهل بيته على سبيل الاستغراق، لأنّ هـذه المـنزلة ليست إلّا لحجج اللّه ولفيف من أهل بيته، وقد فهمه ابن حجر وقال: يحتمل أنّ المراد بأهل البيت الذين هم أمان، علماؤهم، لأنّهم الذين يهتدى بهم كالنجوم، والذين إذا فقدوا جاء أهل الأرض من الآيات ما يوعدون.

وقال في مقام آخر: إنّه قيل لرسول اللّه: ما بقاء الناس بعدهم؟ قال: «بقاء الحمار إذا كسر صلبه».[1]

والمراد من تشبيههمعليهم السلام بسفينة نوح: أنّ من لجأ إليهم في الدين فأخذ فروعه وأُصوله عن أئمّتهم الميامين نجا من عذاب اللّه، ومن تخلّف عنهم كمن أوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر اللّه غير أنّ ذاك غرق في الماء، وهذا غرق في الحميم.

والوجه في تشبيههم بباب حطة هو أنّ اللّه تعالى جعل ذلك الباب مظهراً مـن مـظاهر التواضع لجلاله، والبخوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة، وقد جعل انقياد هذه الأُمّة لأهـل بيت نبيّها وأتباعهم، مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والبـخوع لحكـمه، وبـهذا كـان سـبباً للمغفرة.

ثمّ إنّ ابن حجر قد أوضح حقيقة التشبيه في كلامه وقال: ووجه تشبيههم بالسفينة أنّ من أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرّفهم، وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النعيم، وهلك في مفاوز الطغيان ـ إلى أن قال: ـ وبباب حطة ـ يعني ووجه تشبيههم بباب حطة ـ انّ اللّه جعل دخول ذلك الباب الّذي هو باب أريحا أو بيت المقدس مع

---

١. الصواعق المحرقة: ٩١، ١٤٢ (الباب الحادي عشر).

التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة، وجعل لهذه الأُمّة مودّة أهل البيت سبباً لها».[١]

وفي هذه الأحاديث الخمسة غنى وكفاية لطلّاب الحق .

* * *

يستفاد من حديث الثقلين أُمور مهمة لو اهتمّت بها الأُمّة لاجتمعت على مائدة أهل البيت واستغنت عن غيرهم، وهاهي:

١- إنّ اقتران العترة الطاهرة بالقرآن الكريم إشارة إلى أنّ عندهم علم القرآن وفهمه علماً لائقاً بشأنه .

٢- إنّ التمسّك بالكتاب والعترة يعصم من الضلالة ولا يغني أحدهما عن الآخر .

٣- يحرم التقدّم على العترة كما يحرم الابتعاد عنهم .

٤- إنّ العترة لا تفارق الكتاب، وانّهما مستمرّان إلى يوم القيامة .

أفيصحّ بعد هذه التصريحات والإشارات ترك العترة والأخذ بقول غيرهم؟!

---

١. لاحظ الصواعق: ٩١ (الباب الحادى عشر). وقد علّق سيّدنا الإمام شرف الدين على كلام ابن حجر وقال: قل لي لماذا لم يأخذ بهدي أئمّتهم في شيء من فروع الدين و عقائده، ولا شيء من أُصول الفقه وقواعده، ولا شيء من علوم السنّة والكتاب، ولا في شيء من الأخلاق والسلوك والآداب، فلماذا تخلّف عنهم فأغرق نفسه في بحار كفر النعم، وأهلكها في مفاوز الطغيان؟! (المراجعات: ٢٥).

مقتضى الكتاب في صيغة القيادة بعد الرسول:

قد تعرّفت على مقتضى السنّة النبوية في مجال القيادة بعد الرسول، وكلّها تدلّ على أنّ الرسول قام بتعيين الوصي بعده، وعيّن خليفة المسلمين تعييناً شخصياً، وقد كرّر وأكّد ذلك في مواقف متعدّدة ـ حتّى لا يبقىٰ شكّ ـ وحاول تأكيد الأمر في آخر ساعة من حياته الشريفة عن طريق الكتابة، ولكن حال بعضهم دون تحقّق أُمنية الرسول، فلم يكتب شيئاً، وأمرهم بالخروج عن مجلسه، ونردف ذلك البحث بما وعدناه سابقاً من تبيين مقتضى الكتاب في مسألة الخلافة، وقد نزلت آيات أوضحها آية الولاية في سورة المائدة، فنحن نأتي بها مع ما يتقدّمها حتّى تتّضح دلالتها: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَ النَّصارىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُم أَولِيَاءُ بَعْضٍ وَ مَن يَتَوَلَّهُم مَنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأَتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمينَ * وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلىٰ الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشآءُ وَ اللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ**

حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾[۱]. وموضع الاستدلال هو الآيتان الأخيرتان.

وقبل الاستدلال بالآية نذكر شأن نزولها:

روى المفسّرون عن أنس بن مالك وغيره أنّ سائلاً أتى المسجد وهو يقول: من يقرض المليّ الوفي، وعلي راكع يشير بيده للسائل: اخلع الخاتم من يدي. فما خرج أحد من المسجد حتّى نزل جبرئيل بـ ﴿**إنَّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ فأنشأ حسّان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب مدحي والمحبين ضايعا ... وما المدح في ذات الإلٰه بضايع

فأنت الّذي أعطيت إذ أنت راكع ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع

بخاتمك الميمون يا خير سيّد ... ويا خير شارٍ ثم يا خير بايع

فأنزل فيك اللّه خير ولاية ... وبيّنها في محكمات الشرايع[۲]

وإليك تفصيل الآية حرفياً:

۱- الولي والمولى والأولى بمعنى واحد.

قال رسول اللّه: «أيّما امرأة نكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل...».[۳]

---

۱. المائدة: ۵۱ـ ۵۶.

۲. رواه الطبري في تفسيره: ۶ / ۱۸۶، والجصاص في أحكام القرآن: ۲ / ۴۴۶، والسيوطي في الدر المنثور: ۲ / ۲۹۳، وغيرهم.

۳. مسند أحمد: ۶ / ۶۶، روتها عائشة عن النبي الأكرم.

وقال: «يا علي أنت ولي كل مؤمن من بعدي».[١] ولو أُطلق على الناصر والمحب فهو كإطلاق المولىٰ عليهما، وقد عرفت أنّه ليس للمولى إلّا معنى واحد وهو الأولى، فلو أُطلق على الناصر والمحب فلأجل أنّ المحب أولى بالدفاع عن محبوبه والتزامه بنصرته، والصديق أولى بحماية صديقه، فتفسير الولي بالمحب والناصر والصديق من باب خلط المصداق بالمفهوم .

٢- لو كان المراد من الولي هو الناصر وما أشبهه يلزم الاكتفاء بقوله: ﴿**إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا**﴾ من دون حاجة إلى التقييد بإيتاء الزكاة حال الركوع .

٣- لو كان الولي بمعنى الناصر أو المحب يلزم وحدة الولي والمولّىٰ عليه في قوله: ﴿**والّذين آمنوا**﴾ وما هذا إلّا لأنّ كل مؤمن ناصر لأخيه المؤمن ومحبّ له[٢]. مع أنّ ظاهر الآية أنّ هناك أولياء ثلاثة: ١- اللّه، ٢- رسوله، ٣- المؤمنون بالشروط الثلاثة، وأنّ هناك مولى عليه، وهو غير الثلاثة ولا يتحقّق ذلك المعنى إلّا بتفسير الولي بالزعيم والمتصرّف في شؤون المولّىٰ عليه، فهؤلاء الثلاثة أولياء وغيرهم مولّىٰ عليهم .

٤- فإذا كانت الحال كذلك فلماذا أفرد الولي ولم يجمعه؟ والجواب عنه واضح، وهو أنّه أفرده لإفادة أنّ الولاية للّه على طريق الأصالة وللرسول والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قيل إنّما أولياؤكم اللّه ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع.

---

١. مسند أحمد: ٤ / ٤٣٧؛ مستدرك الحاكم: ٣ / ١١١.

٢. اللّهمّ إلّا أن يقول القائل إنّ المؤمنين الموصوفين بالأوصاف الثلاثة أولياء المؤمنين غير الموصوفين بها، وهو كما ترى تفسير ساقط .

۵- إنّ قوله: ﴿**الّذين يقيمون**﴾ بدل من ﴿**الذين آمنوا**﴾ كما أنّ الواو في قوله: ﴿**وهم راكعون**﴾ للحال، وهو حال من قوله: ﴿**يؤتون الزكاة**﴾ معنى ذلك انّهم يؤتونها حال ركوعهم في الصلاة .

۶- إذا كان المراد من قوله: ﴿**الّذين آمنوا**﴾ هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فلماذا جيء بلفظ الجماعة؟ والجواب: جيء بها ليرغّب الناس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه، ولينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين يجب أن تكون علىٰ هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان وتفقّد الفقراء حتّى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخّروا إلى الفراغ منها.[۱]

وهناك وجه آخر، وهو أنّه أتى بلفظ الجمع دون المفرد لأجل أنّ شانئي علي وأعداء بني هاشم، وسائر المنافقين من أهل الحسد والحقد، لا يطيقون أن يسمعوها بصيغة المفرد، إذ لا يبقى لهم حينئذ مطمع في تمويهٍ، ولا ملتمس في التضليل، فيكون منهم ـ بسبب يأسهم ـ حينئذ ما تُخشى عواقبه على الإسلام، فجاءت الآية بصيغة الجمع مع كونها للمفرد اتّقاء من معرّتهم، ثمّ كانت النصوص بعدها تترىٰ بعبارات مختلفة ومقامات متعدّدة وبثّ فيهم أمر الولاية تدريجاً تدريجاً حتّى أكمل اللّه الدين وأتمّ النعمة، جرياً منه صلى الله عليه وآله وسلم على عادة الحكماء في تبليغ الناس ما يشق عليهم.[۲]

وهناك وجه ثالث أشار إليه الشيخ الطبرسي في تفسير الآية، وهو أنّ النكتة في إطلاق لفظ الجمع على أمير المؤمنين، تفخيمه و تعظيمه، وذلك أنّ أهل

---

۱. الكشاف: ۱ / ۴۶۸.

۲. المراجعات: ۱۴۶.

اللغة يعبّرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التعظيم، وذلك أشهر في كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. [١]

٧- إنّما ذكر من صفات الولي من الذين آمنوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأنّهما ركنان عظيمان للإسلام ووظيفتان رئيسيتان للقائد، وهو أن يقيم الصلاة (لا أن يصلّي وحده) ويؤتي الزكاة .

وعلى كل تقدير فتقييد الولي من المؤمنين بالأوصاف الثلاثة، وتقييد إيتاء الزكاة بحال الركوع يجعل الكلّي مخصّصاً في فرد واحد، وهو مثل قولك: «رأيت رجلاً سلّم عليّ أمس قبل كل أحد» وهو وإن كان كلّياً قابلاً للانطباق على كثيرين قبل التطبيق، لكنّه بعده ينحصر في فرد .

ثمّ إنّ إمام المشكّكين فخر الدين الرازي استشكل على الاستدلال بالآية بوجوه رديئة ساقطة نذكر بعضها ونترك الباقي صيانة للوقت عن الضياع، ولعلّه لأجل هذه التشكيكات لمّا دنا أجله أملى على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الاصفهاني وصيّة في الحادي والعشرين من محرّم سنة ٦٠٦ هـ ، وجاء في الوصيّة قوله: فاعلموا أنّي كنت رجلاً محبّاً للعلم، فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كمّيته وكيفيته، سواء أكان حقّاً أو باطلاً أو غثّاً أو سميناً....[٢]

ألف ـ إنّ المراد من الولي في الآية ليس هو المتصرّف، بل المراد الناصر والمحب، بشهادة ما قبلها وما بعدها، أمّا ما قبل هذه الآية فلأنّه تعالى قال: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا تَتَّخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ وليس المراد لاتتّخذوا

١. مجمع البيان: ٢ / ٢١١.
٢. دائرة المعارف لفريد وجدي: ٤ / ١٤٨.

اليهود والنصارى أئمة متصرّفين في أرواحكم وأموالكم، لأنّ بطلان هذا كالمعلوم. بل المراد لا تتّخذوا اليهود والنصارى أحباباً وأنصاراً ولا تخالطوهم ولا تعاضدوهم، ثمّ لمّا بالغ في النهي عن ذلك قال: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾وأمّا ما بعد هذه الآية فلقوله : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذوُا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ الكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ**﴾[1].[2]

حاصل التشكيك هو أنّ الولي في الآية المتقدّمة والمتأخّرة بمعنى المحب والناصر فلو فسّرت في الآية بالمتصرّف يلزم التفكيك .

والجواب أنّ الولي في الآية المتقدّمة عليها والمتأخّرة عنها، وفي نفسها بمعنى واحد ليس له في جميع المقامات إلّا معنى واحد وهو الأولى، غير أنّه يختلف متعلّق الولاية جوهراً أوّلاً وسعة وضيقاً ثانياً، حسب اختلاف موصوفها ومن قامت به الولاية. فلو كان الولي هو اللّه والرسول فيكون متعلّق الولاية هو النفس والنفيس، فهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فكيف بأموالهم، فهما أولى بالتصرّف في كل مايمت إلى المؤمنين .

ولو كان الولي من الأب والجد، يكون المتعلّق شؤون الصغير ومصالحه، من حفظ نفسه وعرضه وماله. فيكون أولى بالتصرّف من الصغير في أمواله وشؤونه، ومنها تزويجه بالغير .

ولو كان الموصوف رئيس القبيلة، حيث كان الرائج في عهد الجاهلية،

---

١. المائدة: ٥٧.

٢. مفاتيح الغيب: ١٢ / ٢٨.

عقد ولاء الدفاع بين القبيلتين، فيكون هو أولى بالدفاع عن المنتمي في النوائب والنوازل، إلى غير ذلك من الموارد المختلفة حسب الموصوف.

وبذلك يظهر أنّ المراد من الأولياء في قوله: ﴿**لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ هو الأولى لما ستعرف من أنّها نزلت في حق عبادة بن الصامت وعبداللّه بن أُبيّ واليهود، وكان بينهما وبين اليهود عقد ولاء الدفاع، فكان كل من الطرفين وليّاً للآخر، أي أولى بالدفاع والذب عن المولى عليه من غيره. قال المفسّرون: نزلت في حق عبادة بن الصامت وعبداللّه بن أُبي بعد غزوة بدر، حيث لمّا انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود: آمنوا قبل أن يُصيبكم اللّه بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن ضيف (اليهودي): أغرّكم أن أصبتم رهطاً من قريش لاعلم لهم بالقتال، أما لو أمرونا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان لقتالنا، فجاء عبادة بن الصامت الخزرجي إلى رسول اللّه فقال: يا رسول اللّه إنّ لي أولياء من اليهود، كثير عددهم قويّة أنفسهم، شديدة شوكتهم، وانّي أبرأ إلى اللّه ورسوله من ولايتهم، ولا مولى لي إلّا اللّه ورسوله. فقال عبداللّه بن أُبي: لكنّي لا أبرأ من ولاية اليهود، لأنّي أخاف الدوائر فلابد لي منهم. فقال رسول اللّه: «يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه» قال: اذن اقبل، وأنزل اللّه الآية.[1]

فقد اتّخذ الرجلان اليهود أولياء ليتفرّع عليه النصرة والذبّ كما أنّه سبحانه جعل الأب والجد أولياء ليتفرّع عليه حفظ شؤون المولى عليه، وعلى ضوء ذلك فالولي في جميع المقامات بمعنى واحد، والاختلاف انّما هو فيما

---

١. مجمع البيان: ٢ / ٢٠٦ وغيره.

يتفرّع على الولاية، لا أنّه تارة بمعنى الأولى وثانياً بمعنى الناصر وثالثاً بمعنى المحب .

ب ـ والّذي يرشدك على أنّ الولي في قوله سبحانه: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ ليس بمعنى الحب والمحبّة كما احتمله الرازي، انّه ورد نظير هذا النص في قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمَانِ وَ مَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1] وليس الولي بمعنى المحبوب. وذلك لأنّ حب الآباء والإخوان أمر فطري، فطر الناس عليه من غير فرق بين الكافر والمسلم، ولو كان المراد من التولّي هو الحب يلزم النهي عن أمر جبلّيّ، ولأجل ذلك لا محيص عن تفسيره باتخاذهم أولياء على غرار اتخاذ الرسول والإمام أولياء، بأن تكون ولايتهم على أعناق المؤمنين، كما أنّه ليس أيضاً بمعنى النصرة لجواز طلب النصرة من الكافر، وهذا هو القرآن يجعل شيئاً من الزكاة للمؤلّفة قلوبهم .

ج – إنّ قوله: ﴿**ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم**﴾ يحكي عن أنّ التولّي على وجه يلحق المتولّي باليهود والنصارى، وهو لا ينطبق على مجرّد الحب وطلب النصرة والحبّ لا لأجل كونهم كافرين، بل لأسباب أُخرى من حسن الجوار وغيره .

د ـ إنّه سبحانه يندّد ببعض المؤمنين بقوله: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه...**﴾ وهذا يعرب عن أنّ التولّي كان على وجه ينتهي إلى ارتداد المتولّي .

---

١. التوبة: ٢٣.

أفبعد هذه القرائن يصحّ للرازي أن يفسّر التولّي في هذه الآيات بالحب والنصرة. على أنّ تفسير ولاية اللّه والرسول بالحبّ والنصرة تفسير بأمر واضح لا يحتاج إلى زيادة تأكيد .

هذه هي الشبهة المهمّة في كلامه، وأمّا باقي الشبهات، فليس بشيء ذي بال.

مثلاً يقول: لو نزلت الآية في حق علي، يجب أن يكون نافذ التصرّف حال حياةالرسول، والآية تقتضي كون هؤلاء المؤمنين موصوفين بالولاية في الحال.[١]

والجواب: انّ هذا المقام كان ثابتاً لعلي كثبوته للّه سبحانه والرسول، غير أنّه لا يقوم بتطبيقه على صعيد الحياة إلّا عند الحاجة، وهو عند ارتحال الرسول ومفارقته الأُمّة، وهذا هو المفهوم من تعيين ولي العهد عند الأُمم .

وأنت إذا قارنت الآية وما ورد حولها من شأن النزول، وما نزل في حق علي من الآيات التي تعرّف طهارته من الذنب[٢]، وكون حبّهم ومودّتهم أجراً للرسالة[٣]، وانّه نفس النبي الأكرم[٤]، وانّ بيته من أفضل البيوت الّتي قال في

١. مفاتيح الغيب: ١٢ / ٢٨.
٢. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ في حق علي وأهل بيته ـ الأحزاب: ٣٣ـ.
٣. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة فى القربى﴾ ـ الشورى: ٢٣ـ.
٤. إشارة إلى قوله سبحانه في أمر المباهلة مع نصارى نجران: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءَنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ ـ آل عمران: ٦١ـ.

حقّها سبحانه: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَن تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ**﴾ [١] لوقفت على أنّ الذكر الحكيم يواكب السنّة في تعيين مصير الأُمّة الإسلامية في مجال القيادة والخلافة وأنّه سبحانه ألقى مقاليد الزعامة إلى الإمام أميرالمؤمنين، وبذلك أخرج الأُمّة من التنازع والاحتكاك بعد الرسول الأعظم .

ونحن نكتفي من البرهنة على خلافة الإمام بهذه الآية، وهناك آيات استدلّ بها الأصحاب على ولاية الإمام، ونفي ولاية الغير، أوضحنا مداليلها في مؤلفاتنا الكلامية، فمن أراد فليرجع إليها. [٢]

---

١. إشارة إلى ما رواه السيوطي في الدر المنثور: ٥ / ٥٠ من قول أبي بكر للنبيّ بعد نزول الآية: قال يا رسول اللّه أهذا البيت منها ـ أي بيت علي وفاطمة ـ؟ قال: «هو من أفاضلها». والآية ٣٦ من سورة النور.

٢. الإلهيات: ٢ / ٦١٨ ـ ٦٣٢.

الفصل الرابع:

ما هو السرّ في مخالفة الجمهور نص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟

لقد ظهرت الحقيقة بأجلى صورها وثبت أنّ الرسول لم يرحل عن أُمّته إلّا بعد أن نصّب علياً للخلافة والقيادة، ولكن هناك سؤال يطرح نفسه، وهو أنّه لو كان الحق كما نطقت به النصوص كتاباً وسنّة، فلماذا أعرض الجمهور عن ما أُمروا أن يتمسّكوا به؟ وهذه هي الشبهة المهمّة في الباب، وهذا هو السؤال الّذي ترك العقول متحيرة تبحث عن جواب مقنع، وقد اعتمد على ذلك بعض المنصفين من أهل السنّة في ردّه لمذهب أهل البيت عليهم السلام، فقال: أُنظر إلى جمهور أهل القبلة والسواد الأعظم من ممثّلي هذه الملّة فإذا هم مع أهل البيت على خلاف ما توجبه ظواهر تلك الأدلّة، فانا أُؤامر منّي نفسين، نفساً تنزع إلى متابعة الأدلّة وأُخرى تفزع إلى الأكثرية من أهل القبلة.[1]

والإجابة عن الشبهة سهلة لمن راجع التاريخ وسيرة الصحابة في عصر الرسول وبعده. فإنّ القرآن الكريم رغم أمره باتّباع الرسول وعدم التقدّم

---

١. من كلام شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري في رسالته إلى السيد شرف الدين، لاحظ المراجعات ص ٢٥، رقم المراجعة ١١.

عليه[١]، ورغم أمره بالتسليم له وأنّ الإيمان رهنه[٢]، ورغم أنّه يندّد ببعض المسلمين الذين كانوا يتمنّون طاعة الرسول لهم في بعض المواقف وقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾[٣]. رغم كل ذلك نشاهد رجالاً يقفون أمام النبي في غير واحد من المواقف ويخالفونه بعنف وقوّة ويقدّمون الاجتهاد والمصالح الشخصية على أوامر الرسول في مواطن كثيرة، وإليك نزراً يسيراً منها وبالإلمام بها تسهل عليك الإجابة عن السرّ في مخالفة عدّة من الأصحاب لأمر النبي في مسألة الوصاية والقيادة:

١- اختلافهم مع النبي في الأنفال والأُسرىٰ:

انتصر المسلمون في غزوة بدر وجمع غير واحد من المسلمين ما في معسكر العدو، فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا ،وقال الذين يقاتلون العدوّ ويطلبونه: واللّه لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتّى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين يحرسون رسول اللّه: ما أنتم بأحقّ به منّا واللّه لقد رأينا أن نقتل العدوّ إن منحنا اللّه أكتافهم، وقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه فخفنا على رسول الله كرّة العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منّا. فنزل قوله سبحانه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للّهِ و الرَّسُولِ فَاتَّقُوا**

---

١. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ ـ الحجرات: ١ ـ.

٢. ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنونَ حتّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوْا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ ـ النساء: ٦٥ ـ.

٣. الحجرات: ٧.

اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ إِن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ [١]. [٢]

وأمّا اختلافهم في الأسرىٰ فيكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا واللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللّهُ عِزِيزٌ حَكِيمٌ * لولا كِتابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**﴾ [٣]. نحن نضرب الصفح عمّا ذكره المفسّرون حول الآية من القصص غير أنّ قوله سبحانه ﴿**لولا كتاب...**﴾ يعرب عن أنّهم اختلفوا إلى حدّ كانوا مستحقّين لنزول العذاب لولا سبق كتاب من اللّه، ومن الجرأة ما يظهر عن بعض المفسّرين [٤] من أنّ العتاب يعمّ النبي أيضاً مع أنّ نبيّ العظمة أجلّ من أن يشاركهم في العتاب فضلاً عن العقاب، وحاشا ساحة الحق أن يهدّد نبيّه بعذاب عظيم وقد عصمه من المعاصي، والعذاب العظيم لا ينزل إلّا على عمل إجرامي كبير، ونحن لا نفسّر الآية ولا نريد أن نخوض في خصوصيّات القصة ويكفينا أنّها تكشف عن تباعد المؤمنين عن النبيّ في مسألة الأسرىٰ إلى حدّ استحقّوا هذا التنديد .

٢- مخالفتهم لأمر الرسول في أُحد:

ورد رسول اللّه أُحد حين بلغه أنّ أباسفيان يريد شنّ هجوم على المدينة، واستقبل الرسول المدينة وجعل جبل عينين عن يساره، ونصب خمسين رجلاً

---

١. الأنفال: ١.
٢. السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٦٤١ ـ ٦٦٢.
٣. الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨.
٤. لاحظ الأقوال في الميزان: ٩ / ١٣٧.

نبّالاً على جبل عينين وأمَّر عليهم عبداللّه بن جبير وقال له: «انضح الخيل عنّا بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك».

ولمّا صار الانتصار حليف المسلمين وأخذ العدو بالانسحاب عن ساحة القتال مولّياً نحو مكّة، خالف الرماة أمر الرسول وأخلوا مكانهم طمعاً في الغنائم، فكلّما نصحهم أميرهم بالبقاء وعدم ترك الجبل خالفوه .

ولمّا رأى العدو المنهزم أنّ جبل عينين قد أضحى خالياً من الرماة، وكان جبل عينين يقع على ضفتين يتخلّلهما معبر، فاستغل العدو الفرصة فأدار خالد بن الوليد من معه من وراء المسلمين، فورد المعسكر من هذا المعبر على حين غفلة منهم، فوضع السيوف فيهم، فقتل منهم لفيفاً إلى أن تحوّل النصر إلى هزيمة، وكان ذلك نتيجة مخالفة المسلمين لوصيّة الرسول، وتقديماً للاجتهاد على النص، والرأي الخاطئ على الدليل، وكم له من نظير في حياة النبيﷺ وبعد وفاته .

٣- مخالفتهم في صلح الحديبية:

دخلت السنة السادسة للهجرة واشتاق النبي إلى زيارة بيت اللّه فأعدّ العدّة للعمرة ومعه جمع من أصحابه، وليس معهم من السلاح إلّا سلاح المسافر، فلمّا وصلوا إلى أرض الحديبية، منعوا من مواصلة السير، فبعد تبادل الرسل بينه وبين رؤساء قريش اصطلحوا على وثيقة ذكرها أصحاب السيرة في كتبهم. فكانت نتيجة تلك الوثيقة رجوع النبي إلى المدينة ومجيئه في العام القابل للزيارة، وقد ذكر فيها شروط للصلح أثارت حفيظة بعض المسلمين، حتّى

أنّ عمر بن الخطاب وثب فأتىٰ أبابكر فقال: أليس برسول اللّه؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا.[١]

فقد زعم الرجل أنّ البنود الواردة في صلح النبي تعني إعطاء الدنية في الدين، حتّى أنّ النبي أخبرهم حين الشخوص من المدينة أنّ اللّه سبحانه أراه في المنام أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فلمّا انصرفوا ولم يدخلوا مكّة، قالوا: ما حلقنا ولا قصّرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل اللّه سبحانه قوله: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنَّ شَاءَ اللّهُ آمِنين**﴾[٢] .

ولو أراد المتتبّع أن يتعمّق في السيرو التفاسير يجد أنّ مخالفة القوم للرسول لم تكن مختصّة بموضوع دون موضوع، فكان تقديم الاجتهاد على النص شيئاً رائجاً عندهم، ولنكتف في المقام بالمخالفتين الأخيرتين أيّام مرض وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- مخالفتهم في تجهيز جيش أُسامة:

اتّفق المؤرّخون على أنّ النبي الأكرم أمر بتجهيز جيش أُسامة فقال: «جهّزوا جيش أُسامة، لعن اللّه من تخلّف عنه» فقال قوم: «يجب علينا امتثال أمره» وأُسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: «قد اشتدّ مرض النبي فلا تسع قلوبنا مفارقته والحال هذه، فنصبر حتّى ننظر أي شيء يكون من أمره.[٣]

---

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣١٦ ـ ٣١٧.
٢. الفتح: ٢٧.
٣. الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ٢٩ ـ ٣٠ (تحقيق محمّد بن فتح اللّه بدران).

هذا ما يذكره الشهرستاني ملخّصاً، وذكره المؤرّخون على وجه التفصيل، فقال الطبري في أحداث سنة إحدى عشرة: «وضرب على الناس بعثاً وأمّر عليهم أُسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن، فقال المنافقون في ذلك، وردّ عليهم النبيﷺ: «إنّه لخليق لها ـ أي حقيق بالإمارة ـ وإن قلتم فيه لقد قلتم في أبيه من قبل، وإن كان لخليقاً لها» فطار الأخبار بتحلل السير بالنبيﷺ. [١]

ويقول أيضاً: «لقد ضرب بعث أُسامة، فلم يستتبّ لوجع رسول اللّه، وقد أكثر المنافقون في تأمير أُسامة حتّى بلغه، فخرج النبيﷺ على الناس عاصباً رأسه من الصداع لذلك، وقال: «وقد بلغني أنّ أقواماً يقولون في إمارة أُسامة، ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة وأنّه لخليق لها فأنفذا بعد أُسامة» وقال: «لعن اللّه الذين يتّخذون قبور أنبيائهم مساجد»[٢]، فخرج أُسامة فضرب بالجرف وأنشأ الناس في العسكر، ونجم طليحة وتمهّل الناس وثقل رسول اللّه فلم يستتم الأمر ينظرون أوّلهم آخرهم حتّى توفّى اللّه نبيّه».[٣]

وقد ذكر القصة ابن سعد في طبقاته[٤]، والحلبي في سيرته[٥]، ومن أراد التوسّع فليرجع إليهما.

---

١. تاريخ الطبري: ٢ / ٤٢٩.
٢. لا يخفى أنّه لاصلة لهذه الجملة لما قبل القصة وما بعدها، ولعلّه تحريف لما نقلناه عن الشهرستاني من أنه لعن المتخلّفين فبدّله الراوي بهذا.
٣. تاريخ الطبري: ٢ / ٤٣٠.
٤. الطبقات: ٢ / ١٨٩ ـ ١٩٠.
٥. السيرة الحلبية: ٣ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٥- مخالفتهم النبيﷺ في إحضار القلم والدواة:

عن ابن عباس قال: «لمّا اشتدّ بالنبيﷺ وجعه، قال: «ائتوني بدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده» قال عمر: إنّ النبيﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب اللّه حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قالﷺ: «قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع» فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كل الرزيّة ما حال بين رسول اللّهﷺ وبين كتابه.(١)

إنّ الراوي نقل الرواية بالمعنى كي يخفف من شدة الصدمة التي تحصل فيما لو نقل الرواية بألفاظها والشاهد على ما نقول أنّ البخاري نفسه روى الرواية بشكل آخر أيضاً، فروى عن ابن عباس إنه كان يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس ثمّ بكى حتّى بلّ دمعه الحصى قلت: يابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول اللّه وجعه فقال: «ائتوني بكتف اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً» فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له، أهجر؟ استفهموه، فقال: «ذروني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعونني إليه» فأمرهم بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» و الثالثة خير إمّا أن سكت عنها وإمّا أن قالها فنسيتها.(٢)

ولعلّ الثالثة الّتي نسيها الراوي هو الّذي كان أراد النبي أن يكتبه حفظاً لهم

---

١. صحيح البخاري: ١ / ٣٠ باب كتابة العلم؛ الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٤٢، وجاء فيه: فقال بعض من كان عنده انّ نبي اللّه ليهجر.

٢. صحيح البخاري: ٤ / ٩٩ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب.

من الضلال ولكن ذكره شفاهاً عوض كتابته، لكن السياسة اضطرّت المحدّثين إلى ادّعاء نسيانه .

ولعلّ النبي أراد أن يكتب في مرضه تفصيل ما أوجبه عليهم في حديث الثقلين وتشهد بذلك وحدة لفظهما، حيث جاء في الثاني: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب اللّه وعترتي».

وقد فهم الخليفة ما يريده رسول الإسلام وحدّث به بعد مدة من الزمن لابن عباس فقال له يوماً: يا عبداللّه إنّ عليك دماء البدن إن كتمتها، هل بقي في نفس علي شيء من الخلافة؟ قال ابن عباس: قلت: نعم، قال: أو يزعم أنّ رسول اللّه نصّ عليه؟ قلت: نعم، فقال عمر: لقد كان من رسول اللّه في أمره ذروة من قول لا تثبت حجّة، ولا تقطع عذراً ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام، فعلم رسول اللّه انّي علمت ما في نفسه فأمسك.[١]

والعجب أنّ أحمد أمين مع ما يكن للشيعة من عداء وقسوه يعترف بما ذكرنا بصراحة :

أراد رسول اللّهﷺ في مرضه الّذي مات فيه أن يعيّن من يلي الأمر بعده ففي الصحيحين: البخاري ومسلم أنّ رسول اللّه لمّا اصفرّ قال: هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، وكان في البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال عمر: إنّ رسول اللّه قد غلب عليه الوجع[٢] وعندكم القرآن. حسبنا كتاب اللّه فاختلف

١. شرح نهج البلاغة: ٣ / ١٧،وكأنَّ الرجل كان أشفق على الإسلام من رسول اللّهﷺ!!.
٢. وفي موضع آخر في صحيح البخاري: أنّه قال «إنّ الرجل ليهجر» .

القوم واختصموا، فمنهم من قال: قرّبوا إليه يكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من قال القول ما قاله عمر، فلمّا أكثروا اللغو[١] والاختلاف عندهﷺ قال: قوموا، فقاموا. وترك الأمر مفتوحاً لمن شاء، جعل المسلمين طوال عصرهم يختلفون على الخلافة حتّى عصرنا هذا بين السعوديين والهاشميين.[٢]

هذه نماذج من مخالفة القوم لصريح النصوص الصادرة عن النبي الأكرم، وكل ذلك يعرب عن فقدانهم روح التسليم للنبي ولأحكامه، فلم يكونوا ملتزمين بما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم من النصوص، نعم، ربّما يوجد بينهم من كان أطوع للنبي من الظل لذي الظل، ولكن المتنفّذين لم يكونوا متعبّدين بالنصوص فضلاً عن تعبّدهم بالإشارات والرموز، وربّما كانوا يقابلون النبي بكلمات عنيفة لا يقابل بها من هو أقل منه شأناً.

ويااليت انّهم اكتفوا في مجال المخالفة للنصوص أثناء حياته، ولكنّهم خالفوها بعد وفاته أكثر ممّا خالفوها أيّام حياته، يقف على ذلك من سبر التاريخ وسيرة الخلفاء في غير واحد من المجالات .

ولقد حاول الشهرستاني في ملله ونحله[٣]، والسيد الشريف في شرح المواقف[٤] تحديد بدء الخلاف بين المسلمين بأيّام مرض النبي عندما كان طريح فراشه. ولكن ذلك التحديد من حسن ظنّهما بالصحابة وأنّهم كلّهم عدول، غير أنّك عرفت أنّ تاريخ الخلاف يرجع إلى بدايات الهجرة، وقد اكتفينا

---

١. والصحيح: اللغط .
٢. يوم الإسلام: ٤١.
٣. الملل و النحل: ١ / ٢٩. ولاحظ التبصير في الدين للاسفرائيني: ١٩.
٤. شرح المواقف: ٨ / ٣٧٢.

بموارد خمسة وضربنا الصفح عن ذكر موارد أُخرى .

هذا كلّه يرجع إلى مخالفتهم الرسول فيما يأمر وينهى أيّام حياته، وأمّا مخالفتهم لنصوص الرسول بعد رحلته فحدّث عنها ولا حرج .

١- التصرّف في أذان الفجر:

أخرج الإمام مالك في موطّئه: انّ المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: الصلاة خير من النوم. فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح .

وقال الزرقاني في تعليقته على هذه الكلمة من شرحه للموطأ ما هذا لفظه: هذا البلاغ أخرجه الدارقطني في السنن من طريق وكيع في مصنّفه عن العمري عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنّه قال لمؤذّنه: إذا بلغت حيّ على الفلاح في الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم.[١]

٢- الحيلولة بين فاطمة وميراثها:

استفاضت الآيات بإطلاقاتها تارة ونصوصها تارة أُخرى على أنّ أولاد الأنبياء يرثون آباءهم كسائر الناس .

أمّا الاطلاقات فيكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿**يُوصِيكُمُ اللّهُ فِى أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[٢] .

---

١. الموطأ: ٧٨، باب ما جاء من النداء في الصلاة الحديث ٨، والموطأ مع شرح الزرقاني: ١ / ١٥٠ طبع مصر .
٢. النساء: ١١.

وأمّا النصوص فيكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ**﴾[١] وقال سبحانه ناقلاً عن زكريا: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً**﴾[٢].

إنّ طلب زكريا من اللّه سبحانه أن يهبه ولداً وأن يجعله رضيّاً لأوضح دليل على أنّ المراد من الوراثة، الوراثة في المال لا النبوّة، لبداهة أنّ الإنسان لا يكون نبيّاً إلّا أن يكون رضيّاً، على أنّ لفظ الوراثة وما يشتق منه ظاهر في الوراثة في المال ولا يستعمل في غيره إلّا توسّعاً ومجازاً، ومع ذلك فقد خالفت القيادة بعد رسول اللّه هذا النص وحرمت فاطمة من ميراث أبيها بحجّة أنّه سمع من النبي قوله: نحن الأنبياء لا نورّث، مع أنّه لو صحّ هذا الحديث لكان على النبي أن يذكره لورّاثه حتّى لا يقعوا في الخطأ ولا يطلبوا شيئاً ليس لهم، فهل أنّ النبي أهمل هذا البيان اللازم وذكره لغير وارثه؟!

روى البخاري عن عائشة: أنّ فاطمة عليها السلام بنت النبي أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول اللّه ممّا أفاء اللّه عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبوبكر: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا نورّث ما تركنا صدقة، إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال»، وإنّي واللّه لا أُغيّر شيئاً من صدقة رسول اللّه عن حالها الّتي كان عليها في عهد رسول اللّه، ولأعملنّ فيها بما عمل به رسول اللّه. فأبىٰ أبوبكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر، فهجرته، فلم تكلّمه حتّى توفّيت، وعاشت بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ستّة أشهر، فلمّا

١. النمل: ١٦.
٢. مريم: ٥ـ٦.

توفّيت دفنها زوجها علي ليلاً، فلم يؤذِن بها أبابكر، وصلّى عليها.[١]

وقال ابن قتيبة: قال عمر لأبي بكر (رضى اللّه عنهما): انطلق بـنا إلى فـاطمة فـإنّا قـد أغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليّاً فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلمّا قعدا عندها حوَّلت وجهها إلى الحائط، فسلّما عليها فلم ترد السلام، فتكلّم أبوبكر وقال: يا حبيبة رسول اللّه، واللّه إنّ قرابة رسول اللّه أحبّ إليّ من قرابتي، وانّك لأحبّ إليّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أنّي متّ ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنَعْك حقّك وميراثك من رسول [الله]، إلّا أنّي سمعت أباك رسول اللّه يقول: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».[٢]

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ الرسول الأعظم وكذا كل من يتولّى الحكومة الإسلامية تكـون له ملكيّتان: ملكية شخصية تتعلّق بنفسه ويتصرّف فيها بما أنّها ماله الشخصي، ومـلكية تـتعلّق بمقام الرسالة ويتصرّف فيها بما أنّه رسول وممثّل الدولة الإلهية، والقسم الثاني من الملكيّتين لا تورث بل تنتقل إلى من يمارس المسؤولية بعده. ونحن نربأ بفاطمة أن تطالب أبابكر بالأموال الّتي تعد من شؤون الدولة الإسلامية وانّما جاءت لتطلب ما كان ملكاً خاصّاً لأبيها، بما أنّه أحد الناس والمسلمين، يملك ما شاء بإحدى الطرق الشرعية ويرثه أولاده بعده.

ثانياً: أنّ ما يرويه البخاري عن الخليفة أنّه قال: «وإنّي واللّه لا أُغيّر شيئاً مـن صـدقة رسول اللّه عن حالها الّتي كان عليها» واقع في غير محلّه،

---

١. صحيح البخاري: ٥ / ١٣٩ باب غزوة خيبر.
٢. الإمامة والسياسة: ١ / ١٣.

لأنّ حبيبة رسول اللّه لم تطلب منه صدقات أبيها حتّى تجاب بأنّ الصدقة لا تتغيّر ولا تتبدّل و إنّما سألته أن يدفع لها ما ملكه رسول اللّه ونحله لبنته ـ أعني: فدكاً ـ أيّام حياته عندما نزل قوله سبحانه: ﴿**وَ آتِ ذَا القُرْبىٰ حَقَّهُ وَ المِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾[١].

نحن نفترض أنّ الرسول قال: لا نورث ما تركناه صدقة، ولكن من المحتمل جدّاً، أنّ الفعل «لا نورث» فعل معلوم لا مجهول، ومعناه نحن معاشر الأنبياء لا نورث الأشياء الّتي تركناها صدقة، فيكون لفظة ما مفعولاً للفعل المبني على الفاعل وعند ذلك لاصلة للحديث بكل ما يتركه النبي حتّى أمواله الشخصية والمقصود النهائي هو أنّ الصدقة لا تورث كالزكاة وأمثالها.

٣- النهي عن متعة الحج:

قال سبحانه: ﴿**فَمَنْ تَمَتَّع بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ**[٢] **فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ فِى الحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى المَسْجِدِ الحَرَامِ**﴾[٣] .

إنّ صفة التمتّع بالعمرة إلى الحج عبارة عن الإحرام في أشهر الحج من إحدى المواقيت، ثم الدخول إلى مكّة للطواف بالبيت والصلاة بعده، والسعي

---

١. الاسراء: ٢٦.

٢. أي فعليه ما يتيسّر له من الهدي، ومن لم يجد الهدي ولا ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، وهي يوم السابع من ذي الحجّة وتنتهي بيوم عرفة، والتمتّع بالعمرة إلى الحج ليس لأهل مكّة ومن يجري مجراهم في القرب إليها.

٣. البقرة: ١٩٦.

بين الصفا والمروة ثم التقصير، وعندئذ يحلّ له كلّ ما كان محرماً عليه، فيقيم على هذه الحالة حتّى ينشأ في تلك السنة إحراماً آخر للحج ويخرج إلى عرفات ثمّ يفيض إلى المشعر الحرام، إلى آخر الأعمال، هذا هو التمتّع بالعمرة إلى الحج، وانّما أُضيف الحج بهذه الكيفية إلى التمتع وقال سبحانه: ﴿**فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إلى الحجّ**﴾ لما فيه من المتعة واللذّة بإباحة محرمات الإحرام في المدّة المتخلّلة بين الإحرامين من غير فرق بين محرَّم وآخرَ حتّى مسِّ النساء .

هذا هو الّذي شرّعه القرآن وخالفه بعض أصحاب السلطة، روى مالك عن سعد بن أبي وقّاص والضّحّاك بن قيس: عام حجّ معاوية بن أبي سفيان وهما يذكران التمتّع بالعمرة إلى الحج فقال الضحاك بن قيس: لا يفعل ذلك إلّا من جهل أمر اللّه عزّوجلّ، فقال سعد: بئس ما قلت يا ابن أخي، فقال الضحاك: فإنّ عمر قد نهى عن ذلك ،فقال سعد: قد صنعها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وصنعناها معه.[1]

روى أحمد بن حنبل عن أبي موسى: أنّه كان يفتي بالمتعة، فقال له رجل: رويدك ببعض فتياك فإنّك لا تدري ما أحدث أميرالمؤمنين في النسك بعدك، حتّى لقيه بعد فسأله، فقال عمر رضي الله عنه: قد علمت أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد فعله وأصحابه ولكن كرهت أن يظلّوا بهن معرسين في الاراك ثمّ يروحون بالحج تقطر رؤوسهم.[2] .

وروى أيضاً عن طريق آخر عنه: انّ عمر رضي الله عنه قال: هي سنّة رسول اللّه ـ

---

١. موطأ مالك: ٢٣٥، باب ما جاء في التمتّع برقم ٧٦٧.
٢و ٣. مسند أحمد: ١ / ٤٩ – ٥٠.

يعني المتعة ـ ولكن أخشى أن يعرسوا بهنّ تحت الاراك، ثمّ يروحوا بهنّ حجّاجاً[٣] .

وقد استفاض القول عن الخليفة انّه قال: متعتان كانتا على عهد رسول اللّه وأنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما.[١]

قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء في أنّ التمتّع جائز وأنّ الإفراد جائز، وأنّ القِران جائز، لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم رضي كلّاً ولم ينكره في حجّته على أحد من أصحابه، بل أجازه لهم ورضيه منهم... احتجّ من فضّل التمتّع بما رواه مسلم عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب اللّه ـ يعني متعة الحج ـ وأمرنا بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم تنزل آية تنسخ آية متعة الحج، ولم ينه عنها رسول اللّه حتّى مات، قال رجل برأيه بعد ما شاء.[٢]

٤- إسقاط سهم ذوي القربى من الخمس بعد وفاة الرسول :

ورد النص في الذكر الحكيم على أنّ لذي القربى سهم من الخمس قال سبحانه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَ للرَّسُولِ وَ لِذِى القُرْبَىٰ وَ اليَتَامَىٰ وَ المَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُم آمَنْتُم بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٣]. وقد أجمع أهل القبلة

١. تفسير الرازي: ٥ / ١٦٧، وفسّر الآية بالتمتّع بمحظورات الإحرام؛ وشرح التجريد للمحقّق القوشجي (وهو من أئمة الأشاعرة): وقد عدّه من اجتهاد الخليفة. نعم هو من اجتهاده مقابل النص!!

٢. الجامع لأحكام القرآن: ٢ / ٣٨٨.

٣. الأنفال: ٤١.

على أنّ الرسول كان يختصّ بسهم من الخمس ويخصّ أقاربه بسهم آخر. وأنّه لم يعهد تغيير ذلك حتّى دعاه اللّه إليه. غير أنّ أصحاب السلطة بعد الرسول أسقطوا سهم بني هاشم من الخمس، وجعلوهم كغيرهم من يتامىٰ النساء و مساكينهم وأبناء السبيل منهم، وقد عرفت في المخالفة الثالثة أنّ فاطمة عليها السلام طلبت من أبي بكر ما بقى من خمس خيبر .

ويشهد بذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس أنّه كتب إليه نجدة يسأله عن سهم ذي القربى؟ وعن اليتيم متى ينقضي يتمه؟ وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة؟ وعن قتل أطفال المشركين؟ فكتب إليه ابن عباس: انّك كتبت إليّ تسأل عن سهم ذي القربى لمن هو؟ وانّا كنّا نراها لقرابة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، فأبى ذلك علينا قومنا؛ وعن اليتيم متى ينقضي يتمه؟ قال: إذا احتلم....[1]

هذا وقد نقل القرطبي أقوالاً في كيفيّة تقسيم الخمس، وهي بين من يأخذ بنص الآية ويجعل سهماً لذي القربى ومن يجتهد أمام النص. ونقلها صاحب المنار في تفسيره.[2]

٥- قطع سهم المؤلّفة قلوبهم:

قال سبحانه: ﴿**إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرآءِ وَ المَسَاكِينِ و العَامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِقُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقَابِ وَ الغَارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ**

١. مسند أحمد: ١ / ٢٤٨.

٢. تفسير القرطبي: ٨ / ١٠؛ تفسير المنار: ١٠ / ١٧ ـ ١٨.

اللّهِ وَ اللّهُ عَلَيمٌ حَكِيمٌ﴾ [١]، الآية صريحة في أنّ لكلّ واحد من الأصناف المذكورة سهم ودلّت كتب السيرة والفقه على أنّ الرسول يعطي سهم المؤلّفة قلوبهم، فيؤلّف بذلك قلوبهم، وهذه سيرته المستمرّة معهم، لكن لمّا ولّي أبو بكر جاء المؤلّفة قلوبهم لاستيفاء سهمهم جرياً على عادتهم مع رسول اللّه فكتب أبوبكر لهم بذلك، فذهبوا بكتابه إلى عمر ليأخذوا خطّه عليه فمزّقه وقال: لا حاجة لنا بكم، فقد أعزّ الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلّا فالسيف بيننا وبينكم، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا له: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: بل هو إن شاء اللّه تعالى، وأمضى ما فعله عمر.[٢]

فاستمرّ الأمر على ذلك بعدهم، وأقصى ما عند المحقّقين من تبرير عمل الخليفة ما ذكره الدواليبي في كتابه «أُصول الفقه» وقال: ولعلّ اجتهاد عمر رضي الله عنه في قطع العطاء الّذي جعله القرآن الكريم للمؤلّفة قلوبهم كان في مقدّمة الأحكام الّتي قال بها عمر تبعاً لتغيير المصلحة بتغير الأزمان رغم أنّ النص القرآني لا يزال ثابتاً غير منسوخ.[٣]

وما ذكره الأُستاذ يعارض ذيله صدره، فما معنى أنّ النص القرآني لا يزال ثابتاً غيرمنسوخ؟ فإذا كان غير منسوخ فما معنى الاجتهاد في مقابل النص؟ لأنّ معنى ذلك إبطال القرآن في فترة خاصة، ولو صحّ لأصحاب السلطة هذا النمط من العمل لما بقي من الإسلام أثر، فالنص لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا تتقيّد إطلاقاته ولا عموماته بالمصالح المرسلة .

---

١. التوبة: ٦٠.

٢. الجوهرة النيرة: ١ / ١٦٤ وهي في الفقه الحنفي ونقله في المنار: ١٠ / ٥٧٦.

٣. أُصول الفقه: ٢٣٩.

نعم يجوز على القول بعدم لزوم الاستيعاب في تـقسيم الزكـاة، دفـعها إلى صـنف دون صنف، لكنّه إنّما يجوز مؤقّتاً لا دائماً، غير أنّ الخليفة قام بقطع سهم المؤلّفة قلوبهم من رأس، وهذا هو الّذي فهمه أبو حنيفة، والشافعي[1] بحجّة أنّ اللّه أعزّ الإسلام وهو اجتهاد من عمر بأنّه ليس من المصلحة استمرار هذا الأمر. ولا نريد من الاجتهاد في مقابل النص إلّا هذا .

هذه نماذج خمسة من مخالفتهم للـنصوص والعـمل وفـق اجـتهادات ذوقـية، غـير أنّ أصحاب السلطة قدّموها على النصوص بقوة وحماس، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ النصوص كانت أداة طيّعة للتغيير حسب الأهواء والميول الشخصية، سواء أكانوا مقصّرين في هذا التأويل أم قاصرين .

والهدف إيقاف القارئ على أن مخالفة النصوص لأصحاب النفوذ لم يكن أمراً عسيراً أو شيئاً نادراً .

وبذلك تبيّن أنّ إعراضهم عن أدلّة تنصيب الإمام للخلافة، لم يكن أمراً عجيباً، وذلك لجريان سيرة الصحابة على تقديم المصالح المزعومة على النصوص وبذلك يقطع العذر على من زعم أنّه لو كان في مسألة الخلافة وإمامة الإمام أميرالمؤمنين، نصّ، لما خالفه الصحابة العدول وتلقّوه بالقبول. فيقال: أوما أمرهم النبيّ، بإحضار القلم والدواة، فحالوا بينه وبين منيته؟! أو ما حثهم على تجهيز جيش أُسامة ولعن المتخلّفين عنه، ولكنّهم اثّاقلوا إلى الأرض؟! أو ما.. أوما...

وهناك كلمة لابن أبي الحديد، وهو يقارن بين سياستي عـلي وعـمر و سـياستي عـلي ومعاوية، وإليك نصّها :

---

١. تفسير المنار: ١٠ / ٥٧٦.

اعلم أنّ السائس لا يتمكّن من السياسة البالغة إلّا إذا كان يعمل برأيه، وبما يـرى فـيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته، سواء أوافق الشريعة أم لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، وإلّا فبعيد أن ينتظم أمره أو يستوثق حاله .

وأميرالمؤمنين عليه السلام كان مقيّداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتّباعها، ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير، إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته، قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول ضارّين على عمر بن الخطاب ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان، والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط، من أُصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النص، ويكيد خصمه، ويأمر أُمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط من يغلب على ظنّه أنّه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقّون به التأديب. كلّ ذلك بقوّة اجتهاده وما يؤدّيه إليه نظره. ولم يكن أميرالمؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبّق أُمور الدنيا على الدين ويسوق الكلّ مسـاقاً واحـداً، فـاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة.[1]

وقال الجاحظ: وربّما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحسين والفهم والتمييز، وهو من العامة وهو يظن أنّه من الخاصة يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً، وأصحّ فكراً، وأجود روية، وأبعد غاية، وأدق مسلكاً، وليس الأمر

١. شرح نهج البلاغة: ١٠ / ٥٧٢.

كذلك، وسأومي إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه، والمكان الّذي دخل عليه الخطأ من قبله .

كان عليعليه السلام لا يستعمل في حربه، إلّا ما وافق الكتاب والسنّة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنّة، كما يستعمل الكتاب والسنّة.[١]

وفي حياة الخليفة عشرات الشواهد على اجتهاده تجاه النص، وأي اجتهاد تجاهه أظهر وأولى من منع تدوين الحديث وكتابته الّذي هو المصدر الثاني الرئيسي للمسلمين بعد الذكر الحكيم، وقد بلغت السنّة من الكمال مكانة حتّى صار لفظ السنّي شعاراً لجمهور المسلمين .

ولعلّ في قوله سبحانه: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بِيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ واتَّقُوا اللّهَ إنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم**﴾[٢]. إشارة إلى بعض هذه الأُمور، ومعنى الآية: لا تقولوا حتّى يقول، ولا تأمروا حتّى يأمر، ولا تفتوا حتّى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتّى يقطع، بالتالي: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنّة فانّه تقدُّم على اللّه و رسوله.

فإذا كان هذا حال الخليفة وعمله طيلة حياته، فلا عجب أن يجتهد أمام نصوص الولاية والخلافة ويسدل عليها الستار، ولا يلتفت إليها ويندفع إلى تتبع مظان المصالح المزعومة في مجال الخلافة بعد عصر الرسول، وفي ما ذكرنا من مظان الاجتهاد أمام النص كفاية لطالب الحق .

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٠ / ٥٧٨، نقلاً عن أبي عثمان الجاحظ .
٢. الحجرات: ١.

الفصل الخامس:

مبدأ التشيُّع وتاريخ نشأته

زعم غير واحد من الكتّاب القدامى والجدد: أنّ التشيّع كسائر المذاهب الإسلامية من إفرازات الصراعات السياسية، في حين يذهب البعض الآخر إلى القول بأنّه نتاج الجدال الكلامي والصراع الفكري. فأخذوا يبحثون عن تاريخ نشوئه وظهوره في الساحة الإسلامية، وكأنّهم يتلقّون التشيّع بوصفه ظاهرة جديدة وافدة على المجتمع الإسلامي، ويعتقدون بأنّ القطاع الشيعي وإن كان من جسم الأُمّة الإسلامية إلّا أنّه تكوّن على مرّ الزمن نتيجة لأحداث وتطوّرات سياسية أو اجتماعية فكرية أدّت إلى تكوين هذا المذهب كجزء من ذلك الجسم الكبير، ومن ثمّ اتّسع ذلك الجزء بالتدريج.

ولعلّ هذا التصور الخاطئ لمفهوم التشيّع هو ما دفع أصحاب هذه الأُطروحات إلى التخبّط والتعثّر في فهمهم لحقيقة نشوء هذا المذهب، ومحاولاتهم الرامية لتقديم التفسير الأصوب، ولو أنّ أُولئك الدارسين شرعوا في دراستهم لتأريخ هذه النشأة من خلال الأُطروحات العقائدية والفكرية التي ابتني عليها التشيّع لأدركوا بوضوح ودون لبس أنّ هذا المذهب لا يؤلّف في جوهر تكوينه وقواعد أركانه إلّا الامتداد الحقيقي للفكر العقائدي للدين الإسلامي والذي قام عليه كيانه.

وإذا كان البعض يذهب إلى الاعتقاد بأنّ التشيّع يظهر بأوضح صوره

من خلال الالتفاف والمشايعة للوصي الذي اختاره رسول الله ﷺ خليفة له بأمر الله تعالى ليكون قائداً وإماماً للناس ـ كما كان رسول الله ﷺ ـ ففي ذلك أوضح المصاديق على حقيقة هذا النشوء الذي اقترن بنشوء وتبلور الفكر الإسلامي الكبير، والذي لابدّ له من الاستمرار والتواصل والتكامل حتّى بعد رحيل صاحب الرسالة ﷺ، والذي ينبغي له أن يكون الاستمرار الحقيقي لتلك العقيدة السماوية وحامل أعباء تركتها.

فإذا اعتبرنا بأنّ التشيّع يرتكز أساساً في استمرار القيادة بالوصي، فلا نجد له تأريخاً سوى تأريخ الإسلام، والنصوص الواردة عن رسوله ﷺ.

قد عرفت في الصفحات السابقة نصوصاً متوفرة في وصاية الإمام أمير المؤمنين، وإذا كانت تلك النصوص من القوّة والحجّية التي لا يرقى إليها الشكّ، وتعدّ وبدون تردّد ركائز عقائدية أراد أن يثبت أُسسها رسول الله ﷺ، فهي بلا شك تدلّ وبوضوح على أنّ هذه الاستجابة اللاحقة استمرار حقيقي لما سبقها في عهد رسول الله ﷺ، وإذا كان كذلك فإنّ جميع من استجابوا لرسول الله ﷺ، وانقادوا له انقياداً حقيقياً، يعدّون بلا شكّ روّاد التشيع الأوائل وحاملي بذوره، فالشيعة هم المسلمون من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان في الأجيال اللاحقة، من الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول في أمر القيادة، ولم يغيِّروه، ولم يتعدوا عنه إلى غيره، ولم يأخذوا بالمصالح المزعومة في مقابل النصوص، وصاروا بذلك المصداق الأبرز لقوله سبحانه: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَيِ الله ورَسُولِهِ واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]

---

١. الحجرات: ١.

ففزعوا في الأُصول والفروع إلى عليّ وعترته الطاهرة، وانحازوا عن الطائفة الأُخرى مِنَ الذين لم يتعبّدوا بنصوص الخلافة والولاية وزعامة العترة، حيث تركوا النصوص، وأخذوا بالمصالح.

إنّ الآثار المرويّة في حقّ شيعة الإمام عن لسان النبيّ الأكرم ـ والذين هم بالتالي شيعة لرسول اللهﷺ ـ ترفع اللثام عن وجه الحقيقة، وتعرب عن التفاف قسم من المهاجرين حول الوصي، فكانوا معروفين بشيعة عليّ في عصر الرسالة، وإنّ النبيّ الأكرم وصفهم في كلماته بأنّهم هم الفائزون، وإن كنت في شكّ من هذا فسنتلو عليك بعض ما ورد من النصوص في المقام:

١ ـ أخرج ابن مردويه عن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: «يا عائشة أما تقرئين: ﴿**إِنَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة**﴾».[١]

٢ ـ أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنّا عند النبيّﷺ فأقبل عليّ فقال النبيّ: «**والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**»، ونزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة**﴾ فكان أصحاب النبيّ إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البريّة.[٢]

٣ ـ أخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً: «**عليّ خير البريّة**».[٣]

---

١. الدر المنثور: ٦ / ٥٨٩، والآية هي السابعة من سورة البيّنة.
٢. الدر المنثور: ٦ / ٥٨٩.
٣. نفس المصدر.

٤ ـ وأخرج ابن عدي عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِك هُمْ خَيرُ البَرِيَّة**﴾ قال رسول الله ﷺ لعليّ: «**هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين**».

٥ ـ أخرج ابن مردويه عن عليّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِك هُمْ خَيرُ البَرِيَّة﴾ أنت وشيعتك، موعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأُمم للحساب تدعون غرّاً محجّلين**».[١]

٦ ـ روى ابن حجر في صواعقه عن أُمّ سلمة قالت: كانت ليلتي، وكان النبيّ ﷺ عندي فأتته فاطمة فتبعها عليّ ـ رضي الله عنهما ـ فقال النبيّ: «**يا عليّ أنت وأصحابك في الجنّة، أنت وشيعتك في الجنّة**».[٢]

٧ ـ روى ابن الأثير في نهايته: قال النبيّ مخاطباً عليّاً: «**يا عليّ، إنّك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيّين، ويقدم عليه عدوُّك غضاباً مقمحين**» ثمّ جمع يده إلى عنقه يريهم كيف الإقماح. قال ابن الأثير: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر.[٣]

٨ ـ روى الزمخشري في ربيعه: أنّ رسول الله قال: «**يا عليّ، إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله تعالى، وأخذت أنت بحجزتي، وأخذ ولدك**

---

١. نفس المصدر.

٢. الصواعق المحرقة: ١٦١.

٣. النهاية: ٤ / ١٠٦. ورواه ابن حجر في الصواعق: ١٥٤.

بحجزتك، وأخذ شيعة ولدك بحجزهم، فترى أين يؤمر بنا؟».[١]

٩ ـ روى أحمد في المناقب: أنّه ﷺ قال لعليّ: **«أما ترضى أنّك معي في الجنّة، والحسن والحسين وذرّيتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرّيتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا».**[٢]

١٠ ـ روى الطبراني: أنّه ﷺ قال لعليّ: **«أوّل أربعة يدخلون الجنّة: أنا وأنت والحسن والحسين، وذرّيتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرّياتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا».**[٣]

١١ ـ أخرج الديلمي: **«يا علي، إنّ الله قد غفر لك ولذرّيّتك ولولدك ولأهلك ولشيعتك، فأبشر فإنّك الأنزع البطين».**[٤]

١٢ ـ أخرج الديلمي عن النبيّ أنّه قال: **«أنت وشيعتك تردون الحوض رواء مرويّين، مبيضّة وجوهكم، وإنّ عدوّك يردون على الحوض ظماء مقمحين».**[٥]

١٣ ـ روى المغازلي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: **«يدخلون من أُمّتي الجنّة سبعون ألفاً لا حساب عليهم** ـ ثمّ التفت إلى عليّ فقال: ـ **هم شيعتك وأنت إمامهم».**[٦]

١٤ ـ روى المغازلي عن كثير بن زيد قال: دخل الأعمش على المنصور،

---

١. ربيع الأبرار: ١ / ٨٠٨.
٢. الصواعق: ١٦١.
٣. نفس المصدر.
٤. نفس المصدر.
٥. الصواعق: ١٦١.
٦. مناقب المغازلي: ٢٩٣.

فلمّا بصر به قال له: يا سليمان تصدَّر، قال: أنا صدر حيث جلست ـ إلى أن قال في حديثه: ـ حدّثني رسول الله قال: «**أتاني جبرئيل عليه السلام آنفاً فقال: تختّموا بالعقيق، فإنّه أوّل حجر شهد لله بالوحدانيّة، ولي بالنبوّة، ولعليّ بالوصيّة، ولولده بالإمامة، ولشيعته بالجنّة**».(١)

١٥ ـ روى ابن حجر: أنّه مرّ عليّ علىٰ جمعٍ فأسرعوا إليه قياماً، فقال: «**من القوم؟**» فقالوا: من شيعتك يا أمير المؤمنين، فقال لهم خيراً، ثمّ قال: «**يا هؤلاء مالي لا أرى فيكم سمة شيعتنا وحلية أحبَّتنا؟**» فأمسكوا حياءً، فقال له من معه: نسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصّكم وحباكم، لما أنبأتنا بصفة شيعتكم فقال: «**شيعتنا هم العارفون بالله، العاملون بأمر الله**».(٢)

١٦ ـ روى الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ): أنّ ابن عباس قال: سمعت رسول الله يقول: «**إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعة عليّ من الثواب والزلفى والكرامة...**».(٣)

١٧ ـ وروى أيضاً بسنده إلى سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**يا علي تختّم باليمين تكن من المقرّبين، قال: يا رسول الله ومن المقرّبون؟ قال: جبرئيل**

---

١. مناقب المغازلي: ٢٨١، ورواه السيد البحراني في غاية المرام عنه، وأنت إذا تدبّرت في الآيات الدالّة على سريان العلم والشعور في عامّة الموجودات مثل قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ ـ البقرة: ٧٤ ـ تستطيع أن تُصَدّقَ ما جاء في الحديث من شهادة العقيق بوحدانية الله.

٢. الصواعق: ١٥٤.

٣. علل الشرائع: ١٥٦.

وميكائيل، قال: فبما أتختّم يا رسول الله؟ قال: بالعقيق الأحمر؛ فإنّه جبل أقرّ لله بالوحدانيّة، ولي بالنبوّة، ولك يا عليّ بالوصيّة، ولولدك بالإمامة، ولمحبّيك بالجنّة، ولشيعتك وشيعة ولدك بالفردوس».(١)

وهذه النصوص المتضافرة الغنيّة عن ملاحظة أسنادها، تعرب عن كون عليّعليه السلام متميزاً بين أصحاب النبيّ بأنّ له شيعة وأتباعاً، ولهم مواصفات وسمات كانوا مشهورين بها، في حياة النبيّ وبعدها، وكانصلى الله عليه وآله يشيد بهم ويبشّر بفوزهم، وهم ـ بلا ريب ـ ليسوا بخارجين قيد أُنملة عن الخط النبوي المبارك للفكر الإسلامي العظيم، والذي يؤكّد على حقيقة التشيّع ومبدئه الذي لا يفترق عن نشوء الدين واستقراره.

فبعد هذه النصوص لا يصحّ لباحث أن يلتجئ إلى فروض ظنّية أو وهمية في تحديد تكوّن الشيعة وظهورها.

الشيعة في كلمات المؤرّخين وأصحاب الفرق

قد غلب استعمال لفظ الشيعة بعد عصر الرسول تبعاً له فيمن يوالي عليّاً وأهل بيته ويعتقد بإمامته ووصايته، ويظهر ذلك من خلال كلمات المؤرّخين وأصحاب المقالات والتي نشير إلى بعضها:

١ ـ روى المسعودي في حوادث وفاة النبي: أنّ الإمام عليّاً أقام ومن معه من شيعته في منزله بعد أن تمّت البيعة لأبي بكر.(٢)

---

١. علل الشرائع: ١٥٨.
٢. الوصية: ١٢١.

٢ ـ قال أبو مخنف: اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد فذكروا هلاك معاوية فحمدنا الله عليه فقال: إنّ معاوية قد هلك، وأنّ حسيناً قد تقبّض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكّة وأنتم شيعته وشيعة أبيه.[١]

٣ ـ وقال محمّد بن أحمد بن خالد البرقي (المتوفّى ٢٧٤هـ): إنّ أصحاب عليّ ينقسمون إلى الأصحاب، ثمّ الأصفياء، ثمّ الأولياء، ثمّ شرطة الخميس... ومن الأصفياء: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر، وعمّار، وأبو ليلى، وشبير، وأبو سنان، وأبو عمرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو برزة، وجابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، وطرفة الأزدي.[٢]

٤ ـ وقال النوبختي (المتوفّى ٣١٣هـ): إنّ أوّل فرق الشيعة، وهم فرقة عليّ بن أبي‌طالب، المسمّون شيعة عليّ في زمان النبيّ وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته.[٣]

٥ ـ وقال أبو الحسن الأشعري: وإنّما قيل لهم الشيعة؛ لأنّهم شايعوا عليّاً، ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله.[٤]

٦ ـ وقال الشهرستاني: الشيعة هم الذين شايعوا عليّاً على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصيّةً.[٥]

---

١. مقتل الإمام الحسين لأبي مخنف: ١٥ ولاحظ ص ١٦.
٢. الرجال للبرقي: ٣، ولاحظ فهرست ابن النديم: ٢٦٣، وعبارته قريبة من عبارة البرقي.
٣. فرق الشيعة: ١٥.
٤. مقالات الإسلاميين: ١ / ٦٥.
٥. الملل والنحل: ١ / ١٣١.

٧ ـ وقال ابن حزم: ومن وافق الشيعة في أنّ عليّاً أفضل الناس بعد رسول الله وأحقّهم بالإمامة، وولده من بعده، فهو شيعيّ، وإن خالفهم فيما عدا ذلك ممّا اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيّاً.[١]

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ممّا جاء في كلمات المؤرّخين وأصحاب المقالات، تعرب عن أنّ لفيفاً من الأُمّة في حياة الرسول وبعده إلى عصر الخلفاء وبعدهم كانوا مشهورين بالتشيّع لعليّ، و أنّ لفظة الشيعة ممّا نطق بها الرسول وتبعته الأُمّة في ذلك.

وإنّ الإمام علياً وإن تسامح وتساهل في أخذ حقّه ـ تبعاً لمصالح عظيمة مكنونة في مثل هذا التصرّف الحكيم ـ إلّا أنّ حقيقة استخلاف النبيّ له أمست فكرة عقائدية ثابتة في النفوس والقلوب، وتضاعف عدد المؤمنين بها و المتشيّعين له على مرور الأيام، ورجع الكثير من المسلمين إلى الماضي القريب، واحتشدت في أذهانهم صور عن مواقف النبيّ صلى الله عليه وآله، تلك المواقف التي كان يصرّح فيها باستخلاف عليّ من بعده تارة، ويلمّح فيها أُخرى، فالتفّوا حول عليّ عليه السلام وأصبحوا من الدعاة الأوفياء له في جميع المراحل التي مرّ بها، وما زال التشيّع ينمو وينتشر بين المسلمين في الأقطار المختلفة، يدخلها مع الإسلام جنباً إلى جنب، بل أنّ حقيقته استحكمت من خلال التطبيق العملي لهذا الاستخلاف عبر السنوات القصيرة التي تولّى فيها الإمام عليّ منصب الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفّان، فشاعت بين المسلمين أحاديث استخلافه، ووجد الناس من سيرته وزهده وحكمته ما أكّد لهم صحّة

١. الفصل في الملل والنحل: ٢ / ١١٣.

تلك المرويّات، وأنّه هو المختار لقيادة الأُمّة وحماية القرآن ونشر تعاليمه ومبادئه.[١]

وإذا كان العنصر المقوّم لإطلاق عبارة الشيعة هو مشايعة عليّ بعد النبيّ الأكرم في الزعامة والوصاية أوّلاً، وفي الفعل والترك ثانياً؛ فإنّه من غير المنطقي محاولة افتراض علّة اجتماعية أو سياسية أو كلامية لتكوّن هذه الفرقة.

ومن أجل أن ترتسم في الأذهان الصورة واضحة عن مجسّدي هذه التسمية في تلك الحقبة البعيدة في التأريخ والملاصقة لعصر الرسالة الأوّل، نستعرض جملة من رواد هذا الميدان المقدّس والذين يعدّون بحقّ أوائل حملة هذه التسمية المباركة على وجه الإجمال. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى ما كتب حولهم من المؤلّفات، وسنأتي بأسماء تلك الكتب في آخر البحث:

روّاد التشيّع في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله

إنّ الإحالة للتعرّف على روّاد التشيّع إلى الكتب المؤلّفة في ذلك المضمار لا تخلو من عسر وغموض، قد تدفع بالأمر إلى جملة من المناقشات، إلّا أنّنا سنقتصر في حديثنا على إيراد جملة من أُولئك الصحابة الذين اشتهروا بالتشيّع ونسبوا له:

١ ـ عبد الله بن عبّاس.

---

١. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ٢٨ ـ ٢٩.

٢ ـ الفضل بن العبّاس.

٣ ـ عبيد الله بن العبّاس.

٤ ـ قثم بن العبّاس.

٥ ـ عبد الرحمن بن العبّاس.

٦ ـ تمام بن العبّاس.

٧ ـ عقيل بن أبي‌طالب.

٨ ـ أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب.

٩ ـ نوفل بن الحرث.

١٠ ـ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

١١ ـ عون بن جعفر.

١٢ ـ محمّد بن جعفر.

١٣ ـ ربيعة بن الحرث بن عبد المطّلب.

١٤ ـ الطفيل بن الحرث.

١٥ ـ المغيرة بن نوفل بن الحارث.

١٦ ـ عبدالله بن الحرث بن نوفل.

١٧ ـ عبدالله بن أبي سفيان بن الحرث.

١٨ ـ العبّاس بن ربيعة بن الحرث.

١٩ ـ العبّاس بن عتبة بن أبي لهب.

٢٠ ـ عبدالمطّلب بن ربيعة بن الحرث.

٢١ ـ جعفر بن أبي سفيان بن الحرث.

هؤلاء من مشاهير بني هاشم، وأمّا غيرهم فإليك أسماء طائفة منهم:

٢٢ ـ سلمان الفارسي المحمّدي.

٢٣ ـ المقداد بن الأسود الكندي.

٢٤ ـ أبو ذرّ الغفاري.

٢٥ ـ عمّـار بن ياسر.

٢٦ ـ حذيفة بن اليمان.

٢٧ ـ خزيمة بن ثابت.

٢٨ ـ أبو أيوب الأنصاري، مضيّف النبيّ صلى الله عليه وآله.

٢٩ ـ أبو الهيثم مالك بن التيهان.

٣٠ ـ أُبيّ بن كعب.

٣١ ـ سعد بن عبادة.

٣٢ ـ قيس بن سعد بن عبادة.

٣٣ ـ عديّ بن حاتم.

٣٤ ـ عبادة بن الصامت.

٣٥ ـ بلال بن رباح الحبشي.

٣٦ ـ أبو رافع مولى رسول الله.

٣٧ ـ هاشم بن عتبة.

٣٨ ـ عثمان بن حنيف.

٣٩ ـ سهل بن حنيف.

٤٠ ـ حكيم بن جبلة العبدي.

٤١ ـ خالد بن سعيد بن العاص.

٤٢ ـ ابن الحصيب الأسلمي.

٤٣ ـ هند بن أبي هالة التميمي.

٤٤ ـ جعدة بن هبيرة.

٤٥ ـ حجر بن عديّ الكندي.

٤٦ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي.

٤٧ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري.

٤٨ ـ محمّد بن أبي بكر.

٤٩ ـ أبان بن سعيد بن العاص.

٥٠ ـ زيد بن صوحان العبدي.

هؤلاء خمسون صحابياً من الطبقة الأُولى للشيعة، فمن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيّعهم فليرجع إلى الكتب المؤلّفة في الرجال، ولكن بعين مفتوحة وبصيرة نافذة.

في الختام نورد ما ذكره محمّد كرد عليّ في كتابه «خطط الشام»

قال: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة عليّ في عصر رسول اللهﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعليّ بن أبيطالب والموالاة له.

ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أُمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولمّا سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحجّ.

قيل: فما الواحدة التي تركوها؟

قال: ولاية عليّ بن أبي طالب.

قيل له: وإنّها لمفروضة معهنّ؟

قال: نعم هي مفروضة معهنّ.

ومثل أبي ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبيأيّوب الأنصاري، وخالد بن سعيد، وقيس بن سعد بن عبادة.[1]

الكتب المؤلّفة حول روّاد التشيّع:

إنّ لفيفاً من علماء الإمامية ومفكّريها قاموا بإفراد العديد من المؤلّفات القيّمة والتي تناولت في متونها بالشرح والتفصيل ما يتعلّق بروّاد التشيع الأوائل ودورهم في تثبيت الأركان العقائدية للفكر الإسلامي الناصع، نذكر في هذا المقام ما وقفنا عليه:

---

١. خطط الشام: ٥ / ٢٥١.

١ ـ صدر الدين السيّد عليّ المدني الحسيني الشيرازي، صاحب كتاب سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، وأنوار الربيع في علم البديع، وطراز اللغة، توفّي عام (١١٢٠هـ) أفرد تأليفاً في ذلك المجال أسماه بـ«الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية» خصَّ الطبقة الأُولى بالصحابة الشيعة، وخصَّص الباب الأوّل لبني هاشم من الصحابة، والباب الثاني في غيرهم منهم. وقام في الباب الأوّل بترجمة (٢٣) صحابيّاً من بني هاشم لم يفارقوا عليّاً قط، كما قام في الباب الثاني بترجمة (٤٦) صحابيّاً.[١]

٢ ـ ذكر الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه «أصل الشيعة وأُصولها» أسماء جماعة من الصحابة الذين كانوا يشايعون عليّاً في حلّه وترحاله وقال ـ معلقاً على قول أحمد أمين الكاتب المصري: «والحقّ أنّ التشيع كان مأوى يرجع إليه كل من أراد هدم الإسلام» ـ:

ونحن لولا محافظتنا على مياه الصفاء أن لا تتعكّر، ونيران البغضاء أن لا تتسعّر، وأن تنطبق علينا حكمة القائل: «لا تنه عن خلق وتأتي مثله» لعرّفناه مَن الذي يريد هدم قواعد الإسلام بمعاول الإلحاد والزندقة، ومن الذي يسعى لتمزيق وحدة المسلمين بعوامل التقطيع والتفرقة، ولكنّا نريد أن نسأل ذلك الكاتب: أيّ طبقة من طبقات الشيعة أرادت هدم الإسلام؟ هل الطبقة الأُولى وهم أعيان صحابة النبيّ وأبرارهم كسلمان المحمّدي أو الفارسي، وأبي‌ذر، والمقداد، وعمّار، وخزيمة ذي الشهادتين، وابن التيهان، وحذيفة بن اليمان، والزبير، والفضل بن العبّاس، وأخيه الحبر عبد الله، وهاشم بن عتبة المرقال،

---

١. الدرجات الرفيعة: ٧٩ ـ ٤٥٢.

وأبي أيّوب الأنصاري، وأبان وأخيه خالد بن سعيد بن العاص، وأُبيّ بن كعب سيد القرّاء، وأنس بن الحرث بن نبيه، الذي سمع النبيّ يقول: «**إنّ ابني الحسين يقتل في أرض يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك منكم فلينصره**» فخرج أنس وقتل مع الحسين، راجع الإصابة والاستيعاب وهما من أوثق ما ألّف علماءُ السنّة في تراجم الصحابة، ولو أردت أن أعدّ عليك الشيعة من الصحابة وإثبات تشيّعهم من نفس كتب السنّة لأحوجني ذلك إلى إفراد كتاب ضخم.[١]

٣ ـ كما أنّ الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧هـ) قام بجمع أسماء الشيعة من الصحابة حسب حروف الهجاء، وقال: وإليك ـ إكمالاً للبحث ـ بعض ما يحضرني من أسماء الشيعة من أصحاب رسول الله لتعلم أنّ بهم اقتدينا، وبهديهم اهتدينا، وسأُفرد لهم ـ إن وفّق الله ـ كتاباً يوضّح للناس تشيّعهم، ويحتوي على تفاصيل شؤونهم، ولعلّ بعض أهل النشاط من حملة العلم وسدنة الحقيقة يسبقني إلى تأليف ذلك الكتاب، فيكون لي الشرف إذ خدمته بذكر أسماء بعضهم في هذا الباب وهي على ترتيب حروف الهجاء.

ثمّ ابتدأ بأبي رافع القبطي مولى رسول الله، وختمهم بيزيد بن حوثرة الأنصاري، ولم يشر إلى شيء من حياتهم، وإنّما ألقى ذلك على الأمل أو على من يسبقه من بعض أهل النشاط.

إلّا أنّه رحمه الله ذكر ما يربو على المائتين من أسمائهم.[٢]

٤ ـ قام الخطيب المصقع الدكتور الشيخ أحمد الوائلي «حفظه الله» بذكر

---

١. أصل الشيعة وأُصولها: ٥٣ ـ ٥٤.

٢. الفصول المهمّة في تأليف الأُمّة: ١٧٩ ـ ١٩٠.

أسماء روّاد التشيّع في عصر الرسول في كتابه «هويّة التشيّع» فجاء بأسماء مائة وثلاثين من خُلَّص أصحاب الإمام من الصحابة الكرام، وقال بعد ذكره لتنويه النبيّ باستخلاف عليّ في غير واحد من المواقف:

ولا يمكن أن تمرّ هذه المواقف والكثير الكثير من أمثالها من دون أن تشد الناس لعليّ، ودون أن تدفعهم للتعرف على هذا الإنسان الذي هو وصيّ النبيّ، ثمّ لابدّ للمسلمين من إطاعة الأوامر التي وردت في النصوص، والالتفاف حول من وردت فيه. ذلك معنى التشيّع الذي نقول إنّ النبيّ ﷺ هو الذي بذر بذرته، وقد أينعت في حياته، وعرف جماعة بالتشيّع لعليّ والالتفاف حوله، وللتدليل على ذلك سأذكر لك أسماء الرعيل الأوّل من الصحابة الذين عرفوا بتشيّعهم للإمام عليّ.[1]

٥ ـ آخرهم وليس أخيرهم كاتب هذه السطور حيث قام مجيباً دعوة السيّد شرف الدين فألّف كتاباً باسم «الشخصيات الإسلامية» في ذلك المجال في عدّة أجزاء، طُبع منه جزءان، وانتهينا في الجزء الثاني إلىٰ ترجمة أبي ذر (جندب بن جنادة) ذلك الصحابي العظيم، والكتاب باللغة الفارسية، ونقله إلى العربية الشيخ المحقّق البارع جعفر الهادي وطبع ونشر.

وأخيراً فإنّ من أراد أن يقف بشكل جليّ على روّاد التشيّع في كتب الرجال لأهل السنّة فإنّ هذا الأمر ليس بمتعسّر ولا بممتنع، والتي يمكننا الإشارة إلى البعض منها أمثال:

١ ـ الاستيعاب لابن عبد البرّ (المتوفّى ٤٥٦ هـ).

---

١. هويّة التشيّع: ٣٤.

٢ ـ أُسد الغابة للجزري (المتوفّى ٦٠٦ هـ).

٣ ـ الإصابة لابن حجر (المتوفّى ٨٥٢ هـ).

وغير ذلك من أُمّهات كتب الرجال المعروفة.

الفصل السادس:

فرضيّات وهميّة لمبدأ التشيّع

لقد تقدّم الحديث منّا في الصفحات السابقة حول ما يمكن تسميته بنشأة التشيّع، والتي تبّين لنا بوضوح أنّه لا فصل هنا بين النشأتين، نشأة الإسلام، ونشأة التشيّع، وأنّهما وجهان لعملة واحدة، إلّا أنّ هناك جماعة من المؤرّخين وكتّاب المقالات ممّن قادهم الوهم وسوء الفهم إلى اعتبار التشيّع أمراً حادثاً وطارئ على المجتمع الإسلامي، فأخذوا يفتّشون عن مبدئه ومصدره، وأشدّ تلك الظنون عدوانية فيه ما تلوكه أشداق بعض المتقدّمين والمتأخّرين، هو كونه وليد عبد الله بن سبأ ذلك الرجل اليهودي، الذي ـ بزعمهم ـ طاف الشرق والغرب، وأفسد الأُمور على الخلفاء والمسلمين، وألّب الصحابة والتابعين على عثمان فقتل في عقر داره، ثمّ دعا إلى عليّ بالإمامة والوصاية، وإلى النبيّ بالرجعة، وكوَّن مذهباً باسم الشيعة، فهو كما يتصوّر هؤلاء وصوّروه لغيرهمصنيع ذلكالرجاليهودي المتظاهر بالإسلام. وبما أنّ لهذا الموضوع أهمية خاصة لما احتلّه من المساحة الواسعة في أذهان العديد من السذج والسطحيّين، فإنّا لا نكتفي ببيان توهّم واحد بل نأتي على ذكر كلّ تلك الادّعاءات واحدة بعد الأُخرى، مع رعاية التسلسل الزمني.

الفرضيّة الأُولىٰ:

الشيعة ويوم السقيفة

ليس بخاف على أحد مدى الانعطافة الخطيرة التي حدثت في تأريخ الإسلام عقب انتهاء مؤتمر سقيفة بني ساعدة، وما ترتّب عليه من نتائج وقرارات خطيرة.

والحقّ يقال إنّ هذا المؤتمر الذي ضمّ بين صفوفه ثلّة كبيرة من وجوه الصحابة ـ من المهاجرين والأنصار ـ قد أغفل عند انعقاده الواجب الأعظم في إكرام رسول‌الله صلى الله عليه وآله صاحب الفضل الأكبر فيما وصل إليه الجميع ـ عندما تُرك مُسجّى بين يدي أهل بيته وانشغلوا بما كان من غير الإنصاف أن ينسب إليه صلى الله عليه وآله من قصور لا عذر فيه في ترك الأُمّة حائرة به بعد موته.

أقول: ونتيجة لانشغالهم ذاك فقد حرموا من واجب إكرام الرسول صلى الله عليه وآله جلّه، ففاتهم أعظمه، وقصروا في تأديته، وكان لأهل بيته وحدهم ذلك الدور كلّه، فأوفوه، ولم يألوا في ذلك جهداً.

وإذا كان المؤتمرون في السقيفة قد خرجوا إلى الملأ بقرار كان ثمرة مخاض عسير واعتراك صعب؛ فإنّه أوضح وبلا أدنى ريب تبعثر الآراء واختلافها، بل وظروف خطرة كان من الممكن أن تودي بالجهد العظيم الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين في إرساء دعائم هذا

الدين وتثبيت أركانه، وأوضحت ـ وذاك لا خفاء عليه ـ أنّ من غير المنطقي لرسول اللهﷺ أن يرحل ـ مع أنّه لم يفاجئه الموت ـ دون أن يدرك هذه الحقيقة التي ليس هو ببعيد عنها، ولا يمكن أن يتغاضى عنها، وهو الذي ما خرج في أمر جسيم إلّا وخلّف عنه من ينوبه في إدارة شؤون الأُمّة في فترة غيابه التي لا يلبث أن يعود منها بعد أيّام معدودات، فكيف بالرحيل الأبدي؟!

نعم إنّ هذا الأمر لابدّ وإن يستوقف كلّ ذي لب وعقل مستنير.

كما أنّ الاستقراء المتأنّي لأحداث السقيفة قد أوضح وبقوّة في أثناء المؤتمر وبعده وجود تيار قوي ومتماسك تبنّته جملة من وجوه الصحابة ومتقدّميها، وعمدت إلى التذكير بوجوده والإجهار به، ولو قادهم هذا الأمر إلى الإقتتال دون تنفيذه، وذاك الأمر هو الإصرار على إيكال أمر الخلافة إلى عليّ بن أبي طالبعليه السلام دون غيره، رغم ابتعادهعليه السلام عن ساحة الاعتراك وميدان التنازع في تلك السقيفة.

ولعلّ تمسّك هذه الثلّة من الصحابة بموقفها من بيعة الإمام دون غيره هو ما دفع بعض المؤرّخين إلى الذهاب بأنّ التشيّع كان وليد هذا المؤتمر ونتاج مخاضه، وأن يليهم آخرون يتعبّدون بهذا الرأي ويرتّبون من خلاله تصوّراتهم وأفكارهم، فيتشعّب ذلك إلى جملة واسعة من المتبنّيات غير الواقعية والقائمة على أرض واسعة من الأوهام والاسترسال غير المنطقي.

ولعلّ هذه التصوّرات تعتمد في فهمها أساساً لمبدأ نشأة التشيّع على ما رواه الطبري وغيره عن مجريات هذا المؤتمر وما ترتّب عليه من

نتائج، دون أن تمد بصرها إلى أبعد من هذه النقطة اللامعة والتأمل في أبعادها.

قال الطبري: اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة، فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منّا الأُمراء ومنكم الوزراء ـ إلى أن قال: ـ فبايعه عمر وبايعه الناس، فقالت الأنصار ـ أو بعض الأنصار ـ: لانبايع إلّا عليّاً.

ثمّ قال (أي الطبري): أتى عمر بن الخطّاب منزل عليّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرّقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة.

فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه.

وقال أيضاً: وتخلّف عليّ والزبير، واخترط الزبير سيفه وقال: لا أغمده حتى يبايع عليّ. فبلغ ذلك أبا بكر وعمر فقالا: خذوا سيف الزبير.[١]

وقال اليعقوبي في تأريخه: ومالوا مع عليّ بن أبي طالب، منهم: العبّاس بن عبد المطّلب، والفضل بن العبّاس، والزبير بن العوّام، وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبيّ بن كعب.[٢]

١. تاريخ الطبري: ٢ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤.
٢. تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٠٣.

وروى الزبير بن بكار في الموفّقيات: انّ عامّة المهاجرين وجلّ الأنصار كانوا لا يشكّون أنّ عليّاً هو صاحب الأمر.

وروى الجوهري في كتاب السقيفة: أنّ سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً.

وروى أيضاً: أنّه لما بويع أبوبكر واستقر أمره، ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته، ولام بعضهم بعضاً، وهتفوا باسم الإمام عليّ، ولكنّه لم يوافقهم.[1]

وروى ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة»: كان أبو ذر وقت أخذ البيعة غائباً عن هذه الأحداث، فلمّا جاء قال: أصبتم قناعة، وتركتم قرابة، لو جعلتم الأمر في أهل بيت نبيّكم لما اختلف عليكم الاثنان.

وقال سلمان: أصبتم ذا السن، وأخطأتم المعدن، أمّا لو جعلتموه فيهم ما اختلف منكم اثنان، ولأكلتموها رغداً.

وهكذا فمن خلال هذه النصوص المتقدّمة وغيرها اعتقد ذاك البعض ـ الذي أشرنا إليه سابقاً ـ أنّ مبتدأ التشيّع ونشأته كان في تلك اللحظات الحرجة في تأريخ الإسلام، متناسين أنّ ما اعتمدوه في بناء تصوّراتهم هو ما ينقضها ويثبت بطلانها، فإنّ المتأمل في هذه النصوص يظهر له وبوضوح أنّ فكرة التشيّع لعليّ ليست وليدة هذا الظرف المعقّد، وثمرة اعتلاجه، ونقيض تصوّره، بقدر ما تؤكّد على أنّ هذه الفكرة كانت مختمرة في أذهانهم ومركوزة في عقولهم ولسنين طوال، فلمّا رأت هذه الجماعة انصراف الأمر إلى جهة لم تكن

١. انظر شرح نهج البلاغة: ٦ / ٤٣ ـ ٤٤.

في حساباتهم ولا في حدود تصوّراتهم، وانحساره عمّا كان معهوداً به إليهم، عمدوا إلى التمسّك به بالاجتماع في بيت عليّ والإعلان صراحة عن موقفهم ومعتقدهم.

نعم إنّ من غير المتوقع والمعهود أن يجتمع رأي هذه الجماعة ـ التي تؤلف خلاصة غنيّة من متقدّمي الصحابة ـ على هذا الأمر في تلك اللحظات المضطربة والمليئة بالمفاجآت، وأن يترتّب عليه موقف موحّد ثابت، فهذا الأمر يدلّ بوضوح على أنّه ما كان وليد يومه ونتاج مخاضه.

وممّا يؤكد ذلك ويقوي أركانه ما نقلته جميع مصادر الحديث المختلفة من نداءات رسول الله ﷺ وتوصياته بحقّ عليّ وعترته وشيعته في أكثر من مناسبة ومكان، وما كان يشير إليه ﷺ من فضل شيعة عليّ ومكانتهم، والتأكيد على وجوب ملازمتهم، وفي هذا دلالة لا تقبل النقض على أنّ التشيّع ما كان وليد السقيفة أو ردّة رافضة آنية لمجريات أحداثها، بل إنّ هذا الوجود يمتد عمقاً مع نشأة الإسلام واشتداد عوده في زمن النبيّ محمّد ﷺ وحياته المباركة المقدّسة.

الفرضيّة الثانية:

التشيّع صنيع عبد الله بن سبأ

لنقرأ ما كتبه الطبري حول هذا الوهم المصطنع:

قال: «إنّ يهودياً باسم عبد الله بن سبأ المكنّى بابن السوداء في صنعاء أظهر الإسلام في عصر عثمان، واندسّ بين المسلمين، وأخذ يتنقّل في حواضرهم وعواصم بلادهم: الشام، والكوفة، والبصرة، ومصر، مبشّراً بأنّ للنبيّ الأكرم رجعة كما أنّ لعيسى بن مريم رجعة، وأنّ عليّاً هو وصي محمّدﷺ كما كان لكل نبيّ وصي، وأنّ عليّاً خاتم الأوصياء كما أنّ محمّداً خاتم الأنبياء، وأنّ عثمان غاصب حقّ هذا الوصيّ وظالمه، فيجب مناهضته لإرجاع الحقّ إلى أهله».

«إنّ عبد الله بن سبأ بثّ في البلاد الإسلامية دعاته، وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطعن في الأُمراء، فمال إليه وتبعه على ذلك جماعات من المسلمين، فيهم الصحابي الكبير والتابعي الصالح من أمثال أبي ذر، وعمّار بن ياسر، ومحمّد بن حذيفة، وعبد الرحمن بن عديس، ومحمّد بن أبي بكر، وصعصعة بن صوحان العبدي، ومالك الأشتر، إلى غيرهم من أبرار المسلمين وأخيارهم، فكانت السبئية تثير الناس على ولاتهم، تنفيذاً لخطّة زعيمها، وتضع كتباً في عيوب الأُمراء وترسل إلى غير مصرهم من الأمصار. فنتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين ـ

بتحريض السبئيين ـ وقدومهم إلى المدينة وحصرهم عثمان في داره، حتّى قتل فيها، كلّ ذلك كان بقيادة السبئيّين ومباشرتهم».

«إنّ المسلمين بعد ما بايعوا عليّاً، ونكث طلحة والزبير بيعته وخرجا إلى البصرة، رأى السبئيّون أنّ رؤساء الجيشين أخذوا يتفاهمون، وأنّه إنّ تمّ ذلك سيؤخذون بدم عثمان، فاجتمعوا ليلاً وقرّروا أنّ يندسّوا بين الجيشين ويثيروا الحرب بكرة دون علم غيرهم، وأنّهم استطاعوا أنّ ينفّذوا هذا القرار الخطير في غلس الليل قبل أن ينتبه الجيشان المتقاتلان، فناوش المندسّون من السياسيين في جيش عليّ من كان بأزائهم من جيش البصرة، ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما، وظنّ كلّ بخصمه شرّاً، ثمّ إنّ حرب البصرة وقعت بهذا الطريق، دون أن يكون لرؤساء الجيشين رأي أو علم».

روى الطبري عن هذا الوهم في موضع آخر من كتابه:

«فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، عن يزيد الفقعسي، قال: كان عبد الله بن سبأ يهوديّاً من أهل صنعاء أُمّه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثمّ تنقّل في بلدان المسلمين يحاول إضلالهم، فبدأ بالحجاز، ثمّ البصرة، ثمّ الكوفة، ثمّ الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتّى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول: العجب فيمن يزعم أنّ عيسى يرجع ويكذب بأنّ محمداً يرجع، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرآنَ لرَادُّك إلى مَعادٍ**﴾[1]، فمحمّد أحقّ بالرجوع من عيسى. قال: فَقُبِل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلّموا فيها، ثمّ قال لهم بعد ذلك: إنّه كان

١. القصص: ٨٥.

ألف نبيّ، ولكلّ نبيّ وصيّ، وكان عليّ وصي محمّد. ثمّ قال: محمّد خاتم الأنبياء وعليّ خاتم الأوصياء. ثمّ قال بعد ذلك: من أظلم ممّن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأُمّة. ثمّ قال لهم بعد ذلك: إنّ عثمان أخذها بغير حق وهذا وصيّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. فبثّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أُولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتّى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرّون غير ما يبدون...» إلى آخر ما يذكره الطبري في المقام، حتّى يتوقّف عن إيراد هذه الأحداث بعد حرب الجمل ولا يأتي بعد ذلك بشيء عن السبئية.[١]

وهكذا فقد تبيّن لك ممّا أوردناه عن الطبري إنّ جلّة من فضلاء الصحابة قد عُدّوا من كبار السبئية وقادتها، وهم الذين كانوا يعرفون بالزهد والتقى والصدق والصفاء:

فأمّا عبد الرحمن بن عديس البلوي فهو ممّن بايع النبي تحت الشجرة وشهد فتح مصر، وكان رئيساً على من سار إلى عثمان من مصر.[٢]

---

١. تاريخ الطبري: ٣ / ٣٧٨.

٢. أُسد الغابة: ٣ / ٣٠٩ قال: وشهد بيعة الرضوان وبايع فيها وكان أمير الجيش القادم من مصر لحصر عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لمّا قتلوه، روى عنه جماعة من التابعين بمصر....

وأمّا محمّد بن أبي بكر: فأُمّه أسماء بنت عميس الخثعمية، تزوّجها أبو بكر بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب، فولدت له محمّداً في حجّة الوداع بطريق مكّة، ثم نشأ في حجر عليّ بعد أبيه، وشهد معه حرب الجمل، كما شهد صفّين، ثمّ ولي مصر عن عليّ إلى أن قتل فيها بهجوم عمرو بن العاص عليها.[١]

وأمّا صعصعة بن صوحان العبدي: فقد أسلم على عهد رسول الله وكان خطيباً مفوّهاً، شهد صفّين مع علي. ولما استشهد عليّ واستولى معاوية على العراق نفاه إلى البحرين ومات فيها.[٢]

وأمّا الأشتر: فهو مالك بن الحرث النخعي، وهو من ثقات التابعين، شهد وقعة اليرموك، وصحب عليّاً في الجمل وصفّين، ولّاه على مصر سنة (٣٨ه) ولمّا وصل إلى القلزم دسّ إليه معاوية السمّ بواسطة أحد عملائه فتوفّي مسموماً.[٣]

هذا هو الذي ذكره الطبري، وقد أخذه من جاء بعده من المؤرّخين وكتّاب المقالات حقيقة راهنة، وبنوا عليه ما بنوا من الأفكار والآراء، فصارت الشيعة وليدة السبئية في زعم هؤلاء عبر القرون والأجيال.

---

١. كان أحد من توثّب على عثمان حتّى قتل ثمّ انضمّ إلى عليّ. أُسد الغابة: ٤ / ٣٢٤، الاستيعاب: ٣ / ٣٢٨، الجرح والتعديل: ٧ / ٣٠١.

٢. أُسد الغابة: ٣ / ٣٢٠ قال: تقدّم نسبه في أخيه زيد، وكان صعصعة مسلماً على عهد رسول الله ﷺ ولم يره، وصغر عن ذلك، وكان سيّداً من سادات قومه عبد القيس، وكان فصيحاً بليغاً لسناً ديّناً فاضلاً يعد في أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ وشهد معه حروبه.

٣. ملك العرب، أحد الأشراف والأبطال. الطبقات الكبرى: ٦ / ٢١٣، الإصابة: ٣ / ٤٥٩، سير أعلام النبلاء: ٤ / ٣٤.

ومن الذين وقعوا في هذا الخطأ الفاحش دون فحص وتأمل في حقائق الأُمور:

١ ـ ابن الأثير (المتوفّى ٦٣٠هـ)، فقد أورد القصّة منبثّة بين حوادث (٣٠ ـ ٣٦هـ) وهو وإن لم يذكر المصدر في المقام، لكنّه يصدر عن تاريخ الطبري في حوادث القرون الثلاثة الأُول.[١]

٢ ـ ابن كثير الشامي (المتوفّى ٧٧٤هـ) فقد ذكر القصّة في تأريخه «البداية والنهاية» وأسندها عندما انتهى من سرد واقعة الجمل إلى تاريخ الطبري، وقال: هذا ملخّص ما ذكره أبو جعفر بن جرير.[٢]

٣ ـ ابن خلدون (المتوفّى ٨٠٨هـ)، في تأريخه «المبتدأ والخبر» أورد القصّة في حادثة الدار والجمل وقال: هذا أمر الجمل ملخّصاً من كتاب أبي جعفر الطبرى.[٣]

---

١. لاحظ مقدّمة تاريخ الكامل يقول فيه: فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري؛ إذ هو الكتاب المعوّل عند الكافّة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه فأخذت ما فيه جميع تراجمه، لم أخل بترجمة واحدة منها. لاحظ: ١ / ٣ط دار صادر.

٢. البداية والنهاية: ٧ / ٢٤٦.

٣. تاريخ ابن خلدون يقول: «و بعث (عثمان) إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأُسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وغيرهم إلى سوى هذه، فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامّهم إلّا عماراً فإنّه استماله قوم من الأشرار وانقطعوا إليه، منهم عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء كان يهودياً وهاجر أيّام عثمان فلم يحسن إسلامه وأُخرج من البصرة... تاريخ ابن خلدون أو كتاب العبر: ٢ / ١٣٩، وقال: ١٦٦: هذا أمر الجمل ملخّص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء.

وأمّا من جاء بعد أُولئك المؤرّخين وأخذوا ما أورده السابقون مأخذ التسليم فنذكر منهم:

٤ ـ محمّد رشيد رضا، مؤسس مجلة المنار (المتوفّى ١٣٥٤هـ)، ذكره في كتابه «السنّة والشيعة» وقال: وكان مبتدع أُصوله (أي التشيّع) يهودي اسمه عبدالله بن سبأ، أظهر الإسلام خداعاً، ودعا إلى الغلو في عليّ كرم الله وجهه، لأجل تفريق هذه الأُمّة، وإفساد دينها ودنياها عليها، ثمّ سرد القصّة وقال: ومن راجع أخبار واقعة الجمل في تاريخ ابن الأثير مثلاً يرى مبلغ تأثير إفساد السبئيّين دون ما كاد يقع من الصلح.[١]

٥ ـ أحمد أمين (المتوفّى ١٣٧٢هـ)، وهو الذي استبطل عبد الله بن سبأ في كتابه «فجر الإسلام» وقال: إنّ ابن السوداء كان يهوديّاً من صنعاء، أظهر الإسلام في عهد عثمان، وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبثّ في البلاد عقائد كثيرة ضارّة، وقد طاف في بلاد كثيرة، في الحجاز، والبصرة، والكوفة، والشام، ومصر. ثمّ ذكر أنّ أبا ذر تلقّى فكرة الاشتراكية من ذلك اليهودي، وهو تلقّى هذه الفكرة من مزدكيّي العراق أو اليمن.

وقد كان لكتاب «فجر الإسلام» عام انتشاره (١٩٥٢ م) دويّ واسع النطاق في الأوساط الإسلامية؛ فإنّه أوّل من ألقى الحجر في المياه الراكدة بشكل واسع، وقد ردّ عليه أعلام العصر بأنواع الردود، فألّف الشيخ المصلح كاشف الغطاء «أصل الشيعة وأُصولها» ردّاً عليه، كما ردّ عليه العلامة الشيخ عبد الله السبيتي بكتاب أسماه «تحت راية الحق».

---

١. السنّة والشيعة: ٤، ٦، ٤٥، ٤٩ و ١٠٣.

٦ ـ فريد وجدي مؤلّف دائرة المعارف (المتوفّى ١٣٧٠هـ) فقد أشار إلى ذلك في كتابه عند ذكره لحرب الجمل ضمن ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب.[١]

٧ ـ حسن إبراهيم حسن، وذكره في كتابه «تاريخ الإسلام السياسي» في أُخريات خلافة عثمان بقوله: «فكان هذا الجوّ ملائماً تمام الملاءمة ومهيّأً لقبول دعوة (عبد الله بن سبأ) ومن لفّ لفّه والتأثّر بها إلى أبعد حدّ ـ وأضاف ـ وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوى ـ وكان من كبار أئمّة الحديث ـ وهو أبو ذر الغفاري الذي تحدّى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء وهو عبد الله بن سبأ، وكان يهوديّاً فأسلم، ثمّ أخذ ينتقل في البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثمّ البصرة فالكوفة والشام ومصر...»[٢]

هذا حال من كتب عن الشيعة من المسلمين، وأمّا المستشرقون المتطفّلون على موائد المسلمين فحدّث عنهم ولا حرج، فقد ابتغوا تلك الفكرة الخاطئة في كتبهم الاستشراقية التي تؤلّف لغايات خاصّة، فمن أراد الوقوف على كلماتهم فليرجع إلى ما ألّفه الباحث الكبير السيّد مرتضى العسكري في ذلك المجال، فإنّه ـ دام ظلّه ـ حقّق المقال ولم يبق في القوس منزعاً.[٣]

---

١. دائرة معارف القرن العشرين: ٦ / ٦٣٧.
٢. تاريخ الإسلام السياسي: ٣٤٧.
٣. عبد الله بن سبأ: ١ / ٤٦ ـ ٥٠.

نظر المحقّقين في الموضوع:

١ ـ إنّ ما جاء في تاريخ الطبري من القصّة، على وجه لا يصحّ نسبته إلّا إلى عفاريت الأساطير ومردة الجنّ؛ إذ كيف يصحّ لإنسان أن يصدّق أنّ يهوديّاً جاء من صنعاء وأسلم في عصر عثمان، واستطاع أن يغري كبار الصحابة والتابعين ويخدعهم، ويطوف بين البلاد ناشراً دعواه، بل واستطاع أن يكوّن خلايا ضدّ عثمان ويستقدمهم على المدينة، ويؤلّبهم على الخلافة الإسلامية، فيهاجموا داره ويقتلوه، بمرأى ومسمع من الصحابة العدول ومن تبعهم بإحسان، هذا شيء لا يحتمله العقل وإن وطّن على قبول العجائب والغرائب.

بل إنّ هذه القصّة تمسّ كرامة المسلمين والصحابة والتابعين وتصوّرهم أُمّة ساذجة يغترّون بفكر يهودي، وفيهم السادة والقادة والعلماء والمفكّرون.

٢ ـ إنّ القراءة الموضوعية للسيرة والتاريخ توقفنا على سيرة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان؛ فإنّهما كانا يعاقبان المعارضين لهما، وينفون المخالفين ويضربونهم، فهذا أبو ذر الغفاري ـ رحمه الله ـ نفاه عثمان من المدينة إلى الربذة لاعتراضه عليه في تقسيم الفيء وبيت المال بين أبناء بيته، كما أنّه ضرب الصحابي الجليل عمّار بن ياسر حتى انفتق له فتق في بطنه وكسروا ضلعاً من أضلاعه[١]، إلى غير ذلك من مواقفهم من مخالفيهم ومعارضيهم التي يقف عليها المتتبّع، ومع ذلك نرى في الأوهام

---

١. الاستيعاب: ٢ / ٤٢٢.

التي عرضناها مسبقاً أنّ رجال الخلافة وعمالها يغضّون الطرف عـمّن يـؤلِّب الصـحابة والتابعين على إخماد حكمهم، وقتل خليفتهم في عقر داره، ويجرّ الويل والويلات على كيانهم!! وهذا شيء لا يقبله من له أدنى إلمام بتاريخ الخلافة وسيرة معاوية.

يقول العلاّمة الأميني: لو كان ابن سبأ بلغ هذا المـبلغ مـن إلقـاح الفـتن، وشـقّ عـصا المسلمين، وقد علم به وبعبثه أُمراء الأُمّة وساستها في البلاد، وانتهى أمره إلى خليفة الوقت، فلماذا لم يقع عليه الطلب؟ ولم يبلغه القبض عليه، والأخذ بتلكم الجنايات الخطرة والتأديب بالضرب والإهانة، والزجّ إلى أعماق السجون؟ ولا آل أمره إلى الإعدام المريح للأُمّة من شرّه وفساده كما وقع ذلك كلّه على الصلحاء الأبرار الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟ وهتاف القرآن الكريم يرنُّ في مسامع الملأ الديني: ﴿**إِنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوا مِـنَ الأَرضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[1] فهلّا اجـتاح الخـليفة جرثومة تلك القلاقل بقتله؟ وهل كان تجهّمه وغلظته قصراً على الأبرار من أُمّة محمّدﷺ ففعل بهم ما فعل[2]؟!!

وهناك لفيف من الكتّاب ممّن حضر أو غبر، بدل أن يفتحوا عيونهم على الواقع المرير، ليقفوا على الأسباب المؤدّية إلى قتل الخليفة، حاولوا التخلّص من أوزار الحقيقة بالبحث عن فروض وهميّة سبّبت قتل الخليفة وأودت به.

---

١. المائدة: ٣٣. ٢. الغدير: ٩ / ٢١٩ ـ ٢٢٠.

وفي حقّ هؤلاء يقول أحد الكتّاب المعاصرين:

«وفي الشرق كتَّابٌ لا يعنيهم من التاريخ واقعٌ ولا من الحياة حالٌ أو ظرف، فإذا بـهم يعلّلون ثورة المظلومين على عثمان، ويحصرون أحداث عصر، بل عصور، بإرادة فرد يطوف في الأمصار والأقطار ويؤلّب الناس على خليفة ودولة!!

إنّ النتيجة العملية لمثل هذا الزعم وهذا الافتراء هي أنّ الدولة في عهد عثمان ووزيره مروان إنَّما كانت دولة مثاليّة، وأنّ الأمويين والولاة والأرستقراطيين إنَّـما كـانوا رُسُـل العـدالة الاجتماعية والإخاء البشري في أرض العرب. غير أنّ رجلاً فرداً هو عبد الله بن سبأ أفسد على الأمويين والولاة والأرستقراطيين صلاحهم وبرّهم؛ إذ جعل يطوف الأمصار والأقطار مؤلّباً على عثمان وأُمرائه وولاته الصالحين المُصلحين، ولولا هذا الرجـل الفـرد وطـوافـه فـي الأمـصار والأقطار لعاش الناس في نعيم مروان وعدل الوليد وحلم معاوية عيشاً هو الرغادة وهو الرخاء.

في مثل هذا الزعم افتراءٌ على الواقع، واعتداء على الخلق، ومسايرة ضئيلة الشأن لبعض الآراء، يغلّف ذلك جميعاً منطق ساذج وحجّة مصطنعة واهية. وفيه ما هو أخطر من ذلك؛ فيه تضليل عن حقائق أساسية في بناء التاريخ؛ إذ يحاول صاحب هذا المسعى الفاشل أن يحصر أحداث عصر بكامله، بل عصور كثيرة، بإرادة فردٍ يطوف في الأمصار ويؤلّب الناس على دولة فيثور هؤلاء الناس على هذه الدولة لا لشيء إلّا لأنّ هذا الفرد طاف بهم وأثارهم!!

أمّا طبيعة الحكم، وسياسة الحاكم، وفساد النظام الاقتصادي والمالي والعمراني، وطغيان الأثرة على ذوي السلطان، واستبداد الولاة بالأرزاق، وحمل بني أُميّة على الأعناق، والميل عن السياسة الشعبية الديمقراطية إلى سياسة عائلية أرستقراطية رأسمالية، وإذلال من يضمر لهم الشعبُ التقدير والاحترام الكثيرين أمثال أبي ذرّ وعمّار بن ياسر وغيرهما، أمّا هذه الأُمور وما إليها جميعاً من ظروف الحياة الاجتماعية، فليست بذات شأن في تحريك الأمصار وإثارتها على الأُسرة الأمويّة الحاكمة ومن هم في ركابها، بل الشأن كلّ الشأن في الثورة على عثمان لعبدالله بن سبأ الذي يلفت الناس عن طاعة الأئمّة ويلقي بينهم الشرّ.

أليس من الخطر على التفكير أن ينشأ في الشرق من يعلّلون الحوادث العامّة الكبرى المتّصلة اتّصالاً وثيقاً بطبيعة الجماعة وأُسس الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية بإرادة فرد من عامّة الناس يطوف في البلاد باذراً للضلالات والفساد في هذا المجتمع السليم.

أليس من الخطر على التفكير أن نعلّل الثورات الإصلاحية في التاريخ تعليلاً صبيانياً نستند فيه إلى رغبات أفراد في التاريخ شاءوا أن يحدثوا شغباً فطافوا الأمصار وأحدثوه».[1]

٣ ـ إنّ رواية الطبري نقلت عن أشخاص لا يصحّ الاحتجاج بهم:

أ ـ السري: إنّ السري الذي يروي عنه الطبري، إنّما هو أحد رجلين:

---

١. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ٤ / ٨٩٤ ـ ٨٩٦، وللكلام صلة من أراد فليرجع إليه.

١ ـ السري بن إسماعيل الهمداني الذي كذّبه يحيي بن سعيد، وضعّفه غير واحد من الحفّاظ.[١]

٢ ـ السري بن عاصم بن سهل الهمداني نزيل بغداد المتوفّى عام (٢٥٨هـ)، وقد أدرك ابن جرير الطبري شطراً من حياته يربو على ثلاثين سنة، كذّبه ابن خراش، ووهّاه ابن عدي، وقال: يسرق الحديث، و زاد ابن حبّان: ويرفع الموقوفات، لا يحلّ الاحتجاج به، وقال النقاش في حديث: وضعه السري[٢].

فالاسم مشترك بين كذّابين لا يهمّنا تعيين أحدهما.

وأمّا احتمال كونه السري بن يحيى الثقة غير صحيح، لأنّه توفّي عام (١٦٧هـ) مع أنّ الطبري من مواليد عام (٢٣٤هـ) فالفرق بينهما (٥٧) عاماً، فلا مناص أن يكون السري، أحد الرجلين الكذابين.

ب ـ شعيب: والمراد منه شعيب بن إبراهيم الكوفي المجهول، قال ابن عدي: ليس بالمعروف، وقال الذهبي: راوية، كتب سيف عنه: فيه جهالة.[٣]

ج ـ سيف بن عمر: قال ابن حبّان: كان سيف بن عمر يروي الموضوعات عن الأثبات، وقال: قالوا: إنّه كان يضع الحديث واتّهم بالزندقة. وقال الحاكم:

---

١. قال يحيى القطّان: استبان لي كذبه في مجلس واحد، وقال النسائي: متروك، وقال غيره: ليس بشيء، وقال أحمد: ترك الناس حديثه. لاحظ ميزان الاعتدال: ٢ / ١١٧.

٢. تاريخ الخطيب: ٩٩٣؛ ميزان الاعتدال: ٢ / ١١٧؛ لسان الميزان: ٣ / ١٢.

٣. ميزان الاعتدال: ٢ / ٢٧٥؛ لسان الميزان: ٣ / ١٤٥.

اتّهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط، وقال ابن عدي: بعض أحاديثه مشهورة، وعامّتها منكرة لم يتابع عليها. وقال ابن عدي: عامّة حديثه منكر. وقال البرقاني ـ عن الدارقطني ـ: متروك. وقال ابن معين: ضعيف الحديث فليس خير منه. وقال أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف، وقال السيوطي: وضّاع، وذكر حديثاً من طريق السري بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف فقال: موضوع، فيه ضعفاء أشدّهم سيف.(١)

د ـ فإذا كان هذا حال السند، فكيف نعتمد في تحليل نشوء طائفة كبيرة من طوائف المسلمين تؤلّف خمسهم أو ربعهم على تلك الرواية، مع أنّ هذا هو حال سندها ومتنها، فالاعتماد عليها خداع وضلال لا يرتضيه العقل.

عبد الله بن سبأ أُسطورة تاريخية:

إنّ القرائن والشواهد والاختلاف الموجود في حقّ الرجل ومولده، وزمن إسلامه، ومحتوى دعوته يشرف المحقّق على القول بأنّ مثل عبد الله بن سبأ مثل مجنون بني عامر وبني هلال، وأمثال هؤلاء الرجال والأبطال كلّها أحاديث خرافة وضعها القصّاصون وأرباب السمر والمجون؛ فإنّ الترف والنعيم قد بلغ أقصاه في أواسط الدولتين: الأُمويّة والعباسيّة، وكلّما اتّسع العيش وتوفّرت دواعي اللهو اتّسع المجال للوضع وراج سوق الخيال، وجعلت القصص والأمثال كي تأنس بها ربّات الحجال، وأبناء الترف والنعمة.(٢)

١. ميزان الاعتدال: ١ / ٤٣٨؛ تهذيب التهذيب: ٤ / ٢٩٥؛ اللآلي المصنوعة: ١/ ١٥٧، ١٩٩و ٤٢٩.
٢. أصل الشيعة وأُصولها: ٧٣.

هذا هو الذي ذكره المصلح الكبير كاشف الغطاء، ولعلّ ذلك أورث فكرة التحقيق بين أعلام العصر، فذهبوا إلى أنّ عبد الله بن سبأ أقرب ما يكون إلى الأُسطورة منه إلى الواقع. وفي المقام كلام للكاتب المصري الدكتور طه حسين، يدعم كون الرجل أُسطورة تاريخية عمد أعداء الشيعة إلى تضخيمها وتهويلها لاستغفال الناس نكاية بالشيعة ومحاولة خبيثة لإلقاء التفرقة والتباغض بين عموم المسلمين، ولا بأس بالوقوف على كلامه حيث قال:

وأكبر الظنّ أنّ عبد الله بن سبأ هذا ـ إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً ـ إنّما قال ودعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة، وعظم الخلاف، فهو قد استغلّ الفتنة، ولم يثرها.

إنّ خصوم الشيعة أيّام الأُمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا ليشكّكوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنّعوا على عليّ وشيعته من ناحية أُخرى، فيردّوا بعض أُمور الشيعة إلى يهودي أسلم كيداً للمسلمين، وما أكثر ما شنّع خصوم الشيعة على الشيعة.

فلنقف من هذا كلّه موقف التحفّظ والتحرّج والاحتياط، ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء، وكان أبوه يهودياً وكانت أُمّه سوداء، وكان هو يهوديّاً ثمّ أسلم، لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وكيداً وخداعاً، ثمّ أُتيح له من النجح ما كان يبتغي، فحرَّض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه، وفرّقهم بعد ذلك أو قبله شيعاً وأحزاباً.

هذه كلّها أُمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أُمور التاريخ، وإنّما الشيء الواضح الذي ليس فيه شكّ هو أنّ ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأي، وافتراق الأهواء، ونشأة المذاهب السياسيّة المتباينة، فالمستمسكون بنصوص القرآن وسنّة النبيّ وسيرة صاحبيه كانوا يرون أُموراً تطرأ، ينكرونها ولا يعرفونها، ويريدون أن تواجه كما كان عمر يواجهها في حزم وشدة وضبط للنفس وضبط للرعية، والشباب الناشئون في قريش وغير قريش من أحياء العرب كانوا يستقبلون هذه الأُمور الجديدة بنفوس جديدة، فيها الطمع، وفيها الطموح، وفيها الأثرة، وفيها الأمل البعيد، وفيها الهَمّ الذي لا يعرف حدّاً يقف عنده، وفيها من أجل هذا كلّه التنافس والتزاحم لا على المناصب وحدها بل عليها وعلى كل شيء من حولها، وهذه الأُمور الجديدة نفسها كانت خليقة أن تدفع الشيوخ والشباب إلى ما دفعوا إليه، فهذه أقطار واسعة من الأرض تفتح عليهم، وهذه الأموال لا تحصى تجبى لهم من هذه الأقطار، فأيّ غرابة في أن يتنافسوا في إدارة هذه الأقطار المفتوحة، والانتفاع بهذه الأموال المجموعة؟ وهذه بلاد أُخرى لم تفتح، وكلّ شيء يدعوهم إلى أن يفتحوها كما فتحوا غيرها، فما لهم لا يستبقون إلى الفتح؟ وما لهم لا يتنافسون فيما يكسبه الفاتحون من المجد والغنيمة إن كانوا من طلّاب الدنيا، ومن الأجر والمثوبة إن كانوا من طلّاب الآخرة؟ ثمّ ما لهم جميعاً لا يختلفون في سياسة هذا المُلك الضخم وهذا الثراء العريض؟ وأيّ غرابة في أن يندفع الطامحون الطامعون من شباب قريش من خلال هذه الأبواب التي فتحت لهم ليلجوا منها إلى المجد والسلطان والثراء؟ وأيّ غرابة في أن يهمّ بمنافستهم في

ذلك شباب الأنصار وشباب الأحياء الأُخرى من العرب؟ وفي أن تمتلئ قلوبهم موجدة وحفيظة وغيظاً إذا رأوا الخليفة يحول بينهم وبين هذه المنافسة، ويؤثر قريشاً بعظائم الأُمور، ويؤثر بني أُميّة بأعظم هذه العظائم من الأُمور خطراً وأجلّها شأناً؟

والشيء الذي ليس فيه شكّ هو أنّ عثمان قد ولّى الوليد و سعيداً على الكوفة بعد أن عزل سعداً، وولّى عبد الله بن عامر على البصرة بعد أن عزل أبا موسى، وجمع الشام كلّها لمعاوية، وبسط سلطانه عليها إلى أبعد حدّ ممكن بعد أن كانت الشام ولايات تشارك في إدارتها قريش وغيرها من أحياء العرب، وولّى عبد الله بن أبي سرح مصر بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص، وكلّ هؤلاء الولاة من ذوي قرابة عثمان، منهم أخوه لأُمّه، ومنهم أخوه في الرضاعة، ومنهم خاله، ومنهم من يجتمع معه في نسبه الأدنى إلى أُميّة بن عبد شمس.

كلّ هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، وما نعلم أنّ ابن سبأ قد أغرى عثمان بتولية من ولّى وعزل من عزل، وقد أنكر الناس في جميع العصور على الملوك والقياصرة والولاة والأُمراء إيثار ذوي قرابتهم بشؤون الحكم، وليس المسلمون الذين كانوا رعية لعثمان بدعاً من الناس، فهم قد أنكروا وعرفوا ما ينكر الناس ويعرفون في جميع العصور.[1]

هكذا نرى أنّ الموارد التي يستنتج منها كون ابن سبأ شخصية وهميّة خلقها خصوم الشيعة ترجع إلى الأُمور التالية:

---

١. الفتنة الكبرى: ١٣٤؛ ولاحظ أيضاً الغدير: ٩ / ٢٢٠ ـ ٢٢١.

١ ـ إنّ المؤرّخين الثقات لم يشيروا في مؤلّفاتهم إلى قصّة عبد الله بن سبأ، كابن سعد في طبقاته، والبلاذري في فتوحاته.

٢ ـ إنّ المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر وهو رجل معلوم الكذب، ومقطوع بأنّه وضّاع.

٣ ـ إنّ الأُمور التي نسبت إلى عبد الله بن سبأ، تستلزم معجزات خارقة لا تتأتّىٰ لبشر، كما تستلزم أن يكون المسلمون الذين خدعهم عبد الله بن سبأ، وسخّرهم لمآربه ـ وهم ينفّذون أهدافه بدون اعتراض ـ في منتهى البلاهة والسخف.

٤ ـ عدم وجود تفسير مقنع لسكوت عثمان وعمّاله عنه، مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمّد بن أبي حذيفة، ومحمّد بن أبي بكر، وغيرهم.

٥ ـ قصّة إحراق عليّ إيّاه وتعيين السنة التي عرض فيها ابن سبأ للإحراق تخلو منها كتب التاريخ الصحيحة،ولا يوجد لها في هذه الكتب أثر.

٦ ـ عدم وجود أثر لابن سبأ وجماعته في وقعة صفّين وفي حرب النهروان.

وقد انتهى الدكتور بهذه الأُمور إلى القول: بأنّه شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة ولا وجود له في الخارج.[1]

١. الفتنة الكبرى: فصل ابن سبأ، وقد لخّص ما ذكرنا من الأُمور من ذلك الفصل الدكتور الشيخ أحمد الوائلي في كتابه هوية التشيّع: ١٤٦.

وقد تبعه غير واحد من المستشرقين، وقد نقل آراءهم الدكتور أحمد محمود صبحي في نظرية الإمامة[١].

إلى أن وصل الدور إلى المحقّق البارع السيّد مرتضى العسكري ـ دام ظلّه ـ فألّف كتابه «عبد الله بن سبأ» ودرس الموضوع دراسة عميقة، وهو الكتاب الذي يحلّل التاريخ على أساس العلم، وقد أدّى المؤلّف كما ذكر الشيخ محمّد جواد مغنية: إلى الدين والعلم وبخاصّة إلى مبدأ التشيّع خدمة لا يعادلها أيّ عمل في هذا العصر الذي كثرت فيه التهجّمات والافتراءات على الشيعة والتشيّع، وأقفل الباب في وجوه السماسرة والدسّاسين الذين يتشبّثون بالطحلب لتمزيق وحدة المسلمين وإضعاف قوّتهم.[٢]

ونحن وإن افترضنا أنّ لهذا الرجل وجوداً حقيقياً على أرض الواقع إلّا أنّ ذلك لا يعني الاقتناع بما نُقل وروي عنه، لأنّه لا يعدو كونه سوى سراب ووهم وخداع لا ينطلي على أحد. يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: وليس ما يمنع أن يستغل يهودي الأحداث التي جرت في عهد عثمان ليحدث فتنة وليزيدها اشتعالاً، وليؤلّب الناس على عثمان، بل أن ينادي بأفكار غريبة، ولكن السابق لأوانه أن يكون لابن سبأ هذا الأثر الفكري العميق، فيحدث هذا الانشقاق العقائدي بين طائفة كبيرة من المسلمين.[٣]

وهكذا، فإن ما يبدو واضحاً للعيان بطلان ما ذهب إليه بعض المنحرفين

---

١. نظرية الإمامة: ٣٧.

٢. عبد الله بن سبأ: ١ / ١١، والكتاب يقع في جزأين وصل فيهما إلى النتيجة التي تقدّمت، وقد استفدنا من هذا الكتاب في هذا الفصل.

٣. نظرية الإمامة: ٣٧.

والمنخدعين من اعتبار أنّ نشأة التشيع عن هذا الطريق، بل ويزيد الحقّ وضوحاً أنّنا إذا راجعنا كتب الشيعة نرى أنّ أئمّتهم وعلماءهم يتبرّأون منه أشدّ التبرّؤ.

١ ـ قال الكشّي، وهو من علماء القرن الرابع: عبد الله بن سبأ كان يدّعي النبوّة وأنّ عليّاً هو الله!! فاستتابه ثلاثة أيّام فلم يرجع، فأحرقه بالنار في جملة سبعين رجلاً.(١)

٢ ـ قال الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) في رجاله في باب أصحاب أمير المؤمنين: عبد الله بن سبأ الذي رجع إلى الكفر وأظهر الغلوّ.(٢)

٣ ـ وقال العلاّمة الحلّي (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ): غالٍ ملعون، حرقه أمير المؤمنين بالنار، كان يزعم أنّ عليّاً إله وأنّه نبيّ، لعنه الله.(٣)

٤ ـ وقال ابن داود (٦٤٧ ـ ٧٠٧هـ): عبد الله بن سبأ رجع إلى الكفر وأظهر الغلوّ.(٤)

٥ ـ وذكر الشيخ حسن بن زين الدين (المتوفّى ١٠١١هـ) في التحرير الطاووسي: غالٍ ملعون حرقه أمير المؤمنين عليه السلام بالنار.(٥)

ومن أراد أن يقف على كلمات أئمّة الشيعة في حقّ الرجل، فعليه أن يرجع إلى رجال الكشّي، فقد روى في حقّه روايات كلّها ترجع إلى غلوّه في

---

١. رجال الكشي: ٩٨ برقم ٤٨.
٢. رجال الطوسي: باب أصحاب علي: ٥١ برقم ٧٦.
٣. الخلاصة: ٢٣٦ القسم الثاني الباب الثاني: عبد الله.
٤. رجال ابن داود: ٢٥٤ برقم ٢٧٨ القسم الثاني.
٥. التحرير الطاووسي: ١٧٣ برقم ٢٣٤.

حقّ عليّ، وأمّا ما نقله عنه سيف بن عمر فليس منه أثر في تلك الروايات، فأدنى ما يمكن التصديق به أنّ الرجل ظهر غالياً فقتل أو أُحرق، والقول بذلك لا يضرّ بشيء، وأمّا ما ذكره الطبري عن الطريق المتقدّم فلا يليق أن يؤمن ويعتقد به من يملك أدنى إلمام بالتاريخ والسير.

وأخيراً فقد تبيّن وبدون شك بطلان وفساد هذه النظرية المختلقة حول نشأة التشيّع، والتي لم تصمد أمام النقد والتمحيص، بل وتحمل بذور سقوطها في ذاتها، وفي ذلك الدليل البيّن على أصالة مذهب التشيع والذي أسلفنا القول بأصالة نشأته، وأنّه وليد العقيدة الإسلامية الأصيلة وامتدادها الحقيقي، وأمّا ما قام به ابن سبأ ـ على فرض صحّة وقوعه ـ فإنّه يعبّر عن موقف فردي وتصرّف شخصي خارج عن إطار المذهب، ومن تبعه فقد أدخل نفسه دار البوار، وأين هذا الأفّاك وزمرته من أُولئك الذين لا يخالفون الله ورسوله وأُولي الأمر ولا يتخلّفون عن أوامرهم قيد أُنملة، كالمقداد وسلمان وحجر بن عدي ورشيد الهجري ومالك الأشتر وصعصعة وأخيه وعمرو بن الحمق، ممّن يُستدرّ بهم الغمام وتنزل بهم البركات.

إلى هنا تمّ تحليل النظرية الثانية في تكوّن الشيعة فلننتقل إلى مناقشة النظرية الثالثة.

الفرضيّة الثالثة:

التشيّع فارسيّ المبدأ أو الصبغة

وهناك فرضية ثالثة اخترعها المستشرقون لتكوّن مذهب الشيعة في المجتمع الإسلامي، وهذه الفرضية كسابقتيها تعتمد اعتبار حداثة هذا المذهب قصداً أم جهلاً، فقادها هذا التصوّر الخاطئ إلى اعتماد نظرية تقول بفارسيّة المبدأ أو الصبغة لمذهب التشيّع، وهذا التـرديد بـين الأمرين مرجعه رأيان لأصحاب هذه النظرية في المقام:

١ ـ إنّ التشيع من مخترعات الفرس؛ اخترعوه لأغراض سياسية ولم يـعتنقه أحـد مـن العرب قبل الفرس، ولكنّهم لما أسلموا اخترعوا تلك الفكرة لغاية خاصّة.

٢ ـ إنّ التشيّع عربي المبدأ، وإنّ لفيفاً من العرب اعتنقوه قبل أن يـدخل الفـرس فـي الإسلام، ولمّا أسلموا اعتنقوه وصبغوه بصبغة فارسية لم تكن من قبل.

وهذان الرأيان هما اللّذان عبّرنا عنهما في العنوان بما عرفت، وإليك تفصيل أمرهما:

أمّا النظرية الأُولى: فقد اخترعها المستشرق دوزي، وملخّصها: أنّ للمذهب الشيعي نزعة فارسية؛ لأنّ العرب كانت تدين بالحرّيّة، والفرس

تدين بالملك والوراثة، ولا يعرفون معنى الانتخاب، ولمّا انتقل النبيّ إلى دار البقاء ولم يترك ولداً، قالوا: علي أولى بالخلافة من بعده.

وحاصله: أنّ الانسجام الفكري بين الفرس والشيعة ـ أعني: كون الخلافة أمراً وراثياً ـ دليل على أنّ التشيّع وليد الفرس.

وهذا التصوّر مردود لجملة واسعة من البديهيات، منها:

أنّ التشيّع حسبما عرفت ظهر في عصر النبيّ الأكرم، وهو الذي سمّى أتباع عليّ بالشيعة، وكانوا موجودين في عصر النبيّ وبعده، إلى زمن لم يدخل أحد من الفرس ـ سوى سلمان ـ في الإسلام.

بلىٰ، فإنّ روّاد التشيّع في عصر الرسول والوصي كانوا كلّهم عرباً ولم يكن بينهم أيّ فارسيّ سوى سلمان المحمّدي، وكلّهم كانوا يتبنّون فكرة التشيّع.

وكان لأبي الحسن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أيام خلافته ثلاثة حروب: حرب الجمل، وصفّين، والنهروان. وكان جيشه كلّه عرباً ينتمون إلى أُصول وقبائل عربية مشهورة بين عدنانية وقحطانية، فقد انضمّ إلى جيشه زرافات من قريش والأوس والخزرج، ومن قبائل مذحج، وهمدان، و طي، وكندة، وتميم، ومضر، بل كان زعماء جيشه من رؤوس هذه القبائل كعمّار بن ياسر، وهاشم المرقال، ومالك الأشتر، وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن عباس، ومحمّد بن أبي بكر، وحجر بن عدي، وعدي بن حاتم، وأضرابهم. وبهذا الجند وبأُولئك الزعماء فتح أمير المؤمنين البصرة، وحارب القاسطين ـ معاوية وجنوده ـ يوم صفّين، وبهم قضى على المارقين.

فأين الفرس في ذلك الجيش وأُولئك القادة كي نحتمل أنّهم كانوا الحجر الأساس للتشيّع؟ ثمّ إنّ الفرس لم يكونوا الوحيدين ممّن اعتنقوا هذا المذهب دون غيرهم، بل اعتنقه الأتراك والهنود وغيرهم من غير العرب.

شهادة المستشرقين وغيرهم على أنّ التشيّع عربي المبدأ:

إنّ عدداً من المستشرقين وغيرهم صرّحوا بأنّ العرب اعتنقت التشيّع قبل الفرس وإليك نصوصهم:

١ ـ قال الدكتور أحمد أمين: الذي أرى ـ كما يدلّنا التاريخ ـ أنّ التشيّع لعليّ بدأ قبل دخول الفرس إلى الإسلام ولكن بمعنى ساذج، ولكن هذا التشيّع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأُخرى في الإسلام، وحيث إنّ أكبر عنصر دخل في الإسلام الفرس فلهم أكبر الأثر في التشيّع.[١] وسيوافيك الكلام على ما في ذيل كلامه من أنّ التشيّع أخذ صبغة جديدة بعد فترة من حدوثه.

٢ ـ وقال المستشرق فلهوزن: كان جميع سكان العراق ـ في عهد معاوية ـ خصوصاً أهل الكوفة، شيعة على تفاوت بينهم، ولم يقتصر هذا على الأفراد، بل شمل القبائل ورؤساء القبائل[٢].

٣ ـ وقال المستشرق جولد تسيهر: إنّ من الخطأ القول بأنّ التشيّع في نشأته ومراحل نموه يمثّل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأُمم الإيرانية في الإسلام بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا

١. فجر الإسلام: ١٧٦.
٢. الخوارج والشيعة: ١١٣.

الوهم الشائع مبني على سوء فهم الحوادث التاريخية، فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحتة.[١]

٤ ـ وأمّا المستشرق آدم متز فإنّه قال: إنّ مذهب الشيعة ليس كما يعتقد البعض ردّ فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام، فقد كانت جزيرة العرب شيعة كلّها عدا المدن الكبرى مثل مكّة وتهامة وصنعاء، وكان للشيعة غلبة في بعض المدن أيضاً مثل عمان، وهجر، وصعدة، أمّا إيران فكانت كلّها سنّة، ما عدا قم، وكان أهل إصفهان يغالون في معاوية حتى اعتقد بعض أهلها أنّه نبيمرسل.[٢]

ولعلّ المتأمّل في كلمات هؤلاء يجد بوضوح أنّهم يقطعون بفساد الرأي الذاهب إلى فارسيّة التشيّع، وأنّهم لم يجدوا له تبريراً معقولاً، بالرغم من عدم تعاطفهم أصلاً مع التشيّع، فتأمل.

٥ ـ يقول الشيخ أبو زهرة: إنّ الفرس تشيّعوا على أيدي العرب وليس التشيّع مخلوقاً لهم، ويضيف: وأمّا فارس وخراسان وما وراءهما من بلدان الإسلام، فقد هاجر إليها كثيرون من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيّعون فراراً بعقيدتهم من الأُمويين أوّلاً، ثمّ العباسيين ثانياً، وأنّ التشيّع كان منتشراً في هذه البلاد انتشاراً عظيماً قبل سقوط الدولة الأُموية بفرار أتباع زيد ومن قبله إليها[٣].

---

١. العقيدة والشريعة: ٢٠٤.
٢. الحضارة الإسلامية: ١٠٢.
٣. الإمام جعفر الصادق: ٥٤٥.

٦ ـ وقال السيّد الأمين: إنّ الفرس الذين دخلوا الإسلام لم يكونوا شيعة في أوّل الأمر إلّا القليل، وجلّ علماء السنّة وأجلّائهم من الفرس، كالبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم النيسابوري والبيهقي، وهكذا غيرهم ممّن أتوا في الطبقة التالية.[١]

وأما النظرية الثانية فإنّ التاريخ يدلّنا على أنّ الفرس دخلوا في الإسلام يوم دخلوا بالصبغة السنّية، وهذا هو البلاذري يحدّثنا في كتابه عن ذلك بقوله:

كان ابرويز وجّه إلى الديلم فأتى بأربعة آلاف، وكانوا خدمه وخاصّته، ثمّ كانوا على تلك المنزلة بعده، وشهدوا القادسية مع رستم، ولمّا قتل وانهزم المجوس اعتزلوا، قالوا: ما نحن كهؤلاء ولا لنا ملجأ، وأثرنا عندهم غير جميل، والرأي لنا أن ندخل معهم في دينهم، فاعتزلوا. فقال سعد: ما لهؤلاء؟ فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن أمرهم، فأخبروا بخبرهم، وقالوا: ندخل في دينكم، فرجع إلى سعد فأخبره فآمنهم، فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد، وشهدوا فتح جلولاء، ثمّ تحوّلوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين[٢].

لم يكن إسلامهم ـ يوم ذاك ـ إلّا كإسلام سائر الشعوب، فهل يمكن أن يقال: إنّ إسلامهم يوم ذاك كان إسلاماً شيعياً؟

وأمّا النظرية الثالثة: فإنّ الإسلام كان ينتشر بين الفرس بالمعنى الذي كان ينتشر به في سائر الشعوب، ولم يكن بلد من بلاد إيران معروفاً بالتشيّع إلى أن انتقل قسم من الأشعريين الشيعة إلى قم وكاشان، فبذروا بذرة التشيّع، وكان

١. أعيان الشيعة: ١ / ٥٠ ـ ٥١ القسم الأول ط ٢ ـ دمشق سنة ١٣٦٣هـ.
٢. فتوح البلدان: ٢٧٩.

ذلك في أواخر القرن الأوّل، مع أنّ الفرس دخلوا في الإسلام في عهد الخليفة الثاني؛ أي ابتداء من عام (١٧هـ)، وهذا يعني أنّه قد انقضت أعوام كثيرة قبل أن يدركوا ويعلموا معنى ومفهوم التشيّع، فأين هذا من ذاك. وهذا هو ياقوت الحموي يحدّثنا في «معجم البلدان» بقوله:

قم، مدينة تذكر مع قاشان، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأوّل من مصّرها طلحة بن الأحوص الأشعري، وكان بدو تمصيرها في أيام الحجّاج بن يوسف سنة (٨٣هـ)، وذلك أنّ عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث بن قيس، كان أمير سجستان من جهة الحجّاج، ثمّ خرج عليه، وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين، فلمّا انهزم ابن الأشعث ورجع إلى كابل منهزماً كان في جملة إخوة يقال لهم: عبد الله، والأحوص، وعبد الرحمٰن، وإسحاق، ونعيم، وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري، وقعوا في ناحية قم، وكان هناك سبع قرى اسم احداها «كمندان» فنزل هؤلاء الأُخوة على هذه القرى حتّى افتتحوها واستولوا عليها، وانتقلوا إليها واستوطنوها، واجتمع عليهم بنو عمّهم وصارت السبع قرى سبع محالّ بها، وسمّيت باسم إحداها «كمندان»، فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قماً، وكان متقدّم هؤلاء الأُخوة عبد الله بن سعد، وكان له ولد قد ربّي بالكوفة، فانتقل منها إلى قم، وكان إمامياً، وهو الذي نقل التشيّع إلى أهلها، فلا يوجد بها سنّيّ قط.[1]

إذن فهذا كلّه راجع إلى تحليل النظرية من منظار التاريخ، وأمّا دليله فهو

---

١. معجم البلدان: ٤ / ٣٩٧، مادة قم، ويقول في «مراصد الاطلاع» بأنّ أهل قم، وكاشان كلّهم شيعة إمامية. ولاحظ رجال النجاشي، ترجمة الرواة الأشعريين فيه.

أوهن من بيت العنكبوت، فإذا كان الفرس لايعرفون معنى الانتخاب والحرية، فإنّ العرب أيضاً مثلهم، فالعربي الذي كان يعيش بالبادية عيشة فردية كان يحبّ الحرية ويمارسها، وأمّا العربي الذي يعيش عيشة قبلية، فقد كان شيخ القبيلة يملك زمام أُمورهم وشؤونهم وعند موته يقوم أبناؤه وأولاده مكانه واحداً بعد الآخر، فما معنى الحرية بعد هذا؟!

تحليل النظرية:

إنّ هذه النظرية وإن كانت تعترف بأنّ التشيّع عربي المولد والمنشأ، ولكنّها تدّعي أنّه اصطبغ بصبغة فارسية بعد دخول الفرس في الإسلام، وهذا هو الذي اختاره الدكتور أحمد أمين كما عرفت ولفيف من المستشرقين كـ «فلهوزن» فيما ذهبوا إليه في تفسير نشأة التشيّع.

يقول الثاني: إنّ آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين، أمّا كون هذه الآراء قد انبثقت من الإيرانيين فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه، بل الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك؛ إذ تقول إنّ التشيّع الواضح الصريح كان قائماً أوّلاً في الأوساط العربية، ثمّ انتقل بعد ذلك منها إلى الموالي، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الأوساط.

ولكن لمّا ارتبطت الشيعة العربية بالعناصر المضطهدة تخلّت عن تربية القومية العربية، وكانت حلقة الارتباط هي الإسلام، ولكنّه لم يكن ذلك الإسلام القديم، بل نوعاً جديداً من الدين.[1]

---

١. الخوارج والشيعة: ١٦٩.

أقول: إنّ مراده أنّ التشيّع كان في عصر الرسول وبعده بمعنى الحبّ والولاء لعليّ لكنّه انتقل بيد الفرس إلى معنى آخر وهو كون الخلافة أمراً وراثياً في بيت عليّ عليه السلام وهو الذي يصرّح به الدكتور أحمد أمين في قوله: إنّ الفكر الفارسي استولى على التشيّع، والمقصود من الاستيلاء هو جعل الخلافة أمراً وراثياً كما كان الأمر كذلك بين الفرس في عهد ملوك بني ساسان وغيرهم.

إلّا أنّه يلاحظ عليه: أنّ كون الحكم والملك أمراً وراثياً لم يكن من خصائص الفرس، بل إنّ مبدأ وراثية الحكم كان سائداً في جميع المجتمعات، فالنظام السائد بين ملوك الحيرة وغسّان وحمير في العراق والشام واليمن كان هو الوراثة، والحكم في الحياة القبلية في الجزيرة العربية كان وراثياً، والمناصب المعروفة لدى قريش من السقاية والرفادة وعمارة المسجد الحرام والسدانة كانت أُموراً وراثية، حتّى أنّ النبيّ الأكرم لم يغيّرها بل إنّه أمضاها كما في قضيّة دفعه لمفاتيح البيت إلى بني شيبة وإقرارهم على منصبهم هذا إلى الأبد.

فإلصاق مسألة الوراثة بالفرس دون غيرهم أمر عجيب لا يقرّه العقلاء، فعلى ذلك يجب أن نقول: إنّ التشيّع اصطبغ بصبغة فارسية وغسّانية وحميرية وأخيراً عربية، وإلّا فما معنى تخصيص فكرة الوصاية بالفرس مع كونها آنذاك فكرة عامّة عالمية؟!

إنّ النبوّة والوصاية من الأُمور الوراثية في الشرائع السماوية، لا بمعنى أنّ الوراثة هي الملاك المعيّن بل بمعنى أنّه سبحانه جعل نور النبوّة والإمامة في بيوتات خاصّة، فكان يتوارث نبيّ نبيّاً، ووصيّ وصيّاً، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإِبرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِـى ذُرِيَّتِهما النُّبُوَّةَ والكِتابَ﴾ (١).

﴿وإِذِ ٱبْتَلَـىٰ إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنّى جَاعِلُك لِلنّاسِ إِمَـاماً قَـالَ وَمِـن ذُرِّيَّتِى قَالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ﴾ (٢).

﴿أَمْ يَحْسُدُون النّاسَ عَلَـىٰ مَا آتَاهُمُ الله مِن فَـضْلِهِ فَـقَدْ آتَـيْنَا آلَ إِبـراهِـيمَ الكِـتَابَ والحِكْمَةَ وآتَـيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (٣).

لماذا لا يكون سبب تشيّع الفرس مفاد هذه الآيات والروايات التي تصرّح بأنّ الوصاية بين الأنبياء كانت أمراً وراثياً؟ وإنّ هذه سنّة الله في الأُمم كما هو ظاهر قوله سبحانه: «**لا يـنال عهدِي الظالمين**» فسمّى الإمامة عهد الله لا عهد الناس.

ثمّ إنّ من زعم أنّ التشيّع من صنع الفرس مبدأ وصبغة فهو جاهل بتاريخ الفرس، وذلك لأنّ التسنّن كان هو السائد فيهم إلى أوائل القرن العاشر حتّى غلب عليهم التشيّع في عـصر الصفويين، نعم كانت مدن ري وقم وكاشان معقل التشيّع ومع ذلك يقول أبو زهرة: إنّ أكثر أهل فارس إلى الآن من الشيعة، وإنّ الشيعة الأوّلين كانوا من فارس.(٤)

أمّا غلبة التشيّع عليهم في الأوان الأخير فلا ينكره أحد، إنّما الكلام في كونهم كذلك في بداية دخولهم إلى الإسلام، فالذي يظهر أنّ الرجل جاهل بتاريخ بلاد إيران وليس له معرفة حقيقية بتفاصيل التركيبة المذهبية المختلفة

١. الحديد: ٢٦. ٢. البقرة: ١٢٤.
٣. النساء: ٥٤.
٤. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٣٥.

التي كانت واضحة في أطراف المجتمع الإيراني وبيّنة فيه.

وإليك ما ذكره شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، وهو أحد الكتّاب القدامى في كتابه «أحسن التقاسيم» لتقف على أنّ المذهب السائد في ذلك القرن، هل كان هو التشيّع أم التسنّن؟ يقول:

إقليم خراسان للمعتزلة والشيعة، والغلبة لأصحاب أبي حنيفة، إلّا في كورة الشاش؛ فانّهم شوافع، وفيهم قوم على مذهب عبد الله السرخسي؛ وإقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة، إلّا أنّ أهل الحديث حنابلة، والغالب بدبيل ـ لعلّه يريد أردبيل ـ مذهب أبي حنيفة وبالجبال؛ أمّا بالريّ فمذاهبهم مختلفة، والغلبة فيهم للحنفية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، والدينور غلبه مذهب سفيان الثوري، وإقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف أهل الأهواز شيعة، وبه أصحاب أبي حنيفة كثير، وبالأهواز مالكيّون... إقليم فارس العمل فيه على أصحاب الحديث وأصحاب أبي حنيفة... إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي... إقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث، وأهل الملتان شيعة يهوعلون في الأذان ـ أي يقولون: حيّ على خير العمل ـ ويثنّون في الإقامة ـ أي يقولون الله أكبر مرّتين، وأشهد أن لا إله إلّا الله مرّتين أيضاً وهكذا ـ ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة.[1]

وأمّا ابن بطوطة في رحلته فيقول: كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمّى جمال الدين

---

١. أحسن التقاسيم: ١١٩ (ألّفه عام ٣٧٥هـ).

بن مطهّر ـ يعني العلاّمة الحلي (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) ـ فلمّا أسلم السلطان المذكور وأسلمت بإسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه، فزيّن له مذهب الروافض وفضّله على غيره... فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض، وكتب بذلك إلى العراقين وفارس وآذربايجان وإصفهان وكرمان وخراسان، وبعث الرسل إلى البلاد، فكان أوّل بلاد وصل إليها الأمر بغداد وشيراز وإصفهان، فأمّا أهل بغداد فخرج منهم أهل باب الأزج يقولون: لا سمعاً ولا طاعة، وجاءوا للجامع وهدّدوا الخطيب بالقتل إن غيّر الخطبة، وهكذا فعل أهل شيراز وأهل إصفهان[١].

وقال القاضي عيّاض في مقدّمة «ترتيب المدارك» وهو يحكي انتشار مذهب مالك: وأمّا خراسان وما وراء العراق من بلاد المشرق فدخلها هذا المذهب أوّلاً بيحيى بن يحيى التميمي، وعبد الله بن المبارك، وقتيبة بن سعيد، فكان له هناك أئمّة على مرّ الأزمان، وتفشّى بقزوين وما والاها من بلاد الجبل. وكان آخر من درس منه بنيسابور أبوإسحاق بن القطّان، وغلب على تلك البلاد مذهبا أبي حنيفة والشافعي.[٢]

قال «بروكلمان»: إنّ شاه إسماعيل الصفوي بعد انتصاره على «الوند» توجّه نحو تبريز فأعلمه علماء الشيعة التبريزيون أنّ ثلثي سكان المدينة ـ الذين يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف ـ من السنّة.[٣]

إذن فالنصوص المتقدّمة تدلّ دلالة واضحة على أنّ مذهب التسنّن كان

١. رحلة ابن بطوطة: ٢١٩ ـ ٢٢٠.
٢. ترتيب المدارك: ١ / ٥٣.
٣. تاريخ المذاهب الإسلامية: ١ / ١٤٠.

هو المذهب السائد إلى القرن العاشر بين الفرس، فكيف يمكن أن يقال: إنّ بلاد فارس كانت هي الموطن الأصلي للتشيّع؟

وممّا يؤكّد ذلك أيضاً ما رواه ابن الأثير في تأريخه في ضمن حوادث سنة ٤٣١ هـ من أنّ أهل طوس كانوا سنّة إلى عصر محمود بن سبكتكين، قال: إنّ محمود بن سبكتكين جدّد عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر عليّ بن موسى الرضا وأحسن عمارته، وكان أبوه سبكتكين أخربه، وكان أهل طوس يؤذون من يزوره، فمنعهم ابنه عن ذلك، وكان سبب فعله ذلك أنّه رأى في المنام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وهو يقول: إلى متى هذا؟ فعلم أنّه يريد أمر المشهد، فأمر بعمارته.[١]

ويؤيّد ذلك ما رواه البيهقي: أنّ المأمون العباسي همَّ بأن يكتب كتاباً في الطعن على معاوية، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، العامّة لا تتحمّل هذا ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نفرة[٢].

إلّا أنّ المتوكل عمد وبصلافة وتهتّك إلى هدم قبر الحسين عليه السلام وفي ذلك قال الشاعر المعروف بالبسّامي:

تالله إن كانت أميّة قد أتت ... قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا علىٰ أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبّعوه رميما[٣]

١. الكامل في التاريخ: ٥ / ١٣٩.
٢. المحاسن والمساوئ: ١ / ١٠٨.
٣. تاريخ أبي الفداء: ٢ / ٦٨.

فقد بان ممّا ذكر أمران:

١ ـ إنّ التشيّع ليس فارسيّ المبدأ، وإنّما هو حجازي المولد والمنشأ، اعتنقه العرب فترة طويلة لم يدخل فيها أحد من الفرس ـ سوى سلمان المحمّدي ـ وإنّ الإسلام دخل بين الفرس مثل دخوله بين سائر الشعوب، وأنّهم اعتنقوا الإسلام بمذاهبه المختلفة مثل اعتناق سائر الأُمم له، وبقوا على ذلك طويلاً إلى أن اشتد عود التشيّع وكثر معتنقوه في عهد بعض ملوك المغول أو عهد الصفوية (٩٠٥هـ).

٢ ـ إنّ كون الإمامة منحصرة في عليّ وأولاده ليس صبغة عارضة على التشيّع، بل هو جوهر التشيّع وحقيقته، ولولاه فقد التشيّع روحه وجوهره، فجعل الولاء لآل محمّد أو تفضيل عليّ على سائر الخلفاء أصله وجوهره، واعتبار هذا الأمر ـ كما يعتقده البعض ـ أمراً عرضياً دخيلاً على مذهب التشيع، تصوّر لا دليل له إلّا التخرص والاختلاق.

قال المفيد ـ رحمه الله ـ: الشيعي من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان وأوجب النصّ الجليّ والعصمة والكمال لكلّ إمام، ثمّ حصر الإمامة في ولد الحسين بن عليّ عليهما السلام وساقها إلى الرضا عليّ بن موسى عليهما السلام.

الفرضيّة الرابعة:

الشيعة ويوم الجمل

وأمّا الافتراض الخاطئ الرابع فيذهب إلى أنّ الشيعة تكوّنت يوم الجمل، حيث ذكر ابن النديم في الفهرست: أنّ عليّاً قصد طلحة والزبير ليقاتلهما حتّى يفيئا إلى أمر الله ـ جلّ اسمه ـ وتسمّى من اتّبعه على ذلك الشيعة، وكان يقول: شيعتي، وسمّاهم عليه السلام: الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب.[1]

وعلى ذلك جرى المستشرق «فلهوزن» حيث يقول: بمقتل عثمان انقسم الإسلام إلى فئتين: حزب عليّ، وحزب معاوية، والحزب يطلق عليه في العربية اسم «الشيعة» فكانت شيعة عليّ في مقابل شيعة معاوية، لكن لمّا تولّى معاوية الملك في دولة الإسلام كلّها... أصبح استعمال لفظة «شيعة» مقصوراً على أتباع عليّ.[2]

الملفت للنظر أن ما ذكره ابن النديم من تقسيمه لشيعة عليّ عليه السلام إلى الأصفياء والأولياء و... هو عين التقسيم الذي أورده البرقي[3] لأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال:

---

١. فهرست ابن النديم: ٢٦٣.

٢. الخوارج والشيعة: ١٤٦.

٣. توفّي البرقي عام (٢٧٤) أو (٢٨٠) وألّف ابن النديم كتابه عام (٣٧٧) وتوفّي عام (٣٧٨).

أصحاب أمير المؤمنين:

من أصحاب رسول الله ﷺ: الأصحاب، ثمّ الأصفياء، ثمّ الأولياء، ثمّ شرطة الخميس:

من الأصفياء من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام: سلمان الفارسي، المقداد، أبو ذر، عمّار، أبو ليلى، شبير، أبو سنان، أبو عمرة، أبو سعيد الخدري (عربي أنصاري)، أبو برزة، جابر بن عبد الله، البراء بن عازب (أنصاري)، عرفة الأزدي، وكان رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللّهمّ بارك له في صفقته».

وأصحاب أمير المؤمنين، الذين كانوا شرطة الخميس كانوا ستّة آلاف رجل، وقال عليّ بن الحكم: (أصحاب) أمير المؤمنين الذين قال لهم: «**تشرّطوا إنّما أُشارطكم على الجنّة، ولست أُشارطكم على ذهب أو فضّة، إنّ نبيّنا عليه السلام قال لأصحابه فيما مضى: تشرّطوا فانّي لست أُشارطكم، إلّا على الجنّة**».[1]

وممّا تقدّم يظهر أنّ من عدّه ابن النديم من أصحاب الإمام رجالاً ماتوا قبل أيام خلافته كسلمان و أبو ذر والمقداد، وكلّهم كانوا شيعة للإمام، فكيف يكون التشيّع وليد يوم الجمل؟ والظاهر وجود التحريف في عبارة ابن النديم.

على كل تقدير فما تلونا عليك من النصوص الدالّة على وجود التشيّع في

---

١. رجال البرقي: ٣.

عصر الرسول وظهوره بشكل جليّ بعد وفاتهﷺ وهـذا قـبل أن تشبّ نـار الحـرب فـي البصرة، دليل على وهن هذا الرأي ـ على تسليم دلالة كلام ابن النديم ـ فإنّ الإمام وشيعته بعد خروج الحقّ عن محوره، واستتباب الأمر لأبي بكر، رأوا أنّ مصالح الإسلام والمسلمين تكمن في السكوت ومماشاة القوم، بينما كان نداء التشيّع يعلو بين آن وآخر من جـانب المـجاهرين بالحقيقة، كأبي ذر الغفاري وغيره، ولكن كانت القاعدة الغالبة هي المحافظة قدر الإمكان على بقاء الإسلام وعدم جرّ المسلمين إلى صدام كبير ونار متأجّجة لا تبقي ولا تذر، والعمل قـدر الإمكان لدعـم الواجـهة السـياسية للـخلافة الإسـلامية ورفـدها بـالجهد المـخلص والنـصح المتواصل.

إلّا أنّ الأمر عندما آل إلى الإمام عليّ وجدت شيعته متنفساً واسعاً للتعبير عن وجودها والإفصاح عن حقيقتها، فظهرت بأوضح وأجلىٰ صورها، فمن هنا وقع أصحاب هذه الفرضية وغيرها في هذه الاشتباهات الواضحة البطلان.

الفرضيّة الخامسة:

الشيعة ويوم صفّين

زعم بعض المستشرقين[1] أنّ الشيعة تكوّنت يوم افترق جيش عليّ في مسألة التحكيم إلى فرقتين، فلمّا دخل عليّ الكوفة وفارقته الحرورية، وثبت إليه الشيعة، فقالوا: في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت.

وهذا الفهم الخاطئ لهذه الواقعة، وامتطاء هذه العبارة المذكورة لتحديد نشأة التشيّع يعتمد بالأساس على افتراض أنّ لتكوّن الشيعة تاريخاً مفصولاً عن تاريخ الإسلام، فأخذ يتمسّك بهذه العبارة، مع أنّ تعبير الطبري ـ أعني قوله: وثبت إليه الشيعة[2] ـ دليل على سبق وجودهم على ذلك.

نعم كان للشيعة بعد تولّي الإمام الخلافة وجود واضح حيث ارتفع الضغط فالتفّ حوله موالوه من الصحابة والتابعين، إلّا أنّ الأمر الثابت هو أنّ ليس جميع من كان في جيشه من شيعته بالمعنى المفروض والواقعي للتشيّع، بل أغلب من انخرط في ذلك الجيش كانوا تابعين له لأنّه خليفة لهم، وقد بايعوه على ذلك.

---

١. تاريخ الإمامية: ٣٧.

٢. تاريخ الطبري: ٤ / ٤٦.

الفرضيّة السادسة:

الشيعة والبويهيّون

تقلّد آل بويه مقاليد الحكم والسلطة من عام (٣٢٠) إلىٰ (٤٤٧هـ)، فكانت لهم السلطة في العراق وبعض بلاد إيران كفارس وكرمان وبلاد الجبل وهمدان وإصفهان والري، وقد أُقصوا عن الحكم في الأخير بهجوم الغزاونة عليهم عام(٤٢٠هـ). وقد ذكر المؤرّخون ـ خصوصاً ابن الأثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم ـ شيئاً كثيراً من أحوالهم، وخدماتهم، وإفساحهم المجال لجميع العلماء من دون أن يفرقوا بينهم بمختلف طوائفهم، وقد ألّف المستشرق «استانلي لين بول» كتاباً في حياتهم ترجم باسم: طبقات سلاطين الإسلام.

يقول ابن الأثير في حوادث عام (٣٧٢هـ) في حديثه عن أحد الملوك البويهيّين، وهو عضد الدولة: وكان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمّة، ثاقب الرأي، محبّاً للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء... إلى أن قال: وكان محبّاً للعلوم وأهلها، مقرّباً للعلماء، محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كلّ بلد، وصنّفوا له الكتب، ومنها الإيضاح في النحو، والحجّة في القراءات، والملكي في الطبّ، والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك.[1]

---

١. الكامل في التاريخ: ٩ / ١٩ ـ ٢١.

وهذا يدل على أنّهم كانوا محبّين للعلم ومروّجين له ولهم أياد مشكورة في نشر العلم ومساندة العلماء.

وبالرغم من أنّ في عصرهم كان يغلب على أكثر البلاد مذهب التسنّن إلّا أنّ البويهيّين لم يقفوا موقف المعادي لهم على الرغم مما وقفه غيرهم من الملوك الآخرين من غير الشيعة من معاداة التشيّع ومحاربته.

ولعلّ التأريخ قد سجّل في صفحاته أحداثاً مؤلمة بعد سقوط البويهيين ودخول طغرل بك مدينة السلام (بغداد) عام (٤٤٧هـ)، عندما أُحرقت مكتبة الشيخ الطوسي وكرسيّه الذي كان يجلس عليه للتدريس.[١]

نعم راج مذهب الشيعة في عصرهم واستنشق رجالاته نسيم الحرية بعد أن تحملوا الظلم والاضطهاد طيلة حكم العباسيين خصوصاً في عهد المتوكّل ومن بعده، غير أنّ تكوّن مذهب الشيعة في أيّامهم شيءٌ وكونهم مروّجين ومعاضدين له شيءٌ آخر، ومن السذاجة بمكان الخلط بين الحالين وعدم التمييز بينهما.

١. المنتظم: ١٦ / ١٠٨.

الفرضيّة السابعة:

الشيعة والصفويّون

والكلام عن هذه الأُسرة هو عين الكلام عن البويهيين.

إنّ الصفويين هم أُسرة الشيخ صفيّ الدين العارف المشهور في أردبيل المتوفّى عام (٧٣٥هـ). فعندما انقرضت دولة المغول، انقسمت البلاد التي كانت تحت نفوذهم إلى دويلات صغيرة شيعية وغير شيعية، إلى أن قام أحد أحفاد صفيّ الدين، الشاه إسماعيل عام (٩٠٥هـ) بتسلّم مقاليد الحكم والسيطرة على بلاد فارس وإقامة حكومة خاصّة به استطاع أن يمدّ نفوذها ويبسط سلطتها، واستمرّ في الحكم إلى عام (٩٣٠هـ)، ثمّ ورثه أولاده إلى أن أُقصوا عن الحكم بسيطرة الأفاغنة على إيران عام (١١٣٥هـ) فكان الصفويون خير الملوك؛ لقلّة شرورهم وكثرة بركاتهم، وقد راج العلم والأدب والفنون المعمارية أثناء حكمهم، ولهم آثار خالدة إلى الآن في إيران والعراق، ومن وقف على أحوالهم ووقف على تاريخ الشيعة يقف على أنّ عصرهم كان عصر ازدهار التشيّع لا تكوّنه، وهو أمر لا مراء فيه، ولا يقتنع به إلّا السذّج والجهلاء.

نعم إنّ هذه الآراء الساقطة في تحليل تاريخ الشيعة ومبدأ تكوّنهم، كلّها كانت أُموراً افتراضية بنوها على أساس خاطئ، وهو أنّ الشيعة ظاهرة

طارئة على المجتمع الإسلامي بعد عهد النبيّ، سامح الله الذين لم يتعمّدوا التزييف وغفر الله لنا ولهم.

زلّة لا تستقال:

إنّ الدكتور عبد الله فياض زعم أنّ التشيّع بمعنى الموالاة لعليّ عليه السلام نضج في مراحل ثلاث:

١ ـ التشيّع الروحي، يقول: إنّ التشيّع لعليّ بمعناه الروحي زرعت بذرته في عهد النبيّ وتمّت قبل تولّيه الخلافة. ثمّ ساق الأدلّة على ذلك وجاء بأحاديث يوم الدار أو بدء الدعوة وأحاديث الغدير وما قال النبيّ في حقّ عليّ من التسليم على عليّ بإمرة المؤمنين.

٢ ـ التشيّع السياسي، ويريد من التشيّع السياسي: كون عليّ أحق بالإمامة لا لأجل النص بل لأجل مناقبه وفضائله، ويقول: إنّ التشيّع السياسي ظهرت بوادره ـ دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية (يريد النصّ) ـ في سقيفة بني ساعدة، حين أسند حقّ عليّ بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير والعبّاس وغيرهما، وبلغ التشيّع السياسي أقصى مداه حين بويع عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان.

٣ ـ ظهوره بصورة فرقة، فإنّما كان ذلك بعد فاجعة كربلاء سنة (٦١هـ) ولم يظهر التشيّع قبل ذلك بصورة فرقة دينية تعرف بالشيعة. ثمّ استشهد بكلام المقدسي حيث قال: إنّ أصل مذاهب المسلمين كلّها منشعبة من أربع:

الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة. وأصل افتراقهم قتل عثمان، ثمّ تشعّبوا.[١]

وأيّد نظريته بما ذكره المستشرق «فلهوزن» من قوله: تمكّن الشيعة أوّلاً في العراق ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كلّه، فكان جميع سكان العراق خصوصاً أهل الكوفة شيعة عليّ على تفاوت بينهم.[٢]

وهذا التصوّر المذكور يمكن تثبيت جملة من الملاحظات عليه:

أوّلاً: انّ التفكيك بين المرحلتين الأوليين، وإنّ الأُولى منهما كانت في عصر النبيّ، وظهرت بوادر المرحلة الثانية بعد رحلة النبيّ، قد نقضه نفس الكاتب في كلامه حيث قال: كان روّاد التشيّع الروحي يلتزمون بآراء عليّ الفقهية إلى جانب الالتزام بإسناده سياسياً.[٣]

وثانياً: إنّ ما ذكره من النصوص في مجال التشيّع الروحي كما يدلّ على أنّ عليّاً هو القائد الروحي، فإنّه يدلّ بوضوح على أنّه القائد السياسي، وقد نقل الكاتب جلّ النصوص الواردة في هذا المبنىٰ، فمعنى التفكيك بينهما هو أنّ الصحابة الواعين أخذوا ببعض مضامينها وتركوا بعضها، ولو صحّ إسناد ذلك إلى بعض الصحابة فلا يصح إسناده إلى سلمان، وأبي

١. أحسن التقاسيم: ٣٨.
٢. تاريخ الإمامية: ٣٨ـ ٤٧.
٣. تاريخ الإمامية: ٤٥.

ذر، وعمّـار، الذين لا يتركون الحق وإن بلغ الأمر ما بلغ.

وبما أنّ النبيّ كان هو القائد المحنَّك للمسلمين، فإنّه لم تكن هناك حاجة لظهور التشيّع السياسي في حياته، بل كان المجال واسعاً لظهور التشيّع الروحي ورجوع الناس إلى عليّ في القضايا والأحكام الفقهية، وهذا لا يعني عدم كونه قائداً سياسياً وإنّ وصايا النبيّ لم تكن هادفة إلى ذلك الجانب.

وثالثاً: إنّ التشيّع السياسي ظهر في أيّام السقيفة في ظل الاعتراف بإمامته الروحية؛ فإنّ الطبري وغيره وإن لم يذكروا مصدر رجوع الزبير والعباس إلى عليّ، ولكن هناك نصوص عن طرق الشيعة وردت في احتجاج جماعة من الصحابة على أبي بكـر مسـتندين إلى النـصوص الدينية.

فقد روى الصدوق عن زيد بن وهب أنّه قال: كان الذين أنكروا على أبي بكر تقدّمه على عليّ بن أبي طالب اثني عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار؛ فمن المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأُبيّ بن كعب، وعمّـار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسـلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وبريدة الأسلمي.

ومن الأنصار: زيد بن ثابت، وذو الشهادتين، وابن حنيف، وأبو أيّوب الأنصاري، وأبـو الهيثم بن التيهان.

وبعدما صعد أبو بكر على المنبر قال خالد بن سعيد: يا أبا بكر اتقّ

الله... ثمّ استدل على تقدم عليّ بما ذكره النبيّ فقال: «**معاشر المهاجرين والأنصار، أُوصيكم بوصيّة فاحفظوها، وانّي مؤدّ إليكم أمراً فاقبلوه: ألا إنّ علياً أميركم من بعدي وخليفتي فيكم**» ـ إلى آخر ما ذكره ـ ثمّ قام أبو ذر وقال: يا معاشر المهاجرين والأنصار... طرحتم قول نبيّكم وتناسيتم ما أوعز إليكم. ثمّ ذكر مناشدة كل منهم مستندين في احتجاجهم على أبي بكر بالأحاديث التي سمعوها من النبيّ الأكرم.[1] وهذا يعرب عن أنّ التشيّع السياسي ـ الذي كان ظرف ظهوره حسب طبع الحال بعد الرحلة ـ كان مستفاداً من نصوص النبيّ صلى الله عليه وآله.

رابعاً: ماذا يريد من الفرقة وأنّ الشيعة تكوّنت بصورة فرقة بعد مقتل الإمام الحسين؟ فهل يريد الفرقة الكلامية التي تبتني على آراء في العقائد تخالف فيها الفرق الأُخرى؟ فهذا الأمر لم يعلم له أيّ وجود يذكر إلى أواسط العقد الثالث من الهجرة، ولم تكن يومذاك أيّة مسألة كلامية مطروحة حتّى تأخذ شيعة عليّ بجانب والآخرون بجانب آخر، بل كان المسلمون متسالمين في العقائد والأحكام حسب ما بلغ إليهم من الرسول، ولم يكن آنذاك أيّ اختلاف عقائدي إلّا في مسألة القيادة، فالفرقة بهذا المعنى لم تكن موجودة في أوساط المسلمين.

وإن أراد من الفرقة الجماعة المتبنّية ولاية عليّ روحيّاً وسياسياً وأنّه

---

١. **الخصال: ٤٦١، لاحظ المناشدة إلى آخرها ترى فيها دلائل كافية لإثبات الخلافة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.**

أحقّ بالقيادة على جميع الموازين، فإنّها كانت موجودة في يوم السقيفة وبعدها.

نعم إنّ توسّع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية وما رافق ذلك من احتكاك مباشر بكثير من الفرق والجماعات صاحبة الأفكار العقائدية المختلفة، وتأثّر بعض الفرق الإسلامية ومفكّريها بجملة من تلك الآراء والتصوّرات، ساعد بشكل كبير في إيجاد مدارس كلامية متعدّدة في كيان المجتمع الإسلامي، ولمّا كان الشيعة أشد تمسّكاً بحديث الثقلين المشهور، فقد رجعوا إلى أئمّة أهل البيت فصاروا فرقة كلامية متشعّبة الأفنان، ضاربة جذورها في الكتاب والسنّة والعقل.

وهكذا فلا مرية من القول بخطأ كلّ الافتراضات السابقة وعدم حجّيتها في محاولة تثبيت كون التشيّع ظاهرة طارئة على الإسلام، وإنّما هو نفس الإسلام في إطار ثبوت القيادة لعليّ بعد رحلة النبيّ بتنصيصه، وتبنّاه منذ بعثة النبيّ الأكرم جملة من الصحابة والتابعين وامتدّ ذلك حسب الأجيال والقرون، بل وظهر بفضل التمسّك بالثقلين علماء مجاهدون، وشعراء مجاهرون، وعباقرة في الحديث، والفقه، والتفسير، والفلسفة، والكلام، واللغة، والأدب، وشاركوا جميع المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية بجوانبها المختلفة، يتّفقون مع جميع الفرق في أكثر الأُصول والفروع وإن اختلفوا معهم في بعضها كاختلاف بعض الفرق مع بعضها الآخر. وسيوافيك تفصيل عقائدهم في مبحث خاصّ بإذن الله.

كما يظهر لك أيضاً وهن ما ذهب إليه الدكتور عبد العزيز الدوري من أنّ التشيّع باعتباره عقيدة روحية ظهر في عصر النبيّ وباعتباره حزباً سياسياً قد حدث بعد قتل عليّ.[١]

١. لاحظ الصلة بين التصوّف والتشيّع: ١٨.

الفصل السابع:

صيغة الحكومة عند أهل السنّة

قد تعرّفت على صيغة الحكومة عند الشيعة، وحان البحث عن صيغتها لدى أهل السنّة، وأنّهم يختلفون عن الشيعة في شكل الحكومة بعد رسول اللّه، في أمرين:

الأوّل: فيما يتعلّق بجوهرها وصلبها وأساسها، فانّ الخلافة عند الشيعة إمرة إلٰهية، واستمرار لوظائف النبوّة كلّها، سوىٰ تلقّي الوحي الإلٰهي، والامام نفس الرسول في الصلاحيات والوظائف غير أنّه ليس بنبيّ ، لأنّ النبوّة أُوصدت وختمت بالرسول... فلا نبي ولا رسول بعده، ولكن الوظائف كلّها مستمرّة، فلأجل ذلك يجب أن يكون الإمام قائماً بوظائفهﷺ المعنوية والمادية والعلمية والاجتماعية، ويسد الفراغات الحاصلة بوفاته، وقد عرفت قسماً منها، وكان الإمام علي وعترته الطاهرة على هذا الوصف فكانوا خلفاءً إلٰهيّين عيّنهم الرسولﷺ، لكن لم تسمح الظروف للقيام بجميع وظائفهم إلّا لعلي بعد حرمانه من حقّه سنين متمادية، فلمّا استتبّت له الأُمور قام بنفس وظائف النبيّ، من غير فرق بين الاجتماعية منها والعلمية، وسد الفراغات الهائلة.

ولكن الخلافة عند أهل السنّة رئاسة دينية لتنظيم أُمور الأُمّة من

تدبير الجيوش، وسد الثغور، وردع الظالم، والأخذ للمظلوم، وقسمة الفيء بين المسلمين، وقيادتهم في حجّهم وغزوهم.[١]

ولأجل اختصاص وظائف الإمام بهذه الأُمور السياسية لا تشترط فيه العصمة، ولا الإحاطة بالشرع أُصوله وفروعه، بل يكفي فيه المقدرة لتدبير الأُمور، وقطع كيد الأعداء، وتسهيل الحياة للأُمّة فعلىٰ ذلك، فلا تتجاوز وظائفه عن الوظائف المخوّلة للحكومات الحاضرة، غير أنّه يجب أن يكون مؤمناً باللّه ورسوله وقائماً بالوظائف الفردية، ولا يعزل عن مقامه بالخروج عن الطاعة واقتراف المعصية حسب ما ذكروه في محلّه.[٢]

وهذا الاختلاف بين الفريقين يرجع إلى تفسير جوهر الإمامة وحقيقتها، ويتفرّع على ذلك خلاف آخر، وهذا هو الّذي نذكره في الأمر التالي .

الثاني: انّ الإمام عند الشيعة يعيّن من جانب اللّه سبحانه ويبلّغ بواسطة الرسول، وأمّا الإمام عند أهل السنّة، فقد فوّض أمر انتخابه إلى الأُمّة على وجه الإجمال ولم تذكر خصوصياته على وجه التفصيل، والّذي يظهر من مجموع كلامهم، انّ الإمامة تنعقد عن طريق الشورى، واختيار أهل الحل والعقد أوّلاً، وبتعيين الإمام السابق ثانياً، وبالغلبة ثالثاً.[٣]

قال الماوردي: الإمامة تنعقد بوجهين:

أحدهما: باختيار أهل الحل والعقد .

---

١. قد لخّص الماوردي مسؤوليات الإمام في عشرة، لاحظ الأحكام السلطانية: ١٥ ـ ١٦.

٢. التمهيد للباقلاني: ١٨١.

٣. الأحكام السلطانية: ٦ و شرح مقاصد الطالبيين في علم أُصول عقائد الدين: ٢٧٢.

والثاني: بعهد الإمام من قبل.[١]

وقال العضدي: إنّها تثبت بالنص من الرسول، وفي الإمام السابق بالإجماع، وتثبت ببيعة أهل العقد والحل.[٢]

ثمّ إنّهم اختلفوا في عدد من تنعقد بهم الإمامة على مذاهب شتّىٰ، فقالت طائفة: لا تنعقد الإمامة إلّا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد، ليكون الرضا به عامّاً.

وقالت طائفة: أقلّ ما تنعقد به منهم خمسة، بشهادة أنّ بيعة أبي بكر انعقدت بـخمسة وهم: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة الجرّاح، واسيد بن حضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة .

وقال آخرون: تنعقد بثلاثة، يتولّاها أحدهم برضا الاثنين، ليكونوا حاكماً وشاهدين، كما يصحّ عقد النكاح بولي وشاهدين .

وقالت طائفة أُخرى: تنعقد بواحد، لأنّ العباس قال لعلي: امدد يدك أُبايعك، فيقول الناس عم رسول اللّه بايع ابن عمّه فلا يختلف عليك اثنان، ولأنّه حكم وحكم الواحد نافذ.[٣]

إنّ هذا الاختلاف الهائل فيما تنعقد به الإمامة، ناجم عن القول بأنّ أمر الخلافة مفوّض إلى الأُمّة مع عدم النص على أصل التفويض ولا على خصوصياته. وهذا من عـجيب الأمـر، حيث إنّ النبيّ يفوّض ذلك الأمر الحيوي

١. الأحكام السلطانية: ٤.
٢. شرح المواقف: ٣ / ٢٦٥.
٣. الأحكام السلطانية: ٤.

إلى الأُمّة، ولا يتكلّم بأصل التفويض ولا خصوصياته، فيترك الأُمّة في حيرة.

وقد وقف على ذلك، الكاتب المصري الخضري، قال: لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول اللّه، اللّهمّ إلّا تلك الأوامر العامة الّتي تتأول الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله تعالى: ﴿**وَأمْرُهُمْ شورىٰ بَينَهُمْ**﴾ [١] .

وكذلك لم يرد في السنّة بيان نظام لانتخاب الخليفة، إلّا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرّق، كأنَّ الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتّى يحلّوه بأنفسهم، ولو لم يكن الأمر كذلك لمهّدت قواعده وأُوضحت سبله، كما أُوضحت سبل الصلاة والصيام.[٢]

إنّ ما ذكره الخضري لا يسمن ولا يغني من جوع، لأنّ الحكومة بعد النبي الأكرم كانت من عظائم الأُمور، فلا يخطر ببال أحد أن يكتفي الرسول بجميع تفاصيلها وخصوصياتها الّتي لم تمارسها الأُمّة ولا ذاقتها طوال حياته بآية الشورىٰ، وهذا أشبه بالاكتفاء في إقامة الصلاة بالمجملات الواردة في نص الكتاب.

«كيف يخطر ببال أحد أن يهمل الرسولﷺ القيادة السياسية للدولة الإسلامية الّـتي أسّسها، وثبّت عناصرها، ومرتكزاتها، فلم يضع قاعدة معيّنة للخلافة كما زعموا، مع العلم بأنّ القيادة بالنسبة للدولة كالرأس من الجسد، وكالقلب من سائر الأعضاء والجوارح. أيهمل القيادة والرئاسة للدولة، ولا يتكلّم

---

١. الشورى: ٣٨.

٢. محاضرات في تاريخ الأُمم الإسلامية: ٢ / ١٦١.

عنها بنفي أو إثبات؟ أيهملها ويتركها نهباً لأصحاب المطامع، والمطامح، والأهواء، ولشهوات أصحاب القوّة والفساد في الأرض؟ فتعود بذلك بعد موته، الجاهلية، وعبادة الطواغيت، بعد أن عانى وأصحابه ما عانوا من متاعب، ومشقّات، وما قدّموه من تضحيات غالية وعزيزة للخلاص من أوبائها وتحرير العباد من فحشائها؟ أيتركها لتكون سبباً لإراقة الدماء وإزهاق الأرواح؟ وهو المرسل رحمة لا نقمة للعالمين، ونوراً وهدىً للحائرين والضالّين .

حاشاه حاشاه لقد وضع لأُمّته وبوحي من ربّه العليم الخبير كل قواعد وأُسس الحياة الإنسانية بمجالاتها الواسعة، ولم يهمل حتّى آداب الأكل والشرب ولبس النعال وحتّى آداب التبوّل والتبرّز، ووضّح لأُمّته معالم الحياة الرفعية الراقية وفي مقدّمتها الحياة السياسية، ورأسها المفكر وقلبها النابض، هو القيادة المعروفة في لغة القرآن والسنّة باسم ـ الإمامة و الخلافة – والملك والسلطان – وبذلك نزلت البشرى من عالم الغيب والشهادة بإكمال الدين، وإتمام النعمة، والرضى بالإسلام قال تعالى: ﴿**اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و أتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً**﴾[1]». [2]

لو كانت صيغة الحكومة قائمة على أساس الشورىٰ، وكانت هي طريقاً لتعيين الحاكم، كان من الضروري أن يقوم النبي بتوعية الأُمّة، وإيقافها بصورة واسعة على حدود الشورىٰ وتفاصيلها وخطوطها العريضة، حتّى لاتتحيّر الأُمّة ولا تختلف في أمرها، ولكنّا رغم هذه الأهمية القصوى، لا نجد لهذه التوعية الضرورية أي أثر في الكتاب والسنّة في مجال انتخاب الحاكم. أجل إنّ مقتضى

١. المائدة: ٣.

٢. الزيدية نظرية وتطبيق: ١٠٢ـ ١٠٣.

كون الدين الإسلامي ديناً خاتماً هو التعرّض لصلب الموضوع مُوكِلاً شكله إلى نظر الأُمّة، حتّى يتماشىٰ مع جميع العصور. ولا نعني من هذا أنّه يجب على الشارع إعطاء كل التفاصيل والخصوصيات الراجعة إلى الشورىٰ، غير أنّ هناك أُموراً ترجع إلى جوهر الشورى وصميمها، فلا يصحّ للشارع أن يترك بيانها، إذاً هناك أسئلة تطرح نفسها في المقام لا يمكن الوقوف على أجوبتها، إلّا عن طريق الشرع، وهي:

١- من هم المشاركون في الشورى، فهل العلماء وحدهم، أو السياسيون وحدهم، أو الضبّاط والعساكر وحدهم، أو المختلط منهم؟

٢- من هم الذين يختارون أهل الشورى؟

٣- لو اختلف أهل الشورى في شخص أو أمر، ما هو الملاك لتقديم رأي على آخر؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المطروحة الّتي ترتبط بنظام الشورىٰ المجمل، ولا يستطيع أحد أن يجيب عنها إلّا رجماً بالغيب .

ثم إنّ القوم ربّما يعبّرون عن صيغة الحكومة باتّفاق أهل الحل والعقد، وهذه الكلمة أشد غموضاً من السابقة، إذ لا يعرف الإنسان من هم أهل الحل والعقد، وماذا يُحلِّون وماذا يعقِدون؟ أهم أصحاب الفقه والرأي الذين يرجع إليهم الناس فيما ينوبهم من حوادث؟ وهل هناك درجة معيّنة من الفقه والعلم إذا بلغها الإنسان صار من أهل الحل والعقد؟ ما هي تلك الدرجة؟ وبأي ميزان توزن؟ ولأجل هذه الإبهامات حول نظام الشورىٰ أوّلاً، وأهل الحل والعقد ثانياً، تنبّه بعض دكاترة العصر إلى وهن هذه النظرية .

قال الدكتور طه حسين: لو كان للمسلمين هذا النظام المكتوب ـ أي

نظام الشورىٰ ـ لعرف المسلمون في أيام عثمان ما يأتون من ذلك، وما يدعون، دون أن تكون بينهم فرقة أو اختلاف .

وقال الخطيب: إنّ كلمة أهل العقد والحل لأغمض غموضاً من كلمة الأفراد المسؤولين.[١]

كل ذلك يعرب عن أنّ مسألة نظام الشورىٰ انّما اخترعها المتقمّصون للخلافة في أيام الأمويين .

آيتان حول الشورى:

إنّ القائلين بكون صيغة الحكم بعد رحلة الرسول الأعظمﷺ هو الشورى، استدلّوا بأمرين:

١- الآيتان الواردتان حول الشورى .

٢- انّ خلافة الخلفاء تمّت بالشورى .

ونحن نبحث عن كلا الموضوعين بوجه موجز، ونحيل التفصيل إلى الموسوعات الكلامية، وإليك الآية الأُولىٰ وتحليلها:

١- **﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واستَغْفِرْ لَهُمْ وشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾.**[٢]

إنّ الاستدلال بها سببه الغفلة عن موردها ومضمونها، فإنّ الخطاب فيها

١. الخلافة والإمامة: ٢٧١.

٢. آل عمران: ١٥٩.

موجّه إلى الحاكم الّذي فرضه سبحانه حاكماً على الأُمّة، فيأمره أن يشاور أفراد الأُمّة، فلا صلة للآية بالمدعىٰ. فإنّ أقصى ما تفيده الآية هو أن لا يكون الحاكم الإسلامي الّذي تمّت سلطته، مستبدّاً في أعماله، وأمّا أنّ الإمام، يتعيّن عن طريق الشورى فـالآية لا تـدلّ عـليه، والّذي يؤكّد ما قلناه إنّه يأمر النبيّ بعد المشـاورة، بـالتوكّل عـند العـزم، وأنّ له الرأي النـهائي والأخير .

والحاصل: انّ الآية خطاب للحاكم الإسلامي وأنّ عليه المشـورة أوّلاً وأخـذ التـصميم النهائي ثانياً، وأمّا أنّ الحاكم الإسلامي يتعيّن من جانب الشورى، فـالآية أجـنبية عـنه فـانّ الخطاب في الآية للحاكم لا لغيره .

وأمّا الآية الثانية: أعني قوله سبحانه في صفات المؤمنين: ﴿**وأمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ**﴾[1] فهي تحثّ المؤمنين على المشورة في جميع الأُمـور المـرتبطة بـهم، وأمّـا أنّ أمـر الخـلافة والولاية، من الأُمور المرتبطة بهم فلا تظهر من الآية. والتمسّك بها في مثل هذا المقام المردّد بين كونه من أُمور المؤمنين أو ممّا يرجع إلى اللّه ونبيّه تمسّك بالعام عند الشبهة المصداقية.

وبعبارة أُخرى: انّ الإمامة لو كانت أمراً إلهيّاً، متوقّفاً على ولاية مفاضة من اللّه سبحانه إلى الولي يكون من الأُمور المربوطة باللّه ورسوله، وأمّا لو كانت إمرة عرفية وولاية شعبية تكون من الأُمور المتعلّقة بالمؤمنين، وفي مثله حيث الأمر مردّد لا يمكن التمسّك بالعموم وإثبات انّ الولاية من شؤون المؤمنين .

أضف إلى ذلك أنّه لو كان أساس الحكم في الإسلام هو الشورى لوجب

---

١. الشورىٰ: ٣٨.

على الرسول الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها وخطوطها العريضة. على ما عرفت تفصيلا .

ولأجل عدم وجود أيّ إيضاح من قبل النبيّ حول النظام المذكور، التجأ الكاتب المصري إلى رفض أن يكون ذلك أساساً للحكم وانّما كانت تجربة من المسلمين بعد رحلة الرسولﷺ .

يقول الخطيب : «ينظر بعضهم إليه على أنّه (أي تعيين الإمام بالشورى) نواة صالحة لأوّل تجربة، وانّ الأيام كفيلة بأن تنميها وتستكمل ما يبدو فيها من نقص، فلم تكن الأحوال الّتي تمّت فيها هذه التجربة تسمح بأكثر ممّا حدث، إذ لم يكن من المستطاع ـ حينذاك الوقوف على رأي الأُمّة كلّها، فرداً فرداً ـ في من يخلف النبيﷺ، وينظر بعض آخر إلى هذا الاسلوب بأنّه أُسلوب بدائي عالج أهم مشكلة في الحياة، وقد كان لهذا الاسلوب أثر في تعطيل القوى المفكّرة للبحث عن اسلوب آخر من أساليب الحكم الّتي جربتها الأُمم».[1]

ومعنى ذلك أنّ الرسالة العالمية الخاتمة لجميع الرسالات قد أهملت هذا الجانب المصيري في حياة الأُمّة، وانّه اهتمّ بكلّ صغير وكبير سوى هذا الأمر الخطير الّذي به يناط بقاء الإسلام واستمراره. علماً أنّ الظروف كانت مساعدة لوصول ذلك ولا مانع يعترض الطريق .

خلافة الخلفاء ومسألة الشورى:

هذا كلّه حول الدليل الأوّل وأمّا الدليل الثاني، وهو انّ خلافة الخلفاء تمّت

---

١. الخلافة والإمامة: ٢٧٢.

عن هذا الطريق، فهو أوهن وأضعف من الأوّل، فمن قرأ تاريخ السقيفة وانتخاب الخلفاء الثلاثة يقف على أنّه لم يكن هناك أي مشورة ولا استشارة، وانّما تمّت خلافة الأوّل في جوّ إرهابي وفي محفل ساد فيه، السب والشتم والضرب، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة الّتي لا تليق بمجلس كهذا .

كما أنّ خلافة الثاني تمّت بتنصيص من الخليفة الأوّل وانّه استبدّ بالأمر ولم يدع مجالاً للأُمّة .

وأمّا خلافة الثالث فهي وإن كانت مصبوغة بصبغة الشورى، ولكن الخليفة هو الّذي عيّن أعضاء الشورى واستبدّ بالأمر وعيّن المرشحين للخلافة، بل كان ما قام به يـؤدي إلى تـعيّن الخليفة. ومثل ذلك لا ينطبق عليه شروط الشورى وانّما كان استبداداً في لباس الحرية .

وإن كنت في شك ممّا تلوناه عليك فلندرس تاريخ انتخاب الخلفاء عن كثب.

١- السقيفة وخلافة أبي بكر:

توفّي رسول اللّه وكان أبوبكر خارج المدينة فقام عمر بن الخطاب فقال: إنّ رجالاً مـن المنافقين يزعمون أنّ رسول اللّه قد توفّي، وانّ رسول الله ما مات، ولكن ذهب إلى ربّه كـما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل أنّه قد مات فو اللّه ليرجعنّ رسول اللّهﷺ كما رجع موسى وليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول اللّهﷺ مات، فما زال عمر يتكلّم حتّى أزبد شدقاه. فقال العباس: إنّ رسول اللّهﷺ يأسن كما يأسن البشر، وانّ رسول اللّه قد مات فادفنوا صاحبكم أيميت أحدكم إماتة

ويُميته إماتتين؟! هو أكرم على اللّه من ذلك، فإن كان كما تقولون فليس على اللّه بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء اللّه .

وما زال الجدال مستمرّاً بين عمر والعباس وشاركهم سائر المسلمين إلى أن نزل أبوبكر من السُّنح، فسمع مقالة عمر، فدخل البيت فكشف عن وجه النبيﷺ فقبّله وقال: بأبي أنت وأُمّي طبت حيّاً وميّتاً والّذي نفسي بيده لا يذيقك اللّه الموتتين أبداً[١]. ثم خرج فقال: على رسْلِك يا عمر. فجلس عمر. فحمداللّه أبوبكر وأثنى عليه ثم قال: ألا من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فانّ اللّه حيّ لا يَمُوت وقال: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ وقال: ﴿**وما مُحَمَّدٌ إلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ أفَإِنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً و سَيَجْزِي اللّهُ الشّاكِرِينَ**﴾. فقال عمر: واللّه ما هو إلّا أن سمعت أبابكر تلاها فدهشت. حتّى وقعت إلى الأرض، وعرفت أنّ رسول اللّهﷺ قد مات.[٢]

نقاش مع الخليفة:

هناك تساؤلات تطرح نفسها ولعلّه كان عند الخليفة أجوبة لها أو أنّ القارئ، يتفطّن للإجابة عنها وهي:

١- انّ موت النبي الأكرمﷺ لم يكن فُجائيّاً، بل كان بعد مرض ألمّ به عدّة أيام، فكانت القرائن والشواهد تدلّ على أنّه قد دنا فراقه للأُمّة، وقد صرّح

١. أين الوهابيون من موقف الخليفة هذا، حيث أخذ يخاطب النبي وهو ميّت، ويقبّله ويتبرّك به،ويقول له: بأبي أنت وأُمّي .
٢. السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٥؛ الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

بذلك لغير واحد من أصحابه، آخرها طلبه للقلم والدواة وكتابة الصحيفة والوصية للأُمّـة حتّى لا تضلّ الأُمّة من بعده، وقد حال الخليفة الثاني بين النبي وأُمنيته وقال ما قال.[١]

وعندئذ فكيف أذعن بأنّ النبيﷺ ما مات وإنّما غاب كغيبة موسى، وقد أصرّ على ذلك حتّى أزبد شدقاه ولم يكن بين الصحابة من يدافع عن تلك العقيدة، سوى نفسه؟!

فهل كان الخليفة موقناً بذلك جدّاً، أو أنّه كان له في تبنّي هذه الفكرة (لسـاناً لا قـلباً) هدف سياسيّ يخبّئ فيه مصالحه أو مصالح الأُمّة؟

٢- هل كانت الغيبة سنّة رائجة بين جميع الأنبياء أو كانت من مختصّات بعض الأنبياء كالكليم ونحوه. ولو صحّ الثاني كما هو الحق فما هو الوجه في إلحاقه بالنادر؟

٣- نرى أنّ عم النبيﷺ العباس، واجهه بما واجهه أبوبكر، وهو أنّ النبيﷺ أكرم من أن يُميته سبحانه موتتين، مع أنّه لم يقتنع بكلامه، بل اقتنع بما ذكره أبوبكر!!

٤- انّه كان مصرّاً على الغيبة مادام أبو بكر غائباً عن المدينة، فلمّا نزل من السُّنح وأدلى بمقاله سرعان ما تراجع عن موقفه، وأيّ سرّ كان في هذا الرجوع السريع عن فكرة كان يستميت في الدفاع عنها؟!

٥- كيف يقتنع القارئ بأنّ الخليفة لم يكن ذاكراً قوله سبحانه: ﴿**إِنَّك ميّت**

---

١. صحيح البخاري: ١ / ٢٢كتاب العلم، وج ٢ / ١٤.

وإنّهم ميّتون﴾، وقوله سبحانه: ﴿**وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** وغيرهما؟!

هذه الأسئلة لم نجد لها أجوبة شافية، ومن المحتمل جداً أن يكون وراء الكواليس شيئاً ما. وأن تكون أُطروحة الغيبة مناورة سياسية، الغاية منها منع المسلمين من اتّخاذ أيّ موقف في المسائل المصيرية للأُمّة حتّى يجيء أبوبكر من السُّنح ويجتمعا على رأي واحد. ولأجل ذلك تنازل عن موقفه بعد ما جاء أبوبكر من خارج البلد. فاتّخذوا موقفاً واحداً، تجاه المسائل المصيرية .

مأساة السقيفة:

كان علي بن أبي طالب وجمهور المهاجرين منهمكين فى تجهيز النبي فوقف الخليفتان على اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتداول في مسألة الخلافة. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ما هم عليه فدخلا ومعهما بعض المهاجرين كأبي عبيدة بن الجراح وكان خطيب الأنصار ونقيبهم سعد بن عبادة يخطب ويحث الأنصار على الأخذ بمقاليد الخلافة بحجّة أنّهم آووا النبي الأكرم عندما أخرجه قومه. وضحّوا في سبيل دعوته بكل غالٍ ورخيص .

فلمّا أتمّ كلامه ابتدأ أبوبكر بالبحث والكلام فاستند إلى أنّ اللائق بالخلافة هو قوم النبي وقبيلته بحجّة أنّهم أوسط العرب داراً وأحسنهم أحساباً، ولم يكتف بذلك حتّى أخذ بيد عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ورشحهما للبيعة .

ترى أنّ الطائفتين اتّخذوا في حل مشكلة الخلافة قواعد كانت سائدة في عصر الجاهلية، فالأنصارترى نفسها أحق بالخلافة لحمايتها النبي الأكرم وتقديم المأوى له، وأمّا هؤلاء الحاضرون من المهاجرين فاحتجّوا بمثل ما احتجّت به الأنصار وهو أنّ قريشاً أوسط داراً وأحسن نسباً .

ولم يكن هناك من يذكّرهم ويوقفهم على أنّ الإسلام عصف بهذه الأساليب من الاحتجاجات وحطّم أحكام الجاهلية[١] فلو كان هناك مشورة إسلامية كان عليهم أن يتفحّصوا عن أعلم القوم بالكتاب والسنّة وأكثرهم دراية بهما. وأسوسهم وأخشنهم في ذات الله وأسبقهم إلى الإيمان والإسلام. كما هوالوارد عن الكتاب والسنّة قال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ للهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[٢].

وقال النبي الأكرم لا تصلح الإمامة إلّا لرجل فيه خصال ثلاث:

١- ورع يحجزه عن معاصي اللّه .

٢- وحلم يملك به غضبه .

٣- وحسن الولاية على من يلي حتّى يكون كالأب الرحيم.[٣]

وقال الإمام علي عليه السلام: «أيّها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر اللّه فإن شغب شاغب استعتب فإن أبى قوتل».[٤]

---

١. لاحظ: في الوقوف على احتجاج الطائفتين: السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٦٥٩، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٦٩، وتاريخ الطبري: ٢ / ٤٤٢ ـ ٤٤٦.

٢. الحج: ٤١.

٣. الكافي: ١ / ٤٠٧.

٤. نهج البلاغة: قسم الخطب برقم ١٧٣.

وقال ـ صلوات اللّه عليه ـ أيضاً عندما قال قائل : «إنّك على هذا الأمر يابن أبي طالب لحريص، فقلت: بل أنتم واللّه لأحرص وأبعد، وأنا أخصّ وأقرب، وانّما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي» . (١)

وقال الإمام السبط الطاهر الحسين بن عليعليهما السلام: «فما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب، الدائن بدين الحق، القائم بالقسط، الحابس نفسه على ذات اللّه». (٢)

وأين هذه الملاكات والضوابط ممّا جاء في احتجاجات المهاجرين والأنصار، وكأنّهم لم يسمعوا قول اللّه سبحانه: ﴿**أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون**﴾ (٣) .

ما سمعت من الكلمات، كانت احتجاجاتهم وشعاراتهم في نادي السقيفة، وأمّا ما قاموا به من الأعمال المخزية أو ما صدر منهم من الضرب والسباب، فحدّث عنه ولا حرج. وبذلك تقف على أنّه لم تكن هنا أي مشورة، ولا تلاقح فكري وانّما كان أشبه بملعب يتسابق فيه الجميع لأخذ كرة الخلافة بأيّ طريق حصل، وإن كنت في شك منها فاستمع لما نتلوه عليك من المصادر الموثقة .

هذا الحباب بن المنذر الصحابي البدري الأنصاري قد انتضى سيفه على أبي بكر وكان داعياً إلى قيادة الأنصار وقال: «واللّه لا يرد عليَّ أحد ما أقول إلّا حطّمت أنفه بالسيف، أنا جُذيلها المحكّك (أصل الشجرة) وعُذيقها المرجَّب

---

١. نهج البلاغة: قسم الخطب برقم ١٧٢.
٢. روضة الواعظين: ٢٠٦.
٣. الأنبياء: ١٠٥.

(النخلة المشتملة بالتمر) أنا أبو شبل في عرّيسة الأسد، والله إن شئتم لنُعيدنَّها جَذعة.[١]

وهو بكلامه هذا يتهدّد كل من يحاول إخراج القيادة من الأنصار وإقرارها لغيرهم .

وها هو آخر (وهو سعد بن عبادة) يخالف مبايعة أبي بكر وينادي: «أنا أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأُقاتلكم مع من معي من أهلي وعشيرتي».[٢]

وها هو ثالث يتذمّر من تلك البيعة ويشب نار الحرب بقوله: «إنّي لأرىٰ عجاجة لا يطفئها إلّا الدم».[٣]

وهذا هو سعد بن عبادة أمير الخزرج الّذي طلب أن تكون الخلافة في الأنصار يـداس بالأقدام، وينزى عليه وينادى عليه بغضب: «اقتلوا سعداً قتله اللّه إنّه منافق أو صاحب فتنة»، وقد قام عمر على رأسه وهو يقول: لقد هممت أن أطأك حتّى تندر عضوك أو تندر عيونك.[٤]

فإذا بقيس بن سعد يأخذ بلحية عمر ويقول: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة! أو: لو خفضت منه شعرة ما رجعت وفي فيك جارحة.[٥]

---

١. شرح ابن أبي الحديد: ٢ / ٣٨ ـ ٣٩.
٢. الغدير: ٧ / ٧٦.
٣. الإمامة والسياسة: ١ / ١١؛ تاريخ الطبري: ٣ / ٢١٠.
٤. مسند أحمد: ١ / ٥٦؛ تاريخ الطبري: ٣ / ٢١٠، وغيرهما.
٥. تاريخ الطبري: ٣ / ٢١٠؛ السيرة الحلبية: ٣ / ٣٨٧.

وهذا نفس عمر بن الخطاب يصف تلك المشاجرة بقوله: كثر اللغط وارتفعت الأصوات حتّى تخوّفت الاختلاف، فقلت: ابسط يديك يا أبابكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل اللّه سعد بن عبادة.(١)

إنّ الشورىٰ الإسلامية حسب ما توحي كلمتها السامية، لا تنعقد إلّا بدراسة الموضوع دراسة موضوعية واقعية، وأن تكون هناك حرّية في الرأي والنظر، ونزاهة في الكلام، ويقوم مندوب كل جماعة بإدلاء رأيه بدليل وبرهان، وربّما تتطلّب دراسة مثل ذلك الموضوع الحيوي عقد مجالس متعدّدة حتّى يصل من خلالها المسلمون إلى الأمثل فالأمثل في موضوع القيادة، وأمّا المجلس الّذي تسلّ فيه السيوف على المخالف، ويداس المقابل بالأقدام، فهذا أشبه، بميدان الحرب والقتال لا المفاهمة والمشاورة، بل أشبه...

هذا حال السقيفة وأمّا ما جرى بعد السقيفة فحدّث عنه ولا حرج، فقد خرج الخليفة من السقيفة مع من بايعوه، فلم يلاقوا أحداً في الطريق إلّا وضعوا يده على يد الخليفة بيعة له .

ثمّ إنّ علياً وجماعة معه كانوا متخلّفين عن البيعة، ولمّا كان تخلّفه ومن معه من أصحابه إخلالاً بالبيعة، بعث أبوبكر عمر بن الخطاب إلى بيت علي وفاطمة، ليتهدّدوا اللائذين به، الممتنعين عن مبايعته، وقال له: إن أبوا فقاتلهم، وأتى عمر إلى بيت فاطمة وهو يقول: واللّه لنحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة، فقالت فاطمة لمّا سمعت ذلك صائحة منادية: «يا أبت

١. السيرة النبوية: ٢ / ٦٦٠.

يا رسول اللّه ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة».[١]

ثمّ بعد هنّ وهنات أُخرج الإمام من بيته، وقادوه إلى البيعة كما يقاد البعير المخشوش، وسيق سوقاً عنيفاً، وقالوا له: بايع، فيقول: «إن أنا لم أفعل فمه؟»

فيقال: واللّه الّذي لا إلٰه إلّا هو نضرب عنقك، فقال علي: «إذن تقتلون عبداللّه وأخا رسول اللّه».[٢]

ولم يكن الضغط منحصراً في علي، بل لمّا سمع الزبير ما جرى في السقيفة سلّ سيفه وقال: لا أغمده حتّى يبايع علي، فيقول عمر: عليكم الكلب، فيؤخذ سيفه من يده، ويضرب به الحجر فيكسر.[٣]

هذه صورة إجمالية وضعناها أمام القارئ ليقف على مدى صحّة الشورى الّتي بنيت عليها خلافة الخليفة الأوّل، ثمّ هو عقد الخلافة بنفسه لعمر من دون أي مشاورة للمسلمين[٤] كما فوّض الثاني أمر الخلافة إلى ستّة وقد استبدّ في تعيينهم من دون مشورة، وليس هذا شيئاً ينكر أو يشك فيه[٥] .

وقد بلغت فضاحة الأمر في السقيفة إلى حدّ يصفه عمر بقوله: كانت بيعة أبي بكر فلتة كفلتة الجاهلية وقىٰ اللّه المسلمين شرّها. أو قال: كانت بيعة أبي بكر فلتة فتمّت، وأنّها قد كانت كذلك إلّا أنّ اللّه قد وقى شرّها، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فانّه لا بيعة له.[٦]

---

١. تاريخ الطبري: ٣ / ٢١٠؛ الإمامة و السياسة: ١ / ١٣.
٢. الإمامة والسياسة: ١ / ١٣.
٣. تاريخ الطبري: ٣ / ١٩٩؛ الإمامة والسياسة: ١ / ١١.
٤. سيأتي مصدره. ٥. سيأتي مصدره.
٦. السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٨؛ تاريخ الطبري: ٢ / ٤٤٦.

الخلفاء وتناسي الشورى:

قد درسنا كيفية انعقاد الإمامة لأوّل الخلفاء هلمّ معي ندرس خلافة غيره، فسوف ترى أنّه لم يكن هناك أيّ مشورة ولا أيّ استفتاء شعبي، ولا أيّ ديمقراطية كما يدّعيها بعض الكتّاب المعاصرين .

روى المؤرّخون: انّه دعا أبوبكر عثمان بن عفان، فقال: اكتب عهدي، فكتب عثمان وأملى عليه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبوبكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا، نازحاً عنها، وأوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها، إنّي أستخلف عليكم عمر بن الخطاب...[١] .

والإنسان عندما يقرأ هذه الصفحة من التاريخ، يقف على قيمة ما ذكره الإمام، عندما رفعوا السيف على رأسه ليبايع أبابكر، فقال: «احلب يا عمر حلباً لك شطره، أُشدد له اليوم أمره، ليردّه عليك غداً، ألا واللّه لا أقبل قولك ولا أُبايع»[٢] فواللّه، لقد تحقّق قول الإمام حيث ردّ عليه الأمر من بعد، كما عرفت .

وهذا عمر بن الخطّاب، فبعدما جرح ودنا أجله قال: سأستخلف النفر الذين توفّي رسول اللّه وهو عنهم راض، فأرسل إليهم فجمعهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفّان، وطلحة، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبدالرحمن بن عوف، وكان طلحة غائباً .

فقال: يا معشر المهاجرين الأوّلين، إنّي نظرت في أمر الناس فلم أجد

١. الإمامة والسياسة: ١٨؛ الكامل في التاريخ: ٢ / ٤٢٥.
٢. الإمامة والسياسة: ٢٣؛ الكامل: ٣ / ٣٥.

فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، فتشاوروا ثلاثة أيّام، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلّا فأعزم عليكم أن لا تتفرّقوا من اليوم الثالث حتّى تستخلفوا أحدكم.

ثم قال لصهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيّام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبىٰ واحد فاشدخ رأسه بالسيف...وإن اتّفق أربعة وأبىٰ اثنان فاضرب رؤوسهما... فان رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم، فحكّموا عبداللّه بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبداللّه بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس.[1]

فلما دفن عمر جمعهم أبو طلحة ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم ثم تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحة أنّه أشهدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشورى لعثمان، وذلك لعلمه أنّ الناس لا يعدلون به عليّاً وعثمان، وانّ الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام بهبة أمر لا انتفاع له به ولا تمكّن له منه.

ولمّا رأى الزبير أنّ علياً قد ضعف، وانخذل بهبة طلحة حقّه لعثمان، دخلته حميّة النسب فوهب حقّه من الشورى لعلي. لأنّه ابن عمّته. وهي صفية بنت عبدالمطلب وأبو طالب خاله .

وقال سعد بن أبي وقاص: أنا قد وهبت حقّي من الشورى لابن عمي

---

١. تاريخ الطبري: ٣ / ٢٩٤.

عبدالرحمن، وذلك لأنّهما من بني زهرة ولعلمه أنّ الأمر لا يتم له .

فلمّا لم يبق إلّا الثلاثة. علي وعثمان وعبدالرحمن ولكل واحد صوتان وبما أنّ عمر بن الخطاب قال في وصيته لأبي طلحة الأنصاري: بأنّه إذا تساوت الآراء فرجّح الفئة الّتي فيها عبدالرحمن بن عوف. ومن المعلوم أنّ عبدالرحمن ما كان يميل إلى علي ويترك نفسه أو صهره عثمان، ولأجل ذلك قام بلعبة أُخرى يريد بها حرمان علي.

فقال عبدالرحمن لعلي وعثمان: أيّكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلّم منهما أحد، فقال عبدالرحمن: أُشهدكم انّني قد أخرجت نفسي من الخلافة على أن أختار أحدكما، فأمسكا، فبدأ بعليعليه السلام وقال له: أُبايُعك علىٰ كتاب اللّه وسنّة الرسولصلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر، فقال: بل على كتاب اللّه وسنّة رسوله واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان فعرض عليه ذلك، فقال: نعم، فعاد إلى عليعليه السلام فأعاد قوله، فعل ذلك عبدالرحمن ثلاثاً، فلمّا رأى أنّ علياً غير راجع عمّا قاله وأنّ عثمان يَنْعم له بالإجابة، صفق على يد عثمان، وقال: السلام عليك يا أميرالمؤمنين، فيقال: إنّ عليّاًعليه السلام قال له: واللّه ما فعلتها إلّا لأنّك رجوت منه ما رجاه صاحبكما من صاحبه، دقَّ اللّه بينكما عطر «منشم» .

قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبدالرحمن، فلم يكلّم أحدهما صاحبه حتّى مات عبدالرحمن.[1]

---

١. شرح ابن أبي الحديد: ١ / ١٨٨، الطبري: التاريخ ٣، الجزري: الكامل ٣و «منشم» اسم امرأة عطّارة بمكة وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا بطيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى، فكان يقال: أشأم من عطر منشم. لاحظ الصحاح للجوهري .

شورى سداسية أو لعبة سياسية؟:

إذا ألقيت نظرة على كيفية تشكيل الشورى وأعضائها أدركت أنّها كانت لعبة سياسية وكان الهدف منها تسليم الخلافة إلى عثمان ولكن بصبغة شرعية وقانونية. إذ لم تكن الظروف تسمح بتنصيبه أو الإيصاء به صريحاً. فدقَّ الخليفة باب الشورى حتّى يسدّ به أفواه المعترضين بالقدر الميسور. وكانت الغاية واضحة لدى المطّلعين على خبايا الأُمور. منهم أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال لعمّه العباس: «عُدل بالأمر عنّي يا عم» قال: وما عيبك؟! قال: «قرن بي عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه (عبدالرحمن بن عوف) وعبدالرحمن صهر عثمان لا يختلفان».[١]

وقال ابن عباس: الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان.[٢]

وقد نال الخليفة بغيته من خلال الأُمور التالية:

١- إنّ الشخصيات المشاركة في الشورى فرضت من جانب الخليفة، وقد احتكر ذلك الحقّ لنفسه وسلبه عن الأُمّة ـ ولو كان الانتخاب بيد الأُمّة ربّما كان المصير على خلاف ما أراده .فأدخل في الشورى رجالاً يسيرون على الخط الّذي رسمه الخليفة في نفسه .

وبرّر الخليفة حصر أعضاء الشورى فيهم بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات وهو راض

١. شرح النهج: ١ / ١٩١.
٢. شرح النهج: ١ / ١٨٩.

عنهم، وهو تبرير تافه، فانّ النبي مات وهو راض عن غير هؤلاء أيضاً ولقد أثنى على عدّة من أصحابه، كأبي ذر الغفاري وعمّار بن ياسر وجابر بن عبداللّه الأنصاري، وأبي أيوب مضيّفهﷺ وغيرهم، بيد أنّ هؤلاء لمّا كانوا لا يحقّقون مطامع الخليفة أعرض عنهم وأدلى بأسماء هؤلاء الذين يتجاوبون مع ما يريد .

٢- انتخب رجالاً لعضوية الشورى كانوا مختلفي النزعة والهوى ولكن الجامع بين أغلبهم هو الانحراف عن عليعليه السلام وإضمار العداء له. فعند ذلك أصبح إقصاء عليّ أمراً محتوماً إن لم نقل انّ تعيين عثمان أضحى أمراً مفروضاً، وذلك لأنّ طلحة بن عبيداللّه كان معروفاً بعدائه لعلي وانحرافه عنه. فلأجل ذلك وهب حقّه لعثمان تضعيفاً لجانب علي .

إنّ سعد بن أبي وقاص كان ابن عم عبدالرحمن بن عوف وكلاهما من بني زهرة، فلا يميل إلى علي وفي الشورى واحد من عشيرته .

وعبدالرحمن بن عوف كان صهر عثمان. لأنّ أُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت زوجته وهي أُخت عثمان من أُمّه .

على هذا كانت القرائن تشهد على أنّ الخليفة كان يضمر حرمان علي من الخلافة. ولم يكن في الشورى منافس لعلي سوى عثمان، فطبيعة الحال كان يوحي بأنّ عثمان هو الّذي سيأخذ بمقاليد الحكم، إذ لم يكن لسائر الأعضاء الأربعة مكانة اجتماعية مثل علي وعثمان، بل لم يكن لهم إربة في الخلافة وإنّما أطمعهم فيها الخليفة للتوصّل إلى مأربه .

٣- انّه لمّا كان من المحتمل أن تتساوى الأصوات بين علي وعثمان جعل الرجحان والتقديم للفئة الّتي فيها عبدالرحمن بن عوف، فكأنّه جعل

صوته صوتين. وأمّا عبدالرحمن بن عوف (وهو ذلك الرجل الثري الذي ترك كمية هائلة من الذهب والفضة وقد كُسرت بالفؤوس عند تقسيمها) فهل يترك عثمان ويميل إلى علي وانّ الطيور على أشكالها تقع؟!

وبالتالي لم يفسد الخليفة على علي في هذه الواقعة فحسب، بل أفسده على علي بعد رحيل عثمان، حيث إنّ إدخال هؤلاء في الشورى أطمعهم في الخلافة وجعلهم يعتقدون في أنفسهم بأنّهم مؤهّلين لها، وأنّهم أعدال علي وأقرانه. ولأجل ذلك قاموا في وجه الإمام علي يدّعون الخلافة لأنفسهم تحت غطاء أخذ الثار لعثمان .

إنّ الامام أميرالمؤمنين عليه السلام قد أفصح بما يكنّه ضميره حول وصية الشورى، فقال في بعض خطبه:

«فياللّه وللشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل منهم حتّى صرت أُقرن إلى هذه النظائر! لكنّي أسففت إذ أسفّوا، وطرت إذ طاروا؛ فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هن وهن».[1]

هذا كلام علي في أواخر أيامه، فقد اعترض هو أيضاً في أيام الشورى وكذلك فعل أصحابه، فروى الطبري أنّ عبدالرحمن قال: أيّها الناس أشيروا عليّ في هذين الرجلين؟ فقال عمّار بن ياسر: إن أردت أن لا يختلف الناس فبايع علياً؛ فقال المقداد: صدق عمّار، وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا.

فقال عبداللّه بن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان؛ وقال عبداللّه بن أبي ربيعة المخزومي: صدق، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا.

---

١. نهج البلاغة: قسم الخطب ، الخطبة ٣.

فشتم عمّارُ ابنَ أبي سرح وقال له: متى كنت تنصح الإسلام؟!

فتكلّم بنو هاشم وبنو أُميّة وقام عمّار وقال: أيّها الناس إنّ اللّه أكرمكم بنبيّه وأعـزّكـم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم؟!

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها.

فقال سعد: يا عبدالرحمن أفـرغ مـن أمـرك قـبل أن يـفتتن النـاس، فـحينئذ عـرض عبدالرحمن على علي عليه السلام العمل بسيرة الشيخين .

فقال: «بل أجتهد برأيي» فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال: نعم، فـقال عـلي عليه السلام: «ليس هذا بأوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون، واللّه ما ولّيته الأمر إلّا ليردّه إليك واللّه كل يوم في شأن».[١]

وبهذا تبيّن أنّ الشورى كانت نظرية بدون تطبيق، وكانت اسماً بلا مسمّى.

إجابة عن سؤال:

إذا لم تكن الشورىٰ مبدأ للحكم في الإسلام ، فماذا يعني الإمام علي من قوله في رسالته إلى معاوية حيث يقول: «إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على مـا بـايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، إنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك للّه رضاً».[٢]

---

١. شرح النهج: ١ / ١٩٣ـ ١٩٤.

٢. الإمامة والسياسة: ٢٣؛ونهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٤٥.

نقول: إنّ ابن أبي الحديد أوّل من احتجّ بهذه الخطبة، على أنّ نظام الحكومة بعد وفاة النبيّ هو نظام الشورىٰ، وتبعه البعض غفلة عن حقيقة المراد، وذلك لأنّ ملاحظة اسلوب الكلام، وما صدَّر به الإمام رسالته، أعني قوله: «إنّه بايعني الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان» تدلّ بوضوح على أنّ الإمام كان في مقام الاحتجاج بمسلَّم الخصم ـ أعني: معاوية ـ على قاعدة: «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، فإنّه خرج عن طاعة الإمام مع اعتناقه إمامة من تقدّم، فالإمام يحتجّ عليه بأنّه بايعني الذين بايعوا الثلاثة فما وجه البغي عليّ والطاعة لهم؟! ولو لم يكن في مقام الجدل وإفحام الخصم، لما كان لذكر خلافة الخلفاء في صدر الرسالة وجه، مع أنّ للإمام كلمات في تخطئة الشورىٰ الّتي تمّت بها، أو بادّعائها خلافة الخلفاء، ومن تصفّح «نهج البلاغة» يقف عليها .

والعجب أنّ أحداً من المهاجرين والأنصار لم يستند في مأساة السقيفة، إلى نظام الشورىٰ، بل استند كل من اللفيفين بأُمور لا تمت إلى هذا الأصل، فادّعىٰ أبوبكر أنّ المهاجرين من أقوام النبيّ وعشيرته، واحتجّ الأنصار بأنّهم هم الذين آووا الرسول، وضحّوا بأنفسهم ونفائسهم لحراسته وحفظه، فانظر ماذا ترى! قاتل اللّه الأنانية، وحيّا اللّه الحقيقة وحماتها.

الفصل الثامن:

نصوص الخلافة والركون إلى الأمر الواقع

دلّت نصوص الخلافة الماضية، بوضوح على أنّ الإمام علياً كان هـو الخـليفة الشـرعي والقائم بالأمر بعد الرسول، وانّه كان من واجب المسلمين الرجوع إليه فيما يمت إلى حـياتهم السياسية والاجتماعية والدينية، غير أنّ رجالاً بعد النبيّ تناسوا النصّ بعد تلبية النبيّ نداء ربّه، وانثالوا على أبي بكر، وبعده على عمر وعثمان، إلى أن عاد الحق إلى نصابه، ودار الأمر على مداره. وهناك سؤال يطرحه كلّ من يؤمن بتواتر النصوص ووضوح دلالتها، لما يشاهد المعارضة بينها وبين الأمر الواقع في السقيفة وما بعدها، وانثيال كثير من المهاجرين والأنصار إلى غـير علي، فيقع في حيرة وتعجّب!! فيقول: لو كانت النصوص النبويّة على هـذا المسـتوى، فـلماذا أعرض عنها المسلمون؟ ولماذا لم يطلب الإمام حقّه الشرعي؟ ولماذا رضي بالأمر الواقع، ولم ينبس فيه ببنت شفة؟ وهذا هو الّذي نجيب عنه في المقام، فنقول:

إنّ المهم هو بيان السرّ الّذي دفع الإمام إلى ترك المطالبة بحقّه بـالقوة والعـنف، وأمّـا إعراض المهاجرين والأنصار، أو في الحقيقة ـ إعراض الرؤوس منهم عن النص، وانثيال غيرهم إليهم، فليس هذا أمراً عجيباً، فقد أعرضوا

عن كثير من النصوص، واجتهدوا اتجاهها كما تقدّم البحث عن موارده ـ . وإليك تشريح ما هو المهم:

إنّ الامام لم يسكت طول حياته عن بيان حقّه وإرشاد الناس إليه، بل أظهر عدم رضاه بالأمر الواقع وأنّه تعبير آخر عن غصب حقّه، يقف عليه كلّ من قرأ مأساة السقيفة في كـتب التاريخ، فلا يفوتنّك قراءة طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، والسيرة النبوّية لابن هشـام، ولا العقد الفريد، ولا الإمامة والسياسة لابن قتيبة، فكلّها مفعمة بشكوى الإمام وعدم قبوله بالأمر الواقع، غير أنّ التكليف حسب القدرة، ـ وبعدها ـ في ظلّ المصالح العامّة، فلم يكن للإمام قدرة على المطالبة بحقّه، وعلى فرض وجودها كانت المصلحة تكمن يومذاك في إدلاء الأمـر إلى متقمّصيها وعدم المطالبة بها بالقهر والقوّة، وإليك ما يدل على ذينك الأمرين من خلال دراسة التاريخ :

١– هذا ابن قتيبة يسرد تاريخ السقيفة، وما فيه من مآسي، يقول: إنّ علياً كرّم اللّه وجهه أُتي به إلى أبي بكر وهو يقول: «أنا عبداللّه وأخو رسول اللّه» فقيل له: بايع، فقال: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ، وتأخذوه منّا أهل البيت غصبا! ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد فيكم فسلّموا إليكم الإمارة، فإذن أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار. نحن أولى برسول اللّه حيّاً وميتاً، فأنصفوا إن كنتم تؤمنون، وإلّا فبوؤا بالظلم وأنتم تعلمون». فقال له عمر: إنّك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له علي: «احلب حلباً لك شطره، وشُدَّ له اليوم، يردده عليك غداً ـ ثمّ قال: ـ واللّه يا عمر لا أقبل قولك ولا أُبايعه» فقال أبوبكر: فإن لم تبايع فـلا أُكرهك، فقال أبو عبيدة بن الجرّاح

لعلي كرم اللّه وجهه: ياابن عم إنّك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأُمور، ولا أرى أبابكر إلّا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واستطلاعا، فسلِّم لأبي بكر فإنّك إن تعش ويطل لك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك. فقال علي كرم اللّه وجهه: «اللّه اللّه يا معشر المهاجرين لا تُخرجوا سلطان محمّد في العرب من داره، وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، وتدفعون أهله عن مقامه في الناس، وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحقّ الناس به لأنّا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم، ما كان فينا القارئ لكتاب اللّه، الفقيه في دين اللّه، العالم بسنن رسول اللّه، المتطلّع لأمر الرعيّة، الدافع عنهم الأُمور السيّئة، القاسم بينهم بالسويّة، واللّه إنّه لفينا فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل اللّه فتزدادوا من الحقّ بعدا».[1]

فأيّ بيان أروع من هذا البيان، وأيّ بلاغ أصرح منه، فقد فنَّد خلافة المتقمّص ببيان فقده مؤهّلاتها وهي الأُمور التالية: «١- ما كان فينا القارئ لكتاب اللّه، ٢- الفقيه في دين اللّه، ٣- العالم بسنن رسول اللّه، ٤- المتطلّع لأمر الرعيّة، ٥- الدافع عنهم الأُمور السيّئة، ٦- القاسم بينهم بالسويّة» ومعنى ذلك انّ المتقمّص ومؤيديه فاقدون لهذه الصلاحيات .

٢- لمّا انتهت إلى أميرالمؤمنين أنباء السقيفة قال عليه السلام: «ما قالت الأنصار؟» قالوا: قالت منّا أمير ومنكم أمير، فقال: «فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول اللّه وصّىٰ بأن يُحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟» قالوا: وما في هذا من

---

١. الإمامة والسياسة: ١ / ١١ ـ ١٢.

الحجّة عليهم؟! فقال عليه السلام: «لو كانت الإمامة فيهم، لم تكن الوصيّة بهم ـ ثم قال: ـ فماذا قالت قريش؟» قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرّة».[١]

وروى الرضي في المقام شعراً للإمام:

فإن كنت بالشورى ملكت أُمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيّب

وإن كنت بالقربىٰ حججت خصيمهم فغيرك أولىٰ بالنبي وأقرب[٢]

٣- الإمام لم يكتف بهذه الجمل في بادئ الأمر، بل استمرّ على بيان الحق بأساليب مختلفة منها إحتجاجه بحديث الغدير في يوم الشورىٰ سنة ٢٣، قال عمرو بن واثلة: كنت على الباب يوم الشورى وعلي عليه السلام في البيت، فسمعته يقول: «لأحتجنَّ عليكم بما لا يستطيع عربيّكم ولا أعجميّكم تغيير ذلك – ثمّ قال: ـ أُنشدكم اللّه، أفيكم من وحّد اللّه قبلي؟» قالوا: لا... ـ إلى أن قال: ـ «فأُنشدكم باللّه، هل فيكم أحد قال له رسول اللّه: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب غيري؟» قالوا: اللّهمّ لا.[٣]

٤- كما ناشد يوم الرحبة سنة ٣٥، روى الأصبغ قال: نشد علي الناس في

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٦٧.

٢. نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ١٩٠.

٣. الصواعق المحرقة: ٧٥؛ المناقب للخوارزمي: ١٣٥ برقم ١٥٢.

الرحبة: «من سمع النبي يوم غدير خم ما قال، إلّا قام، ولا يقوم إلّا من سمع رسول اللّه» يقول: فقام بضعة عشر رجلاً، فيهم: أبو أيّوب الأنصاري، وسهل بن حنيف، وخزيمة بن ثابت، وعبداللّه بن ثابت الأنصاري... فقالوا: نشهد أنّا سمعنا رسول اللّه يقول: «ألا من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وابغض من أبغضه، وأعن من أعانه».[١]

ولم تكن المناشدة، منحصرة بهذين الموردين، بل ناشد الإمام في غير واحد من المواقف الأُخرى كما ناشدت زوجته الصدّيقة الطاهرة بحديث الغدير، وبعده الحسنان السبطان، وعبداللّه بن جعفر وعمّار بن ياسر، حتّى ناشد به عدوّه عمرو بن العاص عند احتجاجه على معاوية.[٢]

وهذه شواهد باهرة على عدم سكوته ولا رضاه بالأمر الواقع، بل استمرّ على هذا إلى أُخريات حياته، ويتّضح هذا بالرجوع إلى خطبته المعروفة الشقشقية الّتي ألقاها في آخر خلافته .

وأمّا عدم القيام بأخذ الحقّ بالقوة، فلأجل أنّ القيام فرع القدرة، ولم يكن يومذاك أيّ منعة وقدرة للإمام، ويكفي في ذلك كلامه في خطبته الأخيرة: «فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه».[٣]

---

١. أُسد الغابة: ٣ / ٣٠٧و ٥ / ٢٠٥.

٢. راجع للوقوف على هذه المناشدات كتاب الغدير: ١ / ١٥٩ ـ ٢١٣ .

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

ولو افترضنا وجود القدرة، لكن مصالح الإسلام كانت تكمن في المسالمة وإدلاء الأمر إليهم، يشير إليه الإمام تارة بالكناية وأُخرى بالتصريح، أمّا الأوّل فيقول: «أيّها الناس شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح. هذا ماء آجن، ولقمة يغصّ بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه .

فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت، يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللّتيَّا والّتي واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه، بل اندمجت على مكنون علم لو بُحْتُ به، لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويِّ البعيدة».[١]

وقد خطب بها الإمام لمّا قبض رسول اللّهﷺ وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة. وذلك بعد أن تمّت البيعة لأبي بكر في السقيفة، فيشير الإمام إلى ما لديه من العلم المكنون، وهو إشارة إلى الوصيّة الّتي خصّ بهاعليه السلام وأنّه كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الاختلاف عليه.[٢]

وقد أوضح ما ذكره مجملاً في هذه الخطبة الّتي ألقاها بعد وفاة الرسولﷺبخطبته الّتي ألقاها بعد رجوع الناس إليه وصرّح بأنّ لمسالمته الخلفاء لأجل أخطار كانت تحدق بالمسلمين بعد موت النبيّ، فقالعليه السلام: «إنّ اللّه

١. نهج البلاغة: الخطبة ٥.
٢. شرح نهج البلاغة: ١ / ٢١٥.

سبحانه بعث محمّداً ﷺ نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين، فلمّا مضى عليه السلام، تنازع المسلمون الأمر من بعده، فواللّه ما كان يلقىٰ في روعي، ولا يخطر ببالي، أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنحّوه عنّي من بعده! فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّد ﷺ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرىٰ فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم الّتي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتّى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه».[1]

ورواه أبو الحسن علي بن محمّد المدائني عن عبداللّه بن جنادة، قال: قدمت من الحجاز أُريد العراق في أوّل إمارة علي عليه السلام، فمررت بمكّة فاعتمرت، ثم قدمت المدينة فدخلت مسجد رسول اللّه، إذ نودي: الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس وخرج علي عليه السلام متقلّداً سيفه، فشخصت الأبصار نحوه، فحمداللّه وصلّى على رسوله، ثم قال: أمّا بعد، فلمّا قبض اللّه نبيّه ﷺ قلنا: نحن أهله وورثته، وعترته، وأولياؤه دون الناس، لا ينازعنا سلطانه أحد، ولا يطمع في حقّنا طامع، إذ انبرىٰ لنا قومنا، فغصبونا سلطان نبينا، فصارت الإمرة لغيرنا ـ إلى أن قال: ـ وأيم اللّه، لولا مخافة الفرقة بين المسلمين، وأن يعود الكفر ويبور الدين، لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه، فوليَ الأمر ولاة لم يألوا الناس خيراً».[2]

---

١. نهج البلاغة: قسم الكتب برقم ٦٢.

٢. شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٠٧، والكلمتان متقاربتان.

كان الإمام عليه السلام يرى أنّ الدعوة إلى نفسه تؤدّي إلى تعرّض الإسلام إلى الأخطار المهلكة .

روى الزبير بن بكار، قال: روى محمد بن إسحاق أنّ أبابكر لمّا بويع افتخرت تيم بن مرة، قال: وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكون انّ عليّاً هو صاحب الأمر بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وقال بعض بني هاشم شعراً مدح فيه الإمام وعاب المتقمّصين وقال:

ما كنت أحسِب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أوّل من صلّىٰ لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن؟

وأقرب الناس عهداً بالنبيّ ومَن جبريل عون له فيالغسل والكفن

ما فيه ما فيهم لا يمترون به وليس في القوم ما فيه من الحسن

ماذا الّذي ردّهم عنه فنعلمه؟ ها إنّ ذا غبننا من أعظم الغبن!

قال الزبير: فبعث إليه علي فنهاه، أمراً لا يعود وقال: لسلامة الدين أحبُّ إلينا من غيره .

فهذه الكلم والخطب عن عليٍّ تعرب عن إخلاصه للدين وحبّه لحفظ الوئام والسلام بين المسلمين، وانّه لولا خوف محق الدين لما ترك الأمر إلى الغير، ولقام بالسلاح والكراع على أخذ حقّه .

«ولولا مراعاة عليّ للأوضاع والظروف الّتي أحاطت بالإسلام في تلك الفترة من تاريخه، لحدثت تطوّرات في تاريخ الإسلام لانستطيع أن نقدّر مدى أثرها السيّئ على جهود الرسول والوصي والمخلصين من الصحابة،

ولكنّه أدرك ذلك، وأحصى ما سيجرّه تصلّبه في موقفه من الغنائم على المرتدّين والمنافقين الذين أضمروا الدمار للإسلام».[١]

كان الإمام ينظر إلى أنّ طوائف من العرب على عتبة الارتداد عن الإسلام، وانّ بين المسلمين في المدينة طابوراً خامساً يتحيّن الفرص للقضاء على الإسلام وإحياء الجاهلية، فلم ير بدّاً من التسليم للأمر الواقع ومماشاة الخلفاء، ورفع مشاكل المسلمين في المسائل المستجدّة والمستعصية والإجابة على أسئلة الوافدين إلى المدينة، وتعليم القرآن للفيف من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، والإدلاء بالرأي الحق عند المشاورة، إلى غير ذلك من الأُمور الّتي استغرقت قرابة خمس وعشرين سنة من حياته، إلى عام ٣٥ الّذي قتل فيه عثمان بمرأى ومسمع من المهاجرين والأنصار. وقد أحدث في الإسلام أُموراً أدَّت إلى الفتك به، وكان الخليفة الثاني متنبّئاً به، فقال له: لئن وليتها (الخلافة) لتحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس، فحمل بني أبيه على رقابهم، يخضمون مال اللّه خضم الإبل نبتة الربيع، فأدّى ذلك وغيره إلى قتله في عقر داره .

تسنّم الإمام مقاليد الحكم بعد ربع قرن:

كان الإمام قرابة ربع قرن جليس بيته، يشتغل ببعض الأُمور لما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، إلى أن قُتِل عثمان و انثال الناس على الإمام من كل جانب هاتفين: لا يصلح للخلافة إلّا علي. فقال لهم: «دعوني والتمسوا غيري» .

روى الطبري نقلاً عن محمّد بن الحنفية: كنت مع أبي، حين قتل عثمان

١. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ٢٨ .

فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول اللّه، فقالوا: إنّ هذا الرجل قد قتل، ولابدّ للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحقّ بهذا الأمر منك، ولا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول اللّهﷺ فقال: «لا تفعلوا فانّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميرا» فقالوا: واللّه ما نحن فاعلين حتّى نبايعك، فقال: «ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلّا عن رضا المسلمين»، قال سالم بن أبي الجعد: فقال عبداللّه بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه، وأبىٰ هو إلّا المسجد. فلمّا دخل، دخل المهاجرون والأنصار، فبايعوه، ثم بايعه الناس.(١)

وفي رواية أُخرى: غشى الناس عليّاً، فقالوا: نبايعك، فقدترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه، وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول» فقالوا: ننشدك اللّه، ألا ترىٰ ما نرى، ألا ترى الإسلام ، ألا ترى الفتنة، ألا تخاف اللّه، فقال: «قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني، فانّما أنا كأحدكم، إلّا أنّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم».(٢)

هذا ما يذكره الطبري، وأمّا الامام فهو يصف كيفية هجوم الناس على بيته لمبايعته فيقول: «فتداكّوا عليَّ، تداكّ الإبل الهيم يوم وِرْدِها، وقد أرسلها راعيها، وخُلعت مثانيها، حتّى ظننت أنّهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعض لديَّ».(٣)

---

١. تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٠.

٢. تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٦.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٥٤، تداكوا: ازدحموا، والهيم: العطاش، يوم وردها: يوم شربها، والمثاني: الحبال.

وفي خطبة أُخرى: «فما راعني إلّا والناس كعرف الضبع إِليَّ، ينثالون عليّ من كل جانب حتّى لقد وطئ الحسنان، وشقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم».[١]

ولم تشهد ساحة الخلافة احتشاداً جماهيرياً إلى يومنا هذا، مثلما شهدته في ذلك الزمان، فقد اتّفق المهاجرون والأنصار، والتابعون لهم بإحسان على المبايعة، ولم يتخلّف إلّا قليل من الناس لا يتجاوز عدد الأنامل. وقد جاء الطبري بأسمائهم يقول: بايعت الأنصار علياً إلّا نـفراً يسيراً، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمّد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خُديج، وفضالة بن عبيد، وكـعب بـن عجرة وكانوا عثمانية. فقال رجل لعبداللّه بن حسن: كيف أبىٰ هؤلاء بيعة علي وكانوا عثمانية، فقال: أمّا حسّان، فكان شاعراً لايبالي ما يصنع، وأمّا زيد بن ثابت فولّاه عثمان الديوان وبيت المال، فلمّا حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار اللّه – مرتين ـ فقال أبو أيوب: ما تنصره إلّا إنّه كثر لك من العضدان[٢]، فأمّا كعب بن مالك فاستعمله على صدقة «مُزِينة» وترك ما أخذ منهم له.[٣]

قام الإمام بواجبه، وهمَّ بالإصلاح، وحوله حُسّاد حاقدون، وأعداء يترقّبون الفرص، وعمّال للخليفة يسألونه البقاء على مناصبهم، فعند ذلك حاقت به الأزمات والشدائد، وهو يصف ذلك بقوله: «فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة،

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣، عُرْف الضبع: ماكثر على عنقها من الشعر، يضرب به المثل في الكثرة، ينثالون: يتتابعون، شـقّ عطفاي: خدش جانباه من الاصطكاك.

٢. العضاد:كل ما يحيط بالعضد من حلي وغيرها.

٣. تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٢.

ومرقت أُخرى، وقسط آخرون، كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه سبحانه يقول: ﴿**تِـلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَ لا فَسَاداً وَ العَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ**﴾ [١] بلىٰ! واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكنّهم حَلِيَتْ الدنيا في أعينهم، وراقهم زِبْرجها. أما و الّذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ اللّه على العـلماء أن لا يقارّوا على كظّة[٢] ظالم، ولا سغب[٣] مظلوم، لألقيت حبلها عـلى غـاربها، ولسـقيت آخـرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عَنْز»[٤] .

فقد أشار الإمام بكلامه هذا إلى حروبه الثلاثة مع طوائف ثلاث، فالناكثون هم أصحاب الجمل، الذين لم يجدوا عند الإمام إلّا الحقّ، فطلبوا منه من المناصب ما كان فـوق شأنـهم وأمانتهم فاجتمعوا في مكّة تحت غطاء المطالبة بدم عثمان مع أنّهم هم المحرّضون على قتله، وموّلهم جماعة من بني أُميّة، ولم يكتفوا بذلك، وإنّما غرّوا وحرّضوا أُمّ المؤمنين عائشة، وأركبوها على الجمل يقطعون بها الفيافي والقفار، حتّى نزلوا البصرة، فقتلوا من شيعة علي ومحبّيه مـا استطاعوا. فلمّا لاقوا عليّاً بجيوشهم أبوا إلّا الحرب، فدارت الدوائر على الناكثين، فقتل رؤوس الفتنة، وأُرسلت أُمّ المؤمنين إلى المدينة بتكريم واحترام.

ولكن لم يقف الأمر على هذا الحد، فقام ابن آكلة الأكباد، الطليق ابن الطليق الّذي خَذَلَ عثمان، ولم ينصره، ثم انتحل دمه وطلب ثأره، فجمع حوله

---

١. القصص: ٨٣.
٢. الكظّة: البِطْنَة (ما يعتري الآكل عند امتلائه بالطعام) والمراد: استئثار الظالم بالحقوق.
٣. السغب: شدة الجوع.
٤. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

الهمج والرعاع، وتحالف مع عمرو بن العاص الّذي عزله عثمان عن ولاية مـصر، فألّب عليه كل راع رآه في البادية، وساومه معاوية على ولاية مصر، فقابلهم الإمام في أرض صفين، وقد كادت الحرب تنتهي لصالح الحق والمسلمين لولا أنّـهم رفـعوا المـصاحف عـلى الرمـاح، وانطلت الحيلة على عسكر الإمام، وقالوا له: أجب القوم، فحذّرهم الإمام بأنّه مكر وخداع، والقوم ليسوا أهل قرآن وسنّة، فطلب منهم المهلة فما أجابوه، بل هدّدوا بإراقة دمه وقتاله إن لم يُوقف الحرب، ولم يسترجع قائده من ساحة القتال، حتّى أنّ الأشتر قائد القوات طلب منهم المهلة ولو بقدر فواق ناقة أو عدوة فرس، فما وافقوه، فاضطرّ الإمام إلى إيقاف الحرب، وإدلاء الأمر إلى الحكمين بشرط أن لا يخرجوا عن حكم الكتاب والسنّة، وكانت نهاية الأمر، عزل مندوب الإمام (أبو موسى الأشعري) خليفة المسلمين، ونصب عمرو بن العاص معاوية للخلافة، كل ذلك بمكر وخداع واحتيال على أبي موسى، فقام الحكمان ومن حولهما يشتتمان ويتسابّان .

ثمّ أُولئك الذين فرضوا قبول التحكيم على علي، ندموا على ذلك، وطفقوا يطالبونه بنقض الميثاق قبل حكم الحكمين، فخرجوا عن طاعة علي، وعن جيشه، فنزلوا حروراء ولم يرجعوا إلى الطاعة حتّى بعد ما دعاهم الإمام لإعادة الحرب على معاوية، لما ظهر لهم كون قـول حكـم الحكمين على خلاف الكتاب والسنّة، بل أصبحوا يطالبون عليّاً أن يتوب من كفره، كما هم تابوا من كفرهم، لأجل تحكيمه الرجال في أمر الدين، ولم يكتفوا بذلك، فـصاروا كـقطّاع الطـريق يقتلون البريء، ويسفكون الدماء، فأوجدوا دهشة ورعباً في قلوب المسلمين، فلم يجد الإمام بدّاً من قتالهم، وإن كان قتالهم أمراً عظيماً، لأنّهم كانوا أصحاب الجباه السـود، يـصومون النـهار ويقومون الليل، وفي الوقت نفسه

هم المارقون، المعاندون للّه ورسوله، وفي حقّهم يقول الإمام:

«إنّي فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها[١]، واشتدّ كلبها[٢]»[٣] .

هذه حياة الإمام علىٰ وجه الإجمال، حياة من ولد في الكعبة ولم يسجد لصنم ورافق النبيّ منذ صباه في موطنه ومهجره، ولم يتخلّف عنه في غزوة من غزواته إلّا غزوة تبوك، حيث خلّفه في المدينة لإدارة شؤونها في غيابه .

ومع الأزمات الّتي خلّفها عثمان وعمّاله، وسوّدوا بها وجه التاريخ، وقطعوا عرى الوحدة بين الخلافة والناس «استطاع أن يجعل من نظامه السياسي المثل الكامل للنظام السياسي للدولة الّتي أسّسها ورفع كيانها رسول اللّه، وأن يجعل من أعماله وأقواله في السلم والحرب، التجسيد الكامل للشريعة الإسلامية وأن يجعل من سلوكه وأخلاقه الصورة الكاملة لأخلاق الرسول وسلوكه، وبذلك ربط كل مسيرة عهده بمسيرة العهد النبوي الشريف، وثبّت للإسلام دعائمه، وأعاد إلى النفوس المؤمنة أمنها ويقينها بالرسالة الإسلامية الخالدة».[٤]

قام الإمام بالخلافة، وتقلّدها بعد مقتل عثمان، وقد ترك ولاة يمتصّون دماء الناس، ولم يكن الإمام ممّن يساوم ويداهن ويترك الحق جانباً، وأوّل ما قام

---

١. الغيهب: الظلمة، وموجها: شمولها وامتدادها .
٢. الكلب ـ محركة ـ داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عظه أُصيب به فجنّ ومات إن لم يبادر بالدواء .
٣. نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.
٤. الزيدية نظرية وتطبيق: ١٩.

به، هو أنّه أزال الظلم عن الناس بإزالة العمّال والولاة الظالمين، الذين اكتنزوا الذهب والفضّة، وملكوا العقارات والمواشي، فعند ذلك قامت قيامة هؤلاء فهم بين ناكث، وقاسط، وضمّ إليهم أعداء يترقّبون الفرص للوثوب، والانتقام، لأنّه قتل آباءهم واستأصل شأفتهم في الحروب والغزوات، كلّ ذلك صار سبباً لانشغال الإمام بالحروب الداخلية. ولو كان الامام آخذاً مقاليد الخلافة بعد الرسول، بل حتّى بعد خلافة الشيخين لما وجد الانحراف عن الدين وتعاليمه في الحياة مجالاً، ولكنّه ـ ياللأسف ـ أخذ بها والمجتمع مثقّل بالأزمات والانحرافات .

إغارة معاوية على البلاد الآمنة:

هذا ابن أبي سفيان، لمّا رأىٰ أنّ الأمصار الإسلامية ما عدا الشام في طاعة الإمام، جمع حوله الأشقياء والبغاة، يغيرون على البلاد الآمنة، وينشرون الفوضى والفساد واحداً بعد واحد .

١- فأرسل سفيان بن عوف الغامدي، وقال: إنّي موجّهك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات، حتّى تمر بهيت[١] فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليها، وامض، حتّى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جنداً، فامض حتّى توغل المدائن، فكأنّك غرت على الكوفة، إنّ هذه الغارة يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كلّ من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممّن ليس على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب

١. هيت: بلد على الفرات فوق الأنبار .

الأموال فإنّ حرب الأموال ـ أي سلبها ـ شبيهة بالقتل، وهو أوجع للقلب».[١]

ولمّا بلغ عليّاً جنايات الرجل، خطب خطبته المعروفة وقال:

«فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه اللّه لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع اللّه الحصينة، وجنّته الوثيقة ـ إلى أن قال: ـ وهذا أخو غامد، وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسّان بن حسّان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورُعُثها، ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام، ثمّ انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديرا».[٢]

٢- هذا بسر بن أرطاة، بعثه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبيداللّه بن العباس بن عبدالمطلب، وكانا غلامين صغيرين، فقالت أُمّهما ترثيهما:

يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما كالدرّتين تشظّىٰ عنهما الصدف[٣]

وقد خطب الإمام بعد ما بلغه النبأ بقوله: «أُنبئتُ بُسراً قد اطّلعَ اليمنَ، وانّي

---

١. شرح نهج البلاغة: ٢ / ٨٥.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٣. شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٤٠. تشظّا: تفرّق شظايا. راجع للوقوف على بقية الأبيات الكامل للمبرد، وقد ذكره ابن أبي الحديد في شرحه: ٢ / ١٣.

واللّه لأظنّ أنّ هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، وبمعصيتكم إمامكم بالحق، وطاعتهم إمامهم بالباطل، وبأَدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم، وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على قعب، لخشيت أن يذهب بعلاقته»[١].

٣- دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وقال له: سر حتّى تمر بناحية الكوفة، وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي، فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً، فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلد فامس في أُخرى، ولا تقيمن لخيل بلغك أنّها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها، ثم جهّزه بثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف .

فاقبل الضحاك، فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب، حتّى مرّ بالثعلبية[٢]، فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي، وهو ابن أخي عبداللّه بن مسعود، صاحب رسول اللّهﷺ فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة[٣]، وقتل معه ناساً من أصحابه.[٤]

٤- ولم يكتف معاوية بهذه الهجمات العنيفة على البلاد الآمنة، بل جهّز بسر بن أرطاة مرّة ثانية، لإراقة الدماء في حرم الرسول. ويقول ابن أبي الحديد: كان بسر بن أرطاة قاسي القلب فظّاً سفّاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة، وقد جهّزه معاوية في ثلاثة آلاف، وقال له: سر حتّى تمرّ بالمدينة، فاطرد الناس،

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٥.
٢. الثعلبية: من منازل طريق مكّة إلى الكوفة .
٣. بالضم ثم السكون: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف .
٤. شرح نهج البلاغة: ٢ / ١١٦ ـ ١١٧.

وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أحصيت له مالاً، ممّن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنّك تريد أنفسهم، واخبرهم أنّه لا براءة لهم عندك ولا عذر. ووصل بسر إلى المدينة المنوّرة، فشتم أهلها وتهدّدهم وتوعّدهم وأحرق دوراً كثيرة، منها دار زرارة بن حرون، ودار عمرو بن عوف، ودار رفاعة بن رافع الرزقي، ودار أبي أيّوب الأنصاري صاحب منزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم [١] .

وقال المسعودي: قتل بسر بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً. ولمّا بلغ الخبر عليّاً أنفذ حارثة بن قدامة السعدي في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، وحين علم بسر بخبر حارثة فرّ هاربا.[٢]

وكانت هذه العصابات الإجرامية، تأتي إلى العراق فتقتل وتحرق وتدمّر، إلى آخر حياة الإمام، الّذي قضى نحبه في الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ. وأصبحت شيعته كغنم غاب عنها راعيها، يفترسهم أعداؤهم عندما استتبّ الأمر لآل أبي سفيان وآل مروان، وهذا هو الّذي نطرحه في الفصل التالي:

١. شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٠، وما ذكرناه ملخّص ما ذكره مفصّلا.
٢. مروج الذهب: ٣ / ٢١ ـ ٢٢ بتصرف.

الفصل التاسع :

الشيعة في العصرين الأموي والعباسي

لا نأتي بجديد إذا ذهبنا إلى القول بأنّ الهجمة الشرسة التي كانت تستهدف استئصال الشيعة والقضاء عليهم قد أخذت أبعاداً خطيرة ودامية أبان الحكمين الأُموي و العباسي، فما أن لبّى الإمام دعوة ربّه في ليلة الحادي والعشرين من رمضان على يد أشقى الأوّلين و الآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، وهو يصلّي في محراب عبادته، حتّى شرع أعداء الإمام وخصوم التشيّع إلى التعرّض الصريح بالقتل و التشريد لأنصار هذا المذهب و المنتسبين إليه، وإذا كان استشهاد الإمام علي يؤلّف في حدّ ذاته ضربة قاصمة في هيكلية البناء الإسلامي، إلّا أنّ هذا لم يمنع البعض ممّن وقفوا موقفاً باطلاً ومنحرفاً من الإمام عليّ في حياته من التعبير عن سرورهم من هذا الأمر الجلل، كما نقل ذلك ابن الأثير عن عائشة زوجة رسول الله ﷺ حيث قالت عندما وصلها النبأ:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

ثمّ قالت: من قتله، فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاهُ نعيٌّ ليس في فيه الترابُ

فقالت زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعليّ؟ فقالت: إنّي أنسى، فإذا نسيت فذكّروني...!![1].

---

١. الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٩٤.

الشيعة في العصر الأُموي

وأمّا معاوية فلا مناص من القول بأنّه أكثر المستبشرين بهذا الأمر، حيث إنّه قال لمّا بلغه: إنّ الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في الحرب قد قضى نحبه. ثمّ أنشد:

قل للأرانب ترعى أينما سرّحت وللظباء بلا خوف و لا وجلِ[١]

في الجانب الآخر نرى أنّ الإمام الحسن الابن الأكبر للإمام عليّ ووارثه ينعى أباه بقوله في مسجد الكوفة: «**ألا أنّه قد مضي في هذه الليلة، رجل لم يدركه الأوّلون، ولن يري مثله الآخرون. من كان يقاتل وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله. والله لقد توفّي في هذه الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم، وأُنزل القرآن. ألا وإنّه ما خلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله**».[٢]

ثمّ بويع الحسن في نهاية خطبته، وكان أوّل من بايعه قيس بن سعد الأنصاري، ثم تتابع الناس على بيعته، وكان أمير المؤمنين قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت. فبينما هو يتجهّز للمسير قُتل عليه السلام. فبايع هؤلاء ولده الحسن، فلمّا بلغهم مسير معاوية في أهل الشام إليه، تجهّز هو و الجيش الذين كانوا قد بايعوا عليّاً. وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية[٣].

---

١. ناسخ التواريخ: ٦٩٢ القسم المختص بحياة الإمام.
٢. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٣.
٣. الكامل: ٣/ ٤٠٤.

بيد إنّ الأُمور لم تستقم للإمام الحسن لجملة من الأسباب المعروفة، أهمّها تخاذل أهل العراق أوّلاً؛ وكون الشيوخ الذين بايعوا عليّاً و التفّوا حوله كانوا من عبدة الغنائم و المناصب، ولم يكن لهؤلاء نصيب في خلافة الحسن إلّا ما كان لهم عند أبيه من قبل ثانياً؛ وإنّ عدداً غير قليل ممّن بايع الحسن كانوا من المنافقين، يراسلون معاوية بالسمع والطاعة ثالثاً. كما أنّ قسماً من جيشه كانوا من الخوارج أو أبنائهم رابعاً. إلى غير ذلك من الأسباب التي دفعت الإمام إلى قبول الصلح مع معاوية تحت شروط خاصّة تضمن لشيعة عليّ الأمن والأمان، إلّا أنّ معاوية وبعد أن وقّع على صلحه مع الإمام الحسن لم يتردد من الإعلان عن سريرته بكل صراحة ووضوح على منبر الكوفة: إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ـ وإنّكم لتفعلون ذلك ـ ولكن قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون، ألا وإنّي قد كنت منّيتُ الحسن أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له.[1]

وكان ذلك التصريح الخطير، والمنافي لأبسط مبادئ الشريعة الإسلامية، يمثل الإعلان الرسمي لبدء الحملة الشرسة والمعلنة لاستئصال شيعة علي وأنصاره تحت كلّ حجر ومدر. وتوالت المجازر تترى بعد معاوية إلى آخر عهد الدولة الأُمويّة، فلم يكن للشيعة في تلك الأيّام نصيب سوى القتل والنفي والحرمان. وهذا هو الذي نستعرضه في هذا الفصل على وجه الإجمال، حتّى يقف القارئ على أنّ بقاء التشيّع في هذه العصور المظلمة كان معجزة من معاجز

١. الإرشاد للشيخ المفيد: ١٩١.

الله سبحانه، كما يتوضّح له مدى الدور الخطير الذي لعبه الشيعة في الصمود والكفاح والردّ على الظلمة وأعوانهم منذ عصر الإمام إلى يومنا هذا. وإليك بعض الوثائق من جرائم معاوية.

١ ـ رسالة الإمام الحسين إلى معاوية:

«أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنّه انتهت إليك عنّي أُمور لم تكن تظنّني بها رغبة بي عنها، وأنّ الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلّا الله تعالى، وأمّا ما ذكرت أنّه رقى إليك عنّي، فإنّما رقّاه الملّاقون المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أُريد لك حرباً ولا خلافاً، وإنّي لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين حزب الظلمة وأعوان الشيطان الرجيم. ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتَهم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكّدة جرأة على اللّه واستخفافاً بعهده. أولست بقاتل عمرو بن الحمق الّذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته الصم لنزلت من سقف الجبل .

أو لست المدعي زياداً في الإسلام فزعمت أنّه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم انّ الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل؟

سبحان اللّه يا معاوية! لكأنّك لست من هذه الأُمّة، وليسوا منك، أوَلستَ قاتل الحضرمي الذي كتب إليك في زياد أنّه على دين عليّ كرّم الله وجهه، ودين عليّ هو دين ابن عمّه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منّة عليكم، وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الأُمّة في فتنة، وإنّي لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمّد. وإنّي والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنّه قربة إلى ربّي، وإن لم أفعله فأستغفر الله لديني. وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدك، فكدني يا معاوية ما بدا لك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون وإنّي لأرجو أن لا تضرّ إلّا نفسك ولا تمحق إلّا عملك فكدني ما بدا لك، واتّق الله يا معاوية، واعلم أنّ لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، واعلم أنّ الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظنّة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيّاً يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلّا قد أوبقت نفسك، وأهلكت دينك، وأضعت الرعيّة و السلام».[1]

ولعلّ المتأمل في جوانب هذه الرسالة والمتدبّر لمفرداتها يدرك وبوضوح مدى الدور المنحرف الذي وقفه الأُمويّون وعلى رأسهم معاوية في

---

١. الإمامة والسياسة :١/ ١٦٤؛ جمهرة الرسائل: ٢/ ٦٧.ورواه الكشي في رجاله: ٤٨ ـ ٥١ والمجلسي في البحار: ٤٤/ ٢١٢ـ٢١٤.

محاربة أنصار مذهب التشيّع وروّاده، كما تتوضح له الصورة عن حجم المحنة التي مرّ بها الشيعة إبّان تلك الحقبة الزمنية.

ولكي تتوضّح الصورة في ذهن القارئ الكريم ندعوه إلى قراءة رسالة الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام لأحد أصحابه، حيث قال:

«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتّى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا. ثمّ تداولتها قريش، واحد بعد واحد، حتّى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حتّى قتل، فبويع الحسن ابنه وعُوهد ثمّ غدر به وأُسلم، ووثب عليه أهل العراق حتّى طعن بخنجر في جنبه، ونهبت عسكره، وعولجت خلاخيل أُمّهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليلٌ حقٌّ قليل.

ثم بايع الحسين من أهل العراق عشرون ألفاً، ثمّ غدروا به، وخرجوا عليه، وبيعته في أعناقهم وقتلوه.

ثمّ لم نزل ـ أهل البيت ـ نستذلّ ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله ولم نفعله، ليبغّضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبّنا

والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام، ثمّ جاء الحجّاج فقتلهم كلّ قتلة، وأخذهم بكل ظنّة وتهمة، حتّى أنّ الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبّ إليه من أن يقال: شيعة عليّ، وحتّى صار الرجل الذي يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنّها حقّ لكثرة من قد رواها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع»[1].

بل وإليك ما أورده ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة:

كان سعيد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس من شيعة عليّ بن أبي طالب، فلمّا قدم زياد الكوفة ـ والياً عليها ـ أخافه فطلبه زياد، فأتى الحسن بن عليّ عليه السلام، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته، فحبسهم وأخذ ماله وهدم داره. فكتب الحسن عليه السلام إلى زياد: «**من الحسن بن عليّ إلى زياد، أمّا بعد: فإنّك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره وأخذت ماله، وحبست أهله وعياله، فإذا أتاك كتابي هذا، فابن له داره، واردد عليه عياله وماله، وشفّعني فيه فقد أجرته والسلام**».

فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أمّا بعد: فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلّط علىٰ رعيّته، كتبت إليّ في فاسق آويتَه

---

١. شرح نهج البلاغة: ١١ / ٤٣ ـ ٤٤.

إقامة منك علىٰ سوء الرأي و رضاً منك بذلك، وأيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك فغير رفيق بك ولا مرع عليك، فإنّ أحبّ لحم عليّ أن آكله اللّحم الذي أنت منه، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفّعتك فيه، وإن قتلته لم أقتله إلّا لحبّه أباك الفاسق، والسلام».[١]

«كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرّضهم على لعن عليّ أو البراءة منه، فملأ منهم المسجد والرحبة، فمن أبى ذلك عرضه على السيف»[٢].

وعن المنتظم لابن الجوزي: أنّ زياداً لمّا حصبه أهل الكوفة وهو يخطب على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم، وهمّ أن يخرب دورهم ويحرق نخلهم، فجمعهم حتّى ملأ بهم المسجد والرحبة يعرضهم على البراءة من عليّ، وعلم أنّهم سيمتنعون، فيحتجّ بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم.[٣]

بيان معاوية إلى عماله:

روى أبو الحسن عليّ بن محمّد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة!!: «أن برأت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته» فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كلّ منبر، يلعنون عليّاً ويبرأون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة عليّ عليه السلام

١. شرح بن أبي الحديد: ١٦/ ١٩٤.
٢. مروج الذهب: ٣/ ٢٦.
٣. المنتظم: ٥/ ٢٦٣.

فاستعمل عليها زياد بن سميّة، وضمّ إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيّام عليّ عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألّا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة. وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك، حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء و الحباء و القطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل و الدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلّا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عمّاله: إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب و شيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله!!

فقرأت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة

مفتعلة لاحقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلّمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم و غلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموه بناتهم و نساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أُخرى: من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره.

فلم يكن بلدٌ أشدّ بلاءً من العراق، ولا سيّما الكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة عليّ عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه. فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء والمراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويتقرّبوا من مجالسهم، ويصيبوا الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنّون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها، ولا تديّنوا بها.

وقال ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن عليّ عليه السلام فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض.

ثمّ تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولّي عبد الملك بن مروان، فاشتدّ على الشيعة، وولّي عليهم الحجّاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض عليّ وموالاة أعدائه، وموالاة من يدّعي من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من عليّ عليه السلام وعيبه، والطعن فيه، والشنآن له، حتى أنّ إنساناً وقف للحجّاج ـ ويقال إنّه جدّ الأصمعي عبد الملك بن قريب ـ فصاح به: أيّها الأمير انّ أهلي عقّوني فسمّوني علياً، وانّي فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجّاج، وقال: للطف ما توسّلت به، قد ولّيتك موضع كذا.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم ـ في تأريخه ما يناسب هذا الخبر، قال: إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيّام بني أُميّة تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يرغمون به أُنوف بني هاشم.[1]

ضحايا الغدر الأُموي:

لعلّ المرء يصاب بالذهول وهو يتأمّل أسماء الصحابة والتابعين ذوي المنازل الرفيعة والمكانة السامية و الدور الجليل في خدمة الإسلام وأهله، كيف سقطوا صرعى بسيف الأُمويّين لا لشيءٍ إلّا لأنّهم شيعة عليّ عليه السلام، ومن هؤلاء:

---

١. شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٦.

١ ـ حجر بن عديّ: الذي قبض عليه زياد بعد هلاك المغيرة سنة (٥١هـ) وبعثه مع أصحابه إلى الشام بشهادة مزوّرة، وفرية ظالمة، كان يراد منها قتله وتوجيه ضربة قوية لشيعة عليّ وتصفيتهم.

يقول المسعودي:

«في سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عديّ الكندي ـ وهو أوّل من قتل صبراً في الإسلام ـ وحمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها، فلمّا صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ـ ولا عقب له من غيرها ـ:

تـرفّع أيّـها القمر المنير لعلّك أن ترىٰ حجراً يسير

يسير إلىٰ معاوية بن حرب ليـقتله، كـذا زعـم الأمـير

ويصلبه علىٰ بـابي دمشـق وتأكل من محاسنه النسور

فقتله مع أصحابه في مرج عذراء[١] بصورة بشعة يندى لها الجبين، وهي مذكورة في جميع كتب التأريخ، فراجع.

٢ ـ عمرو بن الحمق: ذلك الصحابي العظيم الذي وصفه الإمام الحسين سيّد الشهداء بأنّه: «**أبلت وجهه العبادة**». قتله معاوية بعدما أعطاه الأمان.[٢]

٣ ـ مالك الأشتر: ملك العرب، وأحد أشرف رجالاتها وأبطالها، كان

١. مروج الذهب: ٣/ ٣ـ٤؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٢ـ٤٦٦ برقم ٩٥.
٢. سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤ـ٣٥ برقم ٦.

شهماً مطاعاً وكان قائد القوات العلوية. قتله معاوية بالسمّ في مسيره إلى مصر بيد أحد عمّاله.[١]

٤ ـ رشيد الهجري: كان من تلاميذ الإمام وخواصّه، عرض عليه زياد البراءة واللعن فأبىٰ، فقطع يديه ورجليه ولسانه، وصلبه خنقاً في عنقه.[٢]

٥ ـ جويرية بن مسهر العبديّ: أخذه زياد وقطع يديه ورجليه وصلبه على جذع نخلة.[٣]

٦ ـ قنبر مولى أمير المؤمنين: روي أن الحجّاج قال لبعض جلاوزته: أُحبّ أن أُصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب فقالوا: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة له من مولاه قنبر. فبعث في طلبه، فقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم، قال له: ابرأ من دين عليّ، فقال له: هل تدلّني على دين أفضل من دينه؟ قال: إنّي قاتلك فاختر أيّ قتلة أحبّ إليك، قال: أخبرني أمير المؤمنين: أنّ ميتتي تكون ذبحاً بغير حقّ. فأمر به فذبح كما تذبح الشاة.[٤]

٧ ـ كميل بن زياد: وهو من خيار الشيعة وخاصّة أمير المؤمنين، طلبه الحجّاج فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلمّا رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير وقد نفد عمري ولا ينبغي أن أكون سبباً في حرمان قومي. فاستسلم للحجّاج، فلمّا رآه قال له: كنت أحبُّ أن أجد عليك سبيلاً، فقال له كميل: لا تبرق ولا ترعد، فوالله ما بقي من عمري إلّا مثل الغبار، فاقض فإنّ الموعد الله عزّ

١. شذرات الذهب: ١ / ٩١.
٢. شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
٣. شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٩٠ ـ ٢٩١.
٤. رجال الكشي: ٦٨ـ٦٩ / ٢١؛ الشيعة والحاكمون: ٩٥.

وجلّ، وبعد القتل الحساب. وقد أخبرني أمير المؤمنين أنّك قاتلي، فقال الحجّاج: الحجّة عليك إذن، فقال: ذلك إن كان القضاء لك، قال: بلى، اضربوا عنقه.[١]

٨ ـ سعيد بن جبير: التابعي المعروف بالعفّة والزهد والعبادة، وكان يصلّي خلف الإمام زين العابدين، فلمّا رآه الحجّاج قال له: أنت شقي ابن كسير، فقال: أُمّي أعرف باسمي منك. ثم بعد أخذ وردّ أمر الحجاج بقتله، فقال سعيد: ﴿**وجّهتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السمّواتِ وَالأرضَ حنيفاً** ـ مسلماً ـ **وما أنا مِنَ المشركين**﴾[٢]. فقال الحجّاج: شدّوه إلى غير القبلة، فقال: ﴿**أينما تولّوا فثمَّ وَجهُ الله**﴾[٣]، فقال: كبّوه على وجهه، قال: ﴿**مِنْها خَلَقناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُم وَمِنْها نُخْرِجُكُم تارَة أُخرى**﴾[٤]. ثم ضربت عنقه.[٥]

وسيوافيك ما جرى على زيد بن عليّ من الصلب أيّام خلافة هشام بن عبدالملك عام (١٢٢هـ) عند الكلام عن فرقة الزيدية إن شاء الله تعالى.

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ممّا جناه الأُمويّون في حقّ الشيعة طوال فترة حكمهم وتولّيهم لدفّة الأُمور وزمام الحكم، وتالله إنّ المرء ليصاب بالغثيان وهو يتأمّل هذه الصفحات السوداء التي لا تمحى من ذاكرة التاريخ وكيف لطّخت بالدماء الطاهرة المقدسة والتي أُريقت ظلماً وعدواناً وتجنّياً على الحقّ وأهله.

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٧ / ١٤٩؛ الشيعة والحاكمون: ٩٦.
٢. الأنعام: ٧٩. ٣. البقرة: ١١٥.
٤. طه: ٥٥.
٥. سير أعلام النبلاء: ٤ / ٣٢١ـ٣٢٨؛ الجرح والتعديل: ٤ / ٩ برقم ٢٩.

الشيعة في العصر العباسيّ:

دار الزمان على بني أُميّة، وقامت ثورات عنيفة ضدّهم أثناء خلافتهم، إلى أن قضت على آخر ملوكهم (مروان الحمار): ﴿**فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ**﴾[1] وامتطى ناصية الخلافة بعدهم العباسيون، والذين تسربلوا بشعار مظلومية أهل البيت للوصول إلى سدّة الخلافة وإزاحة خصومهم الأُمويين عنها، بيد أنّهم ما أن استقر بهم المقام وثبتت لهم أركانه حتّى انقلبوا كالوحوش الكاسرة في محاربتهم للشيعة وتشريدهم وتقتيلهم، فكانوا أسوأ من أسلافهم الأُمويين وأشدّ إجراماً، ولله درّ الشاعر حين قال:

والله ما فعلت أُميّة فيهم معشار ما فعلت بنو العباسِ

١ ـ كان أوّل من تولّى منهم أبو العباس السفّاح، بويع سنة (١٣٢هـ) ومات سنة (١٣٦هـ)، قضى وقته في تتبّع الأُمويّين والقضاء عليهم، وهو وإن لم يتعرّض للعلوّيين، لكنّه تنكّر لهم و لشيعتهم، بل وأوعز إلى الشعراء أن يتعرّضوا لأولاد عليّ وأهل بيته في محاولة مدروسة للنيل من منزلتهم وتسفيه الدعوة المطالبة بإيكال أمر الخلافة الإسلامية إليهم. هذا محمّد أحمد براق يقول في كتابه «أبو العباس السفاح»: «إنّ أصل الدعوة كان لآل عليّ؛ لأنّ أهل خراسان كان هواهم في آل عليّ لا آل العباس، لذلك كان السفّاح ومن جاء بعده مفتّحة عينوهم لأهل خراسان حتّى لا يتفشّى فيهم التشيّع لآل عليّ... وكانوا يستجلبون الشعراء ليمدحوهم، فيقدّمون لهم الجوائز، وكان الشعراء يعرّضون

---

١. الأنعام: ٤٥.

بأبناء عليّ وينفون عنهم حقّ الخلافة؛ لأنّهم ينتسبون إلى النبيّ عن طريق ابنته فاطمة، أمّا بنو العباس فإنّهم أبناء عمومة».[١]

٢ ـ ثمّ جاء بعده أبو جعفر المنصور، وبالرغم ممّا أُثير حوله من منزلة ومكانة وذكاء، إلّا أنّ في ذلك مجافاة عظيمة للحقّ وابتعاداً كبيراً عن جادّة الصواب، نعم حقّاً إنّ هذا الرجل قد ثبّت أركان دولته وأقام لها أُسساً قوية صلبة، إلّا أنّه أسرف كثيراً في الظلم والقسوة والإجرام بشكل ملفت للأنظار، ويكفي للإلمام بجرائمه وقسوته ما كتبه ابن عبد ربّه في العقد الفريد عن ذلك حيث قال:

إنّ المنصور كان يجلس ويُجلس إلى جانبه واعظاً، ثمّ تأتي الجلاوزة في أيديهم السيوف يضربون أعناق الناس، فإذا جرت الدماء حتّى تصل إلى ثيابه، يلتفت إلى الواعظ ويقول: عظني فإذا ذكّره الواعظ بالله، أطرق المنصور كالمنكسر ثمّ يعود الجلاوزة إلى ضرب الأعناق، فإذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانياً قال لواعظه: عظني!![٢].

فماذا يا ترى يريد المنصور من قوله للواعظ: عظني، وماذا يعني بإطراقه بعد ذلك وسكوته، هل يريد الاستهزاء بالدين الذي نهى عن قتل النفس وسفك الدماء، أو يريد شيئاً آخر؟! وليت شعري أين كان المؤرّخون وأصحاب الكلمات الصادقة المنصفة من هذه المواقف المخزية التي تقشعر لها الأبدان، وهم يتحدّثون عن هذا الرجل الذي ما آلوا يشيدون بذكره ويمجّدون بأعماله،

---

١. أبو العباس السفّاح: ٤٨، كما في الشيعة والحاكمون: ١٣٩.
٢. العقد الفريد: ١/ ٤١.

وهلّا تأمّل القرّاء في سيرة هذا الرجل ليدركوا ذلك الخطأ الكبير.

بلى إنّ هذا الرجل أسرف في القتل كثيراً، وكان للعلويين النصيب الأكبر، وحصّة الأسد من هذا الظلم الكبير.

يقول المسعودي: جمع المنصور أبناء الحسن، وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مكشوفة وبغير وطاء، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين. ثمّ أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأُشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزّأوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلّون على فراغ كلّ واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدّت عليهم الرائحة، وتورّمت أجسادهم، ولا يزال الورم يصعد من القدم حتّى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً.[١]

وقال ابن الأثير: دعا المنصور محمّد بن عبد الله العثماني، وكان أخاً لأبناء الحسن من أُمّهم، فأمر بشقّ ثيابه حتّى بانت عورته، ثمّ ضرب مائة وخمسون سوطاً، فأصاب سوط منها وجهه فقال: ويحك اكفف عن وجهي، فقال المنصور للجلّاد: الرأس الرأس، فضربه على رأسه ثلاثين سوطاً، وأصاب إحدى عينيه فسالت على وجهه، ثمّ قتله ـ ثمّ ذكر ـ: وأحضر المنصور محمّد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحس الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصفر، لأقتلنّك قتلة لم أقتلها أحداً، ثمّ أمر به، فبني عليه أُسطوانة وهو حيّ، فمات فيها[٢].

١. مروج الذهب: ٣/ ٣١٠ط سنة ١٩٤٨ م.
٢. الكامل: ٤/ ٣٧٥.

٣ ـ ثمّ ولي بعده المهدي ولد المنصور، وبقي في الحكم من سنة (١٥٨هـ) إلى سنة (١٦٩هـ) وكفى في الإشارة إلى ظلمه للعلويّين، أنّه أخذ علي بن العبّاس بن الحسن ابن عليّ بن أبي طالب، فسجنه فدّس إليه السمّ فتفسّخ لحمه وتباينت أعضاؤه.

٤ ـ ولمّا هلك المهدي بويع ولده الهادي، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، سار فيها على سيرة من سبقه في ظلم العلويين والتضييق عليهم، وكفى في الإشارة إلى ذلك ما ذكره أبو الفرج الإصبهاني في مقاتل الطالبيين حيث قال:

إنّ أُمّ الحسين صاحب فخ هي زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قتل المنصور أباها وإخوتها وعمومتها وزوجها عليّ بن الحسن، ثمّ قتل الهادي حفيد المنصور ابنها الحسين، وكانت تلبس المسوح على جسدها، لا تجعل بينها وبينه شيئاً حتّى لحقت بالله عزّ وجلّ.[١]

٥ ـ ثمّ تولّى بعده الرشيد سنة (١٧٠هـ) ومات (١٩٣هـ) وكان له سجّل أسود في تعامله مع الشيعة تبلورت أوضح صوره فيما لاقاه منه الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وهو ما سنذكره لاحقاً إن شاء الله تعالى، وإليك واحدة من تلك الأفعال الدامية التي سجّلها له التأريخ ورواها الإصبهاني عن إبراهيم بن رباح، قال: إنّ الرشيد حين ظفر بيحيى بن عبد الله بن الحسن، بنى عليه أُسطوانة وهو حيّ، وكان هذا العمل الإجرامي موروثاً من جدّه المنصور[٢]،

١. مقاتل الطالبيين: ٢٨٥.
٢. مقاتل الطالبيين: ٣٢٠،وروي في مقتله أمر آخر.

وأما ما جرى منه في حق الإمام الكاظم عليه السلام فنذكره في الفصل الحادي عشر عند ذكر أئمّة الشيعة.

٦ ـ ثمّ جاء بعده ابنه الأمين، فتولّى الحكم أربع سنين وأشهراً، يقول أبوالفرج: كانت سيرة الأمين في أمر آل أبي‌طالب خلاف من تقدّم لتشاغله بما كان فيه من اللهو ثمّ الحرب بينه وبين المأمون، حتّى قتل فلم يحدث على أحد منهم في أيّامه حدث.

٧ ـ وتولّى الحكم بعده المأمون، و كان من أقوى الحكّام العباسيّين بعد أبيه الرشيد. فلمّا رأى المأمون إقبال الناس على العلويّين وعلى رأسهم الإمام الرضا، ألقى عليه القبض بحيلة الدعوة إلى بلاطه، ثمّ دسّ إليه السمّ فقتله.

٨ ـ مات المأمون سنة (٢١٠هـ) وجاء إلى الحكم ابنه المعتصم فسجن محمّد بن القاسم بن عليّ بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب إلّا أنّه استطاع الفرار من سجنه.

٩ ـ ثمّ تولى الحكم بعده الواثق الذي قام بسجن الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام ودسّ له السمّ بيد زوجته الأثيمة أُمّ الفضل بنت المأمون.

١٠ ـ وولي الحكم بعد الواثق المتوكّل، وإليك نموذجاً من حقده على آل البيت وهو ما ذكره أبو الفرج قال: كان المتوكّل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً في جماعتهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظنّ والتهمة لهم. واتّفق له أنّ عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم، فحسَّن له القبيح في معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله،

وكان من ذلك أن كرب[١] قبر الحسين وعفّى آثاره، ووضع على سائر الطرق مسالح له لا يجدون أحداً زاره إلّا أتوه به وقتله أو أنهكه عقوبة.

وقال: بعث برجل من أصحابه (يقال له الديزج وكان يهودياً فأسلم) إلى قبر الحسين وأمره بكرب قبره ومحوه وإخراب ما حوله، فمضي ذلك فخرّب ما حوله، وهدم البناء وكرب ما حوله مائتي جريب، فلمّا بلغ إلى قبره لم يتقدّم إليه أحد، فأحضر قوماً من اليهود فكربوه، وأجرى الماء حوله، ووكل به مسالحَ، بين كلّ مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلّا أخذوه ووجّهوا به إليه.

وقال أيضاً: حدّثني محمّد بن الحسين الأشناني: بَعُدَ عهدي بالزيارة في تلك الأيّام، ثمّ عملت على المخاطرة بنفسي فيها، وساعدني رجل من العطّارين على ذلك، فخرجنا زائرين نكمن النهار ونسير الليل، حتى أتينا نواحي الغاضريّة، وخرجنا نصف الليل، فصرنا بين مسلحتين، وقد ناموا، حتى أتينا القبر فخفي علينا، فجعلنا نشمّه (نتسمه خ ل) ونتحرّى جهته حتّى أتيناه، وقد قلع الصندوق الذي كان حواليه، وأُحرق وأُجري الماء عليه، فانخسف موضع اللبن وصار كالخندق، فزرناه وأكببنا عليه ـ إلى أن قال: ـ فودّعناه وجعلنا حول القبر علامات في عدّة مواضع، فلمّا قتل المتوكّل اجتمعنا مع جماعة من الطالبيين والشيعة حتّى صرنا إلى القبر فأخرجنا تلك العلامات وأعدناه إلى ما كان عليه.

وقال أيضاً: واستعمل على المدينة ومكّة عمر بن الفرج، فمنع آل أبي طالب من التعرّض لمسألة الناس ومنع الناس من البرّ بهم، وكان لا يبلغه أنّ أحداً

---

١ الكرب: إثارة الأرض للزرع.

أبرّ أحداً منهم بشيء وإن قلّ إلّا أنهكه عقوبة، وأثقله غرماً، حتّى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة، ثمّ يرقعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر، إلى أن قتل المتوكّل فعطف المنتصر عليهم وأحسن إليهم بمال فرّقه بينهم، وكان يؤثر مخالفة أبيه في جميع أحواله ومضادّة مذهبه.(١)

١١ ـ وولّي بعده المنتصر ابنه، وظهر منه الميل إلى أهل البيت وخالف أباه ـ كما عرفت ـ فلم يجر منه على أحد منهم قتل أو حبس أو مكروه فيما بلغنا.

وأوّل ما أحدثه انّه لمّا ولّي الخلافة عزل صالح بن عليّ عن المدينة، وبعث عليّ بن الحسين مكانه فقال له ـ عند الموادعة ـ: يا عليّ إنّي أُوجّهك إلى لحمي ودمي فانظر كيف تكون للقوم، وكيف تعاملهم ـ يعني آل أبي طالب ـ فقلت: أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ فيهم، إن شاء الله. قال: إذاً تسعد بذلك عندي.(٢)

١٢ ـ وقام بعده المستعين بالأمر، فنقض كلّما غزله المنتصر من البرّ والإحسان، ومن جرائمه أنّه قتل يحيى بن عمر بن الحسين، قال أبو الفرج:

وكان ـ رضي الله عنه ـ رجلاً فارساً شجاعاً، شديد البدن، مجتمع القلب، بعيداً من رهق الشباب وما يعاب به مثله، ولمّا أُدخل رأسه إلى بغداد جعل أهلها يصيحون من ذلك إنكاراً له، ودخل أبو هاشم على محمّد بن

١. مقاتل الطالبيين: ٥٩٥ـ ٥٩٩.
٢. مقاتل الطالبيين: ٦٣٩.

عبد الله بن طاهر، فقال: أيّها الأمير، قد جئتك مهنّئاً بما لو كان رسول الله حيّاً يُعزّى به.

وأُدخل الأُسارى من أصحاب يحيى إلى بغداد ولم يكن فيما رؤي قبل ذلك من الأُسارى أحد لحقه ما لحقهم من العسف وسوء الحال، وكانوا يساقون وهم حفاة سوقاً عنيفاً، فمن تأخّر ضربت عنقه.

قال أبوالفرج: وما بلغني أنّ أحداً ممّن قتل في الدولة العباسيّة من آل أبي طالب رثي بأكثر ممّا رثي به يحيى، ولا قيل فيه الشعر بأكثر ممّا قيل فيه.

أقول: إنّ العباسيين قد أتوا من الجرائم التي يندى لها الجبين وتقشعرّ منها الجلود في حقّ الشيعة بحيث تغصّ بذكرها المجلّدات الكبيرة الواسعة، بل وفاقوا بأفعالهم المنكرة ما فعله الأُمويّون من قبل، ولله درّ الشاعر حيث قال:

تــالله إن كــانت أُميّة قـد أتت قــتل ابـن بـنت نـبيّها مـظلوما
فــلقد أتــاه بــنو أبــيه بـمثلها هـــذا لعــمرك قــبره مــهدوما
أسفوا علىٰ أن لا يكونوا شاركوا فـــي قـــتله فــتتبّعوه رمــيما

ومن أراد أن يقف على سجلّ جرائم الدولتين (الأُموية والعباسية) وملفّ مظالمهم فعليه قراءة القصائد الثلاث التي نظمها رجال مؤمنون مخلصون، عرّضوا أنفسهم للمخاوف والأخطار طلباً لرضى الحقّ:

١ ـ تائية دعبل الخزاعي الشهيد عام (٢٤٦هـ)، فإنّها وثيقة تأريخية خـالدة تـعرب عـن سياسة الدولتين تجاه أهل البيت:، وقد أنشدها الشاعر للإمام الرضا، فبكى وبكت معه النسوة.

أخرج الحموي عن أحمد بن زياد عن دعبل الخزاعي قال: أنشدت قصيدة لمولاي عليّ الرضا عليه السلام:

مدارس آيات خلت من تـلاوةٍ ومنزل وحـي مـقفر العـرصاتِ

قال دعبل: ثمّ قرأت باقي القصيدة، فلمّا انتهيت إلى قولي:

خـروج إمـام لا مـحالة واقـع يـقوم عـلى اسـم الله والبـركاتِ

فبكى الرضا بكاءً شديداً. ومن هذه القصيدة قوله:

هُـمُ نـقضوا عـهد الكـتاب وفـرضه ومـحكمه بـالزور والشـبهاتِ

تـراث بـلا قـربىٰ، ومـلك بـلا هـدىٰ وحكـم بـلا شـورىٰ، بـغير هـداةِ

وفيها أيضاً قوله:

لآل رسـول الله بـالخيف مـن مـنىٰ وبـالبيت والتـعريف والجـمراتِ

ديـار عـليّ والحسـين وجـعفر وحـمزة والسـجّاد ذي الثـفناتِ

ديـار عـفاها جـور كـلّ مـنابذ ولم تـعف للأيّـام والسـنواتِ

مـنازل كـانت للـصلاة وللـتقى وللـصوم والتـطهير والحسـناتِ

مـــنازل وحـــي الله مـــعدن عـلمه سـبيل رشـــاد واضـــح الطـرقاتِ
مـــنازل وحـــي الله يـــنزل حـولها عـــلىٰ أحـــمد الروحـاتِ والغـدواتِ

إلى أن قال:

ديـــار رسـول الله أصـبحن بـلقعا ودار زيـــاد أصـــبحت عـــمراتِ
وآل رســـول الله غُـــلَّتْ رقـابهم وآل زيـــاد غُـــلّظُ القـــصراتِ
وآل رســـول الله تُـدْمىٰ نـحورهم وآل زيـــاد زيّـــنوا الحـــجلاتِ

وفيها أيضاً:

أفـــاطم لو خـلت الحسـين مـجدّلاً وقـــد مـات عـطشاناً بشـطّ فـراتِ
إذاً للـــطمتِ الخـــدّ فـــاطم عـنده وأجـريت دمـع العـين فـي الوجـناتِ
أفـاطم قـومي يـا ابـنة الخـير واندبي نـــجوم سـماوات بـأرض فـلاتِ[1]

٢ ـ ميميّة الأمير أبي فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧هـ)، و هذه القصيدة

١. لاحظ للوقوف على هذه القصيدة: المناقب لابن شهر آشوب: ٢ / ٣٩٤، وروضة الواعظين للفتّال النيسابوري: ١٩٤، وكشف الغمّة للإربليّ: ٣/ ١١٢ ـ ١١٧، بحار الأنوار: ٤٩ / ٢٤٤ ـ ٢٥١ وقد ذكرها أكثر المؤرّخين.

تعرف بالشافية، وهي من القصائد الخالدة، وعليها مسحة البلاغة، ورونق الجزالة، وجودة السرد، وقوّة الحجّة، وفخامة المعنى، أنشدها ناظمها لمّا وقف على قصيدة ابن سكرة العبّاسي التي مستهلّها:

بـــني عـلـيّ دعـوا مـقالتكم لا يُنقص الدُّرَّ وضع من وضعه

فقال الأمير في جوابه ميميّته المعروفة وهي:

الحـقّ مـهتضمٌ والديـن مـخترم وفـــيء آل رسـول الله مـقتسمُ

إلى أن قال:

يـا للـرجـال أمـا لله مـنتصرٌ مـن الطـغاة؟ أمـا لله مـنتقمُ؟

بـنو عـلي رعـايا فـي ديـارهم والأمر تملكه النسوان والخدم![1]

٣ ـ جيميّة ابن الرومي التي رثىٰ بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد، وهي:

أمـامك فـانظر أيّ نـهجيك تـنهج طـــريقان شـتّىٰ مسـتقيم وأعـوج

ألا أي هـذا النـاس طـال ضـريركم بـآل رسـول الله فـاخشوا أو ارتَـجُوا

أكـــــلّ أوانٍ للـــــنبيّ مـــحمّد قـــتيل زكـــيّ بـالدماء مـضرّج[2]

وكم من الانصاف فيما كـتبه الأصـبهاني عـن مـدى العبء الذي تـحمله أهـل البـيت وشيعتهم من أجل كلمة الحق، وموقف الصدق، وما ترتّب عـلى ذلك مـن تكـالب لا يـعرف الرحمة من قبل الحكومات الجائرة المتلاحقة

١. نقلها في الغدير برمتها وأخرج مصادرها، لاحظ الغدير: ٣/ ٣٩٩ـ ٤٠٢.

٢. مقاتل الطالبيين: ٦٣٩ـ ٦٤٦.

للقضاء على هذا الوجود المقدّس واجتثاثه من أصله، حيث ذكر:

«ولا يعرف التأريخ أُسرة كأُسرة أبي طالب بلغت الغاية من شرف الأرومة، وطيب النجار، ضلّ عنها حقّها، وجاهدت في سبيل الله حقّ الجهاد من الأعصار، ثمّ لم تظفر من جهادها المرير إلّا بالحسرات، ولم تعقب من جهادها إلّا العبرات، على ما فقدت من أبطال أسالوا نفوسهم في ساحة الوغى، راضية قلوبهم مطمئنة ضمائرهم، وصافحوا الموت في بسالة فائقة، وتلقّوه في صبر جميل يثير في النفس الإعجاب والإكبار، ويشيع فيها ألوان التقدير والإعظام.

وقد أسرف خصوم هذه الأُسرة الطاهرة في محاربتها، وأذاقوها ضروب النكال، وصبّوا عليها صنوف العذاب، ولم يرقبوا فيها إلّاً ولا ذمّةً، ولم يرعوا لها حقّاً ولا حرمة، وأفرغوا بأسهم الشديد على النساء والأطفال، والرجال جميعاً، في عنف لا يشوبه لين، وقسوة لا تمازجها رحمة، حتّى غدت مصائب أهل البيت مضرب الأمثال، في فظاعة النكال، وقد فجّرت هذه القسوة البالغة ينابيع الرحمة والمودّة في قلوب الناس، وأشاعت الأسف الممض في ضمائرهم، وملأت عليهم أقطار نفوسهم شجناً، وصارت مصارع هؤلاء الشهداء حديثاً يروى، وخبراً يتناقل، وقصصاً تقص، يجد فيها الناس إرضاء عواطفهم وإرواء مشاعرهم، فتطلّبوه وحرصوا عليه»[1].

نعم، لقد اقترن تأريخ الشيعة بأنواع الظلم والنكال، والقتل والتشريد، بحيث لم تشهده أيّ طائفة أُخرى من طوائف المسلمين. بلى، لم ير

---

١. مقدّمة مقاتل الطالبيين، بقلم السيد أحمد صقر: الصفحة ي ـ ك، طبع دار المعرفة.

الأُمويّون ولا العباسيّون ولا الملوك الغزانوة ولا السلاجقة ولا من أتى بعدهم أيّ حرمة لنفوسهم وأعراضهم وعلومهم ومكتباتهم، فحين كان اليهود والنصارىٰ يسرحون ويمرحون في أرض الإسلام والمسلمين، وقد كفل لهم الحكّام حرّيّاتهم باسم الرحمة الإسلامية، كان الشيعة يأخذون تحت كلّ حجر ومدر، ويقتلون بالشبهة والظنّة، وتشرّد أُسرهم، وتصادر أموالهم، ولا يجدون بدّاً من أن يخفوا كثيراً من عقائدهم خوف النكال والقتل، وبأيدي وقلوب نزعت منها الرحمة.

فلا تثريب إذن على الشيعي أمام هذه الوحشية المسرفة من أن يتعامل مع أخيه المسلم بالتقية، وأن يظهر خلاف ما يعتقده، بل اللوم أجمعه يقع على من حمله على ذلك، بعد أن أباح دمه وعرضه وماله.

هذا هو طغرل بيك أوّل ملك من ملوك السلاجقة ورد بغداد سنة ٤٤٧هـ، وشنّ على الشيعة حملة شعواء، وأمر بإحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر سابور بن أردشير، وزير بهاء الدولة البويهي، وكانت من دور العلم المهمّة في بغداد بناها هذا الوزير الجليل في محلّة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١هـ على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد، وكانت من الأهمية العلمية بمكان؛ حيث جمع فيها هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق، واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم، كما قاله محمد كرد علي، ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الأسفار، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلّفين.[1]

---

١. خطط الشام: ٣/ ١٨٥.

قال ياقوت الحموي: وبها كانت خزانة الكتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلّها بخطوط الأئمّة المعتبرة وأُصولهم المحرّرة.[١]

وكان من جملتها مصاحف بخطّ ابن مقلة على ما ذكره ابن الأثير.[٢]

ولمّا كان الوزير سابور من أهل الفضل والأدب، فقد أخذ العلماء يهدون إليه مصنّفاتهم المختلفة، فأصبحت مكتبته من أغني دور الكتب ببغداد، وقد أُحرقت هذه المكتبة العظيمة في جملة ما أُحرق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بيك، وتوسّعت الفتنة حتّى اتّجهت إلى شيخ الطائفة وأصحابه فأحرقوا كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام.

قال ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٤٨هـ): وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره، ثمّ قال في حوادث سنة (٤٤٩هـ): وفي صفر هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلّم الشيعة في الكرخ، وأُخذ ما وجد من دفاتره وكرسي يجلس عليه للكلام، وأُخرج إلى الكرخ وأُضيف إليه ثلاث مجانيق بيض كان الزوّار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم إن قصدوا زيارة الكوفة، فأُحرق الجميع.[٣]

---

١. معجم البلدان: ٢/ ٣٤٢.

٢ الكامل في التاريخ: ١٠/ ٣.

٣. المنتظم: ٨/ ١٧٣ ـ ١٧٩، نقلنا ما يتعلّق بمكتبة أبي نصر سابور والشيخ الطوسي عن مقدّمة شيخنا الطهراني على التبيان، وذكرنا المصادر التي أومأ هو إليها في الهامش، لاحظ الصفحة (هـ‌و) من المقدّمة.

وأخيراً فلعلّ القارئ الكريم إذا تأمّل بتدبرّ وتأنّ إلى جملة ما كتب وأُلّف من المراجع التاريخية ـ وحتّى تلك التي كتبت في تلك العصور التي شهدت هذه المجازر المتلاحقة، والتي بلا أدنى شكّ كان أغلبها يجاري أهواء الأُسر الحاكمة آنذاك ـ فإنّه سيجد بوضوح أنّ بقاء الشيعة حتّى هذه الأزمنة من المعاجز والكرامات وخوارق العادات، كيف وإنّ تاريخهم كان سلسلة من عمليات الذبح، والقتل، والقمع، والاستئصال، والسحق، والإبادة، قد تظافرت قوى الكفر والفسق على إهلاكهم وقطع جذورهم، ومع ذلك فقد كانت لهم دول و دويلات، ومعاهد وكلّيّات، وبلدان وحضارات، وأعلام ومفاخر، وعباقرة وفلاسفة، وفقهاء، ومحدّثون، ووزراء وسياسيّون، ويؤلّفون اليوم خمس المسلمين أو ربعهم.

نعم إنّ ذلك من فضله سبحانه لتعلّق مشيئته على إبقاء الحقّ وإزهاق الباطل في ظلّ قيام الشيعة طيلة القرون بواجبها وهو الصمود أمام الظلم، والتضحية والتفدية للمبدأ والمذهب وقد قال سبحانه: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشرونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَينِ وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَروا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**﴾[1].

ولا يفوتنّك أخي القارئ الكريم أنّ ثوراتهم المتعاقبة على الحكومات الظالمة الفاسدة الخارجة عن حدود الشريعة الإسلامية العظيمة هي التي أدّت إلى تشريدهم وقتلهم والفتك بهم، ولو أنّهم ساوموا السلطة الأُموية والعباسية،

---

١. الأنفال: ٦٥.

لكانوا في أعلى المناصب والمدارج، لكنّ ثوراتهم لم تكن عـنصرية أو قـوميّة أو طـلباً للرئاسة، بل كانت لإزهاق الباطل ورفع الظلم عن المجتمع، والدعوة إلى إعلاء كلمة الله وغير ذلك ممّا هو من وظائف العلماء العارفين.

الفصل العاشر:

مع الشيعة الإماميّة في عقائدهم

رسائل موجزة حول عقائد الشيعة

إنّ المناهج الكلامية التي فرّقت المسلمين إلى مذاهب حدثت في أواخر القرن الأوّل الهجري، واستمرّت في القرون التالية، فنجمت عنها فرق إسلامية مختلفة كالمرجئة، والجهمية، والمعتزلة، والحشوية، والأشعرية، والكرّامية بفرقهم المتشعّبة. وهذه الفرق بمجموعها تكون نتاجاً حقيقياً لمخاض البحث والمذاكرة، وكنتيجة منطقية للتوسع الأُفقي في الرقعة الإسلامية التي شملت العديد من الأُمم والقوميات المختلفة، وما يؤلّفه ذلك من احتكاك وجدل فكري وتأثّر وتأثير في تلك التيّارات الفكرية وتداخل غير محسوس في أحيان كثيرة أُوجد ودون وعي من الكثيرين، ركائز وجود هذه التصوّرات التي تبلورت فيما بعد فيما يسمّى بالفرق الإسلامية.

ومن هنا فإنّ المرء لا يجد لها تاريخاً متّصلاً بزمن النبيّ الأكرمﷺ، ويقف على صدق ما ذكرنا من سبر أجزاء كتابنا هذا.

فالخوارج مثلاً كانوا فرقة سياسية نشأت في عام (٣٧هـ) أثناء حرب صفّين، ثمّ تبدّلت إلى فرقة دينيّة في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني.

والمرجئة ظهرت في الأوساط الإسلاميّة عند اختلاف الناس في الخليفة عثمان والإمام عليّ، ثمّ تطورت إلى معنى آخر، وكان من حصيلة التطوّر هو تقديم الإيمان وتأخير العمل.

والجهمية نتيجة أفكار «جهم بن صفوان» المتوفّى سنة (١٢٨هـ).

والمعتزلة تستمدّ أُصولها من واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري المتوفّى عام (١٣١هـ)، وهكذا القدريّة والكرّاميّة والظاهريّة والأشعريّة فجميعها فرق نتجت عن البحث الكلامي وصقلها الجدل عبر القرون، فلا تجد لهذه الفرق سنداً متّصلاً بالنبيّ الأكرمﷺ.

وأمّا عقائد الشيعة الإمامية فعلى النقيض من ذلك، ولا صلة في نشأتها بينها وبين تلك الفرق، لأنّها أُخذت أساساً من مصادر التشريع الحقيقية للإسلام، وهي: الذكر الحكيم أوّلاً، والسنّة النبويّة ثانياً، وخطب الإمام عليّ وكلمات العترة الطاهرة الصادرة من النبيّ الأكرمﷺ ثالثاً. فلأجل ذلك يحدّد تاريخ عقائدهم بتاريخ الإسلام وحياة أئمّتهم الطاهرين.

وهذا لا يعني أنّ الشيعة تتعبّد بالنصوص في أُصولها المذكورة من دون تحليل وتفكير، بل إنّ أُصول العقائد الواردة في المصادر المذكورة أخذها علماؤهم منها وحرّروها بأوضح الوجوه، ودعموها بالبراهين الواضحة، كما أنّهم لا يعتدّون في بناء معتقداتهم ومتبنّياتهم برواية الآحاد، بل يشترطون فيها أن تكون متواترة، أو محفوفة بالقرائن المفيدة للعلم واليقين؛ إذ ليس المطلوب في باب الاعتقاد مجرّد العمل، بل المطلوب هو الإذعان والإيمان، وهذا لا يحصل برواية الآحاد.

إلّا أنّ الأمر الجدير بالذكر هو أنّ المرتكز الأساسي لبناء العقيدة الخاصّة بالشيعة الإمامية هو الاعتقاد بأنّ الإمام عليّاً منصوص عليه بالوصاية على لسان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وأنّه وعترته الطاهرة هم المرجع الأعلى بعد الذكر الحكيم. وهذا هو العنصر المقوّم للتشيّع، وأمّا سائر الأُصول فإنّها عقائد إسلامية لا تختصّ بالشيعة الإمامية وحدها.

وسنحاول أن نستعرض في الصفحات اللاحقة بعضاً من جوانب عقائد الشيعة الإمامية، الواردة في أحاديث أئمّتهم تارة، وكلمات علمائهم الأقدمين ثانياً، حتّى يقف القارئ على جذور تلك العقائد وتتوضّح له الصورة الحقيقية عن ركائز هذه المعتقدات، والتي تستمدّ كيانها من الأخبار والروايات الواردة من أئمّتهم الطاهرين والتي تكوّن كلمات الإمام عليّ عليه السلام وخطبه البعد الأكبر فيها، أو من الآراء الكلامية لعلمائهم، والتي تتفق كثيراً مع جمهور المسلمين في أبعادها المختلفة.

١ ـ ما كتبه الإمام الرضا عليه السلام للمأمون عن محض الإسلام

روى الصدوق بسنده عن الفضل بن شاذان قال: سأل المأمون عليّ بن موسى الرضا أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار، فكتب عليه السلام له:

«إنّ محض الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، إلٰهاً واحداً، أحداً، فرداً، صمداً، قيّوماً، سميعاً، بصيراً، قديراً، قديماً، قائماً، باقياً، عالماً لايجهل، قادراً لا يعجز، غنيّاً لا يحتاج، عدلاً لا يجور، وأنّه خالق كلّ شيء، ليس كمثله شيء، لا شبه له، ولا ضدّ له،

ولا ندّ له، ولا كفو له، وأنّه المقصود بالعبادة والدعاء والرغبة والرهبة.

وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأمينه وصفيّه وصفوته من خلقه، وسيّد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين، لا نبيّ بعده ولا تبديل لملّته ولا تغيير لشريعته، وأنّ جميع ما جاء به محمّد بن عبد الله هو الحقّ المبين، والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله، وأنبيائه، وحججه، والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي: ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد﴾[1] وأنّه المهيمن على الكتب كلّها، وأنّه حقّ من فاتحته إلى خاتمته، نؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصّه وعامّه، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه، وقصصه وأخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.

وأنّ الدليل بعده والحجّة على المؤمنين والقائم بأمر المسلمين، والناطق عن القرآن، والعالم بأحكامه: أخوه وخليفته ووصيّه ووليّه، والذي كان منه بمنزلة هارون من موسى: عليّ بن أبي طالب عليه السلام أمير المؤمنين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، وأفضل الوصيّين، ووارث علم النبيّين، والمرسلين، وبعده الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، ثمّ عليّ بن الحسين زين العابدين، ثمّ محمّد بن عليّ باقر علم النبيّين، ثمّ جعفر بن محمّد الصادق وارث علم الوصيّين، ثمّ موسى بن جعفر الكاظم، ثمّ عليّ بن موسى الرضا، ثمّ محمّد بن عليّ،

---

١. فصّلت: ٤٢.

ثمّ عليّ بن محمّد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ الحجّة القائم المنتظر ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

أشهد لهم بالوصية والإمامة، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله تعالى على خلقه في كلّ عصر وأوان، وأنّهم العروة الوثقى، وأئمّة الهدى، والحجّة على أهل الدنيا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنّ كل من خالفهم ضالّ مضلّ باطل، تارك للحقّ والهدى، وأنّهم المعبّرون عن القرآن، والناطقون عن الرسول صلى الله عليه وآله بالبيان، ومن مات ولم يعرفهم مات ميتة جاهلية، وأنّ من دينهم الورع والفقه والصدق والصلاة والاستقامة والاجتهاد، وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، وطول السجود، وصيام النهار وقيام الليل، واجتناب المحارم، وانتظار الفرج بالصبر، وحسن العزاء وكرم الصحبة.[1]

ثمّ ذكر الإمام فروعاً شتّى من مختلف أبواب الفقه وأشار إلى بعض الفوارق بين مذهب أهل البيت وغيرهم لا يهمّنا في المقام ذكرها، ومن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى المصدر.

٢ ـ عرض السيّد عبد العظيم الحسني عقائده على الإمام الهادي عليه السلام

روى الصدوق عن عبد العظيم الحسني[2] قال: دخلت على سيّدي عليّ

---

١. عيون أخبار الرضا: ٢ / ١٢١ـ١٢٢.

٢. عبد العظيم بن عبد الله بن عليّ بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام من أصحاب الإمام الهادي، قال النجاشي: له كتاب خطب أمير المؤمنين، ورد الري هارباً من السلطان وسكن سُرَباً (حفيراً تحت الأرض) في دار رجل من الشيعة في سكّة الموالي فكان يعبد الله في ذلك السرب ويصوم نهاره ويقوم ليله، وكان يخرج مستتراً، فيزور القبر المقابل قبره وبينهما الطريق ويقول: هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليه السلام. فلم يزل يأوي إلى ذلك السرب ويقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من شيعة آل محمّد عليهم السلام حتّى عرفه أكثرهم. رجال النجاشي (٢ / ٦٥ـ٦٦)، ومات عبد العظيم بالري وقبره مزار يزوره الناس. وذكره الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الإمام الهادي والعسكري تحت رقم (١و٢٠)، وذكره أيضاً صاحب عمدة الطالب: ٩٤.

بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام فلمّا بَصُرَ بي، قال لي: «**مرحباً بك يا أبا القاسم أنت وليّنا حقّا**» قال: فقلت له: يا ابن رسول الله إنّي أُريد أن أعرض عليك ديني، فإن كان مرضيّاً أثبت عليه حتّى ألقى الله عزّوجلّ. فقال: «**هاتها أبا القاسم**».

فقلت: إنّي أقول: إنّ الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء، خارج من الحدّين؛ حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه، وأنّه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسِّم الأجسام ومصوِّر الصور، وخالق الأعراض والجواهر، وربُّ كلّ شيء ومالكه وجاعله ومحدثه، وإنّ محمّداً عبده ورسوله، خاتم النبيّين فلا نبيّ بعده إلى يوم القيامة، وأقول: إنّ الإمام والخليفة ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ أنت يا مولاي.

فقال عليه السلام: «**ومن بعدي الحسن ابني، فكيف للناس بالخلف من بعده؟**» قال: فقلت: وكيف ذاك يا مولاي؟ قال: «**لأنّه لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه حتّى يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**».

قال: فقلت: أقررت وأقول: إنّ وليّهم وليّ الله، وعدوّهم عدوّ الله، وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله، وأقول: إنّ المعراج حقّ والمساءلة في القبر حقّ، وإنّ الجنّة حقّ، والنار حقّ، والميزان حقّ، وإنّ الساعة آتية لا ريب فيها وإنّ الله يبعث من في القبور، وأقول: إنّ الفرائض الواجبة بعد الولاية: الصلاة والزكاة، والصوم، والحجّ، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقال عليّ بن محمّد عليه السلام: «**يا أبا القاسم، هذا واللهِ دين الله الذي ارتضاه لعباده، فاثبت عليه ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**».[1]

وقد اكتفينا بهذين النصّين من الإمامين الطاهرين، أحدهما قولي، والآخر إمضائي، وقد أخذوا عقائدهم عن آبائهم الطاهرين.

٣ ـ رسالة الصدوق في عقائد الإمامية

إنّ لمشايخنا الإمامية مؤلّفات شهيرة في بيان عقائد الشيعة ومعارفهم، نختار في المقام رسائل موجزة من المتقدّمين منهم:

صنّف الشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) رسالة موجزة في عقائد الإمامية، قال: اعلم أنّ اعتقادنا في التوحيد: أنّ الله تعالى واحد أحد، ليس كمثله شيء، قديم، لم يزل، ولا يزال سميعاً بصيراً، عليماً، حكيماً، حيّاً، قيّوماً، عزيزاً، قدّوساً، عالماً، قادراً، غنيّاً، لا يوصف بجوهر ولا جسم ولا صورة ولا عرض ـ إلى أن قال: ـ وأنّه تعالى متعال عن جميع صفات خلقه، خارج عن الحدّين:

---

١. التوحيد: ٨١ برقم ٣٧، باب التوحيد والتشبيه.

حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه، وأنّه تعالى شيء لا كالأشياء، أحد صمد لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يكن له كفواً أحد، ولا ندّ ولا ضدّ، ولا شبه ولا صاحبة، ولا مثل ولا نظير، ولا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا الأوهام، وهو يدركها، لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو اللطيف الخبير، خالق كلّ شيء لا إلٰه إلّا هو، له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين.

ومن قال بالتشبيه فهو مشرك، ومن نسب إلى الإمامية غير ما وصف في التوحيد فهو كاذب، وكلّ خبر يخالف ما ذكرت في التوحيد فهو موضوع مخترع، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو باطل، وإن وجد في كتب علمائنا فهو مدلّس... ثمّ إنّه ـ قدّس الله سرّه ـ ذكر الصفات الخبرية في الكتاب العزيز وفسّرها، وبيّن حدّاً خاصّاً لصفات الذات وصفات الأفعال، وما هو معتقد الإماميّة في أفعال العباد، وأنّه بين الجبر والتفويض، كما ذكر عقائدهم في القضاء والقدر، والفطرة، والاستطاعة، إلى غير ذلك من المباحث المهمّة التي تشكّل العمود الفقري للمعارف الإلٰهية، إلى أن قال:

اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيّه محمّد هو ما بين الدفّتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس (١١٤) سورة، وعندنا أنّ الضحى والانشراح سورة واحدة، كما أنّ الإيلاف والفيل سورة واحدة. ومن نسب إلينا أنّا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب... إلى آخر الرسالة.[١]

١. لاحظ رسالة الصدوق في الاعتقادات، وقد طبعت غير مرّة، وعليها شروح وتعاليق العلماء منهم العلّامة المجلسي.

ثمّ إنّ الشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) قد شرح تلك الرسالة بكتاب أسماه شرح عقائد الصدوق، أو تصحيح الاعتقاد، ناقش فيها أُستاذه الصدوق في بعض المواضع التي استند فيها الصدوق على روايات غير جامعة للشرائط في باب العقائد[١].

٤ ـ أمالي الصدوق رحمه الله

وهو ما أملاه الصدوق أيضاً على جماعة في المجلس الثالث والتسعين، يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان من سنة ٣٦٨ وجاء فيه: واجتمع في هذا اليوم إلى الشيخ الفقيه أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه أهل مجلسه والمشايخ، فسألوه أن يملي عليهم وصف دين الإماميّة على الإيجاز والاختصار، فقال: دين الإماميّة هو الإقرار بتوحيد الله تعالى ذكره، ونفي التشبيه عنه، وتنزيهه عمّا لا يليق، والإقرار بأنبياء الله ورسله وحججه وملائكته وكتبه، والإقرار بأنّ محمّداً هو سيّد الأنبياء والمرسلين، وأنّه أفضل منهم ومن جميع الملائكة المقرّبين، وأنّه خاتم النبيّين؛ فلا نبيّ بعده... إلى آخر ما ذكر.[٢]

٥ ـ جمل العلم والعمل للسيّد الشريف المرتضى

ألّف السيّد الشريف المرتضى رسالة موجزة في العقائد أسماها جمل العلم والعمل. أورد فيها ـ رحمه الله ـ عقائد الشيعة على وجه الإيجاز، نذكر منها

---

١. طبع الكتاب مع كتاب أوائل المقالات للشيخ المفيد في تبريز عام (١٣٧١هـ). وطبع أخيراً في الجزء الخامس من كتب المؤتمر العالمي للشيخ المفيد ـ ١٤١٣هـ.

٢. الأمالي للشيخ الصدوق: ٥٠٩، المجلس الثالث والتسعون وانظر الحديث المتقدم في آخر كتاب المقنع والهداية نشر مؤسسة المطبوعات الدينية والمكتبة الإسلامية ـ ١٣٧٧هـ.

ما يرتبط بالتوحيد، وندعو القارئ الكريم إلى مطالعة الرسالة لما فيها من العرض الدقيق لهذه الجوانب:

بيان ما يجب اعتقاده في أبواب التوحيد:

الأجسام محدثَة لأنّها لم تسبق الحوادث، فلها حكمها في الحدوث، ولابدّ لها من محدِث؛ لحاجة كلّ محدَث في حدوثه إلى محدِث كالصناعة والكتابة.

ولابدّ من كونه (تعالى) قادراً لتعذّر الفعل على من لم يكن قادراً، وتيسّره على من كان كذلك.

ولابدّ من كون محدِثها عالماً؛ لأنّ الإحكام ظاهر في كثير من العالم، والمحكَم لا يقع إلّا من عالم.

ولابدّ من كونه موجوداً؛ لأنّ له تعلّقاً من حيث كان قادراً عالماً، وهذا الضرب من التعلّق لا يصحّ إلّا مع الوجود.

ويجب كونه قديماً؛ لانتهاء الحوادث إليه.

ويجب كونه حيّاً، وإلّا لم يصحّ كونه قادراً، عالماً، فضلاً عن وجوبه.

ويجب أن يكون مدركاً إذا وجدت المدركات، لاقتضاء كونه حيّاً.

ووجب كونه سميعاً بصيراً؛ لأنّه ممّن يجب أن يدرك المدركات إذا وجدت، وهذه فائدة قولنا: سميع بصير.

ومن صفاته ـ وإن كانتا عن علّة ـ كونه تعالى مريداً وكارهاً؛ لأنّه تعالى قد أمر وأخبر ونهى، ولايكون الأمر والخبر أمراً ولا خبراً إلّا بالإرادة. والنهي لا يكون نهياً إلّا بالكراهة.

ولا يجوز أن يستحقّ هاتين الصفتين لنفسه؛ لوجوب كونه مريداً كارهاً للشيء الواحد، على الوجه الواحد.

ولا لعلّة قديمة، لما سنبطل به الصفات القديمة.

لا لعلّة محدثة في غير حيّ لافتقار الإرادة إلى تنبيه. ولا لعلّة موجودة في حيّ؛ لوجوب رجوع حكمها إلى ذلك الحيّ. فلم يبق إلّا أن توجد لا في محلّ.

ولا يجوز أن يكون له في نفسه صفة زائدة على ما ذكرناه؛ لأنّه لا حكم لها معقول.

وإثبات ما لا حكم له معقول من الصفات، يفضي إلى الجهالات.

ويجب أن يكون قادراً فيما لم يزل؛ لأنّه لو تجدّد له ذلك لم يكن إلّا لقدرة محدثة، ولا يمكن إسناد إحداثها إلّا إليه، فيؤدّي إلى تعلّق كونه قادراً بكونه محدثاً، وكونه محدثاً بكونه قادراً. وثبوت كونه قادراً فيما لم يزل يقتضي أن يكون فيما لم يزل حيّاً موجوداً.

ويجب أن يكون عالماً فيما لم يزل؛ لأنّ تجدّد كونه عالماً يقتضي أن يكون بحدوث علم، والعلم لا يقع إلّا ممّن هو عالم.

ووجوب هذه الصفات لم تدلّ على أنّها نفسيّة، وادّعاء وجوبها لمعان قديمة تبطل صفات النفس، ولأنّ الاشتراك في القدم يوجب التماثل والمشاركة في سائر الصفات ولا يجوز خروجه تعالى عن هذه الصفات لاسنادها إلى النفس.

ويجب كونه تعالى غنيّاً غير محتاج؛ لأنّ الحاجة تقتضي أن يكون ممّن ينتفع ويستضرّ، وتؤدّي إلى كونه جسماً.

لايجوز كونه تعالى متّصفاً بصفة الجواهر والأجسام والأعراض لقدمه وحدوث هذه أجمع، ولأنّه فاعل الأجسام، والجسم يتعذّر عليه فعل الجسم.

ولا يجوز عليه تعالى الرؤية؛ لأنّه كان يجب مع ارتفاع الموانع وصحّة أبصارنا أن نراه.

ولمثل ذلك يعلم أنّه لا يُدرك بسائر الحواس.

ويجب أن يكون تعالى واحداً لا ثاني له في القدم؛ لأنّ إثبات ثان يؤدّي إلى إثبات ذاتين لا حكم لهما يزيد على حكم الذات الواحدة، ويؤدّي أيضاً إلى تعذّر الفعل على القادر من غير جهة منع معقول، وإذا بطل قديم ثان بطل قول الثنوية والنصارى والمجوس... إلى آخرها.[1]

٦ ـ البيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان للكراجكي

كتب الإمام الشيخ أبو الفتح محمّد بن عليّ الكراجكي الطرابلسي رسالة موجزة في عقائد الإمامية وسمّاها: «البيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان» وممّا جاء فيها:

قال: سألت يا أخي ـ أسعدك الله بألطافه، وأيّدك بإحسانه وإسعافه ـ أن أُثبت لك جملاً من اعتقادات الشيعة المؤمنين، وفصولاً في المذهب يكون عليها بناء المسترشدين، لتذاكر نفسك بها، وتجعلها عدّة لطالبها، وأنا أختصر لك القول وأُجمله، وأُقرّب الذكر وأُسهّله وأورده على سنن الفتيا في المقالة، من غير حجّة ولا دلالة، وما توفيقي إلّا بالله:

في توحيده سبحانه:

اعلم أنّ الواجب على المكلّف: أن يعتقد حدوث العالم بأسره، وأنّه لم

---

١. جمل العلم والعمل قسم العقائد، الطبعة الثانية تحقيق رشيد الصفّار، طبعة النجف طالع الرسالة بأجمعها. نعم؛ رأيه في إعجاز القرآن من القول بالصرف رأي شخصي له ولا يمثل رأي جمهور الإ مامية.

يكن شيئاً قبل وجوده، ويعتقد أنّ الله تعالى هو محدِث جميعه، من أجسامه، وأعراضه، إلّا أفعال العباد الواقعة منهم؛ فإنّهم محدثوها دونه سبحانه.

ويعتقد أنّ الله قديم وحده، لا قديم سواه، وأنّه موجود لم يزل، وباق لا يزال، وأنّه شيء لا كالأشياء. لا شبيه الموجودات، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات، وأنّ له صفات يستحقّها لنفسه لا لمعان غيره، وهي كونه حيّاً، عالماً، قديماً، باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات إلى ضدّها، يعلم الكائنات قبل كونها، ولا يخفى عليه شيء منها.

في عدله سبحانه:

وأنّ له صفات أفعال، لا يصحّ إضافتها إليه في الحقيقة إلّا بعد فعله، وهي ما وصف به‌نفسه من أنّه خالق، ورازق، ومعط، وراحم، ومالك، ومتكلّم، ونحو ذلك.

وأنّ له صفات مجازات وهي ما وصف به نفسه، من أنّه يريد ويكره، ويرضى ويغضب.

فإرادته لفعل هي الفعل المراد بعينه، وإرادته لفعل غيره هي الأمر بذلك الفعل، وليس تسميتها بالإرادة حقيقة، وإنّما هو على مجاز اللغة، وغضبه هو وجود عقابه، ورضاه هو وجود ثوابه، وأنّه لا يفتقر إلى مكان، ولا يدرك بشيء من الحواسّ.

وأنّه منزّه من القبائح، لا يظلم الناس وإن كان قادراً على الظلم؛ لأنّه عالم بقبحه، غنيّ عن فعله، قوله صدق، ووعده حقّ، لا يكلّف خلقه على ما لا

يستطاع، ولا يحرمهم صلاحاً لهم فيه الانتفاع، ولا يأمر بما لا يريد، ولا ينهى عمّا يريد. وأنّه خلق الخلق لمصلحتهم، وكلّفهم لأجل منازل منفعتهم، وأزاح في التكليف عللهم، وفعل أصلح الأشياء بهم. وأنّه أقدرهم قبل التكليف، وأوجد لهم العقل والتمييز.

وأنّ القدرة تصلح أن يفعل بها وضدّه بدلاً منه. وأنّ الحق الذي تجب معرفته، يدرك بشيئين، وهما العقل والسمع، وأنّ التكليف العقلي لا ينفكّ عن التكليف السمعي. وأنّ الله تعالى قد أوجد (للناس) في كلّ زمان مسمعاً (لهم) من أنبيائه وحججه بينه وبين الخلق، ينبّههم على طريق الاستدلال في العقليات، ويفقّههم على ما لا يعلمونه إلّا به من السمعيات. وأنّ جميع حجج الله تعالى محيطون علماً بجميع ما يفتقر إليهم فيه العباد. وإنّهم معصومون من الخطأ والزلل عصمة اختيار. وأنّ الله فضّلهم على خلقه، وجعلهم خلفاءه القائمين بحقّه. وأنّه أظهر على أيديهم المعجزات، تصديقاً لهم فيما ادّعوه من الأنباء والأخبار. وأنّهم ـ مع ذلك ـ بأجمعهم عباد مخلوقون، بشر مكلّفون يأكلون ويشربون، ويتناسلون، ويحيون بإحيائه، ويموتون بإماتته، تجوز عليهم الآلام المعترضات، فمنهم من قتل، ومنهم من مات، لا يقدرون على خلق، ولا رزق، ولا يعلمون الغيب إلّا ما أعلمهم إله الخلق. وأنّ أقوالهم صدق، وجميع ما أتوا به حق.

في النبوّة العامّة والخاصّة:

وأنّ أفضل الأنبياء أُولو العزم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّدﷺ وعليهم، وأنّ محمّد بن عبد اللهﷺ أفضل الأنبياء

أجمعين، وخير الأوّلين والآخرين. وأنّه خاتم النبيين، وأنّ آباءه من آدمﷺ إلى عبد الله بن عبد المطّلب ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا جميعاً مؤمنين، وموحّدين لله تعالى عارفين، وكذلك أبوطالب ـ رضوان الله عليه ـ.

ويعتقد أنّ الله سبحانه شرّف نبيّناﷺ بباهر الآيات، وقاهر المعجزات، فسبّح في كفّه الحصى، ونبع من بين أصابعه الماء، وغير ذلك ممّا قد تضمّنته الأنباء، وأجمع على صحّته العلماء، وأتى بالقرآن المبين، الذي بهر به السامعين! وعجز من الإتيان بمثله سائر الملحدين.

وأنّ القرآن كلام ربّ العالمين، وأنّه محدَث ليس بقديم. ويجب أن يعتقد أنّ جميع ما فيه من الآيات الذي يتضمّن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، وأنّه يجبرهم على طاعته أو معصيته، أو يضلّ بعضهم عن طريق هدايته، فإنّ ذلك كلّه لا يجوز حمله على ظاهرها، وأنّ له تأويلاً يلائم ما تشهد به العقول ممّا قدّمنا ذكره في صفات الله تعالى، وصفات أنبيائه.

فإن عرف المكلّف تأويل هذه الآيات فحسن، وإلّا أجزأ أن يعتقد في الجملة أنّها متشابهات، وأنّ لها تأويلاً ملائماً، يشهد بما تشهد به العقول والآيات المحكمات، وفي القرآن المحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ، والخاص والعامّ.

ويجب عليه أن يقرّ بملائكة الله أجمعين، وأنّ منهم جبرئيل وميكائيل، وأنّهما من الملائكة الكرام، كالأنبياء بين الأنام، وأنّ جبرئيل هو الروح الأمين الذي نزل بالقرآن على قلب محمّد خاتم النبيّين، وهو الذي كان يأتيه بالوحي من ربّ العالمين.

ويجب الإقرار بأنّ شريعة الإسلام التي أتى بها محمّدﷺ ناسخة لما خالفها من شرائع الأنبياء المتقدّمين.

وإنّه يجب التمسّك بها والعمل بما تضمّنته من فرائضها، وأنّ ذلك دين الله الثابت الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا حلال إلّا ما أحلّت ولا حرام إلّا ما حرّمت، ولا فرض إلّا ما فرضت، ولا عبادة إلّا ما أوجبت.

وإنّ من انصرف عن الإسلام، وتمسّك بغيره، كافر ضالّ، مخلّد في النار، ولو بذل من الاجتهاد في العبادة غاية المستطاع.

وإنّ من أظهر الإقرار بالشهادتين كان مسلماً، ومن صدّق بقلبه ولم يشكّ في فرض أتى به محمّدﷺ كان مؤمناً.

ومن الشرائط الواجبة للإيمان، العمل بالفرائض اللازمة، فكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مسلم مؤمناً.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾[1] إنّما أراد به الإسلام الصحيح التام، الذي يكون المسلم فيه عارفاً، مؤمناً، عالماً بالواجبات، طائعاً.

في الإمامة والخلافة:

ويجب أن يعتقد أنّ حجج الله تعالى بعد رسوله الذين هم خلفاؤه، وحفظة شرعه، وأئمّة أُمّته، اثناعشر أهل بيته، أوّلهم أخوه وابن عمّه، وصهره، بعل فاطمة الزهراء ابنته، ووصيّه على أُمّته، عليّ بن أبي طالب

---

١. آل عمران: ١٩.

أمير المؤمنين، ثمّ الحسن بن عليّ الزكي، ثمّ الحسين بن عليّ الشهيد، ثمّ عليّ بن الحسين زين العابدين، ثمّ محمّد بن عليّ باقر العلوم، ثمّ جعفر بن محمّد الصادق، ثمّ موسى بن جعفر الكاظم، ثمّ عليّ بن موسى الرضا، ثمّ محمّد بن عليّ التقي، ثمّ عليّ بن محمّد المنتجب، ثمّ الحسن بن عليّ الهادي، ثمّ الخلف الصالح بن الحسن المهدي ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

لا إمامة بعد رسول الله ﷺ إلّا لهم عليهم السلام ولا يجوز الاقتداء في الدين إلّا بهم، ولا أخذ معالم الدين إلّا عنهم.

وأنّهم في كمال العلم والعصمة من الآثام نظير الأنبياء عليهم السلام.

وأنّهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ.

وأنّ إمامتهم منصوص عليها من قبل الله على اليقين والبيان.

وأنّه سبحانه أظهر على أيديهم الآيات، وأعلمهم كثيراً من الغائبات، والأُمور المستقبلات، ولم يعطهم من ذلك إلّا ما قارن وجهاً يعلمه من اللطف والصلاح.

وليسوا عارفين بجميع الضمائر والغائبات على الدوام، ولا يحيطون بالعلم بكلّ ما علمه الله تعالى.

والآيات التي تظهر على أيديهم هي فعل الله دونهم، أكرمهم بها، ولا صنع لهم فيها.

وأنّهم بشر محدَثون، وعباد مصنوعون، لا يخلُقون، ولا يرزُقون، ويأكلون ويشربون، وتكون لهم الأزواج، وتنالهم الآلام

والأعلال، ويستضامون، ويَخافون فيتّقون، وأنّ منهم من قتل، ومنهم من قبض.

وأنّ إمام هذا الزمان هو المهدي ابن الحسن الهادي، وأنّه الحجّة على العالمين، وخاتم الأئمّة الطاهرين، لا إمامة لأحد بعد إمامته، ولا دولة بعد دولته، وأنّه غائب عن رعيته، غيبة اضطرار وخوف من أهل الضلال، وللمعلوم عند الله تعالى في ذلك الصلاح.

ويجوز أن يعرّف نفسه في زمن الغيبة لبعض الناس، وأنّ الله عزّ وجلّ سيظهره وقت مشيئته، ويجعل له الأعوان والأصحاب، فيمهّد الدين به، ويطهّر الأرض على يديه، ويهلك أهل الضلال، ويقيم عمود الإسلام، ويصير الدين كلّه لله.

وأنّ الله عزّ وجلّ يظهر على يديه عند ظهوره الأعلام، وتأتيه المعجزات بخرق العادات، ويحيي له بعض الأموات، فإذا قام في الناس المدّة المعلومة عند الله سبحانه قبضه إليه، ثمّ لا يمتدّ بعده الزمان، ولا تتّصل الأيام حتّى تكون شرائط الساعة، وإماتة من بقي من الناس، ثمّ يكون المعاد بعد ذلك.

ويعتقد أنّ أفضل الأئمّة عليهم السلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وأنّه لا يجوز أن يسمّى بأمير المؤمنين أحد سواه.

وأنّ بقيّة الأئمّة ـ صلوات الله عليهم ـ يقال لهم: الأئمّة، والخلفاء، والأوصياء، والحجج، وإن كانوا في الحقيقة أُمراء المؤمنين؛ فإنّهم لم يمنعوا

من هذا الاسم لأجل معناه، لأنّه حاصل لهم على الاستحقاق، وإنّما منعوا من لفظه حشمة لأمير المؤمنين عليه السلام.

وأنّ أفضل الأئمّة بعد أمير المؤمنين، ولده الحسن، ثمّ الحسين، وأفضل الباقين بعد الحسين، إمام الزمان المهدي ـ صلوات الله عليه ـ ثمّ بقية الأئمّة بعده على ما جاء به الأثر وثبت في النظر.

وأنّ المهدي عليه السلام هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم حتّى يظهر فيه رجل من ولدي يواطئ اسمه اسمي، يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

فاسمه يواطئ اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيته تواطئ كنيته، غير أنّ النهي قد ورد عن اللفظ، فلا يجوز أن يتجاوز في القول أنّه المهدي، والمنتظر، والقائم بالحق، والخلف الصالح، وإمام الزمان، وحجّة الله على الخلق.

ويجب أن يعتقد أنّ الله فرض معرفة الأئمّة عليهم السلام بأجمعهم، وطاعتهم، وموالاتهم، والاقتداء بهم، والبراءة من أعدائهم وظالميهم... وأنّه لا يتم الإيمان إلّا بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه.

---

١. روى هذا الحديث وأمثاله ابن خلدون في المقدّمة في الفصل الثاني والخمسين عن الترمذي وأبي داود باختلاف بعض ألفاظه، وروى نحو اثنين وثلاثين حديثاً، وقال في ص ٣١١ من المقدّمة:

«إنّ جماعة من الأئمّة خرّجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي، وأبو داود، والبزّار، وابن ماجة، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي، وابن عبّاس، وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد الخدري، وأُمّ حبيبة، وأُمّ سلمة، وثوبان، وقرّة بن إياس، وعليّ الهلالي».

في التوبة والحشر والنشر:

ويعتقد أنّ الله يزيد وينقص إذا شاء في الأرزاق والآجال.

وأنّه لم يرزق العبد إلّا ما كان حلالاً طيّباً.

ويعتقد أنّ باب التوبة مفتوح لمن طلبها، وهي الندم على ما مضى من المعصية، والعزم على ترك المعاودة إلى مثلها.

وأنّ التوبة ماحية لما قبلها من المعصية التي تاب العبد منها.

وتجوز التوبة من زلّة إذا كان التائب منها مقيماً على زلّةغيرها لا تشبهها، ويكون له الأجر على التوبة، وعليه وزر ما هو مقيم عليه من الزلّة.

وأنّ الله يقبل التوبة بفضله وكرمه، وليس ذلك لوجوب قبولها في العقل قبل الوعد، وإنّما علم بالسمع دون غيره.

ويجب أن يعتقد أنّ الله سبحانه، يميت العباد ويحييهم بعد الممات ليوم المعاد.

وأنّ المحاسبة حقّ والقصاص، وكذلك الجنّة والنار والعقاب.

وأنّ مرتكبي المعاصي من العارفين بالله ورسوله، والأئمّة الطاهرين، المعتقدين لتحريمها مع ارتكابها، المسوّفين التوبة منها، عصاة فسّاق، وأنّ ذلك لا يسلبهم اسم الإيمان كما لم يسلبهم اسم الإسلام[1].

---

١. صرّح بهذا الشيخ المفيد ـ أُستاذ الشيخ الكراجكي ـ في كتابه أوائل المقالات (ص ٤٨) ونسبه إلى اتّفاق الإ مامية، أمّا الخوارج فتسمّي مرتكب الكبيرة مشركاً وكافراً، والحسن البصري ـ أُستاذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ـ سمّاهم منافقين، وأمّا واصل بن عطاء فوضعهم في منزلة بين منزلتين، وقال: إنّهم فسّاق ليسوا بمؤمنين، ولاكفّار، ولا منافقين.

وأنّهم يستحقّون العقاب على معاصيهم، والثواب على معرفتهم بالله تعالى، ورسوله، والأئمّة من بعدهﷺ، وما بعد ذلك من طاعتهم، وأمرهم مردود إلى خالقهم، وإن عفا عنهم فبفضله ورحمته، وإن عاقبهم فبعدله وحكمته، قال الله سبحانه: ﴿**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ الله إمّا يُعَذِّبَهُمْ وَإمّا يَتُوب عَلَيْهِمْ**﴾[1] وأنّ عقوبة هؤلاء العصاة إذا شاءها الله تعالى لا تكون مؤبّدة، ولها آخر، يكون بعده دخولهم الجنّة، وليس من جملة من توجّه إليهم الوعيد بالتخليد، والعفو من الله تعالى يرجى للعصاة المؤمنين.

وقد غلطت المعتزلة فسمّت من يرجو العفو مرجئاً، وانّما يجب أن يسمّى راجياً، ولا طريق إلى القطع على العفو، وإنّما هو الرجاء فقط.

ويعتقد أنّ لرسول اللهﷺ والأئمّة من بعدهعليهم السلام شفاعة مقبولة يوم القيامة، ترجى للمؤمنين من مرتكبي الآثام.

ولا يجوز أن يقطع الإنسان على أنّه مشفوع فيه على كلّ حال، ولا سبيل له إلى العلم بحقيقة هذه الحال، وإنّما يجب أن يكون المؤمن واقفاً بين الخوف والرجاء.

ويعتقد أنّ المؤمنين الذين مضوا من الدنيا وهم غير عاصين، يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجنّة بغير حساب.

---

١. التوبة: ١٠٦.

وأنّ جميع الكفّار والمشركين، ومن لم تصحّ له الأُصول من المؤمنين يـؤمر بـهم يـوم القيامة إلى الجحيم بغير حساب، وإنّما يحاسب من خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وهم العارفون العصاة.

وأنّ أنبياء الله تعالى وحججه عليهم السلام هم في القيامة المسؤولون للحساب بإذن الله تعالى، وأنّ حجّة أهل كلّ زمان يتولّى أمر رعيّته الذين كانوا في وقته.

وأنّ سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الاثني عشر من بعده عليهم السلام هم أصحاب الأعراف الذين لا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه.

وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحاسب أهل وقته وعصره، وكذلك كل إمام بعده.

وأنّ المهدي عليه السلام هو المواقِف لأهل زمانه، والمسائل للذين في وقته.

وأنّ الموازين (التي) توضع في القيامة، هي إقامة العدل في الحساب، والإنـصاف فـي الحكم والمجازاة، وليست في الحقيقة موازين بكفّات وخيوط كما يظنّ العوامّ.

وأنّ الصراط المستقيم في الدنيا دين محمّد وآل محمّد ـ عليه وعليهم السّلام ـ وهو في الآخرة طريق الجنان.

وأنّ الأطفال والمجانين والبله من الناس، يتفضّل عليهم في القيامة بأن تكمل عقولهم، ويدخلون الجنان.

وأنّ نعيم أهل الجنّة متّصل أبداً بغير نفاد، وأنّ عذاب المشركين والكفّار متّصل في النار بغير نفاد.

ويجب أن تؤخذ معالم الدين في الغَيبة من أدلّة العقل، وكتاب الله عزّ وجلّ، والأخبار المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الأئمّة عليهم السلام [١] وما أجمعت عليه الطائفة الإمامية، وإجماعها حجّة.

فأمّا عند ظهور الإمام عليه السلام فإنّه المفزع عند المشكلات، وهو المنبّه على العقليات، والمعرّف بالسمعيات، كما كان النبيّ صلى الله عليه وآله.

ولا يجوز استخراج الأحكام في السمعيات بقياس ولا اجتهاد[٢].

أمّا العقليات فيدخلها القياس والاجتهاد، ويجب على العاقل مع هذا كلّه ألّا يقنع بالتقليد في الاعتقاد، وأن يسلك طريق التأمّل والاعتبار، ولا يكون نظره لنفسه في دينه أقلّ من نظره لنفسه في دنياه؛ فإنّه في أُمور الدنيا يحتاط ويحترز، ويفكّر ويتأمّل، ويعتبر بذهنه، ويستدلّ بعقله، فيجب أن يكون في أمر دينه على أضعاف هذه الحال، فالغرر في أمر الدين أعظم من الغرر في أمر الدنيا.

---

١. ما ذكره هو رأي جماعة من علماء الإمامية، كالشريف المرتضى، وابن زهرة، وابن البرّاج، والطبرسي، وابن إدريس وغيرهم، فقد ذهب هؤلاء إلى عدم اعتبار الخبر الواحد إذا لم يكن مقطوع الصدور عن المعصوم، وخصّوا اعتباره بما إذا كان قطعي الصدور، سواء أكان محتفّاً بقرينة عقلية أو نقلية أُخرى، فالمهم لدى هؤلاء في اعتبار الخبر أن يفضي إلى العلم، ولو كان ذلك لإجماع أو شاهد عقلي، بل صرّح المفيد في «أوائل المقالات» بأنّه لا يجب العمل بخبر الواحد.
أمّا المشهور بين الإمامية بل المجمع عليه بين المتأخّرين منهم فاعتبار الخبر الواحد لقيام الدليل على حجّيته، ولكلّ من الفريقين أدلّة على دعواه مذكورة في كتب الأُصول.

٢. المراد بالاجتهاد هنا ليس هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها التفصيلية، وإنّما المراد به الاعتماد على الرأي والاستحسان والقياس، من دون الرجوع إلى القواعد والأُصول التي ثبتت حجّيتها شرعاً.

فيجب أن لا يعتقد في العقليات إلّا ما صحّ عنده حقّه، ولا يسلّم في السمعيات إلّا لمن ثبت له صدقه.

نسأل الله حسن التوفيق برحمته، وألّا يحرمنا ثواب المجتهدين في طاعته.

قد أثبتُّ لك يا أخي ـ أيّدك الله ـ ما سألت، اقتصرت وما أطلت.

والذي ذكرت أصل لما تركت، والحمد لله وصلواته على سيّدنا محمّد وآله وسلّم.[1]

٧ ـ العقائد الجعفريّة للشيخ الطوسي رحمه الله

الشيخ الطوسي رحمه الله غنيّ عن التعريف، فهو شيخ الطائفة على الإطلاق وكان قد أخذ على يد المفيد والمرتضى، وقد ورد بغداد عام (٤٠٨هـ) وحضر في أندية دروس أُستاذه المفيد، فلمّا لبّى الأُستاذ دعوة ربّه حضر لدى المرتضى إلى أن اشتغل بالتدريس والإفتاء في عصره وبعده، وله رسائل وكتب كلامية قيّمة مفعمة بالتحقيق، ونحن نورد هنا جانباً مختصراً عمّا دوّنه في عقائد الشيعة في المسائل الآتية:

«**المسألة ١**»: معرفة الله واجبة على كلّ مكلّف، بدليل أنّه منعم فيجب معرفته.

«**المسألة ٢**»: الله تعالى موجود، بدليل أنّه صنع العالم، وأعطاه الوجود، وكلّ من كان كذلك فهو موجود.

---

١. أدرج المصنّف الرسالة في كتابه القيّم: كنز الفوائد فلاحظ ص ٢٤٠ ـ ٢٥٢.

«**المسألة ٣**»: الله تعالى واجب الوجود لذاته، بمعنى أنّه لا يفتقر في وجوده إلى غيره، ولا يجوز عليه العدم، بدليل أنّه لو كان ممكناً لافتقر إلى صانع، كافتقار هذا العالم، وذلك محال على المنعم المعبود.

«**المسألة ٤**»: الله تعالى قديم أزلي، بمعنى أنّ وجوده لم يسبقه العدم. باقٍ أبديّ، بمعنى أنّ وجوده لن يلحقه العدم.

«**المسألة ٥**»: الله تعالى قادر مختار، بمعنى أنّه إن شاء أن يفعل فعل، وإن شاء أن يترك ترك، بدليل أنّه صنع العالم في وقت دون آخر.

«**المسألة ٦**»: الله تعالى قادر على كلّ مقدور، وعالم بكلّ معلوم، بدليل أنّ نسبة جميع المقدورات والمعلومات إلى ذاته المقدّسة المنزّهة على السويّة، فاختصاص قدرته تعالى وعلمه ببعض دون بعض ترجيح بلا مرجّح، وهو محال.

«**المسألة ٧**»: الله تعالى عالم، بمعنى أنّ الأشياء منكشفة واضحة له، حاضرة عنده غير غائبة عنه، بدليل أنّه تعالى فعل الأفعال المحكمة المتقنة، وكلّ من فعل ذلك فهو عالم بالضرورة.

«**المسألة ٨**»: الله تعالى يدرك لا بجارحة، بل بمعنى أنّه يعلم ما يُدرَك بالحواسّ، لأنّه منزّه عن الجسم ولوازمه، بدليل قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِك الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبيرُ**﴾[1] فمعنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ**﴾[2] أنّه عالم بالمسموعات لا بإذن، وبالمبصرات لا بعين.

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. الإسراء: ١، غافر: ٥٦.

«**المسألة ٩**»: الله تعالى حيّ، بمعنى أنّه يصحّ منه أن يقدر ويعلم، بدليل أنّه ثبتت له القدرة والعلم، وكلّ من ثبت له ذلك فهو حيّ بالضرورة.

«**المسألة ١٠**»: الله تعالى متكلّم لا بجارحة، بل بمعنى أنّه أوجد الكلام في جرم من الأجرام، أو جسم من الأجسام، لإيصال عظمته إلى الخلق، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً**﴾[1]، ولأنّه قادر، فالكلام ممكن.

«**المسألة ١١**»: الله تعالى صادق، بمعنى أنّه لا يقول إلّا الحقّ الواقع، بدليل أنّ كلّ كذب قبيح، والله تعالى منزّه عن القبيح.

«**المسألة ١٢**»: الله تعالى مريد، بمعنى أنّه رجح الفعل إذا علم المصلحة (يعني أنّه غير مضطر وأنّ إرادته غير واقعة تحت إرادة أُخرى، بل هي الإرادة العليا التي إن رأى صلاحاً فعل، وإن رأى فساداً لم يفعل، باختيار منه تعالى) بدليل أنّه ترك إيجاد بعض الموجودات في وقت دون وقت، مع علمه وقدرته ـ على كلّ حال ـ بالسويّة. ولأنّه نهى، وهو يدلّ على الكراهة.

«**المسألة ١٣**»: أنّه تعالى واحد، بمعنى أنّه لا شريك له في الأُلوهية، بدليل قوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾[2] ولأنّه لو كان له شريك لوقع التمانع، ففسد النظام، كما قال: ﴿**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلّا اللهُ لَفَسَدَتا**﴾[3].

«**المسألة ١٤**»: الله تعالى غير مركَّب من شيء، بدليل أنّه لو كان مركّباً لكان مفتقراً إلى الأجزاء، والمفتقر ممكن.

«**المسألة ١٥**»: الله تعالى ليس بجسم، ولا عرض، ولا جوهر، بدليل أنّه لو

---

١. النساء: ١٦٤. ٢. الإخلاص: ١.
٣. الأنبياء: ٢٢.

كان أحد هذه الأشياء لكان ممكناً مفتقراً إلى صانع، وهو محال.

«**المسألة ١٦**»: الله تعالى ليس بمرئي بحاسّة البصر في الدنيا والآخرة، بدليل أنّه تعالى مجرّد، ولأنّ كلّ مرئي لابدّ أن يكون له الجسم والجهة، والله تعالى منزّه عنهما، ولأنّه تعالى قال: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ [١] وقال: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ**﴾ [٢].

«**المسألة ١٧**»: الله تعالى ليس محلّاً للحوادث، وإلّا لكان حادثاً، وحدوثه محال.

«**المسألة ١٨**»: الله تعالى لا يتّصف بالحلول، بدليل أنّه يلزم قيام الواجب بالممكن، وذلك محال.

«**المسألة ١٩**»: الله تعالى لا يتّحد بغيره؛ لأنّ الاتّحاد صيرورة الشيء واحداً من غير زيادة ونقصان، وذلك محال، والله لا يتّصف بالمحال.

«**المسألة ٢٠**»: الله تعالى منفيّ عنه المعاني والصفات الزائدة، بمعنى أنّه ليس عالماً بالعلم، ولا قادراً بالقدرة (بل علم كلّه، وقدرة كلّها)، بدليل أنّه لو كان كذلك لزم كونه محلّاً للحوادث لو كانت حادثة، وتعدّد القدماء لو كانت قديمة، وهما محالان، وأيضاً لزم افتقار الواجب إلى صفاته المغايرة له، فيصير ممكناً، وهو ممتنع.

«**المسألة ٢١**»: الله تعالى غنيّ، بمعنى أنّه غير محتاج إلى ما عداه، والدليل عليه أنّه واجب الوجود لذاته، فلا يكون مفتقراً.

---

١. الأعراف: ١٤٣.
٢. الأنعام: ١٠٣.

«**المسألة ٢٢**»: الله تعالى ليس في جهة، ولا مكان، بدليل أنّ كلّ ما في الجهة والمكان مفتقر إليهما، وأيضاً قد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، فلا يكون في المكان والجهة.

«**المسألة ٢٣**»: الله تعالى ليس له ولد ولا صاحبة، بدليل أنّه قد ثبت عدم افتقاره إلى غيره، ولأنّ كلّ ما سواه تعالى ممكن، فكيف يصير الممكن واجباً بالذات، ولقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ**﴾[١] و: ﴿**مَثَلَ عِيسىٰ عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾[٢].

«**المسألة ٢٤**»: الله تعالى عدل حكيم، بمعنى أنّه لا يفعل قبيحاً، ولا يخلّ بالواجب بدليل أنّ فعل القبيح، والإخلال بالواجب نقص عليه، فالله تعالى منزّه عن كلّ قبيح وإخلال بالواجب.

«**المسألة ٢٥**»: الرضا بالقضاء والقدر واجب، وكلّ ما كان أو يكون فهو بالقضاء والقدر ولا يلزم بهما الجبر والظلم؛ لأنّ القدر والقضاء هاهنا بمعنى العلم والبيان، والمعنى أنّه تعالى يعلم كلّ ما هو (كائن أو يكون)[٣].

«**المسألة ٢٦**»: كلّ ما فعله الله تعالى فهو أصلح، وإلّا لزم العبث، وليس تعالى بعابث؛ لقوله: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً**﴾[٤].

«**المسألة ٢٧**»: اللّطف على الله واجب؛ لأنّه خَلَق الخلق، وجَعَل فيهم الشهوة، فلو لم يفعل اللطف لزم الإغراء، وذلك قبيح، (والله لا يفعل القبيح)

---

١. الشورى: ١١. ٢. آل عمران: ٥٩.
٣. الاضافة منّا لإكمال العبارة.
٤. المؤمنون: ١١٥.

فاللطف هو نصب الأدلّة، وإكمال العقل، وإرسال الرسل في زمانهم، وبعد انقطاعهم إبقاء الإمام؛ لئلّا ينقطع خيط غرضه.

«**المسألة ٢٨**»: نبيّنا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، رسول الله صلى الله عليه وآله حقّاً صدقاً، بدليل أنّه ادّعى النبوّة وأظهر المعجزات على يده، فثبت أنّه رسول حقّاً، وأكبر المعجزات القرآن الحميد والفرقان المجيد، الفارق بين الحقّ والباطل، باق إلى يوم القيامة، حجّة على كافّة النسمة.

ووجه كونه معجزاً: فرط فصاحته وبلاغته، بحيث ما تمكّن أحد من أهل الفصاحة والبلاغة حيث تُحُدّوا به، أن يأتوا ولو بسورة مصغّرة، أو آية تامّة مثله.

«**المسألة ٢٩**»: كان نبياً على نفسه قبل البعثة، وبعده رسولاً إلى كافة النسمة، لأنّه قال: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين» وإلّا لزم تفضيل المفضول، وهو قبيح.

«**المسألة ٣٠**»: جميع الأنبياء كانوا معصومين، مطهّرين عن العيوب والذنوب كلّها، وعن السهو والنسيان في الأفعال والأقوال، من أوّل الأعمار إلى اللحد، بدليل أنّهم لو فعلوا المعصية أو يطرأ عليهم السهو لسقط محلُّهم من القلوب، فارتفع الوثوق والاعتماد على أقوالهم وأفعالهم، فتبطل فائدة النبوّة، فما ورد في الكتاب (القرآن) فيهم فهو واجب التأويل.

«**المسألة ٣١**»: يجب أن يكون الأنبياء أعلم وأفضل أهل زمانهم؛ لأنّ تفضيل المفضول قبيح.

«**المسألة ٣٢**»: نبيّنا خاتم النبيين والمرسلين، بمعنى أنّه لا نبيّ بعده

إلى يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿**ما كَانَ مُحَمَّد أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَسُـولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيّينَ**﴾[١].

«**المسألة ٣٣**»: نبيّنا أشرف الأنبياء والمرسلين؛ لأنّه ثبتت نـبوّته، وأخـبر بأفـضليته فـهو أفضل، لمّا قال لفاطمة عليها السلام: «**أبوك خير الأنبياء، وبعلك خير الأوصياء، وأنت سيدة نساء العالمين، وولدك الحسن والحسين عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما خير منهما**».[٢]

«**المسألة ٣٤**»: معراج الرسول بالجسم العنصري علانية، غير منام، حقّ، والأخبار عـليه بالتواتر ناطقة، صريحة، فمنكره خارج عن الإسلام، وأنّه مرّ بالأفلاك من أبوابـها مـن دون حاجة إلى الخرق والالتيام، وهذه الشبهة الواهية مدفوعة مسطورة بمحالّها.

«**المسألة ٣٥**»: دين نـبيّنا نـاسخ للأديـان السـابقة؛ لأنّ المـصالح تـتبدّل حسب الزمـان والأشخاص كما تتبدّل المعالجات لمريض بحسب تبدّل المزاج والمرض.

«**المسألة ٣٦**»: الإمام بعد نبيّنا عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام بدليل قوله صلى الله عليه وآله: «**يا علي أنت أخي ووارث علمي وأنت الخليفة من بعدي، وأنت قاضي ديني، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي**»[٣]، وقوله: «**سلّموا على**

---

١. الأحزاب: ٤٠.

٢. راجع ينابيع المودّة: ٤٣٤ـ٤٣٦.

٣. راجع صحيح مسلم: ٧ / ١٢٠ـ١٢١، باب فضائل عليّ عليه السلام؛ صحيح البخاري: ٥ / ١٩، باب مناقب عليّ عليه السلام و٦: ٣ باب غزوة تبوك؛ مسند أحمد: ١ / ١٧٤ ـ ١٧٧ وج ٣ / ٣٢ وج ٦ / ٣٦٩.

عليّ بإمرة المؤمنين، واسمعوا له وأطيعوا له، وتَعَلّموا منه ولا تُعَلّموه»[١]، وقوله: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**»[٢].

«**المسألة ٣٧**»: الأئمّة بعد عليّ عليه السلام أحد عشر من ذرّيته: الأوّل منهم ولده الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ جعفر بن محمّد الصادق، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ عليّ بن محمّد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ الخلف الحجّة القائم المهدي الهادي ابن الحسن صاحب الزمان، فكلّهم أئمّة الناس واحد بعد واحد، حقّاً، بدليل أنّ كل إمام منهم نصّ على من بعده نصّاً متواتراً بالخلافة، وقوله: «**الحسين إمام، ابن إمام، أخو إمام، أبو الأئمّة التسعة، تاسعهم قائمهم، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**».

«**المسألة ٣٨**»: يجب أن يكون الأئمّة معصومين مطهّرين من الذنوب كلّها، صغيرة وكبيرة عمداً وسهواً، ومن السهو في الأفعال والأقوال، بدليل أنّه لو فعلوا المعصية لسقط محلّهم من القلوب، وارتفع الوثوق، وكيف يهدون بالضالّين المضلّين، ولا معصوم غير الأئمّة الاثني عشر إجماعاً، فثبت إمامتهم.

«**المسألة ٣٩**»: يجب أن يكون الأئمّة أفضل وأعلم، ولو لم يكونوا كذلك للزم تفضيل المفضول، أو الترجيح بلا مرجّح، ولا يحصل الانقياد به، وذلك قبيح عقلاً ونقلاً، وفضل أئمّتنا وعلمهم مشهور، بل أفضليتهم أظهر من الشمس وأبين من الأمس.

---

١. راجع البحار: ٣٧ / ٢٩٠ ـ ٣٤٠.

٢. راجع مسند أحمد: ١ / ٨٤ ـ ١٥٢وج ٤ / ٢٨١ و ٣٧٠ و٣٧٢وج ٥ / ٣٦٦ ـ ٤١٩؛ سنن الترمذي: ٥ / ٦٣٣.

«**المسألة ٤٠**»: يجب أن نعتقد أنّ آباء نبيّنا وأئمّتنا مسلمون أبداً، بل أكثرهم كانوا أوصياء، فالأخبار عند أهل البيت على إسلام أبي طالب مقطوعة، وسيرته تدل عليه، ومثله مثل مؤمن آل فرعون.

«**المسألة ٤١**»: الإمام المهدي المنتظر محمّد بن الحسن قد تولّد في زمان أبيه، وهو غائب حيّ باق إلى بقاء الدنيا؛ لأنّ كلّ زمان لابدّ فيه من إمام معصوم لما انعقد عليه إجماع الأُمّة على أنّه لا يخلو زمان من حجّة ظاهرة مشهورة أو خافية مستورة، ولأنّ اللطف في كلّ زمان واجب، والإمام لطف، فوجوده واجب.

«**المسألة ٤٢**»: لا استبعاد في طول عمره؛ لأنّ غيره من الأُمم السابقة قد عاش ثلاثة آلاف سنة فصاعداً، كشعيب ونوح ولقمان والخضر وعيسى عليهم السلام وإبليس والدجّال، ولأنّ الأمر ممكن، والله قادر على جميع الممكنات.

«**المسألة ٤٣**»: غيبة المهدي لا تكون من قبل نفسه؛ لأنّه معصوم، فلا يخلّ بواجب، ولا من قبل الله تعالى، لأنّه عدل حكيم، فلا يفعل القبيح؛ لأنّ الإخفاء عن الأنظار وحرمان العباد عن الإفادات قبيحان. فغيبته لكثرة العدوّ والكافر، ولقلّة الناصر.

«**المسألة ٤٤**»: لابدّ من ظهور المهدي، بدليل قول النبي صلى الله عليه وآله: «**لو لم يبق من الدنيا إلّا ساعة واحدة لطوّل الله تلك الساعة حتّى يخرج رجل من ذرّيتي، اسمه اسمي وكنيته كنيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**»[1].

ويجب على كلّ مخلوق متابعته.

---

١. راجع سنن أبي داود: ٤ / ١٠٦ ـ ١٠٧؛ كنز العمال: ١٤ / ٢٦٤ ـ ٢٦٧.

«**المسألة ٤٥**»: في غيبة الإمام فائدة، كما تنير الشمس تحت السحاب، والمشكاة من وراء الحجاب.

«**المسألة ٤٦**»: يرجع نبيّنا وأئمّتنا المعصومون في زمان المهدي مع جماعة من الأُمم السابقة واللاحقة، لاظهار دولتهم وحقهم، وبه قطعت المتواترات من الروايات والآيات لقوله تعالى: ﴿**وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً**﴾[1] فالاعتقاد به واجب.

«**المسألة ٤٧**»: إنّ الله يعيد الأجسام الفانية كما هي في الدنيا، ليوصل كلّ حق إلى المستحقين، وذلك أمر ممكن، والأنبياء أخبروا به، لا سيّما القرآن المجيد مشحون به ولا مجال للتأويل، فالاعتقاد بالمعاد الجسماني واجب.

«**المسألة ٤٨**»: كلّ ما أخبر به النبيّ أو الإمام فاعتقاده واجب، كإخبارهم عن نبوّة الأنبياء السابقين، والكتب المنزلة، ووجود الملائكة، وأحوال القبر وعذابه وثوابه، وسؤال منكر ونكير، والإحياء فيه، وأحوال القيامة وأهوالها، والنشور، والحساب والميزان، والصراط، وإنطاق الجوارح، ووجود الجنّة والنار، والحوض الذي يسقي منه أمير المؤمنين العطاشى يوم القيامة، وشفاعة النبي والأئمّة لأهل الكبائر من محبّيه، إلى غير ذلك، بدليل أنّه أخبر بذلك المعصومون.

«**المسألة ٤٩**»: التوبة ـ وهي الندم على القبيح في الماضي، والترك في الحال، والعزم على عدم المعاودة إليه في الاستقبال ـ واجبة، لدلالة السمع على وجوبها، ولأنّ دفع الضرر واجب عقلاً.

---

١. النمل: ٨٣. أصل الرجعة اجماعيّ والكيفية الواردة في المتن ليست كذلك.

«**المسألة ٥٠**»: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجبان، بشرط تجويز التأثير والأمن من الضرر.[١]

ما هو الهدف من نقل هذه الرسائل؟

١ ـ إنّ هذه الرسائل تدلّ بوضوح لا يقبل الشكّ أنّ جلّ عقائد الشيعة تمتد جذورها الحقيقية في كتاب الله المنزل وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وما جاء عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأنّ صورة هذه العقائد كانت تبدو واضحة المعالم ومستوعبة لجميع الجوانب المرتبطة بالمعارف الإلهية.

٢ ـ تنبثّ في ثنايا هذه الرسائل آراء خاصّة لمؤلّفيها، ربّما يقع فيها النقاش والجدال والخلاف مع غيرهم من علماء الشيعة، فليس كلّ ما جاء فيها عقيدة لجميع علماء الشيعة ومؤلّفيهم، إلّا أنّ ما يهمّنا من الإشارة إليه هو أنّ هذه الرسائل تمثّل عقائد الشيعة في مجال صفات الله سبحانه وأفعاله، وما يرجع إلى النبوّة والإمامة، والحياة الأُخروية، خصوصاً فيما يرجع إلى الاعتقاد بمقامات الأئمّة وصفاتهم. فمن يريد أن يتعرّف بوضوح على عقائد الشيعة فليرجع إليها.

٣ ـ إنّ الإمعان في الأُصول التي جاءت في هذه الكتب والرسائل يعرب عن اتّفاق الشيعة في أكثر مسائلهم العقائدية مع عموم عقائد المسلمين. وإن كانوا يختلفون عنهم في أُصول تختصّ بمجال الإمامة والقيادة بعد الرسول.

---

١. طبعت الرسالة من قبل مؤسسة النشر الإسلامي في قم عام (١٤١٢هـ) مع جواهر الفقه للقاضي ابن البرّاج وفي ضمن الرسائل العشر للشيخ الطوسي قدس سره.

وسنحاول في الصفحات اللاحقة أن نستعرض أهمّ الفوارق الجوهرية بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية، والتي لا يمكن أن تكون حدّاً فاصلاً دون التقارب بين هذه المذاهب ونبذ الاختلاف بينها، والذي لن يفيد إلّا أعداء هذا الدين والمتربّصين به، وسنشرع في أوّل بحثنا المقتضب هذا في تحديد الاختلافات التي أشرنا إليها بين الشيعة والمعتزلة، وبين الشيعة والأشاعرة، وذلك لما كانت تؤلّفه هاتان الفرقتان من جبهة واسعة من جمهور المسلمين إبّان تلك العصور السالفة.

الفرق بين الشيعة الإمامية والمعتزلة

إنّ المتأمّل في مجمل عقائد هاتين الفرقتين يمكنه أن يتبيّن بوضوح جوانب الاتفاق والاختلاف فيما بينهما، وهو ما سنحاول أن نشير إليه اختصاراً في نقاط محدّدة واضحة، وإذا كان البعض قد اعتقد جهلاً بأنّ الشيعة قد أخذت عقائدها عن المعتزلة فإنّه يردّ بأكثر من دليل، نحن في غنى عن إيرادها الآن، إلّا أنّه لا ينفى أنّ بين هاتين الطائفتين أُصولاً مشتركة نذكرها في حينها، وهو ما قد يتّفق مع غير ذلك من فرق المسلمين المختلفة:

١ ـ الشفاعة: أجمع المسلمون كافّة على ثبوت أصل الشفاعة وأنّها تقبل من الرسول الأكرمﷺ، إلّا أنّهم اختلفوا في تعيين المشفَّع، فقالت الإمامية والأشاعرة: إنّ النبيّ يشفع لأهل الكبائر بإسقاط العقاب عنهم أو بإخراجهم من النار، وقالت المعتزلة: لا يشفع إلّا للمطيعين، المستحقّين للثواب، وتكون نتيجة الشفاعة ترفيع الدرجة.

٢ ـ مرتكب الكبيرة: هو عند الإمامية والأشاعرة مؤمن فاسق، وقالت المعتزلة: بل منزلته بين المنزلتين؛ أي بين الكفر والإيمان.

٣ ـ الجنّة والنار: قالت الإمامية والأشاعرة: إنّهما مخلوقتان الآن بدلالة الشرع على ذلك، وأكثر المعتزلة يذهب إلى أنّهما غير موجودتين.

٤ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اتّفق المسلمون على وجوبهما، فقالت الإمامية والأشاعرة: يجبان سمعاً، ولولا النص لم يكن دليل على الوجوب، خلافاً للمعتزلة الذين قالوا: بوجوبهما عقلاً.

٥ ـ الإحباط: اتّفقت الإمامية والأشاعرة على بطلان الإحباط، وقالوا: لكلّ عمل حسابه الخاصّ، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ولا المعاصي بالطاعات، والإحباط يختصّ بذنوب خاصة كالشرك وما يتلوه، بخلاف المعتزلة حيث قالوا: إنّ المعصية المتأخّرة تسقط الثواب المتقدم، فمن عَبَدَ الله طول عمره ثمّ كذب فهو كمن لم يعبد الله أبداً.

٦ ـ الشرع والعقل: تشدّدت المعتزلة في تمسّكهم بالعقل، وتشدّد أهل الظاهر في تمسكهم بظاهر النصّ، وخالفهما الإمامية والأشاعرة، فأعطوا للعقل سهماً فيما له مجال القضاء، نعم أعطت الإمامية للعقل مجالاً أوسع ممّا أعطته الأشاعرة. وسيوافيك تفصيله عند ذكر اختلاف الإمامية مع الأشاعرة.

٧ ـ اتفقت الإمامية والأشاعرة على أنّ قبول التوبة بفضل من الله ولا يجب عقلاً إسقاطها للعقاب، وقالت المعتزلة: إنّ التوبة مسقطة للعقاب على وجه الوجوب.

٨ ـ اتفقت الإمامية على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك.

٩ ـ اتفقت الإمامية على أنّ الانسان غير مسيّر ولا مفوّض إليه، بل هو في ذلك المجال بين أمرين، بين الجبر والتفويض، وأجمعت المعتزلة على التفويض.

١٠ ـ اتفقت الإمامية والأشاعرة على أنّه لابدّ في أوّل التكليف وابتدائه من رسول، وخالفت المعتزلة وزعموا أنّ العقول تعمل بمجردها عن السمع.

هذه هي الأُصول التي خالفت الإمامية فيها المعتزلة ووافقت في أكثرها الأشاعرة، وهناك أُصول أُخرى تجد فيها موافقة الإمامية للمعتزلة ومخالفتها للأشاعرة، وإليك بعضها:

الفرق بين الشيعة الإمامية والأشاعرة

هناك أُصول خالفت الإمامية فيها الأشاعرة، مخالفة بالدليل والبرهان وتبعاً لأئمّتهم، ونذكر المهم منها:

١ ـ اتّحاد الصفات الذاتية مع الذات: إنّ لله سبحانه صفاتٍ ذاتية كالعلم والقدرة، فهي عند الأشاعرة صفات قديمة مغايرة للذات زائدة عليها، وهي عند الإمامية والمعتزلة متّحدة مع الذات.

٢ ـ الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنّة، كالوجه والأيدي والاستواء وأمثالها، فالشيعة الإمامية يؤوّلونها تأويلاً مقبولاً لا تأويلاً مرفوضاً؛ أي أنّها تأخذ بالمفهوم التصديقي للجملة لا بالمفهوم التصوّري

للمفردات، فيقولون: إنّ معنى: ﴿**بَل يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء**﴾[1] معناه: أنّه بريء من البخل، بل هو باذل وسخيّ، وقادر على البذل. وأمّا الأشاعرة فهم يفسّرونها بالمفهوم التصوّري ويقولون: إنّ لله سبحانه يدين، إلّا أنّهم يتهرّبون عن التجسيم والتشبيه بقولهم: بلا كيف.

٣ ـ أفعال العباد عند الإمامية صادرة من نفس العباد، صدوراً حقيقياً بلا مجاز أو توسّع، فالإنسان هو الضارب، هو الآكل، هو القاتل، هو المصلّي، هو القارئ وهكذا، وقد قلنا: إنّ استعمال كلمة «الخلق» في أفعال الإنسان استعمال غير صحيح، فلا يقال: خلقت الأكل والضرب والصوم والصلاة، وإنّما يقال: فعلتها، فالصحيح أن يقال: إنّ الإنسان هو الفاعل لأفعاله بقدرة مكتسبة من الله، وإنّ قدرته المكتسبة هي المؤثّرة بإذن من الله سبحانه.

وأمّا الأشاعرة فذهبوا إلى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، فليس للإنسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرته أيّ تأثير في تحقّق الفعل، وأقصى ما عندهم أنّ إرادة الإنسان للعقل تقارن إيجاد الله سبحانه فعله في عالم التكوين والوجود.

إلّا أنّهم وتحاشياً من الذهاب إلى الجبر في تلك الأفعال وبالتالي إقصاء الإنسان عن أفعاله، ومن ثمّ براءته من مسؤوليتها عمدوا إلى ابتداع نظرية الكسب المعقدة فقالوا: إنّ الله هو الخالق والإنسان هو الكاسب، إلّا أنّها نظرية غريبة غير مفهومة، ومليئة بالألغاز التي عجز عن فهمها وإيضاحها حتّى مبتدعوها أنفسهم.

---

١. المائدة: ٦٤.

٤ ـ إنّ الاستطاعة في الإنسان على فعل من الأفعال تقارنه تارة، وتتقدّم عليه أُخرى؛ فلو أُريد من القدرة العلّة التامّة فهي مقارنة، ولو أُريد العلّة الناقصة فهي متقدّمة، خلافاً للأشاعرة فقد قالوا بالتقارن مطلقاً.

٥ ـ رؤية الله بالأبصار في الآخرة: فهي مستحيلة عند الإمامية والمعتزلة، ممكنة عند الأشاعرة.

٦ ـ كلامه سبحانه عند الإمامية هو فعله، فهو حادث لا قديم، وهذا خلافاً للأشاعرة: فكلامه عبارة عن الكلام النفسي القائم بذاته، فهو قديم كقدم الذات.

٧ ـ التحسين والتقبيح العقليان: ذهبت الإمامية إلى أنّ العقل يدرك حسن بعض الأفعال أو قبحها، بمعنى أنّ نفس الفعل من أي فاعل صدر، سواء أكان الفاعل قديماً أو حادثاً، واجباً أو ممكناً، يتّصف بأحدهما، فيرى مقابلة الإحسان بالإحسان أمراً حسناً، ومقابلته بالإساءة أمراً قبيحاً، ويتلقّاه حكماً مطلقاً سائداً على مرّ الحقب، والأزمان، لا يغيّره شيء، وهذا خلافاً للأشاعرة؛ فقد عزلوا العقل عن إدراك الحسن والقبيح، وبذلك خالفوا الإمامية والمعتزلة في الفروع المترتّبة عليه.

هذه هي الأُصول التي تخالف فيها الإمامية الأشاعرة، وربّما توافقهم المعتزلة في جميعها أو أكثرها، كلّ ذلك يثبت أنّ للشيعة الإمامية منهجاً كلامياً خاصّاً نابعاً من الكتاب والسنّة، وكلمات العترة الطاهرة والعقل فيما له مجال القضاء، وليست الشيعة متطفّلة في منهجها الكلامي على أيّة من الطائفتين. وأنت إذا وقفت على الكتب الكلامية المؤلّفة في العصور المتقدّمة من عصر فضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠هـ) إلى عصر شيخنا الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)

ومن بعده بقليل، تجد منهجاً كلامياً مبرهناً متّزناً واضحاً لا تعقيد فيه ولا غموض، وعلى تلك الأُصول وذلك المنهج درج علماؤهم المتأخّرون في الأجيال التالية، فألّف الشيخ الحلبي (٣٧٤ ـ ٤٤٧هـ) «تقريب المعارف» والشيخ سديد الدين الحمصي (المتوفّى ٦٠٠هـ) كتابه «المنقذ من التقليد»، وتوالى بعدهم التأليف على يد الفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ) وابن ميثم البحراني (المتوفّى ٥٨٩هـ) في «تقريب المعارف»، وتلميذه العلّامة الحلّي (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) في جملة من المؤلّفات القيّمة. وهكذا... فإنّ كلّ ذلك يكشف عن أنّ الأئمّة طرحوا أُصول العقائد، وغذّوا أصحابهم وتلاميذهم بمعارف سامية، اعتبر الحجر الأساس للمنهج الكلامي الشيعي، وتكامل المنهج من خلال الجدل الكلامي والنقاش العلمي في الظروف المتأخّرة فوصل إلى الذروة والقمّة.

فالناظر في الكتب الكلامية للسيّد الشريف المرتضى كـ«الشافي»[١] و«الذخيرة»[٢] يجد منبعاً غنيّاً بالبحوث الكلامية، كما أنّ الناظر في كتب العلّامة الحلّي المختلفة كـ«كشف المراد»[٣] و«نهاية المرام»[٤] وغيرهما يقف على أفكار سامية أنضجها البحث والنقاش عبر القرون، فبلغت غايتها القصوى.

وقد توالى التأليف في عقائد الشيعة وأُصولهم من العصور الأُولى إلى يومنا هذا، بشكل واسع لا يحصيه إلّا محصي قطرات المطر وحبّات الرمال.

---

١. المطبوع في بيروت في أربعة أجزاء.
٢. المطبوع في إيران في جزأين.
٣. الكتاب الدراسي في الجامعات الشيعية.
٤. حقّقته مؤخراً مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ونشر في ثلاثة مجلّدات.

هذا وإنّ الشيعة وإن خالفوا في هذه الأُصول طائفة من الطوائف الإسلامية ووافقوا طوائف أُخرى، ولكن هناك أُصول اتّفق الجميع فيها دون استثناء، وهو ظاهر لمن قرأ ما أثبتناه من الرسائل والكتيبات.

أفما آن للمسلمين أن يتّحدوا في ظلّ هذه الأُصول المؤلّفة لقلوبهم، ويستظلّوا بظلالها، ويتمسّكوا بالعروة الوثقى، ويكون شعارهم: ﴿**إنّما المؤمنون إخوة فأَصلِحوا بينَ أخويكم**﴾ ولا يصغوا إلى النعرات المفرّقة، المفترية على الشيعة وأئمّتهم، وليكن شعارنا في التأليف: التحقيق والتأكّد من عقائد الآخرين، ثمّ التدوين.

الفرق بين الشيعة الإمامية وسائر الفرق

إذا تعرّفت على الفوارق الموجودة بين الشيعة وبعض طوائف المسلمين، فهلمّ معي إلى الفوارق الجوهرية بينهم وبين سائر الطوائف التي صيّرتهم إلى فرقتين متمايزتين، وأكثرها يرجع إلى مسألة القيادة والخلافة بعد الرسول الأكرمﷺ، فنأخذ بالبحث عنها على وجه الإجمال.

المسألة الأُولى:

وجوب تنصيب الإمام على الله سبحانه

تتّفق جميع الفرق الإسلامية على وجوب نصب الإمام، سوى العجاردة من الخوارج، ومنهم حاتم الأصمّ أحد شيوخ المعتزلة (المتوفّى ٢٣٧ هـ)[١] قد شذّوا عن ذلك، واعتقاد المسلمين بذلك يفترق إلى مذهبين اثنين في ماهيّة هذا الوجوب، فالشيعة يذهبون إلى وجوبه على الله تعالى، وباقي الفرق على الأُمّة؛ فوجوب نصب الإمام لا خلاف فيه بين المسلمين، وإنّما الكلام في تعيين من يجب عليه ذلك.

وليس المراد من وجوبه على الله سبحانه، هو إصدار الحكم من العباد على الله سبحانه، حتّى يقال: ﴿**إِنِ الحُكْمُ إِلّا لله**﴾[٢] بل المراد كما ذكرنا غير مرّة: أنّ العقل ـ حسب التعرّف على صفاته سبحانه، من كونه حكيماً غير عابث ـ يكشف عن كون مقتضى الحكمة هو لزوم النصب أو عدمه، وإلّا فالعباد أقصر من أن يكونوا حاكمين على الله سبحانه.

---

١. ادّعت العجاردة بأنّ الواجب على الأُمّة التعاون والتعاضد لإحياء الحقّ وإماتة الباطل، ومع قيام الأُمّة بهذا الواجب لا يبقى للإمام فائدة تستدعي تسلّطه على العباد، أمّا إذا اختلفت الأُمّة ولم تتعاون على نشر العدل وإحقاق الحقّ فيجب عليها تعيين من يقوم بهذه المهمات، وعلى ذلك فالإمامة لا تجب بالشرع ولا بالعقل، وإنّما تجب للمصلحة أحياناً.

٢. يوسف: ٤٠.

ثمّ إنّ اختلاف المسلمين في كون النصب فرضاً على الله أو على الأُمّة ينجم عن اختلافهم في حقيقة الخلافة والإمامة عن رسول اللهﷺ. فمن ينظر إلى الإمام بوصفه رئيس دولة ليس له وظيفة إلّا تأمين الطرق والسبل، وتوفير الأرزاق، وإجراء الحدود، والجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك ممّا يقوم به رؤساء الدول بأشكالها المختلفة، فقد قال بوجوب نصبه على الأُمّة؛ إذ لا يشترط فيه من المواصفات إلّا الكفاءة والمقدرة على تدبير الأُمور، وهذا ما يمكن أن تقوم به الأُمّة الإسلامية.

وأمّا على القول بأنّ الإمامة استمرار لوظائف الرسالة (لا لنفس الرسالة فإنّ الرسالة والنبوّة مختومتان بالتحاق النبيّ الأكرمﷺ بالرفيق الأعلى) فمن المتّفق عليه أنّ تعهّد هذا الأمر يتوقّف على توفّر صلاحيات عالية لا ينالها الفرد إلّا إذا حظي بعناية إلهية خاصّة، فيخلف النبيّ في علمه بالأُصول والفروع، وفي سدّ جميع الفراغات الحاصلة بموته، ومن المعلوم أنّ هذا الأمر لا تتعرّف عليه الأُمّة إلّا عن طريق الرسول، ولا يتوفّر وجوده إلّا بتربية غيبيَّة وعناية سماوية خاصّة.

وهكذا فلا يخفى أنّ كون القيادة الإسلامية بعد النبيّﷺ بيد الله أو بيد الأُمّة، أو أنّ التعيين هل هو واجب عليه سبحانه أو عليهم؟، ينجم عن الاختلاف في تفسير ماهية الخلافة.

فمن جعلها سياسة زمنية وقتية يشغلها فرد من الأُمّة بأحد الطرق، قال في حقّه: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج

عليه، بل يجب وعظه وتخويفه، وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله.[١]

ومن قال: بأنّ الإمام بعد الرسول أشبه برئيس الدولة أو أحد الحكام، وتنتخبه الأُمّة الإسلامية، قال في حقّه: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أُمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة. والحجّ والجهاد ماضيان مع أُولي الأمر من المسلمين، برّهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، ولا يبطلهما شيء، ولا ينقضهما.[٢]

وقد درج على هذه الفكرة متكلّمو السنّة ومحدّثوهم، حتّى قال التفتازاني: ولا ينعزل الإمام بالفسق، أو بالخروج عن طاعة الله تعالى، والجور (الظلم على عباد الله) لأنّه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمّة والأُمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم، ونقل عن كتب الشافعية: أنّ القاضي ينعزل بالفسق بخلاف الإمام، والفرق أنّ في انعزاله ووجوب نصب غيره إثارة الفتنة؛ لما له من الشوكة؛ بخلاف القاضي.[٣]

أمّا من فسّر الإمامة بأنّها عبارة عن إمرة إلٰهية واستمرار لوظائف النبوّة

---

١. التمهيد: ١٨١.

٢. العقيدة الطحاوية: ٣٧٩ـ ٣٨٧.

٣. شرح العقائد النسفية لأبي حفص عمرو بن محمّد النسفي (المتوفّى ٥٧٣هـ) والشرح لسعد الدين التفتازاني (المتوفّى ٧٩١هـ): ١٨٥ ـ ١٨٦. ولاحظ في هذا المجال مقالات الإسلاميين للأشعري: ٣٢٣، وأُصول الدين لمحمّد بن عبد الكريم البزدوي إمام الماتريدية: ١٩٠.

كلّها سوى تحمّل الوحي الإلهي، فلا مناص له عن القول بوجوب نصبه على الله سبحانه.

وقد استدلّت الإمامية على وجوب نصب الإمام على الله سبحانه: بأنّ وجود الإمام الذي اختاره الله سبحانه، مقرّب من الطاعات، ومبعد عن المعاصي، وقد أوضحوه في كتبهم الكلامية. والمراد من اللطف المقرّب هنا ما عرفت من أنّ رحلة النبي الأكرم تترك فراغات هائلة بين الأُمّة في مجالي العقيدة والشريعة، كما تترك جدالاً ونزاعاً عنيفاً بين الأُمّة في تعيين الإمام. فالواجب على الله سبحانه من باب اللطف هو سدّ هذه الفراغات بنصب من هو صنو النبيّ الأكرمﷺ في علمه بالعقيدة والشريعة، وفي العدالة والعصمة، والتدبير والحنكة، وحسم مادة النزاع المشتعل برحلة الرسولﷺ، ولمّ شعث الأُمّة، وجمعهم على خطّ واحد.

والغريب أنّ المعتزلة الذين يذهبون إلى وجوب اللطف والأصلح على الله سبحانه، يشذّون في هذا المقام عن معتقدهم هذا، مع العلم بأنّ هذا المورد من جزئياته، والذي منعهم عن الالتزام بالقاعدة في المقام بأنّهم لو قالوا بها في هذه المسألة لزمهم أن يقولوا بعدم صحّة خلافة الخلفاء المتقدّمين على عليّ؛ لأنّ قاعدة اللطف تقتضي أن يكون الخليفة منصوصاً عليه من الله سبحانه.

ثمّ إنّك قد تعرّفت على أنّ الرسول الأكرمﷺ ـ و بوحي من الله سبحانه ـ قام بتطبيق القاعدة، ونصب إماماً للأُمّة؛ ليقود أمرهم ويسدّ جميع الفراغات الحاصلة بلحوقه بالرفيق الأعلى، وبذلك حسم مادة النزاع، وقطع الطريق

على المشاغبين، ولكن ـ وللأسف ـ تناست الأُمّة وصيّة الرسولﷺ وأمره، فانقسموا إلى طوائف وأحزاب، وقامت بينهم المعارك والحروب التي أُريقت فيها الدماء، واستبيحت بسببها الأعراض، وتبدّلت نتيجة لذلك المفاهيم، واختلفت القيم، واستثمر أعداء الدين هذه الاختلافات بين المسلمين فعمدوا إلى زيادة الهوّة بينهم وكرّسوا لذلك أقصى جهودهم حتّى أصبح التقريب فضلاً عن الوحدة أمراً متعسّراً على المفكّرين، نسأل الله سبحانه أن يسدّ تلك الفجوة العميقة بإيقاظ شعور علماء الأُمّة ومصلحيهم في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى.

المسألة الثانية:

عصمة الإمام

تفرّدت الإمامية من بين الفرق الإسلامية بإيجابها عصمة الإمام من الذنب والخطأ، مع اتّفاق غيرهم على عدمها.

قال الشيخ المفيد: إنّ الأئمّة معصومون كعصمة الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلّا ما قدّم ذكر جوازه على الأنبياء، ولا ينسون شيئاً من الأحكام، ولا يدخل في مفهوم العصمة سلب القدرة عن المعاصي، ولا كون المعصوم مضطرّاً إلى فعل الطاعات؛ فإنّ ذلك يستدعي بطلان الثواب والعقاب.

هذه هي عقيدة الإمامية في الإمامة، وقد استدلّوا عليها بوجوه من العقل والسمع. أمّا العقل فقالوا: إنّ الإمام منفّذ لما جاء به الرسول، وحافظ للشرع، وقائم بمهام الرّسول كلّها، فلو جاز عليه الخطأ والكذب، لا يحصل الغرض من إمامته.

حقيقة العصمة

العصمة قوّة تمنع صاحبها من الوقوع في المعصية والخطأ، حيث لا يترك واجباً، ولا يفعل محرّماً، مع قدرته على الترك والفعل، وإلّا لم يستحقّ مدحاً ولا ثواباً.

وإن شئت قلت: إنّ المعصوم قد بلغ من التقوى حدّاً لا تتغلّب عليه الشهوات والأهواء، وبلغ من العلم في الشريعة وأحكامها مرتبة لا يخطأ معها أبداً.

وليست العصمة فكرة ابتدعتها الشيعة، وإنّما دلّهم عليها في حقّ العترة الطاهرة كتاب الله وسنّة رسوله، قال سبحانه: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1] وليس المراد من الرجس إلّا الرجس المعنوي، وأظهره هو الفسق.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**علي مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه كيفما دار**»[2] ومن دار معه الحقّ كيفما دار محال أن يعصي أو أن يخطأ.

وقوله صلى الله عليه وآله في حقّ العترة: «**إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً**»[3] فإذا كانت العترة عدل القرآن والقرآن هو كلام الله تعالى، فمن المنطقي أن تكون معصومة كالكتاب، لا يخالف أحدهما الآخر.

وإذا توضّحت الصورة الحقيقية لتبلور عقيدة العصمة عند الشيعة، وإنّ منشأها هو الكتاب والسنّة، فإنّ هذا الوضوح لم يتحسّسه البعض، بل ولم يكلّف نفسه عناء التثبّت من حقيقة مدّعياته وتصوّراته، حيث يقول:

«إنّ عقيدة العصمة تسرّبت إلى الشيعة من الفرس الذين نشأوا على

---

١. الأحزاب: ٣٣.

٢. حديث مستفيض، رواه الخطيب في تاريخه: ١٤ / ٣٢١ والهيثمي في مجمعه: ٧ / ٢٣٦ وغيرهما.

٣. حديث متواتر، أخرجه مسلم في صحيحه، والدارمي في فضائل القرآن، وأحمد في مسنده: ٢ / ١١٤ وغيرهم.

تقديس الحاكم، لهذا أطلق عليها العرب النزعة الكسروية، ولا أعرف أحداً من العرب قال ذلك في حدود اطّلاعي، ولعلّ غالبية الشيعة كانت ترمي من وراء هذه الفكرة إلى تنزيه عليّ من الخطأ حتّى يتضح للملأ عدوان بني أُمية في اغتصاب الخلافة. هذا وفي اليهودية كثير من المذاهب التي تسرَّبت إلى الشيعة»[1].

هكذا ودون أيّ دليل وبيّنة متناسياً أنّ جميع المسلمين يذهبون إلى عصمة النبيّ ﷺ ولا يختلف في ذلك أحد، فهل إنّ هذه الفكرة تسرّبت إلى أهل السنّة من اليهود؟! أو أنّ المسلمين أرادوا بذلك إيضاح عداوة قريش للنبيّ ﷺ؟ أو غير ذلك من التخرصات الباطلة؟!!

لا والله إنّها عقيدة إسلامية واقتبسها القوم من الكتاب والسنّة من دون أخذ من اليهود والفرس، فما ذكره الكاتب تخرُّص بالغيب، بل فرية واضحة.

إنّ الاختلاف في لزوم توصيف الإمام وعدمه، ينشأ من الاختلاف في تفسير الإمامة بعد الرسول وماهيتها وحقيقتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، فمن تلقّى الإمامة ـ بعد الرسول ـ بأنّها مقام عرفي لتأمين السبل، وتعمير البلاد، وإجراء الحدود، فشأنه شأن سائر الحكّام العرفيّين. وأمّا من رأى الإمامة بأنّها استمرار لتحقيق وظيفة الرسالة، وأنّ الإمام ليس نبيّاً ولا يوحى إليه، لكنّه مكلّف بملء الفراغات الحاصلة برحلة النبيّ ﷺ، فلا محيص له عن الالتزام بها؛ لأنّ الغاية المنشودة لا تحصل بلا تسديد إلٰهي كما سيوافيك، نعم إنّ أهل السنّة يتحرَّجون من توصيف الإمام بالعصمة، ويتصوّرون أنّ ذلك يلازم النبوّة، وما

١. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي للدكتور نبيه حجاب: ٤٩٢، كما في هوية التشيّع: ١٦٦.

هذا إلّا أنّهم لا يفرّقون بين الإمامتين، وأنّ لكلٍّ معطياته. والتفصيل موكول إلى محلّه.

الدليل على لزوم عصمة الإمام بعد النبيّ ﷺ

يمكن الاستدلال على لزوم العصمة في الإمام بوجوه متعدّدة نورد أهمها:

الأوّل: إنّ الإمامة إذا كانت استمراراً لوظيفة النبوّة والرسالة، وكان الإمام يملأ جميع الفراغات الحاصلة جرّاء رحلة النبيّ الأكرم ﷺ، فلا مناص من لزوم عصمته، وذلك لأنّ تجويز المعصية يتنافى مع الغاية التي لأجلها نصبه الله سبحانه إماماً للأُمّة؛ فإنّ الغاية هي هداية الأُمّة إلى الطريق المهيع، ولا يحصل ذلك إلّا بالوثوق بقوله، والاطمئنان بصحّة كلامه، فإذا جاز على الإمام الخطأ والنسيان، والمعصية والخلاف، لم يحصل الوثوق بأفعاله وأقواله، وضعفت ثقة الناس به، فتنتفي الغاية من نصبه، وهذا نفس الدليل الذي استدلّ به المتكلّمون على عصمة الأنبياء، والإمام وإن لم يكن رسولاً ولا نبيّاً ولكنّه قائم بوظائفهما.

نعم لو كانت وظيفة الإمام مقتصرة علىٰ تأمين السبل وغزو العدو والانتصاف للمظلوم وما أشبه ذلك، لكفى فيه كونه رجلاً عادلاً قائماً بالوظائف الدينية، وأمّا إذا كانت وظيفته أوسع من ذلك ـ كما هو الحال في مورد النبيّ ﷺ ـ فكون الإمام عادلاً قائماً بالوظائف الدينية، غير كاف في تحقيق الهدف المنشود من نصب الإمام.

فقد كان النبي الأكرمﷺ يفسّر القرآن الكريم ويشرح مقاصده وأهدافه ويبيّن أسراره، كما كان يجيب على الأسئلة في مجال الموضوعات المستحدثة، وكان يردّ على الشبهات والتشكيكات التي كان يلقيها أعداء الإسلام، وكان يصون الدين من محاولات التحريف والتغيير، وكان يربّي المسلمين ويهذّبهم ويدفعهم نحو التكامل.

فالفراغات الحاصلة من رحلة النبي الأكرمﷺ لا تسدّ إلّا بوجود إنسان مثالي يقوم بتلك الواجبات، وهو فرع كونه معصوماً عن الخطأ والعصيان.[١]

الثاني: قوله سبحانه: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[٢].

والاستدلال مبني على دعامتين:

١ ـ إنّ الله سبحانه أمر بطاعة أُولي الأمر على وجه الإطلاق؛ أي في جميع الأزمنة والأمكنة، وفي جميع الحالات والخصوصيات، ولم يقيّد وجوب امتثال أوامرهم ونواهيهم بشيء كما هو مقتضى الآية.

٢ ـ إنّ من الأمر البديهي كونه سبحانه لا يرضى لعباده الكفر والعصيان: ﴿**ولا يَرْضىٰ لِعِبادِهِ الكُفْرَ**﴾[٣] من غير فرق بين أن يقوم به العباد ابتداءً من دون تدخّل أمر آمر أو نهي ناهٍ، أو يقومون به بعد صدور أمر ونهي من أُولي الأمر.

---

١. هذا إجمال ما أوضحناه في بحوثنا الكلامية، فلاحظ الإلهيات: ٢ / ٥٢٨ـ ٥٣٩.

٢. النساء: ٥٩.

٣. الزمر: ٧.

فمقتضى الجمع بين هذين الأمرين (وجوب إطاعة أُولي الأمر على وجه الإطلاق، وحرمة طاعتهم إذا أمروا بالعصيان) أن يتّصف أُولو الأمر الذين وجبت إطاعتهم على وجه الإطلاق، بخصوصية ذاتية وعناية إلهية ربّانية، تصدّهم عن الأمر بالمعصية والنهي عن الطاعة. وليس هذا إلّا عبارة أُخرى عن كونهم معصومين، وإلّا فلو كانوا غير واقعين تحت تلك العناية، لما صحّ الأمر بإطاعتهم على وجه الإطلاق بدون قيد أو شرط. فنستكشف من إطلاق الأمر بالطاعة اشتمال المتعلّق على خصوصية تصدّه عن الأمر بغير الطاعة.

وممّن صرّح بدلالة الآية على العصمة الإمام الرازي في تفسيره، ويطيب لي أن أذكر نصّه حتّى يمعن فيه أبناء جلدته وأتباع طريقته، قال:

إنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ؛ إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً.[1]

بيد أنّ الرازي، وبعد أن قادته استدلالاته المنطقية إلى هذه الفكرة الثابتة

---

١. مفاتيح الغيب: ١٠ / ١٤٤.

المؤكّدة لوجوب العصمة بدأ يتهرّب من تبعة هذا الأمر، ولم يستثمر نـتائج أفكـاره، لا لسبب إلّا لأنّها لا توافق مذهبه في تحديد الإمامة، فأخذ يؤوّل الآية ويحملها على غير مـا ابتدأه وعمد إلى إثباته، حيث استدرك قائلاً بأنّا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليه، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منه، فإذا كان الأمر كذلك، فالمراد ليس بعضاً من أبعاض الأُمّة، بل المراد هو أهل الحلّ والعقد من الأُمّة.

إلاّ أنّ ادّعاءه هذا لا يصمد أمام الحقيقة القويّة التي لا خفاء عليها، وفي دفعه ذلك الأمر مغالطة لا يمكن أن يرتضيها هو نفسه، فإنّه إذا دلّت الآية على عصمة أُولي الأمر فيجب علينا التعرّف عليهم، وادّعاء العجز هروب من الحقيقة، فهل العجز يختص بزمانه أو كان يشمل زمان نزول الآية؟ لا أظنّ أن يقول الرازي بالثاني. فعليه أن يتعرّف على المعصوم في زمان النبيّ ﷺ وعصر نزول الآية، وبالتعرّف عليه يعرف معصوم زمانه، حلقة بعد أُخرى، ولا يعقل أن يأمـر الوحي الإلهي بإطاعة المعصوم ثمّ لا يقوم بتعريفه حين النزول، فلو آمن الرازي بدلالة الآية على عصمة أُولي الأمر فإنّه من المنطقي والمعقول له أن يؤمن بقيام الوحي الإلهي بتعريفهم بواسطة النبيّ الأكرم ﷺ؛ إذ لا معنى أن يأمر الله سبحانه بإطاعة المعصوم، ولا يقوم بتعريفه.

ثمّ إنّ تفسير ﴿**أُولي الأمر**﴾ بأهل الحلّ والعقد، تفسير للغامض ـ حسب نظر الرازي ـ بما هو أشد غموضاً؛ إذ هو ليس بأوضح من الأوّل، فهل المراد منهم: العساكر والضبّاط، أو العلماء والمحدّثون، أو الحكام والسياسيون، أو الكلّ؟ وهل اتّفق إجماعهم على شيء، ولم يخالفهم لفيف من المسلمين؟

إذا كانت العصمة ثابتة للأُمة عند الرازي كما علمت، فهناك من يرى

العصمة لجماعة من الأُمّة كالقرّاء والفقهاء والمحدّثين، هذا هو ابن تيمية يقول في ردّه على الشيعة عند قولهم: إنّ وجود الإمام المعصوم لا بدّ منه بعد موت النبيّ يكون حافظاً للشريعة ومبيّناً أحكامها خصوصاً أحكام الموضوعات المتجدّدة، حيث يقول: إنّ أهل السنّة لا يسلّمون أن يكون الإمام حافظاً للشرع بعد انقطاع الوحي، وذلك لأنّه حاصل للمجموع، والشرع إذا نقله أهل التواتر كان ذلك خيراً من نقل الواحد، فالقرّاء معصومون في حفظ القرآن وتبليغه، والمحدّثون معصومون في حفظ الأحاديث وتبليغها، والفقهاء معصومون في الكلام والاستدلال.[1]

وهذا الرأي أغرب من سابقه وأضعف حجّة! فكيف يدّعي العصمة لهذه الطوائف مع أنّهم غارقون في الاختلاف في القراءة والتفسير، والحديث والأثر، والحكم والفتوى، والعقيدة والنظر؟ ولو أغمضنا عن ذلك، فما الدليل على عصمة تلكم الطوائف، خصوصاً على قول البعض بأنّ القول بالعصمة تسرّب من اليهود إلى الأوساط الإسلامية؟

الثالث: قوله سبحانه: ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلىٰ إِبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهدِي الظّالِمِينَ**﴾[2].

والاستدلال بالآية على عصمة الإمام يتوقّف على تحديد مفهوم الإمامة الواردة في الآية وأنّ المقصود منها غير النبوّة وغير الرسالة، فأمّا الأوّل فهو عبارة عن منصب تحمّل الوحي، وأمّا الثاني فهو عبارة عن منصب إبلاغه إلى الناس.

---

١. منهاج السنّة، كما في نظرية الإمامة: ١٢٠.
٢. البقرة: ١٢٤.

والإمامة المعطاة للخليل في أُخريات عمره غير هذه وتلك؛ لأنّه كان نبيّاً ورسولاً وقائماً بوظائفهما طيلة سنين حتّى خوطب بهذه الآية، فالمراد من الإمامة في المقام هو منصب القيادة، وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوّة وقدرة، ويعرب عن كون المراد من الإمامة في المقام هو المعنى الثالث قوله سبحانه: ﴿**أَمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلىٰ مَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إبْراهيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظيماً**﴾[1].

فالإمامة التي أنعم بها الله سبحانه على الخليل وبعض ذرّيته هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية. وعلينا الفحص عن المراد بالملك العظيم؛ إذ عند ذلك يتّضح أنّ مقام الإمامة يلي النبوّة والرسالة، لأنَّها قيادة حكيمة، وحكومة إلٰهيّة، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة، والله سبحانه يوضّح حقيقة هذا الملك في الآيات التالية:

١ ـ يقول سبحانه ـ حاكياً قول يوسف عليه السلام ـ: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأويلِ الأحاديثِ**﴾[2] ومن المعلوم أنّ الملك الذي منّ به سبحانه على عبده يوسف ليس هو النبوّة، بل الحاكمية؛ حيث صار أميناً مكيناً في الأرض؛ لقوله: ﴿**وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأويلِ الأحاديثِ**﴾ إشارة إلى نبوّته، والملك إشارة إلى سلطته وقدرته.

٢ ـ ويقول سبحانه في داود عليه السلام: ﴿**وَآتاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ**﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الخِطَابِ**﴾[4].

---

١. النساء: ٥٤.
٢. يوسف: ١٠١.
٣. البقرة: ٢٥١.
٤. ص: ٢٠.

٣ ـ ويحكي الله تعالى عن سليمان عليه السلام أنّه قال: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكَاً لا يَنْبَغِي لأِحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ**﴾[١].

والتأمّل في هذه الآيات الكريمة يفسّر لنا حقيقة الإمامة باعتبار الملاحظات التالية:

أ ـ إنّ إبراهيم طلب الإمامة لذرّيته، وقد أجاب سبحانه دعوته في بعضهم.

ب ـ إنّ مجموعة من ذرّيته، كيوسف وداود وسليمان، نالوا ـ وراء النبوّة والرسالة ـ منصب الحكومة والقيادة.

ج ـ إنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب، والحكمة، والملك العظيم.

فمن ضمّ هذه الأُمور بعضها إلى بعض، يخرج بهذه النتيجة: أنّ ملاك الإمامة في ذرّية إبراهيم هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع، وهذه هي حقيقة الإمامة، غير أنّها ربّما تجتمع مع المقامين الآخرين، كما في الخليل، ويوسف، وداود، وسليمان، وغيرهم، وربّما تنفصل عنهما كما في قوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنّىٰ يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَطَةً فِي العِلْمِ والجسم وَاللهُ يُؤْتي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَليمٌ**﴾[٢].

والإمامة التي يتبنّاها المسلمون بعد رحلة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله تتّحد واقعيتها مع هذه الإمامة.

---

١. ص: ٣٥.

٢. البقرة: ٢٤٧.

ما هو المراد من الظالم؟

قد تعرّفت على المقصود من جعل إبراهيمعليه السلام إماماً للناس، وأنّ المراد هو القيادة الإلهية وسوق الناس إلى السعادة بقوّة وقدرة ومنعة. بقي الكلام في تفسير الظالم الذي ليس له من الإمامة سهم، فنقول:

لمّا خلع سبحانه ثوب الإمامة على خليله، ونصبه إماماً للناس، ودعا إبراهيمُ أن يجعل من ذرّيته إماماً، أُجيب بأنّ الإمامة منصب إلهيّ لا يناله الظالمون؛ لأنّ الإمام هو المطاع بين الناس، المتصرّف في الأموال والنفوس، فيجب أن يكون على الصراط السويّ والظالم المتجاوز عن الحدّ لا يصلح لهذا المنصب.

كما أنّ الظالم الناكث لعهد الله، والناقض لقوانينه وحدوده، على شفا جرف هارٍ، لا يؤتمن عليه ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة؛ لأنّه على مقربة من الخيانة والتعدّي، وعلى استعداد لأن يقع أداة للجائرين، فكيف يصحّ في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً، نافذ القول، مشروع التصرّف؟! وعلى ذلك؛ فكلّ من ارتكب ظلماً، وتجاوز حدّاً في يوم من أيّام عمره، أو عبد صنماً، أو لاذ إلى وثن ـ وبالجملة ارتكب ما هو حرام فضلاً عمّا هو شرك وكفر ـ ينادى من فوق العرش في حقّه: ﴿**لا يَنالُ عَهدِي الظّالِمِينَ**﴾ من غير فرق بين صلاح حالهم بعد تلك الفترة، أو البقاء على ما كانوا عليه.

نعم اعترض «الجصّاص» على هذا الاستدلال وقال: «إنّ الآية إنّما

تشمل من كان مقيماً على الظلم وأمّا التائب منه فلا يتعلّق به الحكم؛ لأنّ الحكم إذا كان معلّقاً على صفة، وزالت تلك الصفة، زال الحكم. ألا ترى أنّ قوله: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلىٰ الَّـذِينَ ظَلَمُوا**﴾[1] إنّما ينهى عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم، فقوله تعالى: ﴿**لا يَنالُ عَـهدِي الظّالِمِينَ**﴾ لم ينف به العهد عمّن تاب عن ظلمه؛ لأنّه في هذه الحالة لا يسمّى ظالماً، كما لا يسمّى من تاب من الكفر كافراً»[2].

إلاّ أنّه يلاحظ عليه: أنّ قوله: «الحكم يدور مدار وجود الموضوع» ليس ضابطاً كلّياً، بل الأحكام على قسمين: قسم كذلك، وآخر يكفي فيه اتّصاف الموضوع بالوصف والعنوان آناً ما، ولحظة خاصّة، وإن انتفى بعد الاتّصاف، فقوله: «الخمر حرام»، أو «في سائمة الغنم زكاة» من قبيل القسم الأوّل، وأمّا قوله: «الزاني يحدّ»، و «السارق يقطع» فالمراد منه أنّ الانسان المتلبّس بالزنا أو السرقة يكون محكوماً بهما وإن زال العنوان وتاب السارق والزاني، ومثله: «المستطيع يجب عليه الحجّ» فالحكم ثابت، وإن زالت عنه الاستطاعة عن تقصير لا عن قصور.

وعلى ذلك فالمدّعى أنّ: ﴿**الظّالمين**﴾ في الآية المباركة كالسارق والسارقة والزاني والزانية وغيرها من الموارد المشابهة لها.

نعم المهمّ في المقام إثبات أنّ الموضوع في الآية من قبيل الثاني، وأنّ التلبّس بالظلم ـ ولو آناً مّا ـ يسلب عن الإنسان صلاحية الإمامة، وإن تاب من ذنبه، فإنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أقسام أربعة:

---

١. هود: ١١٣.
٢. تفسير آيات الأحكام: ١ / ٧٢.

١ ـ من كان طيلة عمره ظالماً.

٢ ـ من كان طاهراً ونقياً في جميع فترات عمره.

٣ ـ من كان ظالماً في بداية عمره، وتائباً في آخره.

٤ ـ من كان طاهراً في بداية عمره، وظالماً في آخره.

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام، الذي سأل الإمامة لبعض ذرّيته، أيَّ قسم منها أراد؟

إنّ من غير المعقول والبديهي أن يسأل خليل الله تعالى الإمامة لأصحاب القسمين الأوّل والرابع من ذرّيته، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره، أو المتّصف به أيام تصدّيه للإمامة، لا يصلح لأن يؤتمن عليها.

ولمّا كان الله تعالى قد نفى امتلاك الإمامة من قبل الظالم وهو ما سبق أن وقع في تسميته أصحاب القسم الثالث، في حين يقابله في القسم الثاني من هو بريء عن الظلم مطلقاً طيلة عمره، وتتمثّل فيه جميع الصفات المطلوبة والمحدّدة في الآية الكريمة، فلا مناص من الجزم بتعلّقها بالقسم الثاني وحده دون باقي الأقسام.

العصمة في القول والرأي

إنّ الأئمّة معصومون عن العصيان والمخالفة أوّلاً، وعن الخطأ والزلّة في القول ثانياً، وما ذلك إلّا لأنّ كل إمام من الأوّل إلى الثاني عشر، قد أحاط إحاطة شاملة كاملة بكلّ ما في هذين الأصلين، بحيث لا يشذّ عن علمهم معنى آية

من آي الذكر الحكيم تنزيلاً وتأويلاً، ولا شيء من سنّة رسول الله قولاً وفعلاً وتقريراً، وكفى بمن أحاط بعلوم الكتاب والسنّة فضلاً وعلماً، ومن هنا كانوا قدوة الناس جميعاً بعد جدّهم الرسولﷺ باتّفاق الجميع المطلق دليلاً واضحاً على أنّهم هم الأئمّة المعصومون وقادة المسلمين بعد غياب رسول اللهﷺ وحتّى قيام يوم الدين.

وقد أخذ أهل البيت علوم الكتاب والسنّة وفهموها عن رسول اللهﷺ تماماً[1] كما أخذها ووعاها رسول اللهﷺ عن جبرئيل، وكما وعاها جبرئيل عن الله، ولا فرق أبداً في شيء إلّا بالواسطة.

نعم أخذ عليّ عن النبيّﷺ، وأخذ الحسن عن أبيه، وهكذا كلّ إمام يأخذ عن أبيه، علم يتناقل ضمن هذه السلسلة الطاهرة المعروفة، لم يأخذ أحد منهمعليهم السلام عن صحابي ولا تابعي أبداً، بل أخذ الجميع عنهم، ومنهم انتقلت العلوم إلى الآخرين كما تلقّاها رسول اللهﷺ من لدن حكيم خبير.

قال الإمام الباقرعليه السلام: «**لو كنّا نحدّث الناس برأينا وهوانا لهلكنا، ولكن نحدّثهم بأحاديث نكنزها عن رسول اللهﷺ كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم**».[2]

---

١. أو إلهاماً غيبياً لأنّهم محدَّثون، كما أنّ مريم كانت محدَّثة، وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة قال: قال النبيّﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن كان من أُمّتي منهم أحد فعمر».
صحيح البخاري: ٢ / ١٩٤، باب مناقب عمر بن الخطّاب.

٢. الشيعة والتشيّع: ٤٤.

المسألة الثالثة:

الإمام المنتظر

إنّ الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر عقيدة مشتركة بين جميع المسلمين، إلّا من أصمّه اللّٰه، فكل من كان له إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبي وآله وأصحابه، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، ونشر أعلام العلم والعدل، وإعلاء كلمة الحقّ، وإظهار الدين كلّه، ولو كره المشركون، وهو بإذن الله ينجي العالم من ذُلِّ العبودية لغير اللّٰه، ويبطل القوانين الكافرة التي سنّتها الأهواء، ويقطع أواصر التعصّبات القومية والعنصرية، ويميت أسباب العداء والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأُمّة واضطراب الكلمة، ومصدراً خطيراً لإيقاد نيران الفتن والمنازعات، ويحقق اللّٰه بظهوره وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ»[1].

---

١. النور: ٥٥.

قال سبحانه: «**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحُونَ**»[1].

هذا ما اتّفق عليه المسلمون في الصدر الأوّل والأزمنة اللاحقة، وقد تضافر مضمون قول الرسول الأكرمﷺ: «**لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد، لطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي، فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً**».

بلى إنّ جميع المسلمين يتّفقون أساساً على فكرة قيام المهدي وما سيعم الأرض في عهده من العدل والأمن والخير العميم، وإن كان هناك من اختلاف يذكر في مضمون هذا الأمر العظيم، والحلم المنشود، فإنّه قد لا يتجاوز في أهم نقاطه الحدود الأساسية المرتكز عليها، والتي تتمحور أهمها في تحديد ولادتهعليه السلام، فانّ الأكثرية من أهل السنّة يقولون بأنّه سيولد في آخر الزمان، وأمّا الشيعة ولاستنادهم على جملة واسعة من الروايات والأدلّة الصحيحة يذهبون إلى أنّهعليه السلام ولد في «سرّ من رأى» عام ٢٥٥ هـ ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده الإمام الحسن بن علي العسكريعليه السلام، عام ٢٦٠ هـ، وهو يحيا حياة طبيعية كسائر الناس، غير أنّ الناس يرونه ولا يعرفونه، وسوف يظهره اللّه سبحانه ليحقّق عدله.

هذا المقدار من الاختلاف لا يجعل العقيدة بالمهدي عقيدة خلافية، ومن أراد أن يقف على عقيدة السنّة والشيعة في مسألة المهدي فعليه أن يرجع إلى الكتب التالية لمحقّقي السنّة ومحدّثيهم:

---

١. الأنبياء: ١٠٥.

ـ «صفة المهدي» للحافظ أبي‌نعيم الإصفهاني.

ـ «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي.

ـ «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» لملّا علي المتقي.

ـ «العرف الوردي في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي.

ـ «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر.

ـ «عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي.

من أراد التفصيل فليرجع إلى «منتخب الأثر في الإمام الثاني‌عشر» للعلّامة الصافي ـ دام ظلّه ـ، وإلى كتاب «المهدي عند أهل السنّة» صدر في مجلّدين وطبع في بيروت.

لعلّ الروايات والأخبار المستفيضة المؤكدة على قضية الإمام المهدي من الوفرة وقوّة الحجية بحيث لا يرقى إليها الشك والنقاش سواء في متونها أو في أسانيدها، وعلى ذلك دأب الماضون وتبعهم اللاحقون، إلّا ما أورده ابن خلدون في مقدّمته من تضعيفه لهذه الأخبار والتشكيك في صحّتها، وفي مدى حجيتها، وقد فنّد مقالته محمّد صديق برسالة أسماها «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون».

قد كتب أخيراً الدكتور عبد الباقي كتاباً قيّماً في الموضوع أسماه «بين يدي الساعة» يشير فيه إلى تضافر الأخبار الواردة في حق المهدي بقوله:

إنّ المشكلة ليست في حديث أو حديثين أو راو أو راويين، إنّها مجموعة من الأحاديث والأخبار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواة، وأكثر من صاحب كتاب صحيح.

لماذا نردّ كل هذه الكمّية؟ أكلّها فاسدة؟ لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي، أو حول حاجة العالم إليه، وإنّما الخلاف حول من هو، حسني أو حسيني؟ سيكون في آخر الزمان، أو موجود الآن؟ خفي وسيظهر؟ ظهر أو سيظهر ؟ولا عبرة بالمدّعين الكاذبين، فليس لهم اعتبار.

ثمّ إنّي لا أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث، والذي أجده إنّما هو مناقشة وخلاف حول السند، واتّصاله وعدم اتّصاله، ودرجة رواته، ومن خرّجوه، ومن قالوا فيه.

إذا نظرنا إلى ظهور المهدي نظرة مجرّدة فإنّنا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها، أو على الأقل عدم رفضها. فإذا ما تؤيّد ذلك بالأدلّة الكثيرة، والأحاديث المتعددة، ورواتها مسلمون مؤتمنون، والكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمة، والترمذي من رجال التخريج والحكم، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصح أن يكون سنداً لها في البخاري ومسلم، كحديث جابر في مسلم الذي فيه: «فيقول أميرهم (أي لعيسى): تعال صلّ بنا»[1]، وحديث أبي‌هريرة في البخاري، وفيه: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم»[2]، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير، وهذا الإمام هو المهدي.

---

١. صحيح مسلم: ١ / ٥٩، باب نزول عيسى.

٢. صحيح البخاري، بشرح الكرماني: ١٤ / ٨٨.

يضاف إلى هذا انّ كثيراً من السلف ـ رضي الله عنهم ـ لم يعارضوا هذا القول، بل جاءت شروحهم وتقريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين.[١]

١. بين يدي الساعة للدكتور عبدالباقي: ١٢٣ ـ ١٢٥.

المسألة الرابعة:

التقية

(مفهومها، غايتها، دليلها، حدّها في ضوء الكتاب والسنّة)

التقية من المفاهيم القرآنية التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي تلك الآيات إشارات واضحة إلى الموارد التي يلجأ فيها المؤمن إلى استخدام هذا المسلك الشرعي خلال حياته أثناء الظروف العصيبة، ليصون بها نفسه أو من يمتّ إليه بصلة وعرضه وماله، كما استعملها مؤمن آل فرعون لصيانة الكليم عن القتل والتنكيل[1]، ولاذ بها عمّار عندما أُخذ وأُسِر و هُدِّد بالقتل[2]، إلى غير ذلك من الموارد الواردة في الكتاب والسنّة، فمن المحتّم علينا أن نتعرّف عليها، مفهوماً وغايةً ودليلاً وحدّاً، حتّى نتجنَّب الإفراط والتفريط في مقام القضاء والتطبيق.

إنّ التقية، اسم لـ «اتّقى يتّقي»[3] والتاء بدل من الواو، وأصله من الوقاية، ومن ذلك إطلاق التقوى على إطاعة الله؛ لأنّ المطيع يتّخذها وقاية من

---

١. القصص: ٢٠.

٢. النحل: ١٠٦.

٣. قال ابن الأثير في النهاية: ٥ / ٢١٧، وأصل اتّقى: اوتقى فقلبت الواو ياء لكسرة قبلها ثمّ أُبدلت تاء وأُدغمت. ومنه حديث عليعليه السلام: «كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله»، أي جعلناه وقاية من العدوّ. ولاحظ لسان العرب مادة «وقى».

النار والعذاب. والمراد هو التحفّظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحقّ.

مفهومها

إذا كانت التقيّة هي اتّخاذ الوقاية من الشرّ، فمفهومها في الكتاب والسنّة هو: إظهار الكفر وإبطان الإيمان، أو التظاهر بالباطل وإخفاء الحقّ. وإذا كان هذا مفهومها، فهي تُقابل النفاق، تَقابُل الإيمان والكفر، فإنّ النفاق ضدّها وخلافها، فهو عبارة عن إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والتظاهر بالحقّ وإخفاء الباطل، ومع وجود هذا التباين بينهما فلا يصحّ عدّها من فروع النفاق. نعم من فسر النفاق بمطلق مخالفة الظاهر للباطن، وبه صوَّر التقية ـ الواردة في الكتاب والسنّة ـ من فروعه، فقد فسّره بمفهوم أوسع ممّا هو عليه في القرآن؛ فإنّه يُعرِّف المنافقين المتظاهرين بالإيمان والمبطنين للكفر بقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ ٱلمنَافِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[1]، فإذا كان هذا حدُّ المنافق فكيف يعمُّ من يستعمل التقية تجاه الكفّار والعصاة؛ فيخفي إيمانه ويظهر الموافقة لغاية صيانة النفس والنفيس، والعرض والمال من التعرّض؟!

ويظهر صدق ذلك إذا وقفنا على ورودها في التشريع الإسلامي، ولو كانت من قسم النفاق، لكان ذلك أمراً بالقبح ويستحيل على الحكيم أن يأمر به: ﴿**قُلْ إِنَّ ٱللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

---

١. المنافقون: ١.

٢. الأعراف: ٢٨.

غايتها

الغاية من التقيّة: هي صيانة النفس والعرض والمال، وذلك في ظروف قاهرة لا يستطيع فيها المؤمن أن يعلن عن موقفه الحقّ صريحاً خوفاً من أن يترتّب على ذلك مضارّ وتهلكة من قوى ظالمة غاشمة كلجوء الحكومات الظالمة إلى الإرهاب، والتشريد والنفي، والقتل والتنكيل، ومصادرة الأموال، وسلب الحقوق الحقّة، فلا يكون لصاحب العقيدة الذي يرى نفسه محقّاً محيص عن إبطانها، والتظاهر بما يوافق هوى الحاكم وتوجّهاته حتّى يسلم من الاضطهاد والتنكيل والقتل، إلى أن يُحدِث الله أمراً.

إنّ التقيّة سلاح الضعيف في مقابل القويّ الغاشم، سلاح من يبتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا لشيء إلّا لأنّه لا يتّفق معه في بعض المبادئ والأفكار.

إنّما يمارس التقية من يعيش في بيئة صودرت فيها الحرية في القول والعمل، والرأي والعقيدة فلا ينجو المخالف إلّا بالصمت والسكوت مرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها، أو قد يلجأ إليها البعض كوسيلة لابدّ منها من أجل إغاثة الملهوف المضطهد والمستضعف الذي لا حول له ولا قوّة، فيتظاهر بالعمل إلى جانب الحكومة الظالمة وصولاً إلى ذلك كما كان عليه مؤمن آل فرعون الذي حكاه سبحانه في الذكر الحكيم.

إنّ أكثر من يَعيبُ التقيّة على مستعملها، يتصوّر أو يصوّر أنّ الغاية منها هو تأليف جماعات سرية هدفها الهدم والتخريب، كما هو المعروف من الباطنيين والأحزاب الإلحادية السرّية، وهو تصوّر خاطئ ذهب إليه أُولئك جهلاً أو

عمداً دون أن يرتكزوا في رأيهم هذا على دليل مّا أو حجة مقنعة، فأين ما ذكرناه من هذا الذي يذكره؟ ولو لم تُلجئ الظروف القاهرة والأحكام المتعسّفة هذه الجموع المستضعفة من المؤمنين لما كانوا عمدوا إلى التقية، ولما تحمّلوا عبء إخفاء معتقداتهم ولدعوا الناس إليها علناً ودون تردّد، إلّا أنّ السيف والنطع سلاح لا تتردّد كلّ الحكومات الفاسدة من التلويح به أمام من يخالفها في معتقداتها وعقائدها.

أين العمل الدفاعي من الأعمال البدائية التي يرتكبها أصحاب الجماعات السرّية للإطاحة بالسلطة وامتطاء ناصية الحكم، فأعمالهم كلّها تخطيطات مدبّرة لغايات ساقطة.

وهؤلاء هم الذين يحملون شعار «الغايات تبرّر الوسائل» فكلّ قبيح عقلي أو ممنوع شرعي يستباح عندهم لغاية الوصول إلى المقاصد المشؤومة.

إنّ القول بالتشابه بين هؤلاء وبين من يتّخذ التقية غطاءً، وسلاحاً دفاعياً ليسلم من شرّ الغير، حتّى لا يُقْتَل ولا يُستأصل، ولا تُنهب داره وماله، إلى أن يُحدث الله أمراً، من قبيل عطف المباين على مثله.

إنّ المسلمين القاطنين في الاتّحاد السوفيتي السابق قد لاقوا من المصائب والمحن ما لا يمكن للعقول أن تحتملها ولا أن تتصوّرها؛ فإنّ الشيوعيّين وطيلة تسلّطهم على المناطق الإسلامية قلبوا لهم ظهر المِجَنّ، فصادروا أموالهم وأراضيهم، ومساكنهم، ومساجدهم، ومدارسهم، وأحرقوا مكتباتهم، وقتلوا كثيراً منهم قتلاً ذريعاً ووحشياً، فلم ينج منهم إلّا من اتّقاهم بشيء من

التظاهر بالمرونة، وإخفاء المراسم الدينية، والعمل على إقامة الصلاة في البيوت إلى أن نجّاهم الله سبحانه بانحلال تلك القوّة الكافرة، فبرز المسلمون إلى الساحة من جديد، فملكوا أرضهم وديارهم، وأخذوا يستعيدون مجدهم وكرامتهم شيئاً فشيئاً، وما هذا إلّا ثمرة من ثمار التقية المشروعة التي أباحها الله تعالى لعباده بفضله وكرمه سبحانه على المستضعفين.

فإذا كان هذا معنى التقية ومفهومها، وكانت هذه غايتها وهدفها، فهو أمر فطري يسوق الإنسان إليه قبل كلّ شيء عقلُه ولبُّه، وتدعوه إليه فطرته، ولأجل ذلك يستعملها كلّ من ابتُلي بالملوك والساسة الذين لا يحترمون شيئاً سوى رأيهم وفكرتهم ومطامعهم وسلطتهم ولا يتردّدون عن التنكيل بكلّ من يعارضهم في ذلك، من غير فرق بين المسلم ـ شيعياً كان أم سنيّاً ـ وغيره، ومن هنا تظهر جدوى التقية وعمق فائدتها.

ولأجل دعم هذا الأصل الحيويّ ندرس دليله من القرآن والسنّة.

دليلها في القرآن والسنّة

شرّعت التقية بنصّ القرآن الكريم حيث وردت جملة من الآيات الكريمة[1] سنحاول استعراضها في الصفحات التالية:

الآية الأُولى:

قال سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ**

١. غافر: ٢٨ و ٤٥، القصص: ٢٠ وستوافيك نصوص الآيات في ثنايا البحث.

بِالإيمَـانِ وَلَـٰكِن مَنْ شَـرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرَاً فَـعَلَيْهِمْ غَـضَبٌ مِـنَ الله وَلَـهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

ترى أنّه سبحانه يجوّز إظهار الكفر كرهاً ومجاراةً للكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان، وصرّح بذلك لفيف من المفسّرين القدامى والجدد، سنحاول أن نستعرض كلمات البعض منهم تجنّباً عن الإطالة والإسهاب، ولمن يبتغي المزيد فعليه بمراجعة كتب التفسير المختلفة:

١ ـ قال الطبرسي: قد نزلت الآية في جماعة أُكرهوا على الكفر، وهم عمّار وأبوه ياسر وأُمّه سميّة، وقُتلَ الأبوان لأنّهما لم يظهرا الكفر ولم ينالا من النبيّ، وأعطاهم عمّار ما أرادوا منه، فأطلقوه، ثمّ أخبر عمّار بذلك رسول الله، وانتشر خبره بين المسلمين، فقال قوم: كفر عمّار، فقال الرسول: «**كلاّ إنّ عمّاراً مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**».

وفي ذلك نزلت الآية السابقة، وكان عمّار يبكي، فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول: «**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**». (٢)

٢ ـ وقال الزمخشري: روي أنّ أُناساً من أهل مكة فُتِنُوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أُكره وأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمّار بن ياسر وأبواه: ياسر وسميّة، وصهيب وبلال وخباب.

---

١. النحل: ١٠٦.

٢. مجمع البيان: ٣ / ٣٨٨.

أمّا عمّـار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً....[١]

٣ ـ وقال الحافظ ابن ماجة: والإيتاء: معناه الإعطاء أن وافقوا المشركين على مـا أرادوا منهم تقيّة، والتقيّة في مثل هذه الحال جائزة؛ لقوله تـعالى: ﴿**إِلّا مَـنْ أُكْـرِهَ وَقَـلْبُهُ مُـطْمَئِنٌّ بِالإِيمَـانِ**﴾.[٢]

٤ ـ وقال القرطبي: قال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ـ ثمّ قال: ـ أجمع أهل العلم على أنّ من أُكره على الكفر حتّى خشى على نفسه القتل إنّه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بـالكفر، هـذا قـول مـالك والكـوفيين والشافعي.[٣]

٥ ـ قال الخازن: التقية لا تكون إلّا مع خوف القتل مع سلامة النيّة، قال الله تعالى: ﴿**إلّا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ثمّ هذه التقية رخصة.[٤]

٦ ـ قال الخطيب الشربيني: ﴿**إلّا من أُكره**﴾ أي على التلفّظ به ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فلا شيء عليه، لأنّ محل الإيمان هو القلب.[٥]

٧ ـ وقال إسماعيل حقّي: ﴿**إلّا من أُكره**﴾ أُجبر على ذلك اللفظ بأمر يخاف على نفسه أو عضو من أعضائه... لأنّ الكفر اعتقاد، والإكراه على القول دون الاعـتقاد، والمـعنى: ولكـن المكره على الكفر باللسان، ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾

---

١. الكشاف عن حقائق التنزيل: ٢ / ٤٣٠.
٢. سنن ابن ماجة: ١ / ٥٣، شرح الحديث ١٥٠.
٣. الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٥٧.
٤. تفسير الخازن: ١ / ٢٧٧.
٥. السراج المنير في تفسير الآية.

لا تتغيّر عقيدته، وفيه دليل على أنّ الإيمان المنجي المعتبر عند الله، هو التصديق بالقلب.[١]

الآية الثانية:

قال سبحانه: ﴿**لا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ وَإِلَى الله ٱلْمصيرُ**﴾[٢].

وكلمات المفسّرين حول الآية تغنينا عن أيّ توضيح:

١ ـ قال الطبري: ﴿**إلّا أن تتقوا منهم تقاة**﴾: قال أبو العالية: التقيّة باللسان، وليس بالعمل، حُدّثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ قال: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله تعالى: ﴿**إلّا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ قال: التقيّة باللسان من حُمِلَ على أمر يتكلّم به وهو لله معصية فتكلّم مخافة على نفسه ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فلا إثم عليه، إنّما التقية باللسان.[٣]

٢ ـ وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿**إلّا أن تتّقوا منهم تقاة**﴾: رخّص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة: مخالفة ومعاشرة ظاهرة، والقلب مطمئنّ بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع.[٤]

٣ ـ قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿**إلّا أن تتّقوا منهم تقاة**﴾: المسألة

---

١. تفسير روح البيان: ٥ / ٨٤.
٢. آل عمران: ٢٨.
٣. جامع البيان: ٣ / ١٥٣.
٤. الكشّاف: ١ / ٤٢٢.

الرابعة: اعلم: أنّ للتقية أحكاماً كثيرة، ونحن نذكر بعضها:

أ: إنّ التقية إنّما تكون إذا كان الرجل في قوم كفّار، ويخاف منهم على نـفسه، ومـاله، فيداريهم باللسان، وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبّة والموالاة، ولكن بشرط أن يضمر خلافه وأن يعرض في كلّ مـا يـقول؛ فـإنّ للـتقيّة تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

ب: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فـيها بالجواز لقوله ﷺ: «**حرمة مال المسلم كحرمة دمه**» ولقوله ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**».[١]

٤ ـ وقال النسفي: ﴿**إلّا أن تتّقوا منهم تقاة**﴾ إلّا أن تخافوا جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، أي ألّا يكون للكافر عليك سلطان، فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان المعاداة.[٢]

٥ ـ وقال الآلوسي: وفي الآية دليل على مشروعية التقية؛ وعرَّفوها بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شرّ الأعداء. والعدوّ قسمان:

الأوّل: من كانت عداوته مبنيّة على اختلاف الدين، كالكافر والمسلم.

الثاني: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية، كالمال والمتاع والملك والإمارة.[٣]

---

١. مفاتيح الغيب: ٨ / ١٣.

٢. تفسير النسفي بهامش تفسير الخازن: ١ / ٢٧٧.

٣. روح المعاني: ٣ / ١٢١.

٦ ـ وقال جمال الدين القاسمي: ومن هذه الآية: ﴿**إلّا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ استنبط الأئمّة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الخلق»[١].

٧ ـ وفسر المراغي قوله تعالى: ﴿**إلّا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ بقوله: أي ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال، إلّا في حال الخوف من شيء تتّقونه منهم، فلكم حينئذ أن تتّقوهم بقدر ما يبقى ذلك الشيء؛ إذ القاعدة الشرعية «إنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح».

وإذا جازت موالاتهم لاتّقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين، إذاً فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلى الأُولى، إمّا بدفع ضرر أو جلب منفعة، وليس لها أن تواليها في شيء يضرّ المسلمين، ولا تختصّ هذه الموالاة بحال الضعف، بل هي جائزة في كلّ وقت.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحقّ، لأجل التوقّي من ضرر يعود من الأعداء إلى النفس، أو العرض، أو المال.

فمن نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقاية لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئنّ بالإيمان، لا يكون كافراً بل يُعذر كما فعل عمّار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرهاً وقلبه مطمئنّ بالإيمان وفيه نزلت الآية:

﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان**﴾.[٢]

---

١. محاسن التأويل: ٤ / ٨٢.

٢. تفسير المراغي: ٣ / ١٣٦.

هذه الجمل الوافية والعبارات المستفيضة لا تدع لقائل مقالاً إلّا أن يحكم بشرعية التقية بالمعنى الذي عرفته، بل قد لا يجد أحد مفسّراً أو فقيهاً وقف على مفهومها وغايتها يتردّد في الحكم بجوازها، كما أنّك أخي القارئ لا تجد إنساناً واعياً لا يستعملها في ظروف عصيبة، ما لم تترتّب عليها مفسدة عظيمة، كما سيوافيك بيانها عند البحث عن حدودها.

وإنّما المعارض لجوازها أو المغالط في مشروعيتها، فإنّما يفسّرها بالتقيّة الرائجة بين أصحاب التنظيمات السرّية والمذاهب الهدّامة كالنصيرية والدروز، والباطنية كلّهم، إلّا أنّ المسلمين جميعاً بريئون من هذه التقيّة الهدامة لكلّ فضيلة رابية.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾[١].

وكانت عاقبة أمره أن: ﴿**وَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾[٢].

وما كان ذلك إلّا لأنّه بتقيّته استطاع أن يُنجي نبيّ الله من الموت: ﴿**قَالَ يَامُوسَىٰ إِنَّ الْملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[٣].

وهذه الآيات تدلّ على جواز التقيّة لإنقاذ المؤمن من شرّ عدوّه الكافر.

---

١. غافر: ٢٨. ٢. غافر: ٤٥. ٣. القصص: ٢٠.

اتّقاء المسلم من المسلم في ظروف خاصّة

إنّ مورد الآيات وإن كان هو اتّقاء المسلم من الكافر، ولكن المورد ليس بمخصّص لحكم الآية فقط، إذ ليس الغرض من تشريع التقيّة عند الابتلاء بالكفّار إلّا صيانة النفس والنفيس من الشرّ، فإذا ابتُلي المسلم بأخيه المسلم الذي يخالفه في بعض الفروع ولا يتردّد الطرف القوي عن إيذاء الطرف الآخر، كأن ينكّل به أو ينهب أمواله أو يقتله، ففي تلك الظروف الحرجة يحكم العقل السليم بصيانة النفس والنفيس عن طريق كتمان العقيدة واستعمال التقية، ولو كان هناك وزر إنّما يتوجّه على من يُتّقى منه لا على المتّقي، فلو سادت الحرّية جميع الفرق الإسلامية، وتحمّلت كلّ فرقة آراء الفرقة الأُخرى بصدر رحب، وفهمت بأنّ ذلك هو قدر اجتهادها، لم يضطرّ أحد من المسلمين إلى استخدام التقيّة، ولساد الوئام مكان النزاع.

وقد فهم ذلك لفيف من العلماء وصرّحوا به، وإليك نصوص بعضهم:

١ ـ يقول الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**إلّا أن تتّقوا منهم تقاة**﴾ ظاهر الآية على أنّ التقية إنّما تحلّ مع الكفّار الغالبين، إلّا أنّ مذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: أنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقيّة محاماة عن النفس.

وقال: التقيّة جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟

يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: «**حرمة مال المسلم كحرمة دمه**» وقوله ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**».[١]

٢ ـ ينقل جمال الدين القاسمي عن الإمام مرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الخلق» ما هذا نصه: «وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين ـ مع قلّتهم ـ من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقيّة عند ذلك بنصّ القرآن، وإجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحقّ، ولا برح المحقّ عدوّاً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال في ذلك العصر الأوّل: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته في الناس، وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم».[٢]

٣ ـ وقال المراغي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾: ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة، وإلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم، وبذل المال لهم؛ لكفّ أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يعدّ هذا من الموالاة المنهيّ عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «**ما وَقَى المؤمن به عرضَه فهو صدقة**».[٣]

إنّ الشيعة تتّقي الكفّار في ظروف خاصة لنفس الغاية التي لأجلها يتّقيهم السنّي، غير أنّ الشيعي ولأسباب لا تخفى، يلجأ إلى اتّقاء أخيه المسلم لا قصور في الشيعي، بل في أخيه الذي دفعه إلى ذلك؛ لأنّه يدرك أنّ الفتك والقتل مصيره إذا صرّح بمعتقده الذي هو موافق لأُصول الشرع الإسلامي وعقائده، نعم كان

---

١. مفاتيح الغيب: ٨ / ١٣ في تفسير الآية.
٢. محاسن التأويل: ٤ / ٨٢.
٣. تفسير المراغي: ٣ / ١٣٦.

الشيعي وإلى وقت قريب يتحاشى أن يقول: إنّ الله ليس له جهة، أو إنّه تعالى لا يُرى يوم القيامة، وإنّ المرجعية العلمية والسياسية لأهل البيت بعد رحيل النبيّ الأكرم، أو إنّ حكم المتعة غير منسوخ؛ فإنّ الشيعي إذا صرّح بهذه الحقائق ـ التي استنبطت من الكتاب والسنّة ـ سوف يُعرّض نفسه ونفيسه للمهالك والمخاطر. وقد مرّ عليك كلام الرازي وجمال الدين القاسمي والمراغي الصريح في جواز هذا النوع من التقية، فتخصيص التقية بالتقية من الكافر فحسب جمود على ظاهر الآية وسدّ لباب الفهم، ورفض للملاك الذي شُرّعت لأجله التقية، وإعدام لحكم العقل القاضي بحفظ الأهمّ إذا عارض المهمّ.

والتاريخ بين أيدينا يحدّثنا بوضوح عن لجوء جملة معروفة من كبار المسلمين إلى التقية في ظروف عصيبة أوشكت أن تودي بحياتهم وبما يملكون، وخير مثال على ذلك ما أورده الطبري في تاريخه عن محاولة المأمون دفع وجوه القضاة والمحدّثين في زمانه إلى الإقرار بخلق القرآن قسراً حتّى وإن استلزم ذلك قتل الجميع دون رحمة، ولمّا أبصر أُولئك المحدِّثون حد السيف مشهراً عمدوا إلى مصانعة المأمون في دعواه وأسرّوا معتقدهم في صدورهم، ولمّا عوتبوا على ما ذهبوا إليه من موافقة المأمون، برّروا عملهم بعمل عمّار بن ياسر حين أُكره على الشرك وقلبه مطمئنّ بالإيمان، والقصّة شهيرة وصريحة في جواز اللجوء إلى التقية التي دأب البعض على التشنيع فيها على الشيعة؛ وكأنّهم هم الذين ابتدعوها من بنات أفكارهم دون أن تكون لها قواعد وأُصول إسلامية ثابتة ومعلومة.[1]

---

١. تاريخ الطبري: ٧ / ١٩٥ ـ ٢٠٦.

الظروف العصيبة التي مرّت بها الشيعة

الذي دفع بالشيعة إلى التقية بين إخوانهم وأبناء دينهم إنّما هو الخوف من السلطات الغاشمة، فلو لم يكن هناك في غابر القرون ـ من عصر الأُمويين ثمّ العباسيين والعثمانيين ـ أيّ ضغط على الشيعة، ولم تكن بلادهم وعقر دارهم مخضّبة بدمائهم ـ والتاريخ خير شاهد على ذلك ـ كان من المعقول أن تنسى الشيعة كلمة التقية، وأن تحذفها من ديوان حياتها، ولكن ياللأسف!! فإنّ كثيراً من إخوانهم كانوا أداة طيّعة بيد الأُمويين والعباسيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطراً على مناصبهم، فكانوا يؤلّبون العامّة من أهل السنّة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكّلون بهم، ولذا ونتيجة لتلك الظروف الصعبة لم يكن للشيعة، بل لكلّ من يملك شيئاً من العقل وسيلة إلّا اللجوء إلى التقية أو رفع اليد عن المبادئ المقدّسة التي هي أغلى عنده من نفسه وماله.

والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى أو أن تعدّ، إلّا أنّا سنستعرض جانباً مختصراً منها: فمن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان باستباحة دماء الشيعة أينما كانوا وكيفما كانوا.

كتاب معاوية إلى عماله

قد مرّ ذكر كتاب معاوية إلىٰ عمّاله في الفصل التاسع: الشيعة في العصرين الأُموي والعباسي تحت عنوان بيان معاوية إلى عماله، فراجع.

ونتيجة لذلك شهدت أوساط الشيعة مجازر بشعة على يد السلطات

الغاشمة، فقتل الآلاف منهم، وأمّا من بقي منهم على قيد الحياة فقد تعرّض إلى شتّى صنوف التنكيل والإرهاب والتخويف، والحق يقال إنّ من الأُمور العجيبة أن يبقى لهذه الطائفة باقية رغم كلّ ذلك الظلم الكبير والقتل الذريع، بل العجب العجاب أن تجد هذه الطائفة قد ازدادت قوّة وعدّة، وأقامت دولاً وشيّدت حضارات وبرز منها الكثير من العلماء والمفكرين.

فلو كان الأخ السنّي يرى التقية أمراً محرّماً فليعمل على رفع الضغط عن أخيه الشيعي، وأن لا يضيق عليه في الحرّية التي سمح بها الإسلام لأبنائه، وليعذره في عقيدته وعمله كما عذر أُناساً كثيرين خالفوا الكتاب والسنّة وأراقوا الدماء ونهبوا الدور، فكيف بطائفة تدين بدينه وتتّفق معه في كثير من معتقداته؟ وإذا كان معاوية وأبناء بيته والعباسيون كلّهم عنده مجتهدين في بطشهم وإراقة دماء مخالفيهم، فماذا يمنعه عن إعذار الشيعة باعتبارهم مجتهدين؟

وإذا كانوا يقولون ـ وذاك هو العجيب ـ إنّ الخروج على الإمام عليّ عليه السلام غير مضرّ بعدالة الخارجين والثائرين عليه، وفي مقدّمتهم طلحة والزبير وأُمّ المؤمنين عائشة، وإنّ إثارة الفتن في صفّين ـ التي انتهت إلى قتل كثير من الصحابة والتابعين، وإراقة دماء الآلاف من العراقيين والشاميين ـ لا تنقص شيئاً من ورع المحاربين، وهم بعد ذلك مجتهدون معذورون لهم ثواب من اجتهد وأخطأ، فلم لا يتعامل مع الشيعة ضمن هذا الفهم، ويذهب إلى أنّهم معذورون ومثابون!!

نعم كانت التقية بين الشيعة تزداد تارة وتتضاءل أُخرى، حسب قوّة الضغط وضآلته، فشتّان ما بين عصر المأمون الذي يجيز مادحي أهل البيت، ويكرم العلويين، وبين عصر المتوكّل الذي يقطع لسان ذاكرهم بفضيلة.

فهذا ابن السكّيت أحد أعلام الأدب في زمن المتوكّل، وقد اختاره معلّماً لولديه فسأله يوماً: أيّهما أحبُّ إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ قال ابن السكّيت: والله إنّ قنبر خادم عليّعليه السلام خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات، وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين، وقيل ثلاث وأربعين، وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة. ولمّا مات سيَّر المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم وقال: هذه دية والدك!![1].

وهذا ابن الرومي الشاعر العبقري يقول في قصيدته التي يرثي بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي:

أكلّ أوانٍ للنبيّ محمّد قتيل زكيّ بالدماء مضرّجُ
بني المصطفىٰ كم يأكل الناس شلوكم لبلواكم عمّا قليل مفرِّجُ
أبعد المكنّىٰ بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرجُ[2]

فإذا كان هذا هو حال أبناء الرسول، فما هو حال شيعتهم ومقتفي آثارهم؟!

قال العلّامة الشهرستاني: إنّ التقية شعار كلّ ضعيف مسلوب الحرية. إنّ الشيعة قد اشتهرت بالتقية أكثر من غيرها؛ لأنّها منيت باستمرار الضغط عليها أكثر من أية أُمّة أُخرى، فكانت مسلوبة الحريّة في عهد الدولة الأُموية كلّه، وفي عهد العباسيين على طوله، وفي أكثر أيام الدولة العثمانية، ولأجله استشعروا بشعار

١. وفيات الأعيان: ٣ / ٣٣؛ سير أعلام النبلاء: ١٢ / ١٦.
٢. ديوان ابن الرومي: ٢ / ٢٤٣.

التقية أكثر من أيّ قوم، ولمّا كانت الشيعة تختلف عن الطوائف المخالفة لها في قسم مهمّ من الاعتقادات في أُصول الدين، وفي كثير من الأحكام الفقهيّة، والمخالفة تستجلب بالطبع رقابة، وتصدّقه التجارب، لذلك أضحت شيعة الأئمة من آل البيت مضطرة في أكثر الأحيان إلى كتمان ما تختصّ به من عادة أو عقيدة أو فتوى أو كتاب أو غير ذلك، تبتغي بهذا الكتمان صيانة النفس والنفيس، والمحافظة على الوداد والأُخوّة مع سائر إخوانهم المسلمين، لئلا تنشق عصا الطاعة، ولكي لا يحسّ الكفار بوجود اختلاف ما في المجتمع الإسلامي، فيوسع الخلاف بين الأُمّة المحمّدية.

لهذه الغايات النزيهة كانت الشيعة تستعمل التقيّة وتحافظ على وفاقها في الظواهر مع الطوائف الأُخرى، متّبعة في ذلك سيرة الأئمة من آل‌محمّد وأحكامهم الصارمة حول وجوب التقية من قبيل: «**التقية ديني ودين آبائي**»، إذ أنّ دين الله يمشي على سنّة التقية لمسلوبي الحرية، دلّت على ذلك آيات من القرآن العظيم[1].

روي عن صادق آل البيت عليهم السلام في الأثر الصحيح: «**التقية ديني ودين آبائي**» و «**من لا تقية له لا دين له**» وكذلك هي.

لقد كانت التقية شعاراً لآل البيت عليهم السلام دفعاً للضرر عنهم، وعن أتباعهم، وحقناً لدمائهم، واستصلاحاً لحال المسلمين، وجمعاً لكلمتهم، ولمّاً لشعثهم، وما زالت سمة تُعرف بها الإمامية دون غيرها من الطوائف والأُمم. وكلّ إنسان إذا أحسّ بالخطر على نفسه، أو ماله بسبب نشر معتقده، أو التظاهر به لابدّ

---

١. غافر: ٢٨، النحل: ١٠٦.

أن يتكتّم ويتّقي مواضع الخطر. وهذا أمر تقتضيه فطرة العقول.

ومن المعلوم أنّ الإمامية وأئمتهم لاقوا من ضروب المحن، وصنوف الضيق على حرّياتهم في جميع العهود ما لم تلاقه أيّة طائفة، أو أُمّة أُخرى، فاضطرّوا في أكثر عهودهم إلى استعمال التقية في تعاملهم مع المخالفين لهم، وترك مظاهرتهم، وستر عقائدهم، وأعمالهم المختصّة بهم عنهم، لما كان يعقب ذلك من الضرر في الدنيا.

ولهذا السبب امتازوا بالتقية وعرفوا بها دون سواهم.

وللتقية أحكام من حيث وجوبها وعدم وجوبها، بحسب اختلاف مواقع خوف الضرر، مذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهيّة.[1]

حدّ التقيّة

قد تعرّفت على مفهوم التقية وغايتها، ودليلها، وبقي الكلام في تبيين حدودها، فنقول:

عرفت الشيعة بالتقية وأنّهم يتّقون في أقوالهم وأفعالهم، فصار ذلك مبدأ لوهم عالق بأذهان بعض السطحيين والمغالطين، فقالوا: بما أنّ التقية من مبادئ التشيّع فلا يصحّ الاعتماد على كلّ ما يقولون ويكتبون وينشرون؛ إذ من المحتمل جداً أن تكون هذه الكتب دعاياتٍ والواقع عندهم غيرها. هذا ما نسمعه منهم مرّة بعد مرّة، ويكرّره الكاتب الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» في كتبه السقيمة التي يتحامل بها على الشيعة.

ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقية إنّما هو في حدود

---

١. مجلّة المرشد: ٣/ ٢٥٢، ٢٥٣كما في تعليقة أوائل المقالات: ٩٦.

القضايا الشخصية الجزئية عند وجود الخوف على النفس والنفيس، فإذا دلّت القرائن على أنّ في إظهار العقيدة أو تطبيق العمل على مذهب أهل البيت يحتمل أن يدفع بـالمؤمن إلى الضرر يصبح هذا المورد من مواردها، ويحكم العقل والشرع بلزوم الاتّقاء حتّى يصون بـذلك نفسه ونفيسه عن الخطر. وأمّا الأُمور الكلّية الخارجة عن إطار الخوف فلا تتصوّر فيها التقيّة، والكتب المنتشرة من جانب الشيعة داخلة في هذا النوع الأخير؛ إذ لا خوف هناك حتّى يكتب خلاف ما يعتقد، حيث لم يكن هناك لزوم للكتابة أصلاً في هذه الحال، فله أن يسكت ولا يكتب شيئاً.

فما يدّعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعيات ناشئ عن عدم معرفتهم بـحقيقة التقيّة عند الشيعة.

والحاصل: أنّ الشيعة إنّما كانت تتّقي في عصر لم تكن لهم دولة تحميهم، ولا قدرة ولا منعة تدفع عنهم الأخطار. وأمّا هذه الأعصار فلا مسوّغ ولا مبرر للتقيّة إلّا في موارد خاصة.

إنّ الشيعة ـ وكما ذكرنا ـ لم تلجأ إلى التقية إلّا بعد أن اضطرّت إلى ذلك، وهو حقّ لا أعتقد أن يخالفها فيه أحد ينظر إلى الأُمور بلبّه لا بعواطفه، إلّا أنّ من الثوابت الصحيحة بقاء هذه التقيّة ـ إلّا في حدود ضيّقة ـ تنحصر في مستوى الفتاوى، ولم تترجـم إلّا قـليلاً عـلى المستوى العملي، بل كانوا عملياً من أكثر الناس تضحية، وبوسع كلّ باحث أن يرجع إلى مواقف رجال الشيعة مع معاوية وغيره من الحكام الأُمويين، والحكّام العباسيين، أمثال حجر بن عدي، وميثم التمار، ورشيد الهجري، وكميل بن زياد، ومئات غيرهم، وكمواقف العلويين على امتداد التاريخ وثوراتهم المتتالية.

التقية المحرّمة

إنّ التقية تنقسم حسب الأحكام الخمسة، فكما أنّها تجب لحفظ النفوس والأعراض والأموال، فإنّها تحرم إذا ترتّب عليها مفسدة أعظم، كهدم الدين وخفاء الحقيقة على الأجيال الآتية، وتسلّط الأعداء على شؤون المسلمين وحرماتهم ومقدّساتهم، ولأجل ذلك ترى أنّ كثيراً من أكابر الشيعة رفضوا التقيّة في بعض الأحيان وقدّموا أنفسهم وأرواحهم أضاحي من أجل الدين، فللتقيّة مواضع معيّنة، كما أنّ للقسم المحرّم منها مواضع خاصّة أيضاً.

إنّ التقية في جوهرها كتم ما يحذر من إظهاره حتّى يزول الخطر، فهي أفضل السبل للخلاص من البطش، ولكن ذلك لا يعني أنّ الشيعي جبان خائر العزيمة، خائف متردّد الخطوات يملأ حناياه الذلّ، كلّا!! إنّ للتقية حدوداً لا تتعدّاها، فكما هي واجبة في حين، هي حرام في حين آخر، فالتقيّة أمام الحاكم الجائر كيزيد بن معاوية مثلاً محرّمة؛ إذ فيها الذلّ والهوان ونسيان المثل والرجوع إلى الوراء، فليست التقيّة في جوازها ومنعها تابعة للقوّة والضعف، وإنّما تحدّدها جوازاً ومنعاً مصالح الإسلام والمسلمين.

إنّ للإمام الخميني ـ قدّس الله سرّه ـ كلاماً في المقام ننقله بنصّه حتّى يقف القارئ على أنّ للتقية أحكاماً خاصة وربّما تحرم لمصالح عالية. قال:

تحرم التقية في بعض المحرّمات والواجبات التي تمثّل في نظر الشارع والمتشرّعة مكانة بالغة، مثل هدم الكعبة، والمشاهد المشرّفة، والردّ على الإسلام والقرآن والتفسير بما يضرّ المذهب ويطابق الإلحاد وغيرها من

عظائم المحرمات، ولا تعمّها أدلّة التقية ولا الاضطرار ولا الإكراه.

وتدلّ على ذلك معتبرة مسعدة بن صدقة وفيها: «**فكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية ممّا لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنّه جائز**».[١]

ومن هذا الباب ما إذا كان المتّقي ممّن له شأن وأهمية في نظر الخلق، بحيث يكون ارتكابه لبعض المحرّمات تقيّة أو تركه لبعض الواجبات كذلك ممّا يعدّ موهناً للمذهب وهاتكاً لحرمه، كما لو أُكره على شرب المسكر والزنا مثلاً؛ فإنّ جواز التقية في مثله متمسكاً بحكومة دليل الرفع[٢] وأدلّة التقية مشكل، بل ممنوع، وأولى من ذلك كلّه في عدم جواز التقية فيه ما لو كان أصل من أُصول الإسلام أو المذهب أو ضروري من ضروريات الدين في معرض الزوال والهدم والتغيير، كما لو أراد المنحرفون الطغاة تغيير أحكام الإرث والطلاق والصلاة والحجّ وغيرها من أُصول الأحكام فضلاً عن أُصول الدين أو المذهب، فإنّ التقية في مثلها غير جائزة، ضرورة أنّ تشريعها لبقاء المذهب وحفظ الأُصول وجمع شتات المسلمين لإقامة الدين وأُصوله، فإذا بلغ الأمر إلى هدمها فلا تجوز التقية، وهو مع وضوحه يظهر من الموثقة المتقدّمة.[٣]

وهكذا فقد بيّنا للجميع الأبعاد الحقيقية والواقعية للتقية، وخرجنا بالنتائج التالية:

١ ـ إنّ التقية أصل قرآني مدعم بالسنّة النبوية، وقد استعملها في

---

١. الوسائل: ١١، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٢٥ ح ٦.

٢. قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أُمّتي ما اضطرّوا إليه وما استكرهوا عليه».

٣. الإمام الخميني، الرسائل: ١٧٧ ـ ١٧٨.

عصر الرسالة من ابتلي بها من الصحابة لصيانة نفسه، فلم يعارضه الرسول، بل أيّده بالنصّ القرآني، كما في قضية عمّار بن ياسر؛ حيث أمره ﷺ بالعودة إذا عادوا.

٢ ـ إنّ التقية بمعنى تأليف جماعات سرّية لغاية التخريب والهدم، مرفوضة عند المسلمين عامّة والشيعة خاصّة، وهو لا يمتّ للتقية المتبنّاة من قبل الشيعة بصلة.

٣ ـ إنّ المفسرين في كتبهم التفسيرية عندما تعرّضوا لتفسير الآيات الواردة في التقية اتفقوا على ما ذهبت إليه الشيعة من إباحتها للتقية.

٤ ـ إنّ التقية لا تختصّ بالاتقاء من الكافر، بل تعمّ الاتّقاء من المسلم المخالف، الذي يريد السوء والبطش بأخيه.

٥ ـ إنّ التقية تنقسم حسب انقسام الأحكام إلى أقسام خمسة، فبينما هي واجبة في موضع، فهي محرمة في موضع آخر.

٦ ـ إنّ مجال التقية لا يتجاوز القضايا الشخصية، وهي فيما إذا كان الخوف قائماً، وأمّا إذا ارتفع الخوف والضغط، فلا موضع للتقية لغاية الصيانة.

وفي الختام نقول:

نفترض أنّ التقية جريمة يرتكبها المتّقي لصيانة دمه وعرضه وماله، ولكنّها في الحقيقة ترجع إلى السبب الذي يفرض التقيّة على الشيعي المسلم ويدفعه إلى أن يتظاهر بشيء من القول والفعل الذي لا يعتقد به، فعلى من يعيب التقية للمسلم المضطهد، أن يفسح له الحرية في مجال الحياة ويتركه بحاله، وأقصى ما يصحّ في منطق العقل، أن يسأله عن دليل عقيدته ومصدر عمله؛

فإن كان على حجّة بيّنة يتبعه، وإن كان على خلافها يعذره في اجتهاده وجهاده العلمي والفكري.

نحن ندعو المسلمين للتأمّل في الدواعي التي دفعت بالشيعة إلى التقية، وأن يعملوا قدر الإمكان على فسح المجال لإخوانهم في الدين؛ فإنّ لكلّ فقيه مسلم رأيه ونظره، وجهده وطاقته.

إنّ الشيعة يقتفون أثر أئمة أهل البيت في العقيدة والشريعة، ويرون رأيهم؛ لأنّهم هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأحد الثقلين اللّذين أمر الرسولﷺ بالتمسّك بهما في مجال العقيدة والشريعة، وهذه عقائدهم لا تخفى على أحد، وهي حجّة على الجميع.

نسأل الله سبحانه أن يصون دماء المسلمين وأعراضهم عن تعرّض أيّ متعرّض، ويوحّد صفوفهم، ويؤلّف بين قلوبهم، ويجمع شملهم، ويجعلهم صفّاً واحداً في وجه الأعداء، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

المسألة الخامسة:

البداء عند الشيعة الإمامية

إنّ من العقائد الثابتة عند الشيعة الإمامية، هو القول بالبداء، ومن الكلمات الدارجة بين علمائهم أنّ النسخ والبداء صنوان، غير أنّ الأوّل في التشريع، والثاني في التكوين، وقد اشتهرت بالقول به كاشتهارها بالقول بالتقية وجواز متعة النساء. وصار القول بهذه الأُمور الثلاثة من خصائصهم وقد أنكرت عليهم السنّة أشد الإنكار خصوصاً في مسألة البداء، ولكنّهم لو كانوا واقفين على مراد الشيعة من تجويز البداء على الله لتوقّفوا عن الاستنكار، ولأعلنوا الوفاق، وأقول عن جدّ: لو أُتيحت الفرصة لعلماء الفريقين للبحث عن النقاط الخلافية بعيداً عن التعصّب والتشنّج لتجلّى الحقّ بأجلى مظاهره، ولأقرّوا بصحّة مقالة الشيعة، غير أنّ تلك أُمنية لا تتحقّق إلاّ في فترات خاصة، وقد سألني أحد علماء أهل السنّة عن حقيقة البداء فأجبته بإجمال ما أُفصّله في هذا المقام، فتعجّب عن إتقان معناه، غير أنّه زعم أنّ ما ذكرته نظرية شخصية لا صلة لها بنظرية الإمامية في البداء، فطلب منّي كتاباً لقدماء علماء الشيعة، فدفعت إليه أوائل المقالات، وشرح عقائد الصدوق لشيخ الأُمّة محمّد بن النعمان المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) فقرأهما بدقة، وجاء بالكتاب بعد أيام وقال: لو كان معنى البداء هو الذي يذكره صاحب الكتاب فهو من صميم عقيدة أهل السنّة ولا يخالفون الشيعة في هذا المبدأ أبداً.

ولتوضيح حقيقة البداء نأتي بمقدمات:

الأُولى: اتّفقت الشيعة على أنّه سبحانه عالم بالحوادث كلّها غابرها وحاضرها، ومستقبلها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا يتصوّر فيه الظهور بعد الخفاء، ولا العلم بعد الجهل، بل الأشياء دقيقها وجليلها، حاضرة لديه، ويدلّ عليه الكتاب والسنّة المروية عن طريق أئمّة أهل البيت ـ مضافاً إلى البراهين الفلسفية المقرّرة في محلّها ـ.

أمّا من الكتاب:

فقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الله لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَخْفَىٰ عَلىٰ الله مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**﴾[٢].

وقوله سبحانه: ﴿**إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليماً**﴾[٣] كيف وهو محيط بالعالم صغيره وكبيره، مادّيه ومجرّده، والأشياء كلّها قائمة به قياماً قيّومياً كقيام المعنى الحرفي بالاسمي والرابطي بالطرفين، ويكفي في توضيح ذلك قوله سبحانه: ﴿**مَا أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الله يَسيرٌ**﴾[٢].

وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلّا عَلَىٰ الله رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبين**﴾[٥].

---

١. آل عمران: ٥.
٢. إبراهيم: ٣٨.
٣. الأحزاب: ٥٤.
٢. الحديد: ٢٢.
٥. هود: ٦.

وأمّا الأخبار فنكتفي بالقليل منها:

قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء**».(١)

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**كلّ سرّ عندك علانية، وكلّ غيب عندك شهادة**».(٢)

قال عليه السلام: «**لا يعزب عنه عدد قطر الماء، ولا نجوم السماء، ولا سوافي الريح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا، ولا مقيل الذرّ في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق، وخفيّ طرف الأحداق**».(٣)

وقال الصادق عليه السلام في تفسير قوله: ﴿**يمحوا الله ما يشاءُ ويثبتُ وعندَهُ أُمُّ الكتاب**﴾(٤): «**فكل أمر يريده الله، فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلّا وقد كان في علمه، إنّ الله لا يبدو له من جهل**».(٥)

وقال عليه السلام: «**من زعم أنّ الله عزّ وجلّ يبدو له من شيء لم يعلمه أمس؛ فابرأوا منه**».(٦)

إلى غير ذلك من الروايات التي تدلّ على إحاطة علمه بكلّ شيء قبل خلقه وحينه وبعده، وأنّه لا يخفى عليه شيء أبداً.(٧)

---

١. الكافي: ١ / ١٠٧، باب صفات الذات، الحديث ٤.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥، طبعة عبده.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٧١.
٤. الرعد: ٣٩.
٥. البحار: ٤/ ١١١ باب البداء، الحديث ٣٠؛ البرهان: ٢ / ٣٠٠.
٦. المصدر نفسه.
٧. للاطّلاع على المزيد من الروايات حول علمه تعالى أُنظر البحار: ٤/ ١٢١.

وأمّا العقل فقد دلّ على تنزّهه من وصمة الحدوث والتغيير، وأنّه تقدّست أسماؤه أعلى من أن يقع معرضاً للحوادث والتغييرات، ولأجل ذلك ذهبوا إلى امتناع البداء عليه ـ بمعنى الظهور بعد الخفاء والعلم بعد الجهل ـ لاستلزامه كون ذاته محلّاً للتغيّر والتبدّل، المستلزم للتركيب والحدوث، إلى غير ذلك ممّا يستحيل عليه سبحانه.

فالآيات وكذلك الأحاديث المروية عن أئمّة الشيعة عليهم السلام تشهد على علمه الذي لا يشوبه جهل، وعلى سعته لكلّ شيء قبل الخلق وبعده، وأنّه يستحيل عليه الظهور بعد الخفاء، والعلم بعد الجهل.

وعليه فمن نسب إلى الشيعة الإمامية ما يستشمّ منه خلاف ما دلّت عليه الآيات والأحاديث فقد افترى كذباً ينشأ من الجهل بعقائد الشيعة، أو التزلّف إلى حكّام العصر الحاقدين عليهم أو التعصّب المقيت.

وبذلك يعلم بطلان ما قاله الرازي في تفسيره عند البحث عن آية المحو والإثبات، حيث يقول: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئاً ثمّ يظهر له أنّ الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسّكوا فيه بقوله: ﴿**يمحوا الله ما يشاء ويثبت**﴾، ثمّ قال: إنّ هذا باطل؛ لأنّ علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغيّر والتبدّل فيه باطلاً.[1]

وما حكاه الرازي عن «الرافضة» كاشف عن جهله بعقيدة الشيعة، وإنّما سمعه عن بعض الكذّابين الأفّاكين الذين يفتعلون الكذب لغايات فاسدة، وقد قبله من دون إمعان ودقّة، مع أنّ موطنه ومسقط رأسه بلدة (ري) التي كانت

---

١. تفسير الرازي: ٤/ ٢١٦ تفسير سورة الرعد.

آنذاك مزدحم الشيعة ومركزهم، وكان الشيخ محمود بن عليّ بن الحسن سديد الدين الحمصي الرازي ـ علّامة زمانه في الأُصولين ـ معاصراً ومواطناً للرازي وهو مؤلّف كتاب «المنقذ من التقليد والمرشد إلى التوحيد»[١]، ولو كان الفخر الرازي رجلاً منصفاً لرجع إليه في تبيين عقائد الشيعة، ولما هجم عليهم بسباب مقذع، وربّما ينقل عنه بعض الكلمات في تفسيره.

وليس الرازي فريداً في التقوُّل في هذا المجال، بل سبقه البلخي (٣١٩هـ) في هذه النسبة[٢]، ونقله الشيخ الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ)[٣] ونقله أبو الحسن النوبختي في فرق الشيعة عن بعض فرق الزيدية[٤].

الثانية: كما دلّت الآيات والأحاديث[٥] على أنّه سبحانه لم يفرغ من أمر الخلق والإيجاد، والتدبير والتربية، دلّت على أنّ مصير العباد يتغيّر، بحسن أفعالهم وصلاح أعمالهم، من الصدقة والإحسان وصلة الأرحام وبرّ الوالدين، والاستغفار والتوبة وشكر النعمة وأداء حقّها، إلى غير ذلك من الأُمور التي تغيّر المصير وتبدّل القضاء، وتفرّج الهموم والغموم، وتزيد في الأرزاق، والأمطار، والأعمار، والآجال، كما أنّ لمحرَّم الأعمال وسيّئها من قبيل البخل والتقصير، وسوء الخلق، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، والطيش، وعدم الإنابة، وكفران النعمة، وما شابهها تأثيراً في تغيير مصيرهم بعكس ذلك من

---

١. الثقات العيون في سادس القرون: ٢٩٥ وطبع الكتاب أخيراً.
٢. التبيان: ١ / ١٣.
٣. مقالات الإسلاميين: ١٠٧.
٤. فرق الشيعة: ٧٦، نقله عن سليمان بن جرير الذي كفّره أهل السنّة أيضاً لتكفير عثمان، فهل يصحّ الاعتماد على قول مثله؟
٥. البحار: ٤ / ١٠٤ ح١٧ وغيره.

إكثار الهموم، والقلق، ونقصان الأرزاق، والأمطار، والأعمار، والآجال، وما شاكلها.

فليس للإنسان مصير واحد، ومقدّر فارد؛ يصيبه على وجه القطع والبتّ، ويناله، شاء أو لم يشأ، بل المصير أو المقدر يتغيّر ويتبدّل بالأعمال الصالحة والطالحة وشكر النعمة وكفرانها، وبالإيمان والتقوى، والكفر والفسوق. وهذا ممّا لا يمكن ـ لمن له أدنى علاقة بالكتاب والسنّة ـ إنكاره أو ادّعاء جهله.

ونحن نأتي في المقام بقليل من كثير ممّا يدلّ على ذلك من الآيات والروايات.

البداء في القرآن الكريم

منها: قوله سبحانه حاكياً عن شيخ الأنبياء: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً**﴾[1].

ترى أنّه عليه السلام يجعل الاستغفار علّة مؤثّرة في نزول المطر، وكثرة الأموال والبنين، وجريان الأنهار إلى غير ذلك، وأمّا بيان كيفيّة تأثير عمل العبد في الكائنات الطبيعية، فيطلب من محلّه.

وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[3].

---

١. نوح: ١٠ ـ ١٢.　　٢. الرعد: ١١.　　٣. الأنفال: ٥٣.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لايَحْتَسِبْ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾[٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾[٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمّا

---

١. الأعراف: ٩٦. ٢. الطلاق: ٣. ٣. إبراهيم: ٧.
٤. الأنبياء: ٧٦. ٥. الأنبياء: ٨٣. ٦. الأنفال: ٣٣.
٧. الصافات: ١٤٣ـ١٤٦. ٨. الأنبياء: ٨٨.

آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيٰاةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إلىٰ حِينٍ﴾[1].

وهذه الآيات بالإضافة إلى كثير من الأحاديث ـ التي سيوافيك بيان نزر منها ـ تعرب عن أنّ الأعمال الصالحة مؤثّرة في مصير الإنسان، وأنّ الإنسان بعمله يؤثّر في تحديد قدره وتبديل القضاء، وليس هناك مقدّر محتوم فيما يرجع إلى أفعاله الاختيارية حتّى يكون العبد في مقابله مكتوف الأيدي والأرجل.

البداء في الروايات

وأمّا الأحاديث التي تدلّ على هذا المطلب فكثيرة جدّاً مبعثرة في كتب الحديث تحت مواضيع مختلفة مثل الصدقة والاستغفار والدعاء وصلة الرحم، وما أشبه ذلك، وسنذكر فيما يلي نماذج مختلفة من الأحاديث الدالّة على هذه المطالب:

ألف ـ الصدقة وأثرها في دفع البلاء:

روى الصدوق في «الخصال» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر من صدقة السرِّ؛ فإنّها تُطفئ غضب الربِّ جلّ جلاله**».

وروى في «عيون الأخبار» عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**باكروا بالصدقة، فمن باكر بها لم يتخطّاها البلاء**».

---

١. يونس: ٩٨. وقد استشهد الإمام أمير المؤمنين ببعض هذه الآيات عند الاستسقاء، فقال: «إنَّ الله يبتلي عبادَهُ عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات...» نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣.

وروى الشيخ الطوسي في أماليه عن الباقر عليه السلام قال: «**قال أميرالمؤمنين عليه السلام: أفضل ما توسّل به المتوسّلون الإيمان بالله، وصدقة السرِّ؛ فإنّها تذهب الخطيئة، وتطفئ غضب الرب، وصنائعُ المعروف؛ فإنّها تدفع ميتة السوء، وتقي مصارع الهوان**».

وروى الصدوق في «ثواب الأعمال» عن الصادق عليه السلام: قال: «**الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء**».

إلى غير ذلك من الروايات المتعدّدة والتي يضيق المجال بذكرها، وللمستزيد الرجوع إلى كتاب «بحار الأنوار» للعلّامة المجلسي ضمن أبواب الزكاة والصدقة وغيرها.[1]

ب ـ أثر الاستغفار في الرزق:

روى الصدوق في الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**الاستغفار يزيد في الرزق**».

وروى أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أكثروا الاستغفار؛ تجلبوا الرزق**».[2]

ج ـ الدعاء وآثاره:

روى الحميري في «قرب الإسناد» عن الصادق عليه السلام: «**إنّ الدعاء**

---

١. بحار الأنوار: ٩٣ / ١٧٦، ١٧٧، ١٨١، الباب ٢١، الأحاديث ٤، ٧، ٩، ٢٦ وروى هناك أحاديث أُخرى.

٢. المصدر نفسه كتاب الذكر والدعاء باب الاستغفار وفضله وأنواعه، الحديث ٤ـ١٧ (وروى أحاديث من الفريقين).

يـردّ القضـاء، وإنّ المؤمن ليأتي الذنب فيحرم به الرزق».[١]

وروى أيضاً عنه عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا أبـواب البلاء بالدعاء**».

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ادفعوا أمـواج البـلاء عـنكم بـالدعاء قـبل ورود البلاء**».[٢]

وقد عقد الكليني في «الكافي» باباً أسماه «إنّ الدعاء يردّ البلاء والقـضاء» ومـن جـملة أحاديث هذا الباب: روي عن حمّاد بن عثمان قال: سمعته يقول: «**إنّ الدعاء يردّ القضاء؛ ينقضه كما ينقض السلك وقد أُبرم إبراماً**».[٣]

وروى عن أبي الحسن موسى عليه السلام: «**عليكم بالدعاء؛ فإنّ الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضى ولم يبق إلّا إمضاؤه، فإذا دعي الله عزّ وجلّ وسئل، صرف البلاء صرفة**».[٤]

وأمّا من طرق العامّة فقد أخرج الحاكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا ينفع الحذر عن القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر».

قال: وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف، وابن أبي الدنيا في الدعاء عن ابـن مسـعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ما دعا عبد بهذه الدعوات إلّا وسّع الله له في

---

١. قرب الاسناد: ٣٢ برقم ١٠٤ ط مؤسسة آل البيت ـ قم.
٢. البحار: ٩٣ / ٢٨٩ كتاب الذكر والدعاء، أبواب الدعاء، الباب ١٦ /ح ٢، ٣، ٥(وروى أحاديث من الفريقين).
٣. الكافي: ٢ / ٤٦٩ باب إنّ الدعاء يرد القضاء، الحديث ١.
٤. الكافي: ٢ / ٤٧٠ باب إنّ الدعاء يرد القضاء، الحديث ٨.

معيشته: «ياذا المنّ ولا يمنّ عليه، ياذا الجلال والإكرام، ياذا الطول، لا إلٰه إلّا أنت ظهر اللّاجين وجار المستجيرين، ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني عندك في أُمّ الكتاب شقياً فامح عنّي اسم الشقاء وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنت كتبتني عندك في أُمّ الكتاب محروماً، مقتّراً على رزقي، فامح حرماني، ويسّر رزقي، وأثبتني عندك سعيداً موفّقاً للخير، فإنّك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿**يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب**﴾.[١]

وروى أيضاً في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿**يسأَلُهُ من في السمٰوات**﴾ ما يقرب من هذا، فلاحظ.[٢]

د ـ أثر صلة الرحم:

روى الكليني عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «**يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيّرها الله ثلاثين سنة، ويفعل الله ما يشاء**».[٣]

وروى أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**صلة الأرحام تزكّي الأعمال، وتنمي الأموال وتدفع البلوى، وتيسّر الحساب، وتنسئ في الآجال**».[٤]

ومن طرق العامّة وردت روايات متعدّدة في هذا المنحى، نكتفي منها بما رواه السيوطي في «الدر المنثور» عن عليّ رضي الله عنه: أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه

---

١. الدر المنثور: ٤/ ٦٦. ٢. المصدر نفسه: ٦/ ١٤٣.
٣. الكافي: ٢ / ١٤٩، باب صلة الرحم، الحديث ٣.
٤. الكافي: ٢ / ١٥٠، باب صلة الرحم، الحديث ٤. ولاحظ البحار: ٤ / ١٢١، باب البداء، الحديث ٦٦.

الآية: ﴿**يَمْحُوا اللهُ**﴾ فقال له: «**لأقرّن عينيك بتفسيرها، ولأقرّنَّ عين أُمّتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف يحوّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء**».

وكما أنّ للأعمال الصالحة أثراً في المصير وحسن العاقبة، وشمول الرحمة وزيادة العمر وسعة الرزق، كذلك الأعمال الطالحة والسيّئات لها من التأثير المعاكس الذي لا يخفى على أحد في مسيرة حياة الإنسان.

ويدلّ على ذلك من الآيات قوله سبحانه:

﴿**وضَـرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوفِ بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَـلَى قَـوْمٍ حَـتَّىٰ يُـغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[2].

وقـال سـبحانه: ﴿**وَلَـقَدْ أَخَـذْنَا آلَ فِـرْعَوْنَ بِـالسِّنِينَ وَنَـقْصٍ مِـنَ الَّـثمَراتِ لَـعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾[3].

أمّا الروايات في ذلك فحدّث عنها ولاحرج منها ما روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عندما قال في خطبة له: «**أعوذ بالله من الذنوب التي تـعجّل الفـناء**» فـقام إليـه عـبد الله بـن الكـوّاء اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين أوَ تكون ذنوب تعجّل الفناء؟ فـقال: «**نـعم ويـلك! قـطيعة الرحم**».

---

١. النحل: ١١٢. ٢. الأنفال: ٥٣. ٣. الأعراف: ١٣٠.

وقال أيضاً: «**إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار**».[١]

وقد وردت في الآثار الوضعية للأعمال روايات يطول الكلام بنقلها. فلاحظ ما ورد في الزنا من أنّ فيه ستّ خصال ثلاث منها في الدنيا وثلاث منها في الآخرة، أمّا التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجّل الفناء ويقطع الرزق.[٢]

وأيضاً ما ورد في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل ما روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام من أنّه قال: «**لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو لتستعملنّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**».[٣]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّهم لمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربّانيون والأحبار نزلت بهم العقوبات**».[٤]

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تزال أُمّتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البرّ، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء**»[٥] إلى غير ذلك من درر الكلمات التي نقلت عن معادنها.

فقد تحصّل ممّا ذكرنا:

أوّلاً: أنّ علمه سبحانه يعمّ كلّ الأشياء؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

---

١. الكافي: ٢ / ٣٤٧ـ ٣٤٨، كتاب الإيمان والكفر، باب قطيعة الرحم، الحديث ٧ و ٨.
٢. سفينة البحار: ١ / ٥٦٠ مادة (زنا).
٣. الوسائل: ١١ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب ١، الحديث ٤.
٤. المصدر نفسه، الحديث ٧.
٥. المصدر نفسه، الحديث ١٨.

وثانياً: أنّه سبحانه كلّ يوم هو في شأن.

وثالثاً: أنّ لأفعال العباد تأثيراً في حسن العاقبة وسوئها، ونزول الرحمة والبركة، أو العقاب والنقمة.

إذا وقفت على هذه المقدّمات الثلاث فاعلم: أنّه يقع الكلام في البداء في مقامين:

١ ـ البداء في مقام الثبوت: أي تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة.

٢ ـ البداء في مقام الإثبات: أي الإخبار عن تحقّق الشيء علماً بالمقتضي مع خفاء المانع.

البداء في مقام الثبوت

إنّ حقيقة البداء أنّه سبحانه ـ على خلاف ما اعتقده اليهود والنصارى في حقّه من فراغه عن أمر الخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، والتوسيع والتقدير في الرزق، والتعمير والتنقيص، إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى الكون والإنسان ـ هو القائم دائماً بالأمر والتدبير، وهو القيّوم على كلِّ شيء، وكلّ يوم في شأن، وليست يداه مغلولتين، بل يداه مبسوطتان (في كلّ شيء) يمحو ويثبت حسب مشيئته الحكيمة وإرادته النافذة، فهو المتجلّي في كلّ زمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كالخالقية والرازقية، والإحياء والإماتة، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

ومن شعب هذا الأمر، هو أنّه سبحانه: يزيد في الرزق والعمر

وينقص منهما، وينزل الرحمة والبركة، كما ينزل البلاء والنقمة، حسب مشيئته الحكيمة، النافذة، ولا تصدر عنه الأُمور جزافاً واعتباطاً، بل حسب ما تقتضيها حال العباد من حسن الأفعال وقبحها، وصالح الأعمال وطالحها. فربّما يكون الإنسان مكتوباً في الأشقياء، ثمّ يمحى فيكتب من السعداء، أو على العكس بسبب ما يقوم به من أعمال.

وبالجملة: فالبداء في عالم الثبوت مخالف لزعم اليهود والنصارى المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّك طُغْيَاناً وَكُفْراً**﴾[1]، وقد ردَّ سبحانه تلك العقيدة اليهودية الباطلة في هذه الآية كما هو واضح.

ولأجل أنّ يديه سبحانه مبسوطتان، يزيد في الخلق ما يشاء ـ وفي العمر ـ وينقص منه، حسب مشيئته الحكيمة قال سبحانه: ﴿**الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمـٰوات والأَرْضِ... يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**﴾[2].

قال سبحانه: ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاٰتَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلّا فِي كِتابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الله يَسِيرٌ**﴾[3].

وبناء على ذلك فالبداء بهذا المعنى ممّا يشترك فيه كلّ المسلمين، على مذاهبهم المختلفة، من دون اختصاص بالشيعة، فليس أحد من المسلمين ينكر أنّه سبحانه كلّ يوم هو في شأن، وأنّه جلّ وعلا يبدئ ويعيد، ويحيي ويميت،

---

١. المائدة: ٦٤. ٢. فاطر: ١. ٣. فاطر: ١١.

كما أنّه سبحانه يزيد في الرزق والعمر وينقص، إلى غير ذلك حسب المشيئة الحكيمة والمصالح الكامنة في أفعاله.

بحث في قوله تعالى: ﴿يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب﴾:

هذا الأصل ـ الذي يعدّ من المعارف العليا تجاه ما عرف من اليهود، من سيادة القدر على كلّ شيء حتى إرادته سبحانه ـ يستفاد بوضوح من قوله سبحانه: ﴿**يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب**﴾[1]، وهذه الآية هي الأصل في البداء في مقام الثبوت، ويكفي في إيضاح دلالتها، نقل كلمات المحقّقين من المفسّرين، حتّى يقف القارئ على أنّ القول بالبداء بالمعنى الصحيح، ممّا أصفقت عليه الأُمّة.

١ ـ روى الطبري (المتوفّى ٣١٠هـ) في تفسير الآية عن جمع من الصحابة والتابعين أنّهم كانوا يدعون الله سبحانه بتغيير المصير وإخراجهم من الشقاء ـ إن كتب عليهم ـ إلى السعادة، مثلاً كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول وهو يطوف بالكعبة: اللّهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني على الذنبِ [الشقاوة] فامحني وأثبتني في أهل السعادة؛ فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُمّ الكتاب.

وروى نظير هذا الكلام عن ابن مسعود، وابن عبّاس، وشقيق وأبي وائل.[2]

---

١. الرعد: ٣٩.

٢. جامع البيان: ١٣/ ١١٢ـ١١٤.

روي عن ابن زيد أنّه قال في قوله سبحانه: ﴿**يمحوا الله ما يشاء**﴾ بما يُنزِّلُ على الأنبياء، ﴿**ويُثبت**﴾ ما يشاء ممّا ينزله إلى الأنبياء وقال: ﴿**وعنده أُمّ الكتاب**﴾ لايُغيّر ولايُبدَّل».[۱]

۲ ـ قال الزمخشري (المتوفّى ۵۲۸هـ): ﴿**يمحوا الله ما يشاء**﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته أو ينزله غير منسوخ.[۲]

۳ ـ ذكر الطبرسي (۴۷۱ ـ ۵۴۸هـ): لتفسير الآية وجوهاً متقاربة وقال: «الرابع أنّه عامٌّ في كلّ شيء، فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ومن الأجل، ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما.(روى ذلك) عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأبي‌وائل، وقتادة. وأُمّ الكتاب أصل الكتاب الذي أُثبتت فيه الحادثات والكائنات.

وروى أبو قلابَة عن ابن مسعود أنّه كان يقول: اللّهمّ إن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء....[۳]

۴ ـ قال الرازي (المتوفّى ۶۰۸هـ): إنّ في هذه الآية قولين:

القول الأوّل: إنّها عامة في كلّ شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا: إنّ الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر وهو مذهب عمر و ابن مسعود، والقائلون بهذا القول كانوا يدعون

---

۱. جامع البيان: ۱۳/ ۱۱۲ـ۱۱۴.
۲. الكشاف: ۲/ ۱۶۹.
۳. مجمع البيان: ۶/ ۳۹۸.

ويتضرّعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء. وهذا التأويل رواه جابر عن رسول‌الله ﷺ.

والقول الثاني: إنّ هذه الآية خاصّة في بعض الأشقياء دون البعض.

ثمّ قال: فإن قال قائل: ألستم تزعمون أنّ المقادير سابقة قد جفَّ بها القلم وليس الأمر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى، المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضاً مما جفّ به القلم، فلأنّه لايمحو إلّا ما سبق في علمه وقضائه محوه.(١)

٥ ـ قال القرطبي (المتوفّى ٦٧١هـ) ـ بعد نقل القولين وأنّ المحو والإثبات هل يعمّان جميع الأشياء أو يختصّان ببعضها ـ: مثل هذا لايدرك بالرأي والاجتهاد، وإنّما يؤخذ توقيفاً، فإن صحَّ فالقول به يجب أن يوقف عنده، وإلّا فتكون الآية عامّة في جميع الأشياء، وهو الأظهر ـ ثم نقل دعاء عمر بن الخطاب في حال الطواف ودعاء عبدالله بن مسعود ثم قال: روي في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَن سرَّه أن يبسط له في رزقهِ ويُنسَأ له في أثره (أجله) فليصل رحمه**».(٢)

٦ ـ قال ابن كثير (المتوفّى ٧٧٤هـ) بعد نقل قسم من الروايات: ومعنى هذه الروايات أنّ الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء،وقد يُستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليُحْرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه ولايردّ القَدَرُ إلّا بالدعاء، ولايزيد في العمر**

١. تفسير الرازي: ١٠/ ٦٤ـ٦٥.
٢. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٢٩.

إلّا البر» ثم نقل عن ابن عبّاس: «الكتاب كتابان؛ فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت عنده ما يشاء، وعنده أُمّ الكتاب».[١]

٧ ـ روى السيوطي (المتوفّى ٩١١هـ) عن ابن عبّاس في تفسير الآية: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله تعالى وقد سبق له خير حتّى يموت وهو في طاعة الله سبحانه وتعالى. ثمّ نقل ما نقلناه من الدعاء عن جماعة من الصحابة والتابعين.[٢]

٨ ـ ذكر الآلوسي (المتوفّى ١٢٧٠هـ) عند تفسير الآية قسماً من الآثار الواردة حولها وقال: أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ أنّه سأل رسول اللّٰه ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**يمحوا الله ما يشاء...**﴾ الآية فقال له عليه الصلاة والسلام: «**لأقرّنّ عينك بتفسيرها، ولأقرّنّ عين أُمّتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين واصطناع المعروف، محوِّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء**» ثم قال: دفع الإشكال عن استلزام ذلك، بتغيّر علم الله سبحانه، ومن شاء فليراجع.[٣]

٩ ـ قال صديق حسن خان (المتوفّى ١٣٠٧هـ) في تفسير الآية: وظاهر النظم القرآني العموم في كلّ شيء ممّا في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوةٍ أو سعادةٍ أو رزقٍ أو عمرٍ أو خيرٍ أو شرّ ويبدّل هذا بهذا، ويجعل هذا

---

١. تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٢٠.
٢. الدر المنثور: ٤/ ٦٦٠. لاحظ ما نقله في المقام من المأثورات.
٣. روح المعاني: ١٣/ ١١١.

مكان هذا. لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. وإلى هذا ذهب عمر بن الخطّاب وابن مسعود وابن عبّاس وأبو وائل وقتادة والضحّاك وابن جريج وغيرهم....[١]

١٠ ـ قال القاسمي (المتوفّى ١٣٣٢هـ): تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى: ﴿**يمحوا الله ما يشاء ويثبت**﴾ فقالوا: إنّها عامَّة في كلّ شيء كما ـ يقتضيه ظاهر اللفظ ـ قالوا يمحو الله من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر.[٢]

١١ ـ قال المراغي (المتوفّى ١٣٧١هـ) في تفسير الآية: وقد أُثر عن أئمة السلف أقوال لاتناقض، بل هي داخلة فيما سلف. ثم نقل الأقوال بإجمال.[٣]

وهذه الجمل والكلم الدرّية المضيئة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان والمفسّرين؛ تعرب عن الرأي العام بين المسلمين في مجال إمكان تغيير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة، ومنها الدعاء والسؤال، وأنّه ليس كلّ تقدير حتمياً لايغيّر ولايبدّل، وأنّ لله سبحانه لوحين: لوح المحو والإثبات ولوح «أُمّ الكتاب» والذي لايتطرّق التغيير إليه هو الثاني دون الأوّل، وأنّ القول بسيادة القدر على اختيار الإنسان في مجال الطاعة والمعصية؛ قول بالجبر الباطل بالعقل والضرورة ومحكمات الكتاب. ومن جنح إليه لزمه القول بلغوية إرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿**ذلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفروا فَويلٌ لِلَّذينَ كَفروا مِنَ النّار**﴾[٤].

---

١. فتح البيان: ٥/ ١٧١.
٢. المحاسن والتأويل: ٩/ ٣٧٢.
٣. تفسير المراغي: ٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦.
٤. ص: ٢٧.

وكما أنّه سبحانه يداه مبسوطتان، كذلك العبد مختار في أفعاله لا مسيّر، وحرٌّ في تصرّفاته[١] لا مجبور، له أن يغيّر مصيره ومقدَّره بحسن فعله وجودة عمله، ويخرج اسمه من الأشقياء، ويدخله في السعداء، كما أنّ له أن يخرج اسمه من السعداء ويدخله في الأشقياء بسوء عمله.

فالله سبحانه كما يمحو ويثبت في التكوين، فيحيي ويميت، كذلك يمحو مصير العبد ويغيّره حسب ما يغيّر العبد بنفسه (فعله وعمله) لقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٢]، كل ذلك لأجل أنّ يديه مبسوطتان، وأنّ العبد حرٌّ مختار، قادر على تغيير القضاء، وتبديل القدر، بحسن فعله أو سوئه، كما دلّت عليه الآيات والروايات.

وليس في ذلك أيّ محذور ولا مخالفة للعقل ولا الكتاب والسنّة، بل تغيير القضاء بحسن الفعل وتغيير القدر بسوئه، هو أيضاً من قدره وقضائه وسننه التي لا تبديل لها ولا تغيير، فالله سبحانه إذا قدّر لعبده شيئاً وقضى له بأمر، فلم يقدّره ولم يقضِ به على وجه القطع والبتّ، بحيث لا يتغيّر ولا يتبدّل، بل قضى به على وجه خاصّ، وهو أنّ القضاء والقدر يجري عليه، ما لم يغيّر العبد حاله، فإذا غيّر حاله بحسن فعله أو سوئه، يتغيّر القضاء ويتبدّل القدر، ويخلف قضاء وقدر آخر مكانهما الأوّل، وكلّ هذه أيضاً قضاء وقدر منه، كما لا يخفى.

وهذا (البداء في الثبوت) أولى من التسمية بالمحو والإثبات، والتغيير

---

١. لا يخفى أنّ المقصود من أفعال الإنسان التي تثبت اختياره فيها هي الأفعال التي تتعلق بها التكاليف لا الأفعال القهرية التي تصدر من جهازه الهضمي مثلاً.

٢. الرعد: ١١.

والتبديل في الكون وفي مصير الإنسان، غير أنّ المحو والإثبات في الكون بيد الله سبحانه، يتصرّف فيه حسب مشيئته، ولا دخل لإرادة الإنسان وفي صلاح فعله وفساده، وأمّا التغيير في مصير الإنسان فيتوقّف تعلّق المشيئة عليه؛ على كيفية حال العبد وكيفية عمله من حسن أو قبح.

الأثر التربوي للاعتقاد بالبداء:

الاعتقاد بالمحو والإثبات، وأنّ العبد قادر على تغيير مصيره بأفعاله وأعماله، لابدّ من أن يبعث الرجاء في قلب من يريد أن يتطهّر، وينمي نواة الخير الكامنة في نفسه. فتشريع البداء، مثل تشريع قبول التوبة، والشفاعة، وتكفير الصغائر بالاجتناب عن الكبائر، كلّها لأجل بعث الرجاء وإيقاد نوره في قلوب العصاة والعتاة، حتّى لا ييأسوا من روح الله، ولا يتولّوا بتصور أنّهم من الأشقياء وأهل النار قدراً، وأنّه لافائدة من السعي والعمل، فلعلم الإنسان أنّه سبحانه لم يجفّ قلمه في لوح المحو والإثبات، وله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقي من يشاء «وليست مشيئته جزافية غير تابعة لضابطة عقلية» لأنّ العبد لو تاب، وعمل بالفرائض، وتمسّك بالعروة الوثقى، فإنّه يخرج من سلك الأشقياء، ويدخل في صنف السعداء، وبالعكس. وهكذا فإنّ كلّ ما قدّر في حقّه من الموت والمرض والفقر والشقاء يمكن تغييره بالدعاء، والصدقة، وصلة الرحم، وإكرام الوالدين، وغير ذلك، فجميع هذا من باب الرحمة الإلهية لأجل بثّ الأمل في قلب الإنسان، وعلى هذا فالاعتقاد بذلك من ضروريات الكتاب وصريح آياته وأخبار الهداة.

وبهذا يظهر أنّ البداء من المعارف العليا التي اتّفقت عليه كلمة

المسلمين، وإن غفل عن معناه الجمهور (ولو عرفوه لأذعنوا له).

وأمّا اليهود ـ خذلهم الله ـ فقالوا باستحالة تعلّق المشيئة بغير ما جرى عليه القلم، ولأجل ذلك قالوا: يد الله مغلولة عن القبض والبسط، والأخذ والإعطاء، وبعبارة أُخرى: فإنّهم يذهبون إلى أنّ للإنسان مصيراً واحداً لايمكن تغييره ولا تبديله، وأنّه ينال ما قدّر له من الخير والشر.

ولو صحّ ذلك لبطل الدعاء والتضرّع، ولبطل القول بأنّ للأعمال الصالحة وغير الصالحة ممّا عددناها تأثيراً في تغيير مصير الإنسان.

على ضوء هذا البيان نتمكّن من فهم ما جاء في فضيلة البداء وأهميته في الروايات مثل ما روى زرارة، عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام): «**ما عُبد الله عزّ وجلّ بشيء مثل البداء**».[١]

وما روي عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**ما عُظِّم الله عزّ وجلّ بمثل البداء**».[٢]

إذ لولا الإقرار بالبداء بهذا المعنى ما عُرف الله حقّ المعرفة، بل ويبدو سبحانه في نظر العبد (بناء على عقيدة بطلان البداء) أنّه مكتوف الأيدي، لا يقدر على تغيير ما قدّره، ولا محو ما أثبته.

ومن الروايات في هذا المعنى ما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

«**لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه**».[٣]

---

١. البحار: ٤/ ١٠٧، باب البداء، الحديث ١٩، ٢٠.

٢. التوحيد للصدوق: ٣٣٣، باب البداء، الحديث ٢.

٣. الكافي: ١/ ١١٥؛ التوحيد للصدوق: ٣٣٤، باب البداء، الحديث ٧.

وذلك لأنّ الاعتقاد بالبداء نظير الاعتقاد بتأثير التوبة والشفاعة يوجب رجوع العبد عن التمادي في الغيّ والضلالة، والإنابة إلى الصلاح والهداية.

البداء في مقام الإثبات

إذا عرفت ما ذكرنا فاعلم: أنّ المراد من البداء في مقام الإثبات هو وقوع التغير في بعض مظاهر علمه سبحانه؛ فإنّ لعلمه سبحانه مظاهر، منها: ما لا يقبل التغيير، ومنها ما يقبل ذلك.

أمّا الأوّل: فهو المعبّر عنه بـ «اللوح المحفوظ» تارة وبـ «أُمّ الكتاب» أُخرى، قال سبحانه: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ**﴾[3].

فاللوح المحفوظ وأُمّ الكتاب يمكن التعبير عنه بأنّه ذلك الكتاب الذي كتب فيه ما يصيب الإنسان طيلة حياته من بلايا وفتن ونعيم وسرور بشكل لا يمكن أن يتطرّق إليها المحو والإثبات قدر شعرة، ولأجل ذلك لو تمكّن الإنسان أن يتّصل به، لوقف على الحوادث على ما هي عليه بلا خطأ ولا تخلّف.

---

١. البروج: ٢١ ـ ٢٢.
٢. الزخرف: ٤.
٣. الحديد: ٢٢.

أمّا الثاني: فهو لوح المحو والإثبات الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ**﴾[1] فالأحكام الثابتة فيه أحكام معلّقة على وجود شرطها أو عدم مانعها، فالتغيّر فيها لأجل إعواز شرطها أو تحقّق مانعها، فمثلاً يمكن أن يكتب فيه الموت نظراً إلى مقتضياته في الوقت المعين المتّصل بالمقتضيات، إلّا أنّه ربّما يمحى ويؤجل ويكتب بدله توفر الصحّة؛ لفقدان شرط التقدير الأوّل أو طروّ مانع من تأثير المقتضي.

فالتقدير الأوّل يفرض لأجل قياس الحادث إلى مقتضيه، كما أنّ التقدير الثاني يتصوّر بالنسبة إلى جميع أجزاء علّته، فإنّ الشيء إذا قيس إلى مقتضيه ـ الذي يحتاج الصدور منه إلى وجود شرائط وعدم موانع ـ يمكن تقدير وجوده، بالنظر إلى مجموع أجزاء علّته التي منها الشرائط وعدم الموانع، ويقدّر عدمه لفرض عدم وجود شرائطه، وتحقّق موانعه.

إذا علمت ذلك فاعلم: أنّه ربّما يتّصل النبيّ أو الوليّ بلوح المحو والإثبات، فيقف على المقتضي من دون أن يقف على شرطه أو مانعه، فيخبر عن وقوع شيء ما، ولكنّه ربّما لا يتحقّق لأجل عدم تحقّق شرطه أو عدم تحقّق وجود مانعه، وذلك هو البداء في عالم الإثبات.

وإن شئت قلت: إنّ موارد وقوع البداء حسب الإثبات من ثمرات البداء في عالم الثبوت، ولم يرد في الأخبار من هذا القسم من البداء إلّا موارد لا تتجاوز عدد الأصابع[2]، نشير إليه بعد الفراغ عمّا ورد في الذكر الحكيم.

---

١. الرعد: ٣٩.

٢. الدر المنثور: ٥/ ٢٨٠.

تلميحات للبداء في الذكر الحكيم:

ـ قال سبحانه: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلام حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذبَحُكَ فَانظر مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[1].

أخبر إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل عليه السلام بأنّه رأى في المنام أنّه يذبحه، ورؤيا الأنبياء (كما ورد في الحديث) من أقسام الوحي، فكانت رؤياه صادقة حاكية عن حقيقة ثابتة، وهي أمر الله إبراهيم بذبح ولده، وقد تحقّق ذلك الأمر، أي أمر الله سبحانه به.

ولكن قوله: ﴿**إِنِّي أَرى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذبَحُكَ**﴾ يكشف عن أمرين:

أوّلاً: الأمر بذبح الولد أمر تشريعي كما عرفت وقد تحقّق.

ثانياً: الحكاية عن تحقّق ذلك في الواقع الخارجي وأنّ إبراهيم سيمتثل ذلك، والحال أنّه لم يتحقّق لفقدان شرطه وهو عدم النسخ، ويحكي عن كلا الأمرين قوله: ﴿**وفَدَيناهُ بِذِبْحٍ عظيم**﴾.

وعندئذ يطرح هذا السؤال نفسه: بأنّه كيف أخبر خليل الرحمن بشيء من الملاحم والمغيبات، ثمّ لم يتحقّق؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في الأمر الذي أشرنا إليه سابقاً وهو أنّ إبراهيم عليه السلام وقف على المقتضى فأخبر بالمقتضي، ولكنّه لم يقف على ما هو العلّة التامّة، وليس لعلمه هذا مصدر سوى اتّصاله بلوح المحو والإثبات.

---

١. الصافات: ١٠١ ـ ١٠٢.

٢ ـ وأمّا يونس عليه السلام فإنّه أنذر قومه بأنّهم إن لم يؤمنوا فسوف يصيبهم العذاب إلى ثلاثة أيام[١] وما كان قوله تخرّص أو تخويف، بل كان يخبر عن حقيقة يعلم بها، إلّا أنّ هذا الأمر لم يقع كما هو معروف، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنّه عليه السلام وقف على المقتضي ولم يقف على المانع، وهو أنّ القوم سيتوبون عند رؤية العذاب توبة صادقة يعلمها الله تعالى ترفع عنهم العذاب الذي وعدوا به، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿**فَلَوْلا كَانَت قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَمَتَّعْناهُمْ إلى حِين**﴾[٢].

٣ ـ أخبر موسى قومه بأنّه سيغيب عنهم ثلاثين ليلة، كما روي عن ابن عبّاس حيث قال: إنّ موسى قال لقومه: إنّ ربّي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم، فلمّا فصل موسى إلى ربّه زاده الله عشراً، فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله.[٣]

وإلى هذا الأمر يشير قوله سبحانه: ﴿**وَوَاعدْنا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسىٰ لأخيهِ هَارونَ آخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبيلَ المفسِدِينَ**﴾[٤].

فلا شكّ أنّ موسى أُطلع على الخبر الأوّل ولم يطلع على نسخه، وأنّ التوقيت سيزيد، ولا مصدر لعلمه إلّا الاتّصال بلوح المحو والإثبات.

هذه جملة الأخبار التي تحدَّث بها الذكر الحكيم عن أحداث ووقائع كان

---

١. مجمع البيان: ٣/ ١٣٥.
٢. يونس: ٩٨.
٣. مجمع البيان: ٢/ ١١٥.
٤. الأعراف: ١٤٢.

النبيّون عليهم السلام قد أخبروا بحتمية وقوعها على حدّ علمهم، إلّا أنّها لم تتحقّق، وعندها لا مناص من تفسيرها بوقوف أنبياء الله تعالى على المقتضي دون العلّة التامّة.

فعندما يظهر عدم التحقّق يطلق عليه البداء، والمراد به أنّه بدا من الله لنبيّه وللناس ما خفي عليهم، على غرار قوله سبحانه: ﴿**وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1]، فالبداء إذا نسب إلى الله سبحانه فهو بداء منه، وإذا نسب إلى الناس فهو بداء لهم.

وبعبارة أُخرى: البداء من الله هو إظهار ما خفي على الناس، والبداء من الناس بمعنى ظهور ما خفي لهم، وهذا هو الحقّ الصراح الذي لا يرتاب فيه أحد.

تلميحات للبداء في الروايات الشريفة

وأمّا ما ورد في الروايات، فهو بين خمسة أو أزيد بقليل:

١ ـ إنّ المسيح عليه السلام مرّ بقوم مجلبين[2]، فقال: «**ما لهؤلاء**»؟ قيل: يا روح الله فلانة بنت فلانة تهدى إلى فلان في ليلته هذه، فقال: «**يجلبون اليوم ويبكون غداً**»، فقال قائل منهم: ولم يا رسول الله؟ قال: «**لأنّ صاحبتهم ميّتة في ليلتها هذه**»... فلمّا أصبحوا وجدوها على حالها، ليس بها شيء، فقالوا: يا روح الله إنّ التي أخبرتنا أمس أنّها ميّتة لم تمُت. فدخل المسيح دارها فقال: «**ما صنعت**

---

١. الزمر: ٤٧.

٢. أي تعلو منهم أصوات الفرح.

ليلتك هذه»؟ قالت: لم أصنع شيئاً إلّا وكنت أصنعه فيما مضى، إنّه كان يعترينا سائل في كلّ ليلة جمعة فَنُنيله ما يقوته إلى مثلها. فقال المسيح: «**تنحّي عن مجلسك**» فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة، عاضّ على ذنبه، فقال عليه السلام: «**بما صنعتِ، صُرِفَ عنكِ هذا**».(١)

٢ ـ روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: «**مرّ يهودي بالنبيّ صلى الله عليه وآله فقال: السام عليك، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: عليك. فقال أصحابه: إنّما سلّم عليك بالموت فقال: الموت عليك. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: وكذلك رددت. ثمّ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّ هذا اليهودي يعضّه أسود في قفاه فيقتله.**

قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثمّ لم يلبث أن انصرف، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ضعه، فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاضّ على عود، فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلّا حطبي هذا حملته فجئت به وكان معي كعكتان، فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بها دفع الله عنه، قال: إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».(٢)

ولا يمكن لأحدٍ تفسير مضامين الآيات الماضية وهذين الحديثين إلّا عن طريق البداء بالمعنى الذي تعرّفت عليه، وهو اتّصال النبيّ بلوح المحو والإثبات، والوقوف على المقتضي، والإخبار بمقتضاه دون الوقوف على العلّة التامّة.

---

١. بحار الأنوار: ٤/ ٩٤.

٢. بحار الأنوار: ٤/ ١٢١.

٣ ـ روى الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّ الله تعالى عرض على آدم أسماء الأنبياء وأعمارهم، فمرّ بآدم اسم داود النبيّ عليه السلام فإذا عمره في العالم أربعون سنة، فقال آدم: يا ربِّ ما أقل عمر داود وما أكثر عمري، يا ربّ إن أنا زدت داود من عمري ثلاثين سنة، أتثبت ذلك له؟ قال الله: نعم يا آدم، فقال آدم: فإنّي قد زدته من عمري ثلاثين سنة**» قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**فأثبت الله عزّوجلّ لداود في عمره ثلاثين سنة**».[١]

ترى أنّه سبحانه أثبت شيئاً، ثمّ محاه بدعاء نبيّه، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: ﴿**يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب**﴾ فلو أخبر نبيّ الله عن عمر داود بأربعين سنة لم يكن كاذباً في إخباره؛ لأنّه وقف على الإثبات الأوّل، ولم يقف على محوه.

٤ ـ أوحى الله تعالى إلى نبيّ من أنبيائه أن يخبر أحد ملوك عصره بأنّه تعالى متوفّيه يوم كذا، فما كان من ذلك الملك إلّا أن رفع يديه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ربّ أخّرني حتّى يشبَّ طفلي وأقضي أمري، فأوحى الله عزّوجلّ إلى ذلك النبيّ: أنِ ائت فلاناً الملك وأخبره أنّي قد زدت في عمره خمس عشرة سنة.[٢]

٥ ـ روى عمرو بن الحمق، قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام حين ضرب على قرنه، فقال لي: «**يا عمرو إنّي مفارقكم، ثمّ قال: سنة سبعين فيها**

---

١. بحار الأنوار: ٤/ ١٠٢.

٢. بحار الأنوار: ٤/ ١٢١ (وفي رواية أُخرى أنّ ذلك النبيّ هو حزقيل، البحار: ٤/ ١١٢ وذكر مثله في قضية شعيا ص ١١٣).

بلاء» ـ قالها ثلاثاً ـ فقلت: فهل بعد البلاء رخاء؟ فلم يجبني وأُغمي عليه، فبكت أُمّ كلثوم فأفاق... فقلت: بأبي أنت وأُمّي قلتَ: إلى السبعين بلاء، فهل بعد السبعين رخاء؟ قال: «**نعم يا عمرو إنّ بعد البلاء رخاء و﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب﴾**».[1]

هذه جملة ما ورد في البداء في مقام الإثبات، وإن شئت قلت في ثمرات البداء في الثبوت، ولا تجد في الأحاديث الشيعية بداء غير ما ذكرنا، ولو عثر المتتبّع على مورد، فهو نظير ما سبق من الموارد، والتحليل في الجميع واحد.

إذا وقفت على ذلك تدرك بوضوح ضعف مقالة الرازي التي يقول فيها: إنّ أئمّة الرافضة وضعوا مقالتين لشيعتهم، لا يظهر معهما أحد عليهم:

الأوّل: القول بالبداء، فإذا قال: إنّهم سيكون لهم قوّة وشوكة، ثمّ لا يكون الأمر على ما أخبروا، قالوا: بدا لله فيه.[2]

إنّ الذي نقله أئمّة الشيعة هو ما تعرّفت عليه من الروايات، وليس فيها شيء مما نسبه الرازي إليهم، فقد نقلوا قصّة رسول الله مع اليهودي، وقصة المسيح مع العروس، كما نقلوا قصّة عمر داود وعمر الملك، فهل يجد القارئ المنصف شيئاً مما ذكره الرازي؟!

وأمّا ما رواه عمرو بن الحمق فإنّما هو خبر واحد ذيّل كلامه بالآية قائلاً: بأنّ هذا ليس خبراً قطعياً وأنّه في مظانّ المحو والإثبات.

---

١. بحار الأنوار: ٤/ ١١٩ح ٦٠.

٢. نقد المحصل: ٤٢١، نقله عن سليمان بن جرير الزيدي، والأمر الثاني هو التقية كما عرفت.

أفيصحّ لأجل مثله رمي أئمّة الشيعة «بأنّهم وضعوا قاعدتين، وأنّهم كلّما يقولون سيكون لهم قوّة ثمّ لا يكون، قالوا بدا لله تعالى فيه»؟!

وقد سبق الرازي في هذا الزعم أبو القاسم البلخي المعتزلي على ما حكاه شيخنا الطوسي في تبيانه.[1]

تتمّة البحث

ثمّ إنّ إكمال البحث يتوقّف على ذكر أُمور:

الأمر الأوّل:

إنّ البداء بالمعنى المذكور يجب أن يكون على وجه لا يستلزم تكذيب الأنبياء ووحيهم، وذلك بأن تدلّ قرائن على صحّة الإخبار الأوّل كما صحّ الخبر الثاني، وهو ما نراه واضحاً في قصّة يونس وإبراهيم الخليل، فإنّ القوم قد شاهدوا طلائع العذاب فأذعنوا بصحّة خبر يونس، كما أنّ التفدية بذبح عظيم دلّت على صحّة إخبار الخليل، وهكذا وجود الأفعى تحت الثياب أو في جوف حطب اليهودي يدلّان على صحّة إخبار النبيّ الأعظم.

كلّ ذلك يشهد على أنّ الخبر الأوّل كان صحيحاً ومقدّراً، غير أنّ الإنسان يمكن له أن يغيّر مصيره بعمله الصالح أو الطالح كما في غير تلك المقامات.

وبالجملة: يجب أن يكون وقوع البداء مقروناً بما يدلّ على صحة إخبار

---

١. التبيان: ١ / ١٣ ـ ١٤، ط النجف، وقد عرفت بعض المتشدّقين بهذه الكلمة المكذوبة.

النبيّ ﷺ ولا يكون البداء على وجه يعدّ دليلاً على كذبه، ففي هذه الموارد دلّت القرائن على أنّ المخبر كان صادقاً في خبره.

الأمر الثاني:

إنّ البداء لا يتحقّق فيما يتعلّق بنظام النبوّة والولاية والخاتمية والملاحم الغيبية التي تعدّ شعاراً للشريعة، فإذا أخبر المسيح بمجيء نبيّ اسمه أحمد، أو أخبر النبيّ بكونه خاتماً للرسل، أو أنّ الخلافة بعده لوصيّه، أو أنّه يخرج من ولده من يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونظير ذلك، فلا يتحقّق فيه البداء قطعاً؛ لأنّ احتمال البداء فيه ناقض للحكمة، وموجب لضلال العباد، ولو كان احتمال هذا الباب مفتوحاً في تلك المسائل الأُصولية لما وجب على أحد أن يقتفي النبيّ المبشَّر به، ولا يوالي الوصي المنصوص عليه، ولا يتلقّى دين الإسلام خاتماً، ولا ظهور المهدي أمراً مقضيّاً، بحجّة أنّه يمكن أن يقع فيه البداء. ففتح هذا الباب في المعارف والعقائد والأُصول والسنن الإسلامية مخالف للحكمة وموجب لضلالة الناس، وهذا ما يستحيل على الله سبحانه، وإنّما مصبّ البداء هو القضايا الجزئية أو الشخصيّة، كما هو الحال في الأخبار الماضية.

الأمر الثالث:

أنّ إطلاق البداء في هذه الموارد، إنّما هو بالمعنى الذي عرفت، وأنّ حقيقته بداء من الله للناس وإظهار منه، ولو قيل بدا لله، فإنّما هو من باب المشاكلة والمجاز، والقرآن مليء به، فقد نسب الذكر الحكيم إليه سبحانه

المكر وقال: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ الله والله خَيْـرُ الماكِرِينَ**﴾[١] وليست المناقشة في التعبير من دأب المحقّقين، فلو كان أهل السنّة لا يروقهم التعبير عن هذا الأصل بـلفظ البـداء لله، فليغيّـروا التعبير ويعبّـروا عن هذه الحقيقة الناصعة بتعبير يرضيهم.

ولكن الشيعة تبعت النبيّ الأكرمﷺ في هذا المصطلح، وهو أوّل من استعمل تلك اللفظة في حقّه سبحانه، وما يؤكّد ذلك هو ما رواه البخاري في كتاب النبوّة «قصّة بدء الخليقة» وفيها هذه اللفظة التي يستهجنها البعض ويتّهم الشيعة بابتداعها واختلاقها، فقد روى أبو هريرة:

أنّه سمع من رسول اللهﷺ: «**أنّ ثلاثة في بني إسرائيل أبـرص وأقـرع وأعـمى بـدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، فقال: أيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر** ـ هو شكّ في ذلك أنّ الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل وقال الآخر: البقر ـ **فأُعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك الله لك فيها.**

وأتى الأقرع فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عنّي هـذا، قـد قـذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب، وأُعطي شعراً حسناً، قال: فأيّ المال أحب إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: يردّ الله إليّ بصري، فأُبصر

---

١. آل عمران: ٥٤، وهنا آيات أُخر يستدلّ بها على المشاكلة في التعبير عن الحقائق العلوية.

به الناس، قال: فمسحه فردّ الله إليه بصره. قال: فأيّ المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً، فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم.

ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطّعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلّا بالله ثمّ بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ عليه في سفري، فقال له: إنّ الحقوق كثيرة. فقال له: كأنّي أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فأجابه: لقد ورثت لكابر عن كابر! فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، فردّ عليه مثلما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطّعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلّا بالله، ثمّ بك. أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فو الله لا أجحدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك فإنّما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك».[1]

---

١. صحيح البخاري: ٤/ ٢٠٨، كتاب الأنبياء، باب ٥١ حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل.

المسألة السادسة:

الرجعة في الكتاب والسنّة

إنّ فكرة الرجعة التي تحدّثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المرويّة عن أهل بيت الرسالة ممّا يشنّع بها على الشيعة، فكأنَّ من قال بها رأى رأياً يوجب الخروج عن الدين، غير أنّ هؤلاء نسوا أو تناسوا أنّ أوّل من أبدى نظرية الرجعة هو الخليفة عمر بن الخطّاب، فقد أعلن عندما شاعت رحلة النبيّ الأكرمﷺ بأنّه ما مات وليعودنّ فيقطعنّ أيدي وأرجل أقوام...

عن أبي هريرة قال: لمّا توفّي رسول اللهﷺ قام عمر بن الخطّاب، فقال: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول اللهﷺ توفّي، وإنّ رسول اللهﷺ والله ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعنّ رسول اللهﷺ كما رجع موسى، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول اللهﷺ مات[1]!!

ولا يخفى أنّ كلام الخليفة لو كان كلاماً حقيقياً لابدّ أن يُحمل على أنّ النبيّ ما مات موتاً لا رجوع فيه وإنّما يرجع فيقوم بما أخبر عنه الخليفة، ولو أراد من نفي موته أنّه ما زال حيّاً فهو خلاف رأي جميع الصحابة الذين اتّفقوا على موتهﷺ، ولم يكن موت النبيّﷺ أمراً يدركه جميع الناس ولا يدركه الخليفة.

---

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٣٠٥.

إنّ الرجعة بمعنى عود جماعة قليلة إلى الحياة الدنيوية قبل يوم القيامة ثمّ موتهم وحشرهم مجدّداً يوم القيامة ليس شيئاً يضادّ أُصول الإسلام، وليس فيه إنكار لأيّ حكم ضروري، وليس القول برجعتهم إلى الدنيا يلغي بعثهم يوم القيامة، وكيف لا يكون كذلك وقد أخبر سبحانه عن رجوع جماعة إلى الحياة الدنيوية، نظير:

١ ـ إحياء جماعة من بني إسرائيل[١].

٢ ـ إحياء قتيل بني إسرائيل[٢].

٣ ـ موت أُلوف من الناس وبعثهم من جديد[٣].

٤ ـ بعث عزير بعد مائة عام من موته[٤].

٥ ـ إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام[٥].

فلو كان الاعتقاد برجوع بعض الناس إلى الدنيا قبل القيامة أمراً محالاً، فما معنى هذه الآيات الصريحة في رجوع جماعة إليها؟

ولو كان الرجوع إلى الدنيا على وجه الإطلاق تناسخاً فكيف تفسّر هذه الآيات؟

إنّ الاعتقاد بالذكر الحكيم يجرّنا إلى القول بأنّه ليس كلّ رجوع إلى الدنيا تناسخاً، وإنّما التناسخ الباطل عبارة عن رجوع الإنسان إلى الدنيا عن طريق النطفة والمرور بمراحل التكوّن البشري من جديد ليصير إنساناً مرّة أُخرى،

---

١. البقرة: ٥٥ـ ٥٦. ٢. البقرة: ٧٢ـ٧٣. ٣. البقرة: ٢٤٣.
٤. البقرة: ٢٥٩. ٥. آل عمران: ٤٩.

وأين هذا من الرجعة وعود الروح إلى البدن الكامل من جميع الجهات من دون أن يكون فيها رجوع من القوّة إلى الفعلية، أو دخول روح في بدن آخر، إنساناً كان أو حيواناً؟!

اتّفقت الشيعة على بطلان التناسخ وامتناعه، وقد كتبوا فيه مقالات ورسائل يقف عليها من كان له إلمام بكتبهم وعقائدهم، وقد ذكروا أنّ للتناسخ أنواعاً وأقساماً، غير أنّ الرجوع إلى الدنيا من خلال دخول الروح إلى البدن الذي فارقه عند الموت لا يعدّ تناسخاً، وإنّما هو إحياء للموتىٰ، الذي كان معجزة من معاجز المسيح.

كلّ ذلك يدلّ على أنّه ليس أمام القول بالرجعة عراقيل وموانع، وإنّما هو أمر ممكن لو دلّ عليه الدليل القطعي نأخذ به وإلّا فنتركه في سنبله، والحال أنّ بعض الآيات والروايات تدلّ على أنّه سيتحقّق الرجوع إلى هذه الدنيا قبل يوم القيامة لبعض الناس على وجه الإجمال، وأمّا من هم؟ وفي أيّ وقت يرجعون؟ ولأيّ غرض يعودون إلى الدنيا؟ فليس هنا مقام بيانها، إنّما نكتفي ببيان بعض الآيات الدالّة على وقوعه قبل البعث، وإليك الآيات.

قال سبحانه: ﴿**وَإِذا وَقَعَ القَولُ عَلَيهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النّاسَ كَانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنونَ * وَيَومَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجَاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾[1].

لايشكّ من أمعن النظر في سياق الآيات وما ذكره المفسّرون حولها، في أنّ الآية الأُولى تتعلّق بالحوادث التي تقع قبل يوم القيامة، وعليه تكون الآية

---

١. النمل: ٨٢ـ ٨٣.

الثانية مكمّلة لها، وتدلّ على حشر فوج من كلّ جماعة قبل يوم القيامة، والحال أنّ الحشر في يوم القيامة يتعلّق بالجميع لا بالبعض، يقول سبحانه: ﴿**وَيَومَ نُسَيّرُ الجِبالَ وَتَرى الأرضَ بارِزةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أحداً**﴾[١].

أفبعد هذا التصريح يمكن تفسير الآية السابقة بيوم البعث والقيامة؟

وهذه الآية تعرب عن الرجعة التي تعتقد بها الشيعة في حقّ جماعة خاصّة، وأمّا خصوصياتها فلم يحدّث عنها القرآن الكريم، وجاء التفصيل في السنّة.

وقد سأل المأمون العباسي الإمام الرضا عليه السلام عن الرجعة، فأجابه بقوله: «**إنّها حقّ قد كانت في الأُمم السالفة ونطق بها القرآن، وقد قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: يكون في هذه الأُمّة كلّ ما كان في الأُمم السالفة حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة**».[٢]

وأمّا من هم الراجعون؟ وما هو الهدف من إحيائهم؟ فيرجع فيه إلى الكتب المؤلّفة في هذا الموضوع، وإجمال الجواب عن الأوّل: أنّ الراجعين لفيف من المؤمنين ولفيف من الظالمين.

وقال الشيخ المفيد ناقلاً عن أئمّة أهل البيت: إنّما يرجع إلى الدنيا عند قيام القائم مَن محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، وأمّا ما سوى هذين فلا رجوع لهم إلى يوم المآب.[٣]

---

١. الكهف: ٤٧.
٢. بحار الأنوار: ٥٣/ ٥٩ح ٤٥.
٣. تصحيح الاعتقاد: ٤٠.

وقال أيضاً في المسائل السروية: والرجعة عندنا تختصّ بمن محض الإيمان، ومحض الكفر دون ما سوى هذين الفريقين.[١]

وإجمال الجواب عن الثاني ما ذكره السيّد المرتضى، قال: إنّ الله تعالى يعيد عند ظهور المهدي ـ عجَّل الله تعالى فرجه الشريف ـ قوماً ممّن كان تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم.

ملاحظات جديرة بالانتباه

١ ـ إنّ الرجعة وإن كانت من مسلّمات عقائد الشيعة، ولكن التشيّع ليس منوطاً بالاعتقاد بها، فمن أنكرها فقد أنكر عقيدة مسلّمة بين أكثر الشيعة، ولكن لم يكن ركناً من أركان التشيّع، ولأجل ذلك نرى أنّ جماعة من الشيعة أوّلوا الأخبار الواردة في الرجعة إلى رجوع الدولة إلى شيعتهم وأخذهم بمجاري الأُمور دون رجوع أعيان الأشخاص، والباعث لهم على هذا التأويل هو عجزهم عن تصحيح القول بها نظراً واستدلالاً، ولكن المحقّقين من الإمامية، أخذوا بظواهرها وبيّنوا عدم لزوم استحالة عقلية على القول بها لعموم قدرة الله على كلّ مقدور، وأجابوا عن الشبه الواردة عليها، وإلى هذا الاختلاف يشير الشيخ المفيد بقوله: واتّفقت الإمامية على رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وإن كان بينهم في معنى الرجعة اختلاف.

ويشير إلى الاختلاف تلميذه الجليل الشريف المرتضى في المسائل التي

---

١. المسائل السروية: ٣٥، فصل في من يرجع من الأُمم.

وردت عليه من الريّ ومنها حول حقيقة الرجعة، فأجاب: بأنّ الذي تذهب إليه الشيعة الإمامية أنّ الله تعالى يعيد عند ظهور المهدي قوماً ممّن كان تقدّم موته من شيعته، وقوماً من أعدائه، وأنّ قوماً من الشيعة تأوّلوا الرجعة على أنّ معناها رجوع الدولة والأمر والنهي إلى شيعتهم، من دون رجوع الأشخاص، وإحياء الأموات[١].

٢ ـ كيف يجتمع إعادة الظالمين مع قوله سبحانه: ﴿**وحَرامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾[٢] فإنّ هذه الآية تنفي رجوعهم بتاتاً، وحشر لفيف من الظالمين يخالفها.

والإجابة عن السؤال واضحة؛ فإنّ الآية مختصّة بالظالمين الذين أُهلكوا في هذه الدنيا ورأوا جزاء عملهم فيها، فالآية تحكم بأنّهم لا يرجعون، وأمّا الظالمون الذين رحلوا عن الدنيا بلا مؤاخذة فتُرجع طائفة منهم ليروا جزاء عملهم فيها ثمّ يردّون إلى أشدّ العذاب في الآخرة، فالآية لا تنفي رجوع طائفة من الظالمين الذين ماتوا حتف الأنف.

٣ ـ إنّ الظاهر من قوله تعالى: ﴿**حَتّىٰ إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعلّي أعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلّا إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلها ومِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَومِ يُبْعَثُونَ**﴾[٣] هو نفي الرجوع إلى الدنيا بعد مجيء الموت لأيّ أحد.

---

١. بحار الأنوار: ٥٣/ ١٣٨.
٢. الأنبياء: ٩٥.
٣. المؤمنون: ١٠٠ـ ١٠١.

والإجابة عنها واضحة؛ فإنّ الآية كسائر السنن الإلٰهية الواردة في حقّ الإنسان؛ فهي تفيد أنّ الموت بطبعه ليس بعده رجوع، وهذا لا ينافي رجوع البعض استثناءً ولمصالح عليا، كما مرّت الآيات الواردة في هذا المضمار.

أضف إلى ذلك أنّ عود بعض الظالمين إلى الدنيا ـ على القول بالرجعة ـ إنّما هو لأجل عقابهم والانتقام منهم، وأين هذا من طلب هؤلاء الكفّار الرجوع لأجل تصحيح عملهم والقيام بما تركوه من الصالحات، وردّ هذا الفرع من الرجوع لا يكون دليلاً على نفي النوع الأوّل منه.

المسألة السابعة:

زواج المتعة

وممّا يشنع به على الشيعة: قولهم بجواز نكاح المتعة، ويعدّون القول بتشريعه أو بـعدم نسخه مخالفاً للكتاب والسنّة. ورغم أنّ المسألة فرعية فقهية لا يناسب البحث عنها في كتب تاريخ العقائد، إلّا أنّه لما كانت من شعائر فقه الشيعة، آثرنا أن نبحث عنها في إطـار الكـتاب والسنّة، على وجه الإجمال، حتّى يقف القارئ على أنّ القول بأصل تشريعها وعدم نسخها ممّا يثبته الكتاب والسنّة، وأنّ القول بعدم تشريعها بتاتاً أو ادّعاء نسخها يضادّهما. وسيوافيك أنّ لفيفاً من الصحابة والتابعين كانوا يفتون بجوازها وعدم نسخها، وإنّما منع عنها عمر بن الخطاب لحافز نفسي أو اجتهاد شخصي لا دليل عليه وليس حجّة على الآخرين. وقد أبدى بنظيره في متعة الحجّ في زمن رسول الله ﷺ.

فأمّا زواج المتعة: فهو عبارة عن تزويج المرأة الحرّة الكاملة نفسها إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع ـ من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدّة أو غير ذلك من الموانع الشرعية ـ بمهر مسمّى إلى أجل مسمّى بالرضا والاتّفاق، فإذا انتهى الأجل تبين منه من غـير طـلاق. ويجب عليه مع الدخول بها ـ إذا لم تكن يائسة ـ أن تعتد عدّة الطلاق إذا كانت ممّن تحيض وإلّا فبخمسة وأربعين يوماً.[1]

---

١. لاحظ الكتب الفقهية للشيعة الإمامية في ذلك المجال.

وولد المتعة ـ ذكراً كان أو أُنثى ـ يلحق بالأب ولا يدعى إلّا به، وله من الإرث ما أوصانا الله سبحانه به في كتابه العزيز. كما يرث من الأُمّ، وتشمله جميع العمومات الواردة في الآباء والأبناء والأُمّهات، وكذا العمومات الواردة في الأُخوة والأخوات والأعمام والعمّات.

وبالجملة: المتمتّع بها زوجة حقيقة، وولدها ولد حقيقة. ولا فرق بين الزواجين: الدائم والمنقطع إلّا أنّه لا توارث هنا ما بين الزوجين، ولا قسمة ولا نفقة لها. كما أنّ له العزل عنها. وهذه الفوارق الجزئية فوارق في الأحكام لا في الماهية؛ لأنّ الماهية واحدة غير أنّ أحدهما مؤقّت والآخر دائم، وأنّ الأوّل ينتهي بانتهاء الوقت والآخر ينتهي بالطلاق أو الفسخ.

وقد أجمع أهل القبلة على أنّه سبحانه شرّع هذا النكاح في صدر الإسلام، ولا يشكّ أحد في أصل مشروعيّته، وانّما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته.

النكاح المنقطع في القرآن الكريم

والأصل في مشروعيته قوله سبحانه: ﴿**وحلائِلُ أبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أصْلابِكُمْ وأنْ تَجْمَعُوا بينَ الاختَينِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ إنَّ الله كانَ غَفُوراً رَحيماً * والمُحْصَناتُ مِنَ النّساءِ إلّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ الله عَلَيكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذَلِكُمْ أنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيرَ مُسافِحينَ فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَريضةً ولا جُناحَ عَلَيكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعدِ الفَريضَةِ إنَّ الله كانَ عَليماً حَكيماً**﴾[1].

الآية ناظرة إلى نكاح المتعة وذلك لوجوه:

---

١. النساء: ٢٣ـ٢٤.

١ ـ الحمل على النكاح الدائم يستلزم التكرار بلا وجه:

إنّ هذه السورة؛ أي سورة النساء، تكفّلت ببيان أكثر ما يرجع إلى النساء من الأحكام والحقوق، فذكرت جميع أقسام النكاح في أوائل السورة على نظام خاص، أمّا الدائم فقد أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿**وإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا في اليَتامىٰ فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ مَثْنىٰ وَثُلاثَ ورُباعَ وإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعدِلُوا فَواحِدَةً...**﴾[١].

وأمّا أحكام المهر فقد جاءت في الآية التالية: ﴿**وآتُوا النّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾[٢].

وأمّا نكاح الإماء فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ فَمِن مّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ المُؤْمِناتِ والله أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ ولا مُتّخِذاتِ أَخْدانٍ...**﴾[٣].

فقوله سبحانه: ﴿**فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ**﴾ إشارة إلى نكاح السيّد لأمته، الذي جاء في قوله سبحانه أيضاً: ﴿**إِلّا علَىٰ أَزْواجِهِمْ أَوْ مَا مَلكَتْ أيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ...**﴾[٤].

وقوله سبحانه: ﴿**فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ**﴾ إشارة إلى الزواج من أمة الغير. فإلى هنا تمّ بيان جميع أقسام النكاح فلم يبق إلّا نكاح المتعة، وهو الذي جاء في

---

١. النساء: ٣. ٢. النساء: ٤.
٣. النساء: ٢٥. ٤. المؤمنون: ٦.

الآية السابقة، وحمل قوله سبحانه: ﴿**فما استمتعتم**﴾ على الزواج الدائم، وحمل قوله: ﴿**فآتوهنّ أُجورهُنّ**﴾ على المهور والصدقات يوجب التكرار بلا وجه، فالناظر في السورة يرى أنّ آياتها تكفّلت ببيان أقسام الزواج على نظام خاصّ ولا يتحقّق ذلك إلّا بحمل الآية على نكاح المتعة كما هو ظاهرها أيضاً.

٢ ـ تعليق دفع الأُجرة على الاستمتاع:

إنّ تعليق دفع الأُجرة على الاستمتاع في قوله سبحانه: ﴿**فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ يناسب نكاح المتعة الذي هو زواج مؤقّت لا النكاح الدائم، فإنّ المهر هنا يجب بمجرّد العقد ولا يتنجّز وجوب دفع الكلّ إلّا بالمسّ، وأمّا المتعارف فيختلف حسب اختلاف العادات العرفية، فربّما يؤخذ قبل العقد وأُخرى يترك إلى أن يرث أحدهما الآخر.

٣ ـ تصريح جماعة من الصحابة بشأن نزولها:

ذكرت أُمّة كبيرة من أهل الحديث نزولها فيها، وينتهي نقل هؤلاء إلى أمثال ابن عبّاس، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وحبيب بن أبي ثابت، وسعيد بن جبير، إلى غير ذلك من رجال الحديث الذين لا يمكن اتهامهم بالوضع والجعل.

وقد ذكر نزولها من المفسّرين والمحدّثين:

إمام الحنابلة أحمد بن حنبل في مسنده[١].

وأبو جعفر الطبري في تفسيره[٢].

---

١. مسند أحمد: ٤/ ٤٣٦. ٢. تفسير الطبري: ٥/ ٩.

وأبو بكر الجصّاص الحنفي في أحكام القرآن[١].

وأبو بكر البيهقي في السنن الكبرى[٢].

ومحمود بن عمر الزمخشري في الكشاف[٣].

وأبو بكر بن سعدون القرطبي في تفسير جامع أحكام القرآن[٤].

وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب[٥].

إلى غير ذلك من المحدّثين والمفسّرين الذين جاءوا بعد ذلك إلى عصرنا هذا، ولا نطيل الكلام بذكرهم.

وليس لأحد أن يتّهم هؤلاء الأعلام بذكر ما لا يتّقون به. وبملاحظة هذه القرائن لا يكاد يشكّ في ورودها في نكاح المتعة.

ونزيد الوضوح بياناً بقوله سبحانه: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيرَ مُسافِحِين**﴾.

أنّ قوله سبحانه: ﴿**أن تبتغوا**﴾ مفعول له لفعل مقدّر، أي بيّن لكم ما يحلّ ممّا يحرم لأجل أن تبتغوا بأموالكم، وأمّا مفعول قوله: ﴿**تبتغوا**﴾ فيعلم من القرينة وهو النساء؛ أي طلبكم النساء؛ أي بيّن الحلال والحرام لغاية ابتغائكم النساء من طريق الحلال لا الحرام.

وقوله سبحانه: ﴿**محصنين**﴾ وهو من الإحصان بمعنى العفّة وتحصين

---

١. أحكام القرآن: ٢/ ١٧٨.
٢. السنن الكبرى: ٧/ ٢٠٥.
٣. الكشاف: ١/ ٣٦٠.
٤. جامع أحكام القرآن: ٥/ ١٣.
٥. مفاتيح الغيب: ٣/ ٢٦٧.

النفس من الوقوع في الحرام، وقوله سبحانه: ﴿**غير مسافحين**﴾ هو جمع مسافح بمعنى الزاني مأخوذ من السفح بمعنى صبّ الماء، والمراد هنا هو الزاني بشهادة قوله سبحانه في الآية المتأخّرة في نكاح الإماء: ﴿**وآتوهُنَّ أُجُورهنَّ بالمعروف محصنات غير مسافحات**﴾ أي عفائف غير زانيات.

ومعنى الآية: أنّ الله تبارك وتعالى شرّع لكم نكاح ما وراء المحرّمات لأجل أن تبتغوا بأموالكم ما يحصنكم ويصون عفّتكم ويصدّكم عن الزنا، وهذا المناط موجود في جميع الأقسام، النكاح الدائم، والمؤقّت، والزواج بأمة الغير المذكورة في هذه السورة من أوّلها إلى الآية ٢٥.

هذا هو الذي يفهمه كلّ انسان من ظواهر الآيات غير أنّ من لا يروقه الأخذ بظاهر الآية: ﴿**فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أُجورهنّ**﴾ لرواسب نفسية أو بيئية حاول أن يطبق معنى الآية على العقد الدائم، وذكر في المورد شبهات ضعيفة لا تصمد أمام النقاش نجملها بما يلي:

شبهات ضعيفة حول دلالة الآية

الشبهة الأُولى: أنّ الهدف من تشريع النكاح هو تكوين الأُسرة وإيجاد النسل، وهو يختصّ بالنكاح الدائم دون المنقطع الذي لا يترتّب عليه إلّا إرضاء القوّة الشهوية وصبّ الماء وسفحه.

ويجاب عنها: بأنّه خلط بين الموضوع والفائدة المترتّبة عليه، وما ذكر إنّما هو من قبيل الحكمة، وليس الحكم دائراً مدارها، لضرورة أنّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض، كزواج العقيم واليائسة والصغيرة.

بل أغلب المتزوّجين في سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلّا قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع، ولا يخطر ببالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً، ولا يقدح ذلك في صحّة زواجهم.

ومن العجب حصر فائدة المتعة في قضاء الوطر، مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتدبير المنزل وتربية الأولاد والإرضاع والحضانة.

ونسأل المانعين الذين يتلقّون نكاح المتعة، مخالفاً للحكمة، التي من أجلها شرّع النكاح، نسألهم عن الزوجين اللّذين يتزوّجان نكاح دوام، ولكن ينويان الفراق بالطلاق بعد شهرين، فهل هذا نكاح صحيح أو لا؟ لا أظن أنّ فقيهاً من فقهاء الإسلام يمنع ذلك إلّا إذا أفتى بغير دليل ولا برهان، وبهذا الشكل يتعيّن الجزم بصحّة هذا النكاح، فأيّ فرق يكون حينئذ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى أنّ المدّة مذكورة في الأوّل دون الثاني؟

يقول صاحب المنار: إنّ تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة بنيّة الطلاق، وإن كان الفقهاء يقولون إنّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت، ولم يشترطه في صيغة العقد، ولكن كتمانه إيّاه يعدّ خداعاً وغشّاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت[1].

أقول: نحن نفترض أنّ الزوجين رضيا بالتوقيت لبّاً، حتّى لا يكون هناك خداع وغشّ، فهو صحيح بلا إشكال.

الشبهة الثانية: إنّ تسويغ النكاح المؤقّت ينافي ما تقرّر في القرآن كقوله عزّ وجلّ في صفة المؤمنين: ﴿**والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إلّا**

---

١. **تفسير المنار**: ٣/ ١٧.

عَلَىٰ أزواجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيرُ مَلُومينَ* فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَراءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ العادُون﴾[1].

والمراد من الآية: أنّ من ابتغى وراء ذلك، هم المتجاوزون ما أحلّه الله لهم إلى ما حرّمه عليهم. والمرأة المتمتّع بها ليست زوجة فيكون لها على الرجل مثل الذي عليها بالمعروف.

إلاّ أنّه يرد عليها: أنّها دعوة بلا دليل. فإنّها زوجة ولها أحكام، وعدم وجود النفقة والقسمة لا يخرجانها عن الزوجيّة، فإنّ الناشزة زوجة ليست لها النفقة وحقّ القسمة، ومثلها الصغيرة. والعجب أن يستدلّ بعدم وجود الأحكام على نفي الماهية، فإنّ الزوجيّة رابطة بين الزوجين تترتّب عليها جملة من الأحكام وربّما تختص بعض الأحكام ببعض الأقسام.

الشبهة الثالثة: إنّ المتمتّع في النكاح المؤقّت لا يقصد الإحصان دون المسافحة، بل يكون قصده مسافحة، فإن كان هناك نوع مّا من إحصان نفسه ومنعها من التنقّل في دِمنِ الزنا، فإنّه لا يكون فيه شيء مّا من إحصان المرأة التي تؤجر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل فتكون كما قيل:

كــرة حُـذِفْت بـصوالجـة فــتلقّفها رجـل رجــل[2]

ويرد على هذه الشبهة: أنّه من أين وقف على أنّ الإحصان في النكاح المؤقّت يختصّ بالرجل دون المرأة، فإنّا إذا افترضنا كون العقد شرعياً، فكلّ واحد من الطرفين يُحصن نفسه من هذا الطريق، وإلّا فلا محيص عن التنقّل في دمن الزنا. والذي يصون الفتاة عن البغي أحد الأُمور الثلاثة:

---

١. المؤمنون: ٥ـ ٧. ٢. تفسير المنار: ٥/ ١٣.

١ ـ النكاح الدائم.

٢ ـ النكاح المؤقّت بالشروط الماضية.

٣ ـ كبت الشهوة الجنسية.

فالأوّل ربّما يكون غير ميسور خصوصاً للطالب والطالبة اللّذين يعيشان بمنح ورواتب مختصرة يجريها عليهما الوالدان أو الحكومة، وكبت الشهوة الجنسية أمر شاقّ لا يتحمّله إلّا الأمثل فالأمثل من الشباب والمثلى من النساء؛ وهم قليلون، فلم يبق إلّا الطريق الثاني، فيحصنان نفسهما عن التنقّل في بيوت الدعارة.

إنّ الدين الإسلامي هو الدين الخاتم، ونبيّه خاتم الأنبياء، وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، فلابدّ أن يضع لكلّ مشكلة اجتماعية حلولاً شرعية، يصون بها كرامة المؤمن والمؤمنة، وما المشكلة الجنسية عند الرجل والمرأة إلّا إحدى هذه النواحي التي لا يمكن للدين الإسلامي أن يهملها، وعندئذ يطرح هذا السؤال نفسه:

ماذا يفعل هؤلاء الطلبة والطالبات الذين لا يستطيعون القيام بالنكاح الدائم، وتمنعهم كرامتهم ودينهم عن التنقّل في بيوت الدعارة والفساد، والحياة الماديّة بجمالها تؤجّج نار الشهوة في نفوسهم؟ فمن المستحيل عادة أن يصون نفسه أحد إلّا من عصمه الله، فلم يبق طريق إلّا زواج المتعة، الذي يشكّل الحلّ الأنجع لتلافي الوقوع في الزنا، وتبقى كلمة الإمام علي بن أبي طالب ترنّ في الآذان محذّرة من تفاقم هذا الأمر عند إهمال العلاج الذي وصفه المشرّع الحكيم له، حيث قال عليه السلام: «**لولا نهي عمر عن المتعة لما زنى إلّا شقيّ أو شقيّة**».

وأمّا تشبيه المتعة بما جاء في الشعر فهو يعرب عن جهل الرجل بحقيقة نكاح المتعة وحدودها، فإنّ ما جاء فيه هي المتعة الدورية التي ينسبها الرجل[١] وغيره إلى الشيعة، وهم براء من هذا الإفك؛ إذ يجب على المتمتّع بها بعد انتهاء المدّة الاعتداد على ما ذكرنا، فكيف يمكن أن تؤجّر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل؟! سبحان الله! ما أجرأهم على الكذب على الشيعة والفرية عليهم، وما مضمون الشعر إلّا جسارة على الوحي والتشريع الإلٰهي، وقد اتّفقت كلمة المحدّثين والمفسّرين على التشريع، وأنّه لو كان هناك نهي أو نسخ فإنّما هو بعد التشريع والعمل.

الشبهة الرابعة: إنّ الآية منسوخة بالسنّة، واختلفوا في زمن نسخها إلى أقوال شتّى:

١ ـ أُبيحت ثمّ نهي عنها عام خيبر.

٢ ـ ما أُحلّت إلّا في عمرة القضاء.

٣ ـ كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح.

٤ ـ أُبيحت عام أوطاس ثمّ نهي عنها.[٢]

وهذه الأقوال تنفي الثقة بوقوع النسخ، كما أنّ نسخ القرآن بأخبار الآحاد ممنوع جدّاً، وقد صحّ عن عمران بن الحصين انّه قال: «إنّ الله أنزل المتعة وما نسخها بآية أُخرى، وأمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة وما نهانا عنها، ثمّ قال رجل برأيه»، يريد به عمر بن الخطّاب.

---

١. لاحظ كتابه: السنّة والشيعة: ٦٥ ـ ٦٦.

٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الأقوال، مسائل فقهية لشرف الدين: ٦٣ـ٦٤، الغدير: ٦/ ٢٢٥، أصل الشيعة وأُصولها: ١٧١، والأقوال في النسخ أكثر مما جاء في المتن.

إنّ الخليفة الثاني لم يدّع النسخ وإنّما أسند التحريم إلى نفسه، ولو كان هناك ناسخ من الله عزّ وجلّ أو من رسوله، لأسند التحريم إليهما، وقد استفاض قول عمر وهو على المنبر: متعتان كانتا على عهد رسول اللهﷺ وأنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء.

بل نقل متكلّم الأشاعرة في شرحه على شرح التجريد أنّه قال: أيّها الناس ثلاث كنّ على عهد رسول اللهﷺ، وأنا أنهى عنهنّ، وأُحرمهنّ، وأُعاقب عليهنّ: متعة النساء، ومتعة الحج، وحيّ على خير العمل.[1]

وقد روي عن ابن عبّاس ـ وهو من المصرّحين بحلّية المتعة وإباحتها ـ في ردّه على من حاجّه بنهي أبي بكر وعمر لها، حيث قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول اللهﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

حتّى أنّ ابن عمر لمّا سئل عنها، أفتى بالإباحة، فعارضوه بقول أبيه، فقال لهم: أمر رسول اللهﷺ أحقّ أن يتّبع أم أمر عمر؟

كلّ ذلك يعرب عن أنّه لم يكن هناك نسخ ولا نهي نبوي، وإنّما كان تحريماً من جانب الخليفة، وهو في حدّ ذاته يعتبر اجتهاداً قبالة النصّ الواضح، وهو ما انفكّ يعلن جملة من الصحابة رفضهم له وعدم إذعانهم لأمره، وإذا كان الخليفة قد اجتهد لأسباب رآها وأفتى على أساسها، فكان الأولى بمن لحقوه أن يتنبّهوا لهذا الأمر لا أن يسرفوا في تسويغه دون حجّة ولا دليل.

---

١. مفاتيح الغيب: ١٠/ ٥٢ـ٥٣؛ شرح التجريد للقوشجي: ٤٨٤ ط إيران.

المنكرون للتحريم

ذكرنا أنّ جمعاً من وجوه الصحابة والتابعين أنكروا هذا التحريم ولم يقرّوا به، ومنهم:

١ ـ عليّ أمير المؤمنين، فيما أخرجه الطبري بالإسناد إليه أنّه قال: «**لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقيّ**».(١)

٢ ـ عبد الله بن عمر، أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر، قال ـ وقد سئل عن متعة النساء ـ: والله ما كنّا على عهد رسول الله ﷺ زانين ولا مسافحين، ثمّ قال: والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليكوننّ قبل يوم القيامة المسيح الدجّال وكذّابون ثلاثون وأكثر**».(٢)

٣ ـ عبد الله بن مسعود، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثمّ رخّص لنا أن تنكح المرأة بالثوب إلى أجل معيّن، ثمّ قرأ علينا: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ**﴾(٣).(٤)

٤ ـ عمران بن حصين، أخرج البخاري في صحيحه عنه، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله، ففعلناها مع رسول الله ﷺ، ولم ينزل قرآن يحرّمها، ولم ينه عنها حتّى مات. قال رجل برأيه ما شاء.(٥)

---

١. تفسير الطبري: ٥/ ٩.　　٢. مسند أحمد: ٢/ ٩٥.　　٣. المائدة: ٨٧.

٤. صحيح البخاري: ٧/ ٤، كتاب النكاح، الباب ٨، الحديث ٣.

٥. صحيح البخاري: ٦/ ٢٧، كتاب التفسير، تفسير قوله تعالى: ﴿فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ﴾ من سورة البقرة.

أخرج أحمد في مسنده عن أبي رجاء، عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله وعملنا بها مع رسول اللهﷺ، فلم تنزل آية تمنعها، ولم ينه عنها النبيّﷺ حتّى مات.(١)

٥ ـ كما أنّ الخليفة العباسي المأمون أوشك أن ينادي في أيام حكمه، بتحليل المتعة إلّا أنّه توقّف خوفاً من الفتنة وتفرّق المسلمين. قال ابن خلّكان، نقلاً عن محمّد بن منصور: قال: كنّا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء: بكّرا غداً إليه فإن رأيتما للقول وجهاً فقولا، وإلّا فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول اللهﷺ وعلى عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وأنا أنهى عنهما، ومن أنت يا جعل حتّى تنهى عمّا فعله رسول اللهﷺوأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ؟! فأومأ أبو العيناء إلى محمّد بن منصور وقال: رجل يقول: من عمر بن الخطاب، نكلّمه نحن؟ فأمسكنا، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيّراً؟ فقال: هو غمّ يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟! قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عزّ وجلّ، وحديث رسول اللهﷺ، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُون * إلَّا عَلَى أَزْواجِهِمْ أو ما مَلَكَتْ أيْمانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيرُ ملومين * فَمَنِ ابْتَغىٰ وَراءَ ذَلِكَ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ العادُونَ**﴾(٢) يا أمير المؤمنين زوج المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق

١. مسند أحمد، ولاحظ مسائل فقهيّة للسيد شرف الدين: ٧٠.

٢. المؤمنون: ١ـ٧.

الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين.[١]

أقول: هل عزب عن ابن أكثم ـ وقد كان ممّن يكنّ العداء لآل البيت ـ أنّ المتعة داخلة في قوله سبحانه: ﴿**إلّا على أزواجهم**﴾ وانّ عدم الوراثة تخصيص في الحكم، وهو لا ينافي ثبوتها، وكم لها من نظير، فالكافرة لا ترث الزوج المسلم، وبالعكس، كما أنّ القاتلة لا ترث وهكذا العكس، وأمّا الولد فيلحق قطعاً، ونفي اللحوق ناشئ إمّا من الجهل بحكمها أو التجاهل به.

وما أقبح كلامه حيث فسّر المتعة بالزنا وقد أصفقت الأُمّة على تحليلها في عصر الرسولﷺ والخليفة الأوّل، أفيحسب ابن أكثم أنّ الرسولﷺ حلّل الزنا ولو مدَّة قصيرة؟!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم

وهناك روايات مأثورة عن الخليفة نفسه، تعرب عن أنّ التحريم كان من صميم رأيه، من دون استناد إلى آية أو رواية.

فقد روى مسلم في صحيحه: عن ابن أبي نضرة قال: كان ابن عبّاس يأمر بالمتعة، وكان ابن الزبير ينهى عنها، فذكر ذلك لجابر، فقال: على يدي دار الحديث: تمتّعنا مع رسول اللهﷺ فلمّا قام عمر قال: إنّ الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء، فأتمّوا الحجّ والعمرة وأبتّوا نكاح هذه النساء، فلئِن أُوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلّا رجمته بالحجارة.[٢]

---

١. وفيات الأعيان: ٦/ ١٤٩ـ ١٥٠.

٢. صحيح مسلم: ٤/ ١٣٠، باب نكاح المتعة، الحديث ٨، طبع محمد علي صبيح.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة قال: قلت لجابر: إنّ ابن الزبير ينهى عن المتعة، وانّ ابن عبّاس يأمر بها، فقال لي: على يدي جرى الحديث: تمتّعنا مع رسول اللهﷺ ومع أبي بكر، فلمّا ولّي عمر خطب الناس فقال: إنّ القرآن هو القرآن، وإنّ رسول اللهﷺ هو الرسول، وإنّهما متعتان كانتا عَلى عهد رسول اللهﷺ إحداهما متعة الحج والأُخرى متعة النساء.(١)

وهذه المأثورات تعرب عن جملة من الملاحظات نجملها بملاحظتين اثنتين:

أوّلاً: أنّ المتعة كانت باقية على الحلّ إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وبقيت لوقت في أيامه حتى نهى عنها ومنع.

وثانياً: أنّه باجتهاده قام بتحريم ما أحلّه الكتاب والسنّة، ومن المعلوم أنّ اجتهاده ـ لو صحّت تسميته بالاجتهاد ـ حجّة على نفسه لا على غيره.

وفي الختام نقول:

إنّ الجهل بفقه الشيعة أدّى بكثير من الكتّاب إلى التقوّل على الشيعة، وخصوصاً في مسألة المتعة التي نحن في صدد الحديث عنها، بجملة منكرة من الآراء والأحكام تدلّ على جهل مطبق أو خبث سريرة ، ومن هذه الأقوال: إنّ من أحكام المتعة عند الشيعة أنّه لا نصيب للولد من ميراث أبيه، وأنّ المتمتَّع بها لا عدّة لها، وانّها تستطيع أن تنتقل من رجل إلى رجل إن شاءت. ومن أجل هذا استقبحوا المتعة واستنكروها وشنَّعوا على من أباحها.

---

١. مسند أحمد: ١/ ٥٢.

وقد خفي الواقع على هؤلاء، وانّ المتعة عند الشيعة كالزواج الدائم لا تتم إلّا بالعقد الدالّ على قصد الزواج صراحة، وانّ المتمتَّع بها يجب أن تكون خالية من جميع الموانع، وانّ ولدها كالولد من الدائمة من وجوب التوارث، والإنفاق وسائر الحقوق الماديّة، وانّ عليها أن تعتدّ بعد انتهاء الأجل مع الدخول بها، وإذا مات زوجها وهي في عصمته اعتدّت كالدائمة من غير تفاوت، إلى غير ذلك من الآثار.[١]

على أنّ الأمر الذي ينبغي الالتفات إليه وإدراكه بوضوح، أنّ الشيعة ورغم إدراكهم وإيمانهم بحلّية زواج المتعة وعدم تحريمه ـ وهو ما يعلنون عنه صراحة ودون تردد ـ إلّا أنّهم لا يلجأون إلى هذا الزواج إلّا في حدود ضيّقة وخاصّة، وليس كما يصوّره ويتصوّره البعض من كونه ظاهرة متفشية في مجتمعهم وبشكل مستهجن ممجوج.

١. الاثنا عشرية وأهل البيت: ٤٦.

المسألة الثامنة:

متعة الحجّ

إنّ الكاتب المصري أحمد أمين، يصف الخليفة عمر بن الخطاب بأنّه كان ممّن يأخذ بروح القانون لا بلفظه.[1] وهو يريد بذلك تفسير ما شوهدت منه في بعض الموارد المخالفة للنصوص، ولو صحّ ما ذكره في بعضها؛ فإنّ البعض الآخر غير صحيح. ونحن نرى أنّه كان ممّن يجتهد تجاه النصّ، ويأخذ بالرأي، مكان الأخذ بالدليل.

إنّ العاطفة الدينية هي الّتي دفعت الكاتب المصري إلى ذلك التفسير، ولو أنّه تأمّل فيما سبق من تنفيذ طلاق الثلاث، وما يأتي منه في هذه المسألة من تحريم حجّ التمتّع، وحصره في القِران والإفراد، يقف على أنّه كان ممّن يقدّم المصلحة المزعومة على الذكر الحكيم وتنصيص النبيّ الأكرم، وإنّه ما نهى عن متعة الحجّ وما هدّد بفاعلها إلّا أنّه كان يكره أن يغتسل الحاجّ تحت الأراك ثمّ يفيض منه إلى الحجّ ورأسه يقطر ماءً؛ لأنّ التحلّل من محظورات الإحرام بين العمرة والحجّ، من لوازم ذاك النوع من الحجّ، وهو ممّا كان لا يروقه.

وإن كنت في شكّ فاقرأ ما نتلوه عليك:

اتّفق الفقهاء على أنّ أنواع الحجّ ثلاثة: تمتّع، وقران، وإفراد.

---

١. فجر الإسلام: ٢ / ٢٣٨ نشر دار الكتاب.

والمقصود من الأوّل، هو إحرام الشخص بالحجّ في أشهره (شوال وذي القعدة وذي الحجّة). والإتيان بأعمالها، والتحلّل من محظورات الإحرام بالفراغ منها، ثمّ الإحرام بالحجّ من مكّة والإتيان بأعماله من الوقوف بعرفات والإفاضة إلى المشعر و...

ويصحّ هذا النوع من الحجّ ممّن كان آفاقياً، أي من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ويبتعد بيته عن مكّة بمقدار يجوز فيه تقصير الصلاة. وعند الإماميّة من نأى عن مكّة (٤٨) ميلاً من كلّ جانب وهو لا يتجاوز عن (١٦) فرسخاً.

وأمّا القسمان الآخران، فالقِران عند أهل السنّة هو الإحرام بالحجّ والعمرة معاً ويقول: لبّيك اللّهمّ بحجّ وعمرة، فيأتي بأعمال الحجّ أوّلاً ثمّ العمرة بإحرام واحد؛ وهو القِران الحقيقي.

وهناك قسم يسمّى بالقِران الحكمي؛ وهو أن يدخل إحرام الحجّ في إحرام العمرة، ثمّ يجمع بين أعمالها. وذلك بأن يحرم بالعمرة أولاً، وقبل أن يطوف لها؛ إمّا أربعة أشواط، أو قبل أن يشرع فيه يحرم للحجّ، على اختلاف بين الحنفية والشافعية، وهل يكتفي بطواف وسعي واحد، أو لكلٍّ طوافه وسعيه؟ فيه اختلاف.

وأمّا الإفراد، فهو أن يُحرم بالحجّ من ميقاتِ بلده، وبعد الفراغ من أعماله، يُحرِم بالعمرة. والقِران والإفراد، يشترك فيهما جميع الناس ولا يختصّ بغير الآفاقي.

هذا ما لدى أهل السنّة، وأمّا الإماميّة، فالقران والإفراد واجب على من

لم يكن بين مكّة وبيته (٤٨) ميلاً، وأمّا النائي عن هذا الحد، فواجبه هو حجّ التمتع.

والقِران والإفراد، ليسا أمرين متغايرين عندهم، بل يتمتّع كلّ منهما بإحرام للحجّ وإحرام للعمرة، غير أنّ الإحرام في الأوّل يقترن بسوق الهدي دون الثاني، وعلى ذلك لا يجوز عندهم الإتيان بالحجّ والعمرة بإحرام واحد، ولا إدخال إحرام الحجّ في إحرام العمرة، كما في القِران الحكمي.[١]

والأصل حجّ التمتع، كما في قوله سبحانه: ﴿**فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَىٰ الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٢].

وتفسير الآية: أنّ من ﴿**تمتّع**﴾ بسبب الإتيان ﴿**بالعمرة**﴾ بما يحرم على المحرم، كالطيب والمخيط والنساء ومتوجّهاً ﴿**إلى الحجّ فـ**﴾ عليه ﴿**ما استيسر من الهدي**﴾ من البدنة أو البقرة أو الشاة. ثمّ بيّن كيفية الصيام وقال: ﴿**ثلاثة أيّام في الحجّ**﴾ متواليات و ﴿**سبعة إذا رجعتم**﴾ إلى أوطانكم ﴿**تلك عشرة كاملة وذلك**﴾ أي التمتّع بالعمرة إلى الحجّ فرض على من ﴿**لم يكن أهله**﴾ باعتبار موطنه ومسكنه ﴿**حاضري المسجد الحرام**﴾ أي لم يكن من أهل مكّة وقراها ﴿**واتّقوا اللهَ**﴾ فيما أُمرتم به ونهيتم عنه في أمر الحجّ ﴿**واعلموا أنّ الله شديد العقاب**﴾.

---

١. لاحظ المختصر النافع للمحقّق الحلّي: ٧٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٩١؛ المغني لابن قدامة: ٣/ ٢٣٣؛ الفقه على المذاهب الأربعة: ٢/ ٦٨٤ وغيرها.

٢. البقرة: ١٩٦.

والآية صريحة في جواز التمتّع بمحظورات الإحرام بعد الإتيان بأعمال العمرة، وقبل التوجّه إلى الحجّ، ولم يدّع أحد كونها منسوخة بآية، أو قول أو فعل، بل أكّد النبيّ الأكرم تشريعه بعمله.

روى أهل السير والتاريخ: أنّ رسول الله خرج في العام العاشر من الهجرة إلى الحجّ لخمس ليال بقين من ذي القعدة، وقد نقل ابن هشام عن عائشة أنّها قالت : لا يُذكَر ولا يَذكُر النّاسُ إلّا الحجّ حتّى إذا كان بسرف وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدي، وأشراف من أشراف الناس، أمر الناس أن يحلّوا بعمرة إلّا من ساق الهدي ـ إلى أن قالت: ـ ودخل رسول الله ﷺ مكة فحلّ كلّ من كان لا هدي معه، وحلّت نساؤُه بعمرة.

وروى ابن هشام أيضاً عن حفصة بنت عمر، قالت: لمّا أمر رسول الله نساءه أن يحلُلن بعمرة، قلن: فما يمنعك يا رسول الله أن تحلّ معنا؟ فقال: إنّي أهديتُ ولبّوت فلا أُحلّ حتّى أنحَرَ هديي.

إنّ رسول الله كان بعث علياً عليه السلام إلى نجران فلقيه بمكّة وقد أحرم فدخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فوجدها قد حلَّتْ وتهيّأت فقال: ما لك يا بنت رسول الله؟ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحلّ بعمرة فحللنا، ثمّ أتى رسول الله، فلمّا فرغ من الخبر عن سفره قال له رسول الله ﷺ : انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك، قال: يا رسول الله إنّي أهللتُ كما أهللتَ فقال: ارجع فاحلل كما حلّ أصحابُك، قال: يا رسول الله إنّي قلت حين أحرمت: اللّهمّ إنّي أُهلُّ بما أهلَّ به نبيُّك وعبدُك ورسولُك ﷺ قال: فهل معك من هدي؟! قال: لا. فأشركه رسول الله في هديه وثبتَ على

إحرامه مع رسول الله حتّى فرغا من الحجّ، ونحر رسول الله الهدي عنهما.[١]

هذا هو الذكر الحكيم المدعم بالسنّة وإجماع الأُمّة، ومع ذلك نرى أنّ بعض الصحابة لا يروقه متعة الحجّ لا في عصر الرسالة ولا بعده بل يفتي بتحريمها! وإليك البيان:

١ ـ روى أبو داود أنّ النبيّ أمر أصحابه أن يجعلوها عمرة، يطوفوا ثمّ يُقصّروا ويُحلّوا إلّا من كان معه الهدي فقالوا: أننطلق إلى منى وذكورنا تقطر؟ فبلغ ذلك رسول الله فقال: «**لو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أنّ معي الهدي لأحللت**».[٢]

٢ ـ روى مالك، عن محمد بن عبد الله أنّه سمع سعد بن أبي وقاص والضحّاك بن قيس عام حجّ معاوية بن أبي سفيان وممّا يذكران أن الّتمتّع بالعمرة إلى الحجّ. فقال الضحّاك بن قيس: لا يفعل ذلك إلّا من جهل أمر الله عزّوجلّ. فقال سعد: بئس ما قلت يا ابن أخي، فقال الضحّاك: إنّ عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك، فقال سعد: قد صنعها رسول الله وصنعناها معه.[٢]

٣ ـ وروى عن عبد الله بن عمر أنّه قال: والله لئن أعتمر قبل الحجّ وأهدي أحبّ إليّ من أن أعتمر بعد الحجّ في ذي الحجّة.[٣]

٤ ـ روى الترمذي عن سالم بن عبد الله أنّه سمع رجلاً من أهل الشام وهو

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٦٠١ـ ٦٠٢. ٢. سنن أبي داود: ٢/ ١٥٦ برقم ١٧٨٩.
٢. الموطأ: ٣٤٤، كتاب الحج رقم ٦٠، وسنن الترمذي: ٢ / ١٥٩، كتاب الحج رقم ٨٢٢.
٣. الموطّأ: ٣٤٤، كتاب الحج، رقم ٦١.

يسأل عبد الله بن عمر عن التمتّع بالعمرة إلى الحجّ. فقال عبد الله بن عمر: هي حلال، فقال الشاميّ: إنّ أباك قد نهى عنها! فقال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ أأمرُ أبي نتّبع أم أمر رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ، فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ.(١)

٥ ـ روى مسلم عن أبي نضرة قال: كان ابن عبّاس يأمر بالمتعة، وكان ابن الزبير ينهى عنها، قال: فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله فقال: على يديّ دار الحديث وتمتّعنا مع رسول الله ﷺ فلمّا قام عمر قال: إنّ الله كان يُحلّ لرسوله ما شاء، بما شاء، وإنّ القرآن قد نزل منازلهُ، فأتمّوا الحجّ والعمرة لله كما أمركم الله ـ إلى أن قال في الحديث: ـ فافصلوا حجّكم من عمرتكم، فإنّه أتمّ لحجّكم وأتمّ لعمرتكم.(٢)

ومن العجب أنّ الزرقاني يقوم بتصويب فتوى الخليفة ويعلّق على الرواية ويقول: الإتمام في قوله سبحانه: ﴿**فَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله**﴾ يقتضي استمرارَ الإحرام إلى فراغ الحجّ ومنع التحلّل، والمتمتّع متحلّل ويستمتع بما كان محظوراً عليه.(٣)

يلاحظ عليه أوّلاً: لو صحّ ما ذكره من التفسير تلزم المعارضة بين صدر الآية، أعني قوله: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله**﴾ وبين ذيلها الدّالّ على جواز التمتّع بين الإحرامين بقوله: ﴿**فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ اِلَىٰ الْحَجِّ**﴾ وهو كما ترى.

---

١. سنن الترمذي: ٢ / ١٥٩، كتاب الحج، باب ما جاء في التمتع رقم ٨٢٣.
٢. صحيح مسلم: ٤ / ٣٨، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة.
٣. تعليقة الزرقاني، المطبوعة بهامش صحيح مسلم: ٤ / ٣٨.

وثانياً: أنّ الإتمام يهدف إلى فعل كلّ من الحجّ والعمرة تماماً، بمعنى: إذا شرعتم في فعلِ كلّ فأتمّوه، مثل قوله: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾[٢]، لا إلى الاستمرار.

وثالثاً: إذا كان التفسير تبريراً لنهي الخليفة؛ فهو في الوقت نفسه تخطئة للنبيّ الأكرم؛ حيث أمر أصحابه وأهل بيته بالتحلّل، وإنّما هو لم يتحلّل لسوقه الهدي.

نعم أراد الخليفة من قوله: «فافصلوا حجّكم من عمرتكم»، هو الإتيان بالعمرة في غير أشهر الحجّ. روى الجصّاص عن ابن عمر أنّ عمر قال: أن تُفرّقوا بين الحجّ والعمرة؛ فتجعلوا العمرة في غير أشهر الحج، أتمّ لحجّ أحدكم.[٣]

٦ ـ روى الإمام أحمد عن أبي نضرة، عن جابر قال: متعتان كانتا على عهد النبيّ، فنهانا عنها عمر ﷺ فانتهينا.[٤]

٧ ـ روى ابن حزم في «المحلّى» بسنده قال: قال عمر بن الخطاب: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأضرب عليهما ـ ثمّ قال: ـ هذا لفظ أيوب، وفي رواية خالد: أنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحجّ.[٥]

٨ ـ لم يكن نهي الخليفة عن متعة الحجّ مستنداً إلى دليل شرعي وانّما نهى

---

١. البقرة: ١٢٤. ٢. البقرة: ١٨٧. ٣. أحكام القرآن: ١/ ٢٨٥.
٤. مسند أحمد: ١/ ٥٢ و٣/ ٣٢٥.
٥. المحلّى: ٧/ ١٠٧؛ الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٩٢.

عنه لما كرهه أن يظلّوا معرّسين بهنّ في الأراك، ثمّ يروحون بالحجّ تقطر رؤوسهم.[١]

وهذا هو الّذي نوّهنا عنه في صدر البحث: أنّ الخليفة ومن لفّ لفّه، كانوا يقدّمون المصالح المزعومة على النصوص الشرعية مهما تضافرت وتواترت.

ثمّ إنّ المتأخّرين أرادوا حفظ كرامة الخليفة، فحرّفوا الكلم عن مواضعه وأوّلوا نهي الخليفة بوجهين:

١ ـ قالوا: إنّ ما حرّمه وأوعد عليه، غير هذا، وإنّما هو أن يحرم الرجل بالحجّ حتّى إذا دخل مكّة فسخ الحجّ إلى العمرة، ثمّ حَلّ وأقام حلالاً حتّى يهلّ بالحجّ يوم التروية.[٢]

وهذا ـ كما ترى ـ لا يوافق ما مرّ من النصوص، خصوصاً ما نقلناه من المناظرة بين سعد والضحّاك بن قيس من صحيح مسلم. ومن يقف على النصوص الكثيرة، والمناظرة الدائرة بين النبيّ وأصحابه، وبين الصحابة أنفسهم يطمئنّ إنّما نهى عن حجّ التمتع.

وقد روى البخاري عن مروان بن الحكم قال: شهدتُ عثمانَ وعليّاً ـ رضي الله عنهما ـ وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلمّا رأى عليٌّ (النهي) أهلّ بهما: لبّيك بعمرة وحجّة قال: ما كنت لأدع سنّة النبيّ ﷺ لقول أحد.[٣]

---

١. مسند أحمد: ١/ ٥٠؛ سنن ابن ماجة: ٢/ ٩٩٢، كتاب الحج، باب التمتع بالعمرة إلى الحج، رقم ٢٩٧٩، وسنن البيهقي: ٥/ ٢٠.

٢. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢٩٢.

٣. عمدة القاري: ٥/ ١٩٨.

٢ ـ إنّ نهي الخليفة عن متعة الحجّ لاختصاص إباحة المتعة بالصحابة في عمرتهم مع رسول الله فحسب.

ويكفينا في الردّ عليه قول ابن قيّم الجوزية: «إنّ تلكم الآثار الدالّة على الاختصاص بالصحابة بين باطل لا يصحّ، عمّن نُسب إليه البتّة، وبين صحيح عن قائل غير معصوم لا يعارض به نصوص المشرِّع المعصوم، ففي صحيحة الشيخين وغيرهما عن سراقة بن مالك قال: مُتعتُنا هذه يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «**لا بل للأبد**».[١]

قال العيني في قوله سبحانه: ﴿**فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ اِلَىٰ الْحَجِّ**﴾: أجمع المسلمون على إباحة التمتّع في جميع الأعصار، وأمّا السنّة فحديث سراقة: المتعة لنا خاصّة أم هي للأبد؟ قال: «**بل للأبد**»، وحديث جابر المذكور في صحيح مسلم في صفة الحجّ نحو هذا. ومعناه أنّ أهل الجاهلية كانوا لا يجيزون التمتّع، ولا يرون العمرة في أشهر الحجّ، فبيّن النبيّ أنّ الله قد شرّع العمرة في أشهر الحج وجوّز المتعة إلى يوم القيامة.[٢]

١. صحيح البخاري: ٣/ ١٤٨ كتاب الحج، باب عمرة التنعيم؛ مسند أحمد: ٣/ ٣٨٨ و٤/ ١٧٥؛ سنن البيهقي: ٥ / ١٩.
٢. عمدة القاري: ٥/ ١٩٨.

المسألة التاسعة:

مسح الأرجل في الوضوء

اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما، فذهب الأئمّة الأربعة إلى أنّ الواجب هو الغسل وحده، وقالت الشيعة الإمامية: إنّه المسح، وقال داود بن علي والناصر للحقّ من الزيدية: يجب الجمع بينهما، وهو صريح الطبري في تفسيره: ونقل عن الحسن البصري: أنّه مخيّر بينهما.(١)

وممّا يثير العجب اختلاف المسلمين في هذه المسألة، مع أنّهم رأوا وضوء رسول‌اللهﷺ كلّ يوم وليلة في موطنه ومهجره، وفي حضره وسفره، ومع ذلك اختلفوا في أشدّ المسائل ابتلاءً، وهذا يعرب عن أنّ الاجتهاد لعب في هذه المسألة دوراً عظيماً، فجعل أوضح المسائل أبهمها.

إنّ الذكر الحكيم تكفّل ببيان المسألة وما أبقى فيها إبهاماً وإعضالاً، ومثل ذلك بيّنه رسول اللهﷺ، ومن هنا فلابدّ من الجزم بأنّ المسلمين كانوا قد اتّفقوا على فعل واحد، وإلّا فما كان هذا الأمر بخفي، وكان رسول اللهﷺ يقوم بتوضيحه، إذن فلا محيص من القول بأنّ الحاضرين في عصر النزول فهموا من الآية معنىً واحداً: إمّا المسح أو الغسل، ولم يتردّدوا في حكم الرجلين أبداً. ولو خفي حكم هذه المسألة بعد رحلة الرسولﷺ على الأجيال الآتية فلا غرو في أنّ يخفى على المسلمين حكم أكثر المسائل.

---

١. تفسير الطبري: ٦/ ٨٦؛ مفاتيح الغيب: ١١/ ١٦٢؛ تفسير المنار: ٦/ ٢٢٨.

وقفة مع آية الوضوء

وليس فيها شيء أوثق من كتاب الله فعلينا دراسة ما جاء فيه، قال سبحانه: ﴿**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلى المَرافِقِ وامْسَحُوا بِرؤوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْنِ**﴾[1] وقد اختلف القرّاء في قراءة: ﴿**وأرجلكم إلى الكعبين**﴾ فمنهم من قرأ بالفتح، ومنهم من قرأ بالكسر إلّا أنّه من البعيد أن تكون كلّ من القراءتين موصولة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّ تجويزهما يضفي على الآية إبهاماً وإعضالاً، ويجعل الآية لغزاً، والقرآن كتاب الهداية والإرشاد، وتلك الغاية تطلب لنفسها الوضوح وجلاء البيان،خصوصاً فيما يتعلّق بالأعمال والأحكام التي يبتلي بها عامّة المسلمين، ولا تقاس بالمعارف والعقائد التي يختصّ الإمعان فيها بالأمثل فالأمثل.

وعلى كلّ تقدير فممّن حقّق مفاد الآية وبيّنها الإمام الرازي في تفسيره، ننقل كلامه بتلخيص:

قال: حجّة من قال بوجوب المسح مبني على القراءتين المشهورتين في قوله: ﴿**وأرجلكم**﴾ وهما:

الأوّل: قرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم ـ في رواية أبي بكر عنه ـ بالجرّ.

الثاني: قرأ نافع وابن عامر وعاصم ـ في رواية حفص عنه ـ بالنصب.

---

١. المائدة: ٦.

أمّا القراءة بالجرّ فهي تقتضي كون الأرجل معطوفة على الرؤوس فكما وجب المسح في الرأس، فكذلك في الأرجل.

فإن قيل لم لا يجوز أن يكون الجرّ على الجوار؟ كما في قوله: «جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» وقوله: «كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مَزَمّلِ».

قيل: هذا باطل من وجوه:

١ ـ إنّ الكسر على الجوار معدود من اللحن الذي قد يتحمّل لأجل الضرورة في الشعر، وكلام الله يجب تنزيهه عنه.

٢ ـ إنّ الكسر على الجوار انّما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله: «جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» فإنّ «الخَرِب» لا يكون نعتاً للضبّ بل للجحر، وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل.

٣ ـ إنّ الكسر بالجوار إنّما يكون بدون حرف العطف وأمّا مع حرف العطف فلم تتكلّم به العرب.

وأمّا القراءة بالنصب فهي أيضاً توجب المسح، وذلك لأنّ ﴿**برؤوسكم**﴾ في قوله: ﴿**فامسحوا برؤوسكم**﴾ في محل النصب[1] بامسحوا لأنّه المفعول به، ولكنّها مجرورة لفظاً بالباء، فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً على محل الرؤوس، وجاز الجرّ عطفاً على الظاهر.

نزيد بياناً انّه على قراءة النصب يتعيّن العطف على محلّ برؤوسكم، ولا

---

١. يقال: ليس هذا بعالم ولا عاملاً. قال الشاعر:

معاويَ إنّنا بشر فاسجحِ ... فلسنا بالجبال ولا الحديدا

لاحظ: المغني لابن هشام: الباب الرابع.

يجوز العطف على ظاهر ﴿**أيديكم**﴾ لاستلزامه الفصل بين العاطف والمعطوف عليه بجملة أجنبية وهو غير جائز في المفرد، فضلاً عن الجملة.

هذا هو الذي يعرفه المتدبّر في الذكر الحكيم، ولا يسوغ لمسلم أن يعدل عن القرآن إلى غيره، فإذا كان هو المهيمن على جميع الكتب السماوية، فأولى أن يكون مهيمناً على ما في أيدي الناس من الحقّ والباطل، والمأثورات التي الحديث فيها ذو شجون. مع كونها متضاربة في المقام، فلو ورد فيها الأمر بالغسل، فقد جاء فيها الأمر بالمسح، رواه الطبري عن الصحابة والتابعين نشير إليه على وجه الإجمال.

١ ـ ابن عباس، قال: الوضوء غسلتان ومسحتان.

٢ ـ كان أنس إذا مسح قدميه بلّهما، ولمّا خطب الحجّاج وقال: ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى خبثه في قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، قال أنس: صدق الله وكذب الحجّاج، قال الله: ﴿**وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين**﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما.

٣ ـ عكرمة، قال: ليس على الرجلين غسل، وإنّما نزل فيهما المسح.

٤ ـ الشعبي قال: نزل جبرئيل بالمسح وقال: ألا ترى أنّ التيمّم أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً.

٥ ـ عامر: أُمر أن يمسح في التيمّم ما أُمر أن يغسل بالوضوء، وأُبطل ما أُمر أن يمسح في الوضوء؛ الرأس والرجلان. وقيل له: إنّ أُناساً يقولون: إنّ جبرئيل نزل بغسل الرجلين فقال: نزل جبرئيل بالمسح.

٦ ـ قتادة في تفسير الآية: افترض الله غسلتين ومسحتين.

٧ ـ الأعمش: قرأ ﴿**وأرجلكم**﴾ مخفوضة اللام.

٨ ـ علقمة: قرأ «أرجلكم» مخفوضة اللام.

٩ ـ الضحاك: قرأ «وأرجلكم» بالكسر.

١٠ ـ مجاهد: مثل ما تقدّم.(١)

وهؤلاء من أعلام التابعين وفيهم الصحابيان: ابن عبّاس وأنس وقد أصفقوا على المسح وقراءة الجرّ الصريحة في تقديم المسح على الغسل، وجمهور أهل السنّة يحتجّون بأقوالهم في مجالات مختلفة، فلماذا أُعرض عنهم في هذا المجال المهمّ والحسّاس في عبادة المسلم.

إنّ القول بالمسح هو المنصوص عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهم يسندون المسح إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ويحكون وضوءه به، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**ألا أحكي لكم وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله**»؟ ثمّ أخذ كفّاً من الماء فصبّها على وجهه... إلى أن قال: ثمّ مسح رأسه وقدميه.

وفي رواية أُخرى: ثمّ مسح ببقيّة ما بقي في يديه رأسه ورجليه ولم يعدهما في الإناء.(٢)

وفي ضوء هذه الروايات والمأثورات اتّفقت الشيعة الإمامية على أنّ الوضوء غسلتان ومسحتان، وإلى ذلك يشير السيّد بحر العلوم في منظومته الموسومة بالدرة النجفيّة:

إن الوضوء غسلتان عندنا ومسحتان والكتاب معنا

---

١. تفسير الطبري: ٦/ ٨٢ ـ ٨٣.

٢. الوسائل ج ١، الباب ١٥ من أبواب الوضوء، الحديث ٩ و ١٠.

فـالغسل للـوجه وللـيدينِ والمسح للرأس وللرجلينِ

وبعد وضوح دلالة الآية، وإجماع أئمّة أهل البيت على المسح، واستناداً إلى جملة الأدلّة الواضحة التي ذكرنا بعضاً منها، فانّ القول بما يخالفها يبدو ضعيفاً ولا يصمد أمام النقاش، إلّا أنّا سنحاول أن نورد الوجوه التي استدلّ بها القائلون بالغسل ليتبين للقارئ الكريم مدى ضعف حجّيتها:

أدلة القائلين بالغسل ونقضها

١ ـ إنّ الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل، والغسل مشتمل على المسح ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط فـوجب المـصير إليـه، ويكـون غسـل الأرجـل يـقوم مـقام مسحها.[١]

يلاحظ عليه: أنّ أخبار الغسل معارضة بأخبار المسح، وليس شيء أوثق من كتاب الله، فلو دلّ على لزوم المسح لا يبقى مجال لترجيح أخبار الغسل على روايـات المسـح.والقـرآن هـو المهيمن على الكتب والمأثورات، والمعارض منها للكتاب لا يقام له وزن.

وأعجب من ذلك قوله: إنّ الغسل مشتمل على المسح، مع أنّهما حقيقتان مختلفتان، فالغسل إمرار الماء على المغسول، والمسح إمرار اليد على الممسوح[٢] وهما حقيقتان مختلفتان لغة وعرفاً وشرعاً، ولو حاول الاحتياط لوجب الجمع بين المسح والغسل، لا الاكتفاء بالغسل.

---

١. مفاتيح الغيب: ١١/ ١٦٢.

٢. قال سبحانه حاكياً عن سليمان: ﴿رُدّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأعْـناق﴾ (ص: ٣٣)؛ أي مسـح بـيده عـلى سـوق الصافنات الجياد وأعناقها.

٢ ـ ما روي عن عليعليه السلام من أنّه كان يقضي بين الناس فقال: «﴿**وأرجلكم**﴾ هذا من المقدّم والمؤخّر في الكلام فكأنّه سبحانه قال: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق واغسلوا أرجلكم وامسحوا برؤوسكم.

لكنّه يرد بأنّ أئمّة أهل البيت كالباقر والصادقعليهما السلام أدرى بما في البيت، وهما اتّفقا على المسح، وهل يمكن الاتّفاق على المسح مع اعتقاد كبيرهم بالغسل؟! إنّ المؤكّد هو أنّ هذه الرواية موضوعة عن لسان الإمام ليثيروا الشكّ بين أتباعه وشيعته. ولا نعلّق على احتمال التقديم والتأخير شيئاً، سوى أنّه يجعل معنى الآية شيئاً مبهماً في المورد الذي يطلب فيه الوضوح؛ إذ هي المرجع للقروي والبدوي، وللحاضر عصر النزول، والغائب عنه، فيجب أن يكون على نسق ينتقل منه إلى المراد، ثمّ إنّه أيّ ضرورة اقتضت هذا التقدّيم والتأخير، مع إنّه كان من الممكن ذكر الأرجل بعد الأيدي من دون تأخير؟ ولو كان الدافع إلى التأخير هو بيان الترتيب، وإنّ غسل الأرجل بعد مسح الرأس، فكان من الممكن أن يُذكر فعله ويقال: «فامسَحُوا بِرُؤُوسِكُم واغْسلوا أرجلكم إلى الكعبين». كلّ ذلك يعرب عن أنّ هذه محاولات فاشلة لتصحيح الاجتهاد تجاه النصّ، وما عليه أئمّة أهل البيت من الاتّفاق على المسح.

٣ ـ ما روي عن ابن عمر في الصحيحين قال: تخلّف عنّا رسول اللهصلى الله عليه وآله في سفرة، فأدركنا وقد أرهقنا العصر، وجعلنا نتوضّأ ونمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته: «**ويل للأعقاب من النار**» ـ مرتين أو ثلاثاً ـ.[1]

---

١. صحيح البخاري: ١ / ١٨كتاب العلم، باب من رفع صوته، الحديث ١.

ويردّ هذا الاستدلال: أنّ هذه الرواية على تعيّن المسح أدلّ من دلالتها على غسل الرجلين؛ فإنّها صريحة في أنّ الصحابة يمسحون، وهذا دليل على أنّ المعروف عندهم هو المسح، وما ذكره البخاري من أنّ الإنكار عليهم كان بسبب المسح لا بسبب الاقتصار على بعض الرجل، اجتهاد منه، وهو حجّة عليه لا على غيره، فكيف يمكن أن يخفى على ابن عمر حكم الرجلين حتّى يمسح رجليه عدّة سنين إلى أن ينكر عليه النبيّ المسح؟!

على أنّ للرواية معنى آخر تؤيّده بعض المأثورات، فقد روي: أنّ قوماً من أجلاف العرب، كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سبباً لذلك الوعيد[١] ويؤيّد ذلك ما يوصف به بعض الأعراب بقولهم: بوّال على عقبيه، وعلى فرض كون المراد ما ذكره البخاري، فلا تقاوم الرواية نصّ الكتاب.

٤ ـ روى ابن ماجة القزويني عن أبي إسحاق عن أبي حيّة، قال: رأيت عليّاً توضّأ فغسل قدميه إلى الكعبين ثمّ قال: «**أردت أن أُريكم طهور نبيّكم**».[٢]

إلّا أنّه يلاحظ عليه: أنّ أبا حيّة مجهول لا يعرف، ونقله عنه أبو إسحاق الذي شاخ ونسي واختلط وترك الناس روايته. [٣] أضف إليه أنّه يعارض ما رواه عنه أئمة أهل بيته، وأهل بيته، كابن عباس الّذي لازمه في حياته كما مرّ.

---

١. مجمع البيان: ٢/ ١٦٧.

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ١٧٠، باب ما جاء في غسل القدمين، الحديث ١.

٣. لاحظ التعليقة لسنن ابن ماجة: ١ / ١٧٠؛ ميزان الاعتدال للذهبي: ٤/ ٥١٩ برقم ١٠١٣٨ وص ٤٨٩ باب «أبو إسحاق».

٥ ـ قال صاحب المنار: وأقوى الحجج اللفظية على الإمامية جعل الكعبين غاية طهارة الرجلين، وهذا لا يحصل إلّا باستيعابهما بالماء؛ لأنّ الكعبين هما العظمان الناتئان في جانبي الرجل.

وهذا القول يلاحظ عليه: أنّا نفترض أنّ المراد من الكعبين هو ما ذكره، لكنّا نسأله: لماذا لا تحصل تلك الغاية إلّا باستيعابهما بالماء؟ مع أنّه يمكن تحصيل تلك الغاية بمسحهما بالنداوة المتبقية في اليد، والاختبار سهل، فها نحن من الذين يمسحون الأرجل إلى العظمين الناتئين بنداوة اليد، ولا نرى في العمل إعضالاً وعسراً.

٦ ـ وقال: إنّ الإمامية يمسحون ظاهر القدم إلى معقد الشراك عند المفصل بين الساق والقدم، ويقولون هو الكعب، ففي الرجل كعب واحد على رأيهم، فلو صحّ هذا لقال: إلى الكعاب كما قال في اليدين: ﴿**إلى المرافق**﴾.[1]

أقول: إنّ المشهور بين الإمامية هو تفسير الكعب بقبّة القدم التي هي معقد الشراك، وهناك من يذهب إلى أنّ المراد هو المفصل بين الساق والقدم، وذهب قليل منهم إلى أنّ المراد هما العظمان الناتئان في جانبي الرجل. وعلى كلّ تقدير، يصحّ إطلاق الكعبين، وإن كان حدّ المسح هو معقد الشراك أو المفصل، فيكون المعنى: ﴿**فامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ منكم، إذ لا شك أنّ كلّ مكلّف يملك كعبين في رجليه.

أضف إلى ذلك: أنّه لو صحّ التفسير بما ذكره فإنّه يجب أن يوسّع الممسوح ويحدّد بالعظمين الناتئين لا أن يبدّل المسح بالغسل، وكأنّه تخيّل

---

١. **تفسير المنار**: ٦/ ٢٣٤.

أنّ المسح بالنداوة المتبقّية في اليد لا يتحقّق بها، وأنّ اليد تجفّ قبل الوصول إليهما.

ولعمري أنّ هذه اجتهادات واهية، وتخرّصات لا قيمة لها في مقابل الذكر الحكيم.

٧ ـ آخر ما عند صاحب المنار في توجيه غسل الأرجل هو التمسّك بالمصالح، حيث قال: لا يعقل لإيجاب مسح ظاهر القدم باليد المبلّلة بالماء حكمة، بل هو خلاف حكمة الوضوء؛ لأنّ طروء الرطوبة القليلة على العضو الذي عليه غبار أو وسخ يزيده وساخة، وينال اليد الماسحة حظّ من هذه الوساخة.

وهذا القول يردّه: أنّ ما ذكره استحسان لا يُعرَّج عليه مع وجود النصّ، فلا شكّ أنّ الأحكام الشرعية تابعة للمصالح الواقعية ولا يجب علينا أن نقف عليها، فأيّ مصلحة في المسح على الرأس ولو بمقدار إصبع أو إصبعين حتّى قال الشافعي: إذا مسح الرجل بإصبع واحدة أو بعض إصبع أو باطن كفه، أو أمر مَن يمسح له أجزأه ذلك؟!

وهناك كلمة قيّمة للإمام شرف الدين الموسوي نأتي بنصّها، قال ـ رحمه الله ـ: نحن نؤمن بأنّ الشارع المقدّس لاحظ عباده في كلّ ما كلّفهم به من أحكامه الشرعية، فلم يأمرهم إلّا بما فيه مصلحتهم، ولم ينههم إلّا عمّا فيه مفسدة لهم، لكنّه مع ذلك لم يجعل شيئاً من مدارك تلك الأحكام منوطاً من حيث المصالح والمفاسد بآراء العباد، بل تعبّدهم بأدلّة قويّة عيّنها لهم، فلم يجعل لهم مندوحة عنها إلى ما سواها. وأوّل تلك الأدلّة الحكيمة كتاب

الله عزّوجلّ، وقد حكم بمسح الرؤوس والأرجل في الوضوء، فلا مندوحة عن البخوع لحكمه، أمّا نقاء الأرجل من الدنس فلابدّ من إحرازه قبل المسح عليها عملاً بأدلّة خاصّة دلّت على اشتراط الطهارة في أعضاء الوضوء قبل الشروع فيه[١]. ولعلّ غسل رسول الله ﷺ رجليه ـ المدّعى في أخبار الغسل ـ إنّما كان من هذا الباب، ولعلّه كان من باب التبرّد، أو كان من باب المبالغة في النظافة بعد الفراغ من الوضوء. والله أعلم[٢].

١. ولذا ترى حفاة الشيعة والعمّال منهم ـكأهل الحرث وأمثالهم وسائر من لا يبالون بطهارة أرجلهم في غير أوقات العبادة المشروطة بالطهارة ـإذا أرادوا الوضوء غسلوا أرجلهم ثمّ توضّأوا فمسحوا عليها نقيّة جافّة.

٢. مسائل فقهية: ٨٢.

المسألة العاشرة:

السجود على الأرض

لعلّ من أوضح مظاهر العبودية والانقياد والتذلّل من قبل المخلوق لخالقه، هو السجود، وبه يؤكّد المؤمن عبوديته المؤكّدة لله تعالى، ومن هنا فانّ البارئ عزّ اسمه يقدّر لعبده هذا التصاغر وهذه الطاعة؛ فيضفي على الساجد فيض لطفه وعظيم إحسانه، لذا روي في بعض المأثورات: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربّه حال سجوده**».

ولمّا كانت الصلاة من بين العبادات معراجاً يتميّز بها المؤمن عن الكافر، وكان السجود ركناً من أركانها، فليس هناك أوضح في إعلان التذلّل لله تعالى من السجود على التراب والرمل والحجر والحصى، لما فيه من تذلّل أوضح وأبين من السجود على الحصر والبواري، فضلاً عن السجود على الألبسة الفاخرة والفرش الوثيرة والذهب والفضّة، وإن كان الكلّ سجوداً، إلّا أنّ العبودية تتجلّى في الأوّل بما لا تتجلّى في غيره.

والإمامية ملتزمة بالسجدة على الأرض في حضرهم وسفرهم، ولا يعدلون عنها إلّا إلى ما أُنبت منها من الحصر والبواري بشرط أن لا يؤكل ولا يلبس، ولا يرون السجود على غيرهما صحيحاً في حال الصلاة أخذاً بالسنّة المتواترة عن النبيّ الأكرمﷺ وأهل بيته وصحبه. وسيظهر ـ في ثنايا البحث ـ أنّ الالتزام بالسجود على الأرض أو ما أنبتت، كانت هي السنّة

بين الصحابة، وأنّ العدول عنها حدث في الأزمنة المتأخّرة، ولأجل توضيح المقام نقدّم أُموراً:

١ ـ اختلاف الفقهاء في شرائط المسجود عليه

اتّفق المسلمون على وجوب السجود في الصلاة في كلّ ركعة مرّتين، ولم يختلفوا في المسجود له؛ فإنّه هو الله سبحانه الذي له يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً[١]، وشعار كلّ مسلم قوله سبحانه: ﴿**لا تَسجُدُوا لِلشَّمسِ ولا للقَمَرِ وآسجُدُوا لله الَّذي خَلَقَهُنَّ**﴾[٢] وإنّما اختلفوا في شروط المسجود عليه ـ أعني: ما يضع الساجد جبهته عليه ـ فالشيعة الإمامية تشترط على أن يكون المسجود عليه أرضاً أو ما ينبت منها غير مأكول ولا ملبوس كالحصر والبواري، وما أشبه ذلك. وخالفهم في ذلك غيرهم من المذاهب، وإليك نقل الآراء:

قال الشيخ الطوسي وهو يبيّن آراء الفقهاء: لا يجوز السجود إلّا على الأرض أو ما أنبتته الأرض ممّا لا يؤكل ولا يلبس من قطن أو كتّان مع الاختيار. وخالف جميع الفقهاء في ذلك وأجازوا السجود على القطن والكتان والشعر والصوف وغير ذلك ـ إلى أن قال ـ: لا يجوز السجود على شيء هو حامل له ككور العمامة، وطرف الرداء، وكمّ القميص، وبه قال الشافعي، وروي ذلك عن عليّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وابن عمر، وعبادة بن الصامت، ومالك، وأحمد بن حنبل.

---

١. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ في السَّمٰواتِ والأرضِ طَوْعاً وَكرْهاً وظلالُهُم بِالغُدُوِّ وَالآصالِ﴾، الرعد: ١٥.
٢. فصلت: ٣٧.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا سجد على ما هو حامل له كالثياب التي عليه أجزأه.

وإن سجد على ما لا ينفصل منه مثل أن يفترش يده ويسجد عليها أجزأه لكنّه مكروه، وروي ذلك عن الحسن البصري.[١]

وقال العلّامة الحلّي ـ وهو يبيّن آراء الفقهاء فيما يسجد عليه ـ: لا يجوز السجود على ما ليس بأرض ولا من نباتها كالجلود والصوف عند علمائنا أجمع، وأطبق الجمهور على الجواز.

وقد اقتفت الشيعة في ذلك أئمتهم الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه في حديث الثقلين، ونحن نكتفي هنا بإيراد جانب ممّا روي في هذا الجانب:

روى الصدوق بإسناده عن هشام بن الحكم أنّه قال لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عمّا يجوز السجود عليه، وعمّا لا يجوز قال: «**السجود لا يجوز إلّا على الأرض، أو على ما أنبتت الأرض إلّا ما أُكل أو لبس**». فقال له: جعلت فداك ما العلّة في ذلك؟

قال: «**لأنّ السجود خضوع لله عزّ وجلّ فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل ويلبس؛ لأنّ أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عزّ وجلّ، فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغترّوا بغرورها**».[٢]

---

١. الخلاف: ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨، كتاب الصلاة، المسألة ١١٢ ـ ١١٣.

٢. الوسائل: ٣، الباب ١ من أبواب ما يسجد عليه، الحديث ١. وهناك روايات بمضمونه، والكلّ يتضمّن أنّ الغاية من السجود التي هي التذلّل لا تحصل بالسجود على غيرها، فلاحظ.

فلا عتب على الشيعة إذا التزموا بالسجود على الأرض أو ما أنبتته؛ إذا لم يكن مأكولاً ولا ملبوساً اقتداءً بأئمّتهم، على أنّ ما رواه أهل السنّة في المقام، يدعم نظريّة الشيعة، وسيظهر لك فيما سيأتي من سرد الأحاديث من طرقهم، ويتّضح أنّ السنّة كانت هي السجود على الأرض، ثمّ جاءت الرخصة في الحصر والبواري فقط، ولم يثبت الترخيص الآخر بل ثبت المنع عنه كما سيوافيك.

٢ ـ الفرق بين المسجود له والمسجود عليه

كثيراً ما يتصوّر أنّ الالتزام بالسجود على الأرض أو ما أنبتت منها بدعة، ويتخيّل الحجر المسجود عليه وثناً، وهؤلاء هم الذين لا يفرّقون بين المسجود له، والمسجود عليه، ويزعمون أنّ الحجر أو التربة الموضوعة أمام المصلّي وثناً يعبده المصلّي بوضع الجبهة عليه. ولكن لا عتب على الشيعة إذا قصر فهم المخالف، ولم يفرّق بين الأمرين، وزعم المسجود عليه مسجوداً له، وقاس أمر الموحّد بأمر المشرك بحجّة المشاركة في الظاهر، فأخذ بالصور والظواهر، مع أنّ الملاك هو الأخذ بالبواطن والضمائر، فالوثن عند الوثني معبود ومسجود له يضعه أمامه ويركع ويسجد له، ولكن الموحّد الذي يريد أن يصلّي في إظهار العبودية إلى نهاية مراتبها، يخضع لله سبحانه ويسجد له، ويضع جبهته ووجهه على التراب والحجر والرمال والحصى، مظهراً بذلك مساواته معها عند التقييم قائلاً: أين التراب وربّ الأرباب.

نعم؛ الساجد على التربة غير عابد لها، بل يتذلّل إلى ربّه بالسجود عليها، ومن توهّم عكس ذلك فهو من البلاهة بمكان، وسيؤدّي إلى إرباك كلّ المصلين والحكم بإشراكهم، فمن يسجد على الفرش والقماش وغيره لابدّ أن يكون عابداً لها على هذا المنوال، فيا للعجب العجاب!!

٣ ـ السنّة في السجود في عصر الرسول ﷺ وبعده

إنّ النبي الأكرم ﷺ وصحبه كانوا ملتزمين بالسجود على الأرض مدّة لا يستهان بها، متحمّلين شدّة الرمضاء، وغبار التراب، ورطوبة الطين، طيلة أعوام. ولم يسجد أحد يوم ذاك على الثوب وكور العمامة، بل ولا على الحصر والبواري والخمر، وأقصى ما كان عندهم لرفع الأذى عن الجبهة، هو تبريد الحصى بأكفّهم ثمّ السجود عليها، وقد شكا بعضهم إلى رسول الله ﷺ شدّة الحرّ، فلم يجبه؛ إذ لم يكن له أن يبدل الأمر الإلهي من تلقاء نفسه، إلى أن وردت الرخصة بالسجود على الخمر والحصر، فوسع الأمر للمسلمين لكن في إطار محدود، وعلى ضوء هذا فقد مرّت في ذلك الوقت على المسلمين مرحلتان لا غير:

١ ـ ما كان الواجب فيها على المسلمين السجود على الأرض بأنواعها المختلفة من التراب والرمل والحصى والطين، ولم تكن هناك أيّة رخصة.

٢ ـ المرحلة التي ورد فيها الرخصة بالسجود على نبات الأرض من الحصى والبواري والخمر، تسهيلاً للأمر، ورفعاً للحرج والمشقّة، ولم تكن هناك أيّة مرحلة أُخرى توسع الأمر للمسلمين أكثر من ذلك كما يدّعيه البعض، وإليك البيان:

المرحلة الأُولى: السجود على الأرض:

١ ـ روى الفريقان عن النبيّ الأكرمﷺ أنّه قال: «**وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**».[١]

والمتبادر من الحديث أنّ كلّ جزء من الأرض مسجد وطهور يُسجد عليه ويُقصد للتيمّم، وعلى ذلك فالأرض تقصد للجهتين: للسجود تارةً، وللتيمّم أُخرى.

وأمّا تفسير الرواية بأنّ العبادة والسجود لله سبحانه لا يختصّ بمكان دون مكان، بل الأرض كلّها مسجد للمسلمين بخلاف غيرهم؛ حيث خصّوا العبادة بالبِيَع والكنائس، فهذا المعنى ليس مغايراً لما ذكرناه؛ فإنّه إذا كانت الأرض على وجه الإطلاق مسجداً للمصلّي فيكون لازمه كون الأرض كلّها صالحة للعبادة، فما ذكر معنى التزامي لما ذكرناه، ويعرب عن كونه المراد ذكر «طهوراً» بعد «مسجداً» وجعلهما مفعولين لـ «جُعلت» والنتيجة هو توصيف الأرض بوصفين: كونها مسجداً، وكونها طهوراً، وهذا هو الذي فهمه الجصّاص وقال: إنّ ماجعله من الأرض مسجداً هو الذي جعله طهوراً.[٢]

ومثله غيره من شرّاح الحديث.

تبريد الحصى للسجود عليها:

٢ ـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنت أُصلّي مع النبيّﷺ الظهر،

---

١. صحيح البخاري: ١/ ٩١، كتاب التيمّم، الحديث ٢؛ سنن البيهقي: ٢/ ٤٣٣، باب: أينما أدركتك الصلاة فصلّ فهو مسجد، ورواه غيرهما من أصحاب الصحاح والسنن.

٢. أحكام القرآن: ٢/ ٣٨٩.

فآخذ قبضة من الحصى، فأجعلها في كفّي ثمّ أُحوّلها إلى الكفّ الأُخرى حتّى تبرد ثـمّ أضعها لجبيني، حتّى أسجد عليها من شدّة الحرّ.(١)

وعلّق عليه البيهقي بقوله: قال الشيخ: ولو جاز السجود على ثوب متّصل به لكان ذلك أسهل من تبريد الحصى بالكفّ ووضعها للسجود.(٢)

ونقول: ولوكان السجود على مطلق الثياب سواء كان متصلاً أم منفصلاً جائزاً لكان أسهل من تبريد الحصى، ولأمكن حمل منديل أو ما شابه للسجود عليه.

٣ ـ روى أنس قال: كنّا مع رسول اللهﷺ في شدّة الحرّ فيأخذ أحدنا الحصباء في يده، فإذا برد وضعه وسجد عليه. (٣)

٤ ـ عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول اللهﷺ شدّة الرمضاء في جباهنا وأكفّنا، فلم يشكّنا.(٤)

قال ابن الأثير في معنى الحديث: إنّهم لمّا شكوا إليه ما يجدون من ذلك لم يفسح لهم أن يسجدوا على طرف ثيابهم.(٥)

هذه المأثورات تعرب عن أنّ السنّة في الصلاة كانت جارية على السجود عـلى الأرض فقط، حتّى أنّ الرسولﷺ لم يفسح للمسلمين العدول عنها إلى

---

١. مسند أحمد: ٣/ ٣٢٧عن جابر؛ سنن البيهقي: ١/ ٤٣٩، باب ما روي في التعجيل بها في شدّة الحرّ.
٢. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥.
٣. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٦.
٤. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥، باب الكشف عن الجبهة.
٥. النهاية: ٢/ ٤٩٧ مادة «شكا».

الثياب المتّصلة أو المنفصلة، وهوﷺ مع كونه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً أوجب عليهم مسّ جباههم الأرض، وإن آذتهم شدّة الحرّ.

والذي يعرب عن التزام المسلمين بالسجود على الأرض، وعن إصرار النبيّ الأكرمﷺ بوضع الجبهة عليها لا على الثياب المتّصلة ككور العمامة أو المنفصلة كالمناديل والسجاجيد، ما روي من حديث الأمر بالتتريب في غير واحد من الروايات.

الأمر بالتتريب:

٥ ـ عن خالد الجهني: قال: رأى النبيّﷺ صهيباً يسجد كأنّه يتّقي التراب فقال له: «**ترّب وجهك يا صهيب**».[١]

والظاهر أنّ صهيباً كان يتّقي عن التتريب بالسجود على الثوب المتّصل والمنفصل، ولا أقلّ بالسجود على الحصر والبواري والأحجار الصافية، وعلى كلّ تقدير؛ فالحديث شاهد على أفضليّة السجود على التراب في مقابل السجود على الحصى؛ لما دلّ من جواز السجدة على الحصى في مقابل السجود على غير الأرض.

٦ ـ روت أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: رأى النبيﷺ غلاماً لنا يقال له أفلح ينفخ إذا سجد، فقال: «**يا أفلح ترّب**».[٢]

٧ ـ وفي رواية: «**يا رباح ترّب وجهك**».[٣]

---

١. كنز العمال: ٧/ ٤٦٥ برقم ١٩٨١٠.
٢. كنز العمال: ٧/ ٤٥٩ برقم ١٩٧٧٦.
٣. المصدر نفسه: برقم ١٩٧٧٧.

٨ ـ روى أبو صالح قال: دخلت على أُمّ سلمة، فدخل عليها ابن أخ لها فصلّى في بيتها ركعتين، فلمّا سجد نفخ التراب، فقالت أُمّ سلمة: ابن أخي لا تنفخ؛ فإنّي سمعت رسول اللهﷺ يقول لغلام له يقال له يسار ـ ونفخ ـ: «**ترّب وجهك لله**».[١]

الأمر بحسر العمامة عن الجبهة:

٩ ـ روي: أنّ النبيﷺ كان إذا سجد رفع العمامة عن جبهته.[٢]

١٠ ـ روي عن عليّ أمير المؤمنين أنّه قال: «**إذا كان أحدكم يصلّي فليحسر العمامة عن وجهه**»، يعني حتّى لا يسجد على كور العمامة.[٣]

١١ ـ روي عن صالح بن حيوان السبائي: أنّ رسول اللهﷺ رأى رجلاً يسجد بجنبه وقد اعتمّ على جبهته فحسر رسول اللهﷺ عن جبهته.[٤]

١٢ ـ عن عياض بن عبد الله القرشي: رأى رسول اللهﷺ رجلاً يسجد على كور عمامته فأومأ بيده: «**ارفع عمامتك**» وأومأ إلى جبهته.[٥]

هذه الروايات تكشف عن أنّه لم يكن للمسلمين يوم ذاك تكليف إلّا السجود على الأرض، ولم يكن هناك أيّ رخصة سوى تبريد الحصى، ولو كان هناك ترخيص لما فعلوا ذلك، ولما أمر النبيّﷺ بالتتريب، وحسر العمامة عن الجبهة.

---

١. كنز العمال: ٧/ ٤٦٥ برقم ١٩٨٠٩؛ مسند أحمد: ٦/ ٣٠١.
٢. الطبقات الكبرى: ١/ ١٥١ كما في السجود على الأرض: ٤١.
٣. منتخب كنز العمال المطبوع في هامش المسند: ٣/ ١٩٤.
٤. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥.
٥. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥.

المرحلة الثانية: الترخيص في السجود على الخمر والحصر:

هذه الأحاديث والمأثورات المبثوثة في الصحاح والمسانيد وسائر كتب الحديث تعرب عن التزام النبيﷺ وأصحابه بالسجود على الأرض بأنواعها، وأنّهم كانوا لا يعدلون عنه، وإن صعب الأمر واشتدّ الحرّ، لكن هناك نصوصاً تعرب عن ترخيص النبيﷺ ـ بإيحاء من الله سبحانه إليه ـ السجود على ما أنبتت الأرض، فسهّل لهم بذلك أمر السجود، ورفع عنهم الإصر والمشقّة في الحرّ والبرد، وفيما إذا كانت الأرض مبتلّة، وإليك تلك النصوص:

١ ـ عن أنس بن مالك قال: كان رسول اللهﷺ يصلّي على الخمرة.[١]

٢ ـ عن ابن عباس: كان رسول اللهﷺ يصلّي على الخمرة، وفي لفظ: وكان النبيّﷺ يصلّي على الخمرة.[٢]

٣ ـ عن عائشة: كان النبيّﷺ يصلّي على الخمرة.[٣]

٤ ـ عن أُمّ سلمة: كان رسول اللهﷺ يصلّي على الخمرة.[٤]

٥ ـ عن ميمونة: ورسول اللهﷺ يصلّي على الخمرة فيسجد.[٥]

٦ ـ عن أُمّ سليم قالت: كان رسول اللهﷺ يصلّي على الخمرة.[٦]

٧ ـ عن عبد الله بن عمر: كان رسول اللهﷺ يصلّي على الخمر.[٧]

---

١. أخبار اصبهان: ٢/ ١٤١.

٢. مسند أحمد: ١/ ٢٦٩، ٣٠٣، ٣٠٩ و٣٥٨.

٣. المصدر نفسه ٦: ١٧٩ وفيه أيضاً قال للجارية وهو في المسجد: ناوليني الخمرة.

٤. المصدر نفسه: ٣٠٢.

٥. مسند أحمد: ١/ ٣٣١ ـ ٣٣٥.

٦. المصدر نفسه: ٣٧٧.

٧. المصدر نفسه: ٢/ ٩٢ ـ ٩٨.

المرحلة الثالثة: السجود على الثياب لعذر:

قد عرفت المرحلتين الماضيتين، ولو كان هناك مرحلة ثالثة فإنّما مرحلة جواز السجود على غير الأرض وما ينبت منها لعذر وضرورة. ويبدو أنّ هذا الترخيص جاء متأخّراً عن المرحلتين لما عرفت أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يُجب شكوى الأصحاب من شدّة الحرّ والرمضاء، وراح هو وأصحابه يسجدون على الأرض متحمّلين الحرّ والأذى، ولكنّ الباري عزّ اسمه رخّص لرفع الحرج السجود على الثياب لعذر وضرورة، وإليك ما ورد في هذا المقام.

١ ـ عن أنس بن مالك: كنّا إذا صلّينا مع النبيّ صلى الله عليه وآله فلم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض، طرح ثوبه ثمّ سجد عليه.

٢ ـ وفي صحيح البخاري: كنّا نصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله فيضع أحدنا طرف الثوب من شدّة الحرّ، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه.

٣ ـ وفي لفظ ثالث: كنّا إذا صلّينا مع النبيّ صلى الله عليه وآله فيضع أحدنا طرف الثوب من شدّة الحرّ مكان السجود.[1]

وهذه الرواية التي نقلها أصحاب الصحاح والمسانيد تكشف حقيقة بعض ما روي في ذلك المجال الظاهر في جواز السجود على الثياب في حالة الاختيار أيضاً. وذلك لأنّ رواية أنس نصّ في اختصاص الجواز على حالة

---

١. صحيح البخاري: ١/ ١٠١؛ صحيح مسلم: ٢/ ١٠٩؛ مسند أحمد: ١/ ١٠٠؛ السنن الكبرى: ٢/ ١٠٦.

الضرورة، فتكون قرينة على المراد من هذه المطلقات، وإليك بعض ما روي في هذا المجال:

١ ـ عبدالله بن‌محرز عن أبي‌هريرة: كان رسول‌الله ﷺ يصلّي على كور عمامته.[١]

إنّ هذه الرواية مع أنّها معارضة لما مرّ من نهي النبيّ ﷺ عن السجود عليه، محمولة على العذر والضرورة، وقد صرّح بذلك الشيخ البيهقي في سننه، حيث قال: قال الشيخ: «وأمّا ما روي في ذلك عن النبيّ ﷺ من السجود على كور العمامة فلا يثبت شيء من ذلك، وأصحّ ما روي في ذلك قول الحسن البصري حكاية عن أصحاب النبيّ ﷺ.[٢]

وقد روي عن ابن راشد قال: «رأيت مكحولاً يسجد على عمامته فقلت: لما تسجد عليها؟ قال أتّقي البرد على أنساني ـ أي عيني ـ».[٣]

٢ ـ ما روي عن أنس: «كنّا نصلّي مع النبيّ ﷺ فيسجد أحدنا على ثوبه».[٤]

والرواية محمولة على صورة العذر بقرينة ما رويناه عنه، وبما رواه عنه البخاري: «كنّا نصلّي مع النبيّ ﷺ في شدّة الحرّ، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن وجهه من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه».[٥]

---

١. كنز العمال: ٨/ ١٣٠ برقم ٢٢٢٣٨.
٢. السنن الكبرىٰ: ٢/ ١٠٦.
٣. المصنّف لعبد الرزاق: ١/ ٤٠٠ كما في السجود على الأرض: ١١٢.
٤. السنن الكبرى :٢/ ١٠٦، باب من بسط ثوباً فسجد عليه.
٥. صحيح البخاري: ٢/ ٦٤، كتاب الصلاة، باب بسط الثوب في الصلاة للسجود.

ويؤيّده ما رواه النسائي أيضاً: «كنّا إذا صلّينا خلف النبيّ ﷺ بالظهائر سجدنا على ثيابنا اتّقاء الحرّ».[١]

وهناك روايات قاصرة الدلالة حيث لا تدلّ إلّا على أنّ النبيّ ﷺ صلّى على الفرو. وأمّا أنّه سجد عليه فلا دلالة لها عليه.

٣ ـ عن المغيرة بن شعبة: كان رسول الله ﷺ يصلّي على الحصير والفروة المدبوغة.[٢]

والرواية مع كونها ضعيفة بيونس بن الحرث، ليست ظاهرة في السجود عليه. ولا ملازمة بين الصلاة على الفرو والسجدة عليه، ولعلّه ﷺ وضع جبهته على الأرض أو ما ينبت منها. وعلى فرض الملازمة لا تقاوم هي وما في معناها ما سردناه من الروايات في المرحلتين الماضيتين.

حصيلة البحث

إنّ المتأمّل في الروايات يجد وبدون لبس أنّ قضيّة السجود في الصلاة مرّت بمرحلتين أو ثلاث مراحل؛ ففي المرحلة الأُولى كان الفرض السجود على الأرض ولم يرخّص للمسلمين السجود على غيرها، وفي الثانية جاء الترخيص فيما تنبته الأرض، وليست وراء هاتين المرحلتين مرحلة أُخرى إلّا جواز السجود على الثياب لعذر وضرورة، فما يظهر من بعض الروايات من جواز السجود على الفرو وأمثاله مطلقاً فمحمولة على

١. جامع الأُصول: ٥/ ٤٦٨ برقم ٣٦٦٠.
٢. سنن أبي داود: ١ / ١٥٥، باب الصلاة على الحصير برقم ٦٥٩.

الضرورة، أو لا دلالة لها على السجود عليها، بل غايتها الصلاة عليها.

ومن هنا فإنّ ما يظهر بوضوح أنّ ما التزمت به الشيعة هو عين ما جاءت به السنّة النبويّة، ولم تنحرف عنه قيد أُنملة، ولعلّ الفقهاء هم أدرى بذلك من غيرهم، لأنّهم الأُمناء على الرسالة والأدلّاء في طريق الشريعة، ونحن ندعو إلى برهة من التأمّل لإحقاق الحقّ وتجاوز البدع.

ما هو السرّ في اتّخاذ تربة طاهرة؟

بقي هنا سؤال يطرحه كثيراً إخواننا أهل السنّة حول سبب اتّخاذ الشيعة تربة طاهرة في السفر والحضر والسجود عليها دون غيرها. وربّما يتخيّل البسطاء ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أنّ الشيعة يسجدون لها لا عليها، ويعبدون الحجر والتربة، وذلك لأنّ هؤلاء المساكين لا يفرّقون بين السجود على التربة، والسجود لها.

وعلى أيّ تقدير فالإجابة عنها واضحة، فإنّ المستحسن عند الشيعة هو اتّخاذ تربة طاهرة طيّبة ليتيقن من طهارتها، من أيّ أرض أُخذت، ومن أيّ صقع من أرجاء العالم كانت، وهي كلّها في ذلك سواء.

وليس هذا الالتزام إلّا مثل التزام المصلّي بطهارة جسده وملبسه ومصلّاه، وأمّا سرّ الالتزام في اتّخاذ التربة هو أنّ الثقة بطهارة كلّ أرض يحلّ بها، ويتّخذها مسجداً، لا تتأتّى له في كلّ موضع من المواضع التي يرتادها المسلم في حلّه وترحاله، بل وأنّى له ذلك وهذه الأماكن ترتادها أصناف مختلفة من البشر، مسلمين كانوا أم غيرهم، ملتزمين بأُصول الطهارة أم غير ذلك، وفي ذلك محنة كبيرة تواجه المسلم في صلاته لا يجد مناصاً من أن يتّخذ لنفسه تربة

طاهرة يطمئنّ بها وبطهارتها يسجد عليها لدى صلاته حذراً من السجدة على الرجاسة والنجاسة، والأوساخ التي لا يتقرّب بها إلى الله قطّ ولا تجوّز السنّة السجود عليها ولا يـقبله العقل السليم، خصوصاً بعد ورود التأكيد التام البالغ في طهارة أعضاء المصلّي ولباسه والنهي عن الصلاة في مواطن منها:

١ ـ المزبلة، والمجزرة، وقارعة الطريق، والحمّام، ومعاطن الإبل، بل والأمـر بـتطهير المساجد وتطييبها.[١]

وهذه القاعدة كانت ثابتة عند السلف الصالح وإن غفل التاريخ عن نقلها، فقد روي: أنّ التابعي الفقيه مسروق بن الأجدع (المتوفّى ٦٢هـ) كان يصحب في أسفاره لبنة مـن المـدينة يسجد عليها. كما أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنّف، باب من كان حمل في السفينة شيئاً يسجد عليه. فأخرج بإسنادين أنّ مسروقاً كان إذا سافر حمل معه فـي السـفينة لبـنة يسـجد عليها.[٢]

إلى هنا تبيّن أنّ التزام الشيعة باتّخاذ التربة مسجداً ليس إلّا تسهيل الأمر للمصلّي في سفره وحضره خوفاً من أن لا يجد أرضاً طاهرة أو حصيراً طاهراً فيصعب الأمر عليه، وهـذا كادّخار المسلم تربة طاهرة لغاية التيمّم عليها.

وأمّا السرّ في التزام الشيعة استحباباً بالسجود على التربة الحسينية، فإنّ من الأغـراض العالية والمقاصد السامية منها، أن يتذكّر المصلّي حين يضع جبهته على تلك التربة، تضحية ذلك الإمام بنفسه وأهل بيته والصفوة من أصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ ومقارعة الجـور والفساد.

---

١. سيرتنا وسنّتنا: ١٣٥.

٢. المصنّف: ١/ ٤٠٠كما في السجدة على التربة: ٩٣.

ولمّا كان السجود أعظم أركان الصلاة، وفي الحديث «**أقرب ما يكون العبد إلى ربّه حال سجوده**» فيناسب أن يتذكّر بوضع جبهته على تلك التربة الزاكية، أُولئك الذين جعلوا أجسامهم ضحايا للحقّ، وارتفعت أرواحهم إلى الملأ الأعلى، ليخشع ويخضع ويتلازم الوضع والرفع، وتحتقر هذه الدنيا الزائفة، وزخارفها الزائلة، ولعلّ هذا هو المقصود من أنّ السجود عليها يخرق الحجب السبع كما في الخبر، فيكون حينئذ في السجود سرّ الصعود والعروج من التراب إلى ربّ الأرباب.[1]

وقال العلّامة الأميني: نحن نتّخذ من تربة كربلاء قطعاً لمعاً، وأقراصاً نسجد عليها كما كان فقيه السلف مسروق بن الأجدع يحمل معه لبنة من تربة المدينة المنوّرة يسجد عليها، والرجل تلميذ الخلافة الراشدة، فقيه المدينة، ومعلّم السنّة بها، وحاشاه من البدعة. فليس في ذلك أيّ حزازة وتعسّف أو شيء يضادّ نداء القرآن الكريم أو يخالف سنّة الله وسنّة رسولهﷺ أو خروج من حكم العقل والاعتبار.

وليس اتّخاذ تربة كربلاء مسجداً لدى الشيعة من الفرض المحتّم، ولا من واجب الشرع والدين، ولا ممّا ألزمه المذهب، ولا يفرق أيّ أحد منهم منذ أوّل يومها بينها وبين غيرها من تراب جميع الأرض في جواز السجود عليها خلاف ما يزعمه الجاهل بهم وبآرائهم، وإن هو عندهم إلّا استحسان عقلي ليس إلّا، واختياراً لما هو الأولى بالسجود لدى العقل والمنطق والاعتبار فحسب كما سمعت، وكثير من رجال المذهب يتّخذون معهم في أسفارهم غير تربة كربلاء

---

١. الأرض والتربة الحسينية: ٢٤.

ممّا يصحّ السجود عليه كحصير طاهر نظيف يوثق بطهارته أو خمرة مثله ويسجدون عليه في صلواتهم[١].

هذا إلمام إجمالي بهذه المسألة الفقهية والتفصيل موكول إلى محلّه، وقد أغنانا عن ذلك ما سطّره أعلام العصر وأكابره، وأخص بالذكر منهم.

١ ـ المصلح الكبير الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ) في كتابه «الأرض والتربة الحسينية».

٢ ـ العلّامة الكبير الشيخ عبد الحسين الأميني مؤلّف الغدير (١٣٢٠ ـ ١٣٩٠هـ) فقد دوّن رسالة في هذا الموضوع طبعت في آخر كتابه «سيرتنا وسنّتنا».

٣ ـ «السجود على الأرض» للعلّامة الشيخ عليّ الأحمدي ﷺ فقد أجاد في التتبّع والتحقيق.

وما ذكرنا في هذه المسألة اقتباس من أنوار علومهم. رحم الله الماضين من علمائنا وحفظ الله الباقين منهم.

---

١. سيرتنا وسنّتنا: ١٤٢.

المسألة الحادية عشرة:

عدالة الصحابة كلّهم

صحابة النبيّ الأكرمﷺ هم المسلمون الأوائل الذين رأوا النبيّ الأكرمﷺوتشرّفوا بكرامة الصحبة، وتحمّلوا جانباً مهمّاً في عملية نشر الدعوة الإسلامية، وبذل جمع منهم النفس والنفيس في نشر الإسلام، حتّى امتدّ إلى أقاصي المعمورة فأقاموا أُسسه، وشادوا بنيانه، ورفعوا قواعده بجهادهم المتواصل، وبلغوا ذروة المجد باستسهال المصاعب، فلولا بريق سيوفهم، وقوّة سواعدهم، وخوضهم عباب المنايا، لما قام للدين عمود، ولا اخضرّ له عود.

ولمّا كان الكتاب والسنّة هما المصدرين الرئيسيين عند المسلمين جميعاً، والشيعة منهم، وبهدي نورهما يسترشد في استشراف الحقائق الثابتة التي لا غبار عليها، فإنّ التأمل في هذين المصدرين الغدقين يبيّن مدى فضل أُولئك ومنزلتهم في الإسلام.

ولعلّ المتأمل في الكتاب والسنّة يجد مدى ما يحفى به الصحابة الصادقون من ثناء وتكريم، ومن تلا آيات الذكر الحكيم حول المهاجرين والذين اتّبعوهم بإحسان، لا يملك نفسه إلّا أن يغبط منزلتهم وعلوّ شأنهم، بل ويتمنّى من صميم قلبه أن يكون أحدهم ويدرك شأنهم، ومن استمع للآيات النازلة في الذين بايعوا رسول اللهﷺ تحت الشجرة أو أصحاب

سورة الفتح[1] فلا بد أن تفيض عيناه دمعاً ويرتعش قلبه شوقاً نحو تلك الثلّة المؤمنة التي صدقت ما عاهدت الله عليه ورسولهﷺ.

فإذا كان هذا حال الصحابة في الذكر الحكيم فكيف يتجرّأ مسلم على تكفير الصحابة ورميهم بالردّة والزندقة أو تفسيقهم جميعاً؟ ﴿**سبحانك هذا بهتان عظيم**﴾.

وكيف يستطيع أن يصوّر دعوة النبيّﷺ ضئيلة الفائدة أو يتّهمه بعدم النجاح في هداية قومه وإرشاد أُمّته، وأنّه لم يؤمن به إلّا شرذمة قليلة لا يتجاوزون عدد الأصابع، وأنّ ما سواهم كانوا بين منافق ستر كفره بالتظاهر بالإيمان، أو مرتدّ على عقبيه القهقرىٰ بعد رحلة النبيّ الأكرمﷺ.

كيف يجوز لمسلم أن يصف دعوته ويقول: إنّه لم يهتد ولم يثبت على الإسلام بعد مرور (٢٣) عاماً من الدعوة إلّا ثلاثة أو سبعة أو عشرة. إنّ هذا ليس إلّا هراء وكذب رخيص لا تقبله العقول.

والأنكى من ذلك كلّه أن يُرمى الشيعة بهذا التقوّل الممجوج، وأن تجد من يصدّق ذلك ويرتّب على أساسه مواقف وآراء، وإنّا نسأل أُولئك عن هذا فنقول لهم: أيّ شيعي واع ادّعى ذلك؟ ومتى قال؟ وأين ذكره؟ إنّ الشيعة بريئة من هذه التخرّصات، وما هذه الحكايات السقيمة إلّا جزءاً من الدعايات الفارغة ضدّ الشيعة والتي أثارها الأمويّون في أعصارهم، ليسقطوا الشيعة من عيون المسلمين، وتلقّفتها أقلام المستأجرين لتمزيق الوحدة الإسلامية، وفصم عرى الأُخوّة. وترى تلك الفرية في هذه الأيام في كتيّب نشره الكاتب أبو الحسن

---

١. لاحظ الآيتين ١٨ و٢٩ من سورة الفتح، ففيهما إشارة واضحة إلى ما تحدّثنا عنه.

الندوي أسماه بـ«صورتان متعارضتان». وهو يجترّ ذلك مرّة بعد أُخرى، وما يـريد مـن ذلك إلّا زيادة الأُمّة فرقة وتمزيقاً.

نعم وردت روايات في ذلك، ولكنّها لا تكون مصدراً للعقيدة، ولا تتّخذ مقياساً لها؛ لأنّها روايات آحاد لا تفيد علماً في مجال العقائد، وستوافيك دراسة متونها وأسانيدها.

إنّا لو أحصينا المهتدين في عصر الرسولﷺ من بني هاشم لتجاوز عددهم العشرات، بدءاً من عمّه أبي طالب ومروراً بصفيّة عمّته، وفاطمة بنت أسد، وبحمزة والعبّاس وجعفر وعقيل وطالب وعبيدة بن الحارث «شهيد بدر» وأبي سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وجعدة بن أبي هبيرة وأولادهم وزوجاتهم، وانتهاءً بعليّعليه السلام وأولاده وبناته وزوجته فاطمة الزهراء سـيّدة نساء العالمين.

أمّا الذين استشهدوا في عهد النبيّ الأكرمﷺ فهم يتجاوزون المئات، ولا يشكّ أيّ مسلم في أنّهم كانوا مثال المؤمنين الصادقين الذين حوّلهم الإسلام وأثّر فيهم، فضربوا في حياتهم أروع الأمثلة في الإيمان والتوحيد والتضحية بالغالي والنفيس، خدمة للمبدأ و العقيدة. ولعـلّ الاستعراض المتعجّل لمجموع تلك الأسماء لا يملك إلّا أن يجزم بصحّة ما ذهـبنا إليـه مـن القول بمكانة أُولئك الصحابة ابتداءً بآل ياسر الذين كان رسول اللهﷺ يقول لهم وهـو يسـمع أنينهم تحت سياط التعذيب: «**صبراً آل ياسر إنّ موعدكم الجنّة**»[1]، و مروراً بـمن تـوفّي فـي مهجر الحبشة وشهداء بدر وأُحد، وقد استشهد في معركة أُحد سبعون

١. السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٢٠.

صحابياً كان رسول الله ﷺ يزورهم ويسلّم عليهم، ثمّ شهداء سائر المعارك والغزوات، حتّى قال النبيّ الأكرم ﷺ في حقّ سعد بن معاذ شهيد غزوة الخندق: «**اهتزّ العرش لموته**»، وشهداء بئر معونة والتي يتراوح عدد الشهداء فيها بين (٤٠) حسب رواية أنس بن مالك و (٧٠) حسب رواية غيره، إلى غير ذلك من الأصحاب الصادقين الأجلّاء الذين: ﴿**صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبديلاً**﴾[١]، ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَـهُمُ النَّـاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ**﴾[٢]، ﴿**للفُقَراءِ المُهاجِرينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسولَهُ... والَّذِينَ تَبَوّءوا الدّارَ والإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيهِمْ ولا يَجِدُونَ في صُدُورهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَـىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾[٣].

أو ليست هذه الآيات تثبت نجاح النبيّ ﷺ في دعوته، وأنّه اجتمع حوله رجال صالحون ومخلصون، فكيف يمكن رمي مسلم يتلو الذكر الحكيم ليل نهار باعتقاده بخيبة النبيّ الأكرم ﷺ في دعوته وتهالكه في هداية أُمّته. إنّ الموقف الصحيح من الصحابة هو ما جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«**أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التّيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة وأُبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟ أوّه على إخواني الذين تلوا القرآن**

---

١. الأحزاب: ٢٣.
٢. آل عمران: ١٧٣.
٣. الحشر: ٨ـ ٩.

فأحكموه وتدبّروا الفرض فأقاموه. أحيوا السنّة وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتّبعوه».(١)

وليس ما جاء في هذه الخطبة فريداً في كلامه، فقد وصف أصحاب رسول‌اللهﷺ يوم صفّين، يوم فرض عليه الصلح بقوله:

«ولقد كنّا مع رسول اللهﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجدّاً في جهاد العدوّ، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرّة لنا من عدوّنا، ومرّة لعدوّنا منّا. فلمّا رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جرانه ومتبوّئاً أوطانه، ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود».(٢)

هذه كلمة الإمام علي بن أبي طالبعليه‌السلام قائد الشيعة وإمامهم، أفهل يجوز لمن يؤمن بإمامته أن يكفّر جميع صحابة النبيّﷺ أو يفسّقهم أو ينسبهم إلى الزندقة والإلحاد أو الارتداد، من دون أن يقسّمهم إلى أقسام، ويصنّفهم أصنافاً ويذكر تقاسيم القرآن والسنّة في حقّهم!! كلّا وألف كلّا.

وهذا هو الإمام عليّ بن الحسين يذكر في بعض أدعيته صحابة النبيّﷺ ويقول: **«اللّهمّ وأصحاب محمّدﷺ خاصّة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته،**

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ٥٦.

واستجابوا له حيث أسمعهم حجّة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوّته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبّته، يرجون تجارة لن تبور في مودّته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلّقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظلّ قرابته، فلا تنس لهم اللّهمّ ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك، وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم.

اللّهمّ وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا...»[1].

فإذا كان الحال كذلك، واتّفق الشيعي والسنّي على إطراء الذكر الحكيم للصحابة والثناء عليهم، فما هو موضع الخلاف بين الطائفتين كي يعدّ ذلك من أعظم الخلاف بينهما؟

إنّ موضع الخلاف ليس إلّا في نقطة واحدة، وهي أنّ أهل السنّة يقولون بأنّ كلّ من رأى النبيّ ﷺ وعاشره ولو يوماً أو يومين فهو محكوم بالعدالة منذ اللقاء إلى يوم أُدرج في كفنه، ولو صدر منه قتل أو نهب أو زنا أو غير ذلك، محتجّين بما نسب إلى رسول الله ﷺ: «**أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم**» وفي ذلك خلل كبير أعاذ الله المسلمين منه، فالتاريخ بين أيدينا، وصفحاته خير شاهد على ما نقول، ونحن لا نقول كما قال الحسن البصري:

---

١. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤.

«طهّر الله سيوفنا عن دمائهم، فلنطهّر ألسنتنا»، لأنّا لا نظنّ أنّ الحسن البصري يعتقد بما قال، بل إنّه تدرّع بهذه الكلمة وصان بها نفسه عن هجمات الأمويين الذين كانوا يروّجون عدالة الصحابة في جميع الأزمنة، بل يلبسونهم ثوب العصمة، إلى حدّ كان القدح بالصحابي أشدّ من القدح برسول الله ﷺ، فنفي العصمة عن النبيّ ﷺ واتّهامه بالذنب قبل بعثه وبعده كان أمراً سهلاً يطرح بصورة عقيدة معقولة ولا يؤاخذ القائل به، وأمّا من نسب صغيرة أو كبيرة إلى صحابي فأهون ما يواجهونه به هو الاستتابة وإلّا فالقتل!!

فإذا كان هذا هو محلّ النزاع ـ أي عدالة الكل بلا استثناء أو تصنيفهم إلى مؤمن أو فاسق، ومثالي أو عادي، إلى زاهد أو متوغّل في حبّ الدنيا، إلى عالم بالشريعة وعامل بها أو جاهل لا يعرف منها إلّا شيئاً طفيفاً ـ فيجب تحليل المسألة على ضوء الكتاب والسنّة، مجرّدين عن كلّ رأي مسبق، لا يقودنا في ذلك إلّا الدليل الصحيح والحجّة الثابتة، ولأجل إماطة الستر عن وجه الحقيقة نذكر أُموراً:

الصحابة في القرآن الكريم

١ ـ إنّ القرآن الكريم يصنّف الصحابة إلى أصناف مختلفة؛ فهو يتكلّم عن السابقين الأوّلين، والمبايعين تحت الشجرة، والمهاجرين المهجّرين عن ديارهم وأموالهم، وأصحاب الفتح، إلى غير ذلك من الأصناف المثالية، الذين يثني عليهم ويذكرهم بالفضل والفضيلة، وفي مقابل ذلك يذكر أصنافاً أُخر يجب أن لا تغيب عن أذهاننا وتلك الأصناف هي التالية:

١ ـ المنافقون المعروفون[١].

٢ ـ المنافقون المتستّرون الذين لا يعرفهم النبيّ صلى الله عليه وآله[٢].

٣ ـ ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب[٣].

٤ ـ السمّاعون لأهل الفتنة[٤].

٥ ـ المسلمون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً[٥].

٦ ـ المشرفون على الارتداد عندما دارت عليهم الدوائر[٦].

٧ ـ الفاسق أو الفسّاق الذين لا يصدق قولهم ولا فعلهم[٧].

٨ ـ المسلمون الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم[٨].

٩ ـ المؤلّفة قلوبهم الذين يظهرون الإسلام ويتآلفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم[٩].

١٠ ـ المولّون أمام الكفّار[١٠].

هذه الأصناف إذا انضمّت إلى الأصناف المتقدّمة، فإنّها تعرب عن أنّ صحابة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكونوا على نمط واحد، بل كانوا مختلفين من حيث قوّة الإيمان وضعفه، والقيام بالوظائف والتخلّي عنها، فيجب إخضاعهم لميزان العدالة الذي توزن به أفعال جميع الناس، وعندئذ يتحقّق أنّ الصحبة لا تعطي لصاحبها منقبة إلّا إذا كان أهلاً لها، وتوضّح بجلاء أنّ محاولة المساواة في الفضل بين جميع الصحابة أمر فيه مجافاة صريحة للحقّ وكلمة الصدق، وهذا

---

١. المنافقون: ١. ٢. التوبة: ١٠١. ٣. الأحزاب: ١١.
٤. التوبة: ٤٥ـ٤٧. ٥. التوبة: ١٠٢. ٦. آل عمران: ١٥٤.
٧. الحجرات: ٦، السجدة: ١٨.
٨. الحجرات: ١٤. ٩. التوبة: ٦٠. ١٠. الأنفال: ١٥ ـ ١٦.

ما ذهبت إليه الشيعة، وهو نفس النتيجة التي يخرج بها الإنسان المتدبّر للقرآن الكريم.

٢ ـ إنّ الآيات التي تناولت المهاجرين والأنصار وغيرهم بالمدح والثناء، لا تدلّ على أكثر من أنّهم كانوا حين نزول القرآن مُثلاً للفضل والفضيلة، ولكن الأُمور إنّما تعتبر بخواتيمها، فيحكم عليهم ـ بعد نزول الآيات ـ بالصلاح والفلاح إذا بقوا على ما كانوا عليه من الصفات، وأمّا لو ثبت عن طريق السنّة أو التاريخ الصحيح أنّه صدر عن بعضهم ما لا تحمد عاقبته، فحينئذ لا مندوحة لنا إلّا الحكم بذلك، ولا يعد مثل ذلك معارضاً للقرآن الكريم؛ لأنّه ناظر إلى أحوالهم في ظروف خاصّة، لا في جميع فصول حياتهم، فليس علينا رفع اليد عن السنّة والتاريخ الصحيح بحجّة أنّ القرآن الكريم مدحهم، وأنّ الله تعالى كان في وقت مّا راضياً عنهم، لما عرفت من أنّ المقياس القاطع للقضاء هو دراسة جميع أحوالهم وإخضاعها للقرآن والسنّة، فكم من مؤمن زلّت قدمه في الحياة، فعاد منافقاً، أو مرتدّاً، وكم من ضالّ شملته العناية الإلٰهية، فبصر الطريق وصار رجلاً إلٰهياً.

وبالجملة: فمن ثبت عن طريق الدليل الصحيح انحرافه وزيغه عن الصراط المستقيم وشوب إيمانه بالظلم والعيث والفساد، فيؤخذ بما هو الثابت في ذينك المصدرين، وأمّا من لم يثبت زيغه فلا نتكلّم في حقّه بشيء سوىٰ ما أمر الله به سبحانه من طلب الرحمة لهم حيث قال: ﴿**رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ولإخوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ**﴾[1].

---

١. الحشر: ١٠.

٣ ـ ومن سوء الحظ أنّ شرذمة قليلة من الصحابة زلّت أقدامهم وانحرفوا عن الطريق، فلا تمس دراسة أحوال هؤلاء القليلين، وتبيين مواقفهم، وانحرافهم عن الطريق المستقيم بكرامة الباقين، ولعلّ عدد المنحرفين (غير المنافقين) لا يتجاوز العشرة إلّا بقليل.

أفيسوغ في ميزان العدل رمي الشيعة بأنّهم يكفّرون الصحابة ويفسّقونهم بحجّة أنّهم يدرسون حياة عدّة قليلة منهم ويذكرون مساوئ أعمالهم، وما يؤاخذ عليهم على ضوء الكتاب والسنّة والتاريخ الصحيح.

وما نسب إلى الحسن البصري فهو أولى بالإعراض عنه، إذ لو كانت النجاة في ترك ذكرهم، فلماذا اهتمّ ببيان أفعالهم وصفاتهم التاريخ المؤلّف بيد السلف الصالح الذين كانوا يحترمون الصحابة مثلما يحترمهم الخلف؟ فلو كان الحقّ ترك التكلّم فيهم وإعذارهم بالاجتهاد، فلماذا وصف النبيّ الأكرمﷺ بعضهم بالارتداد، كما رواه البخاري وغيره؟[1].

وإذا دار الأمر بين كون القرآن أو النبيّﷺ أُسوة، أو الكلمة المأثورة عن الحسن البصري، فالأوّل هو المتعيّن، ويضرب بالثاني عرض الجدار.

الردّة بعد وفاة الرسولﷺ

بقيت هنا كلمة وهي: إذا كان موقف الشيعة وأئمّتهم من الصحابة ما ذكر آنفاً، فما معنى ما رواه أبو عمرو الكشّي من أنّه ارتدّ الناس بعد رسول اللهﷺإلّا ثلاثة؟ إذ لو صحّ ما ذكر، وجب الالتزام بأنّ النبيّ الأكرمﷺ لم ينجح في

---

١. صحيح البخاري: ٥/ ١١٨ ـ ١١٩ في تفسير سورة النور.

دعوته، ولم يتخرّج من مدرسته إلّا قلائل لا يعتدّ بهم في مقابل ما ضحّى به من النفس والنفيس.

والإجابة على هذا السؤال واضحة لمن تفحّص عنها سنداً ومتناً؛ فإنّ ما رواه لا يتجاوز السبع روايات؛ وهي بين ضعيف لا يعوّل عليه، وموثّق ـ حسب اصطلاح علماء الإمامية في تصنيف الأحاديث ـ وصحيح قابلين للتأويل، ولا يدلّان على الارتداد عن الدين، والخروج عن الإسلام بل يرميان إلى أمر آخر.

أمّا الضعيف فهو ما رواه الكشّي عن حمدويه وإبراهيم ابني نصير قال: حدّثنا محمّد بن عثمان، عن حنّان بن سدير، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**كان الناس أهل الردّة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا ثلاثة...**».[1]

وكفى في ضعفها وجود محمّد بن عثمان في سندها؛ وهو من المجاهيل.

ما رواه أيضاً عن عليّ بن الحكم، عن سيف بن عميرة، عن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «**ارتدّ الناس إلّا ثلاثة نفر: سلمان، وأبو ذر، والمقداد**».[2]

وكفى في ضعفها أنّ الكشّي من أعلام القرن الرابع الهجري القمري، فلا يصحّ أن يروي عن عليّ بن الحكم، سواء أكان المراد منه الأنباري الراوي عن ابن عميرة المتوفّى عام (٢١٧هـ)، أو كان المراد الزبيري الذي عدّه الشيخ من أصحاب الرضا عليه السلام المتوفّى عام ٢٠٣هـ.

وما نقله أيضاً عن حمدويه بن نصير قال: حدّثني محمّد بن عيسى

---

١. رجال الكشي: ١٢ برقم ١.
٢. رجال الكشي: ١٦ برقم ١٣.

ومحمّد بن مسعود قال: حدّثنا جبرئيل بن أحمد قال: حدثنا محمّد بن عيسى، عن النضر بن سويد، عن محمّد بن البشير، عمّن حدثه قال: «**ما بقي أحد إلّا وقد جال جولة إلّا المقداد بن الأسود؛ فإنّ قلبه كان مثل زبر الحديد**».[١]

والرواية ضعيفة بجبرئيل بن أحمد؛ فإنّه مجهول كما أنّها مرسلة في آخرها.

وأمّا الروايات الباقية فالموثّق عبارة عمّا ورد في سنده عليّ بن الحسن الفضال، والثلاثة الباقية صحيحة، ومن أراد الوقوف على أسنادها ومتونها فليرجع إلى رجال الكشّي.[٢]

ومع ذلك كلّه فإنّ هذه الروايات لا يحتجّ بها أبداً لجهات عديدة نشير إلى بعض منها:

١ ـ كيف يمكن أن يقال إنّه ارتدّ الناس بعد رسول الله ﷺ ولم يبق إلّا ثلاثة تمسّكوا بولاية عليّ ولم يعدلوا عنها، مع أنّ ابن قتيبة والطبري رويا أنّ جماعة من بني هاشم وغيرهم تحصَّنوا في بيت علي معترضين على ما آل إليه أمر السقيفة، ولم يتركوا بيت الإمام إلّا بعد التهديد والوعيد وإضرام النار أمام البيت. وهذا يدلّ على أنّه كان هناك جماعة مخلصون بقوا أوفياء لما تعهّدوا به في حياة النبيّ ﷺ، وإليك نصّ التاريخ: قال ابن قتيبة:

إنّ بني هاشم اجتمعت عند بيعة الأنصار إلى عليّ بن أبي طالب، ومعهم الزبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ.[٣]

---

١. رجال الكشي: ١٦ برقم ١١.
٢. المصدر نفسه: ١٣ برقم ٣ و ٤ و ٦ و ٧.
٣. الإمامة والسياسة: ١/ ١٠ ـ ١٢.

وقال في موضع آخر: إنّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ تفقّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار عليّ، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص إنّ فيها فاطمة، فقال: وإن...[١].

روى الطبري: قال: أتى عمر بن الخطاب منزل عليّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأُحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه[٢].

وقال ابن واضح الأخباري: وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب، منهم: العبّاس بن عبد المطلب، والفضل بن العبّاس، والزبير بن العوّام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبوذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبي بن كعب. فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة فقال: ما الرأي؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً...[٣].

كلّ ذلك يشهد على أنّه كان هناك أُمّة بقوا على ما كانوا عليه، في عصر الرسول الأعظم ﷺ، ولم يغترّوا بانثيال الأكثرية إلى غير من كان الحقّ يدور مداره. وكيف يمكن ادّعاء الردّة لعامة الصحابة إلّا القليل.

---

١. المصدر نفسه.
٢. تاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٢.
٣. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٤.

٢ ـ كيف يمكن أن يقال: ارتدّ الناس إلّا ثلاثة مع أنّ الصدوق ـ رضي الله عنه ـ ذكر عدّة من المنكرين للخلافة في أوائل الأمر وقد بلغ عددهم اثنا عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار وهم: خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأُبي ابن كعب، وعمّار بن ياسر، وأبوذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وبريدة الأسلمي، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وأبو أيّوب الأنصاري، وأبو هيثم بن التيهان وغيرهم.

ثمّ ذكر اعتراضاتهم على مسألة الخلافة واحداً بعد واحد[١].

٣ ـ إنّ وجود الاضطراب والاختلاف في عدد من استثناهم الإمام يورث الشكّ في صحّتها، ففي بعضها «إلّا ثلاثة» وفي البعض الآخر «إلّا سبعة» وفي ثالث «إلّا ستة» فإنّ التعارض وإن كان يمكن رفعه بالحمل على اختلافهم في درجات الإيمان غير أنّه على كلّ تقدير يوهن الرواية.

٤ ـ كيف يمكن إنكار إيمان أعلام من الصحابة مع اتّفاق كلمة الشيعة والسنّة على علوّ شأنهم، أمثال: بلال الحبشي، وحجر بن عدي، وأُويس القرني، ومالك بن نويرة المقتول ظلماً على يد خالد بن الوليد، والعبّاس بن عبد المطلب وابنه حبر الأُمّة وعشرات من أمثالهم، وقد عرفت أسماء المتخلّفين عن بيعة أبي بكر في كلام اليعقوبي، أضف إلى ذلك أنّ رجال البيت الهاشمي كانوا على خطّ الإمام ولم يتخلّفوا عنه، وإنّما غمدوا سيوفهم اقتداءً بالإمام لمصلحة عالية ذكرها في بعض كلماته[٢].

---

١. الخصال: ٤٦١ ـ ٤٦٥ أبواب الاثني عشر.

٢. نهج البلاغة: الكتاب ٦٢.

وأقصى ما يمكن أن يقال في حقّ هذه الروايات هو أنّه ليس المراد من الارتداد الكفر والضلال والرجوع إلى الجاهلية، وإنّما المراد عدم الوفاء بالعهد الذي أُخذ منهم في غير واحد من المواقف وأهمّها غدير خم. ويؤيّد ذلك:

ما رواه وهب بن حفص، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام: «**جاء المهاجرون والأنصار وغيرهم بعد ذلك[1] إلى عليّ عليه السلام فقالوا له: أنت والله أمير المؤمنين وأنت والله أحقّ الناس وأولاهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله هلمّ يدك نبايعك فوالله لنموتنّ قدامك. فقال عليّ عليه السلام: إن كنتم صادقين فاغدوا غداً عليّ محلّقين. فحلق أمير المؤمنين وحلق سلمان وحلق المقداد وحلق أبو ذر ولم يحلق غيرهم**[2].

وهذه الرواية قرينة واضحة على أنّ المراد هو نصرة الإمام عليه السلام لأخذ الحق المغتصب، فيكون المراد من الردّة هو عدم القتال معه.

وممّا يؤيّد ذلك أيضاً الرواية التي جاء فيها أنّ قلب المقداد بن الأسود كزبر الحديد، فهي وإن كانت ضعيفة السند لكنّ فيها إشعاراً على ذلك؛ لأنّ وصف قلب المقداد إشارة إلى إرادته القويّة وثباته في سبيل استرداد الخلافة.

وظنّي أنّ هذه الروايات صدرت من الغلاة والحشوية دعماً لأمر الولاية وتغابناً في الإخلاص، غافلين عن أنّها تضادّ القرآن الكريم، وما روي عن أمير المؤمنين وحفيده سيّد الساجدين، من الثناء والمدح لعدّة من الصحابة. وهناك كلام قيّم للعلّامة السيد محسن الأمين العاملي نذكر نصّه وهو يمثّل عقيدة الشيعة فقال:

---

١. أي بعد بيعة أبي بكر.
٢. لاحظ رجال الكشي: ١٤ برقم ٧ من هذا الباب.

وقالت الشيعة: حكم الصحابة في العدالة حكم غيرهم، ولا يتحتّم الحكم بها بمجرّد الصحبة؛ وهي لقاء النبيﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام. وإنّ ذلك ليس كافياً في ثبوت العدالة بعد الاتّفاق على عدم العصمة المانعة من صدور الذنب، فمن علمنا عدالته حكمنا بها وقبلنا روايته، ولزمنا له من التعظيم والتوقير، بسبب شرف الصحبة ونصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله ما هو أهله، ومن علمنا منه خلاف ذلك لم تقبل روايته، أمثال مروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، والوليد بن عقبة، وبسر بن أرطاة وبعض بني أُميّة وأعوانهم، ومن جهلنا حاله في العدالة توقّفنا في قبول روايته.

وممّا يمكن أن يذكر في المقام أنّ النبيّﷺ توفّي ومن رآه وسمع عنه يتجاوز مائة ألف إنسان من رجل وامرأة على ما حكاه ابن حجر في «الإصابة» عن أبي زرعة الرازي: «وقيل ماتﷺ عن مائة وأربعة عشر ألف صحابي» ومن الممتنع عادة أن يكون هذا العدد في كثرته وتفرّق أهوائه وكون النفوس البشرية مطبوعة على حبّ الشهوات كلّهم قد حصلت لهم ملكة التقوى المانعة عن صدور الكبائر، والإصرار على الصغائر بمجرّد رؤية النبيّﷺ والإيمان به، ونحن نعلم أنّ منهم من أسلم طوعاً ورغبة في الإسلام، ومنهم من أسلم خوفاً وكرهاً، ومنهم المؤلّفة قلوبهم، وما كانت هذه الأُمّة إلّا كغيرها من الأُمم التي جبلت على حبّ الشهوات وخلقت فيها الطبائع القائدة إلى ذلك إن لم يردع رادع والكل من بني آدم، وقد صحّ عنهﷺ أنّه قال: «لتسلكنّ سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة حتّى لو دخل أحدهم جحر ضب لدخلتموه». ولو منعت رؤية النبيّﷺ من وقوع الذنب لمنعت من الارتداد الذي حصل من جماعة منهم كعبد الله بن جحش، وعبيد الله بن خطل، وربيعة بن أُمية بن خلف،

والأشعث بن قيس[١] وغيرهم. هذا مع ما شوهد من صدور أُمور من بعضهم لاتتّفق مع العدالة، كالخروج على أئمّة العدل، وشقّ عصا المسلمين، وقتل النفوس المحترمة، وسلب الأموال المعصومة، والسبّ والشتم وحرب المسلمين وغشهم، وإلقاح الفتن، والرغبة في الدنيا، والتزاحم على الإمارة والرئاسة وغير ذلك ممّا تكفّلت به كتب الآثار والتواريخ وملأ الخافقين. وأعمال مروان بن الحكم في خلافة عثمان معلومة مشهورة، وكذلك بسر بن أرطاة والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة، وكلّهم من الصحابة[٢].

وحصيلة البحث: أنّ موضع الاختلاف، ومصبّ النزاع ليس إلّا كون عدالة الصحابة قضية كلّية أو جزئيّة؟ فالسنّة على الأُولى، والشيعة على الثانية، وأمّا ما سواها من سبّ الصحابة ولعنهم، أو ارتدادهم عن الدين بعد رحلة الرسول، أو عدم حجّية رواياتهم على وجه الإطلاق، فإنّها تُهمُ أُموية ناصبية، اتُّهم بها شيعة آل‌محمّد صلى الله عليه وآله وهم براء منها. ونعم الحكم الله. فالشيعة يعطون لكلّ ذي حقّ حقّه، فيأخذون معالم دينهم عن ثقات الصحابة، ولا يتكلّمون في حقّ من لم يتعرّفوا على حاله، ويحكمون على القسم الثالث على ضوء الكتاب والسنّة.

إنّ هناك رجالاً من السلف لا يسوغ لمنصف يمتلك مقياساً شرعياً سليماً أن يذهب إلى جواز حبّهم أو الترحّم عليهم؛ لأنّ في ذلك خروجاً صارخاً عن أبسط المقاييس والموازين الشرعية، ومن هؤلاء:

١ ـ معاوية بن أبي سفيان ـ ويكفي في حقّه إيراد ما ذكره الجاحظ في

---

١. الثلاثة الأوّلون ارتدّوا وماتوا على الردّة، والأشعث ارتدّ فأُتي به إلى الخليفة أبي بكر أسيراً فعاد إلى الإسلام وزوّجه أُخته، وكانت عوراء، فأولدها محمّداً أحد قتلة الحسين عليه السلام.

٢. أعيان الشيعة: ١/ ١١٣ ـ ١١٤.

رسالته في بني أُمية والآثام التي اقترفوها ـ: استوى معاوية على الملك، واستبدَّ على بقيّة أهل الشورى، وعلى جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار في العام الذي سمّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً، ثمّ ما زالت معاصيه من جنس ما حكيناه، وعلى منازل ما رتّبناه، حتّى ردّ قضية رسول الله ﷺ ردّاً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً[١]، فخرج بذلك من حكم الفجّار إلى حكم الكفّار.

أو ليس قتل حجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفيء، واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة، وسواء جحد الكتاب، وردّ السنّة إذا كانت في شهرة الكتاب وظهوره، إلّا أنّ أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشدّ[٢].

وقد أربت نابتة عصرنا ومبدعة دهرنا فقالت: لا تسبّوه؛ فإنّ له صحبة، وسبّ معاوية بدعة، ومن بغضه فقد خالف السنّة، فزعمت أنّ من السنّة ترك البراءة ممّن جحد السنّة.[٣]

٢ ـ عمرو بن العاص، الذي ألَّب على عثمان وسرّ بقتله، ثم اجتمع مع معاوية يطالب بدمه عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان من أشدّ المدافعين عنه، وأعطفهم عليه يوم أمر طلحة بمنع الماء عنه وتعجيل قتله. كلّ ذلك كان من ابن

---

١. إشارة إلى استلحاق زياد بن أبيه وليد فراش غير أبي سفيان.
٢. أي ردّ السنّة مثل ردّ الكتاب إذا بلغت السنّة في الشهرة شهرة الكتاب.
٣. رسائل الجاحظ: ٢٩٤.

العاص حبّاً بخراج مصر، لا بعثمان ولا بمعاوية أيضاً، والعجب أنّ الرسولﷺ تنبّأ بذلك وصرّح بأنّهما لا يجتمعان إلّا على غدر.[١]

٣ ـ يزيد الخليع المستهتر خليفة معاوية الذي ولّي ثلاث سنين بعده، فقتل في الأُولى الإمام الحسينعليه السلام، وفي الثانية أغار على المدينة وقتل من الصحابة والتابعين ما لا يحصى وأباح أعراضهم، وفي الثالثة رمي الكعبة[٢]، وكفى في كفره وإلحاده جهره بقول ابن الزبعرى:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزلْ

٤ ـ مروان بن الحكم، الذي كان من أشدّ الناس بغضاً لأهل البيت. قال ابن حجر: ومن أشدّ الناس بغضاً لأهل البيت مروان بن الحكم.

روى الحاكم: أنّ عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: كان لا يولد لأحد بالمدينة ولد إلّا أُتي به النبيّﷺ، فأُدخل عليه مروان بن الحكم، فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون».[٣]

٥ ـ الوليد بن عقبة شارب الخمر، والزائد في الفريضة.[٤]

٦ ـ وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أهدر النبيّ دمه.[٥]

٧ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذي يخاطب كتاب الله العزيز بعد أن ألقاه ورماه بالسهام بقوله:

---

١. تطهير الجنان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة: ١٠٢.
٢. تذكرة الخواص: ٢٥٧، فصل يزيد بن معاوية.
٣. المستدرك: ٤/ ٤٧٩.
٤. الأنساب للبلاذري: ٥/ ٣٣؛ مسند أحمد: ١/ ١٤٤.
٥. تاريخ الطبري: ٣/ ٣٠٠، فصل: ذكر الخبر عن فتح مكّة.

تـــهدّدني بـــجبار عـــنيد فـــها أنـــا ذاك جـــبّار عـــنيد

إذا ما جئت ربّك يـوم حشـر فقل يا ربّ مزّقني الوليد[١]

ويقول السيوطي: إنّ الوليد هذا كان فاسقاً خميراً لوّاطاً، راود أخاه سليمان عن نـفسه، ونكح زوجات أبيه.[٢]

هؤلاء وأضرابهم هم الذين تتبرّأ الشيعة منهم وتحكم عليهم بما حكم الله به عـليهم. أفيصحّ تكفير الشيعة وتفسيقهم لأجل سبّ هؤلاء والتبرّي منهم؟! إنّ أعمال هؤلاء يندى لها جبين الإنسانية ولا يمكن أن تغضي عنها، فيالله!! أمن الإنصاف أن تتّهم الشيعة بالانحراف والخروج عن الدين لأنّها تدين هؤلاء وتلعنهم، والله تعالى لعن أقواماً كثيرين في كتابه الحكيم وكذلك رسولهﷺ؟ ولعلّ أعمال أُولئك لو وزنت بأعمال هؤلاء لما رجحت عليها.

١. الكامل في التاريخ: ٥/ ١٠٧.
٢. تاريخ الخلفاء: ٩٧.

المسألة الثانية عشرة:

في عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وآله وخاتميّتها

تمهيد: ملامح الشريعة الإسلاميّة

تمتاز الشريعة الإسلامية بنقطتين رئيسيتين:

الأُولى: عالميّتها وشموليّتها.

الثانية: كونها خاتمة الشرائع.

أمّا الأُولى: فمعناها أنّ دعوتَها عالمية لا تنحصر بإقليم معيّن، وهي من أبرز الملامح التي يستهدفها القرآن في دعوته ورسالته.

يقول سبحانه: ﴿**تباركَ الَّذي نزَّلَ الفُرقانَ على عَبدِه ليكونَ للعالمينَ نَذيراً**﴾ [1].

ويقول أيضاً: ﴿**وما أرسلناك إلّا كـافّةً للـنّاسِ بَشـيراً ونَـذيراً ولكـنَّ أكـثر النّـاسِ لا يَعلَمون**﴾ [2].

وقال سبحانه: ﴿**قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنِّي رَسولُ اللهِ إلَيكُمْ جَميعاً...**﴾ [3].

---

١. الفرقان: ١.

٢. سبأ: ٢٨.

٣. الأعراف: ١٥٨.

لقد بعثَ الرسولُ الأعظم ﷺ سفراءَه إلى أنحاء المعمورة لنشر دعوته فيها وبيد كلّ واحد منهم كتاب يعبِّر عن عالميّة دعوته، فقد بعثَ إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، وعظيم القبط، وملك الحبشة، والحارث بن أبي شمر الغسّاني ملك تخوم الشام، وحوزة بن عليّ الحنفي ملك اليمامة، وغيرهم من ملوك العرب وشيوخ القبائل والأساقفة، والمرازبة، والعمّال، وهذه المواثيق أوضح دليل على أنّ رسالته عالمية لا تحدُّ بحدّ، بل تجعل الأرض كلها ساحة لإشاعة دينه وتطبيق شريعته.

هذا والبراهين على عالمية دعوته كثيرة لا مجال لذكرها.

نعم ربما قد تظهر بعض المغالطات من النصارى القدامىٰ في هذه النقطة؛ حيث حاولوا تحجيم أمر الرسالة وتخصيصها بمكان وعنصر خاصَّين، وليست شبهاتهم قابلة للذكر.

كيف وبيانات القرآن وخطاباته للبشر كافة ومواثيق الرسول ودعواته المتجاوزة حدود الجزيرة العربية، واجتياح جيوش المسلمين ورجالهم أرض غير العرب، واستقرار الأُمّة الإسلامية في أكثر مناطق المعمورة بل معظمها يومذاك، أبطلت هذه المغالطات وجعلتها في مدحرة البطلان، ولذلك نعود إلى النقطة الثانية من ملامح الشريعة الإسلامية، في بحثنا وهو خاتميتها؛ وهي تعني:

أنّها آخر الشرائع، وأنّ المبعوث بها هو خاتم الأنبياء؛ فشريعته خاتمة الشرائع، وهذا ما نحاول دراسته في هذه الرسالة، ونستدلّ عليه عن طريق الكتاب والسنّة ونحلّل الإشكالات المثارة حوله كل ذلك في ضمن فصولٍ.

الخاتمية في الذكر الحكيم

اتّفقت الأُمّة الإسلامية ـ عن بكرة أبيها ـ على أنّ نبيّهم محمداًﷺ خاتم النبيّين، وأنّ دينه خاتم الأديان، وكتابه خاتم الكتب والصحف، فهوﷺ آخر السفراء الإلهيّين، أُوصد به باب الرسالة والنبوة، وختمت به رسالة السماء إلى الأرض.

لقد اتّفق المسلمون كافّة على أنّ دين نبيّهم دين الله الأبدي، وكتابه كتاب الله الخالد ودستوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد أنهى الله إليه كلّ تشريع وأودع فيه أُصول كلّ رقي، وأناط به كلّ سعادة ورخاء، فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض.

توضيحه: أنّ الشريعة الإلهية الحقّة التي أنزلها الله تعالى إلى أوّل سفرائه لا تفترق جوهراً عمّا أنزله على آخرهم، بل كانت الشريعة السماوية في بدء أمرها نواة قابلة للنموّ والنشوء؛ فأخذت تنمو وتستكمل عبر القرون والأجيال؛ حسب تطور الزمان وتكامل الأُمم، وتسرّب الحصافة إلى عقولهم، وتسلّل الحضارة إلى حياتهم.

ويفصح عمّا ذكرنا قوله سبحانه: ﴿**شرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بهِ نُوحاً**...﴾[1] فقد وصّى نبينا محمداً بما وصّى به نوحاً، من توحيده سبحانه وتنزيهه عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق والتنديد بالجرائم

---

١. الشورى: ١٣.

الخلقية، والقضاء على أسبابها، إلى غير ذلك ممّا تجده في صحف الأوّلين والآخرين.

وتتجلّى تلك الحقيقة الناصعة؛ أي وحدة الشرائع السماوية من مختلف الآيات في شتّى المواضع، قال سبحانه: ﴿**إنَّ الدِّين عِندَ اللهِ الإسلامُ ومَا آختلَفَ الَّذينَ أُتُوا الكِتابَ إلّا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغياً بَينَهُمْ**﴾[1] وظاهر الآية يعطي أنّ الدين عند الله ـ لم يزل ولن يزال ـ هو الإسلام في طول القرون والأجيال، ويعاضدها قوله تعالى: ﴿**ومَنْ يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ**﴾[2]. وقال سبحانه في مورد آخر مخطّئاً مزعمة اليهود والنصارى في رَمي بطل التوحيد إبراهيم باليهودية والنصرانية قال: ﴿**ما كانَ إبراهيمُ يَهودياً ولا نَصرانياً ولكنْ كانَ حَنيفاً مُسلِماً وما كانَ منَ المُشرِكينَ**﴾[3].

فحقيقة الشرائع السماوية في جميع الأدوار والأجيال كانت أمراً واحداً وهو التسليم لفرائضه وعزائمه وحده جلّ وعلا.

ولأجل ذلك كتب الرسول إلى قيصر عندما دعاه إلى الإسلام، قوله سبحانه: ﴿**قُلْ يا أهلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيننا وبَينَكُمْ ألّا نَعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شَيئاً ولا يتَّخِذَ بَعضُنا بَعضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ فإنْ تَولَّوْا فَقولُوا آشهَدُوا بأنّا مُسلِمُون**﴾.[4]

وقد أمر سبحانه في آية أُخرى رسوله بدعوة معشر اليهود أو الناس

---

١. آل عمران: ١٩. ٢. آل عمران: ٨٥. ٣. آل عمران: ٦٧.

٤. السيرة الحلبية: ٢ / ٢٧٥؛ مسند أحمد: ١ / ٢٦٢. والآية هي الرابعة والستّون من سورة آل عمران.

جميعاً إلى اتّباع ملّة إبراهيم قال سبحانه: ﴿**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ منَ المُشرِكين**﴾[١].

وصرّح سبحانه بأنّ كلّ نبيّ جاء عقب نبيّ آخر، كانَ يصرّح بأنّه مصدِّق بوجود النبيّ المتقدّم عليه وكتابه ودينه، فالمسيح مصدّق لما بين يديه من التوراة ومحمّدﷺ مصدّق لما بين يديه من الكتب وكتابه مهيمن عليها، كما قال سبحانه: ﴿**وَقفَّينا عَلى آثارِهمْ بِعِيسَى ٱبنِ مَريمَ مُصدِّقاً لِما بَينَ يَديهِ منَ التَّوراة**﴾[٢]، ﴿**وأنْزَلْنا إليكَ الكتابَ بِالحقِّ مُصدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ منَ الكتابِ ومُهَيمناً عَليهِ**﴾[٣].

وهذه النصوص كلّها تعبّر عن وحدة أُصول الشرائع وجذورها ولبابها.

وعلى هذا فرسالة السماء إلى الأرض، رسالة واحدة في الحقيقة، متكاملة عبر القرون جاء بها الرسل طوال الأجيال وكلّهم يحملون إلى المجتمع البشري رسالة واحدة؛ لتصعد بهم إلى مدارج الكمال، وتهديهم إلى معالم الهداية ومكارم الأخلاق.

نعم كان البشر في بدايات حياتهم يعيشون في غاية البساطة والسذاجة، فما كانت لهم دولة تسوسهم، ولا مجتمع يخدمهم، ولا ذرائع تربطهم، وكانت أواصر الوحدة ووشائج الارتباط بينهم ضعيفة جداً، فلأجل ذاك القصور في العقل، وقلّة التقدم، وضعف الرقي، كانت تعاليم أنبيائهم، والأحكام المشروعة لهم طفيفة في غاية البساطة، فلما أخذت الإنسانية بالتقدّم والرقي، وكثرت

١. آل عمران: ٩٥. ٢. المائدة: ٤٦. ٣. المائدة: ٤٨.
٣. المائدة: ٤٨.

المسائل يوماً فيوماً، اتّسع نطاق الشريعة واكتملت الأحكام تلو هذه الأحوال والتطوّرات.

فهذه الشرائع (مع اختلافها في بعض الفروع والأحكام نظراً إلى الأحوال الأُممية والشؤون الجغرافية) لا تختلف في أُصولها ولبابها، بل كلّها تهدف إلى أمر واحد، وتسوق المجتمع إلى هدف مفرد، والاختلاف إنّما هو في الشريعة والمنهاج لا في المقاصد والغايات كما قال سبحانه: ﴿**لِكلٍّ جَعلْنا مِنكُم شِرعةً ومِنهاجاً ولَوْ شاءَ اللهُ لَجعلَكُمْ أُمّةً واحدةً ولكنْ لِيبلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ فَاستَبِقُوا الخَيراتِ**﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿**ثُمَّ جَعلناكَ عَلى شَريعةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهْواءَ الَّذينَ لا يَعلَمون**﴾[2].

وخلاصة القول: إنّ السنن مختلفة، فللتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، ولكن الدين هو الأُصول والعقائد والأحكام التي تساير الفطرة الإنسانية ولا تخالفها واحدة منها.

وهاتان الآيتان لا تهدفان إلى اختلاف الشرائع في جميع موادّها، ومواردها اختلافاً كلّياً بحيث تكون النسبة بينها نسبة التباين، كيف وهو سبحانه يأمر نبيَّه بالاقتداء بهدى أنبيائه السالفين ويقول: ﴿**أُولئكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[3].

---

١. المائدة: ٤٨. أي جعلنا لكلٍّ من موسى وعيسى ومحمد ﷺ، أو لكلٍّ من أُمم التوراة والإنجيل والقرآن شريعة وطريقاً خاصاً إلى ما هو الهدف الأقصى من بعث الرسل ومنهاجاً واضحاً، والاختلاف بين الكتب والشرائع جزئي لا كلّي، والنسخ في بعض الأحكام لا في جميعها.

٢. الجاثية: ١٨. ٣. الأنعام: ٩٠.

نعم جاءت الرسل تترى، وتواصلت حلقات النبوّة في الأدوار الماضية إلى أن بعث الله آخر سفرائه فأتمّ نعمته وأكمل به دينه، فأصبح المجتمع البشري في ظلّ دينه الكامل، وكتابه الجامع، غنياً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوّة، وأصبح البشر غير محتاجين إلى إرسال أيّ رسول بعده؛ إذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكلّ ما يحتاج إليه البشر في أدوار حياتهم وأنواع تطوراتهم، وفي الوقت نفسه فيها مرونة تتمشى مع جميع الأزمنة والأجيال، من دون أن تمسّ جوهرَ الرسالة الأصلي بتحوير وتحريف. وإليك أدلّة خاتميته من الكتاب أولاً، والسنّة ثانياً، أمّا الكتاب ففيه نصوص:

النصّ الأول:

قوله سبحانه: ﴿**ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ ولكنْ رَسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيّينَ وكانَ اللهُ بِكلِّ شَيءٍ عَليماً**﴾[1].

توضيح الآية: تبنّىٰ رسول الله ﷺ زيداً قبل عصر الرسالة، وكانت العرب يُنزِّلون الأدعياء منزلة الأبناء في أحكام الزواج والميراث، فأراد الله سبحانه أن ينْسخ تلك السنّة الجاهلية، فأمر رسوله أن يتزوّج زينب زوجة زيدٍ بعد مفارقته لها، فلمّا تزوّجها رسول الله أوجد ذلك ضجّة بين المنافقين والمتوغّلين في النزعات الجاهلية والمنساقين وراءها، فردّ الله سبحانه مزاعمهم بقوله ﴿**ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ**﴾ من الذين لم يلدهم ومنهم زيد ﴿**ولكن رَسولَ اللهِ**﴾ وهو لايترك ما أمره الله به ﴿**وخاتَمَ النبيّينَ**﴾ وآخرهم خُتِمت به النبوّة، فلا نبيّ بعده، ولا شريعة بعد شريعته، فنبوّته أبدية، وشريعته باقية إلى يوم الدين.

---

١. الأحزاب: ٤٠.

الخاتم وما يراد منه:

لقد قرئ لفظ الخاتم بوجهين:

الأوّل: بفتح التاء وعليه قراءة عاصم، ويكون بمعنى الطابع الذي تختم به الرسائل والمواثيق، فكان النبيّ الأكرم ﷺ بالنسبة إلى باب النبوة كالطابع؛ ختم به باب النبوة، وأُوصِدَ وأُغْلِقَ فلا يفتح أبداً.

الثاني: بكسر التاء وعليه يكون اسم فاعل؛ أي الذي يختم باب النبوّة، وعلى كلتا القراءتين فالآية صريحة على أنّ باب النبوة أو بعث الأنبياء خُتم بمجيء النبيّ الأكرم ﷺ.

قال أبو محمد الدميري:

والخاتِم الفاعلُ قُل بالكسر وما به يُختم فتحاً يجري

وأنت إذا راجعت التفاسير المؤلّفة منذ العصور الأُولىٰ إلى يومنا هذا ترى أنّ عامّة المفسّرين يفسّرونها بما ذكرنا ويصرحون بأنّ وصفه صلّى الله عليه وآله وتشبيهه بالخاتم (بالفتح) لأنّه كان الرسم الدائر بين العرب هو ختم الرسالات بخاتمهم الذي بين أصابعهم، فكانت خواتيمهم طوابعهم، فكأنَّ النبيّ الأكرم بين الأنبياء هو الخاتم ختم به باب النبوّات، ولك أن تستلهم هذا المعنى من الآيات الكثيرة التي وردت فيها مادة تلك الكلمة، فترى أنّ جميعها يفيد هذا المعنى، كالآيات التالية:

١ ـ قال سبحانه: ﴿**يُسقَونَ مِنْ رَحيقٍ مَختُوم**﴾[1] أي مختوم بابه بشيء مثل الشمع وغيره دليلاً على خلوصه.

---

١. المطففين: ٢٥.

٢ ـ وقال سبحانه: ﴿ **خِتامُهُ مِسكٌ وفي ذلك فَلْيتنافَسِ المُتنافِسُونَ** ﴾[١] أي آخر شربه تفوح منه رائحة المسك.

٣ ـ وقال سبحانه: ﴿ **اليومَ نَختِمُ عَلى أفواهِهِمْ وتُكلِّمنا أيـدِيهِمْ** ﴾[٢] أي يـطبع عـلى أفواههم فتوصدُ، وتَتكلَّم أيديهم.

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيها مادّة تلك الكلمة، والكلّ يهدف إلى الانـتهاء والانقطاع. وفي مورد الآية.. انتهاء النبوّة وانقطاعها.

النصّ الثاني:

قوله سبحانه: ﴿ **تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عَبدِهِ ليكونَ لِلعالَمينَ نَذيراً** ﴾[٣].

والآية صريحة في أنّ الغاية من تنزيل القرآن على عبده (النبيّ الأعظم ﷺ) كون القرآن نذيراً للعالمين من بدء نزوله إلى يوم يبعثون، من غير فرق بين تفسيرها بـالإنس والجـنّ أو الناس أجمعهم، وإن كان الثاني هو المتعيّن، فإنّ العالمين في الذكر الحكيم جاء بهذا المعنى.

قال سبحانه حاكياً عن لسان لوط: ﴿ **قالَ إنَّ هؤلاءِ ضَيفي فلا تَفْضَحونِ * وآتَّقوا اللهَ ولا تُخزونِ * قالوا أوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمين** ﴾[٤].

فإنّ المراد من العالمين في كلامهم هم الناس؛ إذ لا معنى لأن ينهونه عـن اسـتضافة الجن والملائكة، ونظيره قوله سبحانه حاكياً عن لسان لوط: ﴿ **أتأتونَ**

---

١. المطففين: ٢٦. ٢. يس: ٦٥. ٣. الفرقان: ١.
٤. الحجر: ٦٨ ـ ٧٠.

الذُّكرانَ مِنَ العالَمين ﴾[١] فالمراد من العالمين في كلتا الآيتين هم الناس.

وبذلك يعلم قوّة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من أنّ العالمين عنى به الناس وجعل كلّ واحد عالماً، ولا يعدل عن ذلك الظاهر إلّا بقرينة، وبما أنّه لا قرينة على العدول من الظاهر فيكون معنى قوله: ﴿ **ليكونَ لِلعالَمينَ نَذيراً** ﴾ أي نذيراً للناس أجمعهم من يوم نزوله إلى يوم يبعثون.

النصّ الثالث:

قوله سبحانه: ﴿ **إنَّ الَّذينَ كَفروا بالذِّكرِ لما جاءَهُمْ وإنَّهُ لَكتابٌ عزيزٌ * لا يأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بينِ يَديهِ ولا مِنْ خَلفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ** ﴾[٢].

وجه الدلالة على الخاتمية، أنّ المراد من الذكر هو القرآن بقرينة قوله سبحانه: ﴿ **ذلكَ نتلُوه عليكَ منَ الآياتِ والذِّكرِ الحَكيمِ** ﴾[٣].

والضمير في ﴿ **لا يأتيه** ﴾ يرجع إلىٰ الذكر ومفاد الآية أنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من أيّ جهة من الجهات؛ فلا يأتيه الباطل بأيّة صورة متصوّرة، ودونك صوره.

١ ـ لا يأتيه الباطل: أي لا ينقص منه شيء ولا يزيد عليه شيء.

٢ ـ لا يأتيه الباطل: أي لا يأتيه كتاب يبطله وينسخه وأن يجعله سُدى فهو حقّ ثابت لا يبدّل ولا يغيّر ولا يترك.

٣ ـ لا يأتيه الباطل: لا يتطرق الباطل في إخباره عمّا مضىٰ ولا في إخباره بما يجيء، فكلّها تطابق الواقع.

---

١. الشعراء: ١٦٥. ٢. فصلت: ٤١ ـ ٤٢. ٣. آل عمران: ٥٨.

وحاصل الآية أنّ القرآن حقّ لا يداخله الباطل إلىٰ يوم القيامة، فإذا كان حقّاً مطلقاً مصوناً عن تسلّل البطلان إليه ومتّبعاً للناس إلى يوم القيامة يجب عند ذلك دوام رسالته وثبات نبوّته وخاتمية شريعته.

وبتعبير آخر أنّ الشريعة الجديدة إمّا أن تكون عين الشريعة الإسلامية الحقّة أو غيرها، فعلى الأول لا حاجة إلى الثانية، وعلى الثاني: فإمّا أن تكون الثانية حقّة كالأُولى؛ فيلزم كون المتناقضين حقاً، أو أن تكون الأُولى حقّاً دون الأُخرى؛ وهذا هو المطلوب، وشريعة الرسول الأعظم جزءٌ من الكتاب الحقّ الذي لا يدانيه الباطل، وسنّته المحكمة التي لا تصدر إلّا بإيحاء منه كما قال تعالى: ﴿**وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى * إنْ هُوَ إلّا وَحيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَديدُ القُوى**﴾[1] فالآية صريحة في نفي أيّ تشريع بعد القرآن وأيّة شريعة بعد الإسلام، فتدلّ بالملازمة على عدم النبوّة التشريعية بعد نبوته.

النصّ الرابع:

قوله سبحانه: ﴿**قُلْ أيُّ شَيءٍ أكبرُ شهادةً قُلِ اللهُ شَهيدٌ بَيني وبينَكُمْ وَأُوحيَ إليَّ هذا القُرآنُ لأُنذرَكُمْ بهِ ومَنْ بَلَغ...**﴾[2].

وظاهر الآية: أنّ الغاية من نزول القرآن تحذير من بلغه إلى يوم القيامة، وبذلك يُفسّر قوله سبحانه في آية أُخرى: ﴿**وكذلكَ أوحينا إليكَ قُرآناً عَربياً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرىٰ ومَنْ حَولَها...**﴾[3].

فإنّ المراد ﴿**ومَن حولها**﴾ جميع أقطار المعمورة، وعلى فرض انصرافها

---

١. النجم: ٣ـ ٥. ٢. الأنعام: ١٩. ٣. الشورى: ٧.

عن هذا المعنى العامّ فلا مفهوم للآية بعد ورود قوله سبحانه: ﴿**لأُنذركُمْ بهِ ومَنْ بَلَغ**﴾.

النصّ الخامس:

قوله سبحانه: ﴿**وما أرسلناكَ إلّا كافةً للنّاسِ بَشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلَمون**﴾[1].

والمتبادر من الآية كون ﴿**كافّة**﴾ حالاً من الناس قُدّمتْ على ذيها وتقدير الآية وما أرسلناك إلّا للناس كافّة بشيراً ونذيراً.

وإليك محصّل الآيات الخمس:

أمّا الأُولى فهو: أنّ باب الإخبار عن السماء الذي كان هو النبوّة قد أُوصد، وبإيصاده تكون النبوّة مختومة، وبختمها تكون الشريعة المحمدية أبديّة؛ لأنّ تجديد الشريعة فرع فتح باب النبوّة، فإذا كان التنبّؤ بإخبار السماء مغلقاً؛ فلا يمكن الإخبار عن السماء بوجه من الوجوه، ومنها نسخ الشريعة.

وأمّا الآيات الأربع الباقية فهي صريحة ببقاء الشريعة الإسلامية بعموميتها، فمجموع الآيات يركّز على أمر واحد: غلق باب النبوة وأبدية الشريعة الإسلامية.

هذه هي النصوص، ومع ذلك ففي القرآن إشارات إلى الخاتمية بعناوين أُخرى نشير إلى بعض منها:

الأُولى: ﴿**أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وهوَ الَّذي أنزلَ إلَيكُمُ الكتابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ**

---

١. سبأ: ٢٨.

آتَيناهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحقِّ فَلا تكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ * وتَمَّتْ كَلِمةُ ربِّكَ صِدْقاً وَعدْلاً لا مُبدِّلَ لِكلماتِهِ وهوَ السَّميعُ العَليمُ ﴾[1].

إنّ دلالة قوله سبحانه: ﴿ **وتمّت كلمةُ رَبِّك...** ﴾ على إيصاد باب الوحي إلى يوم القيامة واضحة بعد الوقوف على معنى الكلمة؛ فإنّ المراد منها الدعوة الإسلامية، أو القرآن الكريم وما فيه من شرائع وأحكام، والشاهد عليها الآية المتقدمة حيث قال سبحانه: ﴿ **وهوَ الَّذي أنـزلَ إلَيكُمُ الكتابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحقِّ** ﴾[2] فالمراد من قوله ﴿ **أنزلَ إلَيكُمُ الكتابَ** ﴾ هو القرآن النازل على العالمين، ثمّ يقول: بأنّ الذين آتيناهم الكتاب من قبل كاليهود والنصارى إذا تخلّصوا من الهوى يعلمون أنّ القرآن وحي إلهي كالتوراة والإنجيل، وأنّه منزّلٌ من الله سبحانه بالحقّ، فلا يصحّ لأيّ منصف أن يتردّد في كونه نازلاً منه إلى هداية الناس.

ثمّ يقول في الآية التالية: ﴿ **وتمّت كلمةُ ربِّكَ** ﴾ بظهور الدعوة المحمدية، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، وصارت مستقرة في محلّها بعدما كانت تسير دهراً طويلاً في مدارج التدرّج بنبوّة بعد نبوّة وشريعة بعد شريعة.[3]

وهذه الكلمة الإلهية ـ أعني: الدعوة الإلهية المستوحاة في القرآن الكريم ـ صدق لا يشوبه كذب وما فيه من الأحكام من الأمر والنهي، عدل لا يخالطه

---

١. الأنعام: ١١٤ـ ١١٥.
٢. الأنعام: ١١٤.
٣. الميزان: ٧/ ٣٣٨؛ مجمع البيان: ٢/ ٣٥٤.

ظلم، ولأجل تلك التمامية لاتتبدّل كلماته وأحكامه من بعد[١].

هذه نظرة إلى القرآن حول الخاتمية ومن أراد التفصيل والتحقيق فليراجع التفاسير، وكما أنّ الكتاب الحكيم اهتمّ بالخاتمية، فهكذا اهتمت بها السنّة النبوية وروايات العترة الطاهرة ولو حاولنا أن نذكر ما وقفنا عليه في ذلك المجال من المآثر لطال وقوفنا مع القرّاء، ولذلك نقتصر على اثنتي عشرة رواية مع أنّ المأثور يتجاوز المائة.

الخاتمية في الأحاديث النبويّة

لقد حصحص الحقّ بما أوردناه من النصوص القرآنية وانكشف الريب عن مُحيّا الواقع؛ فلم تبق لمجادلٍ شبهة في أنّ الرسول في الذكر الحكيم خاتم النبيين وشريعته خاتمة الشرائع وكتابَه خاتم الكتب.

وقد وردت الخاتمية على لسان النبيّ الأكرم، نذكر منها ما يأتي:

١ ـ خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال علي عليه السلام: «**أخرج معك؟**» فقال: «**لا**»، فبكى عليّ فقال له رسول الله ﷺ: «**أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ـ أو ليس بعدي نبيّ ـ ولا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي**».

والحديث على لسان المحدّثين حديث المنزلة؛ لأنّ النبيّ نزّل فيه نفسه منزلة موسى ونزّل عليّاً مكان هارون، أخرجه البخاري في صحيحه في غزوة

---

١. وقد استعملت الكلمات في القرآن الكريم في الشرائع الإلهية قال سبحانه واصفاً مريم: ﴿وَصدَّقتْ بِكلماتِ ربِّها وكُتُبِهِ...﴾ التحريم: ١٢.

تبوك، ومسلم في صحيحه في باب فضائل عليعليه السلام، وابن ماجة في سننه في باب فضائل أصحاب النبيّ، والحاكم في مستدركه في مناقب عليّعليه السلام، وإمام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة.[١]

ووضوح دلالة الحديث على الخاتمية بمكان أغنانا عن البحث حولها.

٢ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَثَلي ومَثل الأنبياء كمَثل رجلٍ بنى داراً فأتمّها وأكملها إلّا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون، لولا موضع هذه اللّبنة»** قال رسول الله: **«فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء»**. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.[٢]

٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأحمد، أنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»**.[٣]

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيّين ولا فخر، وأنا أوّل شافع ومشفّع ولا فخر»**.[٤]

٥ ـ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«يا عليّ أخصمك بالنبوّة؛ فلا نبوّة بعدي وتخصم الناس بسبع ولا يجاحدك فيها أحد من قريش، أنت أوّلهم إيماناً بالله»**.[٥]

٦ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت ولا رسولَ بعدي**

---

١. صحيح البخاري: ٣/ ٥٨؛ صحيح مسلم: ٢/ ٣٢٣؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٢٨؛ المستدرك: ٣/ ١٠٩؛ مسند أحمد: ١/ ٣٢١، و ٢/ ٣٦٩، ٤٣٧.

٢. التاج الجامع للأُصول: ٣/ ٢٢ والكتاب يجمع أحاديث الستة إلّا ابن ماجة.

٣. صحيح مسلم: ٨/ ٨٩؛ مسند أحمد: ٤/ ٨١ و٨٤؛ الطبقات الكبرىٰ: ١/ ٦٥.

٤. سنن الدارمي: ١/ ٢٧.

٥. حلية الأولياء: ١/ ٦٦.

ولا نبيّ» قال: فشقّ ذلك على الناس فقال: «**ولكن المبشّرات**» فقالوا: يا رسول الله وما المبشّرات؟ فقال: «**رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة**».(۱)

۷ ـ قال رسول الله ﷺ: «**أُرسلتُ إلى الناس كافّة وبي خُتم النبيّون**».(۲)

۸ ـ قال النبيّ ﷺ: «**كنت أوّل الناس في الخلق، وآخرهم في البعث**».(۳)

۹ ـ استأذن العباس بن عبد المطّلب النبيّ في الهجرة فقال له: «**يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه؛ فإنّ الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوّة**» ثمّ هاجر إلى النبيّ وشهد معه فتح مكّة وانقطعت الهجرة.(۴)

۱۰ ـ قال ﷺ: «**يكون في أُمتي ثلاثون كذّاباً؛ كلّهم يزعم أنّه نبيّ وأنا خاتم النبيين؛ لا نبيّ بعدي**».(۵)

۱۱ ـ قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلتُ بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكلم، ونُصِرتُ بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيّون**».(۶)

۱۲ ـ روى الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**قال النبيّ ﷺ: يا أيّها الناس إنّه لا نبيّ بعدي، ولا سنّة بعد سنّتي، فمن ادّعى ذلك فدعواه وبدعته في النار فاقتلوه ومن تبعه؛ فإنّه في النار**».(۷)

---

۱. سنن الترمذي: ۳/ ۳۶۴.
۲. مسند أحمد: ۲/ ۴۱۲؛ الطبقات الكبرى: ۱/ ۱۲۸.
۳. الطبقات الكبرىٰ: ۱/ ۹۶؛ ينابيع المودة: ۱۷ وفيه أوّل الأنبياء في الخلق.
۴. أُسد الغابة: ۳/ ۱۱۰.
۵. جامع الأُصول: ۱۰/ ۴۱۰، عن الترمذي.
۶. الجامع الصغير: ۲/ ۱۲۶.
۷. من لا يحضره الفقيه: ۴/ ۱۶۳.

الخاتميّة في أحاديث العترة الطاهرة

قد روي عن النبيّ الأكرم ﷺ أحاديث أُخر في مجال كونه خاتماً إلّا أنّ ذكر الجميع غير ميسور لنا، وأُردف البحث بما روي عن عترته الطاهرة عليهم السلام في هذا المجال، وأقتصر على القليل من الكثير؛ فإنّ المروي عنه في ذلك المجال متوفّر جداً.

١ ـ قال الإمام عليّ عليه السلام: «**إلى أن بَعثَ الله محمداً ﷺ لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماتُه، كريماً ميلادُه**»[١].

٢ ـ قال الإمام عليّ عليه السلام: «**اجعل شريف صلواتك، ونامي بركاتك، على محمّد ﷺ عبدك ورسولك الخاتم لما سبق**».[٢]

٣ ـ وقال عليه السلام: «**أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من الألسن، فقفا به الرسلَ وختَم به الوحي**».[٣]

٤ ـ قال عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه: «**بأبي أنت وأُمّي لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء، خصّصت حتّى صِرتَ مسلّياً عمّن سواك، وعمّمتَ حتّى صار الناس فيك سواء**».[٤]

هذا وقد روي عن غير الإمام علي عليه السلام من العترة الطاهرة ونذكر منهم ما يأتي:

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ٦٩.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.
٤. نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥.

٥ ـ عن فاطمة الزهراء عليها السلام قالت: «**لمّا حملتُ بالحسن وولدته جاء النبيّ ثمّ هبط جبرئيل فقال: يا محمّد، العليّ الأعلىٰ يقرؤك السلام ويقول: عليٌّ مِنك بمنزلة هارون من موسى، ولا نبيّ بعدك، سَمّ ابنك هذا باسم ابن هارون**».(١)

٦ ـ وروي عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام قال: «**جاء نفر إلى رسول‌الله فقالوا: يا محمّد إنّك الذي تزعم أنّك رسول الله، وأنّك الذي يوحى إليك كما أوحىٰ الله إلىٰ موسى بن عمران؟ فسكت النبيّ ساعة ثم قال: أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيّين، وإمام المتّقين، ورسول ربّ العالمين**».(٢)

٧ ـ روي عن الحسين بن عليّ عليهما السلام أنّه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأخبرني يا رسول الله هل يكون بعدك نبيّ؟ فقال: لا، أنا خاتم النبيّين، لكن يكون بعدي أئمة قوّامون بالقسط، بعدد نقباء بني إسرائيل**».(٣)

٨ ـ وقال الإمام السجّاد عليه السلام في بعض أدعيته: «**صلّ على محمّد خاتم النبيّين، وسيّد المرسلين، وأهل بيته الطيّبين الطاهرين، وأعذْنا وأهالينا وإخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات ممّا استعذنا منه**».(٤)

٩ ـ وقال الإمام الباقر في حديث: «**وقد ختم الله بكتابكم الكُتبَ وختم بنبيّكم الأنبياءَ**».(٥)

١٠ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**فكلّ نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته**

---

١. عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٥.
٢. البرهان: ٢/ ٤١.
٣. مناقب ابن شهر آشوب: ٢/ ٣٠٠؛ إثبات الهداة: ٢/ ٥٤٤.
٤. الصحيفة السجادية: الدعاء ١٧.
٥. الكافي: ١/ ١٧٧؛ الوافي: ٢/ ١٩.

ومنهاجه حتّى جاء محمّدﷺ فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة».(١)

١١ ـ وقال عليه السلام: «**بعث الله سبحانه أنبياءَه ورسلَه ونبيَّه محمداً، فأفضل الدين معرفة الرسل وولايتِهم، وأخبرك أنّ الله أحلّ حلالاً وحرّم حراماً إلى يوم القيامة».**(٢)

١٢ ـ روى زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحرام والحلال فقال: «**حلال محمّد حلال أبداً إلى يوم القيامة لايكون غيره ولا يجيء غيره».**(٣)

١٣ ـ وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «**إذا وقفت على قبر رسول الله فقل أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّك خاتم النبيّين».**(٤)

١٤ ـ وقال الإمام الرضا عليه السلام في سؤال من سأله: ما بال القرآن، لا يزداد عند النشر والدراسة إلّا غضاضة؟ قال: «**لأنّ الله لم ينزّله لزمان دون زمان ولا لناسٍ دون ناس، فهو في كلّ زمانٍ جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة».**(٥)

هذه أربعة عشر حديثاً عن العترة الطاهرة، ولو أردنا أن نذكر ما وقفنا عليه لطال بنا المقام، غير أنّ المهم طرح أسئلة حول الخاتمية وتحليلها بإيجاز.

---

١. الكافي: ٢ / ١٧؛ المحاسن: ١٩٦.
٢. بحار الأنوار: ٢٤ / ٢٨٨.
٣. الكافي: ١ / ٥٧.
٤. عيون أخبار الرضا: ٢ / ٨٧.
٥. عيون أخبار الرضا: ٢ / ٨٧.

أسئلة حول الخاتميّة

هناك أسئلة حول الخاتمية تثار بين آن وآخر، وهي بين سؤال قرآني وفلسفي وفقهي، ونكتفي من الأوّل بواحد من الأسئلة.

السؤال الأوّل: تنصيص القرآن على أنّ جميع أهل الشرائع ينالون ثواب‌الله.

إنّ القرآن الكريم ينصّ على أنّ المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الشرائع سينالون ثواب الله، وأنّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومعنى ذلك أنّ جميع الشرائع السماوية تُحفَظ إلى جانب الإسلام، وأنّ أتباعها ناجون شأنُهم شأن من اعترف بالإسلام وصار تحت لوائه تماماً، وعلى ضوء هذا، فكيف تكون الشريعة الإسلامية واقعة في آخر مسلسل الشرائع السماوية؟ وكيف تكون رسالته خاتمة الشرائع؟ وإليك ما يدل على ذلك حسب نظر السائل:

١ ـ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هادُوا والنّصارى والصّابئينَ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فَلهُمْ أجرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ ولا خَوفٌ عَليهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُونَ**﴾[1].

٢ ـ ﴿**إِنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هادُوا والصّابئونَ والنّصارى مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُونَ**﴾[2].

---

١. البقرة: ٦٢.

٢. المائدة: ٦٩.

٣ ـ ﴿**إنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هادُوا والصّابئينَ والنّصارى والمجوسَ والَّذينَ أشرَكوا إنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَينهُمْ يومَ القيامةِ إنّ الله على كلِّ شَيءٍ شَهيد**﴾[١].

إنّ استنتاج بقاء شرعية الشرائع السماوية من هذه الآيات مبنيّ على غضّ النظر عمّا تهدف إليه الآيات، وذلك أنّ الآيات بصدد ردّ مزاعم ثلاثة كانت اليهود تتبناها، لا بصدد بيان بقاء شرائعهم بعد بعثة الرسول الأكرم ﷺ. وهي:

١ـ فكرة «الشعب المختار»!

كانت اليهود والنصارى يستولون على المسلمين، بل العالم بادّعائهم فكرة «الشعب المختار»، بل إنّ كل واحدة من هاتين الطائفتين: اليهود والنصارى، كانت تدّعي أنّها أرقى أنواع البشر، وكانت اليهود أكثرهم تمسّكاً بهذا الزعم وقد نقل عنهم سبحانه قولهم:

﴿**وقالَتِ اليَهودُ والنّصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعذِّبُكُمْ بِذُنُوبكُمْ بَلْ أنتُمْ بَشَرٌ مِمَّن خَلَق...**﴾[٢] والله سبحانه يردّ هذا الزعم بكلّ قوة عندما يقول: ﴿**فَلِمَ يُعذِّبُكُمْ بِذُنُوبكُمْ**﴾، وقد بلغت أنانية اليهود واستعلاؤهم الزائف حدّاً بالغاً وكأنّهم قد أخذوا على الله عهداً بأن يستخلصهم ويختارهم، حيث قالوا: ﴿**وقالُوا لَنْ تَمسَّنا النّارُ إلّا أياماً مَعدُودَةً**﴾[٣].

٢ـ الانتماء إلى اليهودية والنصرانية مفتاح الجنة!

قد كانت اليهود والنصارى تبنّان وراء فكرة: «الشعب المختار»، فكرة أُخرى، وهي: أنّ الجنة نصيب كل من ينتسب إلى بني إسرائيل أو يُسمّى

---

١. الحج: ١٧. ٢. المائدة: ١٨. ٣. البقرة: ٨٠.

مسيحياً ليس إلّا، وكأنَّ الأسماء والانتساب مفاتيح للجنة، قال سبحانه ناقلاً عنهم: ﴿**وقالُوا لَنْ يَدخُلَ الجنَّةَ إلّا مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارى**﴾[١].

ولكنّ القرآن يردّ عليهم ويقول: ﴿**تِلكَ أمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرهانَكُمْ إنْ كُنتُمْ صادِقينَ * بَلىٰ مَنْ أسلَمَ وَجهَهُ للهِ وهوَ مُحسنٌ فَلهُ أجرُهُ عندَ ربِّهِ ولا خوفٌ عَلَيهم ولا هُمْ يحزَنُون**﴾[٢]، فإنّ قوله سبحانه: ﴿**بَلىٰ مَنْ أسلَمَ**﴾ يعني الإيمان الخالص، وقوله: ﴿**وهوَ مُحسنٌ**﴾ يعني العمل وفق ذلك الإيمان، وكلتا الجملتين تدلّان على أنّ السبيل الوحيد إلى النجاة يوم القيامة هو الإيمان والعمل لا الانتساب إلى اليهودية والنصرانية، فليست المسألة مسألة أسماء، وإنّما هي مسألة إيمان صادق وعمل صالح.

٣ـ الهداية في اعتناق اليهودية والنصرانية!

وهذا الزعم غير الزعم الثاني، ففي الثاني كانوا يقتصرون في النجاة بالانتماء إلى الأسماء، وفي الأخير يتصوّرون أنّ الهداية الحقيقية تنحصر في الاعتناق لليهودية والنصرانية ﴿**وقالُوا كونُوا هُوداً أو نَصارى تَهتَدوا**﴾[٣]، والقرآن الكريم يردّ هذه الفكرة كما سبق، ويقول إنّ الهداية الحقيقية تنحصر في الاقتداء بملّة إبراهيم واعتناق مذهبه في التّوحيد الخالص الذي أمر الأنبياء بإشاعته بين أُممهم، قال سبحانه: ﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المُشركين**﴾[٤]، وفي آية أُخرى ﴿**ما كانَ إبراهيمُ يَهوديّاً ولا نَصرانيّاً ولكنْ كانَ حَنيفاً مُسلماً وما كانَ مِنَ المُشركين**﴾[٥].

---

١. البقرة: ١١١. ٢. البقرة: ١١١ـ ١١٢. ٣. البقرة: ١٣٥.
٤. البقرة: ١٣٥. ٥. آل عمران: ٦٧.

نستخلص من كلّ هذه الآيات أنّ اليهودَ والمسيحيّين وبخاصة القدامى منهم كانوا يحاولون ـ بهذه الأفكار الواهية ـ التفوّق على البشر، والتمرّد على تعاليم الله، والتخلّص بصورة خاصّة من الانضواء تحت لواء الإسلام، مرة بافتعال أُكذوبة «الشعب المختار» الذي لا ينبغي أن يخضع لأيّ تكليف، ومرّة أُخرى بافتعال خرافة «الأسماء والانتساب» وادّعاء النجاة بسبب ذلك، والحصول على مغفرة الله وجنّته وثوابه، ومرّة ثالثة بتخصيص «الهداية» وحصرها في الانتساب إلى إحدى الطائفتين بينما نجد أنّه كلّما مرّ القرآن على ذكر هذه المزاعم الخرافية أعلن بكلّ صراحة وتأكيد: أنّه لافرق بين إنسان وآخر إلّا بتقوى الله؛ فإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.

وأمّا النجاة والجنّة فمن نصيب من يؤمن بالله، ويعمل بأوامره دونما نقصان لاغير، وهو بهذا يقصد تفنيد مزاعم اليهود والنصارى الجوفاء.

بهذا البحث حول الآيات الثلاث (المذكورة في مطلع البحث) نكشف بطلان الرأي القائل بأن الإسلام أقرّ ـ في هذه الآيات ـ مبدأ «الوفاق الإسلامي المسيحي واليهودي» تمهيداً لإنكار عالمية الرسالة الإسلامية وخاتميتها، بينما نجد أنّ غاية ما يتوخّاه القرآن ـ في هذه الآيات ـ إنما هو فقط نسف وإبطال عقيدة اليهود والنصارى، وليعلن مكانه بأنّ النجاة إنما هي بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

فلا استعلاء ولا تفوّق لطائفة على غيرها من البشر مطلقاً، كما أنّ هذا التشبّث الفارغ بالأسماء والدعاوى ليس إلّا من نتائج العناد والاستكبار عن الحقّ.

فليست الأسماء ولا الانتساب هي التي تنجي أحداً في العالم الآخر، وإنّما هو الإيمان والعمل الصالح، وهذا الباب مفتوح في وجه كلّ إنسان يهودياً كان أو نصرانياً، مجوسياً أو غيرهم.

ويوضّح المراد من هذه الآية قوله سبحانه: ﴿**وَلو أنّ أهلَ الكِتابِ آمَنوا واتَّقَوا لَكفَّرنا عَنهمْ سَيِّئاتِهِمْ ولأدخلناهُمْ جَنّاتِ النَّعيم**﴾[1].

فتصرّح الآية بانفتاح هذا الباب بمصراعيه في وجه البشر كافّة من غير فرق بين جماعة دون جماعة، حتّى أنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون لقبلنا إيمانهم وكفّرنا عنهم سيئاتهم.

هذا هو كل ما كان يريد القرآن بيانه من خلال هذه الآيات، وليس أيّ شيء آخر.

إذن فلا دلالة لهذه الآيات الثلاث على إقرار الإسلام لشرعيّة الشرائع بعد ظهوره... وإنّما تدلّ على أنّ القرآن يحاول بها إبطال بعض المزاعم.

هذا كله حول السؤال القرآني، وهناك أسئلة أُخرى جديرة بالذكر والتحليل، وإليك بيانها:

السؤال الثاني: لماذا ختمت النبوّة التبليغية؟

إنّ الشريعة الإسلامية شريعة متكاملة الأركان؛ فلا شريعة بعدها، ومع الاعتراف بذلك يطرح هذا السؤال:

إنّ الأنبياء كانوا على قسمين: منهم من كان صاحب شريعة، ومنهم من

---

١. المائدة: ٦٥.

كان مبلّغاً لشريعة مَن قبله من الأنبياء، كأكثر أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يبلّغون شريعة موسى بين أقوامهم.

فهب أنّه ختم باب النبوّة التشريعية لكون الشريعة الإسلامية متكاملة، فلماذا ختم باب النبوّة التبليغية؟

والجواب عنه، غنى الأُمة الإسلامية عن هذا النوع من النبوّة، وذلك لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ النبيّ الأكرم ترك بين الأُمّة الكتابَ والعترة وعرّفهما إليها، وقال: لن تضلّ الأُمّة مادامت متمسّكة بهما.

فإذا كانت الهداية تكمن في التمسّك بهما فالأُمّة الإسلامية في غنى عن المهمّة التبليغية؛ إذ مهمّتها موجَدة بالتمسّك بهما فالعترة الطاهرة مشاعل الحقّ، ومنارات التوحيد، أغنت الأُمّة، علومُهم وتوجيهاتُهم عن بعث نبيّ يبلّغ رسالات الله، وهذا إجمال الكلام في أئمة أهل البيت عليهم السلام، والتفصيل موكول إلى محلّه.

الوجه الثاني: أنّ علماء الأُمّة المأمورين بالتبليغ بعد التفقّه أغنوا الأُمّة عن أيّ نبوّة تبليغية، قال سبحانه: ﴿**فَلَولا نفَر مِنْ كُلِّ فِرقةٍ مِنهُمْ طائفةٌ لِيتفقَّهوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَومَهُمْ إذا رَجَعوا إلَيهم لَعلَّهم يَحذَرون**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدعونَ إلى الخيرِ ويأمُرونَ بالمَعرُوفِ وَينهَونَ عَنِ المُنكَرِ**﴾[2].

---

١. التوبة: ١٢٢.

٢. آل عمران: ١٠٤.

السؤال الثالث: لماذا حرم الخلف من المكاشفة الغيبية والاتصال بعالم الغيب واستطلاع ما هناك من المعارف والحقائق؟

الجواب: إنّ الفتوحات الغيبية من المكاشفات والمشاهدات الروحية لم توصد بابها، وإنّما أُوصد باب خاصّ وهو باب النبوّة الذي يحمل الوحي التشريعي أو التبليغي.

قال سبحانه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِم حتّى يتبيَّنَ لَهُمْ أنّهُ الحقُّ أوَلَمْ يَكفِ بِربِّكَ أنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شَهيد**﴾[1].

فالفتوحات الباطنية من المكاشفات والإلقاءات في الروع غير مسدودة بنصّ الكتاب العزيز قال سبحانه: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنوا إن تَتَّقوا الله يجعلْ لَكُمْ فُرقانا**﴾[2] أي يجعل في قلوبكم نوراً تفرّقون به بين الحقّ والباطل وتميّزون به بين الصحيح والزائف لا بالبرهنة والاستدلال، بل بالشهود والمكاشفة، قال سبحانه: ﴿**يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برسولهِ يُـؤْتِكُمْ كِفلَينِ مِنْ رَحمتهِ ويَجعلْ لَكُمْ نُوراً تَمشونَ بهِ ويَغفرْ لَكُمْ واللهُ غَفورٌ رَحيم**﴾[3].

وهناك آيات وروايات تدلّ بوضوح على انفتاح هذا الباب في وجه الإنسان، نكتفي بما ذكرناه.

السؤال الرابع: ادّعاء النقص في التشريع الإسلامي

كلّما تكاملت جوانب الحضارة وتشابكت، وتعدّدت ألوانها، واجه المجتمع أوضاعاً وأحداثاً جديدة وطرحت عليه مشاكل طارئة لا عهد للأزمنة

---

١. فصلت: ٥٣. ٢. الأنفال: ٢٩. ٣. الحديد: ٢٨.

السابقة بها، إذن فحاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة لا تزال تتزايد كلّ يوم تبعاً لذلك، وما جاء به الرسول لا يجاوز قوانين محدودة، فكيف تفي النصوص المحدودة بالحوادث الطارئة غير المتناهية؟

الجواب: إنّ خلود التشريع وبقاءه في جميع الأجيال ومسايرته للحضارات الإنسانية، واستغناءه عن كلّ تشريع سواه، يتوقّف على وجود أمرين فيه:

الأول: أن يكون التشريع ذا مادّة حيوية خلّاقة للتفاصيل بحيث يقدر معها علماء الأُمّة والأخصّائيون منهم علىٰ استنباط كلّ حكم يحتاج إليه المجتمع البشري في كلّ عصر من الأعصار.

الثاني: أن ينظر إلىٰ الكون والمجتمع بسعة وانطلاق، مع مرونة خاصة تماشي جميع الأزمنة والأجيال، وتساير الحضارات الإنسانية المتعاقبة. وقد أحرز التشريع الإسلامي كِلا الأمرين، أمّا الأوّل فقد أحرزه بتنفيذ أُمور:

الف ـ الاعتراف بحجّية العقل في مجالات خاصّة:

إنّ من سمات التشريع الإسلامي التي يمتاز بها عن سائر التشريعات هي إدخال العقل في دائرة التشريع، والاعتراف بحجّيّته في الموارد التي يصلح له التدخّل والقضاء فيها، فالعقل أحد الحجج الشرعيّة، وفي مصافّ المصادر الأُخرىٰ للتشريع، وقد فتح هذا الاعتراف للتشريع الإسلامي سعةً وانطلاقاً وشمولاً لما يتجدّد من الأحداث، ولما يطرأ من الأوضاع الاجتماعية الجديدة.

إنّ الملازمة بين حُكمي العقل والشرع (إنّه كلّما حكمَ بِه العقلُ حكمَ بِه الشرع) ترفع كثيراً من المشاكل التي لم يرد فيها نصّ، فللعقل دور كبير في استنباط كثير من الأحداث التي يصلح للعقل القضاء فيها، ويقدر على إدراك حكم الشرع من حكم نفس العقل، وذلك في الموارد التالية:

١ ـ القول بالملازمة بين وجوب المقدّمة وذيها.

٢ ـ القول بالملازمة بين حرمة الشيء ومقدمته.

٣ ـ الحكم بالبراءة عند عدم النصّ.

٤ ـ الحكم بالامتثال القطعي عند العلم الإجمالي.

٥ ـ الحكم بالملازمة بين الحرمة وفساد العبادة.

٦ ـ الحكم بالملازمة بين تعلّق النهي بنفس المعاملة وفسادها.

٧ ـ الحكم بالإجزاء عند الامتثال وفق الأمر الاضطراري.

٨ ـ الحكم بالإجزاء عند الامتثال وفق الأمر الظاهري.

٩ ـ استكشاف الأمر الشرعي بالأهم عند التزاحم.

١٠ ـ استكشاف بطلان الصلاة عند اجتماع الأمر والنهي بتقديمه على الآمر.

إلى غير ذلك من الأحكام التي تعدّ من ثمرات القول بالتحسين والتقبيح العقليين، فمن عزل العقل عن الحكم في ذلك المجال، فقد قصرت فكرته عن تقديم أيّ حلّ لهذه الأحكام وما ذكرناه نماذج لما للعقل من دور، وإلّا فالأحكام المستنبطة من العقل في مجالات مختلفة أكثر من ذلك.

ب ـ إنّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد عند العدلية:

إنّ من أمعن في الكتاب والسنّة يقف على أنّ التشريع الإسلامي تابع لملاكات؛ فلا واجب إلّا لمصلحة في فعله ولا حرام إلّا لمفسدة في اقترافه، ويشهد بذلك كتاب الله في موارد:

يقول سبحانه: ﴿**إنّما يُريدُ الشَّيطانُ أن يُوقِعَ بَينكُمُ العَداوةَ والبَغضاءَ في الخمرِ والمَيسرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ فَهلْ أنتم مُنتَهون**﴾[1]، فالآية تعلّل حرمة الخبيثين باستتباعهما العداوة والبغضاء وصدّهما عن ذكر الله، يقول سبحانه: ﴿**...وأقِمِ الصَّلاةَ إنّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ...**﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات التي تصرّح بملاكات الأحكام.

وقد تضافرت النصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام على أنّ الأحكام الشرعية تخضع لملاكات، قال الإمام الطاهر عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى لم يبح أكلاً ولا شرباً إلّا لما فيه المنفعة والصلاح، ولم يحرّم إلّا ما فيه الضرر والتلف والفساد**»[3].

وقال عليه السلام في الدم: «**إنّه يسيء الخلق، ويورث القسوة للقلب، وقلّة الرأفة والرحمة، ولايؤمن أن يقتل ولده ووالده**»[4].

---

١. المائدة: ٩١. ٢. العنكبوت: ٤٥.
٣. مستدرك الوسائل: ٣/ ٧١.
٤. بحار الأنوار: ٦٢/ ١٦٥ح ٣.

وهذا باقر العلوم وإمامها عليه السلام يقول: «**إنّ مدمن الخمر كعابد وثن، ويورثه الارتعاش، ويهدم مروّته، ويحمله إلى التجسّر على المحارم من سفك الدماء، وركوب الزنا**»[١].

وغيرها من النصوص المتضافرة عن أئمة الدين[٢].

فإذا كانت الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد في الموضوع، فالغاية المتوخّاة من تشريعها إنّما هي الوصول إليها، أو التحرّز عنها، وبما أنّ المصالح والمفاسد ليست على وزان واحد، بل رُبّ واجب يسوغ في طريق إحرازه اقتراف بعض المحارم، لاشتماله على مصلحة كبيرة لا يجوز تركها أصلاً، ورُبّ حرام ذي مفسدة كبيرة، لا يجوز اقترافه، وإن استلزم ترك الواجب أو الواجبات.

ولأجل ذلك فقد عقد الفقهاء باباً خاصاً لتزاحم الأحكام وتصادمها في بعض الموارد، فيقدّمون الأهم على المهم والأكثر مصلحة على الأقل منها، والأعظم مفسدة على الأحقر منها، وهكذا... ويتوصلون في تمييز الأهم عن المهم، بالطرق والأمارات التي تورث الاطمئنان، وباب التزاحم في علم الأُصول غير التعارض فيه، ولكلٍّ أحكام.

وقد أعان فتح هذا الباب على حلّ كثير من المشاكل الاجتماعية التي ربّما يتوهّم الجاهل أنّها تعرقل خطا المسلمين في معترك الحياة، وأنّها

---

١. بحار الأنوار: ٦٢/ ١٦٤ح ٢.

٢. راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق فقد أورد فيه ما أُثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في بيان علل التشريع.

من المعضلات التي لاتنحلّ أبداً، ولنأتي على ذلك بمثال وهو:

إنّه قد أصبح تشريح بدن الإنسان في المختبرات من الضروريات الحيوية التي يـتوقّف عليه نظام الطبّ الحديث، فلا يتسنّىٰ تعلّم الطبّ إلّا بالتشريح والاطّلاع علىٰ خفايا الأمراض والأدوية.

غير أنّ هذه المصلحة، تصادمها مسألة احترام الإنسان حيّاً وميتاً، إلى حدّ أوجب الشارع الإسراع في تغسيله وتكفينه وتجهيزه للدفن، ولا يجوز نبش قبره إذا دفن، ولا يجوز التمثيل به وتقطيع أعضائه، بل هو من المحرّمات الكبيرة التي لم يجوّزها الشارع حـتّى بـالنسبة إلى الكلب العقور، غير أنّ عناية الشارع بالصحّة العامة وتقدّم العلوم جعلته يسوّغ اقتراف هذا العمل لتلك الغاية، مقدّماً بدن الكافر على المسلم والمسلم غير المعروف على المعروف منه، وهكذا...

ج ـ التشريع الإسلامي ذو مادة حيوية:

إنّ التشريع الإسلامي في مختلف الأبواب مشتمل عـلى أُصـول وقـواعـد عـامّة تـفي باستنباط آلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري على امتداد القرون والأجيال.

أخرج الكليني عن عمر بن قيس، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعته يـقول: «**إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلّا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً**».

روى الكليني عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**ما من شيء إلّا وفيه كتاب أو سنّة**»[١].

وقال الإمام الطاهر موسى الكاظم عليه السلام عندما سئل عن وجود كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيه قال مجيباً: «**بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه**»[٢].

نعم تتجلّى حيوية مادة التشريع إذا أخذنا بسنّة رسول الله المرويّة عن طريق أئمة أهل البيت؛ فقد حفظوا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كانت كتابة الحديث أمراً معرضاً عنه، ولذلك صارت أدلّة الفقه الإسلامي متوسّعة كافلة لاستنباط الأحكام، وبذلك أغنوا الأُمة الإسلامية عن مقاييس ظنّية كالقياس والاستقراء، وما لا دليل عليه من الكتاب والسنّة علىٰ وجه القطع واليقين.

إنّ الاكتفاء بما ورد عن النبيّ عن طريق الصحابة وعدم الرجوع إلى ما رواه أئمة أهل البيت عن جدّهم متسلسلاً كابر عن كابر لخسارة عظمى، فعلى المشغوف بتجديد حياة الإسلام وإغنائه عن أيّ تشريع غربيّ وشرقيّ وتجسيد الخاتمية في مجال التشريع أن يجتاز الحدود التي ضربها الأُمويون ومَن لفّ لفّهم بين الناس وأئمة أهل البيت عليهم السلام فعند ذلك ستنفتح آفاق من حديث الرسول ممّا يحتار اللبّ به، ويثير الحسرة لما فات الأُمّة من التنوّر بنورهم في القرون الماضية.

---

١. الكافي: ١ / ٥٩ ـ ٦٢، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة.
٢. الكافي: ١ / ٥٩ ـ ٦٢، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة.

د ـ تشريع الاجتهاد وعدم غلق بابه:

وممّا أضفى على التشريع الإسلامي خلوداً وغضاضة وشمولية وإغناءً عن موائد الأجانب، فتح باب الاجتهاد فيما تحتاج إليه الأُمّة في حياتها الفردية والاجتماعية، ومن أقفله في الأدوار السابقة قطع الأُمّة الإسلامية عن مواكبة التطوّر والحضارة، ومِن ثَمَّ جعل التشريع الإسلامي ناقصاً غير كامل لما تحتاج إليه الأُمّة، وأمّا لزوم فتحه فهو أنّ الأُمّة الإسلامية في زمن تتوالى فيه الاختراعات والصناعات، وتتجدّد الأحداث التي لم يكن لها مثيل في عصر النبيّ ولا بعده، فهم أمام أحد أُمور:

١ ـ بذل الوسع في استنباط أحكام الموضوعات الحديثة من الأُصول والقواعد الإسلامية.

٢ ـ اتّباع المبادئ الغربية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة.

٣ ـ الوقوف من غير إعطاء حكم.

ومن المعلوم بطلان الثاني والثالث فيتعيّن الأوّل.

نعم، لم يزل هذا الباب مفتوحاً عند الشيعة بعد رحيل صاحب الرسالة إلى يـومنا هـذا، وبذلك أنقذوا الشريعة من الانطماس وأغنوا الأُمّة الإسلامية عن التطلّع إلى موائد الغربيين.

وبما أنّ الاجتهاد الحرّ، والخروج عن قيد المذاهب صار واضح اللزوم نقتصر علىٰ هـذا المقدار.

هـ ـ حقوق الحاكم الإسلامي أو ولاية الفقيه:

من الأسباب الباعثة على بقاء الدين وكونه مادّة حيوية صالحة لحلّ المشاكل والمعضلات الطارئة، كون الحاكم الإسلامي بعد النبيّ والأئمة ممثّلاً لقيادتهم الحكيمة في أُمور الدين والدنيا، التي من شأنها أن توجّه المجتمع البشري إلى أرقى المستويات الحضارية، فقد فتحت لمثل هذا الحاكم الصلاحيات المؤدّية إلى حقّ التصرّف في كلّ ما يراه ذا مصلحة للأُمّة في إطار القوانين العامّة؛ لأنّه يتمتّع بمثل ما يتمتّع به النبيّ والإمام من النفوذ المطلق إلّا ما كان من خصائص النبيّ والأئمة.

وبما أنّ المحقّقين أسهبوا الكلام في معنى ولاية الفقيه اقتصرنا على هذا المقدار.

مرونة التشريع الإسلامي:

لقد سبق الحديث عن أنّ استغناء التشريع الإسلامي عن كلّ تشريع سواه رهن أمرين:

الأوّل: إنّه ذو مادة حيوية خلّاقة للتفاصيل بحيث يقدر على الإجابة ببيان حكم جميع الأحداث التالية والطارئة.

الثاني: النظر إلى الكون والمجتمع بسعة وانطلاق مع مرونة خاصة تماشي جميع الأزمنة والأجيال، وقد مرّ الكلام في الأمر الأوّل وإليك الكلام حول الأمر الثاني.

إنّ الذي فتح للتشريع الإسلامي خلوداً وغناءً عن سائر التشريعات هو مرونة أحكامه التي تماشي جميع الأزمنة والحضارات، وقد تمثّلت هذه المرونة بأُمور:

الأوّل: كونه جامعاً بين الدعوة إلى المادّة والروح

إذا غالت المسيحية في التوجّه إلى الناحية الروحية، فدعت إلى الرهبانية والتعزّب، وغالت اليهودية في الدعوة إلى ملاذّ الحياة والانكباب على المادّة حتّى نسيت كلّ قيمة روحية، فالإسلام دعا إلى المادّية والمعنوية على وجه يطابق الفطرة الإنسانية، وجعل الفطرة مقياساً للحلال والحرام، وشرع للإنسان ما يسعده في الدنيا والآخرة على ما هو مفصّل في محله.

الثاني: النظر إلى المعاني لا إلى الظواهر

الإسلام ينظر إلى المعاني والحقائق لا الظواهر والقشور، فيأمر بالأخذ باللبّ لا بالقشر، وهذا هو السرّ في خاتمية الدين الإسلامي وتمشّيه مع تطوّر الحياة، ولا يتوهّم من ذلك جواز التدخّل في التشريع بحجّة الأخذ باللبّ دون القشر؛ فإنّ الكبريات الواردة في الكتاب والسنّة كلّها لبّ، وأمّا القشر فإنّما يرجع إلى التخطيط والتجسيد.

وسيوافيك عند الإجابة على السؤال الخامس أنّ الإسلام دعا الإنسان إلى الملبس والمسكن وإشاعة العلم والتربية، وهذا هو اللبّ، وأمّا الأشكال والأنماط لهذا التشريع فمتروك إلى مقتضيات العصور.

إنّ الذي يهتمّ به التشريع كون البيت مُقاماً على أرض غير مغصوبة

ومن مال حلال بحيث يتمكّن المسلم من إقامة فرائضه فيه وحفظ كيانه، وقد أناط شكل البيت وهندسته إلى مقتضيات الظروف والمصالح؛ وكذا الملابس ووسائل التعليم ابتداءً من الحفر على الصخر والجدران والكتابة على الجلود والقراطيس، إلى ابتكار وسائل ألكترونية متطوّرة لإنجاز الغرض، فمن أراد الحفاظ على الصور، فقد عرقل الأُمّة الإسلاميّة عن التقدّم وأثار مشاكل في تطبيق الشريعة في الأزمنة الحاضرة.

الثالث: الأحكام التي لها دور التحديد

من الأسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وانطباقه على جميع الحضارات الإنسانية تشريعه القوانين الخاصّة التي لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامّة تشريعاته وقد اصطلح عليها الفقهاء بالأدلّة الحاكمة؛ لأجل حكومتها وتقدّمها على كلّ حكم ثبت لموضوع بما هو هو، فهذه القوانين الحاكمة، تعطي لهذا الدين مرونة يماشي لبّها كلّ حضارة إنسانية، مثلاً قوله سبحانه: ﴿**وما جعلَ عَليكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ...﴾[1] حاكم على كلّ تشريع استلزم العمل به حرجاً، لا يتحمّل عادة للمكلّف فهو مرفوع في الظروف الحرجة، ومثله قوله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**» فكلّ حكم استتبع العمل به ضرراً شديداً، فهو مرفوع في تلك الشرائط، وقس عليهما غيرهما من القوانين الحاكمة.

نعم تشخيص الحاكم عن المحكوم، ومايرجع إلىالعمل بالحاكم من الشرائط، يحتاج إلى الدقّة والإمعان والتفقّه والاجتهاد، ورأْينا أنّ الموضوع يحتاج إلى التبسّط أكثر من هذا، فإلى مجال آخر أيّها القارئ الكريم.

---

١. الحج: ٧٨.

السؤال الخامس: القوانين الثابتة والحياة المتطوّرة

إنّ مقتضى كون الإسلام ديناً خاتماً، ثبات قوانينه وتشريعاته، ومن المعلوم أنّ المجتمع الإنساني لم يزل في تطوّرٍ وتغيّرٍ، فعند ذلك يُطْرح السؤال التالي:

كيف يمكن للقانون الثابت معالجة متطلّبات المجتمع المتغيّر؟ فإنّ من لوازم التغيّر والتطوّر، تغييرُ ما تسُود عليه من قوانين وتشريعات؟

هذا هو السؤال الذي يُطرح بين آن وآخر، والإجابة عنه تتوقّف على بيان ما هو الثابت من حياة الإنسان عن متغيّرها، وأنّ للثابت من جانب حياته تشريعاً ثابتاً، وللجانب المتغيّر منها تشريعاً متغيّراً فالتشريع الثابت لما هو الثابت والمتغيّر لما هو المتغيّر، وإليك البيان:

الجانب الثابت من حياة الإنسان:

١ ـ إنّ للحياة الإنسانية جانبين: متغيّر وثابت، فالثابت منها عبارة عن الغرائز الثابتة والروحيات الخالدة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل مادام الإنسان إنساناً ولا يتسرّب التغيّر إليها.

فالإنسان الاجتماعي بماهو موجود ذو غرائز يحتاج لحفظ حياته وبقاء نفسه إلى العيش الاجتماعي والحياة العائلية، وهذان الأمران من أُسُس حياة الإنسان لا تفتأ تقوم عليهما حياته منذ وجوده إلى يومنا هذا.

فإذا كان التشريع الموضوع منسجماً ومتطلبات الغرائز، ومعدّلاً إيّاها

عن الإفراط والتفريط ومرتكزاً على العدل والاعتدال، فذلك التشريع يكون خالداً في ظلّ خلود الغرائز.

٢ ـ إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر لا ينكر؛ فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً رغم كلّ الدعايات السخيفة المنكرة لذلك الاختلاف، ولكلّ من الرجل والمرأة متطلّب وفق تركيبه، فإذا كان التشريع متجاوباً مع التركيب والفطرة، يكون خالداً حسب خلود الفطرة والتركيب.

٣ ـ الروابط العائلية كعلاقة الأب بولده وبالعكس، علاقات طبيعية مبنية على الفطرة، فالأحكام الموضوعية وفق هذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان.

إنّ السؤال مبنيّ على أنّ الإنسان بفطرته وتركيبه يقع في مهبِّ التغيّر والتطوّر؛ فلا يبقى منه شيء عبْر القرون، فكأنّ الإنسان الحالي غير الإنسان الغابر، مع أنّها فكرة باطلة، فلو كان هناك تغيّر فإنّما يعود هذا إلى غير الجانب الثابت من حياته.

٤ ـ إنّ في حياة الإنسان قضايا أخلاقية ثابتة عبر الزمان لا يتسرَّب إليها التغيير ككون الظلم قبيحاً والعدل حسناً، وجزاء الإحسان بالإحسان حسناً وبالسيّئ قبيحاً، والعمل بالميثاق حسناً ونقضه قبيحاً، إلى غيرها من القضايا الأخلاقية الثابتة في حياة الإنسان. سواء قلنا بأنّها أحكام فطرية نابعة من الخلقة أو قلنا إنّ هناك عوامل عبر التاريخ رسخت هذه المفاهيم في ذهن الإنسان؛ فإنّ الاختلاف في جذور تلك المُثُل لا يضرّ بما نحن بصدده؛ لأنّها على كلّ تقدير ثابتة في حياة الإنسان، والتشريع الموضوع وفقها يتمتّع بالثبات.

إنّ هناك موضوعات في الحياة الإنسانية لم تزل ذات مصالح ومفاسد أبـدية، فـما دام الإنسان إنساناً فالخمر يزيل عقله والميسر ينبت العداوة في المجتمع، والإباحة الجنسية تفسد النسل والحرث مدى الدهور والأجيال، فبما أنّ هذه القضايا قضايا ثابتة في حياته، فالتشريع على وفقها يكون ثابتاً وفق ثباتها.

فهذه نماذج من الجانب الثابت من حياة الإنسان تناولناها لإيقاف القارئ على أنّ التغيّر في حياة الإنسان ليس أمراً كلّياً ولا يتسرَّبُ إلى أعماق حياته، وإنّما التغيّر يرجع إلى صور من حياته فالتغيّر ـ كما سيوافيك بيانه ـ إنّما يكون مثلاً في المواصلات، وفي التكتيك الحربي، وفي طراز البناء وأشكاله، وفي معالجة الأمراض وغيرها، فأين مثل هذا التغيّر من حـرمة الظـلم، ووجوب العدل، ولزوم أداء الأمانات، ودفع الغرامات، ولزوم الوفاء بالعهد والأيمان، وتكريم ذوي الحقوق إلى غير ذلك من القوانين الثابتة الموضوعة على غرار الفطرة مبنياً على الجانب الثابت من حياته فهو يحتلّ مكان التشريع الدائم.

الجانب المتغيّر في الحياة الإنسانية:

إنّ للإنسان جانباً آخر في حياته لا يزال يتغيّر من حال إلى حال، فمثل هـذا يـتطلّب تشريعات متغيّرة حسب تغيّره وتبدّله، ومن حسن الحظّ أنّه ليس في الإسلام الخاتم تشـريعٌ ثابتٌ لهذا الجانب من الحياة الّذي يمثل ظاهر الحياة لا جوهرها، ولذلك لم يتدخّل فيه الإسلام تدخُّلاً مباشراً، بل ترك أمرها للمجتمع الإسلامي في ظلّ إطارٍ خاص. وسوَّغ للمجتمع البشري إدارة شؤون حياته في مجال العمران والبناء وتطور وسائل الحياة المختلفة في مجال

الثقافة والدفاع والاقتصاد في ظلّ إطارٍ عام الذي يتجاوب مع التغيّر والتطوّر.

فترك للإنسان مجالاً متحرّكاً يختار به أيّ نوع من الألبسة والبناء والمعدّات والوسائل المختلفة ضمن شروط معلومة في الفقه الإسلامي، ولأجل هذه المرونة فيه نرى أنّه يتجاوب مع جميع الحضارات الإنسانية، وما هذا إلّا لأنّه لم يتدخّل في الجزئيات المتغيّرة إلّا بوضع إطار خاصّ لا يمنع حرّيته ولا يزاحم التغيّر، وهنا كلمة قيّمة للشيخ الرئيس ابن سينا نذكرها، قال:

«يجب أن يفوّض كثير من الأحوال خصوصاً في المعاملات إلى الاجتهاد؛ فإنّ للأوقات أحكاماً لا يمكن أن تنضبط، وأمّا ضبط المدينة بعد ذلك بمعرفة ترتيب الحفظة ومعرفة الدخل والخرج وإعداد أهب الأسلحة والحقوق والثغور وغير ذلك فينبغي أن يكون ذلك إلى السائس من حيث هو خليفة، ولا تفرض فيها أحكام جزئية؛ فإنّ في فرضها فساداً؛ لأنّها تتغيّر مع تغيّر الأوقات، وفرض الكليّات فيها مع تمام الاحتراز غير ممكن، فيجب أن يجعل ذلك إلى أهل المشورة».[1]

نعم إنّ عنوان مقتضى الزمان صار رمزاً لكلّ من أراد أن يتحرّر من القيم الأخلاقية، ويعيش متحلّلاً من كلّ قيد وحدّ، خالعاً كلّ عذار.

وهؤلاء حيثما رأوا الإباحة الجنسيّة، واختلاط الرجال والنساء، واتّخاذ الملاهي بأنواعها وشرب المسكر، واللعب بالميسر، واقتراف المعاصي وأخذ الربا وغير ذلك ممّا حرّمته الشريعة الإسلامية، لم يجدوا مبرِّراً لاقترافها إلّا بالتمسّك بمقتضيات الزمان وجبر التاريخ.

---

١. الشفاء، قسم الإلهيات: ٥٦٦.

وهذا أبرز دليل على أنّ التمسّك به غطاء للتحرّر من القيود الشرعية والأخلاقية، وإلّا فلو كان المقصود من تطبيق الحياة على مقتضيات الزمان، هو ترفيع الثقافة الإنسانية، والاستفادة من أحدث الأجهزة في المجالات كافّة؛ فهذا ممّا لا يرفضه الإسلام، وليس له فيه قانون يعرقل خطا الترقّي وحدوده بإطار عام، وهو عبارة أن لا يزاحم سعادة الإنسان، وأن لا يكون فيه ضرر على روحه وجسمه، والقيم التي بها يمتاز عن الحيوان.

نماذج من الأحكام المتغيرة حسب تغير الظروف:

وها نحن نأتي في المقام بنماذج من الأحكام المتغيرة بتغيّر الظروف وراء ما ذكرناه في مجال الصناعة والمسكن والملبس بشرط أن لا يزاحم المثل والقيم.

١. في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية:

يجب على الدولة الإسلامية أن تراعي مصالح الإسلام والمسلمين، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامّة، وأمّا كيفية تلك الرعاية، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية، فتارة تقتضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدوّ، وأُخرى تقتضي ضدّ ذلك.

وهكذا تختلف المقرّرات والأحكام الخاصّة في هذا المجال، باختلاف الظروف، ولكنّها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي هو رعاية مصالح المسلمين، كقوله سبحانه:

﴿ **ولَنْ يَجعلَ اللهُ للكافرينَ عَلى المُؤمِنينَ سَبيلاً** ﴾ [١]، وقوله سبحانه: ﴿ **لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقسِطُوا إلَيهِمْ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقسِطينَ * إنَّما يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ قاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَ أخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وظاهَروا على إخراجِكُمْ أنْ تَوَلَّوهُمْ وَمنْ يَتولَّهُمْ فَأُولئك هُمُ الظّالِمونَ** ﴾ [٢].

٢. في العلاقات الدولية التجارية:

قد تقتضي المصلحة عقدَ اتفاقيات اقتصاديّة وإنشاء شركات تجارية، أو مؤسّسات صناعية، مشتركة بين المسلمين وغيرهم، وقد تقتضي المصلحة غير ذلك. ومن هذا الباب حكم الإمام المغفور له المجدِّد السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع من تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية التي عقدت في زمانه بين إيران وإنجلترا؛ إذ كانت مُجحِفة بحقوق الشعب الإيراني المسلم؛ لأنّها خوّلت إنجلترا حقّ احتكار التنباك الإيراني.

٣. في مجال الدفاع عن حريم الإسلام:

الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء، قانون ثابت لا يتغيّر، فالمقصد الأسنىٰ لمشرِّع الإسلام، إنّما هو صيانة سيادته عن خطر أعدائه وأضرارهم، ولأجل ذلك أوجب عليهم تحصيل قوّة ضاربة ضدّ الأعداء، وإعداد جيش عارم جرّار تجاه الأعداء كما يقول سبحانه:

---

١. النساء: ١٤١.

٢. الممتحنة: ٨ـ ٩.

﴿ **وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱستَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** ﴾[1] فهذا هو الأصل الثابت في الإسلام الذي يؤيّده العقل والفطرة أمّا كيفية الدفاع وتكتيكه ونوع السلاح، أو لزوم الخدمة العسكرية وعدمه، فكلّها موكولة إلى مقتضيات الزمان، تتغيّر بتغيّره، ولكن في إطار القوانين العامة فليس هناك في الإسلام أصل ثابت، حتّى مسألة لزوم التجنيد العمومي، الذي أصبح من الأُمور الأصلية في غالب البلاد.

وما نرى في الكتب الفقهية من تبويب باب، أو وضع كتاب خاص، لأحكام السبق والرماية، وغيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة في الأزمنة الغابرة ونقل أحاديث في ذلك الباب عن الرسول الأكرم ﷺ وأئمة الإسلام، فليست أحكامها أصلية ثابتة في الإسلام، دعا إليها الشارع بصورة أساسية ثابتة، بل كانت هي نوع تطبيق لذلك الحكم، والغرض منه تحصيل القوة الكافية، تجاهَ العدو في تلكم العصور، وأمّا الأحكام التي ينبغي أنْ تطبّق في العصر الحاضر فإنّه تفرضها مقتضيات العصر نفسه.

فعلى الحاكم الإسلامي تقوية جيشه وقواته المسلّحة بالطرق التي يقدر معها على صيانة الإسلام ومعتنقيه عن الخطر، ويصدّ كلّ مؤامرة عليه من جانب الأعداء حسب إمكانيات الوقت.

والمقنِّن الذي يتوخّىٰ ثباتَ قانونه ودوامه وسيادة نظامه الذي جاء به، لا يجب عليه التعرّض إلى تفاصيل الأُمور وجزئيّاتها، بل الذي يجب عليه هو وضع الكليات والأُصول ليساير قانونه جميعَ الأزمنة بأشكالها وصورها المختلفة، ولو سلك غير هذا السبيل لصار حظّه من البقاء قليلاً جداً.

---

١. **الأنفال: ٦٠.**

٤. في نشر العلم والمعارف والثقافة:

نشر العلم والثقافة، واستكمال المعارف التي تَضمنُ سيادةَ المجتمع ماديّاً ومعنويّاً، يعتبر من الفرائض الإسلامية، أمّا تحقيق ذلك وتعيين نوعه ونوع وسائله فلا يتحدّد بحدّ خاص، بل يوكل إلى نظر الحاكم الإسلامي واللجان المقررة لذلك من جانبه حسب الإمكانيات الراهنة في ضوء القوانين الثابتة.

وبالجملة: فقد ألزم الإسلام رُعاة المسلمين وولاة الأمر نشرَ العلم بين أبـناء الإنسـان، واجتثاث مادّة الجهل من بينهم، ومكافحة أيّ لون من الأُميّة، وأمّا نوع العلم وخصوصياته، فكلّ ذلك موكول إلى نظر الحاكم الإسلامي وهو أعلم بحوائج عصره.

فربّ علم لم يكن لازماً؛ لعدم الحاجة إليه في العصور السابقة، ولكنّه أصبح اليوم فـي الرعيل الأوّل من العلوم اللازمة التي فيها صلاح المجتمع كالاقتصاد والسياسة.

٥. في مجال إقامة النظام:

حفظ النظام وتأمين السبل والطرق، وتنظيم الأُمور الداخلية ورفع مستوى الاقتصاد و... من الضرورات، فيتبع فيه وأمثاله مقتضيات الظروف، وليس فيه للإسلام حكم خاصّ يتّبع، بل الذي يتوخّاه الإسلام هو الوصول إلى هذه الغايات، وتحقيقها بالوسائل الممكنة، دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل، وإنّما ذلك متروك إلى إمكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر، وكلّها في ضوء القوانين العامّة.

٦. في مجال المبادلات المالية:

قد جاء الإسلام بأصل ثابت في مجال الأموال وهو قوله سبحانه: ﴿**ولا تَأْكُلُوا أموالَكُمْ بَينكُمْ بِالباطل**﴾[١] وقد فرّع الفقهاء على هذا الأصل شرطاً في صحّة عقد البيع أو المعاملة فقالوا: يشترط في صحّة المعاملة وجود فائدة مشروعة، وإلّا فلا تصحّ المعاملة ومن هنا حرّموا بيع «الدم» وشراءه.

إلّا أنّ تحريم بيع الدم أو شراءه ليس حكماً ثابتاً في الإسلام بل الحكم الثابت هو حرمة أكل المال بالباطل، وكانت حرمة الدم في الزمان السابق صورة إجرائية لما أفادته الآية من حرمة أكل المال بالباطل ومصداقاً لها في ذلك الزمان، فالحكم يدور مدار وجود الفائدة (التي تخرج المعاملة عن أن تكون أكلاً للمال بالباطل) وعدم تحقّق الفائدة، فلو ترتّبت فائدة معقولة على بيع الدم أو شرائه فسوف يتبدّل حكم الحرمة إلى الحلّيّة، والحكم الثابت هنا هو قوله تعالى: ﴿**ولا تَأْكُلُوا أموالَكُمْ بَينكُمْ بِالباطل**﴾.

وفي هذا المضمار ورد أنّ عليّاً عليه السلام سئل عن قول الرسول صلى الله عليه وآله: «**غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود؟**» فقال: عليه السلام: «**إنّما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدِّينُ قَلّ، فأمّا الآن فقد اتّسع نطاقه، وضرب بِجِرانِهِ**[٢] **فالمرء وما اختار**».[٣]

---

١. البقرة: ١٨٨.

٢. الجِران: باطن العُنُق، وقيل: مقدّم العنق من مذبح البعير إلىٰ منحره، فإذا بَرَك البعير ومدّ عنقه علىٰ الأرض قيل: ألقىٰ جرانه بالأرض (لسان العرب: مادّة جرن).

٣. نهج البلاغة: الحكمة ١٦.

الشيعة والخاتميّة

اتّفقت الشيعة ـ قاطبة ـ تبعاً للكتاب والسنّة على أنّ نبيّ الإسلام، هو النبيّ الخاتم، وكتابه خاتم الكتب، ورسالته خاتمة الرسالات، وقد أُوصِد برحيله باب الوحي، وأُقفل بموته باب التشريع؛ فلا وحي ولا تشريع بعد ذهابه، وقد وقفت على كلام الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عند تغسيل النبيّ صلى الله عليه وآله وتجهيزه فلا نعيد[1].

غير أنّ هناك شبهات ضئيلة في المقام تطرح من جانب أُناس لا عرفان لهم بمذهب الشيعة ولا تعرّفَ لهم عليه عن كثب، وقد تلقّوها من المستشرقين أو من البعداء عن البيئات الشيعية.

وهذه الأسئلة تجمعها الأُمور التالية:

١ ـ كيف تقولون بالخاتمية وإيصاد باب الوحي والتشريع وأنتم تعملون بكتاب عليّ عليه السلام؟

٢ ـ كيف تقولون بذلك، وعندكم مصحف باسم مصحف فاطمة، وهل كان عند بنت المصطفى صلى الله عليه وآله قرآن غير القرآن الموجود عند المسلمين؟

٣ ـ كيف تقولون ذلك وأنتم تعتمدون على روايات مروية عن الأئمة الاثني عشر بصورة موقوفة غير متّصلة إلى النبيّ الأكرم؟ وهل الأئمة الاثنا عشر ممّن يوحى إليهم؟

إنّ هذه الأسئلة ربّما تنطلي على الجاهل غير العارف بمعتقدات الشيعة

---

١. لاحظ الحديث ٤ في فصل (الخاتمية في أحاديث العترة الطاهرة).

فيرميهم بما هم براء منه، ولأجل رفع الغطاء نأخذ كلَّ واحد بالدراسة بوجه موجز.

كتاب عليّ وإملاء رسول الله:

إنّ السؤال الأوّل يرجع إلى كتاب عليّ وماهيّته؟ وهل هو أحاديث رسول الله ﷺ التي دوّنها الإمام دون غيره؟ وإليك التفصيل:

كانت لمدرسة أئمة أهل البيت عناية خاصة بضبط وتدوين كلّ ما أُثِر عن النبيّ الأكرم ﷺ من قول وفعل؛ لأنّه ﷺ لا يصدر في مجال التشريع والتعليم إلّا عن الوحي قال سبحانه: ﴿ **ومايَنطِقُ عنِ الهَوى * إن هوَ إلّا وَحيٌ يُوحىٰ** ﴾[1] وكان ﷺ على علم قاطع بأنّه سوف ينتقل إلى بارئه، وأنّ الأُمّة الإسلامية سوف تحتاج إلى كلماته وأقواله، وأفعاله وأعماله ولا تبقى خالدة إلّا بالضبط والتدوين.

إنّ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان وليدَ البيت النبويّ، وكان مع الرسول الأعظم ﷺ منذ نعومة أظفاره إلى رحيل رسول الله عن الدنيا، وهو عليه السلام يصف حياته في صباه وما بعده ويقول: «**ولقد كنتُ أتّبعُه** (يعني: رسول الله) **آتِّباع الفصيل أثر أُمّه، يرفعُ لي في كلّ يومٍ من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بِحِراءَ فأراه ولا يراه غيري. ولم يجتمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة**».[2]

كان ربيبه عليّ عليه السلام يلازمه ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، في موطِنه ومهجَره،

---

١. النجم: ٣ـ ٤.　　٢. نهج البلاغة: الخطبة: ١٩٢.

لم يفارقه في غزوة إلّا غزوة تبوك، وقد أقامه رسول الله مقامه في المدينة ليكون عيناً للمسلمين على المنافقين، وصاعقة على المتمرّدين إذا حاولوا المؤامرة، أو إيذاء من بقي من المسلمين من الشيوخ والأطفال، إلى أن دخل العام الحادي عشر للهجرة وقد قرب أجله وارتحاله ﷺ ومرض وكان عليّ هو الممرّض له، وقُبض ورأسه لَعلى صدره عليه السلام.

إنّ علياً عليه السلام يشرح ذلك الموقف ويقول: «**ولقد قُبِضَ رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لَعلَى صدري** ـ إلى أن يقول ـ **ولقد ولّيتُ غسلَه ﷺ والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرُج وما فارقَتْ سمعي هينمة**[1] **منهم، يصلّون عليه. حتّى وارياه في ضريحه. فَمَن ذَا أحقُّ به منّي حيّاً وميّتاً؟**».[2]

كلّ ذلك يعرب عن لواذ الإمام واختصاصه بالنبيّ الأكرم ﷺ والتجائه إليه.

وقد اختصّ الإمام بهذا المقام من بين الصحابة ولم يشاركه غيره، وبذلك صار باب علم النبيّ[3]، والحاكم الروحي على الإطلاق حتّى عصر الخلفاء، ولا يشكّ في ذلك من فتح عينيه على سيرة الخلفاء وتاريخ المسلمين.

ولمثل هذا النوع من التلاحم يصف عليّ عليه السلام حاله مع النبيّ ويقول: «**إنّي إذا كنت سألته أنبأني، وإذا سكتُّ ابتدأني**».[4]

كان رسول الله ﷺ يأمر عليّاً عليه السلام أن يكتب كلّ ما يملي عليه، فقال عليه السلام مرّة لرسول الله:

---

١. الصوت الخفي.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٧.
٣. كنز العمال: ٦/ ١٥٦و ٤٠١.
٤. تاريخ الخلفاء: ١١٥.

«يا نبيّ الله أتخاف عليَّ النسيان؟» قال: **«لستُ أخاف عليك النسيان، وقد دعوت الله أن يحفظك ولا ينسيك، ولكن اكتب لشركائك»** قال **«قلت: ومن شركائي يا نبيّ الله؟»** قال: **«الأئمة من ولدك».**[١]

وكان من جملة ما أملاه عليه رسول الله ﷺ وكتب عليّ عليه السلام بخطّه، كتاب طوله سبعون ذراعاً في عرض الأديم، وهذا هو المعروف بكتاب عليٍّ أو صحيفته، أشتهر أمره بين الشيعة وأئمتهم، وفيها ما يحتاج إليه الناس في مجال الأحكام إلى يوم القيامة، وكانت الأئمة بعد الإمام يصدرون عنه ويروُونَ عنه، ويستشهدون في مواقع خاصّة به، وليس كتابه سوى أحاديث أملاها النبيّ، وكَتبها الوصيّ وورثها أبناؤه كابر عن كابر، ونقلوا عنه شيئاً كثيراً، وبذلك صار الإمام هو المدوِّن الرسمي للحديث النبويّ، وإن كان بعض الصحابة[٢] شاركه في ضبط الحديث النبوي، لكن صحائفهم وكتبهم أُحرقت ـ ويا للأسف ـ في عصر الخلفاء لمصالح هم أعرف بها، وبذلك خسر المسلمون والسنّة النبوية خسارة كبرى لاتستقال، وبالتالي صار الحديث النبوي مرتعاً لوضع الوضّاعين والكذّابين يلصقون به ما شاءوا من الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات، لكن بقي كتاب الإمام غضّاً طريّاً مصوناً من الشرّ، يرثه إمام بعد إمام.

ولأجل إيقاف القارئ علىٰ واقع الأمر، نذكر مواصفات الكتاب وميزاته، وشيئاً من نصوصه، حتّى يتبيّن أنّ كتاب عليّ عليه السلام لم يكن إلّا جامعاً حديثياً، وكان تدويناً مبكراً للسنّة النبوية المطهرة:

---

١. إكمال الدين: ١/ ٢٠٦، وأماليه: ٢٢٧، وغيرهما.

٢. سنن الترمذي: ٥/ ٣٩كتاب العلم؛ سنن الدارمي: ١/ ١٢٥، باب من رخص في كتابة العلم؛ مسند أحمد: ٢/ ٢١٥، وغيره.

أ ـ روى: بكر بن كرب الصيرفي قال: سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقول: «**إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإنّ الناس ليحتاجون إلينا، وإنّ عندنا كتاباً إملاء رسول‌اللهصلى الله عليه وآله وخطّ عليّعليه السلام، صحيفة فيها كلّ حلال وحرام**».(١)

ب ـ روى فضيل بن يسار قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «**يا فضيل! عندنا كتاب عليّ سبعون ذراعاً، ما على الأرض شيء يحتاج إليه إلّا وهو فيه حتّى أرش الخدش**».(٢)

ج ـ روى أبو بصير ـ في حديث ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**يا أبا محمّد! وإنّ عندنا الجامعة، وما يُدريهم ما الجامعة؟**» قال قلتُ: جعلتُ فداك، وما الجامعة؟ قال: «**صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملائه من فِلق فيه، وخطّ عليّ عليه السلام بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام، وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتّى الأرش في الخدش**».(٣)

د ـ روى أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول ـ وذكر ابنَ شبرمة ـ «**أين هو من الجامعة؛ إملاء رسول الله وخطّه عليّ بيده، فيها جميع الحلال والحرام حتّى أرش الخدش**».(٤)

إلى غير ذلك من الروايات الحاكية لخصوصيات الكتاب ومميزاته الذي رواه أصحاب المعاجم من محدّثي الشيعة، فتسمية أئمة أهل البيت تارة بكتاب عليّ، وأُخرى بالجامعة، وثالثة بصحيفة عليّ، والكتاب، يعرب عن عنايةالإمام بضبطأحاديث الرسولصلى الله عليه وآله، كما يعرب عن عناية سيّد الثقلين،

---

١. الكافي: ١/ ٢٤١؛ بصائر الدرجات: ١٤٢.
٢. بصائر الدرجات: ١٤٧.
٣. الكافي: ١/ ٢٣٩؛ بصائر الدرجات: ١٤٣.
٤. بصائر الدرجات: ١٤٦.

بكتابة حديثه، ليبقى علىٰ مرّ العصور والقرون، لا يعتريه الوضع والدسُّ.

وفي العصر الذي كان الناس يروون عن رسول الله ﷺ أنّه قال: لا تكتبوا عنّي!! ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه[١] وإنّ فريقاً من الصحابة استأذنوا النبيّ ﷺ أن يكتبوا عنه فلم يأذنهم[٢]!

وفي العصر الذي كانت مدرسة الخلفاء تروّج تقليل الرواية عن الرسول، وكلّما يبعث الخليفة عمر بن الخطاب والياً إلى قطرٍ أو بلدٍ يوصيه في جملة ما يوصيه بقوله: «جرّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن محمّد وأنا شريككم!!»[٣] وربّما يعيب إفشاء الحديث عنه ﷺ ويقول مخاطباً لأبي ذر، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء «وما هذا الحديث الذي تفشون عن محمد؟»[٤].

ففي تلك العصور الحرجة، نرى أئمة أهل البيت يحتفظون بكتاب عليّ، ويعتمدون عليه في نقل الحلال والحرام، وبه يردّون ما كان يصدر من الفتيا الشاذّة عن الكتاب والسنّة ولا يقيمون للمنع عن الكتابة والرواية وزناً ولا قيمة، ولنذكر نماذج من روايات كتاب عليّ ليعلم موقفه من صيانة السنّة من الضياع:

١ ـ روى أبو بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: كنت عنده فدعا بالجامعة فنظر فيها أبو جعفر عليه السلام فإذا فيها: «**المرأة تموت وتترك زوجَها ليس لها وارث غيره قال: فله المال كلّه**».[٥]

٢ ـ روى أبو بصير المرادي قال: سألت أبا عبد الله عن شيء من الفرائض، فقال: «**ألا أُخرِج لك كتاب عليّ عليه السلام**» ـ إلى أن قال: ـ فأخرجه فإذا كتاب جليل

---

١. سنن الدارمي: ١/ ١١٩؛ مسند أحمد: ٣/ ١٢.
٢. المصدر نفسه.
٣. تاريخ الطبري: ٣/ ٢٧٣.
٤. كنز العمال: ١٠/ ٢٩٣ برقم ٢٩٤.
٥. بصائر الدرجات: ١٤٥.

وإذا فيه: «**رجل مات وترك عمّه وخاله فقال: للعمّ الثلثان، وللخال الثلث**».[١]

٣ ـ روى عبد الملك بن أعين قال: دعا أبو جعفر بكتاب عليّ فجاء به جعفر مثل فخذ الرجل مطويّاً، فإذا فيه: «**إنّ النساء ليس لهنّ من عقار الرجل** ـ إذا هو توفّي عنها ـ **شيءٌ** فقال أبو جعفر عليه السلام: **هذا والله خطّ عليّ بيده، وإملاء رسول الله**».[٢]

٤ ـ روى محمّد بن مسلم الثقفي: قال: أقرأني أبو جعفر كتاب الفرائض التي هي إملاء رسول الله وخطّ علي فإذا فيها: «**إنّ السهام لا تعول**».[٣]

٥ ـ روى عذافر الصيرفي قال: كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي جعفر عليه السلام فجعل يسأله وكان أبو جعفر عليه السلام له مكرماً، فاختلفا في شيء، فقال أبو جعفر: «**يا بُنيّ قُم فأخرِج كتابَ عليّ**» فأخرج كتاباً مدرّجاً عظيماً وفتحه وجعل ينظر حتّى أخرج المسألة فقال أبو جعفر عليه السلام: «**هذا خطّ عليّ** عليه السلام، **وإملاء رسول الله** صلى الله عليه وآله».[٤]

وهذه الروايات تكشف عن أنّ كتاب الفرائض الذي ذكر لعليّ عليه السلام كان جزءاً من كتابه الكبير.

٦ ـ روى ابن بكير قال: سأل زرارة أبا عبد الله عليه السلام عن الصلاة في الثعالب والسنجاب وغيره من الوبر فأخرج كتاباً زعم أنّه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الصلاة**

---

١. الكافي: ٧/ ١١٩.
٢. وسائل الشيعة: ١٧/ ٥٢٢، الباب ٦ من أبواب ميراث الأزواج، الحديث ١٧.
٣. تهذيب الاحكام: ٩/ ٢٤٧؛ وسائل الشيعة: ١٧/ ٤٢٣، الباب ٦ من أبواب موجبات الإرث، الحديث ١١.
٤. رواه النجاشي في رجاله في ترجمة محمّد بن عذافر بن عيسى الصيرفي المدائني: ٢/ ٢٦٠ برقم ٩٦٧.

في وبر كلّ شيء حرام أكله فالصلاة في وبره وشعره وجلده وبوله وروثه وألبانه وكلّ شيء منه فاسدة، لا تقبل تلك الصلاة حتّى تصلّي في غيره ممّا أحل الله أكله» ثمّ قال: **«يا زرارة هذا عن رسول الله».**[١]

وقد اقتصرنا علىٰ هذا المقدار ليعلم أنّ الكتاب أقدم جامع حديثي، أملاه النبيّ وكتبه الإمام عليّ، وكان الكتاب موجوداً بين أئمة أهل البيت يرثه كابر عن كابر، يصدرون عنه في الإفتاء وشاهده غير واحد من أصحابهم، والكتاب وإن لم يكن موجوداً بشخصه بيننا، لكن روى أصحاب الجوامع الحديثية كالكليني، والصدوق والطوسي قسماً كبيراً منه، وفرّقوا أحاديثه على أبواب كتبهم على الترتيب المألوف، وقد جمعها العلّامة الحجّة الشيخ علي الأحمدي في موسوعته «مكاتيب الرسول».[٢]

نعم بقي هنا سؤال:

هل هذا الكتاب، نفس الصحيفة التي كانت في قراب سيفه أو غيره؟

الجواب: قد ذكر غير واحد من المحدّثين انّه كانت لعليّ في قراب سيفه صحيفة، لكن الخصوصيات التي ذكرت للكتاب في الروايات تدلّ مائة بالمائة على أنّه غير الصحيفة التي كان يجعلها في قراب سيفه، وكيف وقراب السيف لا يسع إلّا صحائف صغار، مهما لفَّت وأُدرِجت فأين هي من المواصفات التي وقفت عليها من أنّه كتاب طوله سبعون ذراعاً، أو طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم، أو مثل فخذ الفالج،[٣] أو أخرج أبو جعفر كتاباً مدرّجاً عظيماً، أو كتاباً جليلاً أو هو مثل فخذ الرجل مطوياً، إلى غير ذلك ممّا مرّ ذكرها.

---

١. الكافي: ٣/ ٣٩٧ح ١. ٢. مكاتيب الرسول: ١/ ٧٢ - ٧٩.
٣. الكافي: ١/ ٢٤١، والفالج: الجمل الضخم ذو السنامين.

نعم روى أبو جحيفة، قال: سألت علياً ﷺ: هل كان عندكم من النبيّ ﷺ شيء سوى القرآن؟ قال: «**والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، إلّا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، وما في الصحيفة**»، قلت: وما الصحيفة؟ قال: «**العقل وفِكاك الأسير، ولايقتل مؤمن بكافر**».(١)

إنّ هذه الرواية مهما صحّت ونقلها أئمة الحديث، لا تقابل ما نقلناه عن أئمة أهل البيت حول كتاب عليّ، ومواصفاته، ومشاهدة جمّ غفير لهذا الكتاب، وقد نقلنا النزر اليسير من الكثير، وهذا الحديث وما شابهه في التعبير وضع لنفي ما عند عليّ من ودائع النبوة وعلوم النبيّ ﷺ، والذي يعرب عن ذلك، الإصرار على أنّه ليس عند عليّ سوى كتاب الله أو الصحيفة الموجودة في قراب سيفه، فقد رووها بالعبارات التالية:

أ ـ «**ما كتبنا عن النبيّ إلّا القرآن وما في هذه الصحيفة**».

ب ـ «**من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرأه إلّا كتاب الله أو هذه الصحيفة فقد كذب**».

ج ـ «**ما خصّنا رسول الله ﷺ بشيء لم يخصّ به الناس إلّا ما في قراب سيفي هذا**».

د ـ «**ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ شيئاً خاصّاً دون الناس إلّا شيء سمعته، وهو في صحيفة قراب سيفي ...**».(٢)

---

١. مسند أحمد: ١/ ٧٩.

٢. لاحظ المصادر التالية: مسند أحمد: ١/ ٨١، ١٠٠، ١٠٢، ١١٠؛ البداية والنهاية: ٥/ ٢٥١؛ صحيح مسلم: ٤/ ٢١٧.

إلى غير ذلك من التعابير الهادفة إلى نفي علمه بشيء إلّا بالكتاب والصحيفة الصغيرة.

نحن نغضّ الطرف عمّا ذكرنا، فلو صحّ ما في هذه الرواية، فما معنى قوله ﷺ لعليّ: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»؟ وقد نقله كثير من الحفاظ والمحدّثين، فهذا شمس الدين المالكي يذكره في شعره بقوله:

وقال رسول الله إنّي مدينة من العلم وهو الباب والبابَ فاقصدِ

وقد رواه من الحفاظ والأئمة ما يناهز مائة وثلاثة وأربعين شخصاً[١]، وقد ذكروا حول الحديث كلمات تعرب عن مفاد الحديث.

قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف الكنجي الشافعي (المتوفّى ٦٥٨هـ): قال العلماء من الصحابة والتابعين وأهل بيته بتفضيل عليّ عليه السلام وزيادة علمه وغزارته، وحدّة فهمه، ووفور حكمته، وحسن قضاياه، وصحّة فتواه، وقد كان أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من علماء الصحابة يشاورونه في الأحكام ويأخذون بقوله في النقض والإبرام، اعترافاً منهم بعلمه، ووفور فضله، وبرصانة عقله، وصحّة حكمه، وليس هذا الحديث في حقّه بكثير؛ لأنّ رتبته عند الله وعند رسوله وعند المؤمنين أجلّ وأعلى من ذلك.[٢]

وقال فضل بن روزبهان في ضمن ردّه على حجاج العلّامة بأعلمية أمير المؤمنين بحديثي: «**أقضاكم عليّ**»، و«**أنا مدينة العلم**»، من طريق الترمذي، قال ما هذا نصّه: وأمّا ما ذكره المصنّف من علم عليّ فلا شكّ في أنّه من علماء

---

١. لاحظ الغدير: ٦/ ٦١-٧٧.

٢. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب: ١٩٥.

الأُمّة، والناس محتاجون إليه فيه، وكيف لا؛ وهو وصيّ النبيّ في إبلاغ العلم وودائع حقائق المعارف؟ فلا نزاع لأحد فيه، وما ذكره من صحيح الترمذي صحيح.[١]

وقال المناوي في فيض القدير تفسيراً لقوله ﷺ: «**عليّ عيبة علمي**»: أي مظنّة استفصاحي وخاصّتي وموضع سرّي، ومعدن نفائسي. والعيبة: ما يحرز الرجل فيه نفائسه قال ابن دريد: وهذا من كلامه الموجز الذي لم يسبق ضرب المثل بشيء أراده اختصاصه بأُموره الباطنة التي لا يطّلع عليها أحد غيره، وذلك غاية في مدح عليّ.[٢]

وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس أنّه قال: كنّا نتحدّث معاشر أصحاب رسول‌الله ﷺ أنّ النبيّ ﷺ عهد إلى عليّ سبعين عهداً، لم يعهدها إلى غيره.[٣]

ورواه القندوزي في ينابيعه ثمانين عهداً مكان سبعين.[٤]

فقد خرجنا بالنتائج التالية:

١ ـ إنّ كتاب عليّ من إملاء رسول الله وخطّ عليّ.

٢ ـ إن الكتاب أوّل جامع حديثيّ قام بكتابته عليّ عليه السلام لتدوين السنّة وصيانتها من الضياع.

٣ ـ كانت في قرابة سيف عليّ عليه السلام صحيفة، ولكن لم تكن هي‌الشيء الوحيد عند عليّ، وإنّ كتاب عليّ ـ حسب ما مرّ من المواصفات ـ غير تلك الصحيفة.

---

١. دلائل الصدق: ٣/ ٥١٥.
٢. فيض القدير: ٤/ ٣٥٦.
٣. المعجم الصغير: ٦٩.
٤. ينابيع المودة: ٨٩.

٤ ـ إذا كان عليّ هو باب علم النبيّ، والحاكم الروحيّ في عصر الخلفاء وما بعده؛ فيلزم أن يكون عنده ودائع النبوّة، وجميع ماتحتاج إليه الأُمّة في مجال الأحكام.

* * *

مصحف فاطمة:

لا شكّ أنّه كان عند فاطمة مصحف، حسبما تضافرت عليه الروايات، ولكن المصحف ليس اسماً مختصّاً بالقرآن، حتى تختص بنت المصطفى بقرآن خاصّ، وإنّما كان كتاباً فيه الملاحم والأخبار.

المصحف: من أصحف، بمعنى ما جعل فيه الصحف، وإنّما سمي المصحف مصحفاً؛ لأنّه جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين.

ولم يكن ذلك اللفظ علماً للقرآن في عصر نزوله، وإنّما صار علماً له بعد رحيل رسول الله ﷺ قال السيوطي: روى ابن أشتة في كتاب المصاحف أنّه لمّا جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسماً، فقال بعضهم: السِّفْر، وقال بعضهم: المصحف؛ فانّ الحبشة يسمّونه المصحف قال: وكان أبو بكر أوّل من جمع كتاب الله وسمّاه المصحف.[1]

وأمّا ما هو واقع هذا الكتاب؟ فقد كشفت عنه الروايات المتضافرة عن أئمة أهل البيت، وقد جمع قسماً كبيراً منها العلاّمة الشيخ مصطفى قصير العاملي في دراسته «كتاب عليّ ومصحف فاطمة».

---

١. الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٨٥.

وإليك بعضها:

١ ـ روى أبو عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «... **إنّ فاطمة مكثت بعد رسول‌الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، و كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريّتها، وكان عليّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة**».(١)

٢ ـ روى أبو حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مصحف فاطمة مافيه شيء من كتاب الله، وإنّما هو شيء أُلقي إليها بعد موت أبيها صلوات الله عليهما**».(٢)

والعجب أنّ الدسّ الإعلامي قد اتّخذ لفظ «مصحف فاطمة» ذريعة لاتّهام الشيعة بأنّ عندهم قرآناً يسمى «مصحف فاطمة»، وقد سعى غير واحد من دعاة التفرقة إلى نشر تلك الفكرة الخاطئة بين المسلمين، ولكن خاب سعيهم؛ فإنّ للحقّ دولة، وللباطل جولة.

ولعلّ القارئ يسأل نفسه عن كون فاطمة محدَّثة تحدّثها الملائكة، كما ورد في الرواية السابقة، غير أنّ فاطمة عليها السلام لا تقلّ شأناً عن مريم البتول، ولا عن امرأة الخليل، قال سبحانه: ﴿ **وإذْ قالَتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ آصطَفاكِ وطَهَّرَكِ وآصطَفاكِ على نساءِ العالَمين** ﴾(٣) إلى غير ذلك من الآيات الواردة في سورتي آل عمران، ومريم.

وهذه امرأة إبراهيم تسمع كلام الملك، يقول سبحانه: ﴿ **ولَقَدْ جاءتْ**

١. الكافي: ١/ ٢٤١. ٢. بصائر الدرجات: ١٩٥.
٣. آل عمران: ٤٢. ٤. هود: ٦٩ ـ ٧٣.

رُسلُنا إبراهيمَ بالبُشرى.. وامرأتُهُ قائمةٌ فضَحِكَتْ فَبشَّرناها بإسحٰقَ ومن وراءِ إسحٰقَ يَعقوب * قالَتْ يا ويلتَىٰ أألِدُ وأنا عَجوزٌ وهذا بَعْلي شَيخاً إنّ هذا لَشيءٌ عَجيب * قالُوا أتَعجَبينَ مِنْ أمرِ اللهِ رحمتُ اللهِ وبركاتُهُ عَليكُمْ أهلَ البَيتِ إنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ (٢).

فإذا كانت مريم وامرأة الخليل محدّثتين، ففاطمة سيدة نساء العالمين أولى بأن تكون محدّثة.

***

ما هو مصدر روايات أئمّة أهل البيت؟

هذا هو السؤال الثالث من الأسئلة الثلاثة المطروحة حول الخاتمية لدى الشيعة فنقول:

إنّ لعلوم أئمة أهل البيت مصادر مختلفة، ونشير إلى أُصولها تاركين البحث في فروعها:

١ـ النقل عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله

إنّهم عليهم السلام كثيراً ما يروون الحديث عن آبائهم عن رسول‌الله صلى الله عليه وآله معنعناً، من دون أن يتوسّط بين الأسانيد شخص بين آبائهم وأجدادهم.

فمثلاً لمّا ترك عليّ بن موسى الرضا نيسابور عازماً إلى مرو، اجتمعت حوله مجموعة كبيرة من المحدّثين وطلبوا منه أن يحدّثهم بحديث عن جدّه صلى الله عليه وآله، فقال:

«حدّثني أبي موسى بن جعفر، قال: حدّثني أبي جعفر الصادق، قال: حدّثني أبي أبو جعفر الباقر، قال: حدّثني أبي عليّ بن الحسين، قال: حدّثني أبي‌الحسين بن عليّ، قال: حدّثني أبي عليّ بن أبي طالب، قال: حدّثني رسول‌الله عن جبرئيل عليه السلام عن الله قال: لا إله إلّا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي».[1]

إنّ هذا النوع من الأحاديث متوفّر في الجوامع الحديثية للشيعة؛ فلو قام باحث بجمع هذا النوع الذي يروي فيه كابر عن كابر والإمام بعد الإمام لبلغ موسوعة كبيرة.

وهذا هو هشام بن سلمان، وحمّاد بن عثمان، وغيرهما من أصحاب الإمام الصادق، قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول‌الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله عزوجل».[2]

٢ـ النقل عن كتاب عليّ

إنّ أئمة أهل البيت كانوا يستندون إلى كتاب عليّ ويحتجّون به، فكان الكتاب أحد مصادر علومهم التي يصدرون عنها، وقد وقفت على قسم قليل منها فيما تقدّم.

---

١. عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٤٣.
٢. الكافي: ١/ ٥٣ برقم ١٤.

٣ـ الإلهام أو تحديث الملائكة

إنّ أئمة أهل البيت حسب النصوص محدّثون؛ تحدّثهم الملائكة، كما كانت تحدّث مريم البتول وامرأة الخليل، فما كان يخبرون به من الملاحم أو يجيبون عن الأسئلة فالكلّ ممّا كان يلقى في روعهم.

وهذا النوع من المصدر وإن كان ثقيلاً على من لم يعرف مقاماتهم، إلّا أنّه صحيح لمن درس حياتهم، ووقف على أحوالهم. ولأجل إيقاف القارئ على أنّ (المحدَّث) أمر مـمّا اتّـفق عليه الأعلام نبحث عنه على وجه الإيجاز:

المُحَدّث في الإسلام:

المحدَّث ـ بصيغة المفعول ـ: مَن تكلّمه الملائكة بلا نبوّة ولا رؤية صورة، أو يلهم له ويلقىٰ في روعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفة من المبدأ الأعلىٰ، أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفىٰ علىٰ غيره.

المحدّث بهذا المعنىٰ ممّا اتفق عليه الفريقان: الشيعة والسنّة، ولو كان هناك خلاف فإنّما هو في مصداقه.

وقبل ذلك نجد المحدّث في الأُمم السالفة؛ فهذا صاحب موسىٰ كان محدّثاً، فقد أخبره عن مصير السفينة والغلام والجدار علىٰ وجه جاء في سورة الكهف[1]، فهو لم يكن نبيّاً، ولكنّه كان عارفاً بما سيحدث، وقد عرفه بإحدىٰ الطرق المذكورة.

---

١. من الآية: ٦٠-٨٢.

وهذه مريم البتول، كانت الملائكة تكلّمها وتحدّثها ولم تكن نبيّة، قال سبحانه:

﴿وإذْ قالَتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ آصطَفاكِ وطَهَّرَكِ وآصطَفاكِ على نساءِ العالَمين﴾[1].

وقال سبحانه: **﴿إذ قالَتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللهَ يبشِّرُكِ بِكَلِمةٍ منهُ آسمُهُ المسيحُ عِيسىٰ آبنُ مريمَ وَجيهاً في الدُّنيا والآخرةِ ومِنَ المُقرَّبِينَ﴾**[2].

وهذه أُمّ موسىٰ يلقىٰ في روعها ويوحىٰ إليها ولم تكن نبيّة، قال سبحانه:

﴿وأوحينا إلىٰ أُمِّ موسىٰ أنْ أرضِعيهِ فإذا خِفتِ عَليهِ فَألقيهِ في اليَمِّ ولا تخافي ولاتَحزني إنّا رادُّوهُ إلَيكِ وجاعِلوهُ مِنَ المُرسَلين﴾[3].

وأمّا السنّة النبوية ففيها تصريح بأنّ في الأُمّة الإسلامية ـ نظير الأُمم السالفة ـ رجالاً يكلّمون من دون أن يكونوا أنبياء؛ وإليك بعض هذه النصوص:

١ ـ أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال النبيّ: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر بن الخطاب**».[4]

٢ ـ أخرج البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «**أنّه قد كان فيما مضىٰ قبلكم من الأُمم محدّثون، إن كان في أُمّتي هذه منهم فإنّه عمر بن الخطاب**».[5]

---

١. آل عمران: ٤٢. ٢. آل عمران: ٤٥. ٣. القصص: ٧.

٤. صحيح البخاري: ٢/ ١٩٤، باب مناقب عمر بن الخطّاب.

٥. صحيح البخاري: ٢/ ١٧١، بعد حديث الغار.

قال القسطلاني في شرح الحديث: يجري علىألسنتهم الصواب من غير نبوّة. وقال الخطّابي: يلقىٰ الشيء في روعه فكأنّه قد حُدّث به، يظنّ فيصيب، ويخطر الشيء بباله فيكون. وهي منزلة رفيعة من منازل الأولياء.[١]

٣ ـ أخرج مسلم في صحيحه عن عائشة عن النبيّﷺ: «**قد كان في الأُمم قبلكم مُحدّثون فإن يكن في أُمّتي منهم أحد فإنّ عمر بن الخطّاب منهم**»، قال ابن وهب: تفسير «محدّثون» ملهَمون.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: اختلف العلماء في تفسير المراد بـ «محدَّثون» فقال ابن وهب: ملهَمون، وقيل: مصيبون إذا ظنّوا، فكأنّهم حدّثوا بشيء فظنّوه، وقيل تكلّمهم الملائكة، وجاء في رواية «مكلَّمون»، وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم، وفيه كرامات الأولياء.[٢] ومن راجع شروح الصحيحين يجد نظير هذه الكلمات بوفرة؛ والرأي السائد في تفسير المحدّث هو تكليم الملائكة أو الإلقاء في الروع. هذا ما لدىٰ السنّة.

روايات الشيعة حول المحدَّث

وأمّا الشيعة، فعندهم أخبار عن أئمتهم تصرّح بأنّهم محدّثون وفي الوقت نفسه ليسوا بأنبياء، فقد روى الكليني في باب الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدّث أحاديث أربعة:

---

١. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٥/ ٤٣١، وانظر أيضاً: ٦/ ٩٩.
٢. شرح صحيح مسلم: ١٥/ ١٦٦.

قال: «**المحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرىٰ الصورة**».

وفي رواية أُخرىٰ: سألته عن الإمام ما منزلته؟ قال: «**يسمع الصوت ولا يرىٰ ولا يعاين الملك**».

إلىٰ غير ذلك من الروايات المصرّحة بأنّ الأئمة الاثني عشر محدَّثون.[1]

روى الصفّار في «بصائر الدرجات» عن بريد: قلت لأبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام: ما منزلتكم بمن تُشَبَّهون ممّن مضىٰ؟

فقال: «**كصاحب موسىٰ وذي القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيّين**».[2]

هذا ما لدىٰ الفريقين. وبذلك يُعْلَم أنّ الإخبار عن الغيب بإذن من الله سبحانه لايلازم كون المخبر نبياً، وأنّ تَكَلُّم الملائكة مع إنسان لا يصلح دليلاً علىٰ كونه مبعوثاً من الله سبحانه للنبوّة.

ولو اعتمدت الشيعة علىٰ علم الأئمة فلكونهم وارثين لعلم النبيّ، ووارثين لما عند عليّ عليه السلام من الكتب التي كتبها بإملاء من رسول الله، أو محدَّثين تلقىٰ في روعهم الإجابات على الأسئلة، فلا يدلّ علىٰ أنّهم أنبياء، ومن نسبهم إلىٰ تلك الفرية الشائنة بحجة إخبارهم عن الملاحم، فقد ضلّ عن سواء السبيل، ولم يفرّق بين النبوّة والرسالة والتحدّث.

---

۱. الكافي: ۱/ ۱۷۶، باب الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدّث.
۲. بصائر الدرجات: ۳۶۸.

الفصل الحادي عشر :

الأئمة الاثنا عشر

تعرف الشيعة الإمامية بالفرقة الاثني عشرية، ومبعث هذه التسمية هو اعتقادهم باثني عشر إماماً من بني هاشم نصّ عليهم رسول الله ﷺ، كما هو معلوم للجميع، ثمّ نصّ كلّ إمام على الإمام الذي بعده، بشكل يخلو من الشكّ والإبهام.

لقد تضافر عن رسول الله ﷺ أنّه يملك هذه الأُمّة اثنا عشر خليفة كعدد نقباء بني إسرائيل، وكما هو معلوم ومبسّط في كتب الشيعة بشكل لا يقبل الشك. إنّ هذه الروايات مع ما فيها من المواصفات لا تنطبق إلّا على أئمّة الشيعة والعترة الطاهرة «وإذا كان رسول الله ﷺ هو الشجرة وهم أغصانها، والدوحة وهم أفنانها، ومنبع العلم وهم عيبته، ومعدن الحكم وهم خزائنه، وشارع الدين وهم حفظته، وصاحب الكتاب وهم حملته»[1] فتلزم علينا معرفتهم، كيف وهم أحد الثقلين اللَّذَين تركهما الرسول ﷺ، قدوة للأُمّة ونوراً على جبين الدهر.

ونحن نحاول هنا أن نعرض في هذا الفصل موجزاً عن أحوالهم وحياتهم متوخّين الاختصار والإيجاز فيما نورده، لأنّ بسط الكلام عنهم يحتاج إلى

---

١. اقتباس ممّا ذكره أمين الإسلام الطبرسي في مقدّمة كتابه إعلام الورى بأعلام الهدى: ٣.

تدوين موسوعة كبيرة، وقد قام بذلك لفيف من علماء الإسلام فأثبتوا الشيء الكثير عن حياتهم وسيرتهم وأقوالهم، جزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

الأئمّة الاثنا عشر في حديث الرسول ﷺ

إنّ من تصفّح مصنّفات الحديث النبوي الشريف يجد أنّ هناك روايات تحدِّد وتعيِّن عدد الأئمّة بعد الرسول وسماتهم، من دون ذكر لأسمائهم، وهي أحاديث الأئمّة الاثني عشر التي رواها أصحاب الصحاح والمسانيد، وهي على وجه لا ينطبق إلّا على من عيّنهم الرسول ﷺ للخلافة والزعامة، ولذلك نذكرها في عداد أدلّة التنصيص على الخلافة، والإمعان فيها يرشد القارئ إلى الحقّ، ويأخذ بيده حتّى يرسي مركبه على شاطئ الأمان والحقيقة.

ويطيب لي أن أذكر مجموع هذه النصوص؛ فإنّها تؤكّد بعضها بعضاً، وإليك البيان.

١ ـ روى البخاري عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون اثنا عشر أميراً**» فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: أنّه قال: «**كلّهم من قريش**».[1]

٢ ـ روى مسلم عنه أيضاً، قال : دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «**إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**». قال: ثم تكلّم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «**كلّهم من قريش**».

---

١. صحيح البخاري: ٩ / ١٠١، كتاب الأحكام، الباب ٥١ (باب الاستخلاف).

٣ ـ وروى عنه أيضاً، قال: سمعت النبيﷺ يقول: «**لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً**» ثمّ تكلّم النبيﷺ بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول اللهﷺ؟ فقال: قال: «**كلّهم من قريش**».

٤ ـ وروى عنه أيضاً نفس الحديث إلّا أنّه لم يذكر: «**لا يزال أمر الناس ماضياً**».

٥ ـ وروى مسلم عنه أيضاً قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة**» ثمّ قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: قال: «**كلّهم من قريش**».[١]

٦ ـ وروى مسلم عنه أيضاً، قال: انطلقت إلى رسول اللهﷺ ومعي أبي فسمعته يقول: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة**» فقال كلمة صمّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: قال: «**كلّهم من قريش**».

٧ ـ وروى مسلم عنه أيضاً قال: سمعت رسول اللهﷺ يوم جمعة عشية رجم الأسلمي يقول: «**لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش**».[٢]

٨ ـ روى أبو داود عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة**» فكبّر الناس وضجّوا، ثمّ قال كلمة خفيّة، قلت لأبي: يا أبتِ ما قال؟ فقال: قال: «**كلّهم من قريش**».[٣]

---

١. صحيح مسلم: ٦ / ٣.

٢. صحيح مسلم: ٦ / ٣ـ ٤.

٣. سنن أبي داود: ٢ / ٢٠٧ كتاب المهدي وروى أيضاً نحوه بطريقين آخرين.

٩ ـ روى الترمذي عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ : «**يكون من بعدي اثنا عشر أميراً**» ثمّ تكلّم بشيء لم أفهمه فسألت الذي يليني، فقال: قال: «**كلّهم من قريش**».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن جابر، ثمّ ذكر طريقاً آخر إلى جابر.(١)

١٠ ـ روى أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكون لهذه الأُمّة اثنا عشر خليفة**» ورواه عن ٣٤ طريقاً.(٢)

١١ ـ روى الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» في كتاب معرفة الصحابة عن عون بن جحيفة، عن أبيه، قال: كنت مع عمّي عند النبي ﷺ فقال: «**لا يزال أمر أُمّتي صالحاً حتّى يمضي اثنا عشر خليفة**» ثمّ قال كلمة وخفض بها صوته، فقلت لعمّي ـ وكان أمامي ـ : ما قال يا عمّ؟ قال: يا بني قال: «**كلّهم من قريش**»(٣).

١٢ ـ وروى أيضاً بسنده عن جرير عن المغيرة عن الشعبي عن جابر، قال: كنت عند رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «**لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً حتى يقوم اثنا عشر خليفة**» وقال كلمة خفيت عليّ، وكان أبي أدنى إليه مجلساً منّي فقلت: ما قال؟ فقال: «**كلّهم من قريش**».

١٣ ـ قال ابن حجر في الصواعق: أخرج الطبراني عن جابر بن سمرة أنّ

---

١. صحيح الترمذي: ٢ / ٤٥ط سنة ١٣٤٢هـ.

٢. مسند أحمد: ٥ / ٨٦ـ ١٠٨.

٣. المستدرك على الصحيحين: ٣ / ٦١٧ـ ٦١٨ (كتاب معرفة الصحابة) (ط الهند).

النبي ﷺ قال: «**يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلّهم من قريش**».[١]

كما أنّ رسول الله ﷺ قد شبّه عدّة خلفائه بعدّة نقباء بني إسرائيل.

١٤ ـ فقد روى أحمد بسنده عن مسروق، قال: كنّا جلوساً عند عبدالله بن مسعود وهو يقرؤنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتم رسول الله كم يملك هذه الأُمّة من خليفة؟ فقال عبدالله بن مسعود: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثمّ قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: «**اثنا عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل**».[٢]

١٥ ـ ورواه الخطيب في تاريخه بسنده عن جابر بن سمرة.[٣]

١٦ ـ وأورده المتقي الهندي في منتخب كنز العمّال عن أحمد والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك.[٤]

١٧ ـ قال السيوطي في تاريخ الخلفاء بسند حسن عن ابن مسعود: أنّه سئل كم يملك هذه الأُمّة من خليفة؟ فقال: سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «**اثنا عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل**».[٥]

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالّة على أنّ الأئمّة بعد النبي الأكرم ﷺ اثنا عشر، وقد جاء فيها سماتهم وصفاتهم وعددهم، غير أنّ المهمّ هو تعيين مصاديقها والإشارة إلى أعيانها وأشخاصها، ولا تعلم إلّا باستقصاء وحصر

---

١. الصواعق: ١٨٩.
٢. مسند أحمد: ١ / ٣٩٨.
٣. تاريخ بغداد: ١٤ / ٣٥٣ برقم ٧٦٧٣.
٤. منتخب كنز العمّال بهامش مسند أحمد: ٥ / ٣١٢.
٥. تاريخ الخلفاء: ١٠.

السمات الواردة في هذه الأحاديث، وهذا ما يمكن إجماله بما يلي:

١ ـ لا يزال الإسلام عزيزاً.

٢ ـ لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً.

٣ ـ لا يزال الدين قائماً.

٤ ـ لا يزال أمر الأُمّة صالحاً.

٥ ـ لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً.

٦ ـ كلّ ذلك حتّى يمضي فيهم اثنا عشر أميراً من قريش.

٧ ـ وحتى يليهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش.

٨ ـ وإنّ عددهم كعدد نقباء بني إسرائيل.

وهذه السمات والخصوصيات لا تتمثّل مجتمعة إلّا في الأئمة الاثني عشر المعروفين عند الفريقين، وهذه الأحاديث من أنباء الغيب ومعجزات النبي الأكرمﷺ، خصوصاً إذا ضُمّت إليها أحاديث الثقلين والسفينة وكون أهل بيت النبي أماناً لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء، وسيوافيك تفصيل هذه الأحاديث الثلاثة.

فالأئمّة الاثنا عشر المعروفون بين المسلمين، والذين ينادي بإمامتهم الشيعة الإمـامية، والذين أوّلهم علي أمير المؤمنين وآخرهم المهدي تنطبق عليهم تلك العلائم، ومن وقف على حياتهم العلمية والاجتماعية والسياسية يقف على أنّهم هم المَثَل الأعلى في الأخلاق، والقمّة السامقة في العلم والعمل والتقوى والإحاطة بالقرآن والسنّة، وبهم حفظ الله تعالى دينه وأعـزّ رسالته.

وأمّا ما ورد في بعض هذه الطرق أنّ: «**كلّهم تجتمع عليهم الأُمّة**» فهو على فرض الصحّة، فالمراد منه تجتمع على الإقرار بإمامتهم جميعاً وقت ظهور آخرهم، و ـ على فرض الإبهام ـ لا تمنع عن الأخذ بمضامين الحديث.

هلمّ معي نقرأ ماذا يقول غير الشيعة في حقّ هذه الأحاديث، وكيف يؤوّلونها بالخلفاء القائمين بالأمر بعد النبي الأكرمﷺ، وإليك نصوص كلامهم:

١ ـ إنّ قوله اثنا عشر إشارة إلى عدد خلفاء بني أُميّة!! وأوّل بني أُميّة يزيد بن معاوية وآخرهم مروان الحمار وعدّتهم اثنا عشر، ولا يعد عثمان ومعاوية ولا ابن الزبير؛ لكونهم صحابة، ولا مروان بن الحكم لكونه صحابياً أو لأنّه كان متغلّباً بعد أن اجتمع الناس على عبدالله بن الزبير، وليس على المدح بل على استقامة السلطنة، وهم يزيد بن معاوية وابنه معاوية ثم عبدالملك ثمّ الوليد ثمّ سليمان ثمّ عمر بن عبد العزيز ثمّ يزيد بن عبد الملك ثمّ هشام بن عبد الملك ثمّ الوليد بن يزيد ثمّ يزيد بن الوليد ثمّ إبراهيم بن الوليد ثمّ مروان بن محمد[١].

وجوابه: أنّه لو كان الرسول أراد هذا ولم يكن في مقام مدحهم فأيّ فائدة في الإخبار بذلك. ثمّ كيف يقول: إنّها صدرت على غير سبيل المدح مع ما عرفت من السمات الواردة الصريحة في المدح مثل: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً قائماً**»، أو «**أمر أُمّتي صالحاً**». والعجب أنّه جعل أوّل الخلفاء يزيد بن معاوية بحجّة أنّه استقامت له السلطنة، مع أنّه كيف استتبّت له السلطنة وقد ثار عليه العراق في السنة الأُولى، وثار عليه أهل المدينة في السنة الثانية، وكان مجموع أيّامه مؤلّفة من حروب دامية وقتل ونهب وتدمير لا يقرّ بها صاحب ذرّة من الشرف والإيمان.

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣/ ٢١٢. وفي المصدر: عدّتهم ثلاثة عشر.

٢ ـ «إنّ المراد أنّه يملك اثنا عشر خليفة بهذه السمات بعد وفاة المهدي»[١] وهذا من أغرب التفاسير؛ لأنّ الأخبار ظاهرة في اتصال خلافتهم بعصر النبي الأكرمﷺ، ولأجل تبادر ذلك في أذهان الناس سألوا عبدالله بن مسعود عن عدد من يملك أمر هذه الأُمّة.

٣ ـ ما نقله ابن حجر في فتح الباري عن القاضي عياض: أنّ المراد بهم الخلفاء الذين اجتمع عليهم الناس، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، ويزيد، وعبد الملك، وأولاده الأربعة، الوليد ثمّ سليمان ثمّ يزيد ثمّ هشام، وعمر بن عبد العزيز بن سليمان ويزيد، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٢].

ولا يكاد ينقضي تعجّبي من القاضي عياض وابن حجر كيف يعرّفان هؤلاء بمن عزّ بهم الإسلام والدين وصار منيعاً وفيهم يزيد بن معاوية ذلك السكير المستهتر الذي كان يشرب الخمر ويدع الصلاة، ولم يكتف بذلك بل ضرب الكعبة بالمنجنيق، وأباح المدينة ثلاثة أيّام بأعراضها وأموالها وأنفسها بعد قتله لابن بنت رسول اللهﷺ الحسين بن عليعليهما السلام وأُخوانه وأبنائه وخيرة أصحابه، وسيَّر بنات رسول اللهﷺ سبايا دون حرمة لجدّهم إلى الشام من أرض كربلاء، فليت شعري ما هو ميزان القوم في تفسيرهم للسنّة النبوية وتعاملهم معها؟ وكلّ الحقائق تكذب ما ذهبوا إليه وما صرّحوا به.

وهل اعتزّ الإسلام بعبد الملك الذي يكفي في ذكر مساوئه تنصيبه

---

١. المصدر نفسه: ١٣ / ٢١٣ ومثله ما نقله أيضاً: اثنا عشر خليفة في جميع مدّة الإسلام إلى يوم القيامة.
٢. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣ / ٢١٣، ولاحظ تاريخ الخلفاء: ١١.

الحجّاج على العراق فقتل من الصحابة والتابعين ما لا يخفى[١]؟!

وكيف اعتزّ الدين بالوليد بن يزيد بن عبد الملك المنتهك لحرمات الله، وهو الّذي حاول أن يشرب الخمر فوق ظهر الكعبة ففتح المصحف فإذا بالآية الكريمة: ﴿ **واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كلّ جَبّارٍ عَنيدٍ** ﴾[٢] فألقاه ورماه بالسهام وأنشد:

تـــهدّدني بـجبّار عـنيد فـها أنـا ذاك جبّار عـنيد

إذا ما جئت ربّك يوم حشر فقل يـاربّ مـزّقني الوليـد

ومن أراد أن يقف على جنايات الرجل وأقـربائه وأجـداده فـليقرأ التـاريخ الذي اسـودّت صفحاته بأفعالهم الشنيعة التي لا يسترها شيء ولا يغفل عنها إلّا السذج والبلهاء.

أقول: إنّ للكاتب القدير السيّد محمد تقي الحكيم كلاماً في هذه الأحـاديث يـطيب لي نقله. قال: والذي يستفاد من هذه الروايات:

١ ـ أنّ عدد الأُمراء أو الخلفاء لا يتجاوز الاثني عشر وكلّهم من قريش.

٢ ـ أنّ هؤلاء الأُمراء معيّنون بالنص، كما هو مقتضى تشبيههم بنقباء بني إسرائيل، لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً** ﴾[٣].

٣ ـ أنّ هذه الروايات افترضت لهم البقاء ما بقي الدين الإسلامي أو حتى

---

١. تاريخ الخلفاء: ٢٥٠ و غيره.

٢. إبراهيم: ١٥. ٣. المائدة: ١٢.

تقوم الساعة كما هو مقتضى رواية مسلم: «**إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم اثناعشر خليفة**» وأصرح من ذلك روايته الأُخرى في نفس الباب: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى من الناس اثنان**».

إذا صحّت هذه الاستفادة فهي لا تلتئم إلّا مع مبنى الإمامية في عدد الأئمّة وبقائهم وكونهم من المنصوص عليهم من قبله ﷺ وهي منسجمة جدّاً مع حديث الثقلين وبقاؤهما حتّى يردا عليه الحوض.

وصحّة هذه الاستفادة موقوفة على أن يكون المراد من بقاء الأمر فيهم بقاء الإمامة والخلافة بالاستحقاق لا بالسلطة الظاهرية ؛ لأنّ الخليفة الشرعي خليفة يستمدّ سلطته من الله، وهي في حدود السلطة التشريعية لا التكوينية؛ لأنّ هذا النوع من السلطة هو الذي تقتضيه وظيفته باعتباره مشرّعاً، ولا ينافي ذلك ذهاب السلطة منهم في واقعها الخارجي وتسلّط الآخرين عليهم، على أنّ الروايات تبقى بلا تفسير لو تخلّينا عن حملها على هذا المعنى، لبداهة أنّ السلطة الظاهرية قد تولّاها من قريش أضعاف أضعاف هذا العدد، فضلاً عن انقراض دولهم وعدم النص على أحد منهم ـ أُمويين وعباسيين ـ باتّفاق المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الروايات كانت مأثورة في بعض الصحاح والمسانيد قبل أن يكتمل عدد الأئمّة، فلا تحتمل أن تكون من الموضوعات بعد اكتمال العدد المذكور، على أنّ جميع رواتها من أهل السنّة ومن الموثوقين لديهم، ولعلّ حيرة كثير من العلماء في توجيه هذه الأحاديث، ومحاولة ملائمتها للواقع التاريخي كان منشؤها عدم تمكّنهم من تكذيبها، ومن هنا تضاربت الأقوال في توجيهها وبيان المراد منها.

والسيوطي ـ بعد أن أورد ما قاله العلماء في هذه الأحاديث المشكلة ـ خرج برأي غريب وهو أنّه وجد من الاثني عشر الخلفاء الأربعة، والحسن، ومعاوية، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز في بني أُمية، وكذلك الظاهر لما أُوتيه من العدل، وبقي اثنان منتظران، أحدهما المهدي؛ لأنّه من أهل بيت محمّدﷺ. ولم يُبيّن المنتظر الثاني، ورحم الله من قال في السيوطي: إنّه حاطب ليل.

الإمام الأوّل:

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

إنّ الإمام علي بن أبي طالب أشهر من أن يعرَّف، ولقد قام لفيف من السنّة والشيعة بتأليف كتب وموسوعات عن حياته، ومناقبه، وفضائله، وجهاده، وعلومه، وخطبه، وقصار كلماته، وسياسته، وحروبه مع الناكثين والقاسطين والمارقين، فالأولى لنا الاكتفاء بالميسور في هذا المجال، وإحالة القارئ إلى تلك الموسوعات، بيد أنّنا نكتفي هنا بذكر أوصافه الواردة في السنّة فنقول:

هو أمير المؤمنين، وسيّد المسلمين، وقائد الغرّ المحجّلين، وخاتم الوصيّين، وأوّل القوم إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأعظمهم مزيّة، وأقومهم بأمر الله، وأعلمهم بالقضية، وراية الهدى، ومنار الإيمان، وباب الحكمة، والممسوس في ذات الله، خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله، الهاشمي، وليد الكعبة المشرّفة، ومُطهّرها من كل صنم ووثن، الشهيد في البيت الإلٰهي (مسجد الكوفة) في محرابه حال الصلاة سنة ٤٠هـ.

وكلّ جملة من هذه الجمل، وعبارة من هذه العبارات، كلمة قدسيّة نبويّة أخرجها الحفّاظ من أهل السنّة.[1]

---

١. راجع مسند أحمد: ١/ ٣٣١و ٥/ ١٨٢ـ ١٨٩؛ حلية الأولياء: ١/ ٦٢ـ ٦٨؛ الغدير: ٢/ ٣٣.

مكوّنات الشخصيّة الإنسانية

تعود شخصية كلّ إنسان ـ حسب مايرى علماء النفس ـ إلى ثلاثة عوامل هامّة لكلّ منها نصيب وافر في تكوين الشخصية وأثر عميق في بناء كيانها.

وكأنّ الشخصية الإنسانية لدى كل إنسان أشبه بمثلث يتألّف من اتّصال هذه الأضلاع الثلاثة بعضها ببعض، وهذه العوامل الثلاثة هي:

١ ـ الوراثة.

٢ ـ التعليم والثقافة.

٣ ـ البيئة والمحيط.

إنّ كلّ ما يتّصف به المرء من صفات حسنة أو قبيحة، عالية أو وضيعة تنتقل إلى الإنسان عبر هذه القنوات الثلاث، وتنمو فيه من خلال هذه الطرق.

وإنّ الأبناء لا يرثون منّا المال والثروة والأوصاف الظاهرية فقط كملامح الوجه ولون العيون وكيفيات الجسم، بل يرثون كلّ ما يتمتّع به الآباء من خصائص روحية وصفات أخلاقية عن طريق الوراثة كذلك.

فالأبوان ـ بانفصال جزئي «الحويمن» و «البويضة» المكوّنين للطفل منهما ـ إنّما ينقلان ـ في الحقيقة ـ صفاتهما ملخّصة إلى الخلية الأُولى المكوّنة من ذينك الجزأين، تلك الخلية الجنينية التي تنمو مع ما تحمل من الصفات والخصوصيات الموروثة.

ويشكّل تأثير الثقافة والمحيط، الضلعين الآخرين في مثلث

الشخصية الإنسانية، فإنّ لهذين الأمرين أثراً مهمّاً وعميقاً في تنمية السجايا الرفيعة المودعة في باطن كل إنسان بصورة فطرية جبليّة أو الموجودة في كيانه بسبب الوراثة من الأبوين.

فإنّ في مقدور كل معلّم أن يرسم مصير الطفل ومستقبله من خلال ما يلقي إليه من تعليمات وتوصيات وما يعطيه من سيرة وسلوك ومن آراء وأفكار، فكم من بيئة حوّلت أفراداً صالحين إلى فاسدين، أو فاسدين إلى صالحين.

وإنّ تأثير هذين العاملين المهمّين من الوضوح بحيث لايحتاج إلى المزيد من البيان والتوضيح. على أنّنا يجب أن لاننسى دور إرادة الإنسان نفسه وراء هذه العوامل الثلاثة.

مكوّنات شخصيّة الإمام علي عليه السلام

لم يكن الإمام علي عليه السلام بصفته بشراً بمستثنى من هذه القاعدة؛ فقد ورث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جانباً كبيراً من شخصيته النفسية والروحية والأخلاقية من هذه العوامل والطرق الثلاثة، وإليك تفصيل ذلك:

١ ـ الإمام علي عليه السلام والوراثة من الأبوين:

لقد انحدر الإمام علي من صلب والد عظيم الشأن، رفيع الشخصيّة هو أبوطالب، ولقد كان أبو طالب زعيم مكّة، وسيّد البطحاء، ورئيس بني هاشم، وهو إلى جانب ذلك،كان معروفاً بالسماحة والبذل والجود والعطاء

والعطف والمحبّة والفداء والتضحية في سبيل الهدف المقدّس، والعقيدة التوحيديّة المباركة.

فهو الذي تكفّل رسول الله منذ توفّي جدّه وكفيله الأوّل عبدالمطلب وهو آنذاك في الثامنة من عمره، وتولّى العناية به والقيام بشؤونه، وحفظه وحراسته في السفر والحضر، بإخلاص كبير واندفاع وحرص لانظير لهما، بل وبقي يدافع عن رسالة التوحيد، والدين الحق الذي جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وآله ويقوم في سبيل إرساء قواعده ونشر تعاليمه بكل تضحية وفداء، و يتحمّل لتحقيق هذه الأهداف العليا كلّ تعب ونصب وعناء.

وقد انعكست هذه الحقيقة وتجلّى موقفه هذا في كثير من أشعاره وأبياته المجموعة في ديوانه بصورة كاملة مثل قوله:

ليعلم خيار الناس أنّ محمّداً نبيّ كموسى والمسيح ابن مريم

وقوله:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً رسولاً كموسى خُطّ في أوّل الكتب[1]

إنّ من المستحيل أن تصدر أمثال هذه التضحيات التي كان أبرزها محاصرة بني هاشم جميعاً في الشعب، ومقاطعتهم القاسية، من دافع غير الإيمان العميق بالهدف والشغف الكبير بالمعنوية، الذي كان يتّصف به أبوطالب؛ إذ لا تستطيع مجرّد الوشائج العشائرية، وروابط القربى، أن توجِد في الإنسان مثل هذه الروح التضحويّة.

---

١. مجمع البيان: ٤/ ٣٧.

إنّ الدلائل على إيمان أبي طالب بدين ابن أخيه تبلغ من الوفرة والكثرة بحيث استقطبت اهتمام كلّ المحقّقين المنصفين والمحايدين، ولكن بعض المتعصّبين توقّف في إيمان تلك الشخصية المتفانية العظيمة، بالدعوة المحمدية، بينما تجاوز فريق هذا الحدّ إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قالوا بأنّه مات غير مؤمن.

ولو صحّت عُشر هذه الدلائل الدالّة على إيمان أبي طالب الثابتة في كتب التاريخ والحديث في حقّ رجل آخر لما شكّ أحد في إيمانه فضلاً عن إسلامه، ولكن لايعلم الإنسان لماذا لاتستطيع كل هذه الأدلّة إقناع هذه الزمرة،و إنارة الحقيقة لهم؟!

هذا عن والد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأمّا أُمّه فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي من السابقات إلى الإسلام والإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كانت قبل ذلك تتّبع ملّة إبراهيم.

إنّها المرأة الطاهرة التي لجأت ـ عند المخاض ـ إلى المسجد الحرام، وألصقت نفسها بجدار الكعبة وأخذت تقول:

«يا ربّ إنّي مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم وإنّه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت و(بحقّ) المولود الذي في بطني إلاّ ما يسّرت عليّ ولادتي». فدخلت فاطمة بنت أسد الكعبة ووضعت عليّاً هناك.[1]

١.كشف الغمّة: ١/ ٦٠.

تلك فضيلة نقلها قاطبة المؤرّخين والمحدّثين الشيعة، وكذا علماء الأنساب في مصنّفاتهم، كما نقلها ثلّة كبيرة من علماء السنّة وصرّحوا بها في كتبهم، واعتبروها حادثة فريدة، وواقعة عظيمة لم يسبق لها مثيل.(١)

وقال الحاكم النيسابوري: وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في جوف الكعبة.(٢)

وقال شهاب الدين أبو الثناء السيد محمود الآلوسي: وكون الأمير كرّم الله وجهه، ولد في البيت، أمر مشهور في الدنيا ولم يشتهر وضع غيره كرّم الله وجهه، كما اشتهر وضعه.(٣)

٢ ـ الإمام عليّ وتربيته في حجر النبيّ صلى الله عليه وآله:

وأمّا التربية الروحية والفكرية والأخلاقية فقد تلقّاها علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وهي الضلع الثاني من أضلاع شخصيته الثلاثة.

ولو أنّنا قسّمنا مجموعة سنوات عمر الإمام عليه السلام إلى خمسة أقسام لوجدنا القسم الأوّل من هذه الأقسام الخمسة من حياته الشريفة، يؤلّف السنوات التي قضاها عليه السلام قبل بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وانّ هذا القسم من حياته الشريفة لا يتجاوز عشر سنوات؛ لأنّ اللّحظة التي ولد فيها عليّ عليه السلام لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله قد تجاوز الثلاثين من

---

١. مروج الذهب: ٢/ ٣٤٩، شرح الشفاء للقاضي عياض: ١/ ١٥١ وغيرهما، وقد أفرد العلاّمة الأُردوبادي رسالة في هذه المنقبة وسمّاها: عليّ وليد الكعبة.
٢. شرح عينية عبدالباقي العمري: ١٥.
٣. الغدير: ٦/ ٢٢.

عمره المبارك، هذا مع العلم بأنّه ﷺ قد بعث بالرسالة في سنّ الأربعين.

وعلى هذا الأساس لم يكن الإمام عليّ عليه السلام قد تجاوز السنة العاشرة من عمره يوم بعث رسول الله ﷺ بالرسالة، وتوّج بالنبوّة.

إنّ أبرز الحوادث في حياة الإمام عليّ عليه السلام هو تكوين الشخصية العلوية، وتحقّق الضلع الثاني من المثلّث الذي أسلفناه بواسطة النبيّ الأكرم، وفي ظلّ ما أعطاه ﷺ لعليّ عليه السلام من أخلاق وأفكار؛ لأنّ هذا القسم في حياة كل إنسان وهذه الفترة من عمره هي من اللحظات الخطيرة، والقيّمة جدّاً،فشخصيّة الطفل في هذه الفترة تشبه صفحة بيضاء نقيّة تقبل كلّ لون، وهي مستعدّة لأن ينطبع عليها كلّ صورة مهما كانت، وهذه الفترة من العمر تعتبر ـ بالتالي ـ خير فرصة لأن ينمّي المربّون والمعلّمون فيها كلّما أودعت يد الخالق في كيان الطفل من سجايا طيّبة وصفات كريمة، وفضائل أخلاقية نبيلة، ويوقفوا الطفل ـ عن طريق التربية ـ على القيم الأخلاقية والقواعد الإنسانية وطريقة الحياة السعيدة، وتحقيقاً لهذا الهدف الساميّ تولّى النبي الكريم ﷺ بنفسه تربية عليّ عليه السلام بعد ولادته، وذلك عندما أتت فاطمة بنت أسد بوليدها عليّ عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فلقيت من رسول الله حبّاً شديداً لعليّ حتّى أنّه قال لها: «**اجعلي مهده بقرب فراشي**» وكان ﷺ يطهّر علياً في وقت غسله، ويوجره اللّبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه ويقول: «هذا أخي، ووليّي، وناصري، وصفيّي، وذخري، وكهفي، وصهري، ووصيّي، و زوج كريمتي، وأميني على وصيّتي، وخليفتي».[1]

١.كشف الغمة: ١/ ٦٠.

ولقد كانت الغاية من هذه العناية هي أن يتمّ توفير الضلع الثاني في مثلّث الشخصية (وهو التربية) بواسطته صلى الله عليه وآله، وأن لا يكون لأحد غير النبيّ صلى الله عليه وآله دخل في تكوين الشخصية العلوية الكريمة.

وقد ذكر الإمام عليّ عليه السلام ما أسداه الرسول الكريم إليه وما قام به تجاهه في تلكم الفترة إذ قال:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخَصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويَكنُفني في فراشه، ويمسُّني جسدَه، ويُشمّني عَرْفَه، وكان يمضغ الشيء ثمّ يُلقمنيه».[1]

النبي يأخذ عليّاً إلى بيته:

وإذ كان الله تعالى يريد لولي دينه أن ينشأ نشأة صالحة وأن يأخذ النبي عليّاً إلى بيته وأن يقع منذ نعومة أظفاره تحت تربية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ألفت نظر نبيّه إلى ذلك.

قد ذكر المؤرّخون أنّه أصابت مكّة ـ ذات سنة ـ أزمة مهلكة وسنة مجدبة منهكة، وكان أبوطالب ـ رضي الله عنه ـ ذا مال يسير وعيال كثير فأصابه ما أصاب قريشاً من العدم والضائقة والجهد والفاقة، فعند ذلك دعا رسول الله عمّه العباس إلى أن يتكفّل كل واحد منهما واحداً من أبناء أبي طالب وكان العباس ذا مال وثروة وجدة فوافقه العباس على ذلك؛ أخذ النبي عليّاً، وأخذ العباس جعفراً وتكفّل أمره، وتولّى شؤونه.[2]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة (١٩٢) المسمّاة بالخطبة القاصعة.

٢. بحار الأنوار: ٣٥/ ٤٤؛ سيرة ابن هشام: ١/ ٢٤٦.

هكذا وللمرّة الأُخرى أصبح عليّ عليه السلام في حوزة رسول الله صلى الله عليه وآله بصورة كاملة، واستطاع بهذه المرافقة الكاملة أن يقتطف من ثمار أخلاقه العالية وسجاياه النبيلة، الشيء الكثير، وأن يصل تحت رعاية النبي وعنايته وبتوجيهه وقيادته،إلى أعلى ذروة من ذرى الكمال الروحي.

وهذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى تلك الأيام القيّمة وإلى تلك الرعاية النبويّة المباركة المستمرّة، إذ يقول:

«ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به».(١)

عليّ في غار حراء

كان النبيّ ـ حتّى قبل أن يبعث بالرسالة والنبوّة ـ يعتكف ويتعبّد في غار حراء شهراً من كلّ سنة، فإذا انقضى الشهر وقضى جواره من حراء انحدر من الجبل، وتوجّه إلى المسجد الحرام رأساً وطاف بالبيت سبعاً، ثم عاد إلى منزله.وهنا يطرح سؤال: ماذا كان شأن عليّ عليه السلام في تلك الأيام التي كان يتعبّد ويعتكف فيها رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك المكان مع ما عرفناه من حبّ الرسول الأكرم له؟ هل كان يأخذ صلى الله عليه وآله عليّاً معه إلى ذلك المكان العجيب، أم كان يتركه ويفارقه؟

إنّ القرائن الكثيرة تدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله منذ أن أخذ علياً لم يفارقه يوماً أبداً؛ فهاهم المؤرّخون يقولون: كان عليّ يرافق النبيّ دائماً ولا يفارقه أبداً،

---

١. نهج البلاغة: ٢/ ١٨٢ ـ شرح عبده ـ

حتّى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا خرج إلى الصحراء أو الجبل أخذ عليّاً معه.[١]

يقول ابن أبي الحديد: وقد ذكر عليّ عليه السلام هذا الأمر في الخطبة القاصعة إذ قال:

«ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».[٢]

إنّ هذه العبارة وإن كانت محتملة في مرافقته للنبيّ في حراء بعد البعثة الشريفة إلّا أنّ القرائن السابقة وكون مجاورة النبيّ بحراء كانت في الأغلب قبل البعثة، تؤيّد أنّ هذه الجملة، يمكن أن تكون إشارة إلى صحبة عليّ للنبيّ في حراء قبل البعثة.

إنّ طهارة النفسيّة العلوية، ونقاوة الروح التي كان عليّ عليه السلام يتحلّى بها، والتربية المستمرّة التي كان يحظى بها في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله، كل ذلك كان سبباً في أن يتّصف عليّ عليه السلام ـ ومنذ نعومة أظفاره ـ ببصيرة نفّاذة وقلب مستنير، وأُذن سميعة واعية تمكّنه من أن يرى أشياءَ ويسمع أمواجاً تخفى على الناس العاديين،و يتعذّر عليهم سماعها ورؤيتها، كما يصرّح نفسه بذلك إذ يقول:

«أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة».[٣]

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«كان عليّ عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء، ويسمع الصوت».

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٠٨.
٢. نهج البلاغة: الخطبة القاصعة الرقم ١٨٧.
٣. المصدر نفسه.

وقد قال له النبيّ ﷺ: **«لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنتَ شريكاً في النبوّة، فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه، بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء».**(١)

ويقول الإمام عليّ عليه السلام: **«لقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته»، ثمّ قال له:**

«إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير».(٢)

هذا هو الرافد الثاني الذي كان يرفد الشخصية العلوية بالأخلاق والسجايا الرفيعة.

٣ ـ البيئة الرسالية وشخصية الإمام:

ولو أضفنا ذينك الأمرين (أي ما اكتسبه من والديه الطاهرين بالوراثة، وما تلقّاه في حجر النبيّ) إلى ما أخذه من بيئة الرسالة والإسلام من أفكار وآراء رفيعة، وتأثّر عنها أدركنا عظمة الشخصية العلوية من هذا الجانب.

ومن هنا يحظى الإمام عليّ عليه السلام بمكانة مرموقة لدى الجميع؛ مسلمين وغير مسلمين؛ لما كان يتمتّع به من شخصية سامقة، وخصوصيات خاصّة يتميّز بها.

وهذا هو ما دفع بالبعيد والقريب إلى أن يصف عليّاً بما لم يوصف به أحد من البشر، ويخصّه بنعوت، حرم منها غيره، فهذا الدكتور شبلي شميل (المتوفّى

١. شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢١٠.
٢. نهج البلاغة: الخطبة القاصعة الرقم ١٨٧.

سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م) وهو من كبار المادّيين في القرن الحاضر يقول:

الإمام عليّ بن أبي طالب عظيم العظماء نسخة مفردة لم ير لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل لا قديماً ولاحديثاً.(١)

قال عمر بن الخطّاب:

عقمت النساء أن يلدن مثل عليّ بن أبي طالب.(٢)

ويقول جورج جرداق الكاتب المسيحي اللبناني المعروف:

وماذا عليك يا دنيا لو حشدت قواك فأعطيت في كلّ زمن عليّاً بعقله وقلبه ولسانه وذي فقاره.(٣)

هذه الأبعاد التي ألمحنا إليها هي الأبعاد الطبيعية للشخصية العلوية.

البعد المعنوي لشخصيّة الإمام عليه السلام:

غير أنّ أبعاد شخصية الإمام عليّ عليه السلام لاتنحصر في هذه الأبعاد الثلاثة؛ فإنّ لأولياءالله سبحانه بعداً رابعاً، داخلاً في هويّة ذاتهم، وحقيقة شخصيتهم، وهذا البعد هوالذي ميّزهم عن سائر الشخصيات وأضفى عليهم بريقاً خاصّاً ولمعاناً عظيماً.

وهذا البعد هو البعد المعنوي الذي ميّز هذه الصفوة عن الناس، وجعلهم نخبة ممتازة وثلّة مختارة من بين الناس؛ وهو كونهم رسل الله وأنبياءه، أو خلفاءه وأوصياء أنبيائه.

---

١. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ١/ ٣٧.
٢. الغدير: ٦/ ٣٨.
٣. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ١/ ٤٩.

نرى أنّه سبحانه يأمر رسوله أن يصف نفسه بقوله: ﴿**قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً**﴾.(١)

فقوله: ﴿**بَشَراً**﴾ إشارة إلى الأبعاد البشرية الموجودة في كلّ إنسان طبيعيّ، وإن كانوا يختلفون فيها فيما بينهم كمالاً ولمعاناً.

وقوله: ﴿**رَسُولاً**﴾ إشارة إلى ذلك البعد المعنوي الذي ميّزه ﷺ عن الناس وجعله معلّماً وقدوة للبشر، فلأجل ذلك يقف المرء في تحديد الشخصيات الإلهية على شخصية مركّبة من بعدين: طبيعي و إلهي ولا يقدر على توصيفها إلّا بنفس ما وصفهم به الله سبحانه مثل قوله في شأن الرسول الأكرم ﷺ:

﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَالإنْجِيلِ يَأمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَ الأغْلاٰلَ الَّتِي كٰانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾(٢)، وقد نزلت في حقّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام آيات، ووردت روايات.

كيف وقد قال رسو ل الله ﷺ:

«**عنوان صحيفة المؤمن حبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام**».(٣)

وقال ﷺ:

«**من سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن غرسها ربّي فليوال عليّاً بعدي، وليوال وليّه، وليقتد بالأئمّة من بعدي؛ فإنّهم عترتي خلقوا**

١. الإسراء: ٩٣. ٢. الأعراف: ٥٧.
٣. أخرجه الحافظ الخطيب البغدادي في تاريخه: ٤/ ٤١٠.

من طينتي، رزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذّبين بفضلهم من أُمّتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي».(١)

وقال الإمام أحمد بن حنبل:

ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعليّ رضي الله عنه.(٢)

وقال الإمام الفخر الرازي:

من اتّخذ عليّاً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه.(٣)

وقال أيضاً:

من اقتدى في دينه بعليّ بن أبي طالب فقد اهتدى لقول النبيّ صلى الله عليه وآله: اللّهمّ أدر الحقّ مع عليّ حيث دار.(٤)

تسليط الضوء على شخصيته السامية:

لاعتب على اليراع لو وقف عند تحديد شخصيّة كريمة معنويّة خصّها الله تعالى بمواهب وفضائل، وكفى في ذلك ما رواه طارق بن شهاب، قال: كنت عند عبدالله بن عباس فجاء أُناس من أبناء المهاجرين فقالوا له: يا بن عباس أيّ رجل كان عليّ بن أبي طالب؟

قال: ملئ جوفه حكماً وعلماً وبأساً ونجدة وقرابة من رسول اللّٰه.(٥)

---

١. أخرجه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء: ١/ ٨٦.
٢. مناقب أحمد لابن الجوزي الحنبلي: ١٦٣.
٣. تفسير مفاتيح الغيب: ١/ ٢٠٥. ٤. المصدر نفسه: ٢٠٤.
٥. شواهد التنزيل: ١/ ١٠٨ح ١٥٣.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: ما نزل في القرآن: «**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**» إلّا وعليّ عليه السلام رأسها وأميرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمّد في غير مكان، وما ذكر عليّاً إلّا بخير.(١)

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في عليّ.(٢)

وقال ابن عباس: نزلت في عليّ أكثر من ثلاثمائة آية في مدحه.(٣)

نكتفي في ترجمة عليّ عليه السلام بكلمتين عن تلميذيه اللّذين كانا معه سرّاً وجهراً.

١ ـ قال ابن عباس ـ عندما سئل عن عليّ ـ: رحمة الله على أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، وطود النهى، ومحلّ الحجى، وغيث الندى، ومنتهى العلم للورى، ونوراً أسفر في الدجى،وداعياً إلى المحجّة العظمى، ومستمسكاً بالعروة الوثقى، أتقى من تقمّص وارتدى، وأكرم من شهد النجوى بعد محمد المصطفى، وصاحب القبلتين، وأبو السبطين، وزوجته خير النساء، فما يفوقه أحد، لم تر عيناي مثله، ولم أسمع بمثله، فعلى من أبغضه لعنة الله ولعنة العباد إلى يوم التناد.(٤)

٢ ـ إنّ معاوية سأل ضرار بن ضَمرة بعد موت عليّ عنه، فقال: صف لي

---

١. مسند أحمد: ١/ ١٩٠؛تاريخ الخلفاء: ١٧١.
٢. الصواعق المحرقة: ٧٦، الباب التاسع ،الفصل الثالث.
٣. تاريخ الخلفاء: ١٧٢.
٤. ميزان الاعتدال: ١/ ٤٨٤.

عليّاً، فقال: أو تعفيني؟ قال: صفه، قال: أوتعفيني؟ قال: لا أعفيك، قال: أمّا إذ لابدّ فأقول ما أعلمه منه:

والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته،كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلّب كفّيه، ويخاطب نفسه،يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا لانكلّمه هيبة، ولانبتدئه عظمة، إن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويحبّ المساكين،لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، وكأنّي أسمعه وهو يقول: يا دنيا أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ هيهات هيهات غرّي غيري، قد باينتك ثلاثاً لارجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كثير، آه من قلّة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

قال: فذرفت دموع معاوية على لحيته فما يملكها وهو ينشفها بكمّه وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال معاوية: رحم الله أباالحسن! كان والله كذلك،

فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها؛ فلا ترقأ عبرتها ولايسكن حزنها.[١]

هذه شذرات من فضائله، وقبسات من مناقبه الكثيرة التي حفظها التاريخ من تلاعب الأيدي.

غير أنّه لا يعرف عليّاً غير خالقه، وبعده صاحب الرسالة الكبرى ابن عمه المصطفىﷺ.

النبوّة والإمامة توأمان:

لقد وردت أخبار وروايات في المصادر المعتبرة تثبت صحّة الموقف والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة وتصدّقه، فقد نصّ النبيّﷺ على خليفته من بعده في الفترة النبوية من حياته مراراً وتكراراً، وأخرج موضوع الإمامة من مجال الانتخاب الشعبي والرأي العام.

فهو لم يعيّن (ولم ينصّ على) خليفته ووصيّه من بعده في أُخريات حياته فحسب، بل بادر إلى التعريف بخليفته ووصيّه منذ بدء الدعوة يوم لم ينضو تحت راية رسالته بعدُ سوى بضعة عشر من الأشخاص، وذلك يوم أُمر من جانب الله العليّ القدير أن ينذر عشيرته الأقربين من العذاب الإلهي الأليم، وأن يدعوهم إلى عقيدة التوحيد قبل أن يصدع برسالته للجميع، ويبدأ دعوته العامة للناس كافة.

فجمع أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم وبني المطلّب، ثمّ وقف فيهم خطيباً فقال:

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٨ / ٢٢٥ وغيره.

«أيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟»

فأحجم القوم، وقام عليّ عليه السلام وأعلن مؤازرته وتأييده له، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله برقبته، والتفت إلى الحاضرين، وقال:

«إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم».[1]

وقد عرف هذا الحديث عند المفسّرين والمحدّثين: بـ «حديث يوم الدار» و «حديث بدء الدعوة».

على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكتف بالنصّ على خليفته في بدء رسالته، بل صرّح في مناسبات شتّى في السفر والحضر، بخلافة عليّ عليه السلام من بعده، ولكن لا يبلغ شيء من ذلك في الأهمية والظهور والصراحة والحسم ما بلغه حديث الغدير.

قصة الغدير:

لمّا انتهت مراسم الحجّ، وتعلّم المسلمون مناسك الحجّ من رسول الله، قرّر رسول الله صلى الله عليه وآله الرحيل عن مكّة، والعودة إلى المدينة، فأصدر أمراً بذلك، ولمّا بلغ موكب الحجيج العظيم إلى منطقة «رابغ»[2] التي تبعد عن «الجحفة»[3] بثلاثة أميال، نزل أمين الوحي جبرئيل على

---

١. تاريخ الطبري: ٢/ ٢١٦؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٦٢و ٦٣، وقد مرّ مفصّلاً في هذه الدراسة فراجع.
٢. رابغ: تقع الآن على الطريق بين مكّة والمدينة.
٣. من مواقيت الإحرام وتنشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين.

رسول اللهﷺ بمنطقة تدعى «غدير خم»، وخاطبه بالآية التالية:

﴿يأيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبّك وإنْ لمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتهُ وَالله يَعْصِمُك مِنَ النّاسِ﴾[1].

إنّ لسان الآية وظاهرها يكشف عن أنّ الله تعالى ألقى على عاتق النبيّﷺ مسؤولية القيام بمهمّة خطيرة، وأيّ أمر أكثر خطورة من أن ينصّب علياًعليه السلام لمقام الخلافة من بعده على مرأى ومسمع من مائة ألف شاهد؟!

من هنا أصدر رسول اللهﷺ أمره بالتوقّف، فتوقّف طلائع ذلك الموكب العظيم، والتحق بهم من تأخر.

لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان المناخ حارّاً إلى درجة كبيرة جدّاً، وكان الشخص يضع قسماً من عباءته فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدميه، وصنع للنبيّﷺ مظلّة، وكانت عبارة عن عباءة أُلقيت على أغصان شجرة (سمرة)، وصلّى رسول اللهﷺ بالحاضرين الظهر جماعة وفيما كان الناس قد أحاطوا به صعدﷺعلى منبر أُعدّ من أحداج الإبل وأقتابها، وخطب في الناس رافعاً صوته، وهو يقول:

«الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إلٰه إلاّ هو، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أمّا بعد؛ أيّها الناس إنّي أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»

---

١. المائدة: ٦٧.

قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال صلى الله عليه وآله: **«ألستم تشهدون أن لا إلـه إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟»**.

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال صلى الله عليه وآله: **«اللّهمّ اشهد»**.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: **«وإنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً»**.

فنادى منادٍ: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، وما الثقلان؟

قال صلى الله عليه وآله: **«كتاب الله سبب طرف بيد الله، وطرف بأيديكم، فتمسّكوا به؛ والآخر عترتي، وإنّ اللّطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا»**.

وهنا أخذ بيد عليّ عليه السلام ورفعها، حتى رؤي بياض آباطهما، وعرفه الناس أجمعون ثمّ قال:

«أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه وآله:

«إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنـفسهم، فـمن كـنت مـولاه فـعليّ مولاه[1].

---

١. لقدكرّر النبيّ صلى الله عليه وآله هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأيّ التباس أو اشتباه.

اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبّه، وابغض من بغضه، وأدر الحق معه حيث دار».(١)

فلمّا نزل من المنبر، استجازه حسّان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في أن يفرغ ما نزل به الوحي في قالب الشعر، فأجازه الرسول، فقام وأنشد:

يـناديهم يـوم الغـدير نـبيّهم بـخمّ وأكـرم بـالنبيّ مـناديا
يـقول فـمن مـولاكـم ووليّكـم فقالوا ولم يـبدوا هـناك التـعاميا
إلهك مـــولانا وأنت وليّـــنا ولم ترَ منّا فـي الولايـة عـاصيا
فـقال له قـم يـا عـليّ فـإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهـاديا
فـمن كـنت مـولاه فـهذا وليّـه فكونوا له أنـصار صـدقٍ مـواليـا
هـناك دعـا: اللّـهمّ! وال وليّـه وكن للـذي عـادىٰ عـليّاً مـعاديا

مصادر الواقعة:

هذه هي واقعة الغدير استعرضناها لك على وجه الإجمال، وهي بحقّ واقـعة لا يسـوغ لأحد إنكارها بأدنى مـراتب التشكـيك والقـدح، فـقد تـناولها بـالذكر أئـمّة المـؤرّخين أمـثال: البلاذري، وابن قتيبة، والطبري، والخطيب البغدادي، وابن عبدالبرّ، وابن عساكـر، ويـاقوت الحموي، وابن الأثير، وابن أبي‌الحديد، وابن‌خلّكان، واليـافعي، وابـن كـثير، وابـن خـلدون، والذهبي، وابن حجر العسقلاني، وابن الصباغ المالكي، والمقريزي، وجلال الدين

---

١. راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلّامة الأميني﵀.

السيوطي، ونور الدين الحلبي إلى غير ذلك من المؤرّخين الذين جادت بهم القرون والأجيال.

كما ذكره أيضاً أئمّة الحديث أمثال: الإمام الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى الموصلي، والبغوي، والطحّاوي، والحاكم النيسابوري، وابن المغازلي، والخطيب الخوارزمي، والكنجي، ومحبّ‌الدين الطبري، والحموييني، والهيثمي، والجزري، والقسطلاني، والمتقي الهندي، وتاج‌الدين المناوي، وأبو عبدالله الزرقاني، وابن حمزة الدمشقي إلى غير ذلك من أعلام المحدّثين الذين يقصر المقال عن عدّهم وحصرهم.

كما تعرّض له كبار المفسرين، فقد ذكره: الطبري، والثعلبي، والواحدي ـ في أسباب النزول، والقرطبي، وأبو السعود، والفخر الرازي، وابن كثير الشامي، والنيسابوري، وجلال‌الدين السيوطي، والآلوسي، والبغدادي.

وذكره من المتكلّمين طائفة جمّة في خاتمة مباحث الإمامة وإن ناقشوا نقضاً وإبراماً في دلالته كالقاضي أبي بكر الباقلاني في تمهيده، والقاضي عبد الرحمن الإيجي في مواقفه، والسيد الشريف الجرجاني في شرحه، وشمس الدين الأصفهاني في مطالع الأنوار، والتفتازاني في شرح المقاصد، والقوشجي في شرح التجريد إلى غير ذلك من المتكلّمين الذين تعرّضوا لحديث الغدير وبحثوا حول دلالته ووجه الحجّة فيه.

واقعة الغدير ورمز الخلود:

أراد المولى عزّوجلّ أن يبقى حديث الغدير غضّاً طرياً على مرّ الأجيال

لم يُكدّر صفاء حقيقته الناصعة تطاول الأحقاب، وكرّ الأزمان، وانصرام الأعوام، ويرجع ذلك إلى أُمور ثلاثة:

١ ـ إنّ النبيّ ﷺ قد هتف به في مزدحم غفير يربو على عشرات الآلاف عند منصرفه من الحجّ الأكبر، فنهض بالدعوة والإعلان، وحوله جموع من وجوه الصحابة وأعيان الأُمّة، وأمر بتبليغ الشاهد الغائب ليكونوا كافّة على علم وخبر بما تمّ إبلاغه.

٢ ـ إنّ الله سبحانه قد أنزل في تلك المناسبة آيات تلفت نظر القارئ إلى الواقعة عندما يتلوها وإليك الآيات:

أ ـ ﴿**يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبّك وإِنْ لمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتهُ وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ**﴾[١].

وقد ذكر نزولها في واقعة الغدير طائفة من المفسّرين يربو عددهم على الثلاثين، وقد ذكر العلّامة البحّاثة المحقّق الأميني في كتاب « الغدير » نصوص عبارات هؤلاء، فمن أراد الاطلاع عليها، فليرجع إليه.

ب ـ ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً**﴾[٢].

وقد نقل نزول الآية جماعة منهم يزيدون على ستّة عشر.

ج ـ ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ الله ذِي المَعارِجِ**﴾[٣].

---

١. المائدة: ٦٧. ٢. المائدة: ٣.

٣. المعارج: ١ـ٣.

وقد ذكر أيضاً نزول هذه الآية جماعة من المفسّرين ينوف على الثلاثين، أضف إلى ذلك أنّ الشيعة عن بكرة أبيهم متّفقون على نزول هذه الآيات الثلاث في شأن هذه الواقعة.[١]

٣ ـ إنّ الحديث منذ صدوره من منبع الوحي، تسابقت الشعراء والأُدباء على نظمه، وإنشاده في أبيات وقصائد امتدّت رقعتها منذ عصر انبثاق ذلك النصّ في تلك المناسبة إلى عصرنا هذا، وبمختلف اللغات والثقافات، وقد تمكّن البحّاثة المتضلّع العلّامة الأميني من استقصاء وجمع كلّ ما نظم باللغة العربية حول تلك الحادثة، والمؤمّل والمنتظر من كافّة المحقّقين على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم استنهاض هممهم لجمع ما نظم وأُنشد في أدبهم الخاص.

وحصيلة الكلام: قلّما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامّة، وفي التاريخ الإسلامي والأُمّة الإسلامية خاصّة بمثل ما حظيت به واقعة الغدير، وقلّما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدّثين والمفسّرين والكلاميّين والفلاسفة والأُدباء والكتّاب والخطباء وأرباب السير والمؤرّخين كما استقطبت هذه الحادثة، وقلّما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

هذا ويستفاد من مراجعة التاريخ أنّ يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير، وكانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أنّ ابن خلّكان يقول حول «المستعلي ابن المستنصر»:

---

١. راجع في شأن نزول هذه الآيات كتاب الغدير: ١/ ٢١٤ و ٢١٧.

«فبويع في يوم غدير خمّ؛ وهو الثامن عشر من شهر ذي‌الحجّة سنة ٤٨٧هـ».[١]

وقال في ترجمة المستنصر بالله، العبّاسي: وتوفّي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي‌الحجّة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير، أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجّة، وهو غدير خمّ.[٢]

وقد عدّه أبو ريحان البيروني في كتابه «الآثار الباقية ممّا استعمله أهل الإسلام من الأعياد».[٣]

وليس ابن خلّكان، وأبو ريحان البيروني، هما الوحيدين اللّذين صرّحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد، بل هذا الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين.[٤]

إنّ عهد هذا العيد الإسلامي، وجذوره ترجع إلى نفس يوم «الغدير»؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر المهاجرين والأنصار، بل أمر زوجاته ونساءه في ذلك اليوم بالدخول على عليّ عليه السلام وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أوّل من صافح النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّاً: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وباقي المهاجرين والأنصار، وباقي الناس.[٥]

فالحمد لله الذي جعلنا من المتمسّكين بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

---

١. وفيات الأعيان: ١/ ٦٠.
٢. المصدر نفسه.
٣. ترجمة الآثار الباقية: ٣٩٥؛ الغدير: ١/ ٢٦٧.
٤. ثمار القلوب: ٥١١.
٥. راجع مصدره في الغدير: ١/ ٢٧٠.

شذرات من فضائله

يطيب لي أن أُشير إلى بعض خصائصه قياماً ببعض الوظيفة تجاه ما له من الحقوق على الإسلام والمسلمين عامّة، فنقول: إنّ له خصائص لم يشاركه فيها أحد:

١ ـ ولادته في جوف الكعبة.

٢ ـ احتضان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله له منذ صغره.

٣ ـ سبقه الجميع في الإسلام.

٤ ـ مؤاخاة النبيّ صلى الله عليه وآله له من دون باقي الصحابة.

٥ ـ حمله من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله على كتفه لطرح الأصنام الموضوعة في الكعبة.

٦ ـ استمرار ذريّة رسول الله صلى الله عليه وآله من صلبه.

٧ ـ بصاق النبيّ صلى الله عليه وآله في عينيه يوم خيبر، ودعاؤه له بأن لا يصيبه حرّ ولا قرّ.

٨ ـ إنّ حبّه إيمان وبغضه نفاق.

٩ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله باهل النصارىٰ به وبزوجته وأولاده دون سائر الأصحاب.

١٠ ـ تبليغه سورة براءة عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

١١ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله خصّه يوم الغدير بالولاية.

١٢ ـ إنّه القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني».

١٣ ـ إنّ النبيّ ﷺ خصّه بتغسيله وتجهيزه والصلاة عليه.

١٤ ـ إنّ الناس جميعاً من أرباب الأديان، وغيرهم ينظرون إليه كأعظم رجل عرفه التاريخ.[١]

١. قد استخرج هذه الخصائص الكاتب القدير محمّد جواد مغنية ـ رحمه الله ـ في كتابه: الشيعة والتشيّع: ٢٣٤.

الإمام الثاني:

أبو محمد الحسن بن علي المجتبىٰ عليه السلام

هو ثاني أئمّة أهل البيت الطاهر، وأوّل السبطين، وأحد سيّدي شباب أهل الجنّة، وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحد الخمسة من أصحاب الكساء، أُمّه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله سيّدة نساء العالمين.

ولادته

ولد في المدينة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث أو اثنتين من الهجرة، وهو أوّل أولاد عليّ وفاطمة عليهما السلام.

نسب كان عليه من شمس الضحىٰ نــور ومــن فــلق الصـباح عـمودا

وروي عن أنس بن مالك قال: لم يكـن أحـد أشـبه بـرسول الله صلى الله عليه وآله مـن الحسـن بـن علي عليهما السلام.[1]

فلمّـا ولد الحسن قالت فاطمة لعليّ: سمّه، فقال: «ما كنت لأسبق باسمه رسول الله صلى الله عليه وآله»، فجاء النبيّ صلى الله عليه وآله فأُخرج إليه فقال: «اللّهمّ إنّي أُعيذه بك وولده من الشـيطـان الـرجيـم»، وأذّن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى.

---

١. الفصول المهمّة لابن الصباغ المالكي: ١٥٢.

ألقابه عليه السلام

أشهرها: التقيّ والزكيّ والسبط.

علمه عليه السلام

يكفي أنّه كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ويجتمع الناس حوله فيتكلّم بما يشفي غليل السائل ويقطع حجج المجادلين. من ذلك ما رواه الإمام أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحدي في تفسير الوسيط: أنّ رجلاً دخل إلى مسجد المدينة فوجد شخصاً يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والناس حوله مجتمعون فجاء إليه الرجل، قال: أخبرني عن ﴿**شاهد ومشهود**﴾[1]؟ فقال: «**نعم، أمّا الشاهد فيوم الجمعة والمشهود فيوم عرفة**».

فتجاوزه إلى آخر غيره يحدّث في المسجد، فسأله عن ﴿**شاهد ومشهود**﴾ قال: «أمّا الشاهد فيوم الجمعة، وأمّا المشهود يوم النحر».

قال: فتجاوزه إلى ثالث، غلام كأنّ وجهه الدينار، وهو يحدّث في المسجد، فسأله عن شاهد ومشهود، فقال: «**نعم، أمّا الشاهد فرسول الله صلى الله عليه وآله، وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعته عزّ وجلّ يقول: ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ إنّا أرْسَلْناك شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾**[2]، وقال تعالى: ﴿**ذٰلِكَ يَومٌ مَجمَوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَومٌ مَشْهُودٌ**﴾»[3].

فسأل عن الأوّل، فقالوا: ابن عبّاس، وسأل عن الثاني، فقالوا: ابن عمر،

---

١. البروج: ٣. ٢. الأحزاب: ٤٥. ٣. هود: ١٠٣.

وسأل عن الثالث، فقالوا: الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام.[١]

زهده عليه السلام

يكفي في ذلك ما نقله الحافظ أبو نعيم في حليته بسنده أنّه عليه السلام قال: «**إنّي لأستحيي من ربّي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته**» فمشى عشرين مرّة من المدينة إلى مكّة على قدميه.

وروي عن الحافظ أبي نعيم في حليته أيضاً: أنّه عليه السلام خرج من ماله مرّتين، وقاسم الله تعالى ثلاث مرّات ماله وتصدّق به.

وكان عليه السلام من أزهد الناس في الدنيا ولذّاتها، عارفاً بغرورها وآفاتها، وكثيراً ما كان عليه السلام يتمثّل بهذا البيت شعراً:

يا أهل لذّات دنيا لا بقاء لها ... إنّ اغتراراً بظلّ زائلٍ حَمَقُ[٢]

حلمه عليه السلام

روى ابن خلّكان عن ابن عائشة: أنّ رجلاً من أهل الشام قال: دخلت المدينة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فرأيت رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ولا سمتاً ولا ثوباً ولا دابّة منه، فمال قلبي إليه، فسألت عنه فقيل: هذا الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فامتلأ قلبي له بغضاً وحسدت عليّاً أن يكون له ابن مثله، فصرت إليه وقلت له: أأنت ابن عليّ بن أبي طالب؟ قال: «**أنا ابنه**»، قلت: فعل بك وبأبيك، أسبّهما، فلمّا انقضى كلامي قال لي: «**أحسبك غريباً**»؟

---

١. بحار الأنوار: ١/ ١٣.

٢. الفصول المهمّة: ١٥٤.

قلت: أجل، قال: «**مِلْ بنا، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك، أو إلى مال آتيناك، أو إلى حاجة عاونّاكَ**» قال: فانصرفت عنه وما على الأرض أحبّ إليّ منه، وما فكرت فيما صنع وصنعت إلّا شكرته وخزيت نفسي.[١]

إمامته عليه السلام

يكفي في ذلك ما صرّح به النبيّ صلى الله عليه وآله من قوله: «**هذان ابناي إمامان قاما أو قعدا...**».

وروت الشيعة بطرقهم عن سليم بن قيس الهلالي قال: شهدت أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيّته الحسين عليه السلام ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثمّ دفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: «**يا بنيّ إنّه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أُوصي إليك، وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثمّ أقبل على ابنه الحسين عليه السلام فقال: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثمّ أخذ بيد عليّ بن الحسين وقال: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمّد بن عليّ فاقرأه من رسول الله ومنّي السلام**»[٢].

روى أبو الفرج الأصفهاني: أنّه خطب الحسن بن عليّ بعد وفاة أمير

---

١. وفيات الأعيان: ٢ / ٦٨.

٢. إعلام الورى بأعلام الهدى: ١ / ٤٠٥، تحقيق مؤسسة آل البيت. ومن أراد الوقوف على نصوص إمامته فعليه أن يرجع إلى الكافي: ١ / ٢٩٧، وإثبات الهداة: ٢ / ٥٤٣ ـ ٥٦٨ فقد نقل خمسة نصوص في المقام.

المؤمنين عليّ عليه السلام وقال: «**قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، ولقد كان يوجّهه برايته فيكتنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفّي في هذه الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، ولقد توفّي فيها يوشع بن نون وصي موسى، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم بقيّة من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله**».

ثمّ خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه.

ثمّ قال: «**أيّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عزّ وجلّ بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً﴾ [1] فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت**».

قال أبو مخنف عن رجاله: ثمّ قام ابن عباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته فاستجابوا له وقالوا: ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة، فبايعوه.[2]

وقال المفيد: كانت بيعته يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، فرتّب العمّال وأمّر الأُمراء، وأنفذ عبد الله بن العبّاس إلى البصرة، ونظر في الأُمور.[3]

---

١. الشورى: ٢٣. ٢. مقاتل الطالبيين: ٥٢.
٣. الإرشاد للمفيد: ١٨٨.

وقال أبو الفرج الأصفهاني: وكان أوّل شيء أحدثه الحسن عليه السلام أنّه زاد في المقاتلة مائة مائة، وقد كان عليّ فعل ذلك يوم الجمل، وهو فعله يوم الاستخلاف، فتبعه الخلفاء بعد ذلك.[١]

قال المفيد: فلمّا بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن، دسَّ رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأُمور، فعرف ذلك الحسن، فأمر باستخراج الحميري من عند لحّام في الكوفة فأُخرج وأمر بضرب عنقه، وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم، فأُخرج وضربت عنقه.[٢]

صلحه عليه السلام مع معاوية

ثمّ إنّه استمرّت المراسلات[٣] بين الحسن ومعاوية وانجرّت إلى حوادث مريرة إلى أن أدّت إلى الصلح واضطرّ إلى التنازل عن الخلافة لصالح معاوية، فعقدا صلحاً وإليك صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ بن أبي طالب معاوية بن أبي

---

١. مقاتل الطالبيين: ٥٥.

٢. الإرشاد: ١٨٨؛ مقاتل الطالبيين: ٥٢.

٣. ومن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى مقاتل الطالبيين: ٥٣ـ ٧٢وبالإمعان فيها وما أظهر أصحابه من التخاذل، يتضح سرّ صلح الإمام وتنازله عن الخلافة، فلم يطاع إلاّ أنّه أتم الحجّة عليهم، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى «صلح الحسن» للشيخ راضي آل ياسين.

سفيان، صالحه على أن يسلّم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة رسول الله، وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، على أنّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم.

على أنّ أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه.

على أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سوء سرّاً وجهراً، ولا يخيف أحداً في أُفق من الآفاق. شهد عليه بذلك فلان وفلان، وكفى بالله شهيداً.[1]

ولمّا تمّ الصلح صعد معاوية المنبر وقال في خطبته: إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا وإنّي كنت منّيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدميّ هاتين لا أفي بشيء منها له.[2]

شهادته ودفنه عليه السلام

لمّا نقض معاوية عهده مع الإمام الحسن عليه السلام، وما كان ذلك بغريب على رجل أبوه أبوسفيان، وأُمّه هند، وهو طليق ابن طلقاء عمد إلى أخذ البيعة ليزيد ولده المشهور بمجونه وتهتكه وزندقته، وما كان شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن عليّ عليهما السلام، فدسّ إليه السمّ، فمات بسببه.

---

١. الفصول المهمّة: ١٦٣.

٢. الإرشاد: ١٩١.

فقد روي: أنّ معاوية أرسل إلى ابنة الأشعث ـ وكانت تحت الحسنعليه السلام ـ: إنّي مزوّجك بيزيد ابني على أن تسمّي الحسن بن عليّ. وبعث إليها بمائة ألف درهم، فقبلت وسمّت الحسن، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه.(١)

فلمّا دنا موته أوصى لأخيه الحسينعليه السلام وقال: «**إذا قضيت نحبي غسّلني وكفّني واحملني على سريري إلى قبر جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ ردّني إلى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد فادفنّي هناك، وبالله أُقسم عليك أن تهريق في أمري محجمة دم**».

فلمّا حملوه إلى روضة رسول الله صلى الله عليه وآله لم يشكّ مروان ومن معه من بني أُميّة أنّهم سيدفنونه عند جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فتجمّعوا له ولبسوا السلاح، ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: ما لي ولكم تريدون أن تُدخلوا بيتي من لا أُحبّ!! وجعل مروان يقول: يا ربّ هيجاء هي خير من دعةٍ، أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبيّ؟! وكادت الفتنة تقع بين بني هاشم وبني أُميّة. ولأجل وصيّة الحسن مضوا به إلى البقيع ودفنوه عند جدّته فاطمة بنت أسد.(٢)

وتوفّي الحسن وله من العمر (٤٧) عاماً وكانت سنة وفاته سنة (٥٠) من الهجرة النبويّة. والعجيب أنّ مروان بن الحكم حمل سريره إلى البقيع فقال له الحسين: «**أتحمل سريره؟! أما والله لقد كنت تجرّعه الغيظ**» فقال مروان: إنّي كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال.(٣)

---

١. مقاتل الطالبيين: ٧٣.

٢. الإرشاد: ١٩٣؛ كشف الغمة: ١/ ٢٠٩؛ مقاتل الطالبيين: ٧٤ ـ ٧٥.

٣. مقاتل الطالبيين: ٧٦.

فرح معاوية بموته:

ولما بلغ معاوية موت الحسن عليه السلام سجد وسجد من حوله وكبّر وكبّروا معه. ذكره الزمخشري في «ربيع الأبرار» وابن عبد البرّ في «الاستيعاب» وغيرهما.

فقال بعض الشعراء:

أصبح اليوم ابن هند شامتاً ظاهر النخوة إذ مات الحسنْ

يا ابن هند إن تذق كأس الردىٰ تكُ في الدهر كشيء لم يكنْ

لستَ بالباقي فلا تشمت به كلّ حيّ للمنايا مرتهن[1]

هذه لمحة عن حياة الحسن المشحونة بالحوادث المريرة. وتركنا الكثير ممّا يرجع إلى جوانب حياته، خصوصاً ما نقل عنه من الخطب والرسائل والكلم القصار، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تحف العقول[2] فقد ذكر قسماً كبيراً من كلماته.

---

١. في رحاب أئمّة أهل البيت: ٤٣.

٢. تحف العقول: ٢٢٥ ـ ٢٣٦.

الإمام الثالث:

أبو عبدالله الحسين بن علي سيّد الشهداء عليه السلام

هو ثالث أئمّة أهل البيت الطاهر، وثاني السبطين، وسيدي شباب أهل الجنّة، وريحانتي المصطفى صلى الله عليه وآله، وأحد الخمسة أصحاب الكساء، وسيّد الشهداء، وأُمّه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولادته عليه السلام

ولد في المدينة المنوّرة في الثالث من شعبان سنة ثلاث أو أربع من الهجرة، ولمّا ولد جيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فاستبشر به، وأذّن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى، فلمّا كان اليوم السابع سمّاه حسيناً، وعقَّ عنه بكبش، وأمر أُمّه أن تحلق رأسه وتتصدّق بوزن شعره فضّة، كما فعلت بأخيه الحسن، فامتثلت عليها السلام ما أمرها به.

خصائصه عليه السلام

إنّ حياة الإمام الحسين من ولادته إلى شهادته حافلة بالأحداث، والإشارة ـ فضلاً عن الإحاطة ـ إلى كلّ ما يرجع إليه يحتاج إلى تأليف مفرد، وقد أغنانا في ذلك ما كتبه المؤلّفون والباحثون عن جوانب حياته عليه السلام، حيث تحدّثوا في مؤلّفاتهم المختلفة عن النصوص الواردة من جدّه وأبيه في حقّه، وعن

علمه ومناظراته، وخطبه وكتبه وقصار كلمه، وفصاحته وبلاغته، ومكارم أخلاقه، وكرمه وجوده، وزهده وعبادته، ورأفته بالفقراء والمساكين، وعن أصحابه والرواة عنه، والجيل الذي تربّى على يديه. وذلك في مؤلّفات قيّمة لا تعد ولاتحصى.

كفاحه وجهاده الرسالي:

غير أنّ للحسين عليه السلام وراء ذلك، خصّيصة أُخرى وهي كفاحه وجهاده الرسالي والسياسي الذي عُرِفَ به، والذي أصبح مدرسة سياسية دينيّة، لعلها أصبحت الطابع المميّز له عليه السلام والصبغة التي اصطبغت حياته الشريفة بها، وأُسوة وقدوة مدى أجيال وقرون، ولم يزل منهجه يؤثّر في ضمير الأُمّة ووعيها، ويحرّك العقول المتفتّحة، والقلوب المستنيرة إلى التحرّك والثورة، ومواجهة طواغيت الزمان بالعنف والشدّة.

وها نحن نقدّم إليك نموذجاً من غرر كلماته في ذلك المجال حتّى تقف على كفاحه وجهاده أمام التيّارات الإلحاديّة والانهيار الخلقي.

إباؤه للضيم ومعاندة الجور

لمّا توفّي أخوه الحسن في السنة الخمسين من الهجرة أوصى إليه بالإمامة فاجتمعت الشيعة حوله، يرجعون إليه في حلّهم وترحالهم، وكان لمعاوية عيون في المدينة يكتبون إليه ما يكون من الأحداث المهمّة التي لا توافق هوى السلطة الأُموية المنحرفة، والتي قد تؤلّف خطراً جدّياً على وجودها غير المشروع، ولقد كان همّ هذه السلطة هو الإمام الحسين عليه السلام لما يعرفونه عنه من

موقف لا يلين ولا يهادن في الحقّ، ومن هنا فقد كتب مروان بن الحكم ـ وكان عامل معاوية على المدينة ـ: إنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن عليّ وأنّه لا يأمن وثوبه، ولقد بحثت عن ذلك فبلغني أنّه لا يريد الخلاف يومه هذا، ولست آمن أن يكون هذا أيضاً لما بعده.

ولمّا بلغ الكتاب إلى معاوية كتب رسالة إلى الحسين وهذا نصّها:

أمّا بعد؛ فقد انتهت إليّ أُمور عنك إن كانت حقّاً فإنّي أرغب بك عنها، ولعمر الله إنّ من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء، وإنّ أحقَّ الناس بالوفاء من كان في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله لها...[1].

ولمّا وصل الكتاب إلى الحسين بن عليّ، كتب إليه رسالة مفصّلة ذكر فيها جرائمه ونقضه ميثاقه وعهده، نقتبس منها ما يلي:

«ألست قاتل حجر بن عديّ أخا كندة وأصحابه المصلّين، العابدين، الّذين ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثمّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة، ولا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، جرأة على الله واستخفافاً بعهده؟!

أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفرّ لونه، فقتلته بعد ما أمنته وأعطيته العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من شعف الجبال[2]؟!

---

١. الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣.

٢. أي قممها وأعاليها.

أولست المدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عبيد بن ثقيف فزعمت أنّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فتركت سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله تعمّداً وتبعت هواك بغير هدي من الله، ثمّ سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم، ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويُسمل أعينهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنّك لست من هذه الأُمّة وليسوا منك.

أولست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سميّة أنّهم على دين عليّ ـ صلوات الله عليه ـ فكتبت إليه: أن اقتل كلّ من كان على دين عليّ، فقتلهم ومثّل بهم بأمرك، ودين عليّ هو دين ابن عمّه صلى الله عليه وآله الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف».[1]

هذا هو الحسين، وهذا هو إباؤه للضيم ودفاعه عن الحق ونصرته للمظلومين في عصر معاوية. وذكرنا هذه المقتطفات كنموذج من سائر خطبه ورسائله التي ضبطها التاريخ.

---

١. الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٤.

الإمام الحسين عليه السلام وكربلاء

رفضه البيعة ليزيد:

لمّا هلك معاوية في منتصف رجب سنة ٦٠ هجرية كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة والي المدينة أن يأخذ الحسين عليه السلام بالبيعة له، فأنفذ الوليد إلى الحسين عليه السلام فاستدعاه، فعرف الحسين ما أراد، فدعا جماعة من مواليه وأمرهم بحمل السلاح وقال: «**اجلسوا على الباب فإذا سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه ولا تخافوا عليّ**».

وصار عليه السلام إلى الوليد فنعى الوليد إليه معاوية، فاسترجع الحسين عليه السلام ثمّ قرأ عليه كتاب يزيد بن معاوية، فقال الحسين عليه السلام: «**إنّي لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتّى أُبايعه جهراً فيعرف ذلك الناس**»، فقال له الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام: «**فتصبح وترى رأيك في ذلك**» فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى، فقال مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى يكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل فلا يخرج من عندك حتّى يبايع أو تضرب عنقه، فوثب عند ذلك الحسين عليه السلام وقال: «**أنت يا بن الزرقاء تقتلني أو هو؟ كذبت والله وأثمت**» ثمّ خرج.[1]

وأصبح الحسين من غده يستمع الأخبار، فإذا هو بمروان بن الحكم قد

---

١. الإرشاد: ٢٠٠.

عارضه في طريقه فقال: أبا عبد الله إنّي لك ناصح فأطعني ترشد وتسدّد، فقال: «**وما ذاك قل أسمعْ**» فقال: إنّي أرشدك لبيعة يزيد؛ فانّها خير لك في دينك وفي دنياك!! فاسترجع الحسين وقال: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون وعلى الإسلام السَّلام إذا بليت الأُمّة براع مثل يزيد، ثمّ قال: يا مروان أترشدني لبيعة يزيد!! ويزيد رجل فاسق، لقد قلت شططاً من القول وزللاً، ولا ألومك؛ فإنّك اللعين الذي لعنك رسول الله وأنت في صلب أبيك الحكم بن العاص، ومن لعنه رسول الله فلا ينكر منه أن يدعو لبيعة يزيد، إليك عنّي يا عدوّ الله، فإنّا أهل بيت رسول الله الحقّ فينا ينطق على ألسنتنا، وقد سمعت جدّي رسول الله يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا به ما أُمروا فابتلاهم بابنه يزيد**».[1]

خروجه من مكّة ومكاتبة أهل الكوفة له:

ثمّ إنّ الحسين غادر المدينة إلى مكّة، ولمّا بلغ أهل الكوفة هلاك معاوية اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد فاتّفقوا أن يكتبوا إلى الحسين رسائل وينفذوا رسلاً طالبين منه القدوم إليهم في الكوفة؛ لأنّ القوم قد بايعوه ونبذوا بيعة الأمويّين، وألحّوا في ذلك الأمر أيّما إلحاح، مبيّنين للإمام عليه السلام أنّ السبل ميسّرة والظروف مهيّأة لقدومه، حيث كتب له وجهاؤهم من جملة ما كتبوه:

«أمّا بعد؛ فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار، فإذا شئت فأقبل على جند لك مجنّدة».

---

١. مقتل الحسين للخوارزمي: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

ولما جاءت رسائل أهل الكوفة تترى على الحسين عليه السلام أرسل ابن عمّه مسلم بن عقيل ـ رضوان الله عليه ـ إلى الكوفة ممثّلاً عنه لأخذ البيعة له منهم، وللتحقّق من جدّية هذا الأمر، ثمّ كتب إليهم: «**أمّا بعد؛ فإنّ هانئاً وسعيداً قدما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم أنّه ليس علينا إمام فاقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ والهدى، وإنّي باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، فإن كتب إليَّ: أنّه قد اجتمع رأي ملَئِكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم، وقرأته في كتبكم، فإنّي أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله**».[1]

ثمّ خرج الإمام من مكة متوجّهاً إلى الكوفة يوم التروية أو يوماً قبله مع أهل بيته وجماعة من أصحابه وشيعته، وكان كتاب من مسلم بن عقيل قد وصل إليه يخبره ببيعة ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة، وذلك قبل أن تنقلب الأُمور على مجاريها بشكل لا تصدّقه العقول، حيث استطاع عبيد الله بن زياد بخبثه ودهائه، وإفراطه في القتل، أن يثبّط همم أهل الكوفة، وأن تنكث بيعة الإمام الحسين عليه السلام، ويقتل سفيره بشكل وحشيّ بشع.

ولمّا أخذ الإمام عليه السلام يقترب من الكوفة استقبله الحرّ بن يزيد الرياحي بألف فارس مبعوثاً من الوالي عبيد الله بن زياد لاستقدامه وإكراهه على إعطاء البيعة ليزيد، وإرساله قهراً إلى الكوفة، فعند ذلك قام الإمام وخطب بأصحابه

---

١. الإرشاد: ٢٠٤.

وأصحاب الحرّ بقوله: «**أيّها الناس إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلّاً حرم الله ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غَيَّر**».[1]

الدافع الواقعي للهجرة إلى العراق:

رغم انّ الدافع الظاهري لهجرته عليه السلام إلى العراق كانت رسائل أهل الكوفة ورسلهم حتّى أنّ الإمام احتجّ بها عندما واجه الحرّ بن يزيد الرياحي وعمر بن سعد عندما سألاه عن سرّ مجيئه إلى العراق فقال: «**كتب إليَّ أهل مصركم هذا أن أقدم**»[2]. إلّا أنّ السرّ الحقيقي لهجرته عليه السلام رغم إدراكه الواضح لما سيترتّب عليها من نتائج خطرة ستودي بحياته الشريفة ـ وهو ما وطّن نفسه عليه السلام عليه ـ يمكن إدراكه من خلال الاستقراء الشامل لمسيرة حياته، وكيفية تعامله مع مجريات الأحداث.

إنّ الأمر الذي لا مناص من الذهاب إليه هو إدراك الإمام عليه السلام ما ينتجه الإذعان والتسليم لتولّي يزيد بن معاوية خلافة المسلمين رغم ما عُرف عنه من تهتّك ومجون وانحراف واضح عن أبسط المعايير الإسلامية، وفي هذا مؤشّر

---

١. تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٤، حوادث سنة ٦١هـ، ولمعرفة ما جرى على الإمام وأهل بيته حتّى نزل أرض كربلاء راجع المقاتل.

٢. الإرشاد: ٢٢٤ ـ ٢٢٨.

خطر علىٰ عظم الانحراف الذي أصاب مفهوم الخلافة الإسلامية، وابتعادها الرهيب عن مضمونها الشرعي.

ومن هنا فكان لابدّ من وقفة شجاعة تعيد للأُمّة جانباً من رشدها المضاع وتفكيرها المسلوب. إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أعلنها صراحة بقوله لمّا طالبه مروان بن الحكم بالبيعة ليزيد، حيث قال: «**فعلى الإسلام السلام إذا بليت الأُمّة براع مثل يزيد**» كما عرفت سابقاً.

نعم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**صنفان من أُمّتي إذا صلحا صلحت أُمّتي، وإذا فسدا فسدت أُمّتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ فقال: الفقهاء والأُمراء**».[1] فإذا كان صلاح الأُمّة وفسادها رهن صلاح الخلافة وفسادها، فقيادة مثل يزيد لا تزيد الأمر إلّا عيثاً وفساداً.

إنّ القيادة الإسلامية بين التنصيص والشورى، ولم يملك يزيد السلطة لا بتنصيص من الله سبحانه ولا بشورى من الأُمّة، وهذا ما أدركه المسلمون آنذاك حيث كتبوا إلى الحسين عليه السلام رسالة جاء فيها: أمّا بعد فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد الذي انتزى على هذه الأُمّة فابتزّها أمرها وغصبها فيئها وتأمّر عليها بغير رضى منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها.[2]

ولم يكن الولد (يزيد) فريداً في غصب حقّ الأُمّة، بل سبقه والده معاوية إلى ذلك كما هو معروف، وليس بخاف على أحد، وإلى تلك الحقيقة المرّة يشير الإمام عليّ عليه السلام في كتاب له إلى معاوية، حيث يقول:

---

١. سفينة البحار: ٢/ ٣٠ مادة أمر.

٢. الكامل: ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ الإرشاد: ٢٠٣.

«فقد آن لك أن تنتفع باللمح الباصر من عيان الأُمور، فقد سلكت مدارج أسلافك بادّعائك الأباطيل واقتحامك غرور المين والأكاذيب، وبانتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اختزن دونك فراراً من الحقّ وجحوداً لما هو ألزم لك من لحمك ودمك ممّا قد وعاه سمعك، وملئ به صدرك، فماذا بعد الحق إلّا الضلال المبين».[1]

هذا ونظائره المذكورة في التاريخ ما دفع الحسين إلى الثورة، وتقديم نفسه وأهل بيته قرابين طاهرة من أجل نصرة هذا الدين العظيم، مع علمه بأنّه وفقاً لما تحت يديه من الإمكانات المادّية لن يستطيع أن يواجه دولة كبيرة تمتلك القدرات المادّية الضخمة ما يمكنها من القضاء على أيّ ثورة فتيّة، نعم إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يدرك قطعاً هذه الحقيقة، إلّا أنّه أراد أن يسقي بدمائه الطاهرة المقدّسة شجرة الإسلام الوارفة التي يريد الأُمويّون اقتلاعها من جذورها.

كما أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يكسر حاجز الخوف الذي أصاب الأُمّة فجعلها حائرة متردّدة أمام طغيان الجبابرة وحكّام الجور، وأن تصبح ثورته مدرسة تتعلّم منها الأجيال معنى البطولة والتضحية من أجل المبادئ والعقائد، وكان كلّ ذلك بعد استشهاد الإمام عليه السلام، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

كان المعروف منذ ولادة الإمام الحسين عليه السلام أنّه سيستشهد في العراق في أرض كربلاء وعرف المسلمون ذلك في عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ووصيّه، لذا كان

---

١. نهج البلاغة، الكتاب رقم ٦٥.

الناس يترقّبون حدوث تلك الفاجعة، كما أنّ هناك الكثير من القرائن التي تدلّ بوضوح على حتميّة استشهاده عليه السلام، ومن ذلك:

١ ـ روى غير واحد من المحدّثين عن أنس بن الحارث الذي استشهد في كربلاء أنّه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ ابني هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك منكم فلينصره**» فخرج أنس بن الحارث فقتل بها مع الحسين عليه السلام.[١]

٢ ـ إنّ أهل الخبرة والسياسة في عصر الإمام كانوا متّفقين على أنّ الخروج إلى العراق يكون خطراً كبيراً على حياة الإمام عليه السلام وأهل بيته، ولأجل ذلك أخلصوا له النصيحة، وأصرّوا عليه عدم الخروج، ويتمثّل ذلك في كلام أخيه محمّد بن الحنفيّة، وابن عمّه ابن عبّاس، ونساء بني عبدالمطّلب، ومع ذلك اعتذر لهم الإمام وأفصح عن عزمه على الخروج.[٢]

٣ ـ لمّا عزم الإمام المسير إلى العراق خطب وقال: «**الحمد لله وما شاء الله ولا قوّة إلّا بالله وصلّى الله على رسوله، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا أُلاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء فيملأن منّي أكراشاً جُوَّفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على**

---

١. الإصابة: ١/ ٨١ برقم ٢٦٦.

٢. لاحظ المحاورات التي جرت بين الإمام وهؤلاء في الإرشاد: ٢٠١ ـ ٢٠٢، مقاتل الطالبيين: ١٠٩، اللهوف: ٢٠ ط بغداد.

بلائه، ويوفينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تَقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا؛ فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى».(١)

٤ ـ لمّا بلغ عبد الله بن عمر ما عزم عليه الحسين عليه السلام دخل عليه فلامه في المسير، ولما رآه مصرّاً عليه قبّل ما بين عينيه وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.(٢)

٥ ـ لمّا خرج الحسين عليه السلام من مكّة لقيه الفرزدق الشاعر فقال له: إلى أين يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ما أعجلك عن الموسم؟ قال: «**لو لم أعجل لأُخذْتُ، ثمّ قال له: أخبرني عن الناس خلفك**» فقال: الخبير سألت، قلوب الناس معك، وأسيافهم عليك.(٣)

٦ ـ لما أتى إلى الحسين خبر قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، قال لأصحابه: «**لقد خذلنا شيعتنا، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرجٍ ليس عليه ذمام**» فتفرّق الناس عنه، وأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ونفر يسير ممّن انضمّوا إليه. ومع ذلك فقد واصل عليه السلام مسيره نحو الكوفة، ولما مرّ ببطن العقبة لقيه شيخ من بني عكرمة يقال له: عمر بن لوذان، فسأل الإمام: أين تريد؟ فقال له الحسين عليه السلام: «**الكوفة**» فقال الشيخ: أُنشدك لمّا انصرفت، فوالله ما تقدِمُ إلّا على

---

١. اللهوف: ٤١.
٢. تذكرة الخواصّ: ٢١٧ ـ ٢١٨.
٣. الإرشاد: ٢١٨.

الأسنّة وحدّ السيوف، فقال له الحسين: «**ليس يخفى عليّ الرأي، وأنّ الله تعالى لا يُغلب على أمره**».[۱]

في نفس النصّ دلالة على أنّ الإمام كان يدرك ما كان يتخوّفه غيره، و أنّ مصيره لو سار إلى الكوفة هو القتل، ومع ذلك أكمل السير طلباً للشهادة من أجل نصرة الدين وردّ كيد أعدائه، وحتى لا تبقى لأحد حجة يتذرّع بها لتبرير تخاذله وضعفه.

نعم لقد كان الحسين عليه السلام على بيّنة من أمره وما سيؤول إليه سفره من مصير محتوم، فلا شيء يقف أمام إرادته من أجل إعلاء كلمة الدين وتثبيت دعائمه التي أراد الأُمويّون تقويضها، انظر إليه وهو يخاطب الحرّ بن يزيد الرياحي الذي يحذّره من مغبّة إصراره على موقفه حيث يقول له: «**أفبالموت تخوّفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه وهو يريد نصرة رسول الله فخوّفه ابن عمّه وقال: أين تذهب فإنّك مقتول، فقال:**

سأمضي وما بالموت عار علىٰ الفتىٰ إذا مـا نـوىٰ حـقّاً وجـاهد مسـلما

وواسـىٰ الرجـال الصـالحين بـنفسه وفـــارق مــثبوراً وخــالف مــجرما

فإن عشت لم أنـدَم وإن مِتُّ لم أُلمْ كفىٰ بك ذلّاً أن تعيش وترغما».[۲]

ثمّ إنّه كان لشهادة الحسين عليه السلام أثر كبير في إيقاظ شعور الأُمّة وتشجيعها

---

۱. الإرشاد: ۲۲۳.

۲. الإرشاد: ۲۲۵؛ تاريخ الطبري: ۵/ ۲۰۴.

على الثورة ضدّ الحكومة الأُموية التي أصبحت رمزاً للفساد والانحراف عن الدين، ولأجل ذلك توالت الثورات بعد شهادته من قبل المسلمين في العراق والحجاز، وهذه الانتفاضات وإن لم تحقّق هدفها في وقتها، ولكن كان لها الدور الأساسي في سقوط الحكومة الأُمويّة بعد زمان.

ولقد أجاد من قال: لولا نهضة الحسين عليه السلام وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ يوم الطفّ لما قام للإسلام عمود، ولا اخضرّ له عود، ولأماته معاوية وأتباعه ولدفنوه في أوّل عهده في لحده. فالمسلمون جميعاً بل الإسلام من ساعة قيامه إلى قيام الساعة رهين شكر للحسين عليه السلام وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ[1]

بلىٰ، فلا مغالاة في قول من قال: إنّ الإسلام محمّديّ الحدوث حسينيّ البقاء والخلود.

ترىٰ أنّى للإمام الحسين عليه السلام الإذعان لحقيقة تسلّم يزيد مقاليد خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، يزيد المنحرف الفاسد، عدوّ الله وعدوّ رسوله، الذي لم يستطع إخفاء دفائنه عندما أُحضر رأس سيد الشهداء بين يديه حيث أنشد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا يا يزيد لا تشلّ

قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلنا قتل بدر فاعتدل

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

---

١. جنّة المأوى: ٢٠٨ للشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء.

لعــبت هــاشم بــالملك فــلا خـبر جـاء ولا وحـي نـزل[١]

وأمّا بيان خروجه من مكة متوجّهاً إلى العراق والحوادث التي عرضت له في مسيره إلى أن نزل بأرض كربلاء، والتي استشهد فيها مع أولاده وأصحابه البالغ عددهم ٧٢ شخصاً، ظمآنَ وعطشانَ، فهو خارج عن موضوع البحث. وقد أُلّفت فيه مئات الكتب وعشرات الموسوعات.

شهادته عليه السلام

لقد استشهد يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة ٦١ من الهجرة، وقيل يوم السبت، وكان قد أدرك من حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله خمس أو ستّ سنوات، وعاش مع أبيه ٣٦ سنة، ومع أخيه ٤٦ سنة.

فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً.

١. البيتان الأوّلان لابن الزبعرى، والثلاثة الأخيرة ليزيد، لاحظ تذكرة الخواص: ٢٣٥.

الإمام الرابع:

عليّ بن الحسين بن عليّ زين العابدين عليه السلام

هو رابع أئمّة أهل البيت الطاهر، المشهور بزين العـابدين أو سـيّدهم، والسـجّاد، وذي الثفنات.

ولادته و جوانب من سيرته عليه السلام

ولد في المدينة سنة ٣٨ أو ٣٧هـ.

قال ابن خلّكان: هو أحد الأئمّة الاثني عشر ومن سادات التابعين. قال الزهري: ما رأيت قرشيّاً أفضل منه. وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصى وتذكر، ولمّا توفّي دفن في البقيع في جنب عمّه الحسن في القبّة التي فيها قبر العباس ـ رضي الله عنه ـ.[1]

ولقد تولّى الإمامة بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام في كربلاء، وللاطّلاع على النصوص الواردة في إمامته ينبغي الرجوع إلى كتب الحديث والعقائد المتكفّلة بهذا الجانب المهم، وأخصّ منها بالذكر كتاب «الكافي» للكليني، و«الإرشاد» للشيخ المفيد، و «كـفاية الأثـر» للـخزّاز، و «إثبات الهداة» للحرّ العاملي.

---

١. وفيات الأعيان: ٣/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

ومن أراد الاطّلاع على مناقبه وكراماته وفضائله في مجالات شتّى كالعلم، والحلم، والجرأة والإقدام، وثبات الجنان، وشدة الكرم والسخاء، والورع، والزهد، والتقوى، وكثرة التهجّد والتنفّل، والفصاحة والبلاغة، وشدّة هيبته بين الناس ومحبّتهم له، وتربيته لجيل عظيم من الصحابة والعلماء وقّفوا حياتهم في خدمة الإسلام، وغير ذلك ممّا لا يسعنا التعرّض لها هنا، فعليه بطلب ذلك في الموسوعات المتعدّدة التي تعرّضت لذلك بالشرح والتفصيل.

إلّا أنّا نكتفي هنا بجانب من سيرته عليه السلام تتعلّق بجملة محدّدة من الأُمور:

١ ـ هيبته ومنزلته العظيمة:

لقد كان عليه السلام مهاباً جليلاً بين الناس بشكل كبير، حتّى أنّ هذه المنزلة العظيمة جعلت الأُمراء والحكّام يحسدونه عليها، والتاريخ يذكر لنا على ذلك شواهد كثيرة ومتعدّدة، ومن ذلك:

لمّا حجّ هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة اجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يمكنه ذلك، وجاء عليّ بن الحسين عليهما السلام فتوقّف له الناس، وتنحّوا حتّى استلم، فقال جماعة لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه (مع أنّه كان يعرفه أنّه عليّ بن الحسين عليه السلام) فسمعه الفرزدق، فقال: لكنّي أعرفه، هذا عليّ بن الحسين زين العابدين، وأنشد هشاماً قصيدته التي منها هذه الأبيات:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ

هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

يكـاد يـمسكه عـرفان راحـته ركن الحطيم إذا ما جـاء يسـتلمُ
يُغضي حياء ويُغضى من مهابته فـما يكـلّم إلّا حـين يـبتسمُ
إذا رأتـه قـريش قـال قـائلها إلىٰ مكـارم هـذا يـنتهي الكـرمُ
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئـمّتهم أو قيل مـن خـير أهـل الأرض
قـيل هـمُ هذا ابن فاطمة إن كنت جـاهله
بـجدّه أنـبياء الله قـد خُـتموا وليس قـولك مـن هـذا بـضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجمُ

إلىٰآخر القصيدة التيحفظتها الأُمّة وشطّرها جماعة من الشعراء. وقدثقل ذلك علىهشام فأمر بحبسه، فحبسوه بين مكّة والمدينة، فقال معترضاً على عمل هشام:

أيـحبسني بـين المـدينة والتـي إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلّب رأساً لم يكـن رأس سـيّدٍ وعـيناً له حـولاء بـادٍ عـيوبها

فأخرجه من الحبس فوجّه إليه علي بن الحسين عليهما السلام عشرة آلاف درهم وقال: «**اعذرنا يا أبا فراس، فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به**» فردّها الفرزدق وقال: ما قلت ما كان إلّا لله، فقال له علي عليه السلام: «**قد رأى الله مكانك فشكرك، ولكنّا أهل بيت إذا أنفذنا شيئاً لم نرجع فيه**» وأقسم عليه فقبلها.

٢ـ زهده وعبادته ومواساته للفقراء:

أمّا زهده وعبادته ومواساته للفقراء، وخوفه من الله فغني عن البيان.

فقد روي عنه عليه السلام أنّه إذا توضّأ اصفرّ لونه، فيقال: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ قال: «**أتدرون بين يَدي من أُريد أن أقف**».

من كلماته عليه السلام: «**إنّ قوماً عبدوا الله رياضة؛ فتلك عبادة العبيد، وأنّ قوماً عبدوه رغبة؛ فتلك عبادة التجّار، وأنّ قوماً عبدوه شكراً؛ فتلك عبادة الأحرار**».

وكان إذا أتاه سائل يقول له: «**مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة**».

كان عليه السلام كثير الصدقات حريصاً عليها، و كان يوصل صدقاته ليلاً دون أن يعلم به أحد، وقد روي أنّه عليه السلام كان يعول مائة عائلة من أهالي المدينة لا يدرون من يأتيهم بالصدقات، ولما توفّي عليه السلام أدركوا ذلك.

وفي رواية: أنّه عليه السلام كان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدّق به ويقول: «**صدقة السر تطفئ غضب الربّ**».

وفي رواية كان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتّى مات عليّ بن الحسين عليه السلام.[1]

وقال رجل لسعيد بن المسيّب: ما رأيت رجلاً أورع من فلان ـ وسمّى رجلاً ـ فقال له سعيد: أما رأيت عليّ بن الحسين؟ فقال: لا، فقال: ما رأيت أورع منه.

قال أبو حازم: ما رأيت هاشمياً أفضل من عليّ بن الحسين.

قال طاووس: رأيت عليّ بن الحسين عليهما السلام ساجداً في الحجر فقلت: رجل

---

١. تذكرة الخواصّ: ٢٩٤.

صالح من أهل بيت طيّب لأسمعنّ ما يقول، فأصغيت إليه فسمعته يقول: «**عُبيدُك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك**» قال طاووس: فوالله ما دعوت بهنّ في كرب إلّا كشف عنّي.

وكان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، فإذا أصبح سقط مغشيّاً عليه، وكانت الريح تميله كالسنبلة، وكان يوماً خارجاً فلقيه رجل فسبّه، فثارت إليه العبيد والموالي، فقال لهم علي عليه السلام: «**مهلاً كفّوا**» ثمّ أقبل على ذلك الرجل فقال له: «**ما سُترَ عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟**» فاستحيا الرجل فألقى إليه عليه السلام خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان ذلك الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنّك من أولاد الرسل.[1]

ثروته عليه السلام العلمية

أمّا الثروة العلمية والعرفانية، فهي أدعيته التي رواها المحدّثون بأسانيدهم المتضافرة، والتي جمعت بما سمّي بالصحيفة السجّادية المنتشرة في العالم، فهي زبور آل محمد، ومن الخسارة الفادحة أنّ إخواننا أهل السنّة ـ إلّا النادر القليل منهم ـ غير واقفين على هذا الأثر القيّم الخالد.

نعم، إنَّ فصاحة ألفاظها، وبلاغة معانيها، وعلوّ مضامينها، وما فيها من أنواع التذلّل لله تعالى والثناء عليه، والأساليب العجيبة في طلب عفوه وكرمه والتوسّل إليه، أقوى شاهد على صحّة نسبتها إليه، وإنّ هذا الدرّ من ذلك البحر، وهذا الجوهر من ذلك المعدن، وهذا الثمر من ذلك الشجر، مضافاً إلى

---

١. كشف الغمّة: ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

اشتهارها شهرة لا تقبل الريب، وتعدّد أسانيدها المتّصلة إلى منشئها، فقد رواها الثقات بأسانيدهم المتعدّدة المتّصلة، إلى زين العابدين.[١]

وقد أرسل أحد الأعلام نسخة من الصحيفة مع رسالة إلى العلّامة الشيخ الجوهري الطنطاوي (المتوفّى عام ١٣٥٨هـ) صاحب التفسير المعروف، فكتب في جواب رسالته: «ومن الشقاء أنّا إلى الآن لم نقف على هذا الأثر القيّم الخالد في مواريث النبوّة وأهل البيت، وإنّي كلّما تأمّلتها رأيتها فوق كلام المخلوق، ودون كلام الخالق».[٢]

وكان المعروف بين الشيعة هو الصحيفة الأُولى التي‌تتضمّن واحداً وستّين دعاء في فنون الخير وأنواع السؤال من الله سبحانه، والتي تعلّم الإنسان كيف يلجأ إلى ربّه في الشدائد والمهمّات، وكيف يطلب منه حوائجه، وكيف يتذلّل ويتضرّع له، وكيف يحمده ويشكره. غير أنّ لفيفاً من العلماء استدركوا عليها فجمعوا من شوارد أدعيته صحائف خمسة كان آخرها ما جمعه العلّامة السيد محسن الأمين العاملي قدس سره.

ولقد قام العلّامة الحجة السيّد محمد باقر الأبطحي ـ دام ظلّه ـ بجمع جميع أدعية الإمام الموجودة في هذه الصحف في جامع واحد، وقال في مقدّمته:

وحريّ بنا القول إنّ أدعيته عليه السلام كانت ذات وجهين: وجهاً عبادياً، وآخر اجتماعياً يتّسق مع مسار الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام عليه السلام في ذلك الظرف

١. في رحاب أئمّة أهل البيت: ٣/ ٤١٤.
٢. مقدّمة الصحيفة بقلم العلّامة المرعشي قدس سره: ٢٨.

الصعب. فاستطاع بقدرته الفائقة المسدّدة أن يمنح أدعيته ـ إلى جانب روحها التعبّدية ـ محتوىً اجتماعياً متعدّد الجوانب، بما حملته من مفاهيم خصبة، وأفكار نابضة بالحياة، فهو عليه السلام صاحب مدرسة إلٰهيّة، تارة يعلّم المؤمن كيف يمجّد الله ويقدّسه، وكيف يلج باب التوبة، وكيف يناجيه وينقطع إليه، وأُخرى يسلك به درب التعامل السليم مع المجتمع فيعلّمه أُسلوب البرّ بالوالدين، ويشرح حقوق الوالد، والولد، والأهل، والأصدقاء، والجيران، ثمّ يبيّن فاضل الأعمال وما يجب أن يلتزم به المسلم في سلوكه الاجتماعي، كلّ ذلك بأُسلوب تعليميّ رائع وبليغ.

وصفوة القول: إنّها كانت أُسلوباً مبتكراً في إيصال الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية الأصيلة إلى القلوب الظمأى، والأفئدة التي تهوى إليها لترتزق من ثمراتها، وتنهل من معينها، فكانت بحقّ عملية تربوية نموذجية من الطراز الأوّل، أسّس بناءها الإمام السجاد عليه السلام مستلهماً جوانبها من سير الأنبياء وسنن المرسلين.[1]

ومن أدعيته عليه السلام في هذه الصحيفة دعاؤه في يوم عرفة، ومنه:

«اللّٰهمَّ هذا يوم عرفةَ، يومٌ شرَّفتهُ وكرَّمتهُ وعظَّمتهُ، نَشَرتَ فيهِ رحمتَكَ، وَمَننتَ فيهِ بعفوك، وأجزلتَ فيهِ عطيتكَ، وتفضَّلتَ بهِ على عبادِك.

اللّٰهمَّ وأنا عبدك الذي أنعمتَ عليهِ قَبلَ خَلقِكَ لهُ، وبعدَ خَلقِكَ إيّاهُ، فَجَعَلتَهُ مِمَّن هَديتَهُ لدينِكَ، وَوفَّقتَهُ لِحقّك، وعصمتهُ بِحَبلِكَ، وأدْخَلتَهُ في حِزبِكَ، وأَرْشَدتَهُ لموالاةِ أوليائِكَ ومعاداةِ أعدائِكَ».

---

١. الصحيفة السجّادية الجامعة: ١٣.

رسالة الحقوق:

إنّ للإمام عليّ بن الحسين رسالة معروفة باسم رسالة الحقوق، أوردها الصدوق في خصاله[١] بسند معتبر، ورواها الحسن بن شعبة في تحف العقول[٢] مرسلة، وبين النقلين اختلاف يسير.

وهي من جلائل الرسائل في أنواع الحقوق، يذكر الإمام فيها حقوق الله سبحانه على الإنسان، وحقوق نفسه عليه، وحقوق أعضائه من اللسان والسمع والبصر والرجلين واليدين والبطن والفرج، ثمّ يذكر حقوق الأفعال، من الصلاة والصوم والحجّ والصدقة والهدي... التي تبلغ خمسين حقّاً، آخرها حقّ الذمّة.

كما روى الحفّاظ وتلاميذ مدرسته أحاديث وحكماً مختلفة جليلة حوَتها بطون الكتب المختلفة، جمع الكثير منها العلّامة المجلسي في موسوعته الموسومة ببحار الأنوار من مختلف المصادر، فراجع.

شهادته عليه السلام

توفّي بالمدينة عام ٩٥ أو ٩٤هـ، يوم السبت الثاني عشر من محرّم. وقيل الخامس والعشرين منه.

---

١. الخصال: ٥٦٤ـ ٥٧٠ في أبواب الخمسين.
٢. تحف العقول: ١٨٣ ـ ١٩٥.

الإمام الخامس:

أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام

هو خامس أئمّة أهل البيت الطاهر، المعروف بالباقر، وقد اشتهر به لبقره العلم وتفجيره له. قال ابن منظور في «لسان العرب»: لقّب به؛ لأنّه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه وتوسّع فيه.(١)

أقوال العلماء فيه عليه السلام

وقال ابن حجر: سمّي بذلك لأنّه من بقر الأرض؛ أي شقّها، وإثارة مخبّآتها، ومكامنها، فكذلك هو أظهر من مخبّآتها كنوز المعارف وحقائق الأحكام، والحكم واللطائف ما لا يخفى إلّا على منطمس البصيرة أو فاسد الطويّة والسريرة، ومن ثمّ قيل فيه هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه.(٢)

وقال ابن كثير: أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وسمّي بالباقر لبقره العلوم، واستنباطه الحكم، كان ذاكراً خاشعاً صابراً، وكان من سلالة النبوّة، رفيع النسب، عالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عن الجدال والخصومات.(٣)

---

١. لسان العرب: ٤/ ٧٤.
٢. الصواعق المحرقة: ٢٠١.
٣. البداية والنهاية: ٩/ ٣٠٩.

وقال ابن خلّكان: أبو جعفر محمّد بن زين العابدين، الملقّب بالباقر، أحد الأئمّة الاثني عشر في اعتقاد الإماميّة، وهو والد جعفر الصادق. كان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنّما قيل له الباقر؛ لأنّه تَبقَّر في العلم؛ أي توسّع، وفيه يقول الشاعر:

يـا بـاقر العـلم لأهـل التُّـقى وخير من لبّى على الأجبُلِ[1]

ولد بالمدينة غرّة رجب سنة ٥٧هـ وقيل ٥٦هـ، وتوفّي في السابع من ذي الحجّة سنة ١١٤هـ، وعمره الشريف ٥٧ سنة. عاش مع جدّه الحسين عليه السلام ٤ سنين، ومع أبيه عليه السلام بعد جدّه عليه السلام ٣٩ سنة، وكانت مدة إمامته عليه السلام ١٨ سنة.[2]

وأمّا النصوص الدالّة على إمامته من أبيه وأجداده والتي ذكرها المحدّثون والمحقّقون من علمائنا الأعلام فهي مستفيضة نقلها الكليني ـ رضي الله عنه ـ وغيره.

وقال ابن سعد: محمّد الباقر من الطبقة الثالثة من التابعين من المدينة، كان عالماً عابداً ثقة، وروى عنه الأئمّة أبو حنيفة وغيره.

قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: لقيت محمّد بن علي الباقر؟ فقال: نعم وسألته يوماً فقلت له: أراد الله المعاصي؟ فقال: «**أفيعصى قهراً**»؟ قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفحم منه.

وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر،

---

١. وفيات الأعيان: ٤/ ١٧٤.

٢. إعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

لقد رأيت الحكم عنده كأنّه مغلوب، ويعني الحكم بن عيينة، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه.

وذكر المدائني عن جابر بن عبد الله: أنّه أتى أبا جعفر محمّد بن علي إلى الكتّاب وهو صغير فقال له: رسول الله صلى الله عليه وآله يسلّم عليك، فقيل لجابر: وكيف هذا؟ فقال: كنت جالساً عند رسول الله والحسين في حجره وهو يداعبه فقال: «**يا جابر يولد مولود اسمه عليّ إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقم سيّد العابدين فيقوم ولده، ثمّ يولد له ولد، اسمه محمّد، فإن أدركته يا جابر فاقرأه منّي السلام**».

وذكر ابن الصبّاغ المالكي بعد نقل القصّة: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لجابر: «**وإن لاقيته فاعلم أنّ بقاءك في الدنيا قليل**» فلم يعش جابر بعد ذلك إلّا ثلاثة أيّام. ثمّ قال: هذه منقبة من مناقبه باقية على ممر الأيّام، وفضيلة شهد له بها الخاصّ والعام.[١]

وقال المفيد: لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام في علم الدين والآثار والسنّة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآداب ما ظهر من أبي جعفر الباقر عليه السلام.[٢]

وروى عنه معالم الدين بقيّة الصحابة ووجوه التابعين وفقهاء المسلمين، وسارت بذكر كلامه الأخبار وأُنشدت في مدائحه الأشعار....[٣]

---

١. تذكرة الخواص: ٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ الفصول المهمّة: ٢١٥ ـ ٢١٦.

٢. الإرشاد: ٢٦٢.

٣. الفصول المهمّة: ٢١٠ نقله عن إرشاد الشيخ المفيد: ٢٦١، فلاحظ.

قال ابن حجر: صفا قلبه، وزكا علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلّ عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة.[١]

مناظراته

وأمّا مناظراته مع المخالفين فحدّث عنها ولا حرج، وقد جمعها العلّامة الطبرسي في كتاب «الاحتجاج»[٢].

قال الشيخ المفيد في «الإرشاد»: وجاءت الأخبار: أنّ نافع بن الأزرق[٣] جاء إلى محمّد بن عليّ، فجلس بين يديه يسأله عن مسائل الحلال والحرام. فقال له أبو جعفر في عرض كلامه: «**قل لهذه المارقة، بم استحللتم فراق أمير المؤمنين، وقد سفكتم دماءكم بين يديه في طاعته والقربة إلى الله بنصرته؟ فسيقولون لك: إنّه حكَّم في دين الله، فقل لهم: قد حكَّم الله تعالى في شريعة نبيّه ﷺ رجلين من خلقه فقال: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يُريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما﴾، وحكَّم رسول الله ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم فيهم بما أمضاه الله، أوما علمتم أنَّ أمير المؤمنين إنَّما أمر الحكمين أن يحكما بالقرآن ولا يتعدّياه، واشترط ردّ ما خالف القرآن في أحكام الرجال،**

---

١. الصواعق المحرقة: ٣٠١.

٢. الاحتجاج: ٢/ ٥٤ـ ٦٩.

٣. الإرشاد: ٢٦٥، ولعلّ المناظر هو عبد الله بن نافع بن الأزرق؛ لأنّ نافعاً قتل عام ٦٥ من الهجرة وللإمام عندئذ من العمر دون العشرة، وقد نقل ابن شهر آشوب بعض مناظرات الإمام مع عبد الله بن نافع فلاحظ: ٤/ ٢٠١.

وقال حين قالوا له: حكّمت على نفسك من حكم عليك؟ فقال: ما حكّمت مخلوقاً وإنّما حكّمت كتاب الله. فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن، واشترط ردّ ما خالفه لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان»؟ فقال نافع بن الأزرق: هذا والله كلام ما مرّ بسمعي قط، ولا خطر منّي ببال، وهو الحقّ إن شاء الله.

ثمّ إنّ الشيعة الإمامية أخذت كثيراً من الأحكام الشرعية عنه وعن ولده البارّ جعفر الصادق عليه السلام وحسب الترتيب المتداول في الكتب الفقهيّة، حيث روي عنه عليه السلام الكثير من الروايات الفقهيّة التي تناولت مختلف جوانب الحياة، وللاطلاع على ذلك تراجع كتب الفقه وموسوعاته المختلفة.

وأمّا ما روي عنه في الحِكَم والمواعظ، فقد نقلها أبو نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء»، والحسن بن شعبة الحرّاني في تحفه.[1]

وقد توفّي الإمام محمّد الباقر عليه السلام عام ١١٤هـ، ودفن في البقيع إلىٰ جنب قبر أبيه، ومن أراد البحث عن فصول حياته في شتّى المجالات فليراجع الموسوعات التي تحفل بها المكتبات العامّة والخاصّة.

---

١. حلية الأولياء: ٣/ ١٨٠ ـ ٢٣٥، وفي بعض ما نقل عنه تأمّل؛ ونظر تحف العقول: ٢٨٤ ـ ٣٠٠.

الإمام السادس:

أبو عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام

هو الإمام السادس من أئمّة أهل البيت الطاهر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ولقّب بالصادق لصدقه في مقاله، وفضله أشهر من أن يذكر.

ولادته وخصائصه عليه السلام

ولد عام ٨٠هـ، وتوفّي عام ١٤٨هـ، ودفن في البقيع جنب قبر أبيه محمّد الباقر وجدّه عليّ زين العابدين وعم جدّه الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فللّه درّه من قبر ما أكرمه وأشرفه![1].

قال محمّد بن طلحة: هو من عظماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمّة، وعبادة موفورة،وزهادة بيّنة، وتلاوة كثيرة، يتبع معاني القرآن الكريم، ويستخرج من بحره جواهره، ويستنتج عجائبه، ويقسّم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر الآخرة، واستماع كلامه يزهّد في الدنيا، والاقتداء بهداه يورث الجنّة، نور قسماته شاهد أنّه من سلالة النبوّة، وطهارة أفعاله تصدع أنّه من ذرّيّة الرسالة. نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأئمّة وأعلامهم، مثل: يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن

---

١. وفيات الأعيان: ١ / ٣٢٧رقم الترجمة ٣١.

جريج، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة، وأبي أيّوب السجستاني[١] وغيرهم، وعدّوا أخذهم عنه منقبة شرّفوا بها، وفضيلة اكتسبوها.[٢]

ذكر أبو القاسم البغّاء في مسند أبي حنيفة: قال الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة وقد سئل: من أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمّد، لمّا أقدمه المنصور بعث إليَّ فقال: يا أبا حنيفة إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمّد، فهيّئ لي من مسائلك الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، ثمّ بعث إليّ أبوجعفر وهو بالحيرة فأتيته، فدخلت عليه، وجعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به، دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه، فأومأ إليّ فجلست، ثمّ التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. قال: **نعم أعرفه**، ثمّ التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألقِ على أبيعبدالله من مسائلك، فجعلت أُلقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربّما تابعنا وربّما تابعهم، وربّما خالفنا جميعاً حتّى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخلّ منها بشيء. ثمّ قال أبو حنيفة: أليس أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.[٣]

عن مالك بن أنس: جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلّا على إحدى ثلاث خصال: إمّا مصلّ، وإمّا صائم، وإمّا يقرأ القرآن، وما رأت

---

١. في الأصل أيّوب السختياني والصحيح ما ذكرناه.

٢. كشف الغمّة: ٢/ ٣٦٧ـ ٣٦٨.

٣. بحار الأنوار: ٤٧/ ٢١٧ ـ ٢١٨؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٤/ ٣٣٥ نقلاً عن مناقب أبي حنيفة للمكّي: ١/ ١٧٣؛ جامع مسانيد أبي حنيفة: ١/ ٢٥٢؛ تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٥٧.

عين، ولا سمعت أُذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً.[١]

وعن عمرو بن بحر الجاحظ (مع عدائه لأهل البيت): جعفر بن محمّد الذي ملأ الدنيا علمه و فقهه، ويقال: إنّ أبا حنيفة من تلامذته، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب.[٢]

مناقبه عليه السلام

وأمّا مناقبه وصفاته فتكاد تفوق عدّ الحاصر، ويحار في أنواعها فهم اليقظ الباصر، حتّى أنّ من كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجال التقوى، صارت الأحكام التي لا تدرك عللها، والعلوم التي تقصر الأفهام عن الإحاطة بحكمها، تضاف إليه وتروى عنه[٣]

وقال ابن الصبّاغ المالكي: كان جعفر الصادق عليه السلام من بين إخوته خليفة أبيه، ووصيّه، والقائم بالإمامة من بعده، برز على جماعة بالفضل، وكان أنبههم ذكراً وأجلّهم قدراً، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته وذكره في البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقلوا عنه من الحديث.

إنّك إذا تتبّعت كتب التاريخ والتراجم والسير تقف على نظير هذه الكلمات وأشباهها، كلّها تعرب عن اتّفاق الأُمّة على إمامته في العلم والقيادة

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٥٣ نقلاً عن التهذيب: ٢ / ١٠٤ والمجالس السنيّة ج٥.
٢. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٥٥ نقلاً عن رسائل الجاحظ: ١٠٦.
٣. كشف الغمّة: ٢ / ٣٦٨.

الروحيّة، وإن اختلفوا في كونه إماماً منصوصاً من قبل الله عزّ وجلّ، فذهبت الشيعة إلى الثاني نظراً إلى النصوص المتواترة المذكورة في مظانّها.[١]

حياته العلميّة عليه السلام

ولقد امتدّ عصر الإمام الصادق عليه السلام من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقي، أي من سنة ٨٣هـ إلى سنة ١٤٨هـ. فقد أدرك طرفاً كبيراً من العصر الأُموي، وعاصر كثيراً من ملوكهم، وشاهد من حكمهم أعنف أشكاله، وقضى سنوات عمره الأُولى حتّى الحادية عشرة من عمره مع جدّه زين العابدين، وحتّى الثانية والثلاثين مع أبيه الباقر ونشأ في ظلّهما يتغذّى من تعاليمهما وتنمو مواهبه وتربّى تربيته الدينية، وتخرّج من تلك المدرسة الجامعة فاختصّ بعد وفاة أبيه بالزعامة سنة ١١٤هـ، واتسعت مدرسته بنشاط الحركة العلميّة في المدينة ومكّة والكوفة وغيرها من الأقطار الإسلامية.

وقد اتّسم العصر المذكور الذي عاشه الإمام بظهور الحركات الفكريّة، ووفود الآراء الاعتقادية الغريبة إلى المجتمع الإسلامي، وأهمها عنده هي حركة الغلاة الهدّامة، الذين تطلّعت رؤوسهم في تلك العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين، وترعرت بنات أفكارهم في ذلك العصر ليقوموا بمهمة الانتصار لمبادئهم التي قضى عليها الإسلام، فقد اغتنموا الفرصة في بثّ تلك الآراء الفاسدة في المجتمع الإسلامي، فكانوا يبثّون الأحاديث الكاذبة ويسندونها إلى حملة العلم من آل‌محمد، ليغروا بها العامّة، فكان المغيرة بن

---

١. لاحظ الكافي: ١/ ٣٠٦ـ ٣٠٧.

سعيد يدّعي الاتصال بأبي جعفر الباقر ويروي عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق عليه السلام كذبه والبراءة منه، وأعطى لأصحابه قاعدة في الأحاديث التي تروى عنه، فقال: «**لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنّة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة**».

ثمّ إنّ الإمام قام بهداية الأُمّة إلى النهج الصواب في عصر تضاربت فيه الآراء والأفكار، واشتعلت فيه نار الحرب بين الأُمويين ومعارضيهم من العباسيين، ففي تلك الظروف الصعبة والقاسية استغلّ الإمام الفرصة فنشر من أحاديث جدّه، وعلوم آبائه ما سارت به الركبان، وتربّى على يديه آلاف من المحدّثين والفقهاء. ولقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات ـ على اختلاف آرائهم ومقالاتهم ـ فكانوا أربعة آلاف رجل[1]. وهذه سمة امتاز بها الإمام الصادق عن غيره من الأئمّة ـ عليه و عليهم السلام ـ.

إنّ الإمام عليه السلام شرع بالرواية عن جدّه وآبائه عندما اندفع المسلمون إلى تدوين أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله بعد الغفلة التي استمرّت إلى عام ١٤٣هـ[2] حيث اختلط آنذاك الحديث الصحيح بالضعيف وتسرّبت إلى السنّة، العديد من الروايات الإسرائيلية والموضوعة من قبل أعداء الإسلام من الصليبيين والمجوس، بالإضافة إلى المختلقات والمجعولات على يد علماء السلطة ومرتزقة البلاط الأُموي.

ومن هنا فقد وجد الإمام عليه السلام أنّ أمر السنّة النبويّة قد بدأ يأخذ اتّجاهات

---

١. الإرشاد: ٢٧٠؛ المناقب لابن شهر آشوب: ٤ / ٢٥٧.

٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي ـ خلافة المنصور الدوانيقي، فقد حدّد تاريخ التدوين بسنة ١٤٣هـ.

خطيرة وانحرافات واضحة، فعمد عليه السلام للتصدّي لهذه الظاهرة الخطيرة، وتفنيد الآراء الدخيلة على الإسلام والتي تسرّب الكثير منها نتيجة الاحتكاك الفكري والعقائدي بين المسلمين وغيرهم.

إنّ تلك الفترة كوّنت تحدّياً خطيراً لوجود السنّة النبويّة، وخلطاً فاضحاً في كثير من المعتقدات، لذا فإنّ الإمام عليه السلام كان بحقّ سفينة النجاة من هذا المعترك العسر.

إنّ علوم أهل البيت عليهم السلام متوارثة عن جدّهم المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله، الذي أخذها عن الله تعالى بواسطة الأمين جبرئيل عليه السلام، فلا غرو أن تجد الأُمّة ضالّتها فيهم عليهم السلام، وتجد مرفأ الأمان في هذه اللجج العظيمة، ففي ذلك الوقت حيث أخذ كلّ يحدّث عن مجاهيل ونكرات ورموز ضعيفة ومطعونة، أو أسانيد مشوّشة، تجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث عليّ بن أبي طالب، وحديث عليّ حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ**».

بيد أنّ ما يثير العجب أن تجد من يعرض عن دوحة النبوّة إلى رجال قد كانوا وبالاً على الإسلام وأهله، وتلك وصمة عار وتقصير لا عذر فيه خصوصاً في صحيح البخاري.

فالإمام البخاري مثلاً يروي ويحتج بمثل مروان بن الحكم، وعمران بن حطّان وحريز بن عثمان الرحبي وغيرهم، ويعرض عن الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام!!

أمّا الأوّل: فهو الوزغ بن الوزغ، اللعين بن اللعين على لسان

رسول الله ﷺ، وأمّا الثاني: فهو الخارجي المعروف الذي أثنى على ابن ملجم بشعره لا بشعوره، وأمّا الثالث: فكان ينتقص عليّاً وينال منه، ولست أدري لِمَ هذا الأمر؟ إنّه مجرد تساؤل.

إنّ للإمام الصادق وراء ما نشر عنه من الأحاديث في الأحكام التي تتجاوز عشرات الآلاف، مناظرات مع الزنادقة والملحدين في عصره، والمتقشّفين من الصوفيّة، ضبط المحقّقون كثيراً منها، وهي في حد ذاتها ثروة علميّة تركها الإمام عليه السلام، وأمّا الرواية عنه في الأحكام فقد روى عنه أبان بن تغلب ثلاثين ألف حديث.

حتّى أنّ الحسن بن عليّ الوشّاء قال: أدركت في هذا المسجد (مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كلّ يقول حدّثني جعفر بن محمّد.[1]

وأمّا ما أُثر عنه من المعارف والعقائد فحدّث عنها ولا حرج، ولا يسعنا نقل حتى القليل منها، ومن أراد فليرجع إلى مظانّها.[2]

يقول «سيد أمير علي» بعد النقاش حول الفرق المذهبيّة والفلسفيّة في عصر الإمام:

«ولم تتخذ الآراء الدينيّة اتّجاهاً فلسفياً إلّا عند الفاطميّين، ذلك أنّ انتشار العلم في ذلك الحين أطلق روح البحث والاستقصاء، وأصبحت المناقشات الفلسفية عامّة في كلّ مجتمع من المجتمعات، والجدير بالذكر أنّ زعامة تلك الحركة الفكريّة إنّما وجدت في تلك المدرسة التي ازدهرت في المدينة، والتي

١. الرجال للنجاشي: ١٣٩ برقم ٧٩.
٢. الاحتجاج: ٢/ ٦٩ـ ١٥٥؛ التوحيد للصدوق، وقد بسطها على أبواب مختلفة.

أسّسها حفيد عليّ بن أبي طالب المسمّى بالإمام جعفر والملقّب بالصادق، وكان رجلاً بحّاثة ومفكّراً كبيراً جيد الإلمام بعلوم ذلك العصر، ويعتبر أوّل من أسّس المدارس الفلسفيّة الرئيسيّة في الإسلام.

ولم يكن يحضر محاضراته أُولئك الذين أسّسوا فيما بعد المذاهب الفقهيّة فحسب[١]، بل كان يحضرها الفلاسفة وطلّاب الفلسفة من الأنحاء القصيّة، وكان الإمام «الحسن البصري» مؤسس المدرسة الفلسفيّة في مدينة البصرة، وواصل بن عطاء مؤسّس مذهب المعتزلة من تلاميذه، الذين نهلوا من معين علمه الفيّاض، وقد عرف واصل والإمام العلوي بدعوتهما إلى حرية إرادة الانسان....[٢]

وأمّا حِكَمه وقصار كلمه، فلاحظ «تحف العقول»، وأمّا رسائله فكثيرة منها رسالته إلى النجاشي والي الأهواز، ومنها: رسالته في شرائع الدين نقلها الصدوق في الخصال، ومنها: ما أملاه في التوحيد للمفضّل بن عمر، إلى غير ذلك من الرسائل التي رسمها بخطّه.[٣]

نتف من أقواله

ونقتطف من وصاياه وكلماته الغزيرة وصية واحدة وهي وصيته لسفيان الثوري:

«**الوقوف عند كلّ شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وترك حديث**

---

١. كأبي حنيفة ومالك.

٢. مختصر تاريخ العرب، تعريب: عفيف البعلبكي: ١٩٣.

٣. ولقد جمع أسماء هذه الرسائل السيّد الأمين في أعيانه: ١/ ٦٦٨.

لـم تُـرْوَه[١]، أفضـل مـن روايتـك حـديثاً لـم تحصِـه».

«إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كـتاب الله فـخذوه ومـا خـالفه فدعوه».[٢]

من أقوال العلماء المحدِّثين فيه عليه السلام

ونختم هذا البحث بما قاله أبو زهرة في هذا المجال:

إنّ للإمام الصادق فضل السبق، وله على الأكابر فضل خاصّ، فقد كان أبو حنيفة يروي عنه، ويراه أعلم الناس باختلاف الناس، وأوسع الفقهاء إحاطة، وكان الإمام مالك يختلف إليه دارساً راوياً، وكان له فضل الأُستاذية على أبي حنيفة فحسبه ذلك فضلاً.

وهو فوق هذا حفيد عليّ زين العابدين الذي كان سيّد أهل المدينة فـي عـصره فـضلاً وشرفاً وديناً وعلماً، وقد تتلمذ له ابن شهاب الزهري، وكثير من التابعين، وهو ابن محمّد الباقر الذي بقر العلم ووصل إلى لبابه، فهو ممّن جعل الله له الشرف الذاتي والشرف الإضافي بكريم النسب، والقرابة الهاشمية، والعترة المحمّديّة.[٣]

وبما كتبه الأُستاذ أسد حيدر إذ قال:

كان يؤمّ مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الأقطار النائية، لرفع

---

١. أي لم تروه عن طريق صحيح، والفعل مبني للمجهول.
٢. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١١٥.
٣. محمد أبو زهرة، الإمام الصادق: ٣٠.

الرقابة وعدم الحذر فأرسلت الكوفة، والبصرة، وواسط، والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها، ومن كلّ قبيلة من بني أسدّ، ومخارق، وطي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبة، ومن قريش، ولا سيّما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن الحسن بن عليّ.[1]

وفاته

ولمّا توفّي الإمام شيّعه عامّة الناس في المدينة، وحُمِل إلى البقيع، ودفن في جوار أبيه وجدّه عليهما السلام، وقد أنشد فيه أبو هريرة العجلي قوله:

أقول وقد راحوا به يحملونه ... على كاهل من حامليه وعاتقِ
أتدرون ماذا تحملون إلىٰ الثرىٰ ... ثبيراً ثوىٰ من رأس علياء شاهقِ
غداة حثا، الحاثون فوق ضريحه ... تراباً وأولىٰ كان فوق المفارقِ

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً.

---

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٣٨ نقلاً عن كتاب جعفر بن محمد، لسيد الأهل.

الإمام السابع:

أبو الحسن موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام

ولادته عليه السلام

ولد بالأبواء بين مكة والمدينة يوم الأحد في ٧ صفر سنة ١٢٨هـ.

إمامته عليه السلام

كان عليه السلام نموذج عصره، وفريد دهره، جليل القدر، عظيم المنزلة، مهيب الطلعة، كثير التعبّد، يطوي ليله قائماً ونهاره صائماً، عظيم الحلم، شديد التجاوز، حتّى سمّي لذلك كاظماً، لاقى من المحن ما تنهدّ لهولها الجبال فلم تحرّك منه طرفاً، بل كان عليه السلام صابراً محتسباً كحال آبائه وأجداده عليهم السلام.

يُعرَف بأسماء عديدة منها: العبد الصالح، والكاظم، والصابر، والأمين.

قال ابن الصباغ: روى عبد الأعلى عن الفيض بن المختار قال: قلت لأبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام: خذ بيدي من النار، من لنا بعدك؟ فدخل موسى الكاظم وهو يومئذ غلام، فقال (أي الصادق عليه السلام): «**هذا صاحبكم فتمسّك به**».[1]

---

١. الفصول المهمّة: ٢٣١.

قال الشيخ المفيد: هو الإمام بعد أبيه، والمقدّم على جميع بنيه؛ لاجتماع خصال الفضل فيه، وورود صحيح النصوص وجليّ الأقوال عليه من أبيه بأنّه وليّ عهده والإمام القائم من بعده.(١)

وقد تولّى منصب الإمامة بعد أبيه الصادق عليه السلام في وقت شهدت فيه الدولة العبّاسية استقرار أركانها وثبات بنيانها، فتنكّرت للشعار الذي كانت تنادي به من الدعوة لآل محمد ـ عليه و عليهم السلام ـ فالتفتت إلى الوارث الشرعي لشجرة النبوّة مشهرة سيف العداء له ولشيعته تلافياً من تعاظم نفوذه أن يؤتي على أركان دولتهم وينقضها، فشهد الإمام الكاظم عليه السلام طيلة سنيّ حياته صنوف التضييق والمزاحمة، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه عليه السلام من أن يؤدّي رسالته في حماية الدين وقيادة الأُمّة، فعرفه المسلمون آية من آيات العلم والشجاعة، ومعيناً لا ينضب من الحلم والكرم والسخاء، ونموذجاً عظيماً لا يدانى في التعبّد والزهد والخوف من الله تعالى.

جوانب من سيرته العطرة عليه السلام

ولقد أفرد الباحثون والمحقّقون مصنّفات كثيرة في سيرة هذا الإمام العظيم، كفتنا عن التعرّض لها هنا في هذه العجالة، إلّا أنّنا سنحاول في هذه الصفحات التعرّض لجوانب مختارة من تلك السيرة العطرة:

١ ـ روى الخطيب في تاريخ بغداد بسنده قال: حجّ هارون الرشيد فأتى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله زائراً، وحوله قريش ومعه موسى بن جعفر، فلمّا انتهى إلى القبر

١. لاحظ للوقوف على تلك النصوص الكافي: ١/ ٣٠٧ـ ٣١١، إثبات الهداة: ٣/ ١٥٦ـ ١٧٠ فقد نقل في الأخير ٦٠ نصّاً على إمامته.

قال: السلام عليك يا رسول الله يا بن عمّي ـ افتخاراً على من حوله ـ فدنا موسى بن جعفر فقال: «**السلام عليك يا أبة**» فتغيّر وجه الرشيد وقال: هذا الفخر يا أباالحسن حقّاً![1].

٢ ـ ذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار»: أنّ هارون كان يقول لموسى بن جعفر: يا أباالحسن خذ فدكاً[2] حتّى أردّها عليك، فيأبى، حتى ألحّ عليه فقال: «**لا آخذها إلّا بحدودها**» قال: وما حدودها؟ قال: «**يا أمير المؤمنين إن حددتها لم تردّها**»، قال: بحقّ جدّك إلّا فعلت، قال: «**أمّا الحدّ الأوّل فعدن**» فتغيّر وجه الرشيد وقال: هيه، قال: «**والحدّ الثاني سمرقند**» فأربد وجهه، قال: «**والحدّ الثالث إفريقية**» فاسودّ وجهه وقال: هيه، قال: «**والرابع سيف البحر ممّا يلي الخزر وإرمينية**»، قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء، فتحوّل في مجلسي، قال موسى عليه السلام: «**قد أعلمتك أنّي إن حددتها لم تردّها**».

فعند ذلك عزم على قتله.[3]

---

١. وفيات الأعيان: ٥/ ٣٠٩.

٢. قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله صلحاً سنة سبع من الهجرة، وأعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ابنته فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين عليها السلام، وكانت ملكاً لها في حياته تستفيد من خيراتها، إلّا أنّ أبا بكر حرمها منها، فاغتاظت منه الزهراء وحاججته في ذلك الأمر لكنّه أبى، وبقيت فدك هكذا حتى ردّها الخليفة الأُموي عمر بن عبدالعزيز إلى أبناء فاطمة عليها السلام ثمّ نزعها منهم يزيد بن عبد الملك، فلم تزل في أيدي الأُمويين حتى ولي العباسيون فدفعها أبو العباس السفاح إلى الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ثمّ أخذها المنصور، ثمّ أعادها ولده المهدي، ثمّ أخذها موسى الهادي، إلى أن ولي المأمون فأعادها إليهم.

٣. ربيع الأبرار: ١/ ٣١٥.

٣ ـ كان يصلّي نوافل الليل ويصلها بصلاة الصبح ثمّ يعقّب حتّى تطلع الشمس ويخرّ لله ساجداً، فلا يرفع رأسه من الدعاء والتحميد حتّى يقرب زوال الشمس.

كان يدعو كثيراً فيقول: «**اللّهمّ إنّي أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب**»، ويكرّر ذلك.

وكان من دعائه عليه السلام: «**عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك**».

وكان يبكي من خشية الله حتّى تخضل لحيته بالدموع.

وكان أوصل الناس لأهله ورحمه.

وكان يتفقّد فقراء المدينة في الليل، فيحمل إليهم الزنبيل فيه العين والورق والأدقة والتمور، فيوصل إليهم ذلك ولا يعلمون من أيّة جهة هو.[1]

٤ ـ في «تحف العقول» للحسن بن عليّ بن شعبة: قال أبو حنيفة: حججت في أيام أبي عبد الله الصادق عليه السلام فلمّا أتيت المدينة دخلت داره فجلست في الدهليز أنتظر إذنه، إذ خرج صبي فقلت: يا غلام أين يضع الغريب الغائط من بلدكم؟ قال: «**على رسلك**»، ثمّ جلس مستنداً إلى الحائط، ثمّ قال: «**توقّ شطوط الأنهار، ومساقط الثمار، وأفنية المساجد، وقارعة الطريق، وتوار خلف جدار، وشل ثوبك، ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها، وضع حيث شئت**» فأعجبني ما سمعت من الصبيّ فقلت له: ما اسمك؟ فقال: «**أنا موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي‌طالب**» فقلت له: يا غلام

---

١. الإرشاد: ٢٩٦.

ممّن المعصية؟ فقال: «**إنّ السيّئات لا تخلو من إحدى ثلاث: إمّا أن تكون من الله وليست من العبد؛ فلا ينبغي للربّ أن يعذّب العبد على ما لا يرتكب، وإمّا أن تكون منه ومن العبد ـ وليست كذلك ـ فلا ينبغي للشريك القويّ أن يظلم الشريك الضعيف، وإمّا أن تكون من العبد ـ وهي منه ـ فإن عفا بكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته**».

قال أبو حنيفة: فانصرفت ولم ألق أبا عبد الله واستغنيت بما سمعت.

وروى ابن شهر آشوب في «المناقب» نحوه إلّا أنّه قال: «**يتوارى خلف الجدار ويتوقّى أعين الجار**»، وقال: فلمّا سمعت هذا القول منه نبل في عيني، وعظم في قلبي. وقال في آخر الحديث: فقلت: ﴿**ذرّية بعضها من بعض**﴾ [1]. [2]

۵ ـ روى أبو الفرج الأصفهاني: حدّثنا يحيى بن الحسن قال: كان موسى بن جعفر إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير. وكانت صراره ما بين الثلاثمائة وإلى المائتين دينار، فكانت صرار موسى مثلاً.

وقال: إنّ رجلاً من آل عمر بن الخطّاب كان يشتم عليّ بن أبي طالب إذا رأى موسى بن جعفر، ويؤذيه إذا لقيه، فقال له بعض مواليه وشيعته: دعنا نقتله، فقال: «لا» ثمّ مضى راكباً حتّى قصده في مزرعة له فتواطأها بحماره، فصاح: لا تدس زرعنا.

فلم يصغ إليه وأقبل حتّى نزل عنده، فجلس معه وجعل يضاحكه، وقال له: «**كم غرمت على زرعك هذا**»؟ قال: مائة درهم. قال: «**كم ترجو أن تربح**»؟

---

۱. آل عمران: ۳۴.

۲. تحف العقول: ۳۰۳؛ المناقب لابن شهر آشوب: ۴/ ۳۱۴.

قال: لا أدري. قال: «**إنّما سألتك كم ترجو**». قال: مائة أُخرى. قال: فأخرج ثلاثمائة دينار فوهبها له، فقام فقبّل رأسه، فلمّا دخل المسجد بعد ذلك وثب العمري فسلّم عليه وجعل يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان بعد ذلك كلّما دخل موسى خرج وسلّم عليه ويقوم له، فقال موسى لجلسائه الذين طلبوا قتله: «**أيّما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت**».(١)

٦ ـ حكي أنّ الرشيد سأله يوماً: كيف قلتم: نحن ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتم بنو عليّ، وإنّما ينسب الرجل إلى جدّه لأبيه دون جدّه لأُمّه؟ فقال الكاظم عليه السلام: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿بِسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ...﴾ وليس لعيسى أب إنّما أُلحق بذريّة الأنبياء من قبل أُمّه، وكذلك أُلحقنا بذريّة النبيّ من قبل أُمّنا فاطمة الزهراء، وزيادة أُخرى يا أميرالمؤمنين: قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعدِ ما جاءَك مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكُمْ ونِساءَنا ونِساءَكُمْ وأنْفُسَنا وأنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ...﴾ ولم يدع صلى الله عليه وآله عند مباهلة النصارى غير عليّ وفاطمة والحسن والحسين وهما الأبناء**».(٢)

٧ ـ أمّا علمه والحديث عنه فقد روى عنه العلماء في فنون العلم ما ملأ الكتب، وكان يعرف بين الرواة بالعالم. وقد روى الناس عنه فأكثروا، وكان أفقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله.(٣)

---

١. مقاتل الطالبيين: ٤٩٩ ـ ٥٠٠؛ تاريخ بغداد: ١٣ / ٢٨.

٢. الفصول المهمّة: ٢٣٨، والآيتان من سورتي الأنعام: ٨٤، وآل عمران ٦١.

٣. الإرشاد: ٢٩٨. ولاحظ جوانب من حكمه ووصاياه في الكافي: ١ / ١٣ ـ ٢٠؛ تحف العقول: ٢٨٣.

وفاته:

وقد اتفقت كلمة المؤرّخين على أنّ هارون الرشيد قام باعتقال الإمام الكاظم عليه السلام وإيداعه السجن لسنين طويلة مع تأكيده على سجّانيه بالتشديد والتضييق عليه.

قال ابن كثير: فلمّا طال سجن الإمام الكاظم عليه السلام كتب إلى الرشيد: «**أمّا بعد يا أمير المؤمنين إنّه لم ينقض عنّي يوم من البلاء إلّا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون**».[1]

ولم يزل ذلك الأمر بالإمام عليه السلام، يُنقل من سجن إلى سجن حتى انتهى به الأمر إلى سجن السندي بن شاهك[2]، وكان فاجراً فاسقاً، لا يتورّع عن أي شيء تملّقاً ومداهنة للسلطان، فغالى في سجن الإمام عليه السلام وزاد في تقييده حتّى جاء أمر الرشيد بدسّ السمّ للكاظم عليه السلام، فأسرع السندي إلى إنفاذ هذا الأمر

---

١. البداية والنهاية: ١٠ / ١٨٣.

٢. قال أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين: ٥٠٢: لمّا اعتقل الرشيد الإمام الكاظم عليه السلام أمر بإرساله إلى البصرة ليسجن عند عيسى بن جعفر المنصور، وكان على البصرة حينئذ، فحبس عنده سنة، ثمّ كتب إلى الرشيد: أن خذه منّي وسلّمه إلى من شئت، وإلّا خلّيت سبيله، فقد اجتهدت أن آخذ عليه حجّة فما أقدر على ذلك، حتّى أنّي لأتسمّع عليه إذا دعا لعلّه يدعو عليَّ أو عليك، فما أسمعه يدعو إلّا لنفسه، يسأل الله الرحمة والمغفرة.
فوجّه الرشيد من تسلّمه، وحبسه عند الفضل بن الربيع في بغداد، فبقي عنده مدة طويلة، ثمّ كتب إليه ليسلّمه إلى الفضل بن يحيى، فتسلّمه منه، وطلب منه أن يعمد إلى قتل الإمام كما طلب من عيسى بن جعفر فلم يفعل، بل عمد إلى إكرام الإمام عليه السلام والاحتفاء به، ولما بلغ الرشيد ذلك أمر به أن يجلد مائة سوط، ثمّ أخذ الإمام منه وسلّمه إلى السندي بن شاهك لعنه الله، وكانت نهاية حياة الإمام الطاهرة على يده الفاجرة.

العظيم، واستشهد الإمام عليه السلام بعد طول سجن ومعاناة في عام ١٨٣هـ.

ولمّا كان الرشيد يخشى ردّة فعل المسلمين عند انتشار خبر استشهاد الإمام عليه السلام، لذا عمد إلى حيلة ماكرة للتنصّل من تبعة هذا الأمر الجلل، فقد ذكر أبوالفرج الاصفهاني وغيره[1]: أنّ الإمام الكاظم لما توفّي مسموماً أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد، وفيهم الهيثم بن عديّ وغيره ليشهدوا على أنّه مات حتف أنفه دون فعل من الرشيد وجلاوزته، ولما شهدوا على ذلك أُخرج بجثمانه الطاهر ووضع على الجسر ببغداد ونودي بوفاته. ودفن في بغداد في الجانب الغربي في المقبرة المعروفة بمقابر قريش المشهورة في أيامنا هذه بالكاظمية.

فالسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد سجيناً مظلوماً مسموماً، ويوم يبعث حيّاً.

---

١. مقاتل الطالبيين: ٥٠٤.

الإمام الثامن:

أبوالحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام

ولادته عليه السلام

ولد في المدينة سنة ١٤٨هـ.

إمامته عليه السلام

هو الإمام الثامن من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، القائم بالإمامة بعد أبيه موسى بن جعفر عليهما السلام لفضله على جماعة أهل بيته وبنيه وإخوته في عصره، ولعلمه وورعه وكفاءته لمنصب الإمامة، مضافاً إلى النصوص الواردة في حقّه من أبيه على إمامته.[١] وكانت مدة إمامته بعد أبيه ٢٠ سنة.[٢]

أقوال العلماء فيه عليه السلام

قال الواقدي: عليّ بن موسى، سمع الحديث من أبيه وعمومته وغيرهم، وكان ثقة يفتي بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن نيف وعشرين سنة، وهو من الطبقة الثامنة من التابعين من أهل المدينة.[٣]

---

١. لاحظ للوقوف على النصوص الكافي: ١/ ٣١١ـ ٣١٩؛ الإرشاد: ٣٠٤ـ ٣٠٥، إثبات الهداة: ٣/ ٢٢٨ روي فيه ٦٨ نصاً على إمامته.

٢. الإرشاد: ٣٠٤.

٣. تذكرة الخواص: ٣١٥.

قال الشيخ كمال الدين بن طلحة: ومن أمعن نظره وفكره، وجده في الحقيقة وارثهما (المراد عليّ بن أبي طالب وعليّ بن الحسين عليهما السلام) نما إيمانه، وعلا شأنه، وارتفعت مكانته، وكثر أعوانه، وظهر برهانه، حتّى أدخله الخليفة المأمون محلّ مهجته، وأشركه في مملكته، وفوّض إليه أمر خلافته، وعقد له على رؤوس الأشهاد عقد نكاح ابنته، وكانت مناقبه عليّة، وصفاته ثنيّة، ونفسه الشريفة زكيّة هاشميّة، وأرومته النبوية كريمة.(١)

وقد عاش الإمام الرضا عليه السلام في عصر ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية، وكثرت الترجمة لكتب اليونانيين والرومانيين وغيرهم، وازداد التشكيك في الأُصول والعقائد من قبل الملاحدة وأحبار اليهود، وبطارقة النصارى، ومجسّمة أهل الحديث.

وفي تلك الأزمنة أُتيحت له عليه السلام فرصة المناظرة مع المخالفين على اختلاف مذاهبهم، فظهر برهانه وعلا شأنه. يقف على ذلك من اطّلع على مناظراته واحتجاجاته مع هؤلاء.(٢)

ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من احتجاجاته نذكر ما يلي:

دخل أبو قرّة المحدّث على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال: روينا أنّ الله قسَّم الرؤية والكلام بين نبيَّين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمّد صلى الله عليه وآله الرؤية.

فقال أبو الحسن عليه السلام: «**فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين الجنّ والإنس: أنّه**

---

١. الفصول المهمّة: ٢٤٣ نقلاً عن مطالب السؤول.

٢. لقد جمع الشيخ الطبرسي قسماً من هذه الاحتجاجات في كتابه الاحتجاج: ٢/ ١٧٠ ـ ٢٣٧.

﴿لا تدركه الأبصار﴾[١]، و﴿لا يحيطون به علماً﴾[٢]، و﴿ليس كمثله شيء﴾[٣]، أليس محمدﷺ**؟»** قال: بلى.

قال: «**فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، و﴿لا يحيطون به علماً﴾، و﴿ليس كمثله شيء﴾، ثمّ يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر. أما تستحيون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا: أن يأتي من عند الله بشيء ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر**».

قال أبو قرّة: فإنّه يقول: ﴿**ولَقَدْ رَآهُ نزلةً أُخرى**﴾[٤].

قال أبو الحسن**عليه السلام**: «**إنّ بعد هذه الآية ما يدلّ على ما رأى حيث قال: ﴿ما كذب الفؤادُ ما رأى﴾[٥] يقول: ما كذب فؤاد محمّد**ﷺ **ما رأت عيناه ثمّ أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرىٰ﴾[٦] فآيات الله غير الله، وقال: «لا يُحيطون بِهِ عِلْماً» فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة**».

فقال أبو قرة: فتكذّب بالرواية؟

فقال أبو الحسن: «**إذا كانت الرواية مخالفة للقرآن كذّبتها، وما أجمع المسلمون عليه: أنّه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء**».[٧]

ولما انتشر علم الإمام وفضله، أخذت الأفئدة والقلوب تشدّ إليه، وفي

---

١. الأنعام: ١٠٣. ٢. طه: ١١٠. ٣. الشورىٰ: ١١
٤. النجم: ١٣. ٥. النجم: ١١. ٦. النجم: ١٨.
٧. الاحتجاج للطبرسي: ٢/ ١٨٤.

الأُمّة الإسلامية رجال واعون يميزون الحق من الباطل، فكثر التفاف المسلمين حول الإمام الرضا عليه السلام وازدادت أعدادهم، ممّا دفع بالخلافة العباسية إلى محاولة سحب البساط من تحت رجلي الإمام عليه السلام وأعوانه قبل أن تستفحل الأُمور ويصعب السيطرة على الموقف بعدها، فلجأ المأمون إلى مناورة ذكيّة ماكرة استطاع من خلالها قلب تيار الأحداث لصالحه، حيث استقدم الإمام الرضا عليه السلام وجملة من وجوه الطالبيين إلى مقر الحكومة آنذاك في مرو من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، معزّزين مكرّمين حتّى أنزلوهم إلى جوار مقر الخلافة ريثما يلتقي المأمون بالإمام عليّ بن موسى عليهما السلام.

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

وما كان من المأمون إلّا أن بعث إلى الإمام الرضا عليه السلام قبل اجتماعه به: إنّي أُريد أن أخلع نفسي من الخلافة وأُقلّدك إيّاها فما رأيك؟ فأنكر الرضا عليه السلام هذا الأمر وقال له: «**أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام وأن يسمع به أحد**» فردّ عليه الرسالة: فإذا أبيت ما عرضت عليك فلابد من ولاية العهد بعدي، فأبى عليه الرضا إباءً شديداً.

فاستدعاه وخلا به ومعه الفضل بن سهل ذو الرياستين ـ ليس في المجلس غيرهم ـ وقال له: إنّي قد رأيت أن أُقلّدك أمر المسلمين وأفسخ ما في رقبتي وأضعه في رقبتك.

فقال له الرضا عليه السلام: «**الله الله يا أمير المؤمنين إنّه لا طاقة لي بذلك ولا قوّة لي عليه**».

قال له: فإنّي موليك العهد من بعدي.

فقال له: «**أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين**».

فقال له المأمون ـ كلاماً فيه التهديد له على الامتناع عليه وقال في كلامه ـ: إنّ عمر بن الخطّاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدّك أمير المؤمنين عليه السلام وشرط فيمن خالف منهم أن يضرب عنقه، ولابد من قبولك ما أُريد منك فإنّي لا أجد محيصاً عنه.

فقال له الرضا عليه السلام: «**فإنّي أُجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أنّني لا آمر، ولا أنهى، ولا أفتي، ولا أقضي، ولا أُولي، ولا أعزل، ولا أُغير شيئاً ممّا هو قائم**» فأجابه المأمون إلى ذلك كلّه.[1]

أقول: ليس بخاف على ذي لبّ مغزى إصرار المأمون على تولية الإمام الرضا عليه السلام لمنصب ولاية العهد، وتبدو هذه الصورة واضحة عند استقراء الأحداث التي سبقت أو رافقت هذه المؤامرة المحكمة.

فعندما قدّم هارون الرشيد ولده الأمين رغم إقراره ومعرفته بقوّة شخصيّة المأمون وذكائه قياساً بأخيه المدلّل الذي لا يشفع له إلّا مكانة أُمّه زبيدة الحاكمة في قصر الرشيد، كان يعني ذلك إيذاناً بقيام الفتنة التي حصلت من بعد وراح ضحيتها عشرات الأُلوف وعلى رأسهم الأمين الذي وقف العباسيون إلى صفّه وقاتلوا معه، ولما انتقلت السلطة بأكملها إلى المأمون المستقرّ في خراسان والمدعوم بأهلها آنذاك، فقد واجه خطر نقمة أكثر العباسيين وعدائهم له وتحيّنهم الفرص السانحة للانقضاض عليه وعلى حكمه.

وفي الجانب الآخر كان الشيعة في كلّ مكان يرفضون ويناصبون الخلافة

---

١. الإرشاد: ٣١٠.

العباسية العداء نتيجة سوء صنيعهم وظلمهم للعلويين ولآل البيت خاصة، والذين يؤلف شيعة خراسان جانباً مهماً منهم.

وكان في أوّل سنة لخلافة المأمون أن خرج السري بن منصور الشيباني المعروف بأبي السرايا في الكوفة منادياً بالدعوة لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام حيث بايعه عامّة الناس على ذلك.

وفي المدينة خرج محمد بن سليمان بن داود بن الحسن، وفي البصرة عليّ بن محمد بن جعفر بن عليّ بن الحسين وزيد بن موسى بن جعفر الملقّب بزيد النار، وفي اليمن إبراهيم بن موسى، ومن ثمّ فقد ظهر في المدينة أيضاً الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين المعروف بالأفطس.

وهكذا فقد اندلعت في أنحاء الدولة الكثير من الثورات تناصرها الآلاف من الناس الذين ذاقوا الأمرّين من حكم الطواغيت والظلمة.

وهكذا فقد أدرك المأمون مدى تأزّم الموقف، وتخلخل وضع الحكومة آنذاك، فلم يجد بداً من تظاهره أمام الرأي العام الشيعي ـ الذي كان من أقوى التيّارات المؤهلة للإطاحة بالخلافة العباسية دون أيّ شكّ ـ بتنازله عن الخلافة ـ التي قتل أخاه من أجلها ـ إلى الإمام الرضا عليه السلام إمام الشيعة وقائدهم.

وهكذا فبعد قبول علي بن موسى الرضا عليهما السلام ولاية العهد قام بين يديه الخطباء والشعراء، فخفقت الألوية على رأسه، وكان فيمن ورد عليه من الشعراء دعبل بن عليّ الخزاعيّ، فلمّا دخل عليه قال: قلت قصيدة وجعلت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك، فأمره بالجلوس حتى خفّ مجلسه ثمّ قال له: «هاتها» فأنشد قصيدته المعروفة:

مـدارس آيـات خـلت مـن تـلاوة ومــنزل وحــي مـقفر العـرصاتِ
لآل رسول الله بالخيف من منىٰ وبــالركن والتــعريف والجــمراتِ
ديــار عــلي والحســين وجــعفر وحــمزة والســجاد ذي الثــفناتِ
ديــار عــفاها كــلّ جـون مـبادر ولم تـــعف للأيّـــام والســنواتِ

إلى أن قال:

قـــبور بكـــوفان وأُخـــرىٰ بـطيبة وأُخـــرىٰ بـــفخ نـــالها صـلواتـي
وقـــبر بـــبغداد لنـــفس زكـــيّة تـــــضمّنها الرحـــمن بـــالغرفاتِ
فـــأمّا المـصمّات التـي لست بـالغاً مـــبالغها مـــنّي بكـــنه صـــفاتِ
إلىٰ الحشــر حــتّىٰ يــبعث الله قـائماً يـــفرّج مـــنها الهـــمّ والكـــربات

إلى أن قال:

ألم تـــر أنّـي مـذ ثـلاثين حـجّة أروح وأغـــدو دائـــم الحســـرات؟
أرىٰ فـيئهم فـي غـيرهم مـتقسماً وأيـــديهم مـــن فـيئهم صـفرات
إذا وتـــروا مـدّوا إلىٰ أهـل وتـرهم أكـــفّاً مـــن الأوتـــار مـنقبضات

حتّى أتى على آخرها، فلمّا فرغ من إنشادها قام الرضا عليه السلام فدخل

إلى حجرته وأنفذ إليه صُـرّة فيها مائة دينار واعتذر إليه، فردّها دعبل وقال: والله ما لهذا جئت، وإنّما جئت للسلام عليك والتبرّك بالنظر إلى وجهك الميمون، وإنّي لفي غنى، فإن رأيت أن تعطيَني شيئاً من ثيابك للتبرّك فهو أحب إليَّ. فأعطاه الرضا جبّة خز وردّ عليه الصُرّة.[1]

الإمام الرضا عليه السلام وصلاة العيد

كان الإمام في مرو يقصده البعيد والقريب من مختلف الطبقات وقد انتشر صيته في بقاع الأرض، وعظم تعلّق المسلمين به، ممّا أثار مخاوف المأمون وتوجّسه من أن ينفلت زمام الأمر من يديه على عكس ما كان يتمنّاه، وما كان يبتغيه من ولاية العهد هذه، وقوي ذلك الظن أنّ المأمون بعث إليه يوم العيد في أن يصلّـي بالناس ويخطب فيهم فأجابه الرضا عليه السلام: «**إنّك قـد علمت ما كان بيني وبينك من الشروط في دخول الأمر، فاعفني من الصـلاة بـالناس**». فـقال له المأمون: إنّما أُريد بذلك أن تطمئن قلوب الناس، ويعرفوا فضلك.

ولم تزل الرسل تتردّد بينهما في ذلك، فلمّـا ألحّ عليه المأمون، أرسل إليه الرضـا: «**إن أعفيتني فهو أحبّ إليّ وإن لم تعفني خرجت كما خرج رسول الله وأمـير المـؤمنين عليهما السلام**» فـقال له المأمون: اخرج كيف شئت. وأمر القوّاد والحجاب والناس أن يبكروا إلى باب الرضا عليه السلام.

---

١. الفـصول المـهمّة: ٢٤٦؛ الإرشـاد: ٣١٦؛ الأغـاني: ١٨/ ٥٨؛ زهـر الآداب: ١/ ٨٦؛ مـعاهد التـنصيص: ١/ ٢٠٥؛ الإتحاف: ١٦٥؛ تاريخ دمشق: ٥/ ٢٣٤. وللقصّة صلة ومن أراد فليرجع إلى المصادر المذكورة.

قال: فقعد الناس لأبي الحسن عليه السلام في الطرقات والسطوح، واجتمع النساء والصبيان ينتظرون خروجه، فاغتسل أبو الحسن ولبس ثيابه وتعمّم بعمامةٍ بيضاء من قطنٍ، ألقى طرفاً منها على صدره وطرفاً بين كتفيه، ومسّ شيئاً من الطيب، وأخذ بيده عكازة وقال لمواليه: «**افعلوا مثل ما فعلت**» فخرجوا بين يديه وهو حاف قد شمّر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمّرة، فمشى قليلاً ورفع رأسه إلى السماء وكبّر وكبّر مواليه معه، فلمّا رآه الجند والقوّاد سقطوا كلّهم عن الدوابّ إلى الأرض، ثمّ كبّر وكبّر الناس، فخيّل إلى الناس أنّ السماء والحيطان تجاوبه، وتزعزعت مرو بالبكاء والضجيج لمّا رأوا الإمام الرضا عليه السلام وسمعوا تكبيره، فبلغ المأمون ذلك فقال له الفضل بن سهل: إن بلغ الرضا المصلّى على هذا السبيل فتن به الناس، وخفنا كلّنا على دمائنا، فأنفذ إليه أن يرجع. فأرسل إليه من يطلب منه العودة، فرجع الرضا عليه السلام واختلف أمر الناس في ذلك اليوم.[1]

وقد أشار الشاعر البحتري إلى تلك القصّة بأبيات منها:

ذكروا بطلعتك النبيّ فهلّلوا لما طلعت من الصفوف وكبّروا

حتّىٰ انتهيت إلىٰ المصلّىٰ لابساً نور الهدىٰ يبدو عليك فيظهر

---

١. الإرشاد: ٣١٢.

ومشـيت مشـية خـاشع مـتواضـع لله لا يـــــزهي ولا يـــــتكبّر[١]

إنّ هذا وأمثاله، وبالأخصّ خروج بعض العباسيّين بالبصرة على المأمون؛ لتفويضه ولاية العهد لعليّ بن موسى الرضا الذي كان في تصوّره سيؤدي إلى خروج الأمر من بيت العباسيين، كل ذلك وغيره دفع المأمون إلى أن يريح نفسه وقومه من هذا الخطر فدسّ إليه السم عـلى النحو المذكور في كتب التاريخ.

من شعر أبي‌نؤاس فيه عليه السلام

ومن لطيف ما نقل عن أبي نؤاس أنّه كان ينشد الشعر في كلّ جليل وطفيف ولم يمدح الإمام، ولما عوتب على ذلك من قبل بعض أصحابه حيث قال له: ما رأيت أوقح مـنك، مـا تركت خمراً ولا طرداً ولا معنىٰ إلّا قلت فيه شيئاً، وهذا عليّ بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً! فقال أبو نؤاس: والله ما تركت ذلك إلّا إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله، ثمّ أنشد بعد ساعة هذه الأبيات:

قيل لي أنت أحسن الناس طـراً فـي فـنون مـن الكـلام النـبيه
لك مــن جـيّد القـريض مـديحٌ يــثمر الدر فــي يـديّ مـجتنيه
فعلامَ تركت مـدح ابـن مـوسى والخــصال التــي تـجمّعن فـيه
قــلت لا أســتطيع مــدح إمـامٍ كــان جــبريلُ خــادماً لأبــيه

وقال فيه عليه السلام أيضاً:

---

١. أعيان الشيعة: ٢/ ٢١ ـ ٢٢.

مـــــطهّرون نـــقيّات جـــيوبهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
مـــن لم يكـــن علوياً حين تنسبه فـــما له فـــي قـــديم الدهـــر مفتخر
الله لمّـــــا بـــــرا خـــــلقاً فـــــأتقنه صـــفّاكُـــمُ واصطفاكـم أيّـها البشـر
فـــــأنتم المـــــلأ الأعـــلىٰ وعـــندكم علم الكتاب وما جاءت به السور[1]

شهادته عليه السلام

واستشهد في طوس من أرض خراسان فـي صـفر ٢٠٣هـ، وله يـومئذ ٥٥ سـنة. ولمـا استشهد الإمام عليه السلام دفن في مدينة طوس في قبر ملاصق لقبر هارون الرشيد، وقبر الإمام الرضا الآن مزار مهيب يتقاطر المسلمون على زيارته والتبرك به.

فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يبعث حياً.

---

١. وفيات الأعيان: ٣/ ٢٧٠.

الإمام التاسع:

أبوجعفر محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام

ولادته عليه السلام

ولد بالمدينة المنورة في شهر رمضان من سنة خمس وتسعين بعد المائة، فورث الشرف من آبائه وأجداده، واستسقت عروقه من منبع النبوّة، وارتوت شجرته من منهل الرسالة.

إمامته عليه السلام

قام بأمر الولاية بعد شهادة والده الرضا عليه السلام عام ٢٠٣هـ، واستشهد ببغداد عام ٢٢٠هـ، أدرك خلافة المأمون وأوائل خلافة المعتصم.

أمّا إمامته ووصايته فقد وردت فيها النصوص الوافرة[١].

لقّب بالجواد والقانع والمرتضى والنجيب والتقيّ والزكيّ وغيرها من الألقاب الدالّة على علو شأنه وارتفاع منزلته.

---

١. انظر الكافي: ١/ ٣٢٠ـ ٣٢٣؛ إثبات الهداة: ٣/ ٣٢١ـ ٣٢٨.

استقدامه إلىٰ بغداد

لمّا توفّي الرضاعليه السلام كان الإمام الجواد في المدينة، وقام بأمر الإمامة بوصية من أبيه وله من العمر تسع أو عشر سنين، وكان المأمون قد مارس معه نفس السياسة التي مارسها مع أبيهعليه السلام خلافاً لأسلافه من العباسيين، حيث إنّهم كانوا يتعاملون مع أئمّة أهل البيت بالقتل والسجن، وكان ذلك يزيد في قلوب الناس حبّاً لأهل البيت وبغضاً للخلفاء، ولمّا شعر المأمون بذلك بدّل ذلك الأُسلوب بأُسلوب آخر وهو استقدام أهل البيت من موطنهم إلى دار الخلافة لكي يشرف على حركاتهم وسكناتهم، وقد استمرّت هذه السياسة في حقّهم إلى الإمام الحادي عشر كما ستعرف.

وما كان من المأمون عندما استقدم الإمام إلى مركز الخلافة، إلّا أن شغف به لما رأى من فضله مع صغر سنّه وبلوغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان، فزوّجه ابنته أُمّ الفضل وحملها معه إلى المدينة، وكان حريصاً على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدره، ونحن نكتفي في المقام بذكر أمرين:

١ ـ لمّا توفّي الإمام الرضاعليه السلام وقدم المأمون بغداد، اتّفق أنّ المأمون خرج يوماً يتصيّد، فاجتاز بطرف البلدة وصبيان يلعبون ومحمّد الجواد واقف عندهم، فلمّا أقبل المأمون فرّ الصبيان ووقف محمّد الجواد، وعمره آنذاك تسع سنين، فلمّا قرب منه الخليفة قال له: يا غلام ما منعك أن لا تفرّ كما فرّ أصحابك؟! فقال له محمّد الجواد مسرعاً: «**يا أمير المؤمنين فرّ أصحابي فرقاً والظنّ بك حسن أنّه لا يفرّ منك من لا ذنب له، ولم يكن بالطريق ضيق فانتحي**

عن أميرالمؤمنين» فأعجب المأمون كلامه وحسن صورته فقال له: ما اسمك يـا غـلام؟ قال: «**محمّد بن عليّ الرضا** عليه السلام» فترحّم على أبيه.(١)

٢ ـ لمّا أراد المأمون تزويج ابنته أُمّ الفضل من الإمام الجواد ثقل ذلك على العـباسيين وقالوا له: ننشدك الله أن تقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرضا؛ فانّا نخاف أن تخرج به عنّا أمراً قد ملّكناه الله! وتنزع منّا عزّاً قد ألبسناه الله! فقد عرفت ما بـيننا وبـين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا حتى كفى الله المهمّ من ذلك ـ إلى أن قالوا ـ: إنّ هذا الفتى وإن راقك منه هديه؛ فإنّه صبي لا معرفة له؛ فأمهله حتّى يتأدّب ويتفقّه في الدين ثـمّ اصنع ما ترى.

قال المأمون: ويحكم إنّي أعرف بهذا الفتى منكم، وإنّ أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى وإلهامه، ولم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب من الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر حتّى يتبيّن لكم ما وصفت لكم من حاله. قالوا: رضينا.

فخرجوا واتّفق رأيهم على أنّ يحيى بن أكثم يسأله مسألة وهو قاضي الزمان فأجابهم المأمون على ذلك.

واجتمع القوم في يوم اتّفقوا عليه، وأمر المأمون أن يفرش لأبي جعفر دست ففعل ذلك، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دست متّصل بدست أبي جعفر عليه السلام.

---

١. الفصول المهمّة: ٢٦٦.

فقال يحيي بن أكثم للمأمون: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر؟

فقال: استأذنه في ذلك.

فأقبل عليه يحيى وقال: أتأذن لي ـ جعلت فداك ـ في مسألة؟

فقال: «**سل إن شئت**».

فقال: ما تقول ـ جعلت فداك ـ في مُحْرم قتل صيداً؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «**في حلّ أو حرم؟ عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حرّاً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً كان بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم غيرها؟ من صغار الصيد أم كبارها؟ مصرّاً كان على ما فعل أو نادماً؟ ليلاً كان قتله للصيد أم نهاراً؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحجّ كان محرماً؟**».

فتحيّر يحيى وبان في وجهه العجز والانقطاع، وتلجلج حتّى عرف أهل المجلس أمره.

فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي، ثمّ قال لأبي جعفر عليه السلام: اخطب لنفسك فقد رضيتك لنفسي وأنا مزوّجك أُمّ الفضل ابنتي.[1]

ولمّا تمّ الزواج قال المأمون لأبي جعفر: إن رأيت ـ جعلت فداك ـ أن تذكر الجواب فيما فصّلته من وجوه قتل الـمُـحْرم الصيد لنعلمه ونستفيده.

---

١. الإرشاد: ٣١٩ـ ٣٢١؛ إعلام الورى: ٣٥٢. وللقصّة صلة فراجع.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «**إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها فعليه شاة، فإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً؛ فإن قتل فرخاً في الحلّ فعليه حمل قد فطم من اللّبن، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، وإن كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة فعليه بدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة، فإن قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه بالحج نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكّة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد له المأثم وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفّارة على الحرّ في نفسه، وعلى السيّد في عبده، والصغير لا كفّارة عليه وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة**».

فقال له المأمون: أحسنت يا أبا جعفر....[1]

رجوعه عليه السلام إلى المدينة

ثمّ إنّ أبا جعفر بعد أن أقام مدّة في بغداد هاجر إلى المدينة وسكن بها مدّة إلى أن توفّي المأمون وبويع المعتصم، ولم يزل المعتصم متفكّراً في أبي جعفر يخاف من اجتماع الناس حوله ووثوبه على الخلافة، فلأجل ذلك مارس نفس السياسة التي مارسها أخوه المأمون من قبله فاستقدم الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد

---

١. الإرشاد: ٣٢٢.

سنة ٢٢٠[١] وبقي فيها عليه السلام حتى توفّي في آخر ذي القعدة من تلك السنة، وله من العمر ٢٥ سنة وأشهر. ودفن عند جدّه موسى بن جعفر في مقابر قريش.

وقال ابن شهر آشوب: إنّه قبض مسموماً.[٢]

فسلام الله على إمامنا الجواد يوم ولد، ويوم مات أو استشهد بالسمّ، ويوم يبعث حيّاً.

١. وفي الإرشاد: ٣٢٦، وفي إعلام الورى: ٣٠٤: وكان سبب ورود الإمام إلى بغداد إشخاص المعتصم له من المدينة، فورد بغداد لليلتين بقيتا من محرّم الحرام سنة ٢٢٥ هـ... ثمّ يقول: وكان له يوم قبض ٢٥ سنة.
ولا يخفى أنّه لو كان تاريخ وروده إلى بغداد هي سنة ٢٢٥ هـ، يكون له يوم وفاته ٣٠ سنة من العمر لأنّه ولد عام ١٩٥هـ
٢. مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٣٧٩.

الإمام العاشر:

أبو الحسن عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام

ولادته وإمامته عليه السلام

ولد عام ٢١٢هـ، وهو من بيت الرسالة والإمامة، ومقر الوصاية والخلافة، وثمرة من شجرة النبوّة.

قام عليه السلام بأمر الإمامة بعد والده الإمام الجواد عليه السلام، وقد عاصر خلافة المعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتز، وله مع هؤلاء قضايا لا يتّسع المقام لذكرها.

قال ابن شهر آشوب: كان أطيب الناس مهجة، وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب، وأكملهم من بعيد، إذا صمت علَتْه هيبة الوقار، وإذا تكلّم سماه البهاء.[١]

وقال عماد الدين الحنبلي: كان فقيهاً إماماً متعبّداً.[٢]

وقال المفيد: تقلّد الإمامة بعد أبي جعفر ابنه أبو الحسن عليّ بن محمّد، وقد اجتمعت فيه خصال الإمامة وثبت النص عليه بالإمامة، والإشارة إليه من أبيه بالخلافة.[٣]

---

١. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠١. ٢. شذرات الذهب: ٢/ ١٢٨ في حوادث سنة ٢٥٤.
٣. الإرشاد: ٣٢٧.

وقد تضافرت النصوص على إمامته عن طرقنا، فمن أراد فليرجع إلى «الكافي» و «إثبات الهداة» وغيرهما من الكتب المعدّة لذلك.[١]

المتوكّل ومواقفه الشنيعة مع الإمام عليه السلام

لقد مارس المتوكّل نفس الأُسلوب الخبيث الذي رسمه المأمون ثمّ أخوه المعتصم من إشخاص أئمّة أهل البيت من موطنهم وإجبارهم على الإقامة في مقرّ الخلافة، وجعل العيون والحرّاس عليهم حتى يطّلعوا على دقيق حياتهم وجليلها.

وكان المتوكّل من أخبث الخلفاء العباسيين، وأشدّهم عداءً لعليّ، فبلغه مقام عليّ الهادي بالمدينة ومكانته هناك، وميل الناس إليه، فخاف منه[٢]، فدعا يحيى بن هرثمة وقال: اذهب إلى المدينة، وانظر في حاله وأشخصه إلينا.

قال يحيى: فذهبت إلى المدينة، فلمّا دخلتها ضجَّ أهلها ضجيجاً عظيماً ما سمع الناس بمثله، خوفاً على عليّ الهادي، وقامت الدنيا على ساق؛ لأنّه كان مُحْسِناً إليهم، ملازماً للمسجد لم يكن عنده ميل إلى الدنيا.

قال يحيى: فجعلت أُسكِّنهم وأحلِف لهم أنّي لم أُؤمر فيه بمكروه، وأنّه لا بأس عليه، ثمّ فتّشت منزله فلم أجد فيه إلّا مصاحف وأدعية وكتب العلم، فعظم في عيني، وتولّيت خدمته بنفسي، وأحسنت عشرته، فلمّا قدمت به بغداد، بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري وكان والياً على بغداد، فقال لي: يا يحيى إنّ

---

١. الكافي: ١ / ٣٢٣ ـ ٣٢٥؛ إثبات الهداة: ٣ / ٣٥٥ ـ ٣٥٨.

٢. روي أنّ بريحة العباسي أحد أنصار المتوكل وأزلامه كتب إليه: إن كان لك بالحرمين حاجة فأخرج منها عليّ بن محمد؛ فإنّه قد دعا الناس إلى نفسه وتبعه خلق كثير.

هذا الرجل قد ولده رسول الله، والمتوكّل مَنْ تعلَم، فإن حرّضته عليه قتله، كان رسول الله خصمك يوم القيامة. فقلت له: والله ما وقعت منه إلّا على كلّ أمر جميل.

ثمّ صرت به إلى «سرّ من رأى» فبدأت بـ «وصيف» التركي، فأخبرته بوصوله، فقال: والله لئن سقط منه شعرة لا يطالب بها سواك، فلمّا دخلت على المتوكّل سألني عنه فأخبرته بحسن سيرته وسلامة طريقه وورعه وزهادته، وأنّي فتّشت داره ولم أجد فيها إلّا المصاحف وكتب العلم، وأنّ أهل المدينة خافوا عليه، فأكرمه المتوكّل وأحسن جائزته وأجزل برّه، وأنزله معه سامراء.[1]

ومع أنّ الإمام كان يعيش في نفس البلد الذي يسكن فيه المتوكّل، وكانت العيون والجواسيس يراقبونه عن كثب، إلّا أنّه وشي به إلى المتوكّل بأنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهاجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف وهو جالس على الرمل والحصى، وهو متوجّه إلى‌الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً، ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكّل جالساً في مجلس الشراب فأُدخل عليه والكأس في يده، فلمّا رآه هابه وعظّمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده، فقال الإمام عليه السلام: «**والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني**» فأعفاه، فقال له: انشدني شعراً، فقال عليّ: «**أنا قليل الرواية للشعر**» فقال: لابدّ، فأنشده وهو جالس عنده:

---

١. تذكرة الخواص: ٣٢٢.

«باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم وأُسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهمُ صارخ من بعد دفنهم أين الأسرّة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعّمة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل[1]
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا»

فبكى المتوكّل حتى بلّتْ لحيته دموع عينه وبكى الحاضرون، ورفع إلى عليّ أربعة آلاف دينار ثمّ ردّه إلى منزله مكرّماً.[2]

آثاره العلمية

روى الحفّاظ والرواة عن الإمام أحاديث كثيرة في شتّى المجالات من العقيدة والشريعة، وقد جمعها المحدّثون في كتبهم، وبثّها الحرّ العاملي في كتابه الموسوم بـ«وسائل الشيعة» على أبواب مختلفة، وممّا نلفت إليه النظر أنّ للإمام عليه السلام بعض الرسائل؛ وهي:

١ ـ رسالته في الردّ على الجبر والتفويض وإثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين، أوردها بتمامها الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني في كتابه الموسوم بـ«تحف العقول».[3]

---

١. ربمّا يروى «ينتقل».
٢. مروج الذهب: ٤/ ١١.
٣. تحف العقول: ٢٣٨ ـ ٣٥٢.

٢ ـ أجوبته ليحيى بن أكثم عن مسائله، وهذه أيضاً أوردها الحرّاني في «تحف العقول».

٣ ـ قطعة من أحكام الدين، ذكرها ابن شهر آشوب في المناقب.

ولأجل إيقاف القارئ على نمط خاصّ من تفسير الإمام نأتي بنموذج من هذا التفسير:

قُدّم إلى المتوكّل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب: «**يضرب حتى يموت**» فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلّة، فكتب: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قَالوا آمَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشركينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بأسنا سُنَّةَ الله الَّتي قَدْ خَلَتْ في عبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرونَ**﴾[1]، فأمر به المتوكّل فضرب حتّى مات.[2]

شهادته عليه السلام

توفّي أبو الحسن عليه السلام في رجب سنة أربع وخمسين ومائتين ودفن في داره بسرّ من رأى، وخلّف من الولد أبا محمّد الحسن ابنه وهو الإمام من بعده، والحسين، ومحمّد، وجعفر، وابنته عائشة، وكان مقامه بسرّ من رأى إلى

---

١. غافر: ٨٤ ـ٨٥.

٢. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

أن قبض عشر سنين وأشهر، وتوفّي وسنّه يومئذ على ما قدمناه إحدى وأربعون سنة.[١]

وقد ذكر المسعودي في «إثبات الوصيّة» «تفصيل كيفية وفاته وتشييعه وإيصاء الإمامة لابنه أبي محمّد العسكري» فمن أراد فليراجع.[٢]

١. الإرشاد: ٣٢٧.
٢. إثبات الوصية: ٢٥٧.

الإمام الحادي عشر:

أبو محمّد الحسن بن علي العسكري عليه السلام

أبو محمّد الحسن بن علي الهادي بن محمّد الجواد، أحد أئمّة أهل البيت، والإمام الحادي عشر، الملقب بالعسكري، ولد عام ٢٣٢هـ[١]، وقال الخطيب في تاريخه[٢] وابن الجوزي في تذكرته[٣]: أنّه ولد عام ٢٣١هـ وأشخص والده إلى العراق سنة ٢٣٦هـ وله من العمر أربع سنين وعدّة شهور، وقام بأمر الامامة والقيادة الروحية بعد شهادة والده، وقد اجتمعت فيه خصال الفضل، وبرز تقدّمه على كافة أهل العصر، واشتهر بكمال الفعل والعلم والزهد والشجاعة[٤]، وقد روى عنه لفيف من الفقهاء والمحدّثين يربو عددهم على ١٥٠ شخصاً[٥]. وتوفّي عام ٢٦٠هـ ودفن في داره التي دفن فيها أبوه بسامراء.

وخلّف ابنه المنتظر لدولة الحق، وكان قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت، وشدّة طلب السلطة، واجتهادها في البحث عن أمره، ولكنّه سبحانه حفظه من شرار أعدائه كما حفظ سائر أوليائه كإبراهيم الخليل وموسى الكليم، فقد خابت السلطة في طلبهما والاعتداء عليهما.

وقد اشتهر الإمام بالعسكري لأنّه منسوب إلى عسكر، ويراد بها

---

١. الكافي: ١/ ٥٠٣.
٢. تاريخ بغداد: ٧/ ٣٦٦.
٣. تذكرة الخواص: ٣٢٢.
٤. الإرشاد: ٣٣٥.
٥. العطاردي، مسند الإمام العسكري، وقد جمع فيه كلّ ما روي عنه وأُسند إليه.

سرّ من رأى التي بناها المعتصم، وانتقل إليها بعسكره، حيث أشخص المتوكل أباه عليّاً إليها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر فنُسب هو وولده إليها [١].

قال سبط ابن الجوزي: كان عالماً ثقة روى الحديث عن أبيه عن جدّه ومن جملة مسانيده حديث في الخمر عزيز.

ثمّ ذكر الحديث عن جدّه أبي الفرج الجوزيّ في كتابه المسمّى بـ «تحريم الخمر»، ثمّ ساق سند الحديث إلى الحسن العسكري وهو يسند الحديث إلى آبائه إلى علي بن أبي طالب وهو يقول: «أشهد بالله لقد سمعت محمّداً رسول الله ﷺ يقول: أشهد بالله لقد سمعت جبرائيل يقول: أشهد بالله لقد سمعت ميكائيل يقول: أشهد بالله لقد سمعت إسرافيل يقول: أشهد بالله على اللوح المحفوظ أنّه قال: سمعت الله يقول: شارب الخمر كعابد الوثن». [٢]

ولقد وقع سبط ابن الجوزي في الاشتباه عندما توهّم أنّ اسناد الإمام عليه السلام هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ مختص بهذا المورد، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإنّ أحاديث أهل البيت مروية كلّها عن النبيّ الأكرم ﷺ، فهم لا يروون في مجال الفقه والتفسير والأخلاق والدعاء إلّا ما وصل إليهم عن النبيّ الأكرم ﷺ عن طريق آبائهم وأجدادهم، ومروياتهم لا تعبّر عن آرائهم الشخصية، فمن قال بذلك وتصوّر كونهم مجتهدين مستنبطين، فقد قاسهم بالآخرين ممّن يعتمدون على آرائهم الشخصية، وهو في قياسه خاطئ؛ منذ نعومة أظفارهم إلى أن لبّوا دعوة ربّهم لم يختلفوا إلى أندية الدروس، ولم يحضروا مجلس

١. وفيات الأعيان: ٢ / ٩٤.
٢. تذكرة الخواص: ٣٢٤.

أحد من العلماء، ولا تعلّموا شيئاً من غير آبائهم، فما يذكرونه من علوم ورثوها من رسول الله صلى الله عليه وآله وراثة غيبية لا يعلم كنهها إلّا الله سبحانه والراسخون في العلم.

وهذا الإمام جعفر الصادق عليه السلام يبيّن هذا الأمر بوضوح لا لبس فيه، حيث يقول: «إنّ حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وحديث علي أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ».[١]

وروى حفص بن البختري، قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام أسمع الحديث منك فلا أدري منك سماعه أو من أبيك، فقال: «ما سمعته منّي فاروه عن أبي، وما سمعته منّي فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله».[٢]

فأئمّة المسلمين على حد قول القائل:

ووال أُنـــاساً نـــقلهم وحـــديثهم روى جدّنا عن جبرئيل عن الباري

ولقد عاتب الإمام الباقر عليه السلام سلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة حيث كانا يأخذان الحديث من الناس ولا يهتمان بأحاديث أهل البيت، فقال لهما: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا أهلَ البيت».

ورغم أنّ الخلفاء العباسيين قد وضعوا الإمام تحت الإقامة الجبرية وجعلوا عليه عيوناً وجواسيس، ولكن روى عنه الحفّاظ والرواة أحاديث جمّة في شتى المجالات، بل يروى أنّ الإمام عليه السلام ورغم كلّ ذلك كان على اتّصال

١. الإرشاد: ٢٧٤.
٢. وسائل الشيعة ج ١٨، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٨٦.

مستمر بالشيعة الذين كان عددهم يقدر بمئات الآلاف، وحيث كان لا مرجع لهم سوى الإمام عليه السلام.

كما أنّ الكلام عن أخلاقه وأطواره، ومناقبه وفضائله، وكرمه وسخائه، وهيبته وعظمته، ومجابهته للخلفاء العباسيين بكل جرأة وعزّة وما نقل عنه من الحكم والمواعظ والآداب، يحتاج إلى تأليف مفرد وكفانا في ذلك علماؤنا الأبرار، بيد أنّا نشير إلى لمحة من علومه.

١ ـ لقد شغلت الحروف المقطّعة بال المفسّرين فضربوا يميناً وشمالاً، وقد أنهى الرازي أقوالهم فيها في أوائل تفسيره الكبير إلى قرابة عشرين قولاً، ولكن الإمام عليه السلام عالج تلك المعضلة بأحسن الوجوه وأقربها للطبع، فقال: «**كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا سحر مبين تقوّله، فقال الله: ﴿الم * ذلِكَ الكتابُ﴾ أي: يا محمّد، هذا الكتاب الذي نزّلناه عليك هو الحروف المقطّعة الّتي منها «ألف»، «لام»، «ميم» وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم، ثمّ بيّن أنّه لا يقدرون عليه بقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبعْضٍ ظَهِيرا﴾**[1]».[2]

وقد روي هذا المعنى عن أبيه الإمام الهادي عليه السلام.[3]

٢ ـ كان أهل الشغب والجدل يلقون حبال الشك في طريق المسلمين

---

١. الإسراء: ٨٨.

٢. معاني الأخبار: ٢٤، وللحديث ذيل فمن أراد فليرجع إلى الكتاب.

٣. الكافي: ١ / ٢٤ ـ ٢٥، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٠.

فيقولون إنّكم تقولون في صلواتكم: ﴿**اهدنا الصِّراط المُستقيم**﴾ أو لستم فيه ؟ فما معنى هذه الدعوة؟ أو أنّكم متنكّبون عنه فتدعون ليهديكم إليه؟ ففسّر الإمام الآية قاطعاً لشغبهم فقال: «**أدِم لناتوفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتّى نطيعك كذلك في مستقبل أعمالنا**».

ثمّ فسّر الصراط بقوله: «**الصراط المستقيم هو: صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، أمّا الأوّل فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأمّا الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة الذي هو مستقيم، لا يعدلون عن الجنّة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنّة**».[1]

وكان قد استفحل أمر الغلاة في عصر الإمام العسكري ونسبوا إلى الأئمّة الهداة أُموراً هم عنها براء، ولأجل ذلك يركّز الإمام على أنّ الصراط المستقيم لكل مسلم هو التجنّب عن الغلو والتقصير.

٣ ـ ربّما يغتر الغافل بظاهر قوله سبحانه: ﴿**صِراطَ الَّذِينَ أنعَمْتَ عَلَيهِم**﴾ ويتصوّر أنّ المراد من النعمة هو المال والأولاد وصحّة البدن، وإن كان كلّ هذا نعمة من الله، ولكنّ المراد من الآية بقرينة قوله: ﴿**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيْهِم ولا الضَّالِّين**﴾[2] هو نعمة التوفيق والهداية، ولأجل ذلك نرى أنّ الإمام يفسّر هذا الإنعام بقوله: «**قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولِئكَ مَعَ**

١. معاني الأخبار: ٣٣.
٢. الفاتحة: ٧.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصَّديقينَ والشُّهداءِ وَالصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً﴾ ثمّ قال: ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحّة البدن وإن كان كلّ هذا نعمة من الله ظاهرة».[١]

٤ ـ لقد تفشّت آنذاك فكرة عدم علمه سبحانه بالأشياء قبل أن تخلق، تأثراً بتصورات بعض المدارس الفكرية الفلسفية الموروثة من اليونان، فسأله محمّد بن صالح عن قول الله: ﴿**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ**﴾[٢] فقال: «**هل يمحو إلّا ما كان وهل يثبت إلّا مالم يكن**»؟

فقلت في نفسي: هذا خلاف ما يقوله هشام الفوطي: إنّه لا يعلم الشيء حتى يكون، فنظرإليَّ شزراً، وقال: «**تعالى الله الجبّار العالم بالشيء قبل كونه، الخالق إذ لا مخلوق، والربّ إذ لا مربوب، والقادر قبل المقدور عليه**».[٣]

---

١. معاني الأخبار: ٣٦.
٢. الرعد: ٣٩:
٣. إثبات الوصية: ٢٤١.

الإمام الثاني عشر:

المهدي ابن الحسن المنتظر عليه السلام

هو أبو القاسم محمّد بن الحسن العسكري الحجّة، الخلف الصالح، ولد عليه السلام بسرّ من رأى ليلة النصف من شعبان، سنة خمس وخمسين ومائتين، وله من العمر عند وفاة أبيه خمس سنين، آتاه الله الحكم صبيّاً كما حدث ليحيى، حيث قال سبحانه: ﴿**يايَحْيىٰ خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ واَتَيْناهُ الحُكْمَ صَبيّاً**﴾.[1]

وجعله إماماً وهو طفل، كما جعل المسيح نبيّاً وهو رضيع قال سبحانه عن لسانه وهو يخاطب قومه: ﴿**إنّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبيّاً**﴾[2].

اتّفق المسلمون على ظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، والجور، ونشر أعلام العدل، وإعلاء كلمة الحق، وإظهار الدين كلّه ولو كره المشركون، فهو بإذن الله ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله، ويلغي الأخلاق والعادات الذميمة، ويبطل القوانين الكافرة التي سنّتها الأهواء، ويقطع أواصر التعصّبات القومية والعنصرية، ويمحي أسباب العداء والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأُمّة وافتراق الكلمة، ويحقّق الله سبحانه بظهوره وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله:

---

١. مريم: ١٢.

٢. مريم: ٣٠.

١ ـ ﴿وعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَستَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كما آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي آرْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعَدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾[١].

٢ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلىَ الَّذِينَ آسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ﴾[٢].

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ﴾[٣].

وتشهد الأُمّة بعد ظهوره عليه السلام عصراً ذهبياً لا يبقى فيه على الأرض بيت إلّا ودخلته كلمة الإسلام، ولا تبقى قرية إلّا وينادى فيها بشهادة «لا إله إلّا الله» بكرة وعشياً.

أقول: لقد تواترت النصوص الصحيحة والأخبار المروية من طريق أهل السنّة والشيعة المؤكدة على إمامة أهل البيت عليهم السلام، والمشيرة صراحة إلى أنّ عددهم كعدد نقباء بني إسرائيل، وأنّ آخر هؤلاء الأئمّة هو الذي يملأ الأرض ـ في عهده ـ عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وأنّ أحاديث الإمام الثاني عشر الموسوم بالمهدي المنتظر قد رواها جملة من محدثي السنَّة في صحاحهم المختلفة كأمثال الترمذي (المتوفّى عام ٢٩٧هـ)، وأبي‌داود (المتوفّى عام ٢٧٥هـ) وغيرهم؛ حيث أسندوا رواياتهم هذه إلى جملة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله،

١. النور: ٥٥. ٢. القصص: ٥. ٣. الأنبياء: ١٠٥.

وصحابته، أمثال علي بن أبي‌طالب عليه السلام، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر وأُمّ سلمة زوجة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة وغيرهم:

١ ـ روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لو لم يبق من الدهر إلّا يوم واحد لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً**».(١)

٢ ـ أخرج أبو داود عن عبدالله بن مسعود: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**».(٢)

٣ ـ أخرج أبو داود عن أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول‌الله صلى الله عليه وآله يقول: «**المهدي من عترتي من ولد فاطمة**».(٣)

٤ ـ أخرج الترمذي عن ابن مسعود: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**».(٤)

إلى غير ذلك من الروايات المتضافرة التي بلغت أعلى مراتب التواتر على وجه حتّى قال الدكتور عبدالباقي: إنّ المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين أو راو أو روايين، إنّها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواة وأكثر من صاحب كتاب صحيح.(٥)

هذا هو المهدي الذي اتّفق المحدّثون والمتكلّمون عليه، وإنّما الاختلاف

---

١. مسند أحمد: ١/ ٩٩، ٣/ ١٧و ٧٠.
٢. جامع الأُصول: ١١/ ٤٨ برقم ٧٨١٠.
٣. جامع الأُصول: ١١/ ٤٨ برقم ٧٨١٢.
٤. المصدر نفسه برقم ٧٨١٠.
٥. بين يدي الساعة: ١٢٣.

بين الشيعة والسنّة في ولادته، فالشيعة ذهبت إلى أنّ المهدي الموعود هو الإمام الثاني عشر الذي ولد بسامراء عام ٢٥٥هـ واختفى بعد وفاة أبيه عام ٢٦٠هـ، وقد تضافرت عليه النصوص من آبائه، على وجه ما ترك شكّاً ولا شبهة[١] ووافقتهم جماعة من علماء أهل السنّة، وقالوا بأنّه ولد وأنّه محمّد بن الحسن العسكري.

نعم كثير منهم قالوا: بأنّه سيولد في آخر الزمان، وبما أنّ أهل البيت أدرى بما في البيت، فمن رجع إلى روايات أئمّة أهل البيت في كتبهم يظهر له الحق، وأنّ المولود للإمام العسكري هو المهدي الموعود.

ومّمن وافق من علماء أهل السنّة بأنّ وليد بيت الحسن العسكري هو المهدي الموعود:

١ ـ كمال الدين محمّد بن طلحة بن محمّد القرشي الشافعي في كتابه «مطالب السؤول في مناقب آل الرسول». وقد أثنى عليه من ترجم له مثل اليافعي في «مرآة الجنان» في حوادث سنة ٦٥٢هـ.

قال ـ بعد سرد اسمه ونسبه ـ: «**المهدي الحجّة، الخلف الصالح المنتظر، فأمّا مولده فبسر من رأى، وأمّا نسبه أباً فأبوه الحسن الخالص**» ثمّ أورد عدّة أخبار واردة في المهدي من طريق أبي داود، والترمذي ومسلم، والبخاري وغيرهم، ثمّ ذكر بعض الاعتراضات بالنسبة إلى أحواله عليه السلام من حيث الغيبة وطول العمر وغير ذلك، وأجاب عنها جميعاً، ثمّ قال رادّاً على تأويل البعض لهذه الروايات بأنّها لا تدلّ على أنّه محمّد بن الحسن العسكري

---

١. اقرأ هذه النصوص في كتاب «كمال الدين» للشيخ الصدوق: ٣٦٠ ـ ٣٨١، ترى فيه النصوص المتضافرة على أنّ المهدي الموعود هو ولد الإمام أبي محمّد الحسن العسكري وأنّ له غَيبة.

قائلاً: بأنّ الرسول لما وصفه وذكر اسمه ونسبه وجدنا تلك الصفات والعلامات موجودة في محمّد بن الحسن العسكري علمنا هو المهدي.

٢ ـ أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي في كتابيه: «البيان في أخبار صاحب الزمان» و «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب».

٣ ـ نور الدين علي بن محمّد بن الصباغ المالكي في كتابه: «الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة».

٤ ـ الفقيه الواعظ شمس الدين المعروف بسبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص».

إلى غير ذلك من علماء وحفّاظ ذكر أسماءهم وكلماتهم السيد الأمين في «أعيان الشيعة» وأنهاها إلى ثلاثة عشر، ثمّ قال: والقائلون بوجود المهدي من علماء أهل السنّة كثيرون، وفيما ذكرناه منهم كفاية، ومن أراد الاستقصاء فليرجع إلى كتابنا «البرهان على وجود صاحب الزمان» ورسالة «كشف الأستار» للشيخ حسين النوري.[1]

وقد كان الاعتقاد بظهور المهدي في عصر الأئمّة الهداة أمراً مسلّماً، حتى أنّ شاعراً مثل دعبل الخزاعي ذكره في قصيدته التي أنشدها لعلي بن موسى الرضا عليه السلام فقال:

خروج إمـام لا مـحالة قـائم يقوم على اسم الله والبركات

١. أعيان الشيعة: ٢ / ٦٤ ـ ٧٥.

يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

ولمّا وصل دعبل إلى هذين البيتين بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً ثمّ رفع رأسه، فقال له: «**يا خزاعي نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟**».

فقلت: لا يا مولاي، إلّا أنّي سمعت بخروج إمام منكم يطهّر الأرض من الفساد، ويملأها عدلاً كما ملئت جوراً.

فقال: «**يا دعبل، الإمام بعدي محمّد ابني (الجواد) وبعد محمّد ابنه علي (الهادي)، وبعد علي ابنه الحسن (العسكري)، وبعد الحسن ابنه الحجّة القائم، المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً، وأمّا متى؟ فإخبار عن الوقت، فقد حدّثني أبي عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذريتك؟ فقال: مثله الساعة لا يجلّيها لوقتها إلّا هو، ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة**».[1]

ثمّ إنّ للمهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه ـ غيبتين صغرى وكبرى، كما جاءت بذلك الأخبار عن أئمّة أهل البيت، أمّا الغيبة الصغرى فمن ابتداء إمامته إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته بوفاة السفراء وعدم نصب غيرهم، وقد مات السفير الأخير علي بن محمّد السمري عام ٣٢٩هـ، ففي هذه الفترة كان السفراء يرونه وربّما رآه غيرهم ويصلون إلى خدمته وتخرج على أيديهم توقيعات منه إلى شيعته في أُمور شتّى.

---

١. كمال الدين وتمام النعمة: ٢ / ٣٧٢.

وأمّا الغيبة الكبرى فهي بعد الأُولى إلى أن يقوم بإذن الله تعالى.

وأمّا من رأى الحجّة في زمان أبيه وفي الغيبة الصغرى وحتى في الكبرى، فحدّث عنه ولا حرج، وقد أُلّفت في ذلك كتب أحسنها وأجملها: «كمال الدين» للصدوق، و«الغيبة» للشيخ الطوسي.

فنذكر هنا بعض من رآه في صباه:

فيمن رأى المهدي في بيت الإمام العسكري:

إنّ هناك لفيفاً من أصحاب الإمام العسكري رأوا الإمام المهدي في أيام صباه، ووالده بعد حي. وها نحن نذكر من الكثير شيئاً قليلاً حتى لا يرتاب المنصف في ولادته:

١ ـ روى يعقوب بن منقوش قال: دخلت على أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام وهو جالس على دكّان في الدار، وعن يمينه بيت عليه ستر مسبل، فقلت له: من صاحب هذا الأمر؟ فقال: «ارفع الستر». فرفعته فخرج إلينا غلام خماسي له عشرة أو ثمان أو نحو ذلك، واضح الجبين أبيض الوجه، درّي المقلتين، شثن الكفين، معطوف الركبتين، في خدّه الأيمن خال، وفي رأسه ذؤابة، فجلس على فخذ أبي‌محمد، ثمّ قال لي: «هذا صاحبكم».[1]

٢ ـ روى إبراهيم بن محمد بن فارس النيسابوري قال: لما همّ الوالي عمر بن عوف بقتلي غلب عليَّ خوف عظيم، فودعت أهلي وتوجهت إلى دار أبـي مـحمّد لأُودّعـه، وكـنت أردت الهرب، فلمّا دخلت عليه رأيت غلاماً جالساً في

١. كمال الدين: ٢ / ٤٠٧ الباب ٣٨، الحديث ٢.

جنبه وكان وجهه مضيئاً كالقمر ليلة البدر، فتحيرت من نوره وضيائه وكاد ينسيني ما كنت فيه، فقال: «يا إبراهيم لا تهرب فإنّ الله سيكفيك شره»، فازداد تحيّري، فقلت لأبي محمّد: يا سيدي يا بن رسول الله ﷺ من هذا وقد أخبرني بما كان في ضميري؟ فقال: «هو ابني وخليفتي من بعدي».(١)

٣ ـ روى أحمد بن إسحاق قال: قلت لأبي محمد الحسن العسكري: يا ابن رسول اللهفمن الإمامِوالخليفة بعدك؟ فنهضعليه السلام مسرعاًفدخلالبيتثمّ خرج وعلى عاتقه غلام كأنّ وجهه القمر ليلة البدر، من أبناء ثلاث سنين، فقال: «يا أحمد بن إسحاق، لولا كرامتك علىٰ الله عزّوجلّ وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا، إنّه سميّ رسول اللهﷺوكنيّه، الّذي يملأ الأرض قسطاًوعدلاًكماملئتجوراً وظلماً».(٢)

٤ ـ روى أبو الحسين الحسن بن وجناء قال: حدثني أبي عن جده أنّه كان في دار الحسن بن عليعليه السلام فكبستنا الخيل وفيها جعفر بن علي الكذّاب واشتغلوا بالنهب والغارة وكانت همّتي في مولاي القائمعليه السلام، قال: فإذا أنا به، قد أقبل وخرج عليهم من الباب وأنا أنظر إليه وهوعليه السلام ابن ست سنين فلم يره أحد حتى غاب.(٣)

٥ ـ روى عبدالله بن جعفر الحميري قال: سألت أبا عمر عثمان بن سعيد العمري (أحد وكلاء الإمام أيام غيبته) فقلت له: هل أنت رأيت الخلف من بعد أبي محمدعليه السلام؟ فقال: أي والله ورقبته مثل ذا ـ أومأ بيده ـ فقلت له: فبقيت

---

١. إثبات الهداة: ٣/ ٧٠٠، الباب ٣٣، الحديث ١٣٦.
٢. كمال الدين: ٢/ ٣٨٤، الباب ٣٨، الحديث ١.
٣. المصدر نفسه: ٢/ ٤٧٣، الباب ٤٣، الحديث ٢٥.

واحدة؟ فقال لي: هات. قلت: الاسم؟ قال: محرّم عليكم أن تسألوا عن ذلك....[١]

٦ ـ روت حكيمة بنت الإمام محمد الجواد قالت: بعث إليَّ أبو محمّد الحسن بن علي عليه السلام فقال: «يا عمة اجعلي إفطارك هذه الليلة عندنا، فإنّها ليلة النصف من شعبان، فإنّ الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجة، وهو حجّته في أرضه». ثمّ إنّ حكيمة عمة الإمام العسكري تتحدث عن ولادة الإمام المهدي وتقول: فضممته إليَّ فإذا أنا به نظيف متنظف، فصاح بي أبو محمد عليه السلام: «هلمّ إليَّ ابني يا عمة»، فجئت إليه.... [٢]

٧ ـ وروى كامل بن إبراهيم فقال: دخلت على سيدي أبي محمد عليه السلام إذ نظرت إليه على ثياب بيض ناعمة فقلت في نفسي: ولي الله وحجّته يلبس الناعم من الثياب، ويأمرنا بمواساة إخواننا وينهانا عن لبس مثله، فقال الإمام: «يا كامل» وحسر عن ذراعيه، فإذا مسح أسود خشن، فقال: «هذا لله وهذا لكم»، فجاءت الريح، فكشفت طرفه، فإذا أنا بفتى كأنّه فلقة قمر من أبناء أربع سنين أو مثلها، فقال لي: «يا كامل بن إبراهيم». فاقشعررت من ذلك، والهمت أن قلت: لبيك يا سيدي. فقال: «جئت إلى وليّ الله وحجّته تريد أن تسأل: لا يدخل الجنة إلّا من عرف معرفتك وعرف مقالتك»... إلى أن قال: فنظر إليَّ أبو محمّد وتبسّم وقال: «يا كامل بن إبراهيم، ما جلوسك وقد أبانك المهدي والحجّة من بعدي بما كان في نفسك وجئت تسألني عنه». قال:

---

١. الكافي: ١/ ٣٢٩ الحديث ١.

٢. كمال الدين: ٢/ ٤٢٤، الباب ٤٢، الحديث ١.

فنهضت وقد أخذت الجواب الذي أسررته في نفسي من الإمام المهدي ولم ألقه بعد ذلك.[١]

هذه نماذج ممّن رأى الإمام المهدي بعد ولادته، وقبل غيبته ذكرناها ولو أردنا الاستقصاء لطال بنا المقام في المقال.

أسئلة مهمّة حول المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه ـ

إنّ القول بأنّ الإمام المهدي لا يزال حياً يرزق منذ ولادته عام ٢٥٥ هجرية إلى الآن، وأنّه غائب سوف يظهر بأمر من الله سبحانه، أثار أسئلة حول حياته وإمامته، نذكر رؤوسها:

١ ـ كيف يكون إماماً وهو غائب، وما الفائدة المرتقبة منه في غيبته؟

٢ ـ لماذا غاب؟

٣ ـ كيف يمكن أن يعيش إنسان هذه المدة الطويلة؟

٤ ـ ماهي أشراط وعلائم ظهوره؟

هذه أسئلة أُثيرت حول الإمام المهدي منذ أن غاب، وكلّما طالت غيبته اشتدّ التركيز عليها، وقد قام المحقّقون من علماء الإمامية بالإجابة عليها في مؤلّفات مستقلة لا مجال لنقل معشار ما جاء فيها، غير أنّ الإحالة لما كانت غير خالية عن المحذور، نبحث عنها على وجه الإجمال، ونحيل من أراد التبسّط إلى المصادر المؤلّفة في هذا المجال.

---

١. الغَيبة: ١٤٨؛ كشف الغمة: ٣/ ٢٨٩ عن الخرائج، وغيرهما من المصادر.

الأوّل: كيف يكون إماماً وهو غائب؟ وما فائدته؟

إنّ القيادة والهداية والقيام بوظائف الإمامة، هو الغاية من تنصيب الإمام، أو اختياره، وهو يتوقف على كونه ظاهراً بين أبناء الأُمة، مشاهداً لهم، فكيف يكون إماماً قائداً، وهو غائب عنهم؟!

والجواب: على وجهين نقضاً وحلاً.

أمّا النقض: فإنّ التركيز على هذا السؤال يعرب عن عدم التعرّف على أولياء الله، وأنّهم بين ظاهرٍ قائم بالأُمور ومُختَفٍ قائم بها من دون أن يعرفه الناس.

إنّ كتاب الله العزيز يعرّفنا على وجود نوعين من الأئمّة والأولياء والقادة للأُمّة: وليّ غائب مستور، لا يعرفه حتى نبي زمانه، كما يخبر سبحانه عن مصاحب موسى عليه السلام بقوله: ﴿**فَوَجَدا عَبْداً مِن عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِن لَدُنّا عِلْماً * قالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾ الآيات[1].

ووليّ ظاهر باسط اليد، تعرفه الأُمّة وتقتدي به.

فالقرآن إذن يدلّ على أنّ الولي ربّما يكون غائباً، ولكنّه مع ذلك لا يعيش في غفلة عن أُمّته، بل يتصرّف في مصالحها ويرعى شؤونها، من دون أن يعرفه أبناء الأُمّة.

---

١. الكهف: ٦٥ ـ ٨٢.

فعلى ضوء الكتاب الكريم، يصحّ لنا أن نقول بأنّ الولي إمّا ولي حاضر مشاهَد، أو غائب محجوب.

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب في كلامه لكميل بن زياد النخعيّ، يقول كميل: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبّان، فلمّا أصحر، تنفَّس الصعداء، وكان ممّا قاله: «**اللّهم، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّةٍ، إمّا ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً لئلّا تبطل حُجج الله وبيِّناته**».(١)

وليست غيبة الإمام المهدي، بِدعاً في تاريخ الأولياء، فهذا موسى بن عمران، قد غاب عن قومه قرابة أربعين يوماً، وكان نبيّاً وليّاً، يقول سبحانه:

﴿**وواعَدنا موسى ثلاثينَ لَيلةً وأتممناها بِعَشرٍ فَتمَّ ميقاتُ ربِّهِ أربعينَ لِيلةً وقالَ مُوسى لأخيهِ هارونَ اخلُفني في قومي وأصلح ولا تتّبعْ سبيلَ المفسدين**﴾(٢).

وهذا يونس كان من أنبياء الله سبحانه، ومع ذلك فقد غاب في الظلمات كما يقول سبحانه: ﴿**وذا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى في الظُّلُمات أن لا إِله إلّا أنت سُبحانك إِنّي كُنْتُ من الظَّالمين * فاستجبنا له ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكذلك نُنْجي المُؤْمنين**﴾(٣).

أولم يكن موسى ويونس نبيَّين من أنبياء الله سبحانه؟ وما فائدة نبي يغيب عن الأبصار، ويعيش بعيداً عن قومه؟

---

١. نهج البلاغة بتعليقات عبده: ٣/ ١٨٦قصار الحكم، الرقم ١٤٧.
٢. الأعراف: ١٤٢. ٣. الأنبياء: ٨٧ـ ٨٨.

فالجواب في هذا المقام، هو الجواب في الإمام المهدي عليه السلام، وسيوافيك ما يفيدك من الانتفاع بوجود الإمام الغائب في زمان غيبته في جواب السؤال التالي.

وأمّا الحلّ: فمن وجوه:

الأوّل: إنّ عدم علمنا بفائدة وجوده في زمن غيبته، لايدلّ على عدم كونه مفيداً في زمن غيبته، فالسائل جَعَلَ عدم العلم طريقاً إلى العلم بالعدم!! وكم لهذا السؤال من نظائر في التشريع الإسلامي، فيقيم البسطاء عدم العلم بالفائدة، مقام العلم بعدمها، وهذا من أعظم الجهل في تحليل المسائل العلمية، ولا شك أنّ عقول البشر لا تصل إلى كثير من الأُمور المهمّة في عالم التكوين والتشريع، بل لا تفهم مصلحة كثير من سننه، وإن كان فعله سبحانه منزّهاً عن العبث، بعيداً عن اللغو.

وعلى ذلك فيجب علينا التسليم أمام التشريع إذا وصل إلينا بصورة صحيحة كما عرفت من تواتر الروايات على غَيبته.

الثاني: إنّ الغَيبَة لا تلازم عدم التصرف في الأُمور، وعدم الاستفادة من وجوده، فهذا مصاحب موسى كان ولياً، لجأ إليه أكبر أنبياء الله في عصره، فقد خرق السفينة التي يمتلكها المستضعفون ليصونها عن غصب الملك، ولم يَعْلَم أصحاب السفينة بتصرّفه، وإلّا لصدُّوه عن الخرق، جهلاً منهم بغاية علمه. كما أنّه بنى الجدار، ليصون كنز اليتيمين، فأي مانع حينئذ من أن يكون للإمام الغائب في كلّ يوم وليلة تصرّف من هذا النمط من التصرّفات. ويؤيد ذلك ما دلّت عليه الروايات من أنّه يحضر الموسم في أشهر الحج، ويحجّ ويصاحب الناس،

ويحضر المجالس، كما دلّت على أنّه يغيث المضطرين، ويعود المرضى، وربّما يتكفّل ـ بنفسه الشريفة ـ قضاء حوائجهم، وإن كان الناس لا يعرفونه.

الثالث: المُسَلّم هو عدم إمكان وصول عموم الناس إليه في غَيبته، وأمّا عدم وصول الخواص إليه، فليس بأمر مسلّم، بل الذي دلّت عليه الروايات خلافه، فالصلحاء من الأُمّة الذين يُستَدَرُّ بهم الغمام، لهم التشرّف بلقائه، والاستفادة من نور وجوده، وبالتالي تستفيد الأُمّة بواسطتهم.

الرابع: لا يجب على الإمام أن يتولّى التصرّف في الأُمور الظاهرية بنفسه، بل له تولية غيره على التصرف في الأُمور كما فعل الإمام المهدي ـ أرواحنا له الفداء ـ في غَيبته. ففي الغيبة الصغرى، كان له وكلاء أربعة، يقومون بحوائج الناس، وكانت الصلة بينه وبين الناس مستمرّة بهم. وفي الغيبة الكبرى نصب الفقهاء والعلماء العدول العالمين بالأحكام، للقضاء وتدبير الأُمور، وإقامة الحدود، وجعلهم حجة على الناس، فهم يقومون في عصر الغيبة بصيانة الشرع عن التحريف، وبيان الأحكام، ودفع الشبهات، وبكل ما يتوقّف عليه نظم أُمور الناس.[1]

---

١. المراد من الغيبة الصغرى، غيبته ـ صلوات الله عليه ـ منذ وفاة والده عام ٢٦٠هـ إلى عام ٣٢٩هـ، وقد كانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بواسطة وكلائه الأربعة: الشيخ أبي عمرو عثمان بن سعيد العمري، وولده الشيخ أبي جعفر محمّد بن عثمان، والشيخ أبي القاسم الحسين بن روح من بني نوبخت، والشيخ أبي الحسن علي بن محمد السَّمري.
والمراد من الغيبة الكبرى: غيبته من تلك السنة إلى زماننا هذا، انقطعت فيها النيابة الخاصّة عن طريق أشخاص معينين، وحلّ محلّها النيابة العامّة بواسطة الفقهاء والعلماء العدول، كما جاء في توقيعه الشريف: «وأمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم» (كمال الدين، الباب ٤٥، ص ٤٨٤).

وإلى هذه الأجوبة أشار الإمام المهدي عليه السلام في آخر توقيع له إلى بعض نوّابه، بقوله: «**وأمّا وجهُ الانتفاع بي في غَيبتي، فكالانتفاع بالشَّمسِ إذا غيّبَها عن الأبصارالسحاب**».[1]

الثاني: لماذا غاب المهدي عليه السلام؟

إنّ ظهور الإمام بين الناس، يترتّب عليه من الفائدة ما لا يترتب عليه في زمن الغيبة، فلماذا غاب عن الناس، حتى حرموا من الاستفادة من وجوده، وما هي المصلحة التي أخفته عن أعين الناس؟

الجواب:

أنّ هذا السؤال يجاب عليه بالنقض والحل:

أمّا النقض: فبما ذكرناه في الإجابة عن السؤال الأوّل، فإنّ قصور عقولنا عن إدراك أسباب غيبته، لا يجرّنا إلى إنكار المتضافرات من الروايات، فالاعتراف بقصور أفهامنا أولى من ردّ الروايات المتواترة، بل هو المتعّين.

وأمّا الحلّ: فإنّ أسباب غيبته، واضحة لمن أمعن فيما ورد حولها من الروايات، فإنّ الإمام المهدي عليه السلام هو آخر الأئمة الاثني عشر الذين وعد بهم الرسول، وأناط عزّة الإسلام بهم، ومن المعلوم أنّ الحكومات الإسلامية لم تُقدِّرْهُم، بل كانت لهم بالمرصاد، تلقيهم في السجون وتريق دماءهم الطاهرة

---

١. كمال الدين: ٤٨٥، الباب ٤٥، الحديث ٤. وقد ذكر العلّامة المجلسي في وجه تشبيهه بالشمس إذا سترها السحاب، وجوهاً، راجعها في بحار الأنوار: ٥٢ / ٩٣ ـ ٩٤، الباب ٢٠.

بالسيف أو السمّ، فلو كان ظاهراً، لأقدموا على قتله، إطفاءً لنوره، فلأجل ذلك اقتضت المصلحة أن يكن مستوراً عن أعين الناس، يراهم ويرونه ولكن لا يعرفونه، إلى أن تقتضي مشيئة الله سبحانه ظهوره، بعد حصول استعدادٍ خاص في العالم لقبوله، والانضواء تحت لواء طاعته، حتى يحقّق الله تعالى به ما وعد به الأُمم جمعاء من توريث الأرض للمستضعفين.

وقد ورد في بعض الروايات إشارة إلى هذه النكتة، روى زرارة قال: سمعت أبا جعفر (الباقر عليه السلام) يقول: «إنّ للقائم غَيبة قبل أن يقوم»، قال: قلت: ولِمَ؟ قال: «يخاف». قال زرارة: يعني القتل.

وفي رواية أُخرى: يخاف على نفسه الذبح.[1]

وسيوافيك ما يفيدك عند الكلام عن علائم ظهوره.

الثالث: الإمام المهدي وطول عمره:

إنّ من الأسئلة المطروحة حول الإمام المهدي، طول عمره في فترة غَيبته، فإنّه ولد عام ٢٥٥هـ، فيكون عمره إلى العصر الحاضر أكثر من ألف ومائة وخمسين عاماً، فهل يمكن في منطق العلم أن يعيش إنسان هذا العمر الطويل؟

الجواب:

من وجهين، نقضاً وحلّاً.

---

١. لاحظ كمال الدين: ٢٨١، الباب ٤٤، الحديث ٨ و٩ و١٠.

أمّا النقض: فقد دلّ الذكر الحكيم على أنّ شيخ الأنبياء عاش قرابة ألف سنة، قال تعالى: ﴿**فَلَبِثَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسينَ عاماً**﴾[١].

وقد تضمّنت التوراة أسماء جماعة كثيرة من المعمّرين، وذكرت أحوالهم في سِفْر التكوين[٢].

وقد قام المسلمون بتأليف كتب حول المعمّرين، ككتاب «المعمّرين» لأبي حاتم السجستاني، كما ذكر الصدوق أسماء عدّة منهم في كتاب «كمال الدين»[٣]، والعلّامة الكراجكي في رسالته الخاصّة، باسم « البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان»[٤]، والعلاّمة المجلسي في البحار[٥]، وغيرهم.

وأمّا الحلّ: فإنّ السؤال عن إمكان طول العمر، يعرب عن عدم التعرّف على سعة قدرة الله سبحانه: ﴿**وَما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[٦]، فإنّه إذا كانت حياته وغيبته وسائر شؤونه، برعاية الله سبحانه، فأي مشكلة في أن يمدّ الله سبحانه في عمره ما شاء، ويدفع عنه عوادي المرض ويرزقه عيش الهناء.

وبعبارة أُخرى: إنّ الحياة الطويلة إمّا ممكنة في حد ذاتها أو ممتنعة،

---

١. العنكبوت: ١٤.
٢. التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الخامس، الجملة ٥، وذكر هناك أعمار آدم، وشيث، ونوح، وغيرهم.
٣. كمال الدين: ٥٥٥.
٤. البرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، ملحق بـ«كنز الفوائد»، له. أيضاً الجزء الثاني. لاحظ في ذكر المعمرين ص ١١٤ ـ ١٥٥.
٥. بحار الأنوار: ٥١ / ٢٢٥ ـ ٢٩٣، الباب ١٤.
٦. الأنعام: ٩١.

والثاني لم يقل به أحد، فتعيّن الأوّل، فلا مانع من أن يقوم سبحانه بمدّ عمر وليّه، لتحقيق غرض من أغراض التشريع.

أضف إلى ذلك ما ثبت في علم الحياة، من إمكان طول عمر الإنسان إذا كان مراعياً لقواعد حفظ الصحة، وأنّ موت الإنسان في فترة متدنية، ليس لقصور الاقتضاء، بل لعوارض تمنع عن استمرار الحياة، ولو أمكن تحصين الإنسان منها بالأدوية والمعالجات الخاصة لطال عمره ما شاء الله.

وهناك كلمات ضافية من مَهَرة علم الطب في إمكان إطالة العمر، وتمديد حياة البشر، نشرت في الكتب والمجلات العلمية المختلفة.[١]

وبالجملة، اتّفقت كلمة الأطباء على أنّ رعاية أُصول حفظ الصحّة، توجب طول العمر، فكلّما كثرت العناية برعاية تلك الأُصول، طال العمر، ولأجل ذلك نرى أنّ الوفيات في هذا الزمان، في بعض الممالك، أقلّ من السابق، والمعمّرين فيها أكثر من ذي قبل، وما هو إلّا لرعاية أُصول الصحّة، ومن هنا أُسّست شركات تضمن حياة الإنسان إلىٰ أمد معلوم تحت مقرّرات خاصة وحدود معيّنة، جارية على قوانين حفظ الصحّة، فلو فرض في حياة شخص اجتماع موجبات الصحّة من كلّ وجه، طال عمره إلى ما شاء الله.

وإذا قرأت ما تُدَوِّنه أقلام الأطباء في هذا المجال، يتّضح لك معنى قوله سبحانه: ﴿**فَلَوْلا أَنّه كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إِلىٰ يَومِ يُبْعَثونَ**﴾[٢].

فإذا كان عيش الإنسان في بطون الحيتان، في أعماق المحيطات، ممكناً

١. لاحظ مجلة المقتطف، الجزء الثالث من السنة التاسعة والخمسين.
٢. الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤.

إلى يوم البعث، فكيف لا يعيش إنسان على اليابسة، في أجواء طبيعية، تحت رعاية الله وعنايته، إلى ما شاء الله؟

الرابع: ماهي علائم ظهوره عليه السلام؟

إذا كان للإمام الغائب، ظهورٌ بعد غيبة طويلة، فلا بدّ من أن يكون لظهوره علامات وأشراط تخبر عن ظهوره، فما هي هذه العلامات؟

الجواب:

إنّ ما جاء في كتب الأحاديث من الحوادث والفتن الواقعة في آخر الزمان على قسمين:

قسم هو من أشراط الساعة وعلامات دنوّ القيامة.

وقسم هو ما يقع قبل ظهور المهدي المنتظر.

وربّما وقع الخلط بينهما في الكتب، ونحن نذكر القسم الثاني منهما، وهو عبارة عن أُمور عدّة، منها:

١ ـ النداء في السماء.

٢ ـ الخسوف والكسوف في غير مواقعهما.

٣ ـ الشقاق والنفاق في المجتمع.

٤ ـ ذيوع الجور والظلم والهرج والمرج في الأُمّة.

٥ ـ ابتلاء الإنسان بالموت الأحمر والأبيض.

٦ ـ قتل النفس الزكية.

٧ ـ خروج الدجّال.

٨ ـ خروج السفياني.

وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الإسلامية.[١]

هذه هي علامات ظهوره، ولكن هناك أُمور تمهّد لظهوره، وتسهّل تحقيق أهدافه نشير إلى إبرزها:

١ ـ الاستعداد العالمي: والمراد منه أنّ المجتمع الإنساني ـ وبسبب شيوع الفساد ـ يصل إلى حدّ، يقنط معه من تحقّق الإصلاح بيد البشر، وعن طريق المنظمات العالمية التي تحمل عناوين مختلفة، وأنّ ضغط الظلم والجور على الإنسان يحمله عن أن يُذعن ويُقرّ بأنّ الإصلاح لا يتحقّق إلّا بظهور إعجاز إلهي، وحضور قوّة غيبية، تدمّر كلّ تلك التكتلات البشرية الفاسدة، التي قَيّدَتْ بسلاسلها أعناق البشر.

٢ ـ تكامل العقول: إنّ الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام لا تتحقّق بالحروب والنيران والتدمير الشامل للأعداء، وإنّما تتحقّق برغبة الناس إليها، وتأييدهم لها، لتكامل عقولهم ومعرفتهم.

يقول الإمام الباقر عليه السلام في حديث له يرشد فيه إلى أنّه إذا كان ذلك الظرف، تجتمع عقول البشر وتكتمل أحلامهم: «**إذا قام قائمنا، وَضَعَ الله يده على رؤوس العباد، فيجمع بها عقولهم، وكملت به أحلامهم**».[٢]

---

١. لاحظ للوقوف على هذه العلامات، بحار الأنوار: ٥٢/ ١٨١ ـ ٣٠٨، الباب ٢٥؛ كتاب المهدي، للسيد صدر الدين الصدر؛ ومنتخب الأثر: ٤٢٤ ـ ٤٦٢.

٢. منتخب الأثر: ٤٨٣.

فقوله عليه السلام: «فيجمع بها عقولهم»، بمعنى أنّ التكامل الاجتماعي يبلغ بالبشر إلى الحدّ الذي يَقْبَلُ فيه تلك الموهبة الإلهية، ولن يترصّد للثورة على الإمام والانقلاب عليه، وقتله أو سجنه.

٣ ـ **تكامل الصناعات**: إنّ الحكومة العالمية الموحّدة لا تتحقق إلّا بتكامل الصناعات البشرية، بحيث يسمع العالم كلّه صوته ونداءه، وتعاليمه وقوانينه في يوم واحد، وزمنٍ واحدٍ.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ المؤمنَ في زمان القائم، وهو بالمشرق يرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي بالمشرق**».[1]

٤ ـ **الجيش الثوري العالمي**: إنّ حكومة الإمام المهدي، وإن كانت قائمة على تكامل العقول، ولكن الحكومة لا تستغني عن جيش فدائي ثائر وفعّال، يُمَهِّد الطريق للإمام عليه السلام ويواكبه بعد الظهور إلى تحقّق أهدافه وغاياته المتوخّاة.

---

١. منتخب الأثر: ٤٨٣.

حصيلة البحث

هؤلاء هم أئمّة الشيعة وقادتهم بل أئمّة المسلمين جميعاً، وكيف لا يكونون كذلك؟ وقد ترك رسول الله بعد رحلته الثقلين وحثّ الأُمّة على التمسّك بهما وقال: «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**».[1]

ولكن المؤسف أنّ أهل السنّة والجماعة لم يعتمدوا في تفسير كتاب الله العزيز على أقوال أئمّة أهل البيت وهم قرناء القرآن وأعداله والثقل الآخر من الثقلين، وإنّما استعانوا في تفسيره بأُناس لا يبلغون شأوهم ولا يشقّون غبارهم، نظراء مجاهد بن جبر (المتوفّى عام ١٠٤هـ)، وعكرمة البربري (المتوفّى عام ١٠٤هـ)، وطاووس بن كيسان اليماني (المتوفّى عام ١٠٦هـ) وعطاء بن أبي رباح (المتوفّى عام ١١٤هـ)، ومحمّد بن كعب القرظي (المتوفّى عام ١١٨هـ)، إلى غير ذلك من أُناس لا يبلغون في الوثاقة والمكانة العلمية معشار ما عليه أئمّة أهل البيت ـ صلوات الله عليهم ـ...

فالإسلام عقيدة وشريعة، والنجاة عن الضلال ـ حسب مفاد حديث الثقلين ـ هو الرجوع إليهما، وأمّا غيرهما فإن رجع إليهما فنعم المطلوب وإلّا فلا قيمة له، أمّا الصحابة والتابعون، فلا يعتد برأيهم إلّا إذا كان مأخوذاً عن كتابه سبحانه أو سنّة نبيّه، وليس حديث أئمّة أهل البيت إلّا إشراقاً خالداً لحديث جدّهم الأكرم وسنّته.

الفصل الثاني عشر:

---

١. رواه غير واحد من أصحاب الصحاح والمسانيد وهو من الأحاديث المتواترة، (لاحظ نشرة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، حول هذا الحديث، ترى أسنادها موصولة إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله).

دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلاميّة

تمهيد

إنّ الحديث عن دور الإنسان في بناء الحضارة البشرية حديث ذو شجون لا يسع المرء وهو يتحدّث عنه إلّا أن يتبيّـن بوضوح أثـر العـمق العـقائدي فـي اسـتقرار هـذه الحـضارات المتلاحقة والتي تركت ـ وبلا شكّ ـ لها بعض الآثار الدالّة عليها، وهذا العامل الداعم لقيام تلك الحضارات يكون وبلا أدنى ريب المفصل الأساسي في هيكلية ذلك البناء الكبير.

ولقد شهدت الحياة البشرية على هذا الكوكب (الأرض) حضارات متعدّدة، لكلّ ميزاتـها وخصائصها التيضبطها التاريخ، وأفصحت عنها الاكتشافات الأثرية.

ومن مشاهير هذه الحضارات: الحضارة الصينية، المصرية، البابلية، اليونانية، الرومانية، الفارسية، وأخيراً الحضارة الغربية القائمة فـي عـصرنا الحـاضر، ولكـلّ مـن هـذه الحـضارات انطباعاتها الخاصة.

وأمّا الحضارة الإسلامية و التي تتوسّط بين الحضارة الأخيرة (الغربية) وما تقدّمها فهي تعدّ بلا شكّ من أكبر الحضارات في تاريخ الإنسان وأكثرها اهتماماً بالعلم والفـلسفة والأدب والفنون. وهي الأساس الوطيد الذي قامت عليه

حركة النهضة الأوروبية. ولقد وضع عشرات من العلماء موسوعات وكتباً لبيان ما قدّمته الحضارة الإسلامية من خدمات جليلة إلى المجتمع البشري في المجالات المختلفة.

ولا يمكن لأحد القول بأنّ الحضارة الإسلامية حضارة عربية بحتة تفرَّد العرب في إقامة بنيانها وتثبيت أركانها، بقدر ما كانت تمثّل الجهد المتفاعل لجميع الشعوب الإسلامية بقومياتها المختلفة من عرب وفرس وترك وغيرهم من القوميات، الذين ذابوا في الإسلام ونسوا قوميّاتهم ومشخّصاتهم العنصرية والبيئية.

ومن هنا فإنّ أيّ تعبير عن الحضارة التي سادت إبّان تلك الحقبة الزاهرة من حياة البلاد العربية وما يجاورها، فإنّ المراد به الإشارة إلى الحضارة الإسلامية بكلّ أبعادها وأُسس بنيانها، والتي شارك فيها جميع المسلمين، المخلصين لرسالة السماء التي جاء بها نبيّ الرحمة محمّد صلى الله عليه وآله.

إنّ المسلمين الأوائل وبفضل جهدهم المخلص في بناء حياة الأُمم والشعوب، استطاعوا أن يقيموا للإسلام حضارة عظيمة ورائعة مترامية الأطراف كانت متوازية مع خطّ انتشار الدعوة الإسلامية، فلا غرو أن تخفق راياتها في بقاع واسعة من العالم تمتد من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

بلى لقد استطاع المسلمون أن يقيموا حضارة حقيقية ترتكز على أُسس أخلاقية وعقائدية سماوية، ضربت جذورها في أعماق البناء الإنساني واستطاعت أن تجعل منه وكما أراد خالقه له أن يكون خليفته في أرضه.

وإذا كان «ويل دورانت» في كتابه الشهير «قصّة الحضارة» قد أشار إلى أنّ الحضارة تتألّف من عناصر أربعة، وهي:

١ ـ الموارد الاقتصادية.

٢ ـ النظم السياسية.

٣ ـ التقاليد الخلقية.

٤ ـ متابعة العلوم والفنون.

وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحرّرت في نفسه دوافع التضلّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفكّ الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.[١]

فإنّ ما ذكره ذلك العالم الباحث من أُسس الحضارة وأركانها يرجع إلى تفسير الحضارة بالمعنى الجامع الشامل للحضارة الإلٰهية والماديّة، وأمّا بالنظر إلى الحضارة المرتكزة على الأُسس الدينية فمن أهمّ أركانها توعية الإنسان في ظلال الاعتقاد بالله سبحانه واليوم الآخر، حتى يكون هو الدافع إلى العمل والالتزام بالسلوك الأخلاقي والديني، فالحضارة المنقطعة عن التوعية الدينية حضارة صناعية لا إنسانية، وتمدّن مادّي وليس بإلٰهي.

إنّ مؤسّس الحضارة الإسلامية هو النبيّ الأكرمﷺ، وقد جاء بسنن وقوانين دفعت البشرية إلى مكارم الأخلاق كما دفعتهم إلى متابعة العلوم

---

١. قصة الحضارة: ١/ ٣.

والفنون، واستغلال الموارد الطبيعية، وتكوين مجتمع تسود فيه النظم الاجتماعية المستقيمة.

ولا يشكّ في ذلك من قرأ تاريخ الإسلام، وتاريخ النبيّ الأكرمﷺ، خصوصاً إذا قارن بين حياة البشرية بعد بزوغ شمس الإسلام بما قبلها.

ثمّ إنّ المسلمين شيّدوا أركان الحضارة الإسلامية في ظل الخطوط التي رسمها النبيّ الأكرمﷺ من خلال القرآن والسنّة، فأصبحت لهم قوّة اقتصادية، ونظم سياسية، وتقاليد دينية وخلقية، وأعطوا العلوم المختلفة جلّ اهتمامهم، فبرز منهم العديد من العلماء المتفوّقين والبارعين في شتّىٰ مناحي العلم، ورفدوا حركة تطوّر الحضارة البشرية بجهودهم المخلصة، والتي تعكسها مؤلّفاتهم القيّمة والتي لا زالت حتّى يومنا هذا مثار إعجاب الجميع، بل إنّهم عمدوا إلى ترجمة كتب العلم المختلفة لدى غيرهم من الأُمم، مثل الفرس واليونانيين وغيرهم، فأغنوا المكتبة الإسلامية بسيل وافر من المؤلّفات القيّمة والمهمة.

لقد شملت الحضارة الإسلامية كلّ ميادين الحياة المختلفة، فلم تلق جلّ جهدها في جانب واحد من جوانب الرقيّ الحضاري دون غيره، بل شمل اهتمامها كلّ جوانب الحياة المختلفة، وتلك حقيقة لا يمكن لأحد الإغضاء عنها، فإذا كانت كلّ حضارة من الحضارات المعروفة قد تميّزت برقيّ في جانب واحد من الجوانب الحياتية، سواء الاقتصادي كان أو العسكري، فإنّ الحضارة الإسلامية تتمتّع بمجموع هذه المميزات؛ فلم تترك ميزة دون أُخرى.

والذي يطيب لنا هنا ذكر مشاركة الشيعة في بناء هذه الحضارة، خصوصاً

فيما يتعلّق بالركن الرابع وهو متابعة العلوم والفنون، وأمّا الأركان الثلاثة الباقية فغير مطلوبة لنا في هذا المقام؛ وذلك لأنّ الموارد الاقتصادية شارك فيها المسلمون انطلاقاً من دوافعهم النفسية من خلال الاهتمام بالأُمور التالية:

١ ـ التنمية الزراعية بجوانبها المختلفة.

٢ ـ استخراج وصناعة المعادن المختلفة، مثل الذهب والفضة والأحجار الكريمة بأنواعها النفيسة المختلفة.

٣ ـ إحداث القنوات المائية وبناء السدود.

٤ ـ الاهتمام بتطوير الثروة الحيوانية وتوسيعها.

٥ ـ صناعة الألبسة والأقمشة وغيرها.

٦ ـ صناعة الورق وكتابة الكتب ونشرها في العالم.

٧ ـ إيجاد المواصلات البريّة و البحريّة، وتنظيم حركة الملاحة، ومحاربة قطّاع الطرق واللصوص في البرّ والبحر.

٨ ـ العناية الفائقة بالتجارة، وعقد الاتّفاقيات التجارية مع البلدان المجاورة.

إلى غير ذلك ممّا يوجب ازدهار الوضع الاقتصادي، فلا يصح إبعاد قوم عن تلك الساحة وتخصيص الازدهار الاقتصادي بطائفة دون أُخرى؛ فإنّ الإنسان حسب الفطرة والدافع الغريزي ينساق إلى ذلك.

وأمّا النظم السياسية؛ فإنّ الدول الإسلامية المختلفة قد ساهمت في إرساء دعائمها وتثبيت أركانها خلال سني حكمها، ولا فرق في ذلك بين دول الشيعة

منها كالحمدانيين والبويهيين والفاطميين وغيرهم كالساميين والسلاجقة وغيرهم.

وأمّا التقاليد الخلقية فقد كانت منبثقة من صميم الإسلام، ومأخوذة من الكتاب والسنّة، كما أنّ التقاليد القومية للشعوب المختلفة، والتي لم تكن معارضة لمبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء فقد فسح لها الإسلام المجال ولم ينه عنها.

فلأجل ذلك نركّز علىالركن الرابع منهذه الأركان الأربعة للحضارة، وهو متابعة العلوم والفنون، فهي الطابع الأساسي للحضارة الإسلامية، وبها تتميّز عمّا تقدّم عليها وما تأخّر، فنأتي بموجز عن دور الشيعة في بناء هذا الركن ـ أي ازدهار العلوم والفنون ـ ليظهر أنّهم كانوا فيالطليعة، وكان لهم الدور الأساسي في ازدهارها.

ولمّا كانت الحضارة الإسلامية تستمدّ أسباب وجودها من الكتاب والسنّة، فكلّ من قدّم خدمة للقرآن والسنّة لفظاً ومعنى، صورة ومادة، فقد شارك في بناء الحضارة الإسلامية. وإليك هذا البيان تأييداً لما أسلفنا:

١ـ قدماء الشيعة وعلم البيان

٢ـ قدماء الشيعة وعلم النحو

إنّ دراسة القرآن بين الأُمّة ونشر مفاهيمه يتوقّف على معرفة العلوم التي تعدّ مفتاحاً له؛ إذ لولا تلك العلوم لكانت الدراسة ممتنعة، ونشرها في ربوع العالم غير ميسور جدّاً. بل لولا هذه العلوم ونضجها لحرم جميع

المسلمين حتّى العرب منهم من الاستفادة من القرآن الكريم؛ لأنّ الفتوحات فرضت على المجتمع العربي الاختلاط مع بقية القوميات، وسبَّب ذلك خطراً على بقاء اللغة العربية، وكان العرب عند ظهور الإسلام يعربون كلامهم على النحو الذي كان في القرآن، إلّا من خالطهم من الموالي والمتعرّبين، ولكن اللحن لم يكثر إلّا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق، فشاع اللحن في قراءة القرآن، فمسّت الحاجة الشديدة إلى ضبط قواعد اللّغة.[١]

فقام أبو الأسود الدؤلي بوضع قواعد نحوية بأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأبو الأسود إمّا واضع علم النحو أو مدوّنه، وكان من سادات التابعين، وقد صاحب عليّاً وشهد معه صفّين، ثمّ أقام في البصرة.

يقول الشيخ أبو الحسن سلامة الشامي النحوي: إنّ علياً دخل عليه أبو الأسود يوماً. قال: فرأيته مفكّراً، فقلت له: ما لي أراك مفكّراً يا أمير المؤمنين؟ قال: «**إنّي سمعت من بعض الناس لحناً، وقد هممت أن أضع كتاباً أجمع فيه كلام العرب**».

فقلت: إن فعلت ذلك أحييت أقواماً من الهلاك.

فألقى إليَّ صحيفة فيها: «**الكلام كلّه اسم وفعل وحرف، فالاسم ما دلّ على المسمّى، والفعل ما دلّ على حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى وليس باسم ولا فعل**». وجعل يزيد على ذلك زيادات.

قال: واستأذنته أن أصنع في النحو ما صنع، فأذن، وأتيته به فزاد فيه ونقص.

---

١. تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ٢١٩.

وفي رواية: أنّه ألقى إليه الصحيفة وقال له: «**انحَ نحو هذه**» فلهذا سمّي النحو نحواً.[١]

ومن المعلوم أنّ هذه القواعد لم تكن لتسد الحاجة الملحّة، ولكن أبا الأسود قام بإكمالها وضبطها وبتمييز المنصوب من المرفوع، والاسم من الفعل، بعلامات نسمّيها الإعراب. فالروايات مجمعة على أنّ أبا الأسود (وهو شيعي المذهب توفّي سنة ٦٩هـ) إمّا مدوّن علم النحو أو واضعه، وأضحى ما دوّنه مصدراً لهذا العلم في العصور اللاحقة.

وهناك كلام لابن النديم دونك لفظه، يقول:

قال محمّد بن إسحاق: زعم أكثر العلماء أنّ النحو أُخذ عن أبي الأسود الدؤلي، وأنّ أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ثمّ نقل عن الطبري وقال: إنّما سمّي النحو نحواً لأنّ أبا الأسود الدؤلي قال لعليّ عليه السلام وقد ألقى عليه شيئاً من أُصول النحو، قال أبو الأسود: واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع. فسمّي ذلك نحواً.[٢]

٢ ـ وإذا كان أبو الأسود الدؤلي واضعاً للنحو، فالخليل بن أحمد الفراهيدي هو المنقّح له والباسط له. قال أبو بكر محمّد بن الحسن الزبيدي: والخليل بن أحمد، أوحد العصر، وفريد الدهر، وجهبذ الأُمّة، وأُستاذ أهل الفطنة، الذي لم ير نظيره، ولا عرف في الدنيا عديله، وهو الذي بسط النحو ومدّ

---

١. تأسيس الشيعة: ٥١. ولقد بلغ الغاية في ذلك المجال فنقل كلمات المؤرّخين فيما قام به الإمام وتلميذه في تأسيس علم النحو.

٢. فهرست ابن النديم: ٦٦، وللكلام صلة فمن أراد فليرجع إلى المصدر.

أطنابه وبيّن علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه، حتّى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غايته... وسيوافيك أنّ الخليل من أصحاب الإمام الصادق ومن شيعته.

ثمّ إنّ علماء الفريقين شاركوا في إنضاج هذا العلم وإيصاله إلى القـمّة. وليس للـمنصف بخس حق طائفة لمصالح أُخرى، ولكن لمّا كان الهدف هو بيان دور الشيعة في تطوير العلوم وتتبّعها فانّا نذكر من ألّف في علم النحو من قدماء الشيعة فقط، ومنهم:

١ ـ عطاء بن أبي الأسود: قال الشيخ الطوسي في باب أصحاب الحسين بن عليّ: ومنهم ابن أبي الأسود الدؤلي.

وقال الحافظ السيوطي في الطبقات: عطاء، أُستاذ الأصمعي وأبو عبيدة.[١]

٢ ـ أبو جعفر محمّد بن الحسن بن أبي سارة الرواسي الكوفي: قال السيوطي: هو أوّل من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو وسمّـاه الفيصل، وهو أُستاذ الكسائي والفرّاء.[٢]

قال النجاشي: روى هو وأبوه عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وله: كتاب الوقف والابتداء، وكتاب الهمز، وكتاب إعراب القرآن.[٣]

٣ ـ حمران بن أعين، أخو زرارة بن أعين: كان نحوياً إماماً فيه، عالماً بالحديث واللغة والقرآن، أخذ النحو والقراءة عن ابن أبي الأسود، وأخذ عنه

---

١. تأسيس الشيعة: ٦٥. ٢. المصدر نفسه: ٦٧.
٣. رجال النجاشي: ٢/ ٢٠٠ برقم ٨٨٤.

الفرّاء، وكان قد أخذ الحديث عن الإمام السجّاد والباقر والصادق. وآل أعين بيت كبير بالكوفة من أجلّ بيوت الشيعة، ولأبي غالب الزراري رسالة في ترجمة آل أعين قال: كان حمران من أكابر مشايخ الشيعة وكان عالماً بالنحو واللغة.[١]

٤ ـ أبو عثمان المازني، بكر بن محمّد: قال النجاشي: كان سيّد أهل العلم بالنحو والعربية واللغة، ومقدّمته بذلك مشهورة، وكان من علماء الإمامية، قد تأدّب على يد إسماعيل بن ميثم[٢]، له في الأدب: كتاب التصريف، كتاب ما يلحن فيه العامة، التعليق. مات سنة ٢٤٨هـ.[٣]

٥ ـ ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق السكيت: كان مقدّماً عند أبي جعفر (الجواد) وأبي الحسن (الهادي)عليهما السلام وكانا يختصّانه. وله عن أبي جعفرعليه السلام رواية ومسائل، وقتله المتوكّل لأجل تشيّعه عام ٢٤٤هـ، وأمره مشهور. وكان وجيهاً في علم العربية واللغة، ثقة، مصدّقاً، لا يطعن عليه. وله كتب: إصلاح المنطق، كتاب الألفاظ، كتاب ما اتّفق لفظه واختلف معناه، كتاب الأضداد، كتاب المذكّر والمؤنث، كتاب المقصور والممدود، و....[٤]

وسبب قتله: أنّ المتوكّل سأله يوماً وهو يعلّم ابنيه وقال: يا يعقوب، أيّهما أحبّ إليك، ابناي هذان، أم الحسن والحسين؟ فأجابه: «انّ قنبر خادم علي خير منك ومن ابنيك» فأمر المتوكّل، فسلّوا لسانه من

---

١. رسالة في آل أعين: ٢ ـ ٣ بتلخيص.
٢. وهو من أئمّة المتكلّمين الشيعة.
٣. رجال النجاشي: ١/ ٢٧٢ برقم ٢٧٧. وذكره ابن النديم في أخبار النحويين واللغويين: ٩٠، والخطيب البغدادي في تاريخ مدينة بغداد: ٧/ ٩٣ برقم ٣٥٢٩.
٤. رجال النجاشي: ٢/ ٤٢٥ برقم ١٢١٥.

قفاه فمات، وقد خلّف بضعة وعشرين أثراً في النحو واللغة والشعر.[١]

٦ ـ ابن حمدون، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدون: قال فيه النجاشي: الكاتب النديم شيخ أهل اللغة ووجههم. أُستاذ أبي العبّاس[٢] وكان خصّيصاً بسيّدنا أبي محمّد العسكري وأبي الحسن قبله. له كتب. ثمّ ذكر كتبه.[٣]

٧ ـ أبو إسحاق النحوي، ثعلبة بن ميمون: قال عنه النجاشي: كان وجهاً في أصحابنا، قارئاً، فقيهاً، نحويّاً، لغويّاً، راوية، وكان حسن العمل، كثير العبادة والزهد، روى عن الصادق والكاظم[٤]. وبما أنّ الإمام الكاظم توفّي عام مائة وثلاثة وثمانين، فهو من أهل المائة الثانية.

٨ ـ قتيبة النحوي الجعفي الكوفي: قال النجاشي: المؤدّب، المقرئ، ثقة عين، روى عن الصادق عليه السلام.[٥]

وذكره السيوطي في بغية الوعاة، ووصفه في تأسيس الشيعة بأنّه إمام أهل النحو واللغة.[٦]

٩ ـ إبراهيم بن أبي البلاد: قال النجاشي: كان ثقة، قارئاً، أديباً، روى عن الصادق والكاظم عليهما السلام.[٧]

---

١. تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ٤٢٤ وترجمه ابن خلّكان في وفياته، وياقوت في طبقات الأُدباء وغيرهم.
٢. يريد ثعلباً (٢٠٠ ـ ٢٩١هـ).
٣. رجال النجاشي: ١/ ٢٣٧ برقم ٢٢٨.
٤. المصدر نفسه: ١/ ٢٩٤ برقم ٣٠٠. وذكره ابن حجر في لسان الميزان ج٢ برقم ٣٣٢.
٥. المصدر نفسه: ٢/ ١٨٥ برقم ٨٦٧.
٦. تأسيس الشيعة: ٧٦.
٧. رجال النجاشي: ١/ ١٠٢ برقم ٣١.

١٠ ـ محمّد بن سلمة اليشكري: قال النجاشي: جليل من أصحابنا الكوفيين، عظيم القدر، فقيه، قارئ، لغوي، راوية، خرج إلى البادية ولقى العرب وأخذ عنهم. وأخذ عنه يعقوب بن السكّيت. ثمّ ذكر كتبه[١]، وبما أنّه شيخ ابن السكيت فهو من أهل المائة الثانية وأوائل الثالثة.

١١ ـ أبو عبد الله النحوي، الحسين بن أحمد بن خالويه: سكن حلب ومات بها، وكان عارفاً بمذهبنا، مع علمه بعلوم العربية، واللغة، والشعر. وله كتب، ومن كتبه: مستحسن القراءات والشواذّ، كتاب في اللغة.[٢]

ووصفه السيوطي في الطبقات: إنّه إمام اللغة والعربية، وغيرهما من العلوم الأدبية، دفن ببغداد سنة ٣١٤هـ.

١٢ ـ أبو القاسم التنوخي: قال الشيخ رشيد الدين بن شهر آشوب: إنّه من جملة الشعراء المجاهرين بالشعر في مدح أهل البيت.

وقال ياقوت: كان في النحو وحفظ الأحكام وعلم الهيئة والعروض قدوة، وكان يحفظ من اللغة والنحو شيئاً عظيماً.[٣]

ما ذكرناه نماذج من أئمّة اللغة من الشيعة الإمامية في القرون الأُولى، وأمّا من وليهم من الأئمّة فحدّث عنهم ولا حرج، فإنّ ذكر أسمائهم ونبذٍ من حياتهم يدفعنا إلى تأليف كتاب مفرد، وقد كفانا في ذلك ما كتبه السيد الصدر في هذا المجال، فقد بلغ النهاية، وقد ذكر أئمّة النحو من الشيعة إلى

---

١. المصدر نفسه: ٢ / ٢١٨ برقم ٨٩٧.
٢. المصدر نفسه: ١ / ١٨٨ برقم ١٥٩.
٣. تأسيس الشيعة: ٩١.

القرن السابع[١] فبلغوا (١٤٠) إماماً وأُستاذاً ومؤلّفاً في الأدب العربي، ولا سيما النحو، وبينهم شخصيات بارزة كالشريف المرتضى والشريف الرضي وابن الشجريّ الذي يقول في حقّه السيوطي: كان أوحد زمانه، وفرد أوانه في علم العربية ومعرفة اللغة وأشعار العرب، توفّي عام (٥٤٢هـ).

ونجم الأئمّة الرضي الاسترآبادي، إلى غير ذلك من الشخصيات البارزة.

٣ـ قدماء الشيعة وعلم الصرف

إنّ أوّل من دوّن الصرف أبو عثمان المازني، وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو، كما ذكره في «كشف الظنون»، وشرحه أبو الفتح عثمان بن جنّي المتوفّى في (٣٩٢هـ)[٢].

وأبسط كتاب في الصرف، ما كتبه نجم الأئمّة محمّد بن الحسن الاسترآبادي الغروي، وله شرح الشافية في الصرف، كما له شرح الكافية في النحو، وكلا كتابيه جليل الخطر، محمود الأثر، قد جمع فيهما بين الدلائل والمباني.

قال في «كشف الظنون»: للكافية شروح أعظمها شرح الشيخ رضيّ الدين محمّد بن الحسن الطوسي الاستر آبادي النحوي. قال السيوطي: لم يؤلّف عليها، بل ولا في غالب كتب النحو مثله جمعاً وتحقيقاً، فتداوله الناس واعتمدوا عليه، وله فيه أبحاث كثيرة ومذاهب ينفرد بها، فرغ من تأليفه سنة (٦٨٣هـ).

---

١. لاحظ تأسيس الشيعة: ٣٩ـ ١٣٧.

٢. كشف الظنون: ١/ ٢٤٩ مادة «كافية».

أقول: فرغ من شرح الكافية سنة (٦٨٦هـ) في النجف الأشرف، كما هو مذكور في آخر الكتاب.

ولنكتف بهذا المقدار عن مساهمة الشيعة مع غيرهم في بناء الأدب العربي، وتجديد قواعده وإرسائها في مجالي النحو والصرف، وفيما ذكرناه غنى وكفاية.

٤ـ قدماء الشيعة وعلم اللغة

ونريد بعلم اللغة: الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث أُصولها، واشتقاقاتها ومعانيها، وهو يعدّ بحقّ من العلوم الإنسانية التي ساهمت بشكل مباشر في إقامة صرح الحضارة الإسلامية، وقد ظهر في ميدان هذا العلم المهم جملة واسعة من علماء الشيعة، خلَّفوا آثاراً مهمة أصبحت زاداً لطلّاب العلم والمعرفة، ومن هؤلاء الأفاضل:

١ ـ أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي: سيد أهل الأدب، وهو أوّل من ضبط اللغة، وأوّل من استخرج علم العروض إلى الوجود، فهو أسبق العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم، فألّف كتابه «العين» الذي جمع فيه ما كان معروفاً في أيّامه من ألفاظ اللغة، وأحكامها، وقواعدها، ورتّب ذلك على حروف الهجاء، لكنّه رتّب الحروف حسب مخارجها من الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفتين، وبدأ بحرف العين وختمها بحروف العلّة «واي» وسُمِّي الكتاب بأوّل لفظ من ألفاظه.[1]

١. آداب اللغة العربية: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

وكان الكتاب مخطوطاً عزيز النسخة، لكنّه رأى النور أخيراً وطبع محقّقاً.

والخليل بن أحمد الذي لا يشكّ أحد في تشيّعه من أعلام القرن الثاني الهجري، قال المرزباني: إنّه ولد عام مائة من الهجرة وتوفّي سنة (١٧٠) أو (١٧٥هـ)، وقال ابن قانع: إنّه توفّي سنة (١٦٠هـ).[١]

قد ألّف كتاباً في الإمامة، أورده بتمامه محمّد بن جعفر المراغي في كتابه، واستدرك عليه ما لم يذكره وأسماه «الخليلي».

قال النجاشي: محمّد بن جعفر بن محمّد، أبو الفتح الهمداني الوادعي المعروف بـ «المراغي» كان يتعاطى الكلام، له: كتاب مختار الأخبار، كتاب الخليلي في الإمامة، وكتاب ذكر المجاز من القرآن.[٢]

قال العلّامة في «الخلاصة»: كان خليل بن أحمد أفضل الناس في الأدب وقوله حجّة فيه واخترع علم العروض، وفضله أشهر من أن يذكر، وكان إماميّ المذهب.[٣]

وقال ابن داود: الخليل بن أحمد شيخ الناس في علوم الأدب، فضله وزهده أشهر من أن يخفى، كان إماميّ المذهب.[٤]

٢ ـ أبان بن تغلب بن رباح الجريري: من أصحاب الباقر والصادق، قال النجاشي: كان قارئاً من وجوه القرّاء، فقيهاً، لغوياً، سمع من العرب، وحكى عنهم.[٥]

---

١. تنقيح المقال: ١/ ٤٠٣ برقم ٣٧٣٩.
٢. رجال النجاشي: ٢/ ٣١٨ برقم ١٠٥٤.
٣. الخلاصة: ٦٧، القسم الأول.
٤. رجال ابن داود الحلّي: ٨٨ / ٥٧٤، القسم الأول.
٥. رجال النجاشي: ١/ ٧٣ برقم ٦.

وقال ياقوت: ذكره أبو جعفر الطوسي في مصنّفي الإمامية. وقال: هو ثقة جليل القدر عظيم المنزلة، وقال: كان قارئاً، فقيهاً، لُغويّاً، نبيهاً، ثبتاً.[١]

٣ ـ ابن حمدون النديم: شيخ أهل اللغة ووجههم وأُستاذ أبي العباس ثعلب.[٢]

٤ ـ أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي: الأديب اللغوي، صاحب الجمهرة في اللغة، مات هو وأبو هاشم الجبّائي في يوم واحد، فقال الناس: مات علم اللغة والكلام. وألّف كتاب «جمهرة اللغة» على منوال كتاب « العين» للخليل، واختصره الصاحب بن عباد وسمّاه «جوهرة الجمهرة».[٣]

٥ ـ الصاحب بن عباد: عظيم الشأن، جليل القدر في العلم والأدب، وألّف الصدوق (٣٠٦ـ٣٨١هـ) كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام» لأجله، ومن كتبه في اللغة: «المحيط» عشرة مجلدات، وقد عرفت تلخيص «الجوهرة»، وأمّا تشيّعه فحدّث عنه ولا حرج.

وكم له من قصائد في مدح أهل البيت نذكر منها:

ألم تعلموا أنّ الوصيّ هو الذي آتىٰ الزكاة وكان في المحراب

ألم تعلموا أنّ الوصيّ هو الذي حكم الغدير له علىٰ الأصحاب[٤]

وهكذا فإنّنا نتوقّف عند هذا الحد من إيراد نماذج من كبار القدماء الذين

---

١. معجم الأدباء: ١/ ١٠٧.

٢. الفهرست للطوسي: ١١ برقم ٥٦. وقد تقدم ذكره في أساتذة النحو.

٣. تاريخ بغداد: ٢/ ١٩٥.

٤. الغدير: ٤/ ٦٦ وله قصائد أُخرى مذكورة فيه.

شاركوا المسلمين في تأسيس العلوم العربية وتطويرها، ومن أراد التفصيل فليطلبه من محالّه.[١]

٥ـ قدماء الشيعة وعلم العروض

كما أسلفنا سابقاً من أنّ الشيعة بمفكّريها كانت هي المبتكرة لعلم النحو بتوجيه من الإمام علي عليه السلام باب علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ فإنّها أيضاً المبتكرة لعلم العروض والمؤسسة لبنيانه الشامخ، وإليك أسماء بعض روّاده ورجاله:

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري: قال ابن خلّكان: هو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً[٢].

٢ ـ كافي الكفاة الصاحب بن عباد: الطائر الصيت، له كتاب الإقناع في العروض[٣].

وقد توالى التأليف بعده إلى عصرنا هذا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المعاجم حول مصنّفات الشيعة الإمامية.

ومن أبرز ما ألّف في العروض أخيراً أثران:

---

١. لاحظ تأسيس الشيعة للسيد الصدر فقد ترجم فيه (٢٤) شخصاً كلّهم من أقطاب علم اللغة، وللمناقشة في بعض ما ذكره وإن كان له مجال لكنّه لا يحطّ من عظم الجهد الذي بذله في طريق تأليفه.

٢. وفيات الأعيان: ٢ / ٢٤٤ برقم ٢٢٠.

٣. قال في كشف الظنون: ١ / ١٣٢ الإقناع في العروض لأبي القاسم إسماعيل بن عباد الوزير المعروف بالصاحب المتوفّى سنة (٣٨٥هـ).

أحدهما: للسيد الشريف هبة الدين الشهرستاني (١٣٠١ـ ١٣٨٦هـ) أسماه «رواشح الفيوض في علم العروض» وقد طبع في طهران (١٣٢٤هـ).

ثانيهما: منظومة رصينة قيّمة قلّما رأى الدهر مثلها للشيخ مصطفى التبريزي (١٢٩٨ ـ ١٣٣٨هـ) شرحها العلاّمة أبو المجد الشيخ محمّد رضا الأصفهاني (١٢٨٦ـ١٣٦٢هـ) وأسماها «أداء المفروض في شرح أُرجوزة العروض» وإليك مستهلّها:

الحمد لله علىٰ إسباغ ما ... أولىٰ لنا من فضله وأنعما
وخصّنا منه بواف وافر ... من بحر جوده المديد الزاخر
صلّى علىٰ نبيّنا المختار ... ما عاقب الليل علىٰ النهار
وآله معادن الرساله ... بهم يداوي علل الجهاله
خذها ودع عنك رموز الرامزة ... كعادة تجلىٰ عليك بارزة
تجمع كلّ ظاهر وخافِ ... في علمي العروض والقوافي[1]

٦ـ قدماء الشيعة وطرائف الشعر

لا نريد من الشعر في المقام الألفاظ المسبوكة، والكلمات المنضَّدة على أحد الأوزان الشعرية، وانّما نريد منه ما يحتوي على المضامين العالية في الحياة، وما يبثّ روح الجهاد في الإنسان، أو الذي يشتمل على حجاج في الدين أو تبليغ للحقّ. وعلى مثل هذا الشعر بنيت الحضارة الإنسانية، وهو

١. نحتفظ منها بنسخة بخطّ السيد الإمام الخميني قدس سره وفرغ من نسخها عام ١٣٤٦هـ.

مقياس ثقافة الأُمّة ورقيّها، وله خلود عبر القرون لا تطمسه الدهور والأيّام.

فما نقرأه في الذكر الحكيم من التنديد بالشعراء من قوله تعالى: ﴿**والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون**﴾[١]، إنّما يراد بذلك الشعراء المأجورون الذين يتاجرون بالشعر فيقلبون الحقائق، ويصنعون من الظالم مظلوماً، ومن المظلوم ظالماً، ولأجل ذلك قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهيمُونَ * وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ**»[٢].

ومن هنا فإنّا نعني بحديثنا هنا أُولئك الشعراء الذين أوقفوا أشعارهم في خدمة كلمة الحق وإعلاء شأن الدين الحنيف. ولقد ظهرت في سماء الشعر وفي القرون الأُولى للعهد الإسلامي من بين رجالات الشيعة طائفة من الشعراء حظوا برعاية أهل البيت عليهم السلام وتقديرهم.

وإليك أسماء بعض من شعراء الشيعة مع ذكر أبيات من شعرهم الخالد:

١ـ قيس بن سعد بن عبادة:

سيّد الخزرج، و الصحابي الجليل، كان زعيماً مطاعاً، كريماً ممدوحاً، وكان من شيعة عليّ عليه السلام ومن أشدّ المتحمّسين له، بعثه أميراً على مصر سنة (٣٦هـ)، وهو وأبوه وأهل بيته من الذين لم يبايعوا أبا بكر وقالوا: لا نبايع إلّا عليّاً[٣].

ومن أشعاره التي أنشدها بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين:

---

١. الشعراء: ٢٢٤. ٢. الشعراء: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

٣. تاريخ الطبري: ٣/ ٤٦٢.

قــلتُ لمــا بــغىٰ العــدوّ عــلينا حســـبنا ربّـــنا ونـعم الوكـيلُ
حســـبنا الذي فـــتح البـــصـ ـرة بـالأمس والحـديث الطـويلُ
وعـــــليٌّ إمـــــامنا وإمـــامٌ لســـوانـــا أتـىٰ بـه التـنزيلُ
يـوم قـال النـبيّ مـن كـنت مـو لاه فـهذا مـولاه خـطبٌ جـليلُ
إنّـــما قـاله النـبيّ عـلىٰ الأُمّـ ـة حـتمٌ مـا فـيه قـالٌ وقـيلُ[1]

٢ـ الكميت بن زيد(٦٠ـ١٢٦هـ):

شاعر مقدم، عالم بلغات العرب، خبير بأيّامها، و من شعراء مضر. كان معروفاً بـالتشيّع لبني هاشم، مشهوراً بذلك، وقد حظي بتقدير أئمّة أهل البيت لإجهاره بالحق، ولجهاده في سبيله، وهاشمياته المقدّرة بـ ٥٧٨ بيتاً خلّدت ذكراه في التاريخ وهي مشتملة على ميمية وبائية ورائية وغيرها.

وإليك أبياتاً من عينيّته:

ويـــوم الدوح دوح غـدير خـمٍّ أبـــان له الولايـــة لو أُطـــيعا
ولكـــن الرجـــال تـــبايعوها فـــلم أر مـــثلها خـطراً مـبيعا

إلى أن قال:

أضـاعوا أمـر قـائدهم فـضلّوا وأقـومهم لدىٰ الحـدثان ريـعا
تـــناسوا حـــقّه وبـغوا عـليه بـلا تـرة وكـان لهـم قـريعا
فـقل لبـني أُميّة حيث حلّوا وإن خـفت المـهنّد والقـطيعا

---

١. الفصول المختارة: ٨٧؛ كنز الفوائد: ٢٣٤؛ تذكرة الخواص: ٢٠.

ولقد طبع ديوان الكميت غير مرّة، وشرحه الأُستاذ محمد شاكر الخيّاط والأُستاذ الرافعي.[١]

٣ـ السيد الحميري (المتوفّى ١٧٣هـ):

أبو هاشم إسماعيل بن محمّد الملقّب بالسيّد، الشاعر المعروف، ومن المكثرين المجيدين، ومن الثلاثة الذين عدّوا أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام وهم: «السيّد» و «بشار» و «أبو العتاهية»، وكان السيّد الحميري متفانياً في حبّ العترة الطاهرة فلم يكن يرى لمناوئيهم حرمة وقدراً، وكان يشدّد النكير عليهم في كلّ موقف ويهجوهم بألسنة حداد في كلّ حول وطول.

ومن قصائده المعروفة عينيّته، وقد شرحها عدة من الأُدباء ومستهلّها:

لأُمّ عمرو باللوىٰ مربَع طامسة أعلامها بلقعُ

تروع عنها الطير وحشيّة والوحشُ من خيفته تفزعُ[٢]

٤ـ دعبل الخزاعي (المتوفّى ٢٤٦هـ):

أبو عليّ دعبل بن عليّ الخزاعي، من بيت علم وفضل وأدب، يرجع نسبه إلى بديل بن ورقاء الخزاعي الذي دعا له النبيّ صلى الله عليه وآله.

قال النجاشي: أبو علي الشاعر المشهور في أصحابنا، صنّف كتاب

١. اقرأ حياة الكميت في الغدير: ٢/ ١٨٠ـ٢١٢.

٢. إقرأ ترجمة السيّد في الغدير: ٢/ ٢١٣ ـ ٢٨٩.

طبقات الشعراء، ومن أراد التوغّل في حياته وسيرته فليقرأ النواحي الأربعة من حياته:

١ ـ تهالكه في ولائه لأهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ نبوغه في الشعر والأدب والتاريخ وتآليفه.

٣ ـ روايته للحديث والرواة عنه ومن يروي عنهم.

٤ ـ سيرته مع الخلفاء ثمّ ملحه ونوادره ثمّ ولادته ووفاته.[١]

وإليك مطلع تائيّته المعروفة:

تـــجاوبن بـــالأرنان والزفـــراتِ نـــوائـــح عـجم اللـفظ والنـطقات

٥ـ الأمير أبو فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧هـ):

أبو فراس الحارث بن أبي العلاء، قال عنه الثعالبي: كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة.[٢]

وتبعه في إطرائه والثناء عليه ابن عساكر.

من قصائده المعروفة ميميّته التي مستهلّها:

الحـــقّ مـــهتضم والديـــن مـختـرم وفـــــيء آل رســـول الله مـــقتسمُ

---

١. لاحظ حياته في الغدير: ٢/ ٣٦٩ـ٣٨٦. وقد تقدّم الكلام في تائيته في الفصل التاسع والحادي عشر من هذا الكتاب فراجع.

٢. يتيمة الدهر: ٢٧٠.

والناس عندك لا نـاس فـيحفظهم سـوم الرعـاة ولا شـاءٌ ولا نـعمُ

إلى أن قال:

يـا للـرجـال أمـا لله مـنتصر مـن الطـغاة أمـا لله مـنتقم

بـنو عـليّ رعـايا فـي ديـارهم والأمر تملكه النسوان والخـدمُ

إلى أن قال:

أبـلغ لديك بـني العـباس مـالكةً لا يـدّعوا مـلكها مـلّاكـها العـجمُ

أيّ المـفاخر أمست فـي مـنازلكم وغـيركم آمـر فـيها ومـحتكمُ

أنّـى يـزيدكم فـي مـفخر عـلَمٌ وفـي الخـلاف عـليكم يـخفق العـلمُ

يـا بـاعة الخـمر كُـفّوا عـن مـفاخركم لمـعشرٍ بَـيْعهم يـوم الهـياج دمُ[1]

ويطيب لي في هذا المقام أن أُشير إلى أسماء بعض من أنجبتهم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في حلبة الشعر والأدب في القرن الرابع والخامس، من أُناس معدودين في القمّة، يمكن للقارئ الكريم أن يجد الشيء الكثير عن حياتهم في دواوينهم، أو في كتب الأدب المختلفة:

١. الغدير: ٣/ ٣٩٩ ـ ٤٠١.

١ ـ ابن الحجّاج البغدادي (المتوفّى ٣٢١هـ) صاحب القصيدة المعروفة:

يـا صـاحب القـبّة البـيضاء فـي النـجف مــن زار قــبرك واسـتشفىٰ لديك شُـفي

٢ ـ الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ) الغني عن كل تعريف وبيان.

٣ ـ الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ) وهو كأخيــه أشـهر من أن يعرّف.

٤ ـ مهيار الديلمي (المتوفّى ٤٤٨هـ) الذي يُـعد فـي الــرعيل الأوّل مـن شـعراء القـرن الخامس وله غديريات كثيرة منها:

هـل بـعد مـفترق الأظـعان مـجتمع أم هل زمان بهم قد فات يرتجع[1]

هذا عرض موجز لبعض الشعراء البارزين من الشيعة، وفيه كفاية لمن أراد الإجمال، و أمّا من أراد التوسّع فليرجع إلى الكتب التالية:

١ ـ الأدب في ظلّ التشيّع: للشيخ عبد الله نعمة.

٢ ـ تأسيس الشيعة: للسيّد حسن الصدر، الفصل السادس.

٣ ـ الغدير: للعلّامة الأميني بأجزائه الأحد عشر.

٧ـ قدماء الشيعة وعلم التفسير

إنّ القرآن هو المصدر الرئيسي للمسلمين في مجالي العقيدة والشريعة، وهـو المـعجزة الخالدة للنبيّ الأكرمﷺ، وقد قام المسلمون بأروع الخدمات لهذا الكتاب الإلهي على وجه لا تجد له مثيلاً بين أصحاب الشرائع السابقة، حتّى

---

١. ديوان مهيار الديلمي: ٥١٢.

أسّسوا لفهم كتابهم علوماً قد بقي في ظلّها القرآن مفهوماً للأجيال، كما قاموا بتفسيره وتبيين مقاصده بصور شتى، لا يسع المقام ذكرها. فأدّوا واجبهم تجاه كتاب الله العزيز ـ شكر الله مساعيهم ـ من غير فرق بين الشيعة والسنّة.

إنّ مدرسة الشيعة منذ أن ارتحل النبيّ الأكرمﷺ إلى يومنا هذا، أنتجت تفاسير على أصعدة مختلفة، وخدمت الذكر الحكيم بصور شتّى، نأتي بوجه موجز، لما ألّف في القرون الإسلامية الأُولى.

إنّ أئمّة أهل البيت ـ بعد الرسول الأكرمﷺ ـ هم المفسّرون الحقيقيون للقرآن الكريم، حيث فسّروا القرآن بالعلوم التي نحلهم الرسولﷺ بأقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم التي لا تشذّ عن قول الرسولﷺ وفعله وحجته، ومن الظلم الفادح أن نذكر الصحابة والتابعين في عداد المفسّرين ولا نعترف بحقوق أئمّة أهل البيت وهم عديله باتفاق الجميع.

وهذا ما فعله في كتابه محمّد حسين الذهبي، جعل عليّاً ـ وهو الوصي وباب علم النبيّﷺ ـ في الطبقة الثالثة من حيث نقل الرواية عنه، وجعل تلميذه ابن عباس في الدرجة الأُولى!![1]، ولم يذكر عن بقية الأئمّة شيئاً مع كثرة ما نقل عنهم في مجال التفسير من الروايات الوافرة.

أقول: ما إن ارتحل النبيّ الأكرمﷺ حتّى عكف المسلمون على دراسة القرآن وتدبره، بيد أنّهم وجدوا أنّ لفيفاً من المسلمين كانوا عاجزين عن فهم بعض ألفاظ القرآن. والقرآن وإن نزل بلغة الحجاز إلّا أنّه يحوي ألفاظاً غير رائجة فيها، وربّما كانت رائجة بين القبائل الأُخرى، وهذا النوع من الألفاظ ما

---

١. التفسير والمفسّرون: ١/ ٨٩ ـ ٩٠.

سمّوه بـ «غريب القرآن» وقد سأل ابن الأزرق ـ رأس الخوارج ـ ابن عبّاس عن شيء كثير من غريب القرآن وأجاب عنه مستشهداً بشعر العرب الأقحاح، وقد جمعها السيوطي في إتقانه[١].

وبما أنّ تفسير غريب القرآن كان الخطوة الأُولى لتفسيره، فقد ألّف أصحابنا في إبّان التدوين كتباً في ذلك المضمار، نذكر قليلاً من كثير:

١ ـ غريب القرآن، لأبان بن تغلب بن رباح البكري (المتوفّى ١٤١هـ).[٢]

٢ ـ غريب القرآن، لمحمّد بن السائب الكلبي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.[٣]

٣ ـ غريب القرآن، لأبي روق، عطية بن الحارث الهمداني الكوفي التابعي، قال ابن عقدة: كان ممّن يقول بولاية أهل البيت.[٤]

٤ ـ غريب القرآن، لعبد الرحمن بن محمّد الأزدي الكوفي، جمع فيه ما ورد في الكتب الثلاثة المتقدّمة.[٥]

٥ ـ غريب القرآن، للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمّد الطبري الآملي الوزير الشيعي (المتوفّى ٣١٣هـ).[٦]

وقد توالى التأليف حول غريب القرآن في القرون الماضية، فبلغ

---

١. الإتقان: ٤/ ٥٥ـ ٨٨.
٢. رجال النجاشي: ١/ ٧٣ برقم ٦.
٣. المصدر نفسه: ٧٨ برقم ٦.
٤. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ رجال النجاشي: ١/ ٧٨.
٥. رجال النجاشي: ١/ ٧٨.
٦. فهرست ابن النديم: ٥٨.

العشرات، وكان أخيرها ـ لا آخرها ـ ما ألّفه السيّد محمّد مهدي الخرسان في جزأين.[١]

مجازات القرآن:

إذا كان الهدف من هذه الكتب بيان معاني مفردات القرآن وألفاظه، فإنّ في الجانب الآخر منه لوناً آخر من التفسير يهدف لبيان مقاصده ومعانيه إذا كانت الآية مشتملة على المجاز والكناية والاستعارة. إليك أخي القارئ الكريم نماذج قليلة ممّا أُلّف في ذلك المجال بيد أعلام الشيعة:

١ ـ مجاز القرآن، لشيخ النحاة الفرّاء يحيىبن‌زياد الكوفي (المتوفّى عام ٢٠٧هـ)، وقد طبع أخيراً في جزأين.[٢]

٢ ـ مجاز القرآن، لمحمّد بن جعفر بن محمّد، أبو الفتح الهمداني. قال النجاشي: له كتاب «ذكر المجاز من القرآن»[٣].

٣ ـ مجازات القرآن، للشريف الرضي المسمّى بتلخيص البيان في مجازات القرآن، وهو أحسن ما أُلّف في هذا الباب وهو مطبوع.

التفسير بصور متنوّعة:

وهناك لون آخر من التفسير، يعمد فيه المفسّر إلى توضيح قسم من الآيات تجمعها صلة خاصّة كالمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وآيات

---

١. الذريعة: ١٦/ ٥٠ برقم ٢٠٨.
٢. المصدر نفسه: ١٩/ ٣٥١ برقم ١٥٦٧.
٣. رجال النجاشي: ٢/ ٣١٩ برقم ١٠٥٤.

الأحكام، وقصص الأنبياء، وأمثال القرآن، وأقسامه، والآيات الواردة في مغازي النبيّ صلى الله عليه وآله، والنازلة في حقّ العترة الطاهرة عليهم السلام إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا تعمّ جميع آيات القرآن، بل تختصّ بموضوع واحد.

وكان علماء الشيعة قد شاركوا غيرهم من علماء المسلمين في هذا الجانب الحيوي والمهم، ورفدوا المكتبة الإسلامية بهذه الأنواع من التفاسير، ومن أراد أن يقف عليها فعليه أن يرجع إلى المعاجم، وأخص بالذكر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

الشيعة والتفسير الموضوعي:

إنّ نزول القرآن نجوماً، وتوزّع الآيات الراجعة إلى موضوع واحد في سور متعدّدة، يطلب لنفسه نمطاً آخر، غير النمط المعروف بالتفسير الترتيبي؛ فإنّ النمط الثاني يتّجه إلى تفسير القرآن سورة بعد سورة، وآية بعد آية، وأمّا النمط الأوّل فيحاول فيه المفسّر إيراد الآيات الواردة في موضوع خاصّ، في مجال البحث، وتفسير الجميع جملة واحدة وفي محلّ واحد.

فيستمدّ المفسّر من المعاجم المؤلّفة حول القرآن، ومن غيرها، في الوقوف على الآيات الواردة في جانب معيّن، مثلاً في خلق السماء والأرض، أو الإنسان، أو أفعاله وحياته الأخروية، فيفسّر المجموع مرّة واحدة، ويرفع إبهام آية بآية أُخرى، ويخرج بنتيجة واحدة، وهذا النوع من التفسير وإن لم يهتم به القدماء واكتفوا منه بتفسير بعض الموضوعات كآيات الأحكام، والناسخ والمنسوخ، إلّا أنّ المتأخّرين منهم بذلوا جهدهم في طريقه، ولعلّ العلاّمة المجلسي (١٠٣٧ـ١١١٠هـ) كان أوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه

في موسوعته الموسومة بـ«بحار الأنوار»، حيث أورد في أوّل كل باب من أبواب كتابه المتخصّصة جملة الآيات الواردة حول موضوع الباب، ثمّ لجأ إلى تفسيرها إجمالاً، ثمّ أورد ما جمعه من الأحاديث التي لها صلة بالباب.

وقد قام كاتب هذه السطور بتفسير الآيات النازلة حول العقائد والمعارف وانتشر باسم «مفاهيم القرآن» في عشرة أجزاء .

الشيعة والتفسير الترتيبي:

قد تعرّفت على أنّ المنهج الراسخ بين القدماء وأكثر المتأخّرين هو التفسير الترتيبي، وقد قام فضلاء الشيعة من صحابة الإمام علي والتابعين له إلى العصر الحاضر بهذا النمط من التفسير، إمّا بتفسير جميع سوره، أو بعضها، والغالب على التفاسير المعروفة في القرون الثلاثة الأُولى، هو التفسير بالأثر، ولكن انقلب النمط إلى التفسير العلمي والتحليلي من أواخر القرن الرابع. فأوّل من ألّف من الشيعة على هذا المنهاج هو الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ) مؤلّف كتاب «حقائق التأويل» في عشرين جزءاً[1]، ثمّ جاء بعده أخوه الشريف المرتضى فسلك مسلكه في أماليه المعروفة بـ «الدرر والغرر»، ثمّ توالى التأليف على هذا المنهاج من عصر الشيخ الأكبر الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) مؤلّف «التبيان في تفسير القرآن» في عشرة أجزاء كبار، إلى عصرنا هذا.

فقد قامت الشيعة في كلّ قرن بتأليف عشرات التفاسير وفق أساليب متنوّعة، ولغات متعدّدة. لا يحصيها إلّا المتوغّل في المعاجم وبطون المكتبات.

---

١. وللأسف لم توجد منه نسخة كاملة في عصرنا الحاضر إلّا الجزء الخامس وهو يكشف عن عظمة هذا السفر ويدل على جلالة المؤلّف.

ولقد فهرسنا على وجه موجز أسماء مشاهير المفسّرين من الشيعة وأعلامهم في ١٤ قرناً، وفصّلنا كلّ قرن عن القرن الآخر، واكتفينا بالمعروفين منهم؛ لأنّ ذكر غيرهم عسير ومحوج إلى تأليف حافل. فبلغ عددهم (١٢٢) مفسّراً. ومن أراد الإلمام بذلك فعليه الرجوع إلى المقدّمة التي قدّمناها لتفسير التبيان للشيخ الطوسي، ولأجل ذلك نطوي الكلام في المقام.

٨ـ قدماء الشيعة وعلم الحديث

إنّ السنّة هي المصدر الثاني للثقافة الإسلامية بجميع مجالاتها، ولم يكن شيء أوجب بعد كتابة القرآن وتدوينه وصيانته من نقص أو زيادة، من كتابة حديث الرسولﷺ وتدوينه وصيانته من الدسّ والدجل، وقد أمر به الرسول الأكرمﷺ غير مرّة، فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّه قال للنبيّﷺ: يا رسول الله أكتب كلّ ما أسمع منك؟ قال: «**نعم**». قلت: في الرضا والسخط؟ قالﷺ: «**نعم، فإنّه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلّا حقّاً**».[١]

إنّ الله سبحانه أمر بكتابة الدَّين حفظاً له، واحتياطاً عليه، وإشفاقاً من دخول الريب فيه، فالعلم ـ الذي حفظه أصعب من حفظ الدَّين ـ أحرى بأن يكتب ويحفظ من دخول الريب والشكّ فيه.[٢]

فإذا كان النبيّﷺ لا ينطق عن الهوى وإنّما ينطق عن الوحي الذي يوحى إليه[٣] فيجب حفظ أقواله وأفعاله أُسوة بكتاب الله المجيد، حتّى لا يبقى المسلم

---

١. مسند أحمد: ٢/ ٢٠٧. ٢. تقييد العلم: ٧٠.

٣. اقتباس من قوله سبحانه: ﴿ما ضَلَّ صاحبُكُم وما غوى * وما ينطقُ عن الهوى * إنْ هو إلّا وحيٌ يُوحىٰ﴾ النجم: ٢ـ٤.

في حيرة من أمره، ويستغني عن المقاييس الظنّية والاستنباطات الذوقية.

وبالرغم من وضوح الأمر و أهميته القصوى إلّا أنّ الخلافة الإسلامية باجتهاداتها حالت دون ذلك، بل وحاسبت عليه حتّى أنّ الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب قال لأبي ذر وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: « ما هذا الحديث الذي تفشون عن محمّد؟»[١].

ولقد أضحى عمل الخليفة سنّة فاتّبعه عثمان ومشى على خطاه معاوية، فأصبح ترك كتابة الحديث سنّة إسلامية، وعدّت الكتابة شيئاً منكراً مخالفاً لها.

إنّ الرزيّة الكبرى هي المنع عن التحدّث بحديث رسول اللهﷺ وكتابته وتدوينه، وفسح المجال في نفس الوقت للرهبان والأحبار للتحدّث بما عندهم من صحيح وباطل، ولقد أذن عمر لتميم الداري النصراني الذي استسلم في عام تسعة من الهجرة أن يقصّ.[٢]

ولما تسنّم عمر بن عبد العزيز منصب الخلافة، أدرك ضرورة تدوين الحديث، فكتب إلى أبي بكر بن حزم في المدينة، أن يقوم بتدوين الحديث قائلاً: إنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً.[٣]

ومع ذلك فلم يقدر ابن حزم على القيام بما أمر به الخليفة؛ لأنّ رواسب الحظر السابق المؤكّد من قبل الخلفاء حالت دون أُمنيته، إلى أن زالت دولة الأُمويين وجاءت دولة العبّاسيين، فقام المسلمون بتدوين الحديث في عصر

١. كنز العمال: ١٠/ ٢٩٣ برقم ٢٩٤٧٩. وفيه: ما هذه الأحاديث التي قد أفشيتم عن رسول الله في الآفاق.
٢. كنز العمال: ١٠/ ٢٨١. ٣. صحيح البخاري: ١/ ٢٧.

أبي جعفر المنصور سنة (١٤٣هـ)، وأنت تعلم أخي القارئ الكريم أنّ الخسارة التي لحقت بالتراث الإسلامي من منع تدوين السنّة لا تجبر بتدوينه بعد مضي قرن ونيّف، وبعد موت الصحابة وكثير من التابعين الذين رأوا النور المحمدي وسمعوا منه الحديث، ولم يحدّثوا بما سمعوه إلّا سرّاً ومن ظهر القلب إلى مثله.

أضف إلى ذلك أنّ الأحبار والرهبان والمأجورين للبلاط الأُموي نشروا كلّ كذب وافتراء بين المسلمين.

اهتمام الشيعة بتدوين الحديث:

قام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بتأليف عدّة كتب في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد أملى رسول الله كثيراً من الأحكام عليه وكتبها الإمام واشتهر بكتاب علي، وقد روى عنه البخاري في صحيحه في باب «كتابة الحديث»[١] وباب «أثم من تبرّأ من مواليه»[٢] وتبعه عليه السلام ثلّة من الصحابة الذين كانوا شيعة له، وإليك أسماء من اهتمّ بتدوين الآثار وما له صلة بالدين، وإن لم يكن حديث الرسول.

١ ـ قام أبو رافع صحابي الرسول صلى الله عليه وآله بتدوين كتاب السنن والأحكام والقضايا.[٣]

٢ ـ وقام الصحابي الكبير سلمان الفارسي: (المتوفّى ٣٤هـ) بتأليف كتاب حديث الجاثليق الرومي الذي بعثه ملك الروم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

---

١. صحيح البخاري: ١/ ٢٧كتاب العلم.
٢. المصدر نفسه: ٨/ ١٥٤،كتاب الفرائض، الباب ٢٠.
٣. رجال النجاشي: ١/ ٦٤برقم ١.

قال الشيخ الطوسي: روى سلمان حديث الجاثليق الذي بعثه ملك الروم بعد النبيّ ﷺ.[١]

٣ ـ وألّف الصحابي الورع أبو ذر الغفاري (المتوفّى سنة ٣٢هـ) كتاب الخطبة التي يشرح فيها الأُمور بعد رسول الله ﷺ.[٢]

هذا ما يرجع إلى الصحابة من الشيعة، وأمّا الشيعة من غير الصحابة ـ أعني: التابعين وتابعي التابعين منهم ـ فقد قام عدد منهم بتدوين السنّة إلى عصر الغيبة الكبرى، وقد تكفّلت بذكرهم و ذكر تآليفهم معاجم الرجال قديماً وحديثاً، وإليك عرضاً موجزاً من محدّثي الشيعة ومؤلّفيهم في القرن الأوّل وبداية القرن الثاني.

طبقات محدّثي الشيعة

الطبقة الأُولى:

١ ـ الأصبغ بن نباتة المجاشعي، كان من خاصّة أمير المؤمنين عليه السلام روى عنه عليه السلام عهد الأشتر، ووصيته إلى ابنه محمّد[٣].

٢ ـ عبيد الله بن أبي رافع المدني، مولى النبيّ ﷺ، كان كاتب أمير المؤمنين عليه السلام، له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السلام وتسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفّين والنهروان.[٤]

---

١. فهرست الطوسي: ٨.
٢. المصدر نفسه: ٥٤.
٣. رجال النجاشي: ١/ ٧٠ برقم ٤.
٤. فهرست الطوسي: ١٠٧.

٣ ـ ربيعة بن سميع، له كتاب في زكاة النعم عن أمير المؤمنين عليه السلام.[١]

٤ ـ سليم بن قيس الهلالي، أبو صادق، له كتاب مطبوع باسم: سليم بن قيس.

٥ ـ عليّ بن أبي رافع، قال النجاشي عنه: تابعيّ من خيار الشيعة، كانت له صحبة مع أمير المؤمنين عليه السلام، وكان كاتباً له، وحفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء، والصلاة، وسائر الأبواب.[٢]

٦ ـ عبيد الله بن الحرّ الجعفي، الفارس، الفاتك، الشاعر، له نسخة يرويها عن أمير المؤمنين عليه السلام.[٣]

٧ ـ زيد بن وهب الجهني، له كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها.[٤]

الطبقة الثانية:

١ ـ الإمام السجّاد زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، له الصحيفة الكاملة، المشتهرة بزبور آل محمّد عليهم السلام.

٢ ـ جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبو عبد الله، (المتوفّى ١٢٨هـ)، له كتب.[٥]

٣ ـ لوط بن يحيى بن سعيد، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، له كتب

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٦٧ برقم ٢.
٢. رجال النجاشي: ١/ ٦٥ برقم ١.
٣. المصدر نفسه: ١/ ٧١ برقم ٥.
٤. فهرست الطوسي: ٧٢.
٥. رجال النجاشي: ١/ ٣١٣ برقم ٣٣٠.

كثيرة، أوردها الشيخ في رجاله وعدّه في أصحاب الحسن والصادق عليهما السلام.[١]

٤ ـ جارود بن منذر، الثقة، أورده الشيخ في أصحاب الحسن والباقر والصادق عليهم السلام، له كتب.[٢]

الطبقة الثالثة:

وهم من أصحاب السجّاد والباقر عليهما السلام:

١ ـ برد الإسكاف، من أصحاب السجاد والصادقين عليهم السلام، له كتاب.[٣]

٢ ـ ثابت بن دينار، أبو حمزة الثمالي الأزدي، الثقة، (المتوفّى ١٥٠هـ)، روى عنهما عليهما السلام، له كتاب، وله النوادر والزهد، وله تفسير القرآن.[٤]

٣ ـ ثابت بن هرمز الفارسي، أبو المقدّم العجلي، مولاهم الكوفي، روى نسخة عن عليّ بن الحسين عليهما السلام.[٥]

٤ ـ بسّام بن عبد الله الصيرفي، مولى بني أسد، أبو عبد الله، روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، له كتاب.[٦]

٥ ـ محمّد بن قيس البجلي، له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السلام.[٧]

---

١. رجال الطوسي: ٢٧٩ من أصحاب الصادق عليه السلام ولاحظ تعليقة المحقّق.
٢. المصدر نفسه: ١١٢ في أصحاب الباقر عليه السلام.
٣. رجال النجاشي: ١/ ٢٨٤ برقم ٢٨٩.
٤. المصدر نفسه: ١/ ٢٨٩ برقم ٢٩٤.
٥. المصدر نفسه: ١/ ٢٩٢ برقم ٢٩٦.
٦. المصدر نفسه: ١/ ٢٨٢ برقم ٢٨٦.
٧. فهرست الطوسي: ١٣١.

٦ ـ حجر بن زائدة الحضرمي، روى عن الباقر والصادق عليهما السلام، له كتاب.[١]

٧ ـ زكريا بن عبد الله الفياض، له كتاب.[٢]

٨ ـ ثوير بن أبي فاختة «أبو جهم الكوفي»، واسم أبي فاختة: سعيد بن علاقة.[٣]

٩ ـ الحسين بن ثور بن أبي فاختة، سعيد بن حمران، له كتاب نوادر.[٤]

١٠ ـ عبد المؤمن بن القاسم بن قيس الأنصاري، (المتوفّى ١٤٧هـ)، عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب السجّاد والصادقين عليهما السلام، له كتاب.[٥]

ولقد خصّص أبو عمرو الكشي باباً للمحدّثين المتقدّمين من الشيعة وجعله في صدر رجاله، وتبعه النجاشي في رجاله فخصّ الطبقة الأُولى بباب، ثمّ أورد أسماء الرواة على حسب الحروف الهجائية.

ولقد أجاد الشيخ الطوسي في التعرّف على طبقات الشيعة بعد رسول اللهإلى عصره، فذكر الأئمّة الاثني عشر، وذكر أصحاب كلّ إمام وفق الترتيب الزمني، ثمّ ذكر باباً آخر باسم من لم يرهم ولكن روى عنهم بالواسطة.

وأحسن كتاب أُلّف في هذا المجال هو ما ألّفه أُستاذنا الجليل السيد النحرير المحقّق البروجردي ـ رحمه الله ـ الذي أخرج رجال الشيعة في (٣٤)

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٣٤٧ برقم ٣٨٢.
٢. رجال النجاشي: ١/ ٣٩١ برقم ٤٥٢.
٣. المصدر نفسه: ٢٩٥ برقم ٣٠١.
٤. المصدر نفسه: ١٦٦ برقم ١٢٤.
٥. المصدر نفسه: ٢/ ١٦٨ برقم ٦٥٣.

طبقة، من عصر الصحابة إلى زمانه (١٢٩٢ ـ ١٣٨٠هـ) فهذا الكتاب يكشف عن سبق الشيعة في نظم الحديث وتدوينه، وأنّهم لم يقيموا لمنع الخلفاء وزناً ولا قيمة. وبذلك حفظوا نصوص النبيّ الأكرمﷺوأهل بيته وقدموها إلى المجتمع الإسلامي، فعلى جميع علماء المسلمين أن يتمسّكوا بهذا الحبل الذي هو أحد الثقلين.

هذا عرض موجز لمحدّثي الشيعة من عصر الإمام أمير المؤمنين عليعليه السلام إلى عصر السجّاد والباقرعليهما السلام، وأمّا الطبقات الأُخرى فيأتي الكلام في فصل قدماء الشيعة والفقه؛ لأنّهم تجاوزوا التحديث إلى درجة الاجتهاد.

٩ـ قدماء الشيعة والفقه الإسلامي

إنّ الفقه الشيعي هو الشجرة الطيّبة الراسخة الجذور، المتّصلة الأُسس بالنبوّة، والتي امتازت بالسعة، والشمولية، والعمق، والدقّة، والقدرة على مسايرة العصور المختلفة، والمستجدّات المتلاحقة من دون أن تتخطّى الحدود المرسومة في الكتاب والسنّة.

إنّ الفقه الإمامي يعتمد في الدرجة الأُولى على القرآن الكريم، ثمّ على السنّة المحمّدية المنقولة عن النبيّﷺ عن طريق العترة الطاهرةعليهم السلام أو الثقات من أصحابهم والتابعين لهم بإحسان.

وكما يعتمد الفقه الشيعي على الكتاب والسنّة، فإنّه كذلك يتّخذ من العقل مصدراً في المجال الذي له الحقّ في إبداء الرأي، كأبواب الملازمات العقلية، أو قبح التكليف بلا بيان، أو لزوم البراءة اليقينية عند الاشتغال اليقيني.

ولا يكتفي بذلك، بل يستفيد من الإجماع الكاشف عن وجود النص

في المسألة أو موافقة الإمام المعصوم مع المجمعين في عصر الحضور.

إنّ الشيعة الإمامية قدّمت في ظلّ هذه الأُسس الأربعة فقهاً يتناسب مع المستجدّات، جامعاً لما تحتاج إليه الأُمّة، ولم يقفل باب الاجتهاد، منذ رحلة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، بل فتح بابه طيلة القرون، فأنتج عبر العصور فقهاء عظاماً، وموسوعات كبيرة، لم يشهد التاريخ لها ولهم مثيلاً، وإليك عرضاً موجزاً لمشاهير فقهائهم مع الإيعاز إلى بعض كتبهم في القرن الثاني والثالث.

فقهاء الشيعة في القرن الثاني:

تخرّجت من مدرسة أهل البيت وعلى أيدي أئمة الهدى عليهم السلام عدّة من الفقهاء العظام لا يستهان بعددهم، فبلغوا الذروة في الاجتهاد، كزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وبريد بن معاوية، والفضيل بن يسار، وكلّهم من أفاضل خرّيجي مدرسة أبي جعفر الباقر وولده الصادق عليهما السلام فأجمعت الطائفة على تصديق هؤلاء، وانقادت لهم في الفقه والفقاهة

ويليهم في الفضل لفيف آخر، هم أحداث خرّيجي مدرسة أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أمثال: جميل بن دراج، و عبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحمّاد بن عثمان، وحمّاد بن عيسى، وأبان بن عثمان.

وهناك ثلّة أُخرى يعدّون من تلاميذ مدرسة الإمام موسىٰ الكاظم وابنه أبي الحسن الرضا عليهما السلام منهم: يونس بن عبد الرحمن، ومحمّد بن أبي عمير، وعبد الله بن المغيرة، والحسن بن محبوب، والحسين بن عليّ بن فضال، وفضالة بن أيّوب.[1]

---

١. رجال الكشي: ٢٠٦، ٣٢٢، ٤٦٦. وراجع رجال النجاشي في ترجمتهم وذكر آثارهم ومنزلتهم في الفقه.

وأكثر هؤلاء من فقهاء القرن الثاني وأوائل القرن الثالث.

هؤلاء أعلام الشيعة في الفقه والحديث في القرن الثاني، وكلّهم خرّيجو مدرسة أهل البيت عليهم السلام ولقد خلّفوا آثاراً علمية باسم الأصل، والكتاب، والنوادر، والجامع ،والمسائل، وعناوين أُخرى.

أصحاب الجوامع الفقهية في القرن الثالث:

لقد تخرّج من مدرسة أهل البيت عليهم السلام جملة كبيرة من أعاظم الفقهاء؛ أوقفوا علمهم في خدمة هذا الدين الحنيف؛ فشمّروا عن سواعدهم، وسخّروا أنفسهم قدر ما مكَّنهم الله تعالى عليه، فخلَّفوا جوامع فقهيّة مهمّة كانت ولا زالت خير زاد للمسلمين، ومن هؤلاء الأعلام:

١ ـ يونس بن عبد الرحمن، الّذي وصفه ابن النديم في فهرسته بعلّامة زمانه، له جوامع الآثار، والجامع الكبير، وكتاب الشرائع.

٢ ـ صفوان بن يحيى البجلي، الذي كان أوثق أهل زمانه، صنّف ثلاثين كتاباً.

٣ و ٤ ـ الحسن والحسين ابنا سعيد بن حمّاد الأهوازي، صنّفا ثلاثين كتاباً.

٥ ـ أحمد بن‌محمّد بن‌خالد البرقي (المتوفّى ٢٧٤هـ)، صاحب كتاب المحاسن وغيره.

٦ ـ محمّد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمّي (المتوفّى ٢٩٣هـ)، صاحب نوادر الحكمة وكتاب الجامع المعروف.

٧ ـ أحمد بن محمّد بن أبي‌نصر البزنطي (المتوفّى ٢٢١هـ)، صاحب الجامع المعروف.

فقهاء الشيعة في القرن الرابع:

هؤلاء هم فقهاء الشيعة في القرن الثالث وتليهم عدّة أُخرى في القرن الرابع نذكر أسماءهم على وجه الإجمال:

١ ـ الحسن بن علي بن أبي عقيل، شيخ الشيعة وفقيهها، صاحب كتاب المتمسّك بحبل آل الرسول، المعاصر للكليني.

٢ ـ عليّ بن الحسين بن بابويه (المتوفّى ٣٢٩هـ)، صاحب كتاب الشرائع.

٣ ـ محمّد بن الحسن بن الوليد القمي، شيخ القميّين وفقيههم ومتقدّمهم، مات سنة ٣٤٣هـ، ولقد بلغ في الوثاقة والدقة على حد يسكن إليه الشيخ الصدوق في تصحيحاته وتضعيفاته.

٤ ـ جعفر بن‌محمّد بن‌قولويه، أُستاذ الشيخ الصدوق، و مؤلّف كامل الزيارات، يقول النجاشي عنه: إنّه من ثقات أصحابنا وأجلّائهم في الفقه والحديث.

٥ ـ محمّد بن عليّ بن الحسين الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) مؤلّف: من لا يحضره الفقيه والمقنع والهداية.

٦ ـ محمّد بن أحمد بن الجنيد المعروف بالإسكافي (المتوفّى ٣٨٥هـ).

قال عنه النجاشي: وجه في أصحابنا، ثقة جليل القدر، صنّف فأكثر، ثمّ ذكر فهرس كتبه، ومنها كتاب تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة، وكتاب الأحمدي للفقه المحمّدي.

مشاهير الفقهاء في القرن الخامس:

وفي القرن الخامس نبغ فقهاء كبار، ازدان الفقه الشيعي بل الإسلامي بأسمائهم وآرائهم، ومنهم: الشيخ المفيد (٣٣٦ـ٤١٣هـ) والسيّد المرتضى (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) والشيخ الكراجكي (المتوفّى ٤٤٩هـ) والشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) وسلّار الديلمي مؤلّف المراسم (المتوفّى ٤٦٣هـ)، وابن البرّاج (٤٠١ ـ ٤٨٩هـ) مؤلّف المهذّب، وغيرهم من الذين ملأت أسماؤهم كتب التراجم والرجال.

ومن أراد الوقوف على حياتهم وكتبهم فعليه الرجوع إلى الموسوعات الرجالية، وأخص بالذكر كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة».

هذا عرض موجز لمشاركة الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية على المستوى الفقهي. ويشهد الله أنّ علماء الشيعة قاموا بهذه الجهود في ظروف قاسية ورهيبة، وكانت الحكومات الظالمة ومرتزقتها لا ينفكّون عن مطاردتهم وإيداعهم في السجون وعرضهم على السيف، ومع ذلك نرى هذا الإنتاج العلمي الهائل في مجال الفقه. والذي لو تأمل فيه علماء المسلمين بفرقهم المختلفة، وتجنّبوا أهواء التعصب، لأقرُّوا بلا ريب بما فيه من سعة الفكر، وعمق النظر، وغزارة الانتاج.

هذا هو الشيخ الطوسي الذي ألّف المبسوط في الفقه المقارن (في ٨ أجزاء) في زمن كانت الفتن الطائفية على أوجها، والشيعة هم الضحية في هذه المخاضات العسرة، والتي امتدت ألسنتها نحو الشيخ الطوسي نفسه، فأُحرقت داره، ومكتبته في كرخ بغداد، فالتجأ سرّاً إلى النجف الأشرف، تاركاً بلده

الذي عاش فيه قرابة نصف قرن، وأين هؤلاء من الفقهاء الذين تنعّموا بالهدوء والاستقرار، واستقبلتهم السلطات الحاكمة بصدر رحب، وأُجيزوا مقابل أبيات معدودة من الشعر الرخيص، أو كتيب أو رسالة صغيرة بالهبات والعطايا.

١٠ـ قدماء الشيعة وعلم أُصول الفقه

إنّ السنّة النبوية بعد القرآن الكريم هي المصدر للتشريع، وقد سبق أنّ الخلافة ـ بعد رحلة الرسولﷺ ـ حالت دون تحديث ما تركه بين الأُمّة، وكتابته وتدوينه. فلم تدوّن السنّة إلى عصر أبي جعفر المنصور، إلّا صحائف غير منظّمة ولا مرتّبة، إلى أن شرع علماء الإسلام في التدوين سنة (٥٣هـ).[١]

إنّ الحيلولة بين السنّة وتدوينها ونشرها أدّت إلى نتائج سلبية عظيمة، منها قصور ما وصل إلى الفقهاء في ذلك العصر صحيحاً من الرسولﷺ عن تلبية متطلّباتهم في مجال الأحكام، حتّى اشتهر عن إمام الحنفية أنّه لم يثبت عنده من أحاديث الرسولﷺ في مجال التشريع إلّا سبعة عشر حديثاً.

ونحن وإن كنّا لا نتوافق مع ما حُكي عن النعمان، ولكن نؤكّد على شيء آخر، وهو أنّ ما ورد في مجموع الصحاح والمسانيد والسنن الأعم من الصحيح والضعيف في مجال الأحكام الشرعية لا يتجاوز ٥٠٠ حديث.

قال السيّد محمّد رشيد رضا: إنّ أحاديث الأحكام الأُصول لا تتجاوز ٥٠٠ حديث تمدّها أربعة آلاف موقوفات و مراسيل.[٢]

---

١. تاريخ الخلفاء: ٢٦١.

٢. الوحي المحمّدي: ٢١٢، ط ٦. نعم أنهاه ابن حجر في كتابه «بلوغ المرام» إلى (١٥٩٦) حديثاً لكن كثيراً منها لا يتضمّن حكماً شرعياً، وإنّما هي أحاديث أخلاقية وغيرها، فلاحظ.

ويقول أيضاً في تفسيره: يقولون إنّ مصدر القوانين الأُمّة، ونحن نقول بذلك في غير المنصوص في الكتاب والسنّة. كما قرّره الإمام الرازي والمنصوص قليل جدّاً.[١]

وما ذكره من قضية الإمداد، يوحي إلى الموقوفات عن الصحابة، من دون أن يثبت صدورها عن النبيّ ﷺ فهذه الموقوفات تعرب عن اجتهادات الصحابة في المسألة. ومن المعلوم أنّ قول الصحابي لا يكون حجّة إلّا إذا نسبه إلى الرسول ﷺ.

هذا وإنّ الحافظ ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ) جمع كلّ ما ورد في مجال التشريع في كتاب أسماه «بلوغ المرام من أدلّة الأحكام»[٢] وهو كتاب صغير جدّاً.

إنّ افتقاد النصّ في مجال التشريع الذي واجه فقهاء أهل السنّة بعد رحلة الرسول ﷺ، هو الذي دعاهم إلى التفحّص عن الحلّ لهذه الأزمة حتّى تسدّ حاجاتهم الفقهية، فعكفوا على المقاييس الظنّية التي ما أنزل الله بها من سلطان، كالقياس، و الاستقراء، والاستحسان، وسدّ الذرائع، وسنّة الخلفاء، أو سنّة الصحابة، أو رأي أهل المدينة، إلى غير ذلك من القواعد، أسّسوا عليها فقههم عبر قرون متمادية، وقد جاء ذلك نواة لتأسيس علم أُصول الفقه بصورة مختصرة نمت ونضجت في الأجيال.

وأمّا الشيعة فحيث إنّهم لم يفتقدوا سنّة الرسول بعد وفاته لوجود باب

---

١. تفسير المنار: ٥/ ١٨٩.

٢. بلوغ المرام من أدلّة الأحكام، ط مصر تحقيق محمّد حامد الفقيّ.

علم النبيّ ﷺ؛ عليعليه السلام والأئمّة المعصومين بين ظهرانيهم، فلم تكن هناك أيّة حاجة للعمل بتلك المقاييس، وبالتالي لم يكن هناك أيّ دافع للاتّجاه نحو أُصول الفقه.

نعم لمّا كان الإسلام ديناً عالمياً، والنبيّ ﷺ خاتم الأنبياء، والأُصول والسنن مهما كثرت لا يمكن أن تلبّي بحرفيّتها حاجات المسلمين إلى يوم القيامة، انبرى أئمّة أهل البيت إلى إملاء ضوابط وقواعد يرجع إليها الفقيه عند فقدان النص أو إجماله أو تعارضه إلى غير ذلك من الحالات التي يواجه بها الفقيه. وتلك الأُصول هي التي تكون أساساً لعلم أُصول الفقه، ولقد جمعها عدّة من الأعلام في كتاب خاصّ أفضلها «الفصول المهمّة في أُصول الأئمّة» للشيخ المحدّث الحرّ العاملي المتوفّى سنة (١١٠٤هـ).

ومن هنا فإنّا يمكننا القول إنّ وجود أئمّة أهل البيت عليهم السلام بين ظهراني الشيعة أغنى هذه الطائفة عن الحاجة الملحّة لتدوين مسائل أُصول الفقه إبّان تلك الفترة الماضية، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه لم ينبرِ لفيف من صحابة الأئمّة لدراسة بعض مسائل الفقه نظير:

١ ـ هشام بن الحكم (المتوفّى ١٩٩هـ)، صنّف كتاب الألفاظ.[١]

٢ ـ يونس بن عبد الرحمن، صنّف كتاب اختلاف الحديث ومسائله. وهو مبحث تعارض الحديثين.[٢]

---

١. رجال النجاشي: ٢ / ٣٩٨ برقم ١١٦٥ وهو مردّد بين كونه كتاب لغة أو أدب، أو كونه باحثاً عن الألفاظ التي يستخدمها الفقيه في استنباط الأحكام لكون الأمر للوجوب والمرّة والتكرار، أو الفورية والتأخير إلى غير ذلك.

٢. فهرست الطوسي: ٢١١ برقم ٨١٠؛ رجال النجاشي: ٢ / ٤٢٠.

٣ ـ إسماعيل بن عليّ بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت (٢٣٧ ـ ٣١١هـ).

قال عنه النجاشي: كان شيخ المتكلّمين من أصحابنا. وذكر مصنّفاته وعدّ منها كتاب الخصوص والعموم.(١)

وذكره ابن النديم في فهرسته، وعدّ من مصنّفاته كتاب إبطال القياس، وكتاب نقض اجتهاد الرأي على ابن الراوندي.(٢)

٤ ـ أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي، من علماء القرن الثالث، له كتاب الخصوص والعموم والخبر الواحد والعمل به.(٣)

٥ ـ أبو منصور صرّام النيشابوري، من علماء القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، له إبطال القياس(٤).

٦ ـ محمّد بن أحمد بن داود بن عليّ (المتوفّى ٣٦٨هـ)، قال النجاشي: شيخ هذه الطائفة وعالمها، له كتاب الحديثين المختلفين.(٥)

٧ ـ محمّد بن أحمد بن الجنيد (٣٨١هـ) المتوفّى سنة ، له كتاب كشف التمويه والالتباس في إبطال القياس.(٦)

والطابع السائد على هذه الكتب هو دراسة بعض المسائل الأُصولية،

---

١. رجال النجاشي: ١/ ١٢١ برقم ٦٧.
٢. فهرست ابن النديم: ٢٦٥.
٣. رجال النجاشي: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١ برقم ١٤٦.
٤. الطوسي، الفهرست، قسم الكنى ٣٨١ / ٥٨٨.
٥. رجال النجاشي: ٢/ ٣٠٥ برقم ١٠٤٦.
٦. المصدر نفسه: ٢/ ٣٠٤ برقم ١٠٤٨.

كحجّية خبر الواحد، أو حلّ مشكلة اختلاف الحديثين، أو نقد بعض الأساليب الرائجة في تلك الأجيال في استنباط الأحكام، كالقياس وغيره، ولا يصح عدّها كتباً أُصولية بالمعنى المصطلح.

نعم؛ يمكن عدّها مرحلة أُولى ونواة بالنسبة إلى المرحلة الثانية.

وأمّا المرحلة الثانية فقد امتازت بالسعة والشمول، بإدخال كثير من المسائل الأدبية والكلامية في علم أُصول الفقه، وأوّل من فتح هذا الباب للشيعة على مصراعيه:

١ ـ معلم الأُمّة الشيخ المفيد (٣٣٦ـ٤١٣هـ) ألّف رسالة في هذا المضمار وأدرجها تلميذه العلّامة الكراجكي في كتابه «كنز الفوائد»[١].

وألّف بعده تلميذه الجليل علم الهدى المعروف بالسيّد المرتضى كتابه القيّم «الذريعة إلى أُصول الشريعة»، والذي طبع في جزأين، وقد رأيت منه نسخة مخطوطة في مدينة قزوين كتب فيها: إنّ تاريخ فراغ المؤلّف منه عام (٤٠٠هـ).

٢ ـ الشيخ الطوسي: (٣٨٥ـ٤٦٠هـ) ألّف كتاب «عدّة الأُصول» والذي يحتلّ مكانة رفيعة في هذا الميدان، حتّى أنّه أُعيد طبعه لمرات متكرّرة.

وهكذا يمكن القول بأنّ هذه الكتب كوّنت اللبنة الأساسية التي توسعت بواسطتها وانتشرت آراء الشيعة في علم الأُصول.

وأمّا في المرحلة الثالثة من مراحل تطوّر علم الأُصول لدى الشيعة فقد شهدت بزوغ جملة واسعة من كبار العلماء توسّعوا بشكل كبير في

---

١. كنز الفوائد: ٢ / ١٥ ـ ٣٠.

تثبيت وشرح الأبعاد الأساسية لعلم الأُصول، فكان من نتاج تلك المرحلة:

١ ـ «التقريب في أُصول الفقه» للشيخ أبي ليلى المعروف بسلّار بن عبد العزيز الديلمي صاحب المراسم، (المتوفّى عام ٤٦٣هـ).

٢ ـ «غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع»، تأليف أبي المكارم حمزة بن علي المعروف بابن زهرة، (المتوفّى عام ٥٨٥هـ).

٣ ـ المصادر، تأليف الشيخ سديد الدين الحمصي، (المتوفّى حدود سنة ٦٠٠هـ).

هذه هي المراحل الثلاث التي مرّ بها علم الأُصول، وقد تلتها مراحل أُخرى إلى أن بلغت في القرن الرابع عشر ذروتها وقمّتها، و أعلى مراحل كمالها، ويتّضح ذلك من ملاحظة ما أُلّف من عصر الأُستاذ الأكبر المحقّق البهبهاني (١١١٨ـ١٢٠٦هـ) إلى يومنا؛ فقد راج التحقيق في المسائل الأُصولية من عصره إلى عصر الشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٢ ـ ١٢٨١هـ) وعصر تلميذه الشيخ محمّد كاظم الخراساني (١٢٥٥ ـ ١٣٢٩هـ) ففي هذه الفترة؛ أي القرون الثلاثة، أُلّفت مئات الكتب والرسائل في ذلك المجال، ولا أُغالي إذا قلت: إنّه لم تبلغ طائفة من الطوائف الإسلامية تلك الدرجة التي وصلت إليها الشيعة في علمي الفقه والأُصول من جانب كثرة الانتاج والاستيعاب ودقّة النظر، شكر الله مساعيهم.

١١ـ قدماء الشيعة وعلم المغازي والسير

مغازي النبيّ الأكرمﷺ جزء من تاريخ حياته وسيرته، والرسولﷺ قدوة وأُسوة، وفعله كقوله حجّة بلا إشكال، وقد وضع بعضهم كتباً في

فقه السيرة[١] فكان على المسلمين ضبط دقيقها وجليلها، وقد قاموا بذلك لولا أنّ الخلافة حالت دون الأُمنية، ولكن قيّض الله سبحانه، رجالاً من الشيعة في ذلك المجال ضبطوا سيرة الرسول صلى الله عليه وآله ومغازيه، منهم:

١ ـ ابن إسحاق، محمّد بن إسحاق (المتوفّى ١٥١هـ) عدّه الشيخ الطوسي في رجاله[٢] من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. ولأجل انتمائه إلى بيت النبوّة وصفه ابن حجر في التقريب: «بأنّه إمام المغازي، صدوق، يدلّس، ورمي بالتشيّع والقدر».[٣]

وفي مختصر الذهبي: أنّه كان صدوقاً من بحور العلم.

في تاريخ اليافعي عن شعبة بن الحجّاج أنّه قال: محمّد بن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث.[٤]

وعن الشافعي: من أراد أن يتبحَّر في المغازي فهو عيال محمّد بن إسحاق.[٥]

و لمّا كان المترجم شيعياً مجاهراً في ولائه لأهل البيت عمد ابن هشام (المتوفّى ٢١٢هـ) بتلخيص كتابه على أساس حذف ما لا يلائم نزعته، فحذف أكثر ما له صلة بفضائل الإمام علي وأهل بيته.

فعلى المسلمين الغيارى الباحثين عن الحقيقة التفحّص في مكتبات

---

١. كزاد المعاد لابن القيّم، وفقه السيرة للغزّالي المعاصر له.
٢. رجال الطوسي: ٢٨١.
٣. التقريب: ٢/ ١٤٤ برقم ٤٠.
٤. مرآة الجنان: ١/ ٣١٣.
٥. تنقيح المقال: ٣/ ٧٩ برقم ١٠٣٨.

العالم وفهارسها، حتّى يعثروا على النسخة الأُمّ، وينشروا هذا الكنز الدفين خدمة للدين وإحياءً لسيرة رسول اللهﷺ، وكان قد أعلن أحد المستشرقين أنّه قد عثر على الأصل ونشره باسم سيرة ابن إسحاق إلّا أنّه جزء من السيرة لا كلّها.

ومن حسن الحظّ أنّ سيرة ابن إسحاق وإن لم تكن موجودة بصورتها لكنّها موجودة بمادتها، فقد بثّها الطبرسي (٤٧٠ ـ ٥٤٨هـ) في أجزاء «مجمع البيان»، وابن الجوزي (المتوفّى ٥٩٧هـ) في «المنتظم»، وابن كثير في تاريخه وغيرهم. فيمكن للباحثين، استخراج مادة السيرة متفرّقة عن هذه الكتب، وملخّصها المعروف بالسيرة النبوية لابن هشام.

٢ ـ عبيد الله بن أبي رافع، وكان قد سبق ابن إسحاق، وهو من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام، فقد ألّف كتاباً أسماه «تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفّين والنهروان من الصحابة» ذكره الشيخ في الفهرست[١]، إلّا أنّه أُلّف في مغازي الإمام عليعليه السلام لا في مغازي الرسول الأكرمﷺ.

٣ ـ جابر الجعفي (المتوفّى ١٢٨هـ) ألّف كتباً في ذلك المجال: قال النجاشي: جابر: عربيّ قديم، ثمّ ذكر نسبه وعدّ من كتبه: كتاب الجَمل، وكتاب صفّين، وكتاب النهروان، وكتاب مقتل أمير المؤمنينعليه السلام، وكتاب مقتل الحسينعليه السلام.[٢]

٤ ـ أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي، هو ممّن ألّف في ذلك المجال

١. فهرست الطوسي: ٢٠٢.
٢. رجال النجاشي: ١/ ٣١٣ برقم ٣٣٠.

أيضاً والذي أخذ عنه أبوعبيدة معمّر بن المثنّى (١١٠ـ٢٠٩هـ) وأبو عبدالله بن القاسم بن سلّام (١٥٧ـ٢٢٤هـ) وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيّام.

له كتاب حسن يجمع المبتدأ والمغازي والوفاة والردّة[١]. وقد جمع فيه أخبار ابتداء أمر النبيﷺ من مبعثه ومغازيه ووفاته، وأخبار يوم السقيفة وارتداد بعض القبائل.

٥ ـ ومن مشاهير هذا الفن من الشيعة أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، روى عن جعفر بن محمّدعليهما السلام. وصنّف كتباً: منها كتاب المغازي، كتاب السقيفة، كتاب الردّة، كتاب فتوح الإسلام....[٢]

٦ ـ ومن أعلامه نصر بن مزاحم (المتوفّى ٢١٢هـ) ألّف كتباً كثيرة في ذلك المجال، لعلّ أهمها كتاب «وقعة صفّين» الشهير.[٣]

٧ ـ هشام بن محمّد بن السائب الكلبي (المتوفّى ٢٠٦هـ) أعلم علماء النسب والسير والآثار، ذكره النجاشي وقال: الناسب، العالم بالأيّام، المشهور بالفضل والعلم، وكان يختصّ بمذهبنا، ثمّ ذكر كتبه.[٤]

هذا عرض موجز لمن شارك المسلمين من قدماء الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية عن طريق تدوين السيرة والمغازي والمقاتل والتاريخ، وأمّا

---

١. المصدر نفسه: ١/ ٨٠ برقم ٧ وفي فهرست الشيخ برقم ٦٢ يجمع المبدأ والمبعث.
٢. المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٤ برقم ١١٤٩.
٣. المصدر نفسه: ٢/ ١٩١ـ١٩٢ برقم ٨٧٣.
٤. المصدر نفسه: ٢/ ٣٩٩ برقم ١١٦٧.

المتأخّرون فسل عنهم ولا حرج، وراجع المعاجم كأعيان الشيعة للسيد الأمين العاملي، والذريعة لشيخنا الطهراني.

١٢ـ قدماء الشيعة وعلم الرجال

اهتمّ علماء الشيعة بعد عصر التابعين بعلم الرجال، وأولوه اهتماماً كبيراً، فبرزت منهم ثلّة كبيرة من سادة هذا العلم، وسنحاول هنا أن نذكر أوائل المؤلّفين منهم:

١ ـ عبد الله بن جبلة الكناني (المتوفّى ٢١٩هـ).

قال النجاشي: وبيت جبلة مشهور بالكوفة، كان فقيهاً ثقة مشهوراً، له كتب، منها كتاب الرجال....[١]

٢ ـ عليّ بن الحسن بن فضّال، كان فقيه أصحابنا بالكوفة ووجههم وثقتهم، وعارفهم بالحديث، من أصحاب الإمام الهادي والعسكري، له كتب منها كتاب الرجال.[٢]

٣ ـ الحسن بن محبوب السّراد (١٥٠ـ٢٢٤هـ) الراوي عن ستّين رجلاً من أصحاب الصادق عليه السلام، له كتاب «المشيخة» وكتاب «معرفة رواة الأخبار».[٣]

٤ ـ أبو عمرو الكشّي، البصير بالأخبار والرجال، تلميذ الشيخ العيّاشي، وكتابه المعروف بـ «معرفة الرجال» هو الذي لخّصه الشيخ الطوسي وأسماه بـ «اختيار معرفة الرجال» وهو الموجود في الأعصار الأخيرة.

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ١٣ برقم ٥٦١. ٢. المصدر نفسه: ٢/ ٨٢ برقم ٦٧٤.
٣. فهرست الطوسي: ٩٦ برقم ١٦٢؛ معالم العلماء: ٣٣٣ برقم ١٨٢؛ مصفّى المقال: ١٢٨.

٥ ـ الشيخ أبو العبّاس أحمد بن عليّ النجاشي (٣٧٢ـ٤٥٠هـ) من نقّاد هـذا الفـن ومـن أجلّائه وأعيانه حاز قصب السبق في ميدان علم الرجال، له كـتاب فـهرس مـصنّفي الشـيعة المعروف برجال النجاشي.

٦ ـ والشيخ الطوسي (٣٨٥ـ٤٦٠هـ) الغني عن التعريف، عمل كتابين أحدهمـا الفهرست والآخـر الرجال، ويعدّان من أُمّهات الكتب الرجالية.

وتوالى التأليف في علم الرجال كما في قرينه علم الدراية إلى عصرنا هذا، وقد أنهى الشيخ الطهراني، المؤلّفين من الشيعة في علم الرجال فبلغوا قرابة خمسمائة مؤلّف، شكر الله مساعي الجميع.

هذا عرض موجز لمشاركة علماء الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية عن طريق تأسيس العلوم وإكمالها وتطويرها، وأنت إذا وقفت على جهودهم الجبّارة في القرون الأُولى وما بعدها إلى عصرنا الحاضر، تقف على طائفة كبيرة من عمالقة العلم وجهابذة الفضل، كرّسوا حياتهم الثمينة في إرساء صرح الحضارة الإسلامية ورفع قواعدها، فخلّدوا لأنفسهم صحائف بيضاء، ولصالح أُمّتهم حضارة إنسانية، كل ذلك في ظروف قاسية، وسلطات ظـالمة شـديدة الكـلب، وأضغان محتدمة، إلّا في فترات يسيرة.

١٣ ـ قدماء الشيعة والعلوم العقلية

جاء الإسلام ليحرّر عقل الإنسان وتفكيره من الأغلال المتراكمة الموروثة التي توارثها قهراً من الأجيال الماضية، فهو يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمّل والتفكير، ويخاطب القـلب والضمير بما حوله من الأدلّة الناطقة، ويكفي في توضيح ذلك أنّ الذكر الحكيم استعمل مادة «العقل» بمختلف صورها (٤٧)

مرّة، و«التفكّر» (١٨) مرّة، و «اللب» (١٦) مرّة و «التدبّر» (٤) مرات و «النُهى» مرتين. فبذلك نهى عن التقليد وحثّ على التعقّل ببيانات مختلفة.

فتارة يدعو الإنسان إلى التأمّل فيما حوله من الكائنات لما فيها من دلائل ناطقة على وجوده سبحانه وصفاته. قال سبحانه: «**ءَأَنْتُمْ أَشَدُ خَلْقَاً أم السَّماءُ بَناها * رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها * وأغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها * والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها * أَخْرَجَ مِنْها ماءَها ومَرْعاها * وَالجِبالَ أرْساها * متاعاً لَكُمْ ولأنْعامِكُمْ**»[١].

وأُخرى يدعوه إلى التفكير والاستدلال المنطقي، فقال سبحانه: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيءٍ أمْ هُمُ الخالِقُونَ * أمْ خَلَقُوا السَّمٰواتِ والأَرْضَ بَلْ لا يوقِنُونَ**﴾[٢] فعالج المشاكل العلمية والفلسفية تارة بالدعوة إلى النظر في الكون نظرة ثاقبة فاحصة، وأُخرى بالحثّ على التفكير في المعارف بأُسلوب منطقي وبرهاني، وبذلك أيقظ عقول المسلمين وحثّهم على التأمّل والتدبّر في العلوم المختلفة، دون التقليد الأعمى والتتبّع غير المتبصّر، وجعل لأُولئك المكانة المتميّزة.

غير أنّ المسلمين سوى قليل منهم تنكّبوا عن هذا الطريق، خصوصاً فيما يرجع إلى المعارف العليا، فصاروا بين مشبّه ومعطّل، فالبسطاء منهم بنوا عقائدهم بالجمود على المفردات الواردة في الكتاب والسنّة، وبذلك استغنوا عن أيّ تعقّل وتفكّر، إلى أن بلغت جرأتهم إلى حدّ قال بعضهم في الخالق: اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عمّا وراء ذلك[٣]!!! فهؤلاء هم المجسّمة والمشبّهة، وأمّا غيرهم فاختاروا تعطيل العقول عن التفكّر في الله سبحانه،

---

١. النازعات: ٢٧ ـ ٣٣. ٢. الطور: ٣٥ ـ ٣٦.

٣. الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٠٥.

فقالوا: أُعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبّية، فمن شَغَل ما أُعطي لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية، ولم يدرك الربوبية.[١]

فالأكثرية الساحقة في القرون الأُولى كانوا بين مشبّه ومعطّل، غير أنّه سبحانه شملت عنايته أُمّة من المسلمين رفضوا التشبيه والتعطيل، وسلكوا طريقاً ثالثاً وقالوا بأنّه يمكن للإنسان التعرّف على ما وراء الطبيعة بما فيها من الجمال والكمال عن طريقين:

١ ـ النظرة الفاحصة إلى عالم الوجود وجمال الطبيعة كما وردت في القرآن الكريم.

٢ ـ ترتيب المقاييس المنطقية للوصول إلى الحقائق العليا، وهذا أيضاً هو الخطّ الذي رسمه القرآن الكريم، وسار على هذا الخطّ الأئمّة عليهم السلام من أوّلهم إلى آخرهم. ترى ذلك في كلام الإمام علي عليه السلام بوضوح، في أحاديثه وخطبه ورسائله، ولا يسعنا هنا أن نستعرض ولو بعضاً ممّا له عليه السلام في هذا المجال، إلّا أنّا نكتفي بحديث واحد.

سأله سائل: هل يقدر ربّك أن يُدخل الدنيا في بيضة من غير أن يُصغّر الدنيا أو يُكبّر البيضة؟ فقال: «**إنّ الله تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون**».[٢]

إنّ خطب الإمام علي عليه السلام ورسائله وقصار حكمه كانت هي الحجر الأساس لكلام الشيعة وآرائهم في العقائد والمعارف، ولم يتوقّف نشاط الشيعة

---

١. علاقة الإثبات والتفويض نقلاً عن الحجّة في بيان المحجة: ٣٣.

٢. الصدوق، التوحيد: ١٣٠ باب «القدرة» برقم ٩.

في ذلك المجال، بل ونتيجة لتوالي الأئمة عليهم السلام إمام بعد إمام، كان يعني ذلك استمرار عين المنهج السابق الذي ربّىٰ عليه الإمام عليّ عليه السلام شيعته، فواصل الأئمّة من بعده ـ عليهم وعليه السلام ـ في حياتهم تربية شيعتهم، فشحذوا عقولهم بالدعوة إلى التدبّر والتفكّر في المعارف، حتّى تربّى في مدرستهم عمالقة الفكر من عصر سيّد الساجدين إلى عصر الإمام العسكري، تجد أسماءهم وتآليفهم وأفكارهم في المعاجم وكتب الرجال، وقد نبغ في عصر أئمّة أهل البيت مفكّرون بارزون أدّوا لعموم المسلمين خدمات لا تنكر، وأشرعوا أبواب المعرفة للباحثين والمفكّرين الذين تلوهم، ومن هؤلاء:

متكلّمو الشيعة في القرن الثاني:

١ ـ زرارة بن أعين: مولى بني عبد الله بن عمرو السمين بن أسعد بن همام بن مرّة بن ذهل بن شيبان، أبو الحسن: شيخ أصحابنا في زمانه، ومتقدّمهم، وكان قارئاً، فقيهاً، متكلّماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خصال الفضل والدين، صادقاً فيما يرويه.

قال أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: رأيت له كتاباً في الاستطاعة والجبر.[١]

وقال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيّع.[٢] وهو من الشخصيات البارزة للشيعة التي أجمعت الطائفة على تصديقهم، وهو غنيّ عن التعريف والتوصيف.

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٣٩٧ برقم ٤٨١؛ فهرست الطوسي: ١٣٣ برقم ٣١٢؛ رجال الكشّي: ٦٢؛ ميزان الاعتدال: ٢ / ٦٩ برقم ٢٨٥٣.

٢. فهرست ابن النديم: ٣٢٣.

٢ ـ محمّد بن عليّ بن النعمان بن أبي طريفة البجلي: مولى الأحول «أبو جعفر» كوفي، صيرفي يلقب بـ «مؤمن الطاق» و «صاحب الطاق»، ويلقّبه المخالفون بـ«شيطان الطاق»... وكان دكّانه في طاق المحامل في الكوفة، فيرجع إليه في النقد فيردّ ردّاً فيخرج كما يقول، فيقال «شيطان الطاق».

أمّامنزلته فيالعلم وحسن الخاطر فأشهر، وقد نسبتإليهأشياء لم تثبت عندنا.

وله كتاب «افعل لا تفعل» وهو كتاب حسن كبير، وقد أدخل فيه بعض المتأخّرين أحاديث تدلّ على فسادها، ويذكر تباين أقاويل الصحابة.

وله كتاب «الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام » وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة والمرجئة...[١].

وقال ابن النديم: وكان متكلّماً حاذقاً، وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة[٢].

٣ ـ هشام بن الحكم: قال ابن النديم: هو من متكلّمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وممّن دعا له الصادق عليه السلام، فقال: «**أقول لك ما قال رسول الله لحسّان: لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك**».

وهو الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب، وسهّل طريق الحجاج فيه، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب.[٣]

---

١. رجال النجاشي: ٢ / ٢٠٣ برقم ٨٨٧؛ رجال الطوسي: ٣٤٣ برقم ١٨، أصحاب الكاظم عليه السلام ؛ فهرست الطوسي: ٢٠٧ برقم ٥٩٤؛ رجال الكشي: ١٦٣ برقم ٧٧.

٢. فهرست ابن النديم: ٢٦٤ وأيضاً ٢٥٨.

٣. المصدر نفسه: ٢٥٧.

ويقول الشهرستاني: وهذا هشام بن الحكم، صاحب غور في الأُصول، لا ينبغي أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة؛ فإنّ الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنّه ألزم الغلاة....[١]

وقال النجاشي: هشام بن الحكم، أبو محمّد مولى كندة، وكان ينزل بني شيبان بالكوفة، انتقل إلى بغداد سنة (١٩٩هـ)، ويقال: إنّه مات في هذه السنة، له كتاب يرويه جماعة. ثم ذكر أسماء كتبه فبلغت ثلاثين كتاباً.[٢]

وأمّا أحمد أمين فيقول عنه: أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقّة تدل على حضور بديهيته وقوّة حججه.

إنّ الرجل كان في بداية أمره من تلاميذ أبي الشاكر الديصاني، صاحب النزعة الإلحادية في الإسلام، ثمّ تبع الجهم بن صفوان الجبري المتطرّف المقتول بترمذ عام (١٢٨هـ)، ثمّ لحق بالإمام الصادق عليه السلام ودان بمذهب الإمامية، وما تنقل منه من الآراء التي لا توافق أُصول الإمامية، فإنّما هي راجعة إلى العصرين اللّذين كان فيهما على النزعة الإلحادية أو الجهمية، وأمّا بعد ما لحق

---

١. الملل والنحل: ١/ ١٨٥.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥. وذكر أسماء كتبه على النحو التالي:
علل التحريم، الفرائض، الإمامة، الدلالة على حدث الأجسام، الردّ على الزنادقة، الرد على أصحاب الاثنين، التوحيد، الرد على هشام الجواليقي، الردّ على أصحاب الطبائع، الشيخ والغلام في التوحيد، التدبير في الإمامة، الميزان، إمامة المفضول، الوصيّة والردّ على منكريها، الميدان، اختلاف الناس في الإمامة، الجبر والقدر، كتاب الحكمين، الرد على المعتزلة وطلحة والزبير، القدر، الألفاظ، الاستطاعة، المعرفة، الثمانية أبواب، على شيطان الطاق، الأخبار، الردّ على المعتزلة، الردّ على ارسطاطاليس في التوحيد، المجالس في التوحيد، المجالس في الإمامة.

بالإمام الصادق عليه السلام فقد انطبعت عقليته بمعارف أهل البيت إلى حدّ كبير، حتّى صار أحد المناضلين عن عقائد الشيعة الإمامية.[١]

٤ ـ قيس الماصر: أحد أعلام المتكلّمين، تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليهما السلام.

روى الكليني: أنّه أتى شاميّ إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام ليناظر أصحابه، فقال عليه السلام ليونس بن يعقوب: **أُنظر من ترى بالباب من المتكلّمين**... إلى أن قال يونس: فأدخلت زرارة بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن الحكم وهو يحسن الكلام، وأدخلت قيس الماصر وكان عندي أحسنهم كلاماً وقد تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليهما السلام.[٢]

٥ ـ عيسى بن روضة حاجب المنصور: قال عنه النجاشي: كان متكلّماً، جيد الكلام، وله كتاب في الإمامة. وقرأت في بعض الكتب: أنّ المنصور لمّا كان بالحيرة، تسمّع على عيسى بن روضة، وكان مولاه، وهو يتكلّم في الإمامة فأُعجب به واستجاد كلامه.[٣]

٦ ـ الضحّاك، أبو مالك الحضرمي: كوفي، عربي، أدرك أبا عبد الله عليه السلام وقال قوم من أصحابنا: روى عنه، وقال آخرون: لم يرو عنه، روى عن أبي الحسن، وكان متكلّماً ثقة ثقة في الحديث، وله كتاب في التوحيد رواه عنه

---

١. إنّ للعلّامة الحجّة الشيخ عبد الله نعمة كتاباً في حياة هشام بن الحكم، وقد أغرق نزعاً في التحقيق، وأغنانا عن كلّ بحث وتنقيب.

٢. الكافي: ١/ ١٧١.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ١٤٥ برقم ٧٩٤.

عليّ بن الحسن الطاطري[١] فالرجل من متكلّمي القرن الثاني.

وقال ابن النديم: من متكلّمي الشيعة، وله مع أبي عليّ الجبّائي مجلس في الإمامة وتثبيتها بحضرة أبي محمّد القاسم بن محمّد الكوفي، وله من الكتب: كتاب الإمامة، نقض الإمامة على أبي عليّ ولم يتمّه.[٢]

٧ ـ عليّ بن الحسن بن محمّد الطائي: المعروف بـ «الطاطري» كان فقيهاً ثقة في حديثه، له كتب منها: التوحيد، الإمامة، الفطرة، المعرفة، الولاية.[٣] وغيرها.

وعدّه ابن النديم من متكلّمي الإمامية وقال: ومن القدماء الطاطري، وكان شيعياً، وله من الكتب كتاب الإمامة حسن.[٤]

٨ ـ الحسن بن عليّ بن يقطين بن موسى، مولى بني هاشم، وقيل مولى بني أسد، كان فقيهاً متكلّماً، روى عن أبي الحسن والرضا عليهما السلام، وله كتاب مسائل أبي الحسن موسى عليه السلام[٥] وبما أنّ أبا الحسن الأوّل توفّي عام (١٨٣هـ)، والثاني توفّي عام (٢٠٣هـ)، فالرجل من متكلّمي القرن الثاني وأوائل الثالث.

وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام.[٦]

---

١. المصدر نفسه: ١/ ٤٥١ برقم ٥٤٤.
٢. فهرست ابن النديم: ٢٦٦.
٣. رجال النجاشي: ٢/ ٧٧ برقم ٦٦٥.
٤. فهرست ابن النديم: ٢٦٦.
٥. رجال النجاشي: ١/ ١٤٨ برقم ٩.
٦. رجال الطوسي: ٣٥٤ برقم ٧.

٩ ـ حديد بن حكيم: أبو علي الأزدي المدائني، ثقة، وجه، متكلّم، روى عن أبي‌عبدالله، وأبي الحسن عليهما السلام و له كتاب يرويه محمّد بن خالد. (١)

١٠ ـ فضّال بن الحسن بن فضّال: وهو من متكلّمي عصر الصادق عليه السلام وذكره الطبرسي في احتجاجه ومناظرته مع أبي حنيفة، فلاحظ.(٢)

إنّ ما ذكرناه من أساتذة الكلام كانوا نماذج مصغّرة من تلامذة أهل البيت عليهم السلام وخرّيجي مدرستهم، وقد اكتفينا بذكر هذه الطائفة تجنّباً عن الإطالة والإسهاب، ومن ابتغى الاستزادة فعليه بالمراجع التاريخية وكتب الكلام المختلفة التي حفلت بأسماء الأعلام الباقين، أمثال حمران بن أعين الشيباني، وهشام بن سالم الجواليقي، والسيد الحميري، والكميت الأسدي. (٣)

متكلّمو الشيعة في القرن الثالث:

١ ـ الفضل بن شاذان بن خليل أبو محمّد الأزدي النيشابوري: كان أبوه من أصحاب يونس، وروى عن أبي جعفر الثاني وقيل الرضا عليهما السلام وكان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء، والمتكلّمين، وله جلالة في هذه الطائفة، وهو في قدره أشهر من أن نصفه، وذكر الكنجي أنّه صنّف مائة وثمانين كتاباً.

وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الهادي والعسكري. وقد توفّي

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٣٧٧ برقم ٣٨٣، وذكره الخطيب في تاريخه: ٨ /٢٨٠ برقم ٤٣٧٧.
٢. قاموس الرجال: ٤/ ٣١٣.
٣. لاحظ أعيان الشيعة: ١/ ١٣٤ـ١٣٥.

عام (٢٦٠هـ) فهو من متكلّمي القرن الثالث. وقد ذكر النجاشي فهرس كتبه فراجع للاستزادة.[١]

٢ ـ حكم بن هشام بن الحكم: أبو محمّد، مولى كندة، سكن البصرة، وكان مشهوراً بالكلام، كلّم الناس، وحكي عنه مجالس كثيرة، ذكر بعض أصحابنا أنّه رأى له كتاباً في الإمامة.[٢] وقد توفّي والده عام (٢٠٠هـ أو ١٩٩هـ) فهو من متكلّمي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث.

٣ ـ داود بن أسد بن أعفر: أبو الأحوص البصري ـ رحمه الله ـ شيخ جليل، فقيه متكلّم من أصحاب الحديث، ثقة ثقة، وأبوه من شيوخ أصحاب الحديث الثقات، له كتب منها: كتاب في الإمامة على سائر من خالفه من الأُمم، والآخر مجرّد الدلائل والبراهين.[٣]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ١٦٨ برقم ٨٣٨؛ رجال الطوسي: ٣٩ و٤٠١ برقم ١و٢ في أصحاب الهادي والعسكري؛ رجال الكشّي: ٤٥١ برقم ٤١٦. وذكر النجاشي أسماء كتبه على النحو التالي:
النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، الوعيد، الردّ على أهل التعطيل، الاستطاعة، مسائل في العلم، الأعراض والجواهر، العلل، الإيمان، الردّ على الثنوية، إثبات الرجعة، الردّ على الغالية المحمّدية، تبيان أصل الضلالة، الردّ على محمّد بن كرّام، التوحيد في كتب الله، الرد على أحمد بن الحسين، الردّ على الأصمّ، في الوعد والوعيد آخر، الردّ على بيان إيمان ابن رباب (الخارجي)، الردّ على الفلاسفة، محنة الإسلام، الأربع مسائل في الإمامة، الردّ على المنّانية، الرد على المرجئة، الردّ على القرامطة، الردّ على البائسة، اللطيف، القائمعليه السلام، كتاب الإمامة الكبير، حذو النعل بالنعل، فضل أمير المؤمنينعليه السلام، معرفة الهدى والضلالة، التعري والحاصل، الخصال في الإمامة، المعيار والموازنة، الردّ على الحشوية، الردّ على الحسن البصري في التفضيل، النسبة بين الجبرية والبترية.
٢. رجال النجاشي: ١/ ٣٢٨ برقم ٣٤٩.
٣. رجال النجاشي: ١/ ٣٦٤ برقم ٤١٢.

وذكره الشيخ الطوسي في «الفهرست» في باب الكنى وقال: إنّه من جملة متكلّمي الإمامية، لقيه الحسن بن موسى النوبختي وأخذ عنه، واجتمع معه في الحائر على ساكنه السلام، وكان ورد للزيارة.[١] فبما أنّه من مشايخ الحسن بن موسى النوبختي المعاصر للجبّائي (المتوفّى ٣٠٣هـ) فهو من متكلّمي القرن الثالث.

٤ ـ محمّد بن عبد الله بن مملك الاصبهاني: أصله من جرجان، وسكن إصبهان، جليل في أصحابنا، عظيم القدر والمنزلة له كتب منها كتاب الجامع في سائر أبواب الكلام كبير، كتاب المسائل والجوابات في الإمامة، كتاب مواليد الأئمة عليهم السلام، كتاب مجالسه مع أبي علي الجبّائي (٢٣٥ـ٣٠٣هـ).[٢]

٥ ـ ثبيت بن محمّد، أبو محمّد العسكري: صاحب أبي عيسى الوراق (محمّد بن هارون) متكلّم حاذق، من أصحابنا العسكريين، وكان أيضاً له اطّلاع بالحديث والرواية، والفقه، له كتب في الحديث والإمامة وغيرها.[٣]

٦ ـ إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل بن هلال المخزومي: أبو محمّد، أحد أصحابنا، ثقة فيما يرويه له كتاب التوحيد، كتاب المعرفة، كتاب الإمامة.[٤]

٧ ـ محمّد بن هارون، أبو عيسى الوراق: له كتاب الإمامة، وكتاب السقيفة.

قال ابن حجر: له تصانيف على مذهب المعتزلة، وقال المسعودي: له

---

١. فهرست الطوسي: ٢٢١ برقم ٨٧٥. ٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.
٣. المصدر نفسه: ١/ ٢٩٣ برقم ٢٩٨، وثبيت على وزن زبير.
٤. المصدر نفسه: ١/ ١٢٠ برقم ٦٦.

مصنّفات حسان في الإمامة وغيرها، وكانت وفاته سنة (٢٤٧هـ).[١]

٨ ـ إبراهيم بن سليمان بن أبي داحة المزني: مولى آل‌طلحة بن عبيد الله، أبوإسحاق، وكان وجه أصحابنا البصريين في الفقه والكلام والأدب والشعر.[٢]

٩ ـ الشكّال: قال ابن النديم: صاحب هشام بن الحكم وخالفه في أشياء إلّا في أصل الإمامة، وله من الكتب: كتاب المعرفة، كتاب في الاستطاعة، كتاب الإمامة، كتاب على من أبىٰ وجوب الإمامة بالنصّ.[٣]

١٠ ـ الحسين بن اشكيب: ثقة مقدّم، ذكره أبو عمرو في كتاب الرجال في أصحاب أبي الحسن العسكري عليه السلام ووصفه بأنّه عالم متكلّم مؤلّف للكتب له من الكتب: كتاب الردّ على من زعم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان على دين قومه، والردّ على الزيدية.[٤]

١١ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن جبرويه، أبو محمّد العسكري: متكلّم من أصحابنا، حسن التصنيف، جيّد الكلام. من كتبه: كتاب الكامل في الإمامة، كتاب حسن.[٥]

١٢ ـ عليّ بن منصور، أبو الحسن، كوفي سكن بغداد، متكلّم من أصحاب هشام، له كتب، منها كتاب التدبير في التوحيد والإمامة.[٦]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٢٨٠ برقم ١٠١٧؛ لسان الميزان: ٥ / ٤١٢ برقم ١٣٦٠؛ الرواشح السماوية: ٥٥ ومر ذكره في ترجمة ثبيت. وما في كلام ابن حجر من عدّه من المعتزلة، ناشئ عن الخلط بين المعتزلة والإمامية.

٢. المصدر نفسه: ١/ ٨٧ برقم ١٣.

٣. فهرست ابن النديم: ٢٦٤.

٤. رجال النجاشي: ١/ ١٤٦ برقم ٨٧.

٥. رجال النجاشي: ٢/ ٤٧ برقم ٦٢٣.

٦. المصدر نفسه: ٢ / ٧١ برقم ٦٥٦.

١٣ ـ عليّ بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمّار: أبو الحسن مولى بني‌أسد، كوفي، سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلّمين من أصحابنا، كلّم أبا الهذيل (١٣٥ ـ ٢٣٥هـ) والنظّام (١٦٠ ـ ٢٣١هـ) له مجالس وكتب منها كتاب الإمامة، كتاب مجالس هشام بن الحكم وكتاب المتعة.[١]

وقال ابن النديم: أوّل من تكلّم في مذهب الإمامة عليّ بن إسماعيل بن ميثم التمّار، وميثم (جدّه) من أجلّة أصحاب عليّ ـ رضي الله عنه ـ ولعليّ من الكتب كتاب الإمامة و كتاب الاستحقاق.[٢]

متكلّمو الشيعة في القرن الرابع:

١ ـ الحسن بن علي بن أبي عقيل: أبو محمّد العماني، الحذّاء، فقيه متكلّم ثقة، له كتب في الفقه والكلام، منها كتاب «المتمسّك بحبل الرسول».[٣]

٢ ـ إسماعيل بن عليّ بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت: كان شيخ المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم، له جلالة في الدنيا والدين، يجري مجرى الوزراء في جلالة الكتاب، صنّف كتباً كثيرة، منها: كتاب الاستيفاء في الإمامة، التنبيه في الإمامة.

وقال ابن النديم: أبو سهل، إسماعيل بن عليّ بن نوبخت، من كبار الشيعة، وكان أبو الحسن الناشئ يقول: إنّه أُستاذه، وكان فاضلاً، عالماً، متكلّماً، وله مجالس بحضرة جماعة من المتكلّمين... وذكر فهرس كتبه.[٤]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٧٢ برقم ٦٥٩.
٢. فهرست ابن النديم: ٢٦٣.
٣. رجال النجاشي: ١/ ١٥٣ برقم ٩٩.
٤. فهرست ابن النديم: ٢٦٥.

٣ ـ الحسين بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه: (أخو الصدوق) القمي أبو عبد الله، ثقة، روى عن أبيه إجازة، وله كتب منها: كتاب التوحيد ونفي التشبيه، وقد توفّي أخوه عام (٣٨١هـ) فهم من أعيان القرن الرابع، وهو وأخوه ولدا بدعوة صاحب الأمر عليه السلام، ترجمه ابن حجر في لسان الميزان.[١]

٤ ـ محمّد بن بشر الحمدوني «أبو الحسين السوسنجردي»: متكلّم جيد الكلام، صحيح الاعتقاد، كان يقول بالوعيد، له كتب، منها: كتاب المقنع في الإمامة، كتاب المنقذ في الإمامة.[٢]

وقال ابن النديم: السوسنجردي من غلمان أبي سهل النوبختي ويكنّى أباالحسن، ويعرف بالحمدوني منسوباً إلى آل حمدون، وله من الكتب كتاب الإنقاذ في الإمامة.[٣]

وقال ابن حجر: كان زاهداً ورعاً متكلّماً، على مذهب الإمامية، وله مصنّفات في نصرة مذهبه.[٤]

٥ ـ يحيى أبو محمّد العلوي من بني زبارة: علوي، سيّد، متكلّم، فقيه، من أهل نيشابور. قال الشيخ الطوسي: جليل القدر، عظيم الرئاسة، متكلّم، حاذق، زاهد، ورع، لقيت جماعة ممّن لقوه وقرأوا عليه، له كتاب إبطال القياس، وكتاب في التوحيد.[٥]

---

١. رجال النجاشي: ١/ ١٨٩ برقم ١٦١؛ لسان الميزان: ٢/ ٣٠٦ برقم ١٢٦٠.
٢. المصدر نفسه: ٢/ ٢٩٨ برقم ١٠٣٧. ٣. فهرست ابن النديم: ٢٦٦.
٤. لسان الميزان: ٥/ ٩٣ برقم ٣٠٤.
٥. رجال النجاشي: ٢/ ٤١٣ برقم ١١٩٢، وقد جاءت ترجمته أيضاً برقم ١١٩٥؛ فهرست الطوسي برقم ٨٠٣.

٦ ـ محمّد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي، أبو جعفر: متكلّم، عظيم القدر حسن العقيدة، قويّ في الكلام، له كتب في الكلام، وقد سمع الحديث، وأخذ عنه ابن بطّة وذكره في فهرسته الذي يذكر فيه من سمع منه فقال: وسمعت من محمّد بن عبد الرحمن بن قبة.

وقال ابن النديم: أبو جعفر بن محمّد بن قبة من متكلّمي الشيعة وحذّاقهم، وله من الكتب: كتاب الإنصاف في الإمامة، كتاب الإمامة.[١]

وقال العلاّمة الحلّي عنه: «وكان حاذقاً شيخ الإمامية في عصره».[٢]

٧ ـ عليّ بن وصيف، أبو الحسن الناشئ: (٢٧١ـ٣٦٥هـ) ذكره النجاشي وقال: الشاعر المتكلّم، ذكر شيخنا ـ رضي الله عنه ـ أنّ له كتاباً في الإمامة.[٣]

وقال الطوسي: كان شاعراً مجوّداً في أهل البيت عليهم السلام ومتكلّماً بارعاً وله كتب.[٤]

وقال ابن خلّكان: من الشعراء المحبّين، وله في أهل البيت قصائد كثيرة، وكان متكلّماً بارعاً، أخذ علم الكلام عن أبي سهل إسماعيل بن عليّ بن نوبخت المتكلّم، وكان من كبار الشيعة، وله تصانيف كثيرة، وقال ابن كثير: إنّه كان متكلّماً، بارعاً من كبار الشيعة، فهو من متكلّمي القرن الرابع.[٥]

١٠ ـ الحسن بن موسى، أبو محمد النوبختي: شيخنا المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها، له على الأوائل كتب كثيرة، منها:

---

١. فهرست ابن النديم: ٢٦٢.
٢. الخلاصة: ١٤٣ ـ القسم الأوّل ـ
٣. رجال النجاشي: ٢ / ١٠٥ برقم ٧٠٧.
٤. فهرست الطوسي: ٢٣٣، ط ليدن.
٥. تنقيح المقال: ٢ / ٣١٣ برقم ٨٥٤٩.

١ ـ كتاب الآ راء والديانات، يقول النجاشي: كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبي عبد الله (المفيد) ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ كتاب فرق الشيعة.

٣ ـ كتاب الردّ على فرق الشيعة ما خلا الإمامية.

٤ ـ كتاب الجامع في الإمامة.[١]

والرجل من أكابر متكلّمي الشيعة، عاصر الجبّائي (المتوفّى ٣٠٣هـ)، والبلخي (المتوفّى ٣١٩هـ)، وأبا جعفر بن قبة المتوفّى قبل البلخي، فهو من أعيان متكلّمي الشيعة في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع.

وقال عنه ابن النديم: أبو محمّد الحسن بن موسى بن أُخت أبي سهل بن نوبخت، متكلّم فيلسوف كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل أبي‌عثمان الدمشقي، وإسحاق وثابت وغيرهم، وكانت المعتزلة تدّعيه، والشيعة تدّعيه ولكنّه إلى حيّز الشيعة ما هو (كذا) لأنّ آل نوبخت معروفون بولاية عليّ وولده عليهم السلام في الظاهر، فلذلك ذكرناه في هذا الموضع... وله مصنّفات ومؤلّفات في الكلام والفلسفة وغيرها. ثمّ ذكر فهرس كتبه ولم يذكر إلّا القليل من الكثير.[٢]

أقول: إنّ بيت نوبخت من أرفع البيوتات الشيعية نبغ منه فلاسفة كبار،

---

١. رجال النجاشي: ١/ ١٧٩ برقم ١٤٦؛ ترجمه ابن حجر في لسان الميزان: ٢/ ٢٥٨ برقم ١٠٧٥، وترجمه هبة الدين الشهرستاني في مقدّمة «فرق الشيعة».

٢. فهرست ابن النديم: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ الفن الثاني من المقالة الخامسة.

متكلّمون عظام، لا يسعنا هنا الحديث عنهم، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المؤلّفة حول هذا البيت.

هؤلاء هم بعض أعلام الشيعة و متكلّموهم في القرون الأربعة من الذين ذادوا عن حياض الإسلام والتشيّع ببيانهم وبنانهم، أتينا بأسمائهم في هذا المقام كنموذج عن رجالات الشيعة الأفذاذ الذين ساهموا مع إخوانهم من المفكّرين المسلمين في بناء صرح الحضارة الإسلامية الخالد، ونختم بحثنا هذا بذكر أكبر فطاحلة الكلام ورجاله الأفذاذ، رجل قلّ أن يسمع الدهر بمثله، ونقصد به شيخ الأُمّة وأُستاذ المتكلّمين شيخنا المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) الذي نطق بفضله وعلمه وورعه وتقاه لسان كل موافق ومخالف، وإليك نموذجاً ممّا ذكرته كتب التراجم وعلماء الرجال في كتبهم على وجه الإيجاز، ونركّز على كلمات أهل السنّة مع ذكر القليل من كلمات الشيعة في حقّه.

١ ـ قال عنه معاصره ابن النديم (المتوفّى ٣٨٨هـ) في «الفهرست»:

ابن المعلم أبو عبد الله، في عصرنا انتهت رئاسة متكلّمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة، شاهدته فرأيته بارعاً....[١]

٢ ـ وقال عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفّى ٥٩٧هـ):

شيخ الإمامية وعالمها، صنّف على مذهبه، ومن أصحابه المرتضى، كان لابن المعلم مجلس نظر بداره ـ بدرب رياح ـ يحضره كافّة العلماء، له منزلة عند أُمراء الأطراف، لميلهم إلى مذهبه.[٢]

---

١. فهرست ابن النديم: ٢٦٦ في فصل أخبار متكلّمي الشيعة.
٢. المنتظم: ١٥ / ١٥٧.

٣ ـ وقال أبو السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي (المتوفّى ٧٦٨هـ):

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة توفّي عالم الشيعة وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد، وابن المعلّم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية. قال ابن أبي طي: وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وقال غيره: كان عضد الدولة ربّما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعة نحيفاً أسمر، عاش ستّاً وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنّف، وكانت جنازته مشهورة وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة.[١]

٤ ـ ووصفه أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (المتوفّى ٧٧٤هـ) بقوله:

شيخ الإمامية الروافض، والمصنّف لهم، والمحامي عن حوزتهم، وكان يحضر مجلسه خلق كثير من العلماء وسائر الطوائف.[٢]

٥ ـ وقال الذهبي (المتوفّى ٧٤٨هـ):

عالم الشيعة وإمام الرافضة وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في تاريخه ـ تاريخ الإمامية: ـ هو شيخ مشايخ الطائفة ولسان الإمامية ورئيس الكلام والفقه والجدل، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهية.[٣]

---

١. مرآة الجنان: ٣/ ٢٨ ط الهند.
٢. البداية والنهاية: ١١/ ١٥.
٣. العِبَر: ٢/ ٢٢٥.

٦ ـ قال ابن حجر (المتوفّى ٨٥٢هـ) بعد نقل ما ذكره الذهبي:

وكان كثير التعقيب والتخشّع والإكباب على العلم، تخرّج به جماعة، وبرع في المقالة الإمامية حتّى يقال: له على كلّ إمامي منّة، وكان أبوه معلماً بواسط، وما كان المفيد ينام من الليل إلّا هجعة ثمّ يقوم يصلي أو يطالع أو يدرس أو يتلو القرآن.[١]

٧ ـ وقال عنه ابن العماد الحنبلي (المتوفّى ١٠٨٩هـ):

ابن المعلم، عالم الشيعة، إمام الرافضة، وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في «تاريخ الإمامية»: هو شيخ مشايخ الطائفة ولسان الإمامية ورئيس الكلام، والفقه، والجدل، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية.[٢]

هذا جانب ممّا ترجم له أهل السنّة، وأمّا الشيعة فنقتصر على كلام تلميذيه الطوسي والنجاشي توخّياً للاختصار:

١ ـ يقول الشيخ الطوسي (٣٨٥ـ٤٦٠هـ) في «الفهرست»:

المفيد يكنّى أباعبدالله، المعروف بابن المعلم، من جملة متكلّمي الإمامية، انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدّماً في العلم، وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدّماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنّف كبار وصغار، وفهرست كتبه معروف، ولد سنة (٣٣٨هـ)، وتوفّي لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة (٤١٣هـ)، وكان يوم

١. لسان الميزان: ٥/ ٣٦٨ برقم ١١٩٦.
٢. شذرات الذهب: ٣/ ١٩٩ وفيه مكان الطائفة «الصوفية» وهو لحن.

وفاته يوماً لم ير أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والموافق.[١]

٢ ـ ويقول تلميذه الآخر، النجاشي (٣٧٢ـ٤٥٠هـ):

شيخنا وأُستاذنا ـ رضي الله عنه ـ فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والوثاقة والعلم. ثمّ ذكر تصانيفه.[٢]

وهكذا وبعد أن أوردنا بعضاً من رجالات الطائفة الذين برعوا في علم الكلام حتّى نهاية القرن الرابع، أودّ أن أُشير إلى بعض أساتذة الفلسفة الذين لمعت أسماؤهم في سماء العالم الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري.

مشاهير أئمّة الفلسفة بعد القرن الرابع:

١ ـ الشيخ أبو علي بن سينا: إذا كان الشيخ المفيد أكبر متكلّم للشيعة ظهر في العراق، فإنّ الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ) أكبر فيلسوف إسلامي شيعي ظهر في المشرق، وهو من الذين دفعوا عجلة الفكر والعلم إلى الأمام خطوات كثيرة، وقد ذاع صيته شرقاً وغرباً، وكتبت عنه دراسات ضافية من المسلمين والمستشرقين، ونحن في غنى عن إفاضة القول في ترجمة حياته، وآثاره التي خلّفها، والتلاميذ الذين تربّوا في مدرسته، ولكن نشير إلى كتابين من كتبه لما لهما من الشهرة والمكانة:

ألف ـ الشفاء: وهو يشتمل على المنطق والطبيعيات والإلهيات والرياضيات وقد طبع أخيراً في مصر في أجزاء، وبالإمعان فيما ذكره في مبحث

---

١. فهرست الطوسي: ٢٣٨ برقم ٧١١.
٢. رجال النجاشي: ٢/ ٣٢٧ برقم ١٠٦٨.

النبوّة يعلم منه مذهبه، قال: والاستخلاف بالنص أصوب، فإنّ ذلك لا يؤدّي إلى التشعّب والتشاغب والاختلاف.[١]

باء ـ الإشارات: وهو يشتمل على المنطق والطبيعيات والإلهيات، وهو من أحسن مؤلّفاته، وفيه آراؤه النهائية، وقد وقع موقع العناية لمن بعده، فشرحه الإمام الرازي (٥٤٣ـ٦٠٦هـ) والمحقّق الطوسي (٥٩٧ـ٦٧٢هـ) والشرح الثاني كان محور الدراسة في الحوزات العلمية.

٢ ـ نصير الدين الطوسي: سلطان المحقّقين وأُستاذ الحكماء والمتكلّمين (٥٩٧ـ٦٧٢هـ) وهو أشهر من أن يذكر، شارك في جميع العلوم النظرية فأصبح أُستاذاً محقّقاً مؤسّساً، أثنى عليه الموافق والمخالف.

٣ ـ الشيخ كمال الدين، ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني (٦٣٦ ـ ٦٩٩هـ) الفيلسوف المحقّق، والحكيم المدقّق، قدوة المتكلّمين، تظهر جلالة شأنه و سطوع برهانه من الإمعان في شرحه لنهج البلاغة في أربعة أجزاء، وله «قواعد المرام في الكلام» وكلاهما مطبوعان.

٤ ـ العلّامة الحلّي: شيخ الشيعة جمال الدين المعروف بالعلّامة الحلّي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ) له الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، وكشف المراد في الكلام، وكتبه في المنطق والكلام والفلسفة تنوف على العشرين.

٥ ـ قطب الدين الرازي (المتوفّى ٧٦٦هـ) تلميذ العلّامة الحلّي وأُستاذ الشهيد الأوّل، له شرح المطالع في المنطق، والمحاكمات بين العلمين: الرازي ونصير الدين الطوسي.

---

١. الشفاء، قسم الإلهيات: ٢ / ٥٦٤ ط إيران.

إلى غير ذلك من العقول الكبيرة التي ظهرت في الحوزات الشيعية، كالفاضل المقداد (المتوفّى ٨٠٨هـ) مؤلّف نهج المسترشدين في الكلام، والشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ـ١٠٣٠هـ)، والسيد محمّد باقر المعروف بالداماد (المتوفّى ١٠٤٠هـ)، وتلميذه المعروف بصدر المتألّهين مؤلّف الأسفار الأربعة (٩٧١ ـ ١٠٥٠هـ)، وغيرهم ممّن يتعسّر علينا إحصاء أسمائهم فضلاً عن تحرير تراجمهم.

هذه لمحة عابرة عن مشاركة الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية في مجال العلوم العقلية، والتي اقتصرنا فيها على ذكر ما يتّسع به المجال من بعض المشاهير منهم إلى أواسط القرن الحادي عشر، حيث إنّ هناك العديد من الأسماء الكبيرة واللامعة.

هذا وقد قام المتتبّع المتضلّع الشيخ عبد الله نعمة بتأليف كتاب حول فلاسفة الشيعة ومتكلّميهم أسماه «فلاسفة الشيعة» فسدّ بذلك بعض الفراغ جزاه الله خيراً.

ومن الجانب الآخر يجد المرء أنّ هذا العطاء المقدّس في علوم التفكير والبرهنة لم يزل متواصلاً لدى الشيعة وحتّى عصرنا الحاضر هذا، حيث ظهرت العديد من الشخصيات الفذّة والبارزة، رفدت المكتبة الإسلامية بمؤلّفات غنيّة في الكلام والفلسفة والمنطق، في الوقت الذي عاش فيه كثير من هؤلاء العلماء والمفكّرين في ظروف قاهرة ومصاعب جمّة، لعبت فيها السلطات الجائرة دوراً كبيراً في مطاردة وتصفية الكثير منهم، حتّى صار ذلك سبباً في اختفاء آثارهم وضياعها، بل وتراكم الأساطير حولها.

وبذلك تقف على ضعف وركاكة ما ذكره المستشرق آدم متز في حقّ كلام الشيعة:

«أمّا من حيث العقيدة والمذهب، فإنّ الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولابدّ أن يكون قلّة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة ممّا لاءم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاصّ بهم».[1]

إنّ الشيعة عن بكرة أبيهم كانوا مقتفين أثر أئمّتهم، ولم يكونوا ورثة للمعتزلة ولا لغيرهم، وإنّما أخذت المعتزلة أُصول مذهبهم عن أئمّة أهل البيت، كما هو واضح للجميع، بل والمعروف كثرة المناظرات بين الشيعة والمعتزلة منذ عصر الإمام الصادق عليه السلام وإلى عصر المفيد وما بعده.

نعم، ما أضعف ما ذهب إليه هذا المستشرق، وفي ذلك دلالة واضحة على سطحيّة الآراء التي يذهب إليها الغرباء في الحكم على عقائد المسلمين، ولسنا نلومه بقدر ما نلوم به إخواننا المسلمين ومفكّريهم الذين يستندون في كثير من مذاهبهم على أقوال هؤلاء وتخرّصاتهم، حتّى أنّ الشيخ المفيد وضع كتباً في نقد المعتزلة، كما وضع قبله بعض أئمّة المتكلّمين من الشيعة ردوداً على المعتزلة، فكيف يكون الشيعة ورثة للمعتزلة؟ نعم إنّ القائل خلط مسألة الاتّفاق في بعض المسائل بالتبعية والاقتفاء، فالشيعة والمعتزلة تتّفقان في بعض الأُصول، لا أنّ أحدهما عيال على الآخر.

١٤ـ قدماء الشيعة والعلوم الكونية

لم يكن اتّجاه الشيعة مختصّاً بالعلوم العقلية كالكلام والفلسفة والمنطق فحسب، بل امتدّ نشاطهم وحركتهم الفكرية إلى العلوم الرياضية، والكونية،

---

١. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١: ١٠٦، ط الثالثة، تعريب محمّد عبد الهادي أبو ريدة.

فتجد هذا النشاط بارزاً في مؤلّفاتهم طيلة القرون الماضية، ونحن نأتي هنا بذكر موجز عن مشاهير علمائهم ومؤلّفاتهم في القرون الأُولى تاركين غيرهم للمعاجم:

١ ـ هشام بن الحكم (المتوفّى ١٩٩هـ)، له آراء في الأعراض كاللون والطعم والرائحة، وقد أخذ منه إبراهيم بن سيّار النظّام، وحاصل هذا الرأي أنّ الرائحة جزئيات متبخّرة من الأجسام تتأثّر بها الغدد الأنفية، وأنّ الأطعمة جزئيات صغيرة تتأثّر بها الحليمات اللسانية.[١]

٢ ـ إنّ بيت آل نوبخت بيت شيعي عريق، فقد قاموا بترجمة الكثير من كتب العلوم والمعرفة من اللغة الفارسية إلى العربية، كما برع منهم من له باع طويل في كثير من العلوم، ومنها العلوم الكونية.

قال ابن النديم: آل نوبخت معروفون بولاية علي وولده.

وقال الأفندي في «رياض العلماء»: بنو نوبخت طائفة معروفة من متكلّمي الإمامية منهم:

أ ـ أبو الفضل بن نوبخت، قال ابن النديم: كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، وقال ابن القفطي في تاريخ الحكماء: إنّه مذكور مشهور من أئمّة المتكلّمين وذُكر في كتب المتكلّمين. وكان في زمن هارون الرشيد وولّاه القيام بخزانة كتب الحكمة، وهو من متكلّمي أواخر القرن الثاني.

ب ـ ولده إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت، من متكلّمي القرن الثالث.

---

١. فلاسفة الشيعة: ٥٦.

ج ـ يعقوب بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت، متقدّم في الحكمة والكلام والنجوم.[١]

٣ ـ أبو عليّ أحمد بن محمّد بن يعقوب بن مسكويه، من أعيان الشيعة وأعلام فلاسفتهم، صنّف في علوم الأوائل، وله تعليقات في المنطق، ومقالات جليلة في أقسام الحكمة والرياضة.[٢]

٤ ـ جابر بن حيّان، ويعدّ من أشهر علماء الشيعة وأقدمهم الذين برزوا في علم الكيمياء، وهو أوّل من أشار إلى طبقات العين قبل «يوحنا بن ماسويه» (المتوفّى ٢٤٣هـ) وقبل حنين بن إسحاق (المتوفّى ٢٦٤هـ) وأوّل من أثبت إمكان تحويل المعدن الخسيس إلى الذهب والفضة، فلم تقف عبقريته في الكيمياء عند هذا الحدّ، بل دفعته إلى ابتكار شيء جديد في الكيمياء فأدخل فيها ما سمّاه بعلم الميزان، والمقصود منه معادلة ما في الأجسام والطبائع، وجعل لكلّ جسم من الأجسام، موازين خاصّة[٣] وقد أُلّفت حول جابر وعبقريته كتب كثيرة، فمن أراد فليرجع إليها، وقد اتّفق الكلّ على أنّه تلميذ الإمام الصادق عليه السلام.

٥ ـ الشريف أبو القاسم عليّ بن القاسم القصري، وهو من علماء القرن الرابع، ذكره ابن طاووس في «فرج المهموم» في عداد منجّمي الشيعة.[٤]

هذه نماذج من علماء الشيعة في الطبيعيات والفلكيات، وأمّا المتأخّرون،

---

١. أعيان الشيعة: ١ / ١٣٥. ٢. روضات الجنات: ١ / ٢٥٤.

٣. فلاسفة الشيعة: ١ / ٥٧.

٤. فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم: ١٢٨، ط النجف ١٣٦٨هـ.

فحدّث عنهم ولا حرج، وقد أتى بقسم كبير منهم الشيخ عبد الله نعمة في كتابه «فلاسفة الشيعة» فمن أراد فليرجع إليه، غير أنّا نذكر هنا المحقّق الطوسي الذي له حقّ على الأُمّة جمعاء، والذي تقول في حقّه المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه :

وحصل نصير الدين الطوسي على مرصده، فكان معهداً للأبحاث لا مثيل له، وزوّده بالآلات الفلكية التي زادت في شهرة المعهد، ورفعت مكانته... ويحكى أنّ زائراً قصد ابن الفلكي نصير الدين في مرصده في مراغة، فلمّا رأى الآلات الفلكية المتنوّعة ذُهل، وقد ازداد دهشة حين رأى «المحلقة» ذات الخمس حلقات والدوائر من النحاس: أولاها: تمثل خطّ الطول الذي كان مركّزاً في الأسفل، وثانيتها: خطّ الاستواء، وثالثتها: الخطّ الاهليلجي، ورابعتها: دائرةخطّ الأرض، وخامستها: دائرة الانقلاب الصيفي والشتوي، وشاهد أيضاً دائرة السمت التي يمكن للمرء بواسطتها أن يحدّد سمت النجوم، أي الزاوية الناتجة على خطّ أُفقي ثابت وخطّ أُفقي آخر صادر عن كوكب في السماء.

وتقول أيضاً: إنّ نصير الدين أحضر إلى مكتبة المعهد أربعمائة ألف مجلّد كانت قد سرقت من مكتبات بغداد وسورية وبلاد بابل، وقد استدعى علماء ذوي شهرة طائرة من إسبانيا ودمشق وتفليس والموصل إلى مدينة مراغة لكي يعملوا على وضع الازياج بأسرع وقت ممكن.[1]

ويناسب في المقام ذكر إجمالي عمّا قدّموا من الخدمة في مجال الجغرافية وعلم البلدان فنقول:

---

١. شمس العرب تسطع على الغرب: ١٣٣، والصحيح أن يسمّى: شمس الإسلام.

الجغرافية وتقويم البلدان

نذكر في المقام رحّالتين طافا البلاد الإسلامية وكتبا ما يرجع إلى جغرافية البلدان، وقد صار كتاباهما أساساً للآخرين:

١ ـ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، المعروف باليعقوبي، المتوفّى في أواخر القرن الثالث، فهو أوّل جغرافي بين العرب، وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصّة، ومتوخّياً قصد ما أراد من وصف البلد وخصائصها، وهو يقول عن نفسه: إنّه عنى في عنفوان شبابه وحدّة ذهنه بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنّه سافر حديث السنّ، واتّصلت أسفاره، ودام تغرّبه، وقد طاف في بلاد المملكة الإسلامية كلّها، فنزل أرمينيّة، وورد خراسان، وأقام بمصر والمغرب، بل سافر إلى الهند وكان متى لقى رجلاً سأله عن وطنه ومصره، وعن زرعه ما هو؟ وساكنيه من هم؟ عرب أو عجم؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم، من غير أن يلحقه من ذلك ملال ولا فتور، وقد وصف المملكة الإسلامية مبتدئاً ببغداد وصفاً منظّماً مع إصابة جديرة بالثقة والإعجاب.[1]

٢ ـ أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي (المتوفّى ٣٤٦هـ) فقد ألّف في ذلك المضمار كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتابه الآخر «التاريخ في أخبار الأُمم من العرب والعجم» وكتابه الثالث «التنبيه والأشراف» فقد اشتمل وراء التاريخ على الجغرافية وتقويم البلدان، وقد جرّه حُبّه للاستطلاع إلى السفر إلى بلاد بعيدة، فكتب ما رآه وشاهده.

---

١. الحضارة الإسلامية: ٢ / ٣٤وكتاب اليعقوبي في الجغرافية هوكتاب «البلدان» المنتشر.

الفصل الثالث عشر:

بلدان الشيعة وأماكن تواجدهم

يمثّل الشيعة شريحة كبيرة من المجتمع الإسلامي الكبير المتوزّع في بقاع العالم المختلفة، حيث ساهموا كما أسلفنا مع إخوانهم المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية، وإقامة صرح الدين الحنيف، ونشره في أصقاع المعمورة، وسنحاول في بحثنا هذا استعراض وجود الشيعة في بلدان العالم مع ذكر مختصر عن جوامعهم ومعاهدهم ودورهم وأعدادهم، لكي يكون القارئ الكريم على تصوّر واضح عنهم.

بلدان الشيعة:

ينتشر الشيعة في جميع أنحاء العالم بنسب مختلفة، وربّما تعد بعض البلدان معقل الشيعة ومزدحمها حيث يكون المذهب السائد فيها هو مذهب التشيع، في حين تتفاوت هذه النسبة في بلدان أُخرى. وإليك أسماء بعضها، وهي إيران، والعراق، وسورية، والسعودية، وتركيا، وأفغانستان، والباكستان، والهند، واليمن، ومصر، والإمارات العربية المتّحدة، والبحرين، والكويت، ومسقط، وعمان، والتبت، والصين، وآذربيجان، وطاجيكستان، وباقي الجمهوريات المتحرّرة بانحلال الاتحاد السوفيتي، وماليزيا، وأندونيسيا، وسيلان، وتايلند، وسنغافورة، وشمال أفريقيا، والصومال،

والأرجنتين، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وألبانيا، والولايات المتّحدة، وكندا وغيرها من الدول المختلفة التي يضيق المجال بحصرها.

ولا بأس بالإيعاز إلى خصوصيّات بعض البلدان؛ إذ فيه تسليط لبعض الضوء للتعرّف على ماضي التشيّع وما لاقاه أتباعه من العدوان والويلات والمصائب.

التشيّع حجازي المحتد والمولد:

التشيّع حجازي المحتد والمولد؛ إذ فيه نشأ، وفي تربته غرست شجرته، ثمّ نمت وكبرت، فصارت شجرة طيّبة ذات أغصان متّسقة وثمار يانعة. وفيه حثّ النبيّ الأكرمﷺ على ولاء الإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام وسمّى أولياءه شيعة، وحدّث بحديث الثقلين، وجعل أئمة أهل البيت قرناء الكتاب في العصمة ولزوم الاقتفاء والطاعة، وفيه رَقى النبيّﷺ المنبر الذي صنعوه من رحال الإبل وأخذ بيد وصيّه ووليّ عهده عليّ المرتضى وحمد الله وأثنى عليه وقال: «**ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**» فقالوا: اللّهمّ بلى، ولما أخذ من الجمع المحتشد الإقرار بأولويّته على النفس والنفيس عرَّف عليّاً خليفة بعده وقال: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**» ونزل من المنبر ثمّ نزلت آيات من الذكر الحكيم تشير إلى هذه البيعة وتؤكّدها، ومن ثمّ تبودلت التهاني والتحيّات بين الإمام والصحابة.[1]

١. لقد أفرد علماء الإمامية كتباً كثيرة أشاروا فيها إلى بيعة الغدير التي حدثت بعد عودة رسول اللهﷺ والمسلمين من حجّة الوداع، وقد بسطوا القول فيها وعضدوها بالأدلّة القوية والثابتة، كما أنّ كتب أهل السنّة حافلة بهذا الخبر تصريحاً أو إشارة إليه، فمن شاء فليراجع.

وقد أشار إلى بعض ما ذُكر مؤلّف «خطط الشام» وقال: إنّ النبيّ ﷺ هو الذي حثّ على ولاء عليّ وأهل بيته عليهم السلام وهو أوّل من سمّى أولياءه بالشيعة، وفي عهده ظهر التشيّع وسمّي جماعة بالشيعة.(١)

ولما ارتحل النبيّ الأكرم ﷺ إلى دار البقاء تناسى أُولو القوّة والمنعة من الصحابة عهد النبيّ الأكرم ﷺ فحالوا بين النبيّ ﷺ وأُمنيته كما حالوا بين أُمّته وإمامها، فتداولوا كُرة الخلافة بينهم، وأخذوا بمقاليد الحكم واحداً بعد آخر، والإمام منعزل عن الحكم، لا عمل له إلّا هداية الأُمّة وإرشادها بلسانه وبيانه وقلمه وبنانه.

ولقد كان الذي دعا عليّاً إلى السكوت والانحياز، هو مشاهدة ظاهرة الردّة الطارئة على المجتمع الإسلامي عن طريق مسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأفّاك، وسجاح بنت الحرث الدجّالة، وأتباعهم الرعاع الذين كانوا على الدين الفتيّ خطراً جدّياً كان من الممكن أن يؤدّي إلى محق الإسلام وسحق المسلمين. ويحدّث عن هذه الحقيقة الإمام في رسالته التي أرسلها مع مالك الأشتر إلى أهل مصر، حيث يقول فيها: «**فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّد ﷺ فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم**».(٢)

رأى الإمام أنّ صيانة الإسلام وردّ عادية الأعداء تتوقّفان على المسالمة والموادعة، فألقى حبل الخلافة على غاربها، تقديماً للأهمّ على المهمّ، وتبعته شيعته صابرين على مضض الحياة ومرّها.

---

١. خطط الشام: ٥/ ٢٥١.
٢. نهج البلاغة: الكتاب ٦٢.

بقي الإمام منعزلاً عن الحكم قرابة ربع قرن إلى أن قتل عثمان في عقر داره، وانثال الناس إلى دار عليّ من كلّ جانب مجتمعين حوله كربيضة الغنم، يطلبون منه القيام بالأمر وأخذ مقاليد الحكم، وفيهم شيعته المخلصون الأوفياء، فلم ير بدّاً من قبول دعوتهم لقيام الحجّة بوجود الناصر.(١)

ولمّا نكث الناكثون البيعة، وقادوا حبيسة رسول الله ﷺ «عائشة» معهم إلى البصرة، ارتحل الإمام بأنصاره وشيعته إلى العراق إلّا قليلاً بقوا في الحجاز لقلع مادّة الفساد قبل أن تستفحل، ولمّا قلع عين الفتنة، استوطن الإمام الكوفة، واستوطنها معه شيعته، وصارت الكوفة عاصمة التشيّع، ومعقله، وفيها نما وأينع وأثمر ومنها انحدر إلى سائر البلدان، بعد ما كان الحجاز مهبط التشيّع ومغرسه ومحتده. فكان حجازي المحتد والمغرس، عراقي النشوء والنمو، ولم يكن يوم ذاك يتظلّل في ظلال التشيّع إلّا عربي صميم، من عدنانيّ وقحطانيّ، ولم يكن بينهم فارسيّ ولا بربريّ الأصل ولا شعوبيّ العقيدة يمقت العرب.

وهكذا فإنّا يمكننا القول بأنّ مهد التشيّع الأوّل كان في أرض الحجاز الطيّبة ومنها درج واشتد حتّى تسامق وتطاول وأصبح له وجود في كلّ بقاع المعمورة.

ولا زال الشيعة يعيشون مع إخوانهم المسلمين في مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، وحضرموت، ونجران، وغيرها، كما توجد في أنحاء من أرض الحجاز الكثير من القبائل العربية الشيعية أمثال بني جهم، وبنو عليّ، وغيرهم.

---

١. إشارة إلى قوله عليه السلام: «أما والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر... لألقيت حبلها على غاربها» نهج البلاغة: الخطبة ٣.

وأمّا المنطقة الشرقية كالإحساء والقطيف والدمّام، فأكثر سكّانها من الشيعة.

التشيّع عراقي النشوء والنمو:

قد عرفت أنّه لمّا غادر الإمام المدينة المنوّرة متوجّهاً إلى العراق واستوطن الكوفة هاجر كثير من شيعته معه واستوطنوا العراق، فصار ذلك أقوى سبب لنشوء التشيّع ونموّه في العراق، ولا سيما في الكوفة، فصارت معقل الشيعة، ولمّا قضى الإمام نحبه حاولت السلطة الأُموية وعمّالها استئصال التشيّع منها بأبشع صورة مستخدمة في ذلك شتّى الأساليب الإجرامية الرهيبة من دون أيّ وازع من ضمير.

وبالرغم من أنّ العراق وأخصّ منه الكوفة كان علوي النزعة هاشمي الولاء، إلّا أنّ الحسين ابن الإمام عليّ عليه السلام قتل بسيف الكوفيين، وسقط عطشان وحوله أجساد أبنائه وأبناء أخيه وأصحابه، إلّا أنّ ذلك لا يدلّ على انسلاخهم عن التشيّع؛ لأنّ الشيعة يوم ذاك كانوا بين مسجون في زنزانات الأُمويين، أو مرعوب متخاذل فاقد للتصميم والحمية، أو منتظر لما تؤول إليه الأُمور، أو ناصر التحق بالحسين في أحلك الظروف. هؤلاء هم الشيعة.

وأمّا الذين شاركوا في قتل الحسين فلم يكونوا من الشيعة أبداً، بل كانوا أتباع الأُمويين والمنضوين تحت راياتهم. فلما قتل الحسين أثار قتله شجون الشيعة، وبقوا يتحيّنون الفرص للانقضاض على الحكم الأُموي الفاسد وأتباعه، حتّى تهيّأت الفرصة عند خروج المختار من سجنه، فالتفوا حوله في ثورة كبيرة اقتلعت جذور الأُمويين واقتصّت من أعوانهم قتلة الحسين وأهل بيته وأصحابه.

وقد حاول الأُمويون جعل العراق أُموياً، وبذلوا جهوداً حثيثة في سبيل هذا الأمر، إلّا أنّ جهودهم ذهبت أدراج الرياح، وبقي العراق هاشمياً وعلوياً، حتّى أنّ دعوة العباسيين نجحت في بداية الأمر في العراق في ظلّ طلب ثأر الحسين وأهل بيته، وكانت الدعوة للرضا من آل محمّدﷺ.

لقد تبلور التشيّع بعد حادثة الطفّ بقليل واتّسع نطاقه وصار العراق مركزه، وكانت القوافل من أنحاء العراق وغيره من بلاد المسلمين تؤمّ قبر الحسين وأصحابه، فصارت مشاهد أهل البيت فيها معمورة بالزائرين والمجاورين، وكانت المآتم تقام في حواضرها تخليداً لذكرى استشهاد الإمام الحسين المفجع، واتّخذت الشيعة قرب مشاهد أئمّتهم، حوزات علمية ومعاهد فكرية، فازدهر العراق بعمالقة الفكر، وأساتذة الفقه، وأساطين الكلام، وأعان على نشر التشيّع ونموّه في العراق نشوء دول وإمارات للشيعة في القرن الرابع وما بعده.

يقول الشيخ المظفّر[1]: وساعد على نمو التشيّع وانتشاره في العراق، أن تكوّنت من الشيعة فيه سلطنات دول وإمارات كسلطنة آل بويه، وإمارة بني مزيد في الحلّة والنيل، وبني شاهين في البطائح، وبني حمدان وآل المسيّب في الموصل، ونصيبين، وكدولة بعض المغول أمثال محمّد خدابنده وابنه أبي سعيد، وأمّا محمود غازان فقد قيل بتشيّعه وهناك أمارات عليه إلّا أنّه لم يصارح به، وكدولة الجلائرية التي أسّسها الشيخ حسن الجلائري أحد قوّاد المغول وابن أُخت محمود غازان ومحمّد خدابنده، وكانت بغداد عاصمة ملكه،

١. انظر: تاريخ الشيعة: ٦٩ـ٧١و ١١٠ ـ ١١١.

وكالدولة الصفوية التي ناصرت التشيّع ونشرته في البلاد بشتّى الطرق، فكأنّما هي دولة دينية تأسّست لنشر مذهب أهل البيت.

وأيّد مذهب التشيّع أيضاً أن انعقدت عدّة وزارات من رجاله، فقد استوزر السفاح أوّل ملوك بني العباس أبا سلمة الخلّال الكوفي الهمداني داعية أهل البيت، وقتله على التشيّع.

واستوزر المنصور: محمّد بن الأشعث الخزاعي.

واستوزر المهدي: أبا عبد الله يعقوب بن داود، وحبسه لتشيّعه، واستوزر الرشيد: عليّ بن يقطين، وجعفر بن الأشعث الخزاعي.

واستوزر المأمون: الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين القلم والسيف، وقتله عندما أحسّ بميله إلى الرضا عليه السلام، واستوزر من بعده أخاه الحسن بن سهل.

واستوزر المعتزّ والمهتدي: أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافي.

واستوزر المقتدي: أبا شجاع ظهير الدين محمّد بن الحسين الهمداني، وعزله لتشيّعه.

واستوزر المستظهر: أبا المعالي هبة الدين بن محمّد بن المطّلب، وعزله لتشيّعه، ثمّ أعاده على أن لا يخرج من مذهب أهل السنّة، ثمّ تغيّر عليه وعزله.

واستوزر الناصر والظاهر والمستنصر: مؤيّد الدين محمّد بن عبد الكريم القمّي من ذريّة المقداد ـ رضوان الله عليه ـ.

واستوزر المستعصم آخر ملوك بني العباس: أبا طالب محمّد بن

أحمد العلقمي الأسدي، وأقرّه هولاكو على الوزارة، ولمّا مات ـ رحمه الله ـ استوزر: ولده أبا الفضل عزّالدين. إلى ما سوى هؤلاء.

وأمّا الإمارات، والقيادات، والكتابة، والخزانة، فما أكثرها، أمثال: إمارة آل قشتمر، وآل أبي فراس الشيباني، وآل دبيس كما أشرنا إليهم.

وقيادة طاهر بن الحسين الخزاعي، وقيادة أولاده كابنه عبد الله، ومحمّد بن عبد الله وغيرهما، وتولّيهم إمارة هراة.

وكان عبد الله بن سنان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وكان من ثقات الرواة لأبي عبد الله الصادق عليه السلام. إلى ما يعسر استقصاؤه.

وكفاك برهاناً على أنّ التشيّع كان ضارباً أطنابه على بسيطة العراق، ما كان من نقابة الطالبيين في بغداد، فما أكثر ما كان يتولّاها الشيعة، أمثال الشريف الرضي وأبيه وابنه وأخيه المرتضى، وقد تولّوا المظالم أيضاً، وتولّى الشريف الرضي وأبوه أيضاً إمارة الحاج، كما تولّاها ثلاث عشرة حجّة حسام الدين أبو فراس جعفر بن أبي فراس الشيباني.

وتولّى آل طاووس نقابة الطالبيين في العراق عامة، تولّاها منهم السيّدان العلمان رضي الدين وغياث الدين عبد الكريم.[1]

كما تولّى الأوقاف في العراق وغيرها ممّا كان تحت حكم المغول الخواجة نصير الدين الطوسي ـ طاب ثراه ـ وعندما قبض عليها، أقام ببغداد،

---

١. انظر: الحوادث الجامعة، في حوادث عام (٦٦١هـ) وما ذكره فيها من تولّي السيد رضي الدين بن طاووس نقابة الطالبيين بالعراق، وذكر أنّ وفاته عام (٦٦٤هـ)، وفي حوادث عام (٦٩٣هـ) قال: وفيها توفّي النقيب غياث الدين عبد الكريم بن طاووس.

وتصفّح الأوقاف، وأدار أخبار الفقهاء والمدرّسين، وقرّر القواعد في الوقف، وأصلحها بعد اختلالها[١]، ومن بعده تولّاها ابنه أحمد فخر الدين، ولمّا وليها حذف الحصّة الديوانية في الوقوف، ووفّرت على أربابها.[٢]

وهكذا فإنّ الاستقراء الموضوعي لسكان العراق يكشف بوضوح التفوّق الكبير في عدد الشيعة على ماعداهم، فجنوب العراق يغلب على سكّانه الشيعة بشكل واضح جدّاً، وأما وسطه فتتركّز شيعته في أغلب محافظاته أمثال محافظة النجف وكربلاء وبابل وواسط والسماوة والديوانية وغيرها، وأما شمال العراق فتقلّ نسبة الشيعة فيه بشكل ملحوظ، إلّا أنّ هناك أعداداً لا بأس بها في محافظتي الموصل وكركوك.

الشيعة في اليمن:

دخل التشيّع في اليمن بعد أن أسلموا على يد عليّ عليه السلام، حيث يحدّثنا التاريخ: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث خالد بن الوليد إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، فأقام هناك ستّة أشهر فلم يجيبوه إلى شيء. فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأمره أن يُرجع خالد بن الوليد ومن معه.

قال البراء: فلمّا انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له فصلّى بنا عليّ الفجر، فلمّا فرغ صفّنا صفّاً واحداً ثمّ تقدّم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا قرأ كتابه خرّ ساجداً ثمّ

١. انظر: تاريخ مختصر الدول للعبري: ٥٠٠؛ والحوادث الجامعة، في حوادث عام (٦٧٢هـ).
٢. انظر: الحوادث الجامعة، في حوادث عام (٦٨٣هـ).

جلس فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**» ثمّ تتابع أهل اليمن على الإسلام.[١]

فكان تمسّكهم بعرى الإسلام على يد عليّ عليه السلام، وصار هذا أكبر العوامل لصيرورتهم علويين مذهباً ونزعة. وفي ظلّ هذه النزعة ضحّوا بأنفسهم ونفيسهم بين يدي عليّ عليه السلام في حروبه.

أضف إليه أنّهم سمعوا من المصطفى صلى الله عليه وآله فضائل إمامهم ومناقبه غير مرّة، وهذا ممّا زادهم شوقاً وملأ قلوبهم حبّاً وولاءً له، فقد روى المحدثون: أنّ اليمانيّين طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وآله أن يبعث إليهم رجلاً يفقّههم في الدين ويعلّمهم السنن ويحكم بينهم بكتاب الله، فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله علياً وضرب على صدره وقال: «**اللّهمّ اهد قلبه، وثبّت لسانه**». قال الإمام عليّ عليه السلام: «**فما شككت في قضاء بين اثنين حتّى الساعة**».[٢]

بقي الإمام عليّ عليه السلام بينهم مدّة يفقّههم في الدين، ويقضي بكتاب الله، ويحلّ المشاكل القضائية، بما تنبهر به العقول.

ومن هنا تتوضّح الصورة عن حقد الأُمويين على أهل اليمن وقسوتهم في تعاملهم معهم، كما فعل ذلك بسر بن أُرطاة عند حملته على اليمن، حيث لم يترك محرّماً إلّا استحلّه، ولا جريمة إلّا فعلها فلحقته اللعنة في الدارين.

نعم إنّ شيعة أهل اليمن كانوا من خلّص شيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلا غرو ولا غرابة أن يذكرهم في شعره بقوله:

---

١. الكامل: ٢/ ٣٠٠ في حوادث السنة العاشرة.

٢. كنز العمال: ٦/ ١٥٨ و ٣٩٢، باب فضائل عليّ.

فلو كنت بوّاباً علىٰ باب جنّة لقلت لهمدان ادخلي بسـلام

وممّا يدل على فرط حبّهم وولائهم لعليّ عليه السلام ما قاله سيّدهم سعيد بن قيس الهمداني ـ رضوان الله عليه ـ في وقعة الجمل:

قل للوصيّ أقبلت قَحطانُها فادع بها تكفيكها هَمدَانُـها

همُ بنوها وهُم أُخوانها[1]

نعم رحل يحيى بن الحسين الرسّي العلوي من العراق إلى اليمن في القرن الثالث ودعا إلى المذهب الزيدي في ظلّ ولاء أهل البيت وأخذ بمجامع القلوب وانتشرت دعوته فانتموا إلى زيد، فالشيعة إلى اليوم في اليمن زيديّو المذهب يهتفون في الأذان بـ«حيّ على خير العمل».

ويوجد هناك شيعة إماميّة قليلون.

كانت الحكومة منذ دعوة الرسّي العلوي بيد الزيدية، وكان آخر حاكم مقتدر زيدي يحكم البلاد هو حميد الدين يحيى المتوكّل على الله، ولما اغـتيل هـو وولداه الحسـن والمـحسن، وحفيده الحسين بن الحسن بيد بعض وزرائه عام (١٣٦٧هـ) في ظلّ مؤامرة أجنبية، قام مكانه ولده الإمام بدر الدين، ولم يكن له نصيب من الحكم إلّا مدّة قليلة حتّى أُزيل عن الحكم عن طريق انقلاب عسكري، وبذلك انتهى الحكم الزيدي في اليمن، ولكنّ اليـمنيّين بـقوا عـلى انتمائهم إلى التشيّع.

١. شرح نهج البلاغة: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

الشيعة في سورية ولبنان:

ظلّ التشيّع سائداً في الشام وحلب وبعلبك وجبل عامل منذ القرن الأوّل إلى يومنا هذا، ومن المعروف أنّ أبا ذر الصحابي الجليل هو الذي بذر بذرته، أو غرس شجرته، وذلك عندما نفاه عثمان من المدينة إلى الشام، وكان يجول في الشام وضواحيه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من دون أن يخاف قوّة أو سطوة، أو إهانة أو قسوة، وطبع الحال يقتضي أن يبوح بما انطوت عليه جوانحه من الولاء لعليّ وأهل بيته، يدعو له على القدر المستطاع، فنمت بذرة التشيّع في ظلّ التستّر والتقيّة، وأمّا اليوم فالشيعة مجاهرون ولهم شأن عند الدولة، ولهم مظاهر في الشام وضواحيه، ترى اسم عليّ والحسين مكتوبين تحت قبّة المسجد الأُموي، وفي الجانب الشرقي مسجد خاصّ باسم رأس الحسين، وفي نفس البلد قباب مشيّدة لأهل البيت، أمثال زينب بنت عليّ عليها السلام ورقيّة بنت الحسين عليهما السلام في الوقت نفسه لا تجد أثراً لمعاوية[1] ويزيد والحكّام الأُمويين. إنّ في ذلك لعبرة لأُولي الألباب.

قويت شوكة التشيّع في سورية بعد قيام دولة الحمدانيين في الشام والجزيرة، وكان لسيف الدولة أيادٍ بيضاء في رفع منارة التشيّع، كيف وأبو فراس صاحب القصيدة الميمية هو ابن عمّه الذي يقول:

الحقّ مهتضم والدين مختـرمُ وفَـيءُ آل رسـول الله مـقتسمُ

وأمّا جبل عامل فقد انتشر فيه التشيّع منذ دخل إلى الشام ووجد في تلك

١. نعم في داخل البلد بيت يقال فيه قبر معاوية لايزوره أحد إلّا للعبرة والاطّلاع على ما آلت إليه أعمالهم من مصير بائس بعد مماتهم.

البقاع مرتعاً خصباً ونفوساً متلهّفة، فتعلّق به أهله تعلّقاً شديداً حتّى لقد برز منهم العديد من العلماء الكبار طبقوا البلاد شهرة وصيتاً أخصّ منهم بالذكر:

١ ـ محمّد بن مكّي المعروف بالشهيد الأوّل (٧٣٤ ـ ٧٨٦هـ) وكان إماماً في الفقه، ولكنّه صلب بيد الجور، ثمّ رجم، ثمّ أُحرق، بذنب أنّه شيعي موالٍ لأهل البيت ولا يفتي بفتوى أئمّة المذاهب الأربعة.

وله كتب فقهية أشهرها كتاب اللمعة الدمشقية، ألّفه في السجن خلال أُسبوع ولم يكن عنده من الكتب الفقهية سوى المختصر النافع للمحقّق الحلّي (٦٠٠ ـ ٦٧٦هـ).

٢ ـ زين الدين بن عليّ الجبعي (٩١١ ـ ٩٦٦هـ) المعروف بالشهيد الثاني صاحب الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقية، والمسالك في شرح الشرائع الذي يتضمّن مجموع الكتب الفقهية مع ذكر المستند والدليل. وقد امتدت إليه أيدي الظلم كسلفه الشهيد الأوّل، حيث اعتقل بأمر الخليفة العثماني ثمّ قتله معتقلوه قرب شاطئ البحر وحُزّ رأسه من جسده وأُرسل إلى السلطان.

وتالله إنّها لجرائم بشعة تقشعرّ منها الأبدان، ويندى لها جبين البشرية خجلاً، فما معنى هذه القسوة المتناهية في قتل الشيعة وعلمائها، وإذا كان هذا مصير الشيعة من قبل الحكومات المتعاقبة والظالمة، فهل يلومهم أحد على اتّخاذهم التقية حجاباً لحقن دمائهم وحفظ أعراضهم؟! لا أعتقد أن يلومهم عليها عاقل؛ لأنّ الملام من دفعهم إليها لا هم.

أقول: ورغم هذا الإسراف في مطاردة الشيعة وقتلهم، فقد ظهر في جبل عامل بعد هذين العالمين الجليلين، علماء فضلاء وفقهاء عظام، ولم يزل

منار التشيّع مرتفعاً ولواؤه خفّاقاًبهم، ولقد تحمّلوا عبرالقرون وخصوصاً في عهد السلطة العثمانية المصاعب الجسام والتي ذكرها التاريخ في صفحات سوداء لا تنسى، ولا سيما في عهد أحمد باشا الجزّار، ممثّل الدولة العثمانية في بلاد الشام من (١١٩٥ ـ ١١٩٨هـ).

ولقد ألّف الشيخ الحرّ العاملي كتاباً أسماه «أمل الآمل في علماء جبل عامل» طبع في جزأين، واستدرك عليه السيد الجليل حسن الصدر.

وأمّا بالنسبة إلى بعلبك فهي من المدن الشيعية العريقة، والتي ظهر بها التشيّع منذ دخل بلاد الشام وراج في ظلّ الدولة الحمدانية، ووجد في نفوس أهلها خير موطن، فاحتضنوه وتمسّكوا به.

الشيعة في مصر:

دخل التشيّع مصر في اليوم الذي دخل فيه الإسلام، ولقد شهد جماعة من شيعة عليّ عليه السلام فتح مصر، منهم: المقداد بن الأسود الكندي، وأبو ذر الغفاري، وأبورافع، وأبو أيوب الأنصاري، وزارها عمّار بن ياسر في خلافة عثمان.[١] وهؤلاء ما كانوا يبطنون فكرة التشيّع التي كانوا يؤمنون بها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولأجل ذلك حين قتل عثمان، بإجهاز المصريين عليه، بايعوا عليّاً كما بايع أهلها طوعاً ورغبة.

لمّا بعث عليّ عليه السلام قيس بن سعد أميراً على مصر بايع أهلها طوعاً، إلّا قرية يقال لها خربتاء.[٢]

---

١. الخطط المقريزية: ٢/ ٧٤.

٢. المصدر نفسه: ٤/ ١٤٩؛ الكامل: ٣/ ٦١ حوادث عام (٣٦).

كان هذا نواة لمذهب التشيّع في تلك البلاد، وإن تغلّب عليها الأمويون بعد ذلك حين قَتلَ عمرو بن العاص ومعاوية بن حديج ـ اللذان أرسلهما معاوية بن أبي سفيان إلى مصر ـ والي عليّ عليه السلام على مصر محمّد بن أبي بكر بشكل بشع، ثمّ جعلوا جثّته في جيفة حمار وأحرقوها بالنار، وهو أُسلوب يدلّ على انحراف كبير عن الدين، وانسلاخ عن أبسط معاني الإنسانية، ولكن للحقّ دولة وللباطل جولة، فهذه الأعمال الإجرامية وما ارتكبه العباسيون من الجرائم صارت سبباً لابتعاد الناس عن السلطات المتعاقبة الظالمة وتعاطفهم مع العلويين واحتضانهم لهم، ويظهر ذلك بوضوح عند قيام الدولة الفاطمية الشيعية هناك والتفاف المسلمين حولها، والتي كان لها الدور الأكبر في انتشار التشيّع واعتناق المسلمين له في شمال أفريقيا، حيث امتدّ نفوذها وسلطانها إلى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا، وكذا إلى السودان جنوب مصر.

لقد اعتنق المصريّون التشيّع برغبة وجهروا بحيّ على خير العمل، وتفضيل عليّ على غيره، كما جهروا بالصلاة على النبيّ وآله صلى الله عليه وآله.

لقد قامت في عهد الفاطميين مراسم عاشوراء، وعيد الغدير، ولم تزل هذه المراسم إلى يومنا هذا. وكان التشيّع مخيّماً على مصر في عهد الفاطميين وضارباً أطنابه في القرى والبلدان، لولا أنّ صلاح الدين الأيوبي أزال سلطتهم ومذهبهم من مصر بقوّة السيف والنار، والتاريخ يشهد على عظم الجرائم وقسوتها التي قام بها صلاح الدين وأتباعه في سبيل هذا الأمر. وهذه الصفحة من تاريخ مصر مليئة بالأسى والحزن، راح ضحيتها العديد من أتباع المذهب المحمّدي، إلّا أنّها لم تستطع أن تقضي عليه، فلا زال هناك الكثير من الشيعة ومن المتعاطفين روحياً معهم، والذين يعبّرون عن ذلك بوضوح في

حرصهم على زيارة المشاهد المعروفة برأس الإمام الحسين عليه السلام ومرقد أُخته السيدة زينب ـ رضوان الله عليها ـ.

الشيعة في إيران:

إنّ التشيّع هو المذهب الساحق في إيران من أوائل القرن العاشر (٩٠٥هـ) إلى يومنا هذا وذلك أنّ الدولة الصفويّة الشيعية هي التي أشاعت التشيّع في إيران، وفي عصرها ثبّتت أركانه، وتعلّق به المسلمون تعلّقاً عظيماً، وتزايد عدد الشيعة بتقادم السنين، فإن بلغ عدد النفوس في إيران الإسلامية قرابة ستّين مليوناً، فالأكثرية هم الشيعة، ولا يتجاوز عدد سائر الطوائف عن أربعة ملايين نسمة، يرفل الجميع بثوب الأُخوّة الإسلامية والمحبّة والتفاهم في ظلّ العقائد العظيمة التي يتمسّك بها الشيعة والتي تحدّد علاقتهم بإخوانهم من سائر المذاهب الإسلامية، والتي كرّسها قيام الجمهورية الإسلامية المباركة، بزعيمها الراحل الإمام الخميني قدس سره والذي دعا إلى تقوية الترابط بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وأمر بإثبات أيّام معيّنة خلال العام سمّيت بأُسبوع الوحدة، وعلى نفس خطاه واصل خلفه سماحة آية الله السيد عليّ الخامنئي تعهّد شجرة الوحدة بتكافل جميع المسؤولين في الدولة الإسلامية المباركة، والتي يلمسها بوضوح كلّ من زار هذه الدولة أو مرّ بها.

أسباب اعتناق الفرس للإسلام و لمذهب التشيّع:

ثمّ إنّ هنا أُموراً لا محيص عن طرحها وتحليلها؛ لأنّها من المواضيع التي كثر فيها اللغط، وقد أكثر المستشرقون وغيرهم فيها الصخب والهياج وهي:

١ ـ ما هو السبب الحقيقي لدخول الفرس في الإسلام؟

٢ ـ ما هو السبب الحقيقي لجنوحهم إلى آل البيت؟

٣ ـ سببان مزعومان: الإصهار، وإرادة هدم الإسلام.

وإليك تحليل تلك النقاط:

١ ـ ما هو السبب الحقيقي لدخول الفرس في الإسلام؟

إنّ الفرس دخلوا في الإسلام كدخول سائر الشعوب، والعلّة في الجميع واحدة أو متقاربة، وحاصلها: أنّهم وقفوا على أنّ في هذه الشريعة الغرّاء من سمات العدل والمساواة، ورفض التمييز العنصري، والنظام الطبقي، وأنّ الناس فيه كأسنان المشط لا فضل لأعجمي على عربي ولا لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى، وكانت الدعوة الإسلامية تحمل يوم تفجّرها رايات العدل العظيمة، فكان ذلك هو الدافع المهمّ للشعوب للدخول في الإسلام، والانضواء تحت رايته، من غير فرق بين قوم دون قوم وشعب دون شعب.

٢ ـ ما هو السبب الحقيقي لولائهم آل البيت عليهم السلام؟

إنّ السبب الحقيقي لولائهم وجنوحهم إلى أهل البيت هو أنّهم شاهدوا أنّ علياً وأهل بيته ـ خلافاً للخلفاء عامّتهم ـ يكافحون فكرة القومية ويطبّقون المساواة، فأخذوا يتحنّنون إليهم حيناً بعد حين، وشبراً بعد شبر، فكان ذلك نواة لبذر الولاء في قلوب بعضهم، يرثه الأبناء من الآباء، وإن لم يكن الحبّ ـ يوم ذاك ـ ملازماً للقول بخلافتهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وإمامتهم بعده، بل كان حبّاً وودّاً خالصاً لأسباب نفسية لا قيادية، وتدلّ على ذلك عشرات من القضايا نذكر بعضها:

١ ـ روى الفضل بن أبي قرة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أتت الموالي أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا: نشكو إليك هؤلاء العرب، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعطينا معهم العطايا بالسويّة، وزوّج سلمان، وبلالاً، وصهيباً، وأبوا علينا هؤلاء، فقالوا: لا نفعل، فذهب إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فكلّمهم فيهم، فصاح الأعاريب: أبينا ذلك يا أبا الحسن، أبينا ذلك، فخرج وهو مغضب يجرّ رداءه وهو يقول: **يا معشر الموالي إنّ هؤلاء قد صيّروكم بمنزلة اليهود والنصارى، يتزوّجون إليكم ولا يزوّجونكم، ولا يعطونكم مثل ما يأخذون، فاتَّجروا بارك الله لكم؛ فانّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الرزق عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في التجارة وواحد في غيرها».**[1]

٢ ـ وروى أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن سعيد الثقفي في غاراته: عن عبّاد بن عبد الله الأسدي، قال: كنت جالساً يوم الجمعة، وعليّ عليه السلام يخطب على منبر من آجر، وابن صوحان جالس، فجاء الأشعث، فجعل يتخطى الناس فقال: يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على وجهك، فغضب، فقال ابن صوحان: ليبين اليوم من أمر العرب ما كان يخفى، فقال عليّ عليه السلام: «**من يعذرني من هؤلاء الضياطرة، يقبل أحدهم يتقلّب على حشاياه، ويهجّد قوم لذكر الله، فيأمرني أن أطردهم فأكون من الظالمين، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد سمعت محمّداً صلى الله عليه وآله يقول: ليضربنّكم والله على الدين عَوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً**».

قال المغيرة: كان عليّ عليه السلام أميل إلى الموالي وألطف بهم، وكان عمر أشدّ تباعداً منهم[2].

---

١. الكافي: ٥/ ٣١٨.

٢. الغارات: ٣٤٠. الحمراء: الموالي، الضياطرة جمع الضياطر: الضخام الذين لا عناد عندهم.

٣ ـ روى ابن شهر آشوب: لما ورد بِسبي الفرس إلى المدينة أراد عمر بيع النساء، وأن يجعل الرجال عبيد العرب، وعزم على أن يحملوا العليل والضعيف، والشيخ الكبير في الطواف وحول البيت على ظهورهم، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أكرموا كريم قوم وإن خالفوكم، وهؤلاء الفرس حكماء كرماء، فقد ألقوا إلينا بالسلام، ورغبوا في الإسلام، وقد أعتقت منهم لوجه الله حقّي وحقّ بني هاشم**» فقالت المهاجرون والأنصار: قد وهبنا حقّنا لك يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «**اللّهمّ فاشهد أنّهم قد وهبوا، وقبلت وأعتقت**»، فقال عمر: سبق إليها عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ونقض عزمي في الأعاجم.(١)

٤ ـ روى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: قال رجل له: إنّ الناس يقولون: من لم يكن عربياً صلباً، أو مولى صريحاً، فهو سفلي، فقال: «**وأيّ شيء المولى الصريح**»؟! فقال له الرجل: من ملك أبواه، فقال: «**ولِمَ قالوا هذا**»؟! قال: يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: مولى القوم من أنفسهم، فقال: «**سبحان الله، أما بلغك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنا مولى من لا مولى له، أنا مولى كلّ مسلم، عربيّها وعجميّها، فمن والى رسول الله صلى الله عليه وآله أليس يكون من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله؟**» ثمّ قال: «**أيّهما أشرف، من كان من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله أو من كان من نفس أعرابي جلف بائل على عقبيه؟ ثمّ قال: من دخل في الإسلام رغبة، خير ممّن دخل رهبة، ودخل المنافقون رهبة، والموالي دخلوا رغبة**».(٢)

---

١. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٨.
٢. معاني الأخبار: ٤٠٥.

٥ ـ روى الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠هـ): أنّ عمر بن الخطاب نهى عن أن يتزوّج العجم في العرب وقال: لأمنعنّ فروجهنّ إلّا من الأكفاء.[١]

٦ ـ روى المفيد: أنّ سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ دخل مجلس رسول‌الله صلى الله عليه وآله ذات يوم فعظّموه وقدّموه وصدّروه إجلالاً لحقّه، وإعظاماً لشيبته، واختصاصه بالمصطفى صلى الله عليه وآله وآله فدخل عمر فنظر إليه، فقال: من هذا العجمي المتصدّر فيما بين العرب؟ فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فخطب، فقال: «**إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلّا بالتقوى، سلمان بحر لا ينزف، وكنز لا ينفد، سلمان منّا أهل البيت، سلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان**».[٢]

٧ ـ روى الثقفي في «الغارات»: أنّ امرأتين أتتا علياً عليه السلام عند القسمة، إحداهما من العرب، والأُخرى من الموالي، فأعطى كلّ واحدة خمسة وعشرين درهماً، وكرّاً من الطعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين، إنّي امرأة من العرب، وهذه امرأة من العجم، فقال عليّ عليه السلام: «**إنّي لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق**».[٣]

٨ ـ روى المفيد عن ربيعة وعمارة وغيرهما: أنّ طائفة من أصحاب أمير

---

١. الإيضاح: ٢٨٠.
٢. الاختصاص: ٣٤١.
٣. الغارات: ٣٤١.

المؤمنين عليّ بن أبي طالب مشوا إليه عند تفرّق الناس عنه وفرار كثير منهم إلى معاوية، طلباً لما في يديه من الدنيا، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريشاً على الموالي والعجم، ومن يخاف خلافه عليك من الناس وفراره إلى معاوية.

فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟! لا والله لا أفعل ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم، ولو كانت أموالهم لي لواسيت بينهم، فكيف وإنّما هي أموالهم**».[١]

٩ ـ روى المبّرد: قال الأشعث بن قيس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام وأتاه يتخطّى رقاب الناس وعليّ على المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك، قال: فركض على المنبر برجله، فقال صعصعة بن صوحان العبدي: ما لنا ولهذا؟ ـ يعني الأشعث ـ ليقولنّ أمير المؤمنين اليوم في العرب قولاً لا يزال يذكر، فقال عليّ: «**من يعذرني من هذه الضياطرة، يتمرّغ أحدهم على فراشه تمرّغ الحمار، ويهجر قوم للذكر، فيأمرني أن أطردهم، ما كنت لأطردهم فأكون من الجاهلين، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ليضربنّكم على الدين عَوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً**».[٢]

هذه الشواهد الكثيرة توقفنا على السبب الحقيقي لتوجّه الفرس والموالي إلى آل البيت، وأنّه لم يكن إلّا لصمودهم في طريق تحقيق العدل والمساواة، والمكافحة ضد العنصرية والتعصّب.

---

١. أمالي المفيد: ٥٧ طبعة النجف.

٢. الكامل: ٢ / ٥٣، ط مصر سنة ١٣٣٩هـ.

٣ ـ سبيان مزعومان: الإصهار، وإرادة هدم الإسلام:

أوّلاً: هل الإصهار كان سبباً للولاء؟

روى الزمخشري في «ربيع الأبرار» وغيره: أنّ الصحابة جاءوا بسبي فارس في خلافة الخليفة الثاني كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر الخليفة ببيع بنات يزدجرد فقال الإمام عليّ: «إنّ بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن» فقال الخليفة: كيف الطريق إلى العمل معهنّ؟ فقال: «يقوَّمن ومهما بلغ ثمنهنَّ قام به من يختارهنَّ» فقوِّمن فأخذهنَّ عليّ فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، وأُخرى لولده الحسين، وأُخرى لمحمّد بن أبي بكر، فأولد عبد الله بن عمر: ولده سالماً، وأولد الحسين: زين العابدين، وأولد محمّد: ولده القاسم، فهؤلاء أولاد خالة، وأُمّهاتهم بنات يزدجرد.[١]

وقد استند إلى هذه القصّة أحمد أمين في «فجر الإسلام»، والدكتور حسن إبراهيم في «تاريخ الإسلام السياسي»[٢]، وذهبا إلى أنّ الاصهار صار سبباً لتشيّع الفرس.

لن ندخل في نقاش مع هذه القصّة وأنّها هل هي صادقة أو ممّا وضعه أصحاب الأساطير، وكفانا في هذا الأمر ما ألّفه زميلنا العزيز الدكتور السيد جعفر شهيدي[٣]، ولو وقفنا إلى جانب هذه القصّة وسلّمنا بها، فإنّا نسأل أيّ صلة بين دخول الفرس في التشيّع ومصاهرة الإمام الحسين يزدجرد، فلو كانت تلك علّة فليكن تسنّن الفرس لأصهار عبد الله بن عمر ومحمّد بن أبي بكر لهم، فإنّ

١. ربيع الأبرار: ٣/ ١٩. ٢. تاريخ الإسلام السياسي: ٢/ ٧.
٣. الإمام علي بن الحسين، باللغة الفارسية.

الرجلين من أبناء الخليفتين، على أنّ هذا التفسير يدلّ على سطحية في التفكير وسقم في المنطق لا يقرّ به العقلاء.

ثانياً: إرادة هدم الإسلام:

أثار بعض أعداء الإسلام، ومن أعماه الحقد وخبث السريرة، الكثير من الشبهات حول تمسّك الفرس بالمذهب الشيعي، وولائهم العميق لأهل البيت عليهم السلام، ومن هذه الشبهات السقيمة التي وجدت من يطبّل لها ويزمّر، هي أنّ الفرس ما دخلوا في المذهب الشيعي إلّا للتستّر من أجل هدم الإسلام تحت هذا الغطاء.

وإلى هذا الرأي السقيم يذهب ضمناً أحمد أمين في تخرّصاته دون أن يحاسب نفسه على تقوّلاته التي هي أشدّ المعاول هدماً في صرح الإسلام لا الفرس الذين يتّهمهم ظلماً وجوراً، حيث قال: والحقّ أنّ التشيّع كان مأوى يلجأ إليه كلّ من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كلّ هؤلاء كانوا يتّخذون حبّ أهل البيت ستاراً!![1]

وقد استغل هذه الأُطروحة الخبيثة الكاتب الأمريكي «لو تروب ستودارد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» الذي نقله إلى العربية الأمير شكيب أرسلان، وتجد الفكرة أيضاً عند صاحب المنار، ومحبّ الدين الخطيب، وغيرهم من كتّاب العصر.

---

١. فجر الإسلام: فصل الشيعة.

وهذا الكلام أشبه بكلام من أعمى الله بصره وبصيرته؛ فإنّ من نظر إلى تاريخ الفرس يجد أنّهم خدموا الإسلام بنفسهم ونفيسهم وأقلامهم وآرائهم من غير فرق بين الشيعي والسنّي، وخدمات المذهب الشيعي للإسلام أعظم من أن تحصى، وأوضح من أن تخفيها إرهاصات الحاقدين، وقد تقدّم منّا في الصفحات الأُولى وما بعدها دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية، وما شيعة الفرس إلّا جزءاً من عموم الشيعة المسلمين، ولهم أيادٍ بيضاء مشكورة في خدمة الإسلام، ولن يضرّهم نفث السموم وتخرّص المتخرّصين.

دول الشيعة

رغم أنّ الأُمويين حاولوا جاهدين القضاء على التشيّع، وأراد العباسيّون الوقوف في وجه انتشاره بعد اليأس عن استئصاله، إلاّ أنّه بلطف الله تعالى نما وازدهر عبر القرون بالرغم من تلك العوائق، بل قامت لهم هنا وهناك دول ودويلات نظير:

١ ـ دولة الأدارسة في المغرب (١٩٤ ـ ٣٠٥هـ).

٢ ـ دولة العلويين في الديلم (٢٠٥ ـ ٣٠٤هـ).

٣ ـ دولة البويهيين في العراق وما يتّصل به من بلاد فارس (٣٢١ ـ ٤٤٧هـ).

٤ ـ دولة الحمدانيين في سورية والموصل وكركوك (٢٩٣ ـ ٣٩٢هـ).

٥ ـ دولة الفاطميين في مصر (٢٩٦ ـ ٥٦٧هـ).

٦ ـ دولة الصفويين في إيران (٩٠٥ ـ ١١٣٣هـ).

٧ ـ دولة الزنديين (١١٤٨ ـ ١١٩٣هـ).

٨ ـ دولة القاجاريين (١٢٠٠ ـ ١٣٤٤هـ).

أضف إلى ذلك وجود إمارات للشيعة في نقاط مختلفة من العالم.

أقول: إنّ إفاضة القول في مؤسّسي هذه الدول وترجمة أحوالهم وما آل إليه مصيرهم يحوجنا إلى تأليف كتاب مستقلّ في ذلك، فمن أراد الاطّلاع على ذلك فليراجع الكتب المؤلّفة في هذه المواضيع.[١]

الجامعات العلمية للشيعة

الإسلام دين العلم والمعرفة، دفع الإنسان من حضيض الجهل والأُميّة إلى أعلى مستويات العلم والكمال من خلال تشجيعه على القراءة والكتابة[٢]، والتدبّر في آثار الكون ومظاهر الطبيعة، ونبذ التقليد في تبنّي العقيدة، فأراد للإنسان حياة نابضة بالفكر والثقافة.

وقد كانت للشيعة خلال القرون الماضية جامعات وحوزات علمية نشير إلى بعضها إجمالاً:

١ ـ المدينة المنورة:

إنّ المدينة المنوّرة هي المنطلق العلمي الأوّل لنشر العلم والثقافة فهي المدرسة الأُولى للمسلمين، نشأ فيها عدّة من الأعلام من شيعة أمير المؤمنين

---

١. راجع كتاب «الشيعة والتشيّع» للكاتب القدير محمّد جواد مغنية ـ رضوان الله عليه ـ.

٢. قال سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وهي أوّل سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وأقسم الله عزّوجلّ بالقلم فقال سبحانه: ﴿ن و القلم﴾ وبذلك أوقف المجتمع الإنساني على العلم وعلوّ شأنه.

عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام، وعلى رأسهم: ابن عباس حبر الأُمّة، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع الذي هو من خيار شيعة الإمام علي مؤلّف كتاب السنن والأحكام والقضاء[١]، وغيرهم.

ثمّ جاءت بعدهم طبقة من التابعين تخرّجوا من تلك المدرسة على يد الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السلام ولقد روى الكليني عن الإمام الصادق أنّه قال: «**كان سعيد بن المسيّب، والقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليهما السلام**».[٢]

وازدهرت تلك المدرسة في عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وزخرت بطلّاب العلوم ووفود الأقطار الإسلامية، فكان بيتهما جامعة إسلامية يزدحم فيها رجال العلم وحملة الحديث، يأتون إليها من كلّ فجّ عميق.

٢ـ الكوفة وجامعها الكبير:

قد سبق أنّ الإمام أمير المؤمنين هاجر من المدينة إلى الكوفة واستوطن معه خيار شيعته ومن تربّى على يديه من الصحابة والتابعين.

ولقد أتى ابن سعد في طبقاته الكبرى على ذكر جماعة من التابعين الذين سكنوا الكوفة.[٣] وكان قد أعان على ازدهار مدرسة الكوفة مغادرة الإمام الصادق عليه السلام المدينة المنوّرة إلى الكوفة أيّام أبي العباس السفاح حيث بقي فيها مدّة سنتين.

---

١. رجال النجاشي: ٦٤ برقم ١.
٢. الكافي كما في تأسيس الشيعة: ٢٩٩.
٣. الطبقات الكبرى: ٦ وقسّمهم إلى تسع طبقات.

وقد اغتنم الإمام فرصة ذهبية أوجدتها الظروف السياسية آنذاك، وهي أنّ الحكومة العباسية كانت جديدة العهد بعد سقوط الدولة الأُموية ولم يكن للعباسيين يومذاك قدرة على الوقوف في وجه الإمام لانشغالهم بأُمور الدولة، بالإضافة إلى أنّهم كانوا قد رفعوا شعار العلويين للوصول إلى السلطة، فلم يكن من مصلحتهم في تلك الفترة الوقوف في وجه الإمام عليه السلام، فعمد في زمن وجوده عليه السلام إلى نشر علوم جمّة، وتخرّج على يديه الكثير من الطلبة النابغين.

هذا الحسن بن علي بن زياد الوشّاء يحكي لنا ازدهار مدرسة الكوفة في تلك الظروف كما ينقله عنه النجاشي:

أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمّد. ويضيف النجاشي: كان هذا الشيخ عيناً من عيون هذه الطائفة وله كتب، ثمّ ذكر أسماءها.[1]

وكان من خرّيجي هذه المدرسة لفيف من الفقهاء الكوفيين، نظير أبان بن تغلب بن رباح الكوفي، ومحمّد بن مسلم الطائفي، وزرارة بن أعين، إلى غير ذلك ممّن تكفّلت كتب الرجال بذكرهم والتعريف بهم.

ولقد ألّف فقهاء الشيعة ومحدّثوهم في هذه الظروف في الكوفة (٦٦٠٠) كتاب، ولقد امتاز من بينها (٤٠٠) كتاب اشتهرت بالأُصول الأربعمائة.[2] فهذه الكتب هي التي أدرجها أصحاب الجوامع الحديثية في كتبهم المختلفة.

---

١. رجال النجاشي: ١ / ١٣٧ برقم ٧٩.

٢. وسائل الشيعة ج ٢٠ الفائدة الرابعة. وقد بيّنا الفرق بين الكتاب والأصل في كتابنا «كلّيات في علم الرجال».

ولم تقتصر الدراسة آنذاك على الحديث والتفسير والفقه، بل شملت علوماً أُخرى ساعدت على تخريج جملة واسعة من المؤلّفين الكبار الذين صنّفوا كتباً كثيرة في علوم مختلفة ومتنوّعة كهشام بن محمّد بن السائب الكلبي الذي ألّف أكثر من مائتي كتاب[١]، وابن شاذان ألّف ٢٨٠ كتاباً[٢]، وابن عمير صنّف ١٩٤ كتاباً، وابن دوّل الذي صنّف ١٠٠ كتاب[٣]، وجابر بن حيان أُستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية، إلى غير ذلك من المؤلّفين العظام في كافّة العلوم الإسلامية.

٣ـ مدرسة قم والري:

دخل الفرس الإسلام وكان أكثرهم على غير مذهب الشيعة، نعم كانت قم والري وكاشان وقسم من خراسان مركزاً للشيعة، وقد عرفت أنّ الأشعريين هاجروا ـ خوفاً من الحجّاج ـ إلى قم وجعلوها موطنهم ومهجرهم، وكانت تلك الهجرة نواة للشيعة في إيران.

كانت مدرسة الكوفة مزدهرة بالعلم والثقافة، رغم ما كانت تتعرّض له من مضايقات من قبل العباسيين، إلّا أنّها لم تقف عائقاً أمام تطوّر العلوم المختلفة وازدياد طلب العلم فيها، ولما هاجر إبراهيم بن هاشم الكوفي تلميذ يونس بن عبد الرحمن وهو من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام إلى قم، نشر فيها حديث الكوفيين فصارت مدرسة قم والري مزدهرة بعد ذاك بالمحدّثين والرواة الكبار.

---

١. الذريعة: ١/ ١٧.
٢. المصدر نفسه.
٣. المصدر نفسه.

وساعد على ذلك بسط الدولة البويهية نفوذها على تلك البلدان، ولقد تخرّج من تلك المدرسة علماء ومحدّثون منهم:

١ ـ عليّ بن إبراهيم شيخ الكليني. الذي كان حيّاً سنة (٣٠٧هـ)[١].

٢ ـ محمّد بن يعقوب الكليني، (المتوفّى ٣٢٩هـ)، مؤلّف «الكافي» في الفروع والأُصول.

٣ ـ عليّ بن الحسين بن بابويه، والد الشيخ الصدوق صاحب الشرائع، (المتوفّى ٣٢٩هـ).

٤ ـ ابن قولويه أبو القاسم جعفر بن محمّد (٢٨٥ ـ ٣٦٨هـ) من تلامذة الكليني وأُستاذ الشيخ المفيد.

والذي يدلّ على وجود النشاط الفكري في أوائل القرن الثالث ما رواه الشيخ في كتاب «الغيبة»: أنّه أنفذ الشيخ حسين بن روح ـ رضي الله تعالى عنه ـ النائب الخاصّ للإمام المنتظر ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ كتاب التأديب إلى قم وكتب إلى جماعة الفقهاء بها وقال لهم: انظروا ما في هذا الكتاب، وانظروا فيه شيء يخالفكم. فكتبوا إليه: إنّه كلّه صحيح....[٢]

فهذه الرواية وغيرها تعرب عن وجود نشاط فكري وفقهي في ذينك البلدين في القرن الثالث والرابع، وكفى في فضلها أنّ كتاب «الكافي» وكتاب «من لا يحضره الفقيه» وكتب محمّد بن أحمد بن خالد البرقي (المتوفّى ٢٧٤هـ) من ثمار هذه المدرسة العظيمة.

---

١. الذريعة: ٤/ ٣٠٢ برقم ١٣١٦.

٢. الذريعة: ٣/ ٢١٠ برقم ٧٧٥.

٤ ـ مدرسة بغداد:

كانت مدرسة الكوفة تزدهر بمختلف النشاطات العلمية عندما كانت بغداد عاصمة الخلافة، ولمّا دبّ الضعف في السلطة العباسية وصارت السلطة بيد البويهيين تنفّس علماء الشيعة في أكثر مناطق العراق الصعداء، فأُسّست مدرسة رابعة للشيعة في العاصمة أنجبت شخصيات مرموقة تفتخر بها الإنسانية، نظير:

١ ـ الشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) تلك الشخصية الفذّة الذي اعترف المؤالف والمخالف بعلمه، وذكائه، وزهده، وتقواه، وكان شيخ أساتذة الكلام في عصره الذي شهد قمة الجدل الفكري والعقائدي بين المدارس الفكرية المختلفة، وكان ـ رحمه الله ـ عظيم الشأن رفيع المنزلة، له كرسي للتدريس في مسجد براثا في بغداد، يقصده العلماء والعوام للاستزادة من علمه، وله أكثر من (٢٠٠) مصنّف في مختلف العلوم.

٢ ـ السيد المرتضى علم الهدى (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ)، قال عنه الثعالبي في يتيمته (١: ٥٣) قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم.

وفي تاريخ ابن خلّكان: كان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر.

السيد المرتضى الذي حاز من العلوم ما لم يدانه فيها أحد في زمانه، أخذ العلم على يد أُستاذ المتكلّمين الشيخ المفيد ـ رحمه الله ـ وله مصنّفات كثيرة لا يسعنا عدّها هنا، منها: الانتصار، تنزيه الأنبياء، جمل العلم والعمل وغيرها.

٣ ـ السيد الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ)، علم من أعلام عصره في

العلم والحديث والأدب، درس العلم هو وأخوه السيد المرتضى على يد الشيخ المفيد ـ رحمه الله ـ له مؤلّفات جمّة منها: خصائص الأئمّة، معاني القرآن، حقائق التأويل.

٤ ـ الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) وهو شيخ الطائفة ومن أعلام الأُمّة، تربّى على يد شيخه المفيد والسيد المرتضى. وله مؤلّفات جمّة غنية عن التعريف، منها كتابا: «التهذيب» و «الاستبصار» وهما من المصادر المهمّة عند الشيعة.

وكانت مدرسة بغداد زاهرة في عهد هؤلاء الأعلام واحد بعد الآخر، وقام كلّ منهم بدور كبير في تطوير العلوم وتقدّمها، وكان يحضر في حلقات دروسهم مئات من المجتهدين والمحدّثين من الشيعة والسنّة.

واستمرّ هذا الحال إلى أن ضعفت سلطة البويهيين، ودخل طغرل بك الحاكم التركي بغداد، فأشعل نار الفتنة بين الطائفتين السنّة والشيعة، وأحرق دوراً في الكرخ، ولم يكتف بذلك حتّى كبس دار الشيخ الطوسي وأخذ ما وجد من دفاتره وكتبه، وأحرق الكرسي الذي كان الشيخ يجلس عليه.[١]

٥ـ مدرسة النجف الأشرف:

إنّ هذه الحادثة المؤلمة التي أدّت إلى ضياع الثروة العلمية للشيعة وقتل العديد من الأبرياء، دفعت الشيخ الطوسي ـ رحمه الله ـ إلى مغادرة بغداد واللجوء إلى النجف الأشرف وتأسيس مدرسة علمية شيعية في جوار قبر أمير

---

١. المنتظم: ١٦/ ٨و ١٦ حوادث عام ٤٤٧ـ ٤٤٩.

المؤمنين عليه السلام ، وشاء الله تبارك وتعالى أن تكون هذه المدرسة مدرسة كبرى أنجبت خلال ألف سنة من عمرها عشرات الآ لاف من العلماء والفقهاء والمتكلّمين والحكماء.

والمعروف أنّ الشيخ الطوسي هو المؤسّس لتلك الجامعة العلمية المباركة، وهو حقّ لا غبار عليه، ومع ذلك يظهر من النجاشي وغيره أنّ الشيخ ورد عليها وكانت غير خالية من النشاط العلمي. يقول في ترجمة الحسين بن أحمد بن المغيرة: له كتاب عمل السلطان أجازنا بروايته أبو عبد الله بن الخمري الشيخ صالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين سنة (٤٠٠هـ).[١]

ولقد استغلّ الشيخ تلك الأرضية العلمية، وأعانته على ذلك الهجرة العلمية الواسعة التي شملت أكثر الأقطار الشيعية، فتقاطرت الوفود إليها، من كلّ فجّ، فصارت حوزة علمية، وكلّيّة جامعة في جوار النبأ العظيم عليّ أمير المؤمنين ـ من عصر تأسيسها (٤٤٨هـ) ـ إلى يومنا هذا، ولقد مضى على عمرها قرابة (١٠٠٠) سنة، وهي بحقّ شجرة طيبة أصلها في الأرض وفرعها في السماء آتت أُكلها كلّ حين بإذن ربّها.

إنّ لجامعة النجف الأشرف حقوقاً كبرى على الإسلام والمسلمين عبر القرون، فمن أراد الوقوف على تاريخها والبيوتات العلمية التي أنجبتها، فعليه الرجوع إلى كتاب «ماضي النجف وحاضرها» يقع في ثلاثة أجزاء[٢]. وقد قام الشيخ هادي الأميني بتخريج أسماء طائفة من العلماء الذين تخرّجوا من هذه المدرسة الكبرى، فراجع.

---

١. رجال النجاشي: ١/ ١٩٠ برقم ١٦٢.
٢. تأليف الشيخ جعفر آل محبوبة، ط النجف.

٦ـ مدرسة الحلّة:

في الوقت الذي كانت جامعة النجف تزدهر وتنجب جملة من العلماء الأفذاذ، تـأسّست للشيعة في الحلّة الفيحاء جامعة كبيرة أُخرى كـانت تـحفل بكـبار العـلماء، وتـزدهر بـالنشاط الفكري، عقدت فيها ندوات البحث والجدل، وأُنشئت فيها المدارس والمكاتب، وظهر في هذا الدور فقهاء كبار كان لهم الأثر الكبير في تطوير الفقه الشيعي وأُصوله، نأتي بأسماء بعضهم:

١ ـ المحقّق الحلّي، نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد، من كبار فقهاء الشيعة، يصفه تلميذه ابن داود بقوله: الإمام العلّامة، واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقواهم بالحجّة، وأسرعهم استحضاراً.[١] توفّي عام (٦٧٦هـ). له من الكتب: «شرائع الإسلام» في جزأين، وهو أثر خالد شرحه العلماء وعلّقوا عليه. واختصره في كتاب أسماه «المختصر النافع» وشرحه أيضاً وأسماه «المعتبر في شرح المختصر».

٢ ـ العلّامة الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) تخرّج على يد خاله المحقّق الحلّي في الفقه، وعلى يد المحقّق الطوسي في الفلسفة والرياضيات، وعرف بالنبوغ وهو بعد لم يتجاوز سنّ المراهقة، وقد بلغ الفقه الشيعي في عصره القمة، وله موسوعات فيه أجلّها «تذكرة الفقهاء» ولعلّه لم يؤلّف مثله.

٣ ـ فخر المحقّقين، محمّد بن الحسن بن يوسف (٦٨٢ـ٧٧١هـ)

---

١. رجال ابن داود: ٦٢ برقم ٣٠٤، القسم الأوّل.

ولَد العلّامة الحلّي، تتلمذ على يد أبيه، ونشأ تحت رعايته وعنايته، وألّف والده قسماً من كتبه بالتماس منه، وقد تتلمذ عليه إمام الفقه الشهيد الأوّل (٧٣٤ ـ ٧٨٦هـ).

إلى غير ذلك من رجال الفكر كابن طاووس، وابن ورّام، وابن نما، وابن أبي الفوارس الحلّيِّين، الذين حفلت بهم مدرسة الحلّة، ولهم على العلم وأهله أيادٍ بيضاء، لا يسعنا ذكر حياتهم.

٧ـ الجامع الأزهر:

امتدّ سلطان الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسي غرباً، إلى البحرالأحمر شرقاً، ونافست الدولة الفاطمية الشيعية خلافة الحكّام العباسيين في بغداد، وكان المعزّ لدين الله ـ أحد الخلفاء الفاطميين بمصر ـ رجلاً مثقّفاً ومولعاً بالعلوم والآداب، وقد اتّخذ بفضل تدبير قائده العسكري القاهرة عاصمة للدولة الجديدة، وبنى الجامع الأزهر، وعقدت فيه حلقات الدرس، وكان يركّز على نشر المذهب الشيعي بين الناس، وقد أمر أن يؤذّن في جميع المساجد بـ «حيّ على خير العمل» ومنع من لبس السواد شعار العباسيين.

إنّ المسلمين عامّة ـ وفي طليعتهم المصريون ـ مدينون في ثقافتهم وازدهار علومهم وتقدّمهم في مجال العلم والصنعة للفاطميين وهممهم العالية؛ فإنّ الجامع الأزهر لا يزال مزدهراً من يوم بني إلى يومنا هذا باعتباره أعظم الجامعات العلمية[1]، وهي كانت جامعة شيعية من بدء تأسيسها إلى قرنين.

---

١. تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢/ ١٠٨.

وإن شئت أن تقف على صورة صغيرة من خدماتهم الجليلة فاقرأ ما كتبه السيّد مير علي حيث ذكر: كان الفاطميون يشجّعون على العلم، ويكرمون العلماء، فشيّدوا الكلّيّات، والمكاتب العامة، ودار الحكمة، وحملوا إليها مجموعات عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون، والآلات الرياضية، لتكون رهن البحث والمراجعة، وعيّنوا لها أشهر الأساتذة، وكان التعليم فيها حرّاً على نفقة الدولة، كما كان الطلّاب يمنحون جميع الأدوات الكتابية مجّاناً، وكان الخلفاء يعقدون المناظرات في شتّى فروع العلم، كالمنطق والرياضيات والفقه والطب، وكان الأساتذة يرتدون لباساً خاصاً عرف بالخلعة، أو العباءة الجامعية ـ كما هي الحال اليوم ـ وأُرصدت للإنفاق على تلك المؤسّسات، وعلى أساتذتها، وطلّابها، وموظّفيها، أملاك بلغ إيرادها السنوي (٤٣) مليون درهم، ودعي الأساتذة من آسيا والأندلس لإلقاء المحاضرات في دار الحكمة، فازدادت بهم روعة وبهاء.[١]

وقد ألّف غير واحد من المؤرّخين كتباً ورسائل حول الأزهر الشريف ومن أراد التفصيل فليرجع إليها.

٨ـ مدارس الشيعة في الشامات:

كانت الشيعة تعيش تحت الضغط والإرهاب السياسي من قبل الأُمويين والعباسيين، فلمّا دبّ الضعف في جهاز الخلافة العباسية، وظهرت دول شيعية في العراق ـ خصوصاً دولة الحمدانيين في الموصل وحلب ـ استطاعت الشيعة أن تجاهر بنشاطها الثقافي، وفي ظلّ هذه الحرّية أُسّست مدارس شيعية في

١. مختصر تاريخ العرب: ٥١٠.

جبل عامل، وحلب، تخرّج منها العديد من العلماء الأفذاذ والفضلاء.

فأمّا حلب فقد ازدانت بالعديد من الأسماء اللامعة كأبناء زهرة وغيرهم، من رجال العلم والأدب.

وأمّا مدرسة جبل عامل فقد كانت تتراوح بين القوّة والضعف، إلى أن رجع الشهيد الأوّل من العراق إلى مسقط رأسه «جزّين»، فأخذت تلك المدرسة في نفسها نشاطاً واسعاً، وقد تخرّج من تلك المدرسة منذ تلك العهود إلى يومنا هذا مئات من الفقهاء والعلماء لا يحصيها إلّا الله سبحانه، ومن الشخصيات البارزة في هذه المدرسة: المحقّق الشيخ علي الكركي مؤلّف «جامع المقاصد» (المتوفّى عام ٩٤٠هـ) وبعده الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني (٩١١ ـ ٩٦٦هـ).

هذا غيض من فيض وقليل من كثير، ممّن أنجبتهم هذه التربة الخصبة بالعلم والأدب.

ولنكتف بهذا المقدار من الإشارة إلى الجامعات الشيعية؛ فإنّ الإحصاء يحوجنا إلى بسط في المقال، ويطيب لنا الإشارة إلى أسماء المعاهد الأُخرى مجرّدة.

جامعات أُخر للشيعة في أقطار العالم:

كانت للشيعة جامعات متعدّدة في أقطار العالم المختلفة لم تزل بعضها زاهرة إلى اليوم. فالشرق الإسلامي كأفغانستان والباكستان والهند تزخر بالشيعة، ولهم هناك جامعات وكلّيّات في هراة ولكنهو وبومبي، كما أنّ للشيعة

نشاطات ثقافية في آسيا الجنوبية الشرقية كماليزيا وتايلند، ومن أراد الوقوف على الخرّيجين من هذه المدارس فعليه أن يقرأ تاريخ هذه البلاد، خصوصاً بلاد الهند.

ومنذ تسنّم الصفويّة منصّة الحكم أُسّست في إيران حوزات فقهية وكلامية وفلسفية زاهرة، وقد تخرج منها آلاف من العلماء، ومن هذه الجامعات: جامعة أصفهان، وطهران، وخراسان، وتبريز، وقزوين، وزنجان، وشيراز، وأخيراً الجامعة الكبرى للشيعة في قم المحمية بجوار فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليها السلام. وقد أُسّست هذه الجامعة سنة (١٣٤٠هـ) على يد رجل العلم والزهد الشيخ عبد الكريم اليزدي (١٢٧٤ ـ ١٣٥٥هـ)، ولم تزل هذه الجامعة مشعَّة زاهرة، وقد تقاطر إليها الأساتذة ووفود الطلاب من نقاط شتّى، ومن جنسيّات مختلفة منذ أوّل يومها، ويتجاوز عدد الطلاب فيها في هذه السنين (٢٥٠٠٠ طالب)، وفيها مكتبات زاخرة، ومؤسّسات علمية، ومراكز تحقيقية، ومطابع حديثة، وعمالقة الفكر وأساتذة القلم، ومنها تفجّرت الثورة الإسلامية على يد أحد خرّيجيها ألا وهو الإمام الخميني ـ قدس الله سره ـ فانبثقت أنوارها على ربوع العالم، وأيقظت الأُمّة من سباتها العميق.

عدد الشيعة

إنّ مراكز الإحصاء في العالم تخضع لنفوذ أعداء الإسلام خصوصاً الصهاينة، وقد صار ذلك سبباً لعدم وجود إحصاء دقيق بأيدينا عن عدد المسلمين وعامّة طوائفهم ومنهم الشيعة. ولكن القرائن تشهد على أنّ الشيعة بطوائفها الثلاث: الإمامية والزيدية والإسماعيلية يؤلّفون خمس أو

ربع المسلمين، فلو كان عدد المسلمين ـ على ما يقولون ـ مليار نسمة فالشيعة تبلغ (٢٠٠) مليون، وأكثرهم عدداً هم الإمامية المعروفون بالاثني عشرية أو الجعفرية.

نسأله سبحانه أن يرفع كلمة التوحيد في ربوع العالم، ويوفّق المسلمين لتوحيد الكـلمة ورصّ الصفوف، إنّه على ذلك لقدير.

الفصل الرابع عشر:

مصادر الأُصول والفروع عند الإماميّة

إنّ بعض المتعصّبين يحاولون التشكيك في انتهاء الشيعة الإمامية في مذهبهم إلى أئمّة أهل البيت، وقد نقل هذه المحاولة السيد عبدالحسين شرف الدين في مراجعاته.[1]

ولا شك أنّ هذه المحاولة فاشلة، ولا نحتاج إلى بسط في الجواب، وربّما يتّضح استناد مذهبهم إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام ممّا مضى في الفصل الحادي والثاني عشر .

يقول السيد شرف الدين: إنّ الشيعة الإمامية في الفروع والأُصول وسائر ما يؤخذ من الكتاب والسنّة أو يتعلّق بهما من جميع العلوم، لا يعولون في شيء من ذلك إلّا عليهم ولا يرجعون فيه إلّا إليهم، فهم يدينون اللّه تعالى ويتقرّبون إليه بمذهب أئمّة أهل البيت عليهم السلام لا يجدون عنه حولاً ولا يرتضون به بدلاً. على ذلك مضىٰ سلفهم الصالح في عهد أميرالمؤمنين والحسن والحسين والأئمّة التسعة من ذريّة الحسين عليهم السلام إلى زماننا هذا، وقد أخذ الفروع والأُصول عن كل واحد منهم جمّ من ثقات الشيعة وحفّاظهم.[2]

---

١. راجع المراجعات: ١٠٩.

٢. المراجعات: ٣٠٣المراجعة ١١٠.

إنّ الشيعة يتّخذون الكتاب مصدراً رئيسياً في العقيدة والتشريع، كما يتّخذون سنّة النبيﷺ مصدراً رئيسياً ثانياً، ويعملون بحكم العقل في المجال الّذي له صلاحية القضاء، ويتّخذون من الإجماع دليلاً فيما لو كشف عن الدليل الشرعي وهذا ممّا لا شك فيه .

ولكن يوجد في الكتاب عمومات ومطلقات وقد خصّصت في السنّة كما أنّ فيه مجملات تطلب لنفسها بياناً من السنّة، والشيعة ترجع إلى أئمّة أهل البيت في هاتيك الموارد لأجل أنّ كلامهم وقولهم هو كلام وقول النبي الأكرم، وهناك مسائل مستحدثة وأُمور طارئة لا يجد لها الفقيه حلولاً في السنّة النبوية، لأنّها طرأت بعد رحلة النبيﷺ فقام أئمة أهل البيت بالإجابة عنها من غير فرق بين مجالي الالتزام والعمل .

هذا هو مذهب الإمامية وعلى ذلك جرى سلفهم وخلفهم من عصر أميرالمؤمنين إلى يومنا هذا .

إنّ انتماء الشيعة الإمامية إلى أئمّة أهل البيت أظهر من الشمس، وقد تعرّفت على الرواة الثقات الذين أخذوا الأُصول والفروع عن الباقر والصادق والكاظم والرضاعليهم السلام، كما تعرّفت على الجوامع الّتي دوّنها أصحابهم في تلك العصور، وكانت الجوامع مفزعاً للشيعة في عصر الأئمة، حتّى عصر الغيبة، لأنّها تحتوي علوم أهل البيتعليهم السلام .

ولمّا كانت هذه الجوامع غير خالية عن النقص الفنّي في التبويب وغير جامعة لما تركه أئمة أهل البيت من العلوم والمعارف، قام المحمدون الثلاثة بتأليف جوامع ثانوية أحسن ترتيباً وتبويباً وأكثر شمولاً .

١- محمّد بن يعقوب الكليني ولد في عهد إمامة العسكري (٢٥٤ ـ ٢٦٠هـ) وتوفّي عام ٣٢٩ هـ ، فهو أوثق الناس في الحديث وأعرفهم به، صنّف كتاب «الكافي» وهذبه في عشرين سنة[١]، ولقد حصروا أحاديثه في ستة عشر ألف حديث ومائة وتسعة وتسعين حديثاً (١٦١٩٩)، والصحيح منها باصطلاح المتأخرين خمسة آلاف واثنان وسبعون حديثاً، والحسن مائة وأربعة وأربعون حديثاً، والموثّق مائة حديث وألف حديث وثمانية عشر حديثاً، والقويّ منها اثنان وثلاثمائة، والضعيف منها أربعمائة وتسعة آلاف وخمسة وثمانون حديثا.[٢]

وقال الشهيد في «الذكرى»: إنّ ما في «الكافي» يزيد على ما في مجموع الصحاح الستّة للجمهور، وعدّة كتب الكافي اثنان وثلاثون كتاباً».[٣]

وقال في «كشف الظنون» نقلاً عن الحافظ «ابن حجر»: إنّ جميع أحاديث صحيح البخاري بالمكرّر سوى المعلّقات والمتابعات على ما حرّرته وحقّقته سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثاً، والخالص من ذلك بلا تكرير ألفا حديث وستمائة وحديثان، وإذا انضمّ إليه المتون المعلّقة المرفوعة وهي مائة وخمسون حديثاً، صار مجموع الخالص ألفي حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثا .

وروي أيضاً عن مسلم أنّ كتابه أربعة آلاف حديث دون المكررات وبالمكررات سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثا .

---

١. رجال النجاشي: برقم ١٠٢٧.
٢. لؤلؤة البحرين للمحدث البحراني، وما ذكره عند الجمع ينقص ٧٨ حديثاً فلا حظ .
٣. الذكرى: ٦.

وقال أبو داود في أوّل سننه: «وجمعت في كتابي هذا أربعة آلاف حديث وثمانية أحاديث في الصحيح وما يشبهه وما يقاربه».[١]

٢- محمّد بن علي بن الحسين الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) مؤلّف «من لا يحضره الفقيه» وهو الجامع الثاني للشيعة .

إنّ أحاديث كتاب الفقيه لا تتجاوز عن ٥٩٦٣ حديثاً منها ألفان وخمسون حديثاً مرسلاً .

٣- محمّد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) مؤلّف تهذيب الأحكام والاستبصار وعدد أحاديث الأوّل ١٣٥٩٠[٢] وعدد أحاديث الثاني ٥٥١١ حديثاً كما ذكره المؤلّف في آخر الكتاب .

هذه هي الكتب الأربعة، المصادر المهمة عند الشيعة .

الجوامع الحديثية الأخيرة:

إنّ هناك لفيفاً من العلماء قاموا بجمع روايات الكتب الأربعة وإليك إيعاز إلى أسماء مؤلّفيها .

١- محمّد بن الحسن الحر العاملي (المتوفّى ١١٠٤ هـ) مؤلّف كتاب «تفصيل وسائل الشيعة» طبع في عشرين جزءاً في الفروع والأحكام فقط، ولم يجمع ما يرجع إلى الأُصول والعقائد .

---

١. كشف الظنون كما في مستدرك الوسائل: ٣ / ٥٤١، لاحظ فتح الباري في شرح أحاديث البخاري: ١ / ٤٦٥.
٢. المستدرك: ٣ / ٧٥٦.

٢- محمّد بن المرتضى المعروف بالفيض (المتوفّى ١٠٩١ هـ) مؤلّف «الوافي» فـي ١٤ جزءاً في الفروع والأُصول والسنن والأحكام وقد طبع الكتاب طبعة حديثة في ٢٦ جزءاً .

٣- المجلسي محمّد باقر (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ) مؤلّف «بحارالأنوار» في ١١٠ أجزاء، وهو من أبسط الجوامع وأكثرها شمولاً .

وهناك جوامع أُخرى طوينا الكلام عنها، فمن أراد فليرجع إلى مظانّها .

هذه هي المصادر الّتي تفزع إليها الشيعة في أُصولها وفروعها أتينا على ذكرها على وجه الإجمال ليكون القارئ على بصيرة .

هذا هو مذهب الشيعة وهـؤلاء هـم خـلفهم وسـلفهم، ومـبدأ نشـوئهم، وهـذه آراؤهـم وعقائدهم، وهؤلاء أئمتهم، وهذه بلدانهم ودولهم، وعدد نفوسهم، وهذه جامعاتهم وحوزاتهم، فهم أُمّة منتشرة في العالم وبلادهم مفتوحة لكلّ قاصد، وهذه كتبهم المعبّرة عـن تـاريخهم وعقائدهم وكيانهم وشرفهم، وهذا تاريخهم المأساوي جزاءً للـخدمات الجـليلة الّـتي قـدّموها للحضارة الإسلامية بأفكارهم وآرائهم وأقلامهم وكتبهم .

خاتمة المطاف:

بيان لكتّاب المقالات ومؤرّخي العقائد

لقد حصحص الحق وبانت الحقيقة لذوي النصفة ونختم الكتاب بذكر أُمور مـهمة ربّـما مضى البحث عن بعضها في الفصول السابقة، وإليك البيان :

الأوّل: إنّ التشيّع لم يكن فكرة سياسية ابتدعتها الأهواء، وطبعته بطابع الدين، ولا عقيدة دينية لاتمتُّ إلى الإسلام بصلة، بل هو نفس الإسلام في مجالي العقيدة والتشريع، جـاء بـه النبي الأكرم في كتابه وسنّته، وليس التشيّع إلّا تعبيراً آخر عن الإسلام، في إطار ولاء أهل بيته الطاهرين وتتبّع آثارهم وأقوالهم وآرائهم.

الثاني: إنّ كلّما تدين به الشيعة التزاماً وعملاً، له مصدر متسالم على صحّته عـند أهـل السنّة، وأنّهم لو نظروا إليه بعين الإنصاف وطلب الحقيقة، وابتعدوا عن كل رأي مسبق، لوجدوا الفوارق الموجودة بين الطائفتين أُموراً واقعية لها دليل في الكتاب والسنّة، حتّى في الأُمور الّتي يستنكرونها في بدء الأمر، كالقول بالبداء، وعصمة الإمام وميلاد المهدي المنتظر، وحياته فعلاً، وكون الأئمة محصورين في اثني عشر .

الثالث: إنّ الشيعة ليست من الفرق البائدة الّتي خيّم الظلام عليها، وعلى آثارهم وصارت مستورة تحت أطباق الثرى، حتّى لا يعاب فيه التقوّل

والحدس والتخمين، وانّما هي فرقة حيّة منتشرة في العالم ولهم بلاد واسعة، وحكومات قائمة، وجامعات وكليات، ومعاهد وحلقات، ومكتبات غاصة بالكتب، فعلى طالب الحقيقة ومؤرّخ العقائد أن يتّصل بعلمائهم عن كثب، أو أن يرجع إلى الكتب المؤلّفة بأيدي علمائهم الذين اجتمعت كلمتهم على وثاقته وعلمه ومعرفته ويجتنب الرجوع إلى كتب المتطفّلين على موائد العربية من مستشرق حاقد، أو كاتب متحامل، بل يجتنب عن الرجوع إلى كتاب عالم من الشيعة إذا لم تجتمع كلمتهم على وثاقته وعلمه أو صحة نظريته، إذ في كل طائفة غال متنكّب عن الصراط، خابط خبطة عشواء، رفض العلماء كتابه وكلامه.

إنّ بين كل طائفة ومنهم الشيعة كاتب غال خلط الغث بالسمين، والصحيح بالزائف، وربّما تكون له مكانة علمية و ـ مع ذلك ـ لا يصحّ الاستناد إلى مثل ذلك الكاتب ولا إلى كتابه، بل يطرح الشاذ، ويؤخذ بالمجمع عليه أو المشهور بينهم .

إنّ المستند لرمي التشيّع بالاعتقاد بالتحريف في هذه الأيام هو كتاب «فصل الخطاب» الّذي ألّفه الشيخ المحدّث النوري، وجمع مواده من هنا وهناك من غير تحقيق في السند ولا تحليل في الدلالة، ولكن الاستناد إلى هذا الكتاب ورمي طائفة كبيرة بهذه التهمة الشائنة تقوّل بالباطل، لأنّ علماء الشيعة أنكروا هذا الكتاب على المؤلّف من أوّل يوم نشره، وأخذوا بالردّ عليه ردّاً عنيفاً[1]. ولو كان تأليف ذلك الكتاب دليلاً على قول الشيعة بالتحريف، فليكن كتاب «الفرقان» الّذي عرّفه أحد الأزهريين المعاصرين دليلاً على قول السنّة بها .

١. ردّ عليه في حياته وبعده لفيف من العلماء أخص بالذكر العلامة الحجة: الشيخ محمد هادي معرفة بكتاب أسماه «صيانة القرآن عن التحريف» وقد طبع وانتشر .

الرابع: التعرّف الصحيح على المبادئ الّتي تعتمد عليها كل طائفة في مجال الالتزام القلبي يحصل من خلال السبر في الكتب العقائدية الكلامية المؤلّفة بيد عمالقة الفكر منهم، وأمّا الكتب الحديثية المعتبرة فبما أنّ فيه الصحيح والسقيم، والمشهور والشاذ، والمحكم والمتشابه، فلا يصحّ الاستناد إلى رواية رويت في كتب الحديث في مجال تبيين عقائد الفرقة، فلو وجد في «الكافي» الّذي هو من أتقن الكتب الحديثية عند الشيعة ما يضاد المشهور بين العلماء، لما صحّ لنا الاعتماد عليه وترك ما ذهب إليه المشهور من علمائهم، فليس معنى كون الكتاب معتبراً انّ جميع ما ورد فيه قابل للالتزام والعمل، وهذا أمر واضح لدى الشيعة عامة، وإن غفل عنه كتّاب تاريخ الفرق .

الخامس: إنّ هناك فرقاً بين الجوامع الحديثية عند الشيعة والصحاح عند السنّة، فانّ الأُولى لديهم كتب معتبرة بمعنى أنّها صالحة للرجوع إليها بعد تمحيصها وتمييز الجيّد من الرديء فيها. و على ضوء ذلك لا يكون وجود الحديث فيها دليلاً على كون مضمونه حجّة في مفاده. وأمّا الصحاح الستّة عند السنّة فبما أنّ أكثرهم أضفى على الجميع وصف الصحة، فللقائل أن يتصوّر أنّ وجود الحديث فيها دليل على كون مضمونه مذهباً لأهل السنّة .

السادس: إنّ المطلوب في العقائد، غير المطلوب في الأحكام، فالغاية من الثانية هي العمل وإن لم يكن إذعان بصحّته وكونه مطابقاً للواقع، بل يكفي قيام الدليل على جواز تطبيق العمل عليه. بخلاف الأُولى فانّ الغرض المنشود منها هو الاعتقاد والإيمان، ومن المعلوم أنّ اليقين رهن مقدّمات مفيدة لليقين ومجرّد وجود خبر حتّى الصحيح في الجوامع الحديثية لا يؤدّي إلى اليقين فلا يمكن أن يحتجّ بها في مجال العقيدة إلّا إذا كانت

مفضية إلى اليقين، والإذعان، والخبر الواحد، وإن صحّ، خال من هذا الشأن .

السابع: عرفت الشيعة بالتقيّة وأنّهم يتقون في أقوالهم وأفعالهم، فصار ذلك مبدأ لوهم عالق بأذهان بعض المشاغبين والمغالطين فيقولون: بما أنّ التقيّة من مبادئ التشيّع فلا يصحّ الاعتماد بكل ما يقولون ويكتبون وينشرون، إذ من المحتمل جدّاً أن تكون هذه الكتب دعايات والواقع عندهم غيرها. هذا ما نسمعه منهم مرّة بعد مرة، ويكرّره الكاتب الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» في كتبه الردية على الشيعة .

ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقيّة انّما هي القضايا الشخصية الجزئية أي عند وجود الخوف على النفس والنفيس، فإذا دلّت القرائن على أنّ في إظهار العقيدة أو تطبيق العمل على مذهب إمام من أئمّة أهل البيت احتمال توجّه الضرر، يصير المورد من مواردها ويحكم العقل والشرع بلزوم الاتّقاء حتّى يصون بذلك نفسه ونفيسه عن الخطر. وأمّا الأُمور الكليّة الخارجة عن إطار الخوف فلا يتصوّر فيها التقيّة، والكتب المنتشرة من جانب الشيعة داخلة في النوع الثاني، إذ لا خوف هناك حتّى يكتب خلاف ما يعتقد، بل لا ملزم للكتابة أصلاً فله أن يسكت ولا يكتب شيئا .

فما يدّعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعيات ناش عن عدم عرفانهم لحقيقة التقية عند الشيعة .

والحاصل: انّ الشيعة انّما كانت تتّقي في عصر لم تكن لهم دولة تحميهم، ولا قدرة ومنعة تدفع عنهم، وأمّا هذه الأعصار فلا مسوّغ ولا مبرّر للتقية إلّا في موارد خاصة .

إنّ الشيعة منذ أن تعرضوا للضغط، عاشت عندهم التقية على مستوى الفتاوى، ولم تعش على المستوى العملي، بل كانوا عملياً من أكثر الناس تضحية، وبوسع كل باحث أن يرجع إلى مواقف الشيعة مع معاوية وغيره من الحكام الأمويين، والحكام العباسيين، كحجر بن عدي، وميثم التمّار، ورشيد الهجري، وكميل بن زياد، ومئات من غيرهم، وكمواقف العلويين على امتداد التاريخ وثوراتهم المتتالية.[١]

إنّ القول بالتقية ليس شيئاً مختصّاً بالشيعة، بل يقول به المسلمون جميعاً هذا أبو الهذيل العلاف رئيس المعتزلة يقول: إنّ المكره إذا لم يعرف التعريض والتورية فيما أُكره عليه فله أن يكذب ويكون وزر الكذب موضوعاً عنه.[٢]

بل يقول به كل مسلم واع، وكل كاتب قدير وناطق مصقع، يعيش في بلاد يسود عليه الاستبداد وسلب الحريات الاجتماعية والسياسية بمختلف أشكاله وصوره .

الثامن: لم يزل أهل السنّة يصفون المسانيد والسنن بالصحاح وربّما يغالون في حق بعض الصحاح ـ كالبخاري بأنّه أصحّ الكتب بعد كتاب اللّه ـ أو ليس هذا مغالاة في القول؟ وإن كنت في شك من ذلك فاستمع لما نتلوه عليك عن ذلك الكتاب الّذي هو الأصحّ في زعمهم بعد كتاب اللّه وغيره من الصحاح.

١- روى في تفسير سورة الإسراء انّ جبرئيل ليلة أُسري بالنبي إلى السماء

---

١. هوية التشيّع: ٢٠٣.
٢. الانتصار للخياط: ١٢٨.

جاءه بقدحين، أحدهما من لبن وآخر من خمر، وخيّره بين شرب واحد منهما[١] .

أفيصح في منطق العقل أن يأتي جبرئيل في تلك الليلة بقدح من الخمر الّتي وصفها رسول اللّه بأُمّ الخبائث ووصفه الكتاب العزيز بأنّه من عمل الشيطان؟! ولا يصحّ لمتقوّل أن يفسّرها بخمر الجنّة الّتي لا سكر فيها وهو بعد في الدنيا؟

٢- روى أحمد في مسنده عن عائشة أنّها قالت: سحر النبي حتّى كان يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله.[٢]

فعلى ذلك لا يحصل أي ثقة بكلام النبي وقوله، ولأجل ذلك نرى أنّ الجصاص يقول في حقّ هذه الروايات: ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين.[٣]

٣- وأخرج في صحيحه في كتاب الغسل باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد عن أنس بن مالك قال: كان النبيﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة في الليل والنهار وهنّ إحدى عشرة، قال: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنّا نتحدّث أنّه أُعطي قوّة ثلاثين.[٤]

إنّ النبي الأكرم كان يقضي ليله بالتهجّد والعبادة، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**

١. صحيح البخاري: ٦ / ١٠٤، تفسير سورة الإسراء.
٢. مسند أحمد: ٦ / ٥.
٣. أحكام القرآن: ١ / ٥٥.
٤. صحيح البخاري: ٦ / ١٣.

يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ونِصْفَهُ و ثُلُثَهُ وطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾.[١]

وما جاء في الرواية انّما يلائم حال الخلفاء الأمويين والعباسيين الذين كانت قصورهم تزخر بالجواري والنساء، وحاشا النبي الأكرم الّذي عَبَدَ الله سبحانه حتّى تورّمت قدماه ونزل قوله سبحانه: ﴿**طٰه * ما أنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقىٰ * إلّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ**﴾[٢].

إنّ الرواية وضعت لتبرير أعمال هؤلاء الذين يعرّفهم الإمام في كتابه إلى عامله بالبصرة، عثمان بن حنيف ويقول: «كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها»[٣] ولا يهمهم سوى إرضاء البطن والفرج .

٤- والعجب أنّه روي عن عائشة خلاف ذلك وأنّه لم يكن للنبي الأكرم الطروقة وقوة النكاح وكثرة الجماع قالت: إنّ رجلاً سأل رسول اللّه، عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل (لا ينزل منه المني) هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة فقال رسول اللّهﷺ: إنّي لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل.[٤]

حاشا نبيّ العظمة والقداسة أن يتفوّه بحضرة زوجته ما لا يتكلّم به إلّا الإنسان الماجن، المنهمك في الشهوات البهيمية، واللّه سبحانه يصف حياءه بقوله: ﴿**فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسينَ لِحَديثٍ إنَّ ذٰلِكُمْ كانَ يُؤذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ واللهُ لا يَسْتَحْيِ مِنَ الحَقِّ**﴾[٥] .

---

١. المزمّل: ٢٠.
٢. طه: ١ـ٣.
٣. نهج البلاغة: قسم الكتب ٤٥.
٤. صحيح مسلم: ١ / ١٨٦، باب وجوب الغسل بالتقاء الختانين .
٥. الأحزاب: ٥٣.

هذه نماذج من الأحاديث الواردة في أصحّ الكتب عند أهل السنّة، لا أظن أنّ من يملك شيئاً من الدراية يحتمل صحّتها، وهذا يدفع كلّ مسلم واع إلى دراسة هذه الكتب من جديد، وتنزيه الحديث النبوي عن هذه الأباطيل، ولعلّك إذا رجعت إلى الجزء الأوّل من موسوعتنا في مجال التوحيد والتنزيه تجد هناك أحاديث لا يصدقها العقل ولا النقل .

التاسع: لقد ذكر أبو زهرة سبب نمو المذهب الإمامي، وقال:

لقد نما هذا المذهب وانتشر لأسباب:

١- إنّ باب الاجتهاد مفتوح عند الشيعة، وهذا يفتح باب الدراسة لكل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية .

٢- كثرة الأقوال في المذهب ـ أي في المسائل الفقهية النظرية ـ واتّساع الصدر للاختلاف مادام كل مجتهد يلتزم المنهاج المسنون، ويطلب الغاية الّتي يبتغيها من يريد محص الشرع الإسلامي، خالصاً غير مشوب بأيّة شائبة من هوى .

٣- إنّ المذهب الجعفري قد انتشر في أقاليم مختلفة الألوان من الصين إلى بحر الظلمات حيث أُوروبا وما حولها، وتفريق الأقاليم الّتي تتباين عاداتهم وتفكيرهم وبيئاتهم الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية. إنّ هذا يجعل المذهب كالنهر الجاري في الأرضين المختلفة الألوان، يحمل في سيره، ألوانها وأشكالها من غير أن تتغير في الجملة عذوبته .

٤- كثرة علماء المذهب الذين يتصدّون للبحث والدراسة وعلاج المشاكل المختلفة، وقد آتى اللّه ذلك المذهب من هؤلاء العلماء

عدداً وفيراً عكفوا على دراسة وعلاج المشاكل على مقتضاه.[١]

العاشر: نجد بعض المشاغبين يتّهمون الشيعة بالقول بالتحريف، بحجة أنّ لدى الشيعة مصحفاً باسم «مصحف فاطمة» واختصاصه بها كاشف عن مغايرته مع المصحف الرائج .

إنّ هذا المشاغب، لم يقرأ تاريخ الشيعة ولم يقف على كلمات أئمتهم حول هذا المصحف. وزعم أنّ المصحف بمعنى القرآن، وغفل عن أنّ المقصود منه، هو الكتاب قال سبحانه: ﴿**وَ إِذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾[٢] وقد أملى النبيّ الأكرم في مجالي العقيدة والتشريع والملاحم أُموراً على ابنته وزوجها فجمعت في «صحف مكرمة»، سميت مصحف فاطمة. وهذا هو الإمام الصادق حفيد فاطمة الطاهرة وهو من أهل البيت، وهم أدرى بما في البيت، يحدّثنا عن هذا المصحف ويقول: «عندنا مصحف فاطمة أما واللّه ما فيه حرف من القرآن ولكنّه إملاء من رسول اللّه ».

روى الكليني انّ المنصور سأل فقهاء أهل المدينة عن مسألة في الزكاة فما أجابه عنها إلّا الإمام الصادق ولمّا سُئِل من أين أخذ هذا؟ قال: «من كتاب فاطمة».[٣]

نرى أنّ الامام يعبّر عن مصحف فاطمة بكتاب، مشيراً إلى أنّه كتاب لا قرآن يختص بها.

---

١. أبو زهرة: الإمام الصادق، بتلخيص محمّد جواد مغنية في كتابه الشيعة والتشيّع: ٢٢٥.
٢. التكوير: ١٠.
٣. الكافي: ٣ / ٥٠٧ وقد وردت روايات أُخرى حول مصحف فاطمة ذكرناها في آخر المسألة الثانية عشرة من الفصل العاشر تحت عنوان مصحف فاطمة فراجع.

فإذا كان الغرض هو التعرّف على الواقع فهذا هو الواقع. وإن كان الهدف هو الشغب فالأُولى بهذه النسبة هي عائشة، روى السيوطي أنّه قالت حميدة بنت أبي يونس: قرأ أبـي وهـو ابـن ثمانين سنة في مصحف عائشة: انّ اللّه وملائكته يصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما وعلى الذين يصلّون في الصفوف الأُولى.(١)

* * *

هذه هي الشيعة الإمامية وهذا تاريخها المشرق وهؤلاء أئمتها أئمة أهل البـيت وهـذه عقائدها الوضّاءة، وهؤلاء علماؤها وأبطالها المشاركون في بناء الحضارة الإسلامية وهذه وهذه وهذه .

فماذا بعد الحق إلّا الضلال. نسأله سبحانه أن يتفضّل علينا بتوحيد الكلمة كـما أولانـا بكلمة التوحيد إنّه خير مدعو وخير مجيب، وصلّى اللّه على سيدنا محمّد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

---

١. الإتقان: ٢ / ٢٥.

الفهـــارس الفنّية

١- فهرس الآيات القرآنية

٢- فهرس المصادر

٣- فهرس المواضيع

فهرس الآيات القرآنية

▣ البقرة:	رقم الآية	الصفحة
وإنّ منها لما يهبط من خشية اللّه	٧٤	٨٨
وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات...	١٢٤	٣٨٠
وقال لهم نبيّهم إنّ اللّه قد بعث لكم طالوت...	٢٤٧	٢٨٢
وآتاه الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء	٢٥١	٢٨١
▣ آل عمران:		
إنّ اللّه لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا...	٥	٣٠٦
إنّ الدين عند اللّه الإسلام	١٩	٢٤٢ و ٤٣٤
لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء	٢٨	٢٩٩
ومكروا ومكر اللّه واللّه خير الماكرين	٥٤	٣٤٩
مثل عيسىٰ عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب	٥٩	٢٥٤
فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم ونساءنا...	٦١	٤٠ و ٦١ و ٥٨٥
وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله...	١٤٤	١٦٣ و ١٦٥
فبما رحمة من اللّه لِنت لهم...	١٥٩	١٥٩
الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا...	١٧٣	٤١٤

▣ النساء:	رقم الآية	الصفحة
وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامىٰ...	۳	۳۶۰
و آتوا النساء صدقاتهنّ نحلة...	۴	۳۶۰
وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة	۱۲	۲۵
وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم...	۲۳و۲۴	۳۵۹
ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح ...	۲۵	۳۶۰
من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه	۴۶	۲۹
أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من...	۵۴	۱۳۵ و ۲۸۱
أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر...	۵۹	۲۷۷
وكلّم الله موسى تكليما	۱۶۴	۲۵۲
يستفتونك قل اللّه يفتيكم في الكلالة	۱۷۶	۲۵
▣ المائدة:		
اليوم أكملت لكم دينكم	۳	۳۱و ۱۵۷ و ۵۲۸
يا أيّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة...	۶	۳۸۴
إنّما جزاءُ الذين يحاربون اللّه ورسوله...	۳۳	۱۱۵
والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	۳۸	۲۵
يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود ...	۵۱	۵۳و۵۷ و ۵۹ و ۶۰
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذوُا الَّذِينَ اتَّخَذُوا...	۵۷	۵۸
وقالت اليهود يد اللّه مغلولة غلّة أيديهم...	۶۴	۳۳۰
يا أيّها الذين آمنوا لاتحرّموا طيّبات ما أحلّ ...	۸۷	۳۶۹

	رقم الآية	الصفحة
▣ **الأنعام:**		
ومن ذرّيته داود وسليمان...	٨٤و٨٥	٥٨٥
لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار...	١٠٣	٢٥١و٢٥٣و٥٩٠
▣ **الأعراف:**		
قل إنّ اللّه لا يأمر بالفحشاء...	٢٨	٢٩٣
ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم...	٩٦	٣٢٢
ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين...	١٣٠	٣٢٧
وقال موسى لأخيه هارون اخلفني...	١٤٢	٣٤٢ و ٦٢٨
...لن تراني	١٤٣	٢٥٣
▣ **الأنفال:**		
وما كان اللّه ليعذّبهم وأنت فيهم...	٣٣	٣٢٢
ذلك بأنّ اللّه لم يك مغيّراً نعمة أنعمها...	٥٣	٣٢١و٣٢٧
إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا...	٦٥	٢٢٥
▣ **التوبة:**		
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم ...	٢٣	٦٠
وآخرون مُرجَون لأمر اللّه إمّا يعذّبهم وإمّا...	١٠٦	٢٤٧

	رقم الآية	الصفحة
▣ يونس:		
فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها...	۹۸	۳۲۲و۳۴۲
▣ هود:		
وما من دابّة في الأرض إلّا على اللّه رزقها	۶	۳۱۷
ولا تركنوا إلى الذين ظلموا	۱۱۳	۲۸۴
▣ يوسف:		
إن الحكم إلّا اللّه	۴۰	۲۶۸
ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من...	۱۰۱	۲۸۱
▣ الرعد:		
إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم	۱۱	۳۲۱و۳۳۶
وللّه يسجد من في السموات والأرض طوعاً	۱۵	۳۹۵
يمحوا اللّه ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب	۳۹	۳۱۸و۳۲۶و ۳۳۱و۳۳۲و ۳۴۰و۳۴۵و ۳۴۶و۶۱۸
▣إبراهيم:		
وإذ تأذّن ربّك لئن شكرتم لأزيدنّكم...	۷	۳۲۲

▣ النحل :	رقم الآية	الصفحة
وأنزلنا إليك لتُبيّن للناس ما نزّل إليهم	٤٤	٢٣
وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتبيّن لهم الّذي...	٦٤	٢٣
من كفر باللّه بعد إيمانه إلّا من أُكره...	١٠٦	٢٩٦و٣٠١ و٣٠٤
وضرب اللّه مثلاً قرية كانت مطمئنّة يأتيها...	١١٢	٣٢٧
▣الإسراء:		
قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن ...	٨٨	٦١٤
▣ الكهف:		
ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة...	٤٧	٣٥٤
▣ مريم:		
يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً	١٢	٦١٧
إنّي عبداللّه آتانِيَ الكتاب وجعلني نبيّا	٣٠	٦١٧
▣ طه:		
طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ إلّا تذكرة...	١و٢	٧٦٦
واجعل لي وزيراً من أهلي...	٢٩و٣٦	٤٨
▣ الأنبياء:		
لو كان فيهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا	٢٢	٢٥٢
ونوحاً إذ نادىٰ من قبل فاستجبنا له فنجّيناه...	٧٦	٣٢٢

وأيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسنِيَ الضرّ...	٨٣و٨٤	٣٢٢
فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك...	٨٨	٦٢٨
وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون	٩٥	٣٥٦
ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ...	١٠٥	٢٨٨و٦١٨

▣ **الحج:**

الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة...	٤١	١٦٦

▣ **المؤمنون:**

قد أفلح المؤمنون... فأُولئك هم العادون	١و٧	٣٦٦و٣٧٠
في بيوت أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه		٦٢
وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا ...	٣٦	٢٨٧
حتّى إذا جاء أحدهم الموت...	٥٥	٣٥٦
أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثا	١٠٠و١٠١	٢٥٤
	١١٥	

▣**الشعراء:**

وأنذر عشيرتك الأقربين	٢١٤	٣٨
والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنّهم في...	٢٢٤	٦٥٧
وأنّهم يقولون ما لا يفعلون	٢٢٥و٢٢٦	٦٥٧

	رقم الآية	الصفحة
▣ **النمل:**		
وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة...	٨٢و٨٣	٣٥٣
▣ **القصص:**		
ونريد أنّ نمنَّ على الذين استضعفوا في ...	٥	٦١٨
فاستغاثه الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه	١٥	٧
قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك...	٢٠	٣٠٢
وأخي هارون هو أفصح منّي لساناً فأرسله...	٣٤	٤٨
تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون...	٨٣	١٩٠
إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد	٨٥	١٠٨
▣ **الأحزاب:**		
... صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه...	٢٣	٤١٤
إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل...	٣٣	٢٧٤و٦١
فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث...	٣٥	٧٦٦
ما كان محمّداً أبا أحد من رجالكم ولكن...	٤٠	٤٣٧و٢٥٦
يا أيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً و مبشراً...	٤٥	٥٣٤
إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فانّ اللّه كان بكل...	٥٤	٣١٧
▣ **فاطر:**		
الحمد للّه فاطر السموات والأرض...	١	٣٣٠
وما تحمل من أُنثىٰ ولا تضع إلّا بعلمه...	١١	٣٣٠

	رقم الآية	الصفحة
▣ **يس:**		
لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون	٦	٣٧
▣ **الصافّات:**		
وإنّ من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربّه...	٨٣و٨٤	٧
فبشّرناه بغلام حليم * فلمّا بلغ السعيّ	١٠١و١٠٢	٣٤١
فلولا أنّه كان من المسبّحين * للبث...	١٤٣و١٤٦	٣٢٢و٦٣٤
▣ **ص:**		
وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب	٢٠	٢٨١
ذلك ظنّ الذين كفروا فويل...	٢٧	٣٣٥
ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق	٣٣	٣٨٨
وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي...	٣٥	٢٨٢
▣ **الزمر:**		
ولا يرضىٰ لعباده الكفر	٧	٢٧٧
إنّك ميّت وإنّهم ميّتون	٣٠	١٦٣و١٦٤
وبدا لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون	٤٧	٣٤٣
▣ **غافر:**		
وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه..	٢٨	٣٠٢
فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا باللّه وحده...	٨٤و٨٥	٦٠٩

	رقم الآية	الصفحة
▣ **فصّلت:**		
لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا للّه...	٣٧	٣٩٥
فوقاه اللّه سيّئات ما مكروا...	٤٥	٣٠٢
▣ **الشورى:**		
قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في ...	٢٣	٦و٧
يقترف حسنة نزد له فيها حسنا	٣٨	٥٣٧
وأمرهم شورىٰ بينهم		١٥٦و١٦٠
▣ **الزخرف:**		
وانّه في أُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم	٤	٣٢٨
▣ **الحجرات:**		
يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي ...	١	٤و٦٤و٨٢و٨٤
▣ **النجم:**		
ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق ...	٢و٤	٦٦٨
▣ **الحديد:**		
فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين...	١٥	٤٦
ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في...	٢٢	٣١٧و٣٣٩
ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في...	٢٦	١٣٥

	رقم الآية	الصفحة
▣ **المنافقون:**		
إذا جاءك المنافقون قالوا...	١	٢٩٣
▣ **الطلاق:**		
ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً * ويرزقه...	٢و٣	٣٢٢
▣ **نوح:**		
استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً * يرسل السماء..	١٠و١٢	٣٢١
▣ **المزّمّل:**		
إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم...	٢٠	٧٦٥
▣ **البروج:**		
بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ	٢١و٢٢	٣٣٩
▣ **البيّنة:**		
إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم..	٧	٨٥و٨٦
▣ **الإخلاص :**		
قل هوَ اللّه أحد	١	٢٥٢

فهرس مصادر الكتاب

نبدأ تبركاً بالقرآن الكريم

حرف الألف

١ـ أبو العباس السفاح: محمّد أحمد براق .

٢ـ الإتحاف بحب الإشراف: عبد الله بن محمد الشبراوي، المطبعة الأدبية، مصر.

٣ـ الإتقان: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) دار ابن كثير، بيروت .

٤ـ إثبات الهداة: الحر العاملي: محمّد بن الحسن (١٠٣٣ ـ ١١٠٤ هـ) المطبعة العـلمية، قم.

٥ـ إثبات الوصية: المسعودي: علي بن الحسين بن علي (المتوفّى ٣٤٥هـ) قم ـ ١٤٠٤ هـ

٦ـ الاثنا عشرية وأهل البيت: محمّد جواد مغنية (المتوفّى ١٤٠٠ هـ).

٧ـ الاحتجاج: أبو منصور: أحمد بن علي الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٨ ـ أحسن التقاسيم: شمس الدين محمّد بن أحمد المقدسي، طبع ليدن ـ ١٩٠٦ م .

٩ـ الأحكام السلطانية: الماوردي: علي بن محمّد البصري (م ٤٥٠ ه) دار الكتب العلمية، بيروت .

١٠ـ أحكام القرآن: الجصّاص: أحمد بن علي (م ٣٧٠ ه) دار الكتاب العربي، بـيروت ـ ١٤٠١ ه .

١١ـ أخبار اصبهان: أبو نعيم الاصفهاني: أحمد بن عبداللّه (المتوفّى ٤٣٠ه) مـنشورات جهان، إيران.

١٢ـ أخبار النحويين واللغويين: ابن النديم (المتوفّى ٣٨٥ ه) .

١٣ـ الاختصاص: الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣ه) مـؤسسه النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم .

١٤ـ الأربعون حديثاً: النبهاني .

١٥ـ الإرشاد: المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣ ه) طبع قم ـ ١٤٠٢ ه.

١٦ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١ ـ ٩٢٣ ه) دار إحيار التراث العربي، بيروت .

١٧ـ الأرض والتربة الحسينية: الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ ه) .

١٨ـ الاستيعاب (المطبوع في هامش الإصابة): أبو عمرو يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ، دار نهضة مصر، القاهرة .

١٩ـ أسد الغابة: ابن الأثير: علي بن أبي الكرم (المتوفّى ٦٣٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢٠ـ الإصابة: ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢١ـ أصل الشيعة وأُصولها: الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ) مؤسسة الإمام علي عليه السلام ـ قم، ١٤١٥ هـ .

٢٢ـ أُصول الدين: محمّد بن عبدالكريم البزدوي (٤٢١ ـ ٤٩٣ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

٢٣ـ أُصول الفقه: الدواليبي .

٢٤ـ اعتقادات (عقائد) الإمامية: الصدوق: محمّد بن بابويه القمي (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ)، المطبوع ضمن مصنفات الشيخ المفيد المجلد الخامس ـ قم، ١٤١٣ هـ.

٢٥ـ إعلام الورى بأعلام الهدى: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ ١٤١٧ هـ .

٢٦ـ أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين العاملي (المتوفّى ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت .

٢٧ـ الأغاني: أبو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين (٢٨٤ ـ ٣٥٦ ه) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢٨ـ الإلهيات: محمّد مكي العاملي من محاضرات الأُستاذ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية، بيروت ـ ١٤١٠ ه .

٢٩ـ الأمالي: الصدوق: محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٠٦ـ ٣٨١ ه) المكتبة الإسلامية، طهران .

٣٠ـ الأمالي: المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣ ه) قم ـ ١٤٠٤ ه.

٣١ـ الإمام جعفر الصادق: محمّد أبو زهرة (المتوفّى ١٣٩٦ ه) .

٣٢ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٩٠ ه .

٣٣ـ الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: جورج جرداق، دار الروائع، بيروت.

٣٤ـ الإمامة والسياسة: ابن قتيبة: عبداللّه بن مسلم الدينوري (المتوفّى ٢٧٦ ه) مطبعة مصطفى محمّد، مصر .

٣٥ـ الانتصار: أبو الحسين الخياط المعتزلي، تحقيق د. نيبرج، طبع مصر ـ ١٣٤٤ ه .

٣٦ـ أنساب الأشراف: البلاذري: أحمد بن يحيىٰ (من أعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٣٩٤ هـ .

٣٧ـ أوائل المقالات: المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز – ١٣٧١ هـ .

٣٨ـ الإيضاح: الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠ هـ) منشورات جامعة طهران، طهران ـ ١٤٠٤ هـ

حرف الباء

٣٩ـ بحارالأنوار: محمّد باقر المجلسي (المتوفّى ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٤٠ـ البداية والنهاية: ابن كثير: الحافظ أبو الفداء (المتوفّى ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ .

٤١ـ البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم التوبلي البحراني (المتوفّى ١١٠٧ هـ) قم ـ ١٣٧٥ هـ .

٤٢ـ بصائر الدرجات: محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار القمي (المتوفّى ٢٩٠ هـ) منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدّسة ـ ١٤٠٤ هـ .

٤٣ـ البلدان: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من أعلام القرن الثالث) .

٤٤ـ بلوغ المرام من أدلّة الأحكام: ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢ هـ) تحقيق حامد الفقي، دار النهضة، مصر .

٤٥ـ البيان والتبيين: أبو عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفّى ٢٥٥ هـ) دار الفكر للجميع، بيروت ـ ١٩٦٨ م .

٤٦ـ بين يدي الساعة: الدكتور عبدالباقي المعاصر .

حرف التاء

٤٧ـ التاج الجامع للأُصول: منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ .

٤٨ـ تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة ـ ١٩٣١ م.

٤٩ـ تاريخ ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون (المتوفّى ٨٠٨ هـ) بيروت ـ ١٩٥٦م.

٥٠ـ تاريخ الإسلام السياسي: الدكتور حسن إبراهيم حسن (المعاصر) مصر ـ ١٩٣٥ م .

٥١ـ تاريخ الإمامية: الدكتور عبدالله فياض، مؤسسة الأعلمي، بيروت – ١٣٩٥ هـ .

٥٢ـ تاريخ الأُمم والملوك: الطبري: محمّد بن جرير (المتوفّى ٣١٠ ه) مؤسسة الأعلمي، بيروت .

٥٣ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: أحمد بن علي (المتوفّى ٤٦٣ ه) المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

٥٤ـ تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ ه) مطبعة المدني، القاهرة ـ ١٣٨٣ ه .

٥٥ـ تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، طبع بيروت ـ ١٩٦٥ م.

٥٦ـ تاريخ الشيعة: محمّد حسين المظفر (المتوفّى ١٣٧٥ ه) منشورات مكتبة بصيرتي، قم .

٥٧ـ تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله (٥٠٠ ـ ٥٧٣ ه) دار التعارف، بيروت ـ ١٣٩٥ ه .

٥٨ـ تاريخ المذاهب الإسلامية: محمّد أبو زهرة (المتوفّى ١٣٩٦ ه) دار الفكر العربي، بيروت .

٥٩ـ تاريخ مختصر الدول: ابن العبري: العلامة غريغوريوس الملطي (المتوفّى ٦٨٥ ه) مؤسسة منابع الثقافة الإسلامية، قم .

٦٠ـ تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من علماء القرن الثالث الهجري) المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٤٨ ه .

٦١ـ تأسيس الشيعة: السيد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤ هـ)، مطبعة المعارف، بغداد ـ ١٣٧٠ هـ

٦٢ـ التبيان في تفسير القرآن: الطوسي: محمّد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٦٣ـ التبصير في الدين: أبو المظفر الاسفرائيني (المتوفّى ٤٧١ هـ) بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٦٤ـ التحرير الطاووسي: الشيخ حسن بن زين الدين العاملي (المتوفّى ١٠١١ هـ) منشورات دار الذخائر، قم ـ ١٤٠٩ هـ .

٦٥ـ تحف العقول: الحرّاني: الحسن بن علي (من أعلام القرن الرابع الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٣٩٤ هـ .

٦٦ـ تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي (٥٨١ ـ ٦٥٤ هـ) مؤسسة أهل البيت، بيروت ـ ١٤٠١ هـ

٦٧ـ ترتيب المدارك: القاضي عياض، بيروت ـ ١٩٧٦ م .

٦٨ـ ترجمة الآثار الباقية: أبو ريحان البيروني (المتوفّى ٤٤٠ هـ) .

٦٩ـ تصحيح الاعتقاد: المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز ـ ١٣٧١ هـ .

٧٠ـ تطهير الجنان (المطبوع بهامش الصواعق المحرقة): ابن حجر الهيتمي (٨٩٩ ـ ٩٧٤ هـ) مكتبة القاهرة، مصر ـ ١٣٨٥ هـ .

٧١ـ تفسير ابن كثير (القرآن العظيم) : إسماعيل الدمشقي (المتوفّى ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ .

٧٢ـ تفسير الخازن: الشيخ علاء الدين محمّد البغدادي، طبع القاهرة .

٧٣ـ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): محمّد بن عمر الخـطيب (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ) دار إحـياء التراث العربي، بيروت .

٧٤ـ تفسير روح البيان: إسماعيل حقّي البروسوي (المتوفّى ١١٣٧ هـ) دار إحـياء التـراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ .

٧٥ـ تفسير الطبري (جامع البيان): محمّد بن جرير (المتوفّى ٣١٠ هـ) دار المعرفة، بيروت .

٧٦ـ تفسير القرطبي (جامع أحكام القرآن): محمّد بن أحمد الأنصاري (المتوفّى ٦٧١ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ .

٧٧ـ تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ .

٧٨ـ تفسير المنار: محمّد رشيد رضا (المتوفّى ١٣٥٤ هـ) دار المنار، مصر ـ ١٣٧٣ هـ .

٧٩ـ تفسير النسفي: المطبوع بهامش تفسير الخازن، طبع القاهرة، مصر .

٨٠ ـ التفسير والمفسرون: الدكتور محمّد حسين الذهبي (المتوفّى ١٣٩٦هـ) دار الكـتب الحديثة، مصر ـ ١٣٩٦ هـ .

٨١ ـ تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢ هـ)، بيروت ـ ١٩٧٥ م .

٨٢ ـ تقييد العلم: الخطيب البغدادي (المتوفّى ٤٦٣ هـ) نشر دار السنّة ـ ١٩٧٤ م .

٨٣ ـ التمهيد: الباقلاني: محمّد بن الطيب (المتوفّى ٤٠٣ هـ) القاهرة ـ ١٣٦٦ هـ .

٨٤ ـ تنقيح المقال: عبد اللّه المامقاني (١٢٩٠ ـ ١٣٥١ هـ) النجف الأشرف ـ ١٣٥٠ هـ .

٨٥ ـ تهذيب الأحكام: محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٧ هـ .

٨٦ ـ تهذيب التهذيب: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) دار الفكـر، بيروت ـ ١٤٠٤ هـ .

٨٧ ـ التوحيد: الصدوق: محمّد بن بابويه القمي (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) مكتبة الصدوق، طهران .

حرف الثاء

٨٨ ـ الثقات العيون في سادس القرون (المجلد الثاني من طبقات اعلام الشيعة): آقا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩ هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم المقدسة.

٨٩ ـ ثمار القلوب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ) دار المعارف، القاهرة .

حرف الجيم

٩٠ ـ جامع الأُصول: ابن الأثير الجزري: المبارك بن محمّد (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) دارالفكر، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٩١ـ الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) دار الفكر، بيروت.

٩٢ـ جامع مسانيد أبي حنيفة: محمد بن محمود الخوارزمي (٥٩٣ ـ ٦٦٥هـ) دار الكتب العلمية، بيروت .

٩٣ـ الجرح والتعديل: أبو حاتم الرازي (المتوفّى ٣٢٧ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٧١ هـ .

٩٤ـ جمل العلم والعمل: الشريف المرتضى: علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) المطبوع ضمن رسائل الشريف المرتضى ـ مؤسسة النور، بيروت .

٩٥ـ جنة المأوى: محمّد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ) مكتبة الحقيقة ـ تبريز، ١٣٨٠ هـ .

حرف الحاء

٩٦ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، مصر ـ ١٣٦٧ هـ .

٩٧ـ حقائق التنزيل: الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٤ هـ) مؤسسة البعثة، طهران ـ ١٤٠٦ هـ .

٩٨ـ حلية الأولياء: أبو نعيم: أحمد بن عبداللّه الاصبهاني (المتوفّى ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧ هـ .

٩٩ـ الحوادث الجامعة: ابن الفوطي: عبدالرزاق بن أحمد (المتوفّى ٧٣٣هـ) تحقيق الدكتور مصطفى جواد، بغداد ـ ١٣٥١ هـ .

حرف الخاء

١٠٠ـ الخصائص العلوية: أبو عبد الرحمن أحمد النسائي (المتوفّى ٣٠٣ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٨ هـ .

١٠١ـ الخصال: الشيخ الصدوق: محمّد بن بابويه (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ ١٤٠٣ هـ .

١٠٢ـ خطط الشام: محمّد كرد علي، مصر ـ ١٩٦٣ م .

١٠٣ـ الخطط المقريزية: تقي الدين المقريزي (المتوفّى ٨٤٥ هـ) دار صادر، بيروت.

١٠٤ـ الخلاصة: العلّامة الحلي (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ) النجف الأشرف .

١٠٥ـ الخلاف: الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) دارالكتب العلمية، قم .

١٠٦ـ الخلافة والإمامة: عبدالكريم الخطيب (المتوفّى ١٣٩٦ هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٣٩٥ هـ .

١٠٧ـ الخوارج والشيعة: يوليوس فلهوزن، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ـ ١٩٧٨ م.

حرف الدال

١٠٨ـ دائرة المعارف: فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين ـ ١٣٨٦ هـ .

١٠٩ـ الدرجات الرفيعة: صدر الدين السيد علي خان المدني الحسيني (المتوفّى ١١٢٠ هـ) منشورات المكتبة، الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨١ هـ .

١١٠ـ الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) دارالفكر، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

١١١ـ دلائل الصدق: محمد حسن المظفر (المتوفّى ١٣٧٥ هـ) مكتبة بصيرتي، قم المقدّسة ـ ١٣٩٥ هـ .

١١٢ـ ديوان ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (المتوفّى

٢٨٣ هـ) تحقيق كامل الكيلاني، طبعة ـ مصر ١٩٢٤ م .

١١٣ـ ديوان مهيار الديلمي: مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٢٠ هـ .

حرف الذال

١١٤ـ الذخيرة: الشريف المرتضىٰ (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) طبع ايران .

١١٥ـ الذريعة: آقا بزرگ الطهراني (المتوفّى ١٣٨٩ هـ) دارالأضواء، بيروت .

١١٦ـ الذكرىٰ: الشهيد الأوّل: محمّد بن مكي العاملي (٧٣٣ ـ ٧٨٦ هـ) طبعة حجر، إيران .

حرف الراء

١١٧ـ ربيع الأبرار: الزمخشري: محمود بن عمر (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) منشورات الشريف الرضي، قم ـ ١٤١٠ هـ .

١١٨ـ الرجال: ابن داود: الحسن بن علي الحلي (٦٤٧ ـ ٧٠٧ هـ) منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٣٩٢ هـ .

١١٩ـ الرجال: البرقي: أحمد بن عبدالله (٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ) طهران ـ ١٣٨٣ هـ.

١٢٠ـ الرجال: الطوسي: محمّد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) النجف الأشرف ـ ١٣٨١ هـ.

١٢١ـ الرجال: أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي (من علماء القرن الرابع) مؤسسة الأعلمي، كربلاء ـ العراق .

١٢٢ـ الرجال: النجاشي: أحمد بن علي (٣٧٢ ـ ٤٥٠ هـ) بيروت ـ ١٤٠٩ هـ .

١٢٣ـ الرحلة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار): ابن بطوطة: محمّد بن عبداللّه (المتوفّى ٧٧٩ هـ) دارالكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٧ هـ .

١٢٤ـ الرسائل: أبو عثمان عمرو الجاحظ (المتوفّى ٢٥٥ هـ) طبع مصر .

١٢٥ـ الرسائل: الإمام الخميني (١٣٢٠ ـ ١٤٠٩ هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم ـ ١٣٨٥ هـ .

١٢٦ـ رسالة في آل أعين: أبو غالب الزراري (المتوفّى ٣٦٨ هـ) مطبعة ربّاني، اصفهان ـ ١٣٩٩ هـ .

١٢٧ـ الرواشح السماوية: المحقّق الداماد (١٠٤١ هـ) طبعة حجر، إيران .

١٢٨ـ روح المعاني: الآلوسي: أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (المتوفّى ١٢٧٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٩ـ روضات الجنات: محمّد باقر الخوانساري (المتوفّى ١٣١٣ هـ) طهران ـ ١٣٩٠ هـ.

١٣٠ـ روضة الواعظين: الفتّال النيسابوري: محمّد بن علي (من علماء القرن السادس الهجري) تبريز ـ ١٣٣٠ هـ .

حرف الزاي

١٣١ـ الزيدية نظرية وتطبيق: علي عبدالكريم فضيل، شرف الدين، طبع عمان ـ ١٤٠٥ هـ .

حرف السين

١٣٢ـ السجود على الأرض: العلّامة علي الأحمدي الميانجي (المتوفّى ١٤٢٢ هـ)، مؤسسة في طريق الحق، قم .

١٣٣ـ السراج المنير: الخطيب الشربيني، دار المعرفة، بيروت .

١٣٤ـ سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩ هـ) طبعة حجر، النجف الأشرف .

١٣٥ـ السنة والشيعة: محمّد رشيد رضا (المتوفّى ١٣٥٤ هـ) .

١٣٦ـ السنن: ابن ماجة: محمّد بن يزيد القزويني (٢٠٧ ـ ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٩٥ هـ .

١٣٧ـ السنن: الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن (١٨١ ـ ٢٥٥ هـ) دار إحياء السنّة النبوية .

١٣٨ـ السنن الكبرى: البيهقي: أحمد بن الحسين (المتوفّى ٤٥٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ .

١٣٩ـ سيد المرسلين: محاضرات جعفر السجاني (مؤلّف هذا الكتاب تولد ١٣٤٧ ه) بقلم: جعفر الهادي، مؤسسة النشر الاسلامي، قم ـ ١٤١٢ ه .

١٤٠ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي: شمس الدين محمّد بن أحمد (المتوفّى ٨٤٨ ه) مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤٠٩ ه .

١٤١ـ السيرة الحلبية: الحلبي: برهان الدين علي بن إبراهيم (المتوفّى ١٠٤٤ ه) المكتبة الإسلامية، بيروت .

١٤٢ـ السيرة النبوية: ابن هشام: عبدالملك بن أيوب الحميري (المتوفّى ٢١٣ أو ٢١٨ ه) دارالتراث العربي، بيروت .

١٤٣ـ سيرتنا و سنتنا: العلّامة عبد الحسين الأميني (١٣٢٠ ـ ١٣٩٠ ه) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف .

حرف الشين

١٤٤ـ الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ ه) مؤسسة الصادق، طهران ـ ١٤١٠ ه .

١٤٥ـ شذرات الذهب: ابن عماد الحنبلي (١٠٣٢ ـ ١٠٨٩ ه) دار الفكر، بيروت ـ ١٣٩٩ ه .

١٤٦ـ شرح التجريد: القوشچي: علاء الدين، طبعة حجر، تبريز .

١٤٧ـ شرح العقائد النسفية: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفّى ٧٩٢ هـ) مكتبة المثنى، بغداد .

١٤٨ـ شرح عينية عبد الباقي العمري: الحاكم النيسابوري (المتوفّى ٤٠٥ هـ).

١٤٩ـ شرح مقاصد الطالبيين: سعد الدين التفتازاني (المتوفّى ٧٩٢ هـ) طبع مصر .

١٥٠ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي (المتوفّى ٦٥٥ هـ) دار إحياء الكـتب العربية، القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

١٥١ـ شرح النووي على صحيح مسلم: أبو زكريا يحيى بن شرف (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) دار القلم، بيروت ـ ١٤٠٧ هـ .

١٥٢ـ الشفاء: الشيخ الرئيس ابن سينا (المتوفّى ٤٢٨ هـ) انتشارات بيدار، إيران .

١٥٣ـ شمس العرب تسطع على الغرب: المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، الترجمة العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ ١٤١٠ هـ .

١٥٤ـ شواهد التنزيل: الحاكم الحسكاني عبيد الله بن عبد الله (من أعلام القرن الخامس الهجري) مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران ـ ١٤١١ هـ .

١٥٥ـ الشيعة بين الأشاعرة و المعتزلة: هاشم معروف الحسني (المتوفّى ١٤٠٧ هـ) دار القلم، بيروت ـ ١٩٧٨ م .

١٥٦ـ الشيعة والتشيّع: محمّد جواد مغنية، مكتبة المدرسة ودارالكتاب العربي، بيروت .

١٥٧ـ الشيعة والحاكمون: محمّد جواد مغنية، دار و مكتبة الهلال، بيروت ـ ١۴٠۴ هـ

حرف الصاد

١٥٨ـ الصحيح: أبو داود السجستاني (المتوفّى ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٩ـ الصحيح: البخاري: محمّد بن إسماعيل (المتوفّى ٢٥۶ هـ) مكتبة عبدالحميد أحمد حنفي، مصر ـ ١٣١۴ هـ .

١٦٠ـ الصحيح: الترمذي: محمّد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١٦١ـ الصحيح: مسلم بن الحجاج القشيري (المتوفّى ٢۶١ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١٦٢ـ الصحيفة السجادية الجامعة: الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، مؤسسة الإمام المهدي ـ عجل اللّه فرجه الشريف ـ قم ـ ١۴١١ هـ .

١٦٣ـ الصلة بين التصوّف والتشيع: الدكتور كامل مصطفى الشيبي، دار المعارف، مصر ـ ١٩۶٩ م .

١٦٤ـ الصواعق المحرقة: أحمد بن حجر الهيتمي (٨٩٩ ـ ٩٧٤ هـ) مكتبة القاهرة، مصر ـ ١٣٨٥ هـ .

حرف الطاء

١٦٥ـ الطبقات الكبرى: محمّد بن سعد (المتوفّى ٢٣٠ هـ) دار صادر، بيروت ـ ١٣٨٠ هـ.

حرف العين

١٦٦ـ عبداللّه بن سبأ: السيد مرتضى العسكري (المعاصر) النجف الأشرف .

١٦٧ـ العبر في خبر من غبر: الذهبي: أبو عبداللّه محمّد بن أحمد (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت .

١٦٨ـ عبقات الأنوار: السيد مير حامد حسين الهندي (المتوفّى ١٣٠٦ هـ) مؤسسة الإمام المهدي ـ عجل اللّه فرجه الشريف ـ قم ـ ١٤٠٦ هـ .

١٦٩ـ العقائد الجعفرية: الطوسي: محمّد بن الحسن (المتوفّى ٤٦٠ هـ) طبعت على شكل رسالة مع كتاب جواهر الفقه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١٢ هـ .

١٧٠ـ العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ) دارالكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٤ هـ .

١٧١ـ العقيدة الطحاوية: أبو جعفر الطحاوي (المتوفّى ٣٢١ هـ) .

١٧٢ـ العقيدة والشريعة في الإسلام: المستشرق اجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م) دارالكتاب العربي، مصر .

١٧٣ـ علل الشرائع: الشيخ الصدوق (المتوفّى ٣٨١ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٠٨ هـ .

١٧٤ـ عمدة الطالب: ابن مهنا: جمال الدين أحمد بن علي (المتوفّى ٨٢٨هـ) النجف الاشرف ـ ١٣٨٠ هـ .

١٧٥ـ عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني الحنفي، طبع مصر .

١٧٦ـ عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (المتوفّى ٣٨١ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٤ هـ .

حرف الغين

١٧٧ـ الغارات: ابن هلال الثقفي (المتوفّى ٢٨٣ هـ) دارالكتاب الإسلامي، قم ـ ١٤١١ هـ .

١٧٨ـ غاية المرام: السيد هاشم البحراني (المتوفّى ١١٠٧ هـ) طبعة حجر، إيران .

١٧٩ـ الغدير: العلّامة عبدالحسين أحمد الأميني (١٣٢٠ ـ ١٣٩٠ هـ)

دارالكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧ هـ .

حرف الفاء

١٨٠ـ فتح الباري: ابن حجر: شهاب الدين أحمد العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١٨١ـ فتح البيان: صديق حسن خان (المتوفّى ١٣٠٧ هـ) دار الفكر العربي.

١٨٢ـ الفتنة الكبرى: الدكتور طه حسين، القاهرة ـ ١٩٥١ م .

١٨٣ـ فتوح البلدان: البلاذري: أبو الحسن (المتوفّى ٢٧٩ هـ) المكتبة التجارية، مصر ـ ١٩٥٩ م .

١٨٤ـ فجر الإسلام: أحمد أمين (المتوفّى ١٣٨٨ هـ) نشر دار الكتاب العربي.

١٨٥ـ فرج المهموم: علي بن موسى بن طاووس (المتوفّى ٦٦٤ هـ)، النجف الأشرف ـ ١٣٦٨ هـ .

١٨٦ـ فرق الشيعة: النوبختي: الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث الهجري) دارالأضواء، بيروت ـ ١٤٠٤ هـ .

١٨٧ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الأندلسي (المتوفّى ٤٥٦هـ) دارالمعرفة، بيروت ـ ١٣٩٥ هـ .

١٨٨ـ الفصول المختارة من العيون والمحاسن للشيخ المفيد: الشريف

المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) ، منشورات مكتبة الداوري، قم ـ ١٣٩٦ هـ .

١٨٩ـ الفصول المهمة: ابن الصبّاغ المالكي (المتوفّى ٨٥٥ هـ) المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨١ هـ .

١٩٠ـ فضائل القرآن: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (١٨١ ـ ٢٥٥ هـ).

١٩١ـ الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١٩٢ـ فلاسفة الشيعة: الشيخ عبدالله نعمة (المعاصر)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت .

١٩٣ـ الفهرست: ابن النديم: محمّد بن اسحاق (٢٩٦ ـ ٣٨٥ هـ) القاهرة ـ ١٣٤٨ هـ.

١٩٤ـ الفهرست: محمّد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) جامعة مشهد، ايران ـ ١٣٥١ هـ .

١٩٥ـ في رحاب أئمة أهل البيت: السيد محسن الأمين العاملي (المتوفّى ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت ـ ١٤٠٠ هـ .

١٩٦ـ فيض القدير: محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، بيروت ـ ١٣٩١ هـ .

حرف القاف

١٩٧ـ قاموس الرجال: التستري: محمّد تقي (المتوفّى ١٤١٦ هـ) طهران ـ ١٣٩٧ هـ .

١٩٨ـ قرب الإسناد: عبد الله بن جعفر الحميري القمي (من أعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة ـ ١٤١٣ هـ .

١٩٩ـ قصة الحضارة: ويل دورانت، دارالجيل، بيروت ـ ١٤٠٨ هـ .

حرف الكاف

٢٠٠ـ الكافي: الكليني: محمّد بن يعقوب (المتوفّى ٣٢٩ هـ) دارالكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٧ هـ .

٢٠١ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري: محمّد بن محمّد (المتوفّى ٦٣٠ هـ) دارالكتاب العربي، بيروت .

٢٠٢ـ الكشّاف: الزمخشري: محمود بن عمر (المتوفّى ٥٣٨ هـ) مكتبة مصطفى البـابي الحلبي، القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ .

٢٠٣ـ كشف الظنون: حاج خليفة مصطفى بن عبداللّه (المتوفّى ١٠٦٧ هـ) طبع استانبول ـ ١٣٦٢ هـ .

٢٠٤ـ كشف الغمة: الإربلي: علي بن عيسى (المتوفّى ٦٩٣ هـ) دارالأضواء، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ

٢٠٥ـ كفاية الطالب: أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشي الكنجي الشافعي (المتوفّى ٦٥٨ هـ) شركة الكتبي، بيروت ـ ١٩٩٣ م .

٢٠٦ـ كمال الدين: الشيخ الصدوق (المتوفّى ٣٨١ هـ) طهران ـ ١٤٠٥ هـ .

٢٠٧ـ كنز العمال: المتقي الهندي (المتوفّى ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ .

٢٠٨ـ كنز الفوائد: الكراجكي: محمّد بن علي بن عثمان (المتوفّى ٤٤٩ هـ) دارالأضواء، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ .

حرف اللام

٢٠٩ـ اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: جلال الدين السيوطي (المتوفّى ٩١١ هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٢١٠ـ لسان العرب: العلامة ابن منظور: محمّد بن مكرم (المتوفّى ٧١١ هـ) قم ـ ١٤٠٥ هـ

٢١١ـ لسان الميزان: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (المتوفّى ٨٥٢ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت .

٢١٢ـ اللهوف: ابن طاووس علي بن موسى بن جعفر (المتوفّى ٦٦٤ هـ)

منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٦٩ هـ .

٢١٣ـ لؤلؤة البحرين: المحدث البحراني: الشيخ يوسف، النجف الأشرف ـ ١٣٨٦ هـ .

حرف الميم

٢١٤ـ ماضي النجف وحاضرها: الشيخ جعفر آل محبوبة (المتوفّى ٣٧٧ هـ) دارالأضواء، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ .

٢١٥ـ المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية: السيد محسن الأمين (المتوفّى ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ .

٢١٦ـ مجمع البيان: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ ـ ٥٤٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت ـ ١٤٠٨ هـ .

٢١٧ـ مجمع الزوائد: الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكـر (٧٣٥ ـ ٨٠٧ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ .

٢١٨ـ المحاسن: البرقي أحمد بن محمد بن خالد (المتوفّى ٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ) دار الكتب الإسلامية، قم .

٢١٩ـ محاسن التأويل: جمال الدين القاسمي (المتوفّى ١٣٣٢ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٣٩٨ هـ .

٢٢٠ـ المحاسن والمساوئ: البيهقي: أحمد بن الحسين (المتوفّى ٤٥٨ هـ)

مكتبة النهضة، مصر .

٢٢١ـ محاضرات في تاريخ الأُمم الإسلامية: محمّد الخضري، دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٤٩ هـ

٢٢٢ـ المحلّى: ابن حزم الأندلسي محمد علي بن أحمد (المـتوفّى ٤٥٦ هـ) دار الآفـاق الجديدة، بيروت .

٢٢٣ـ مختصر تاريخ العرب: السيد أمير علي، طبع مصر ـ ١٩٣٨ م .

٢٢٤ـ المختصر النافع: المحقّق الحلّي جعفر بن الحسن (المـتوفّى ٦٧٦ هـ) دار الكـتاب العربي، مصر .

٢٢٥ـ مرآة الجنان: أبو محمّد، عبداللّه بن أسعد اليافعي (المتوفّى ٧٦٨ هـ) دائرة المعارف العثمانية، الهند ـ ١٣٣٧ هـ .

٢٢٦ـ المراجعات: السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧ هـ) طبع مصر .

٢٢٧ـ مروج الذهب: المسعودي: علي بن الحسين (المتوفّى ٣٤٥ هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ـ ١٩٦٥ م .

٢٢٨ـ مسائل فقهية: السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (المتوفّى ١٣٧٧ هـ) منظمة الإعلام الإسلامي، طهران ـ ١٤٠٧ هـ .

٢٢٩ـ المستدرك: الحاكم النيسابوري: محمّد بن عبداللّه (المتوفّى ٤٠٥ هـ) دارالمعرفة، بيروت .

٢٣٠ـ مستدرك الوسائل: الشيخ النوري: الحسين بن محمّد تقي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠ هـ) مؤسسة آل البيت، قم ـ ١٤٠٧ هـ .

٢٣١ـ المسند: أحمد بن حنبل (المتوفّى ٢٤١ هـ) دارالفكر، بيروت .

٢٣٢ـ مصفى المقال: آقا بزرگ الطهراني (المتوفّى ١٣٨٩ هـ) دار العلوم، بيروت ـ ١٤٠٨ هـ .

٢٣٣ـ المصنف: أبوبكر بن أبي شيبة (المتوفّى ٢٣٥ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٩ هـ .

٢٣٤ـ المصنف: عبدالرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ١١ مجلداً، دار الكتب السلفية، القاهرة .

٢٣٥ـ مظاهر الشعوبية في الأدب العربي: الدكتور محمّد نبيه حجاب، طبع مصر ـ ١٩٦١ م .

٢٣٦ـ معالم العلماء: ابن شهر آشوب: محمّد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ ـ ٥٨٨ هـ) النجف الأشرف ـ ١٣٨٠ هـ .

٢٣٧ـ معاني الأخبار: الصدوق: محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (المتوفّى ٣٨١ هـ) دارالمعرفة، بيروت ـ ١٣٩٩ هـ .

٢٣٨ـ معجم الأدباء: الحموي: ياقوت بن عبداللّه (المتوفّى ٢٦٢ هـ) دارالفكر، بيروت ـ ١٤٠٠ هـ .

٢٣٩ـ معجم البلدان: الحموي: ياقوت بن عبداللّه (المتوفّى ٢٦٢ هـ)

دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٩٩ هـ .

٢٤٠ـ المعجم الصغير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٩ هـ .

٢٤١ـ المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٩ هـ .

٢٤٢ـ المغني: عبداللّه بن قدامة (٥٤١ ـ ٦٢٠ هـ) مطبعة الإمام، مصر .

٢٤٣ـ مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الاصفهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ) مؤسسة دار الكتاب، قم .

٢٤٤ـ مقالات الإسلاميين: الأشعري: علي بن إسماعيل (المتوفّى ٣٢٤ هـ) الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ .

٢٤٥ـ مقتل الإمام الحسين: أبو مخنف: لوط بن يحيى الغامدي (المتوفّى ١٥٨ هـ) المكتبة العلمية، قم .

٢٤٦ـ مقتل الحسين عليه السلام: الخوارزمي الموفق بن أحمد المكي (المتوفّى ٥٦٨ هـ) مطبعة الزهراء، النجف الأشرف ـ ١٣٦٧ هـ .

٢٤٧ـ مكاتيب الرسول: علي الأحمدي الميانجي (المتوفّى ١٤٢٢ هـ) المطبعة العلمية، قم المقدّسة ـ ١٣٧٩ هـ .

٢٤٨ـ الملل والنحل: الشهرستاني: محمّد بن عبدالكريم (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ .

٢٤٩ـ المناقب: الخوارزمي: أحمد بن محمّد (المتوفّى ٥٦٨ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤١١ هـ.

٢٥٠ـ مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: محمّد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ ـ ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم.

٢٥١ـ مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ابن المغازلي: علي بن محمّد الشافعي الواسطي (م ٤٨٣ هـ) المكتبة الإسلامية، طهران ـ ١٤٠٣ هـ.

٢٥٢ـ منتخب الأثر: لطف الله الصافي الگلپايگاني، مركز نشر كتاب طهران ـ ١٣٧٣ هـ.

٢٥٣ـ منتخب كنز العمال (هامش مسند أحمد): المتقي الهندي (المتوفّى ٩٧٥ هـ) دار الفكر.

٢٥٤ـ المنتظم: ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي البغدادي (المتوفّى ٥٩٧ هـ) حيدرآباد، ١٣٥٧ هـ، وأخيراً في لبنان.

٢٥٥ـ من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

٢٥٦ـ منهاج السنة: أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) طبع مصر.

٢٥٧ـ المهدي: صدر الدين الصدر (المتوفّى ١٣٧٣ هـ) طبع إيران ـ ١٣٥٨ هـ.

٢٥٨ـ الموطأ: مالك بن أنس (المتوفّى ١٧٩ هـ) دارالآفاق الجديدة، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.

٢٥٩ـ الميزان في تفسير القرآن: العلّامة الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٢ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.

٢٦٠ـ ميزان الاعتدال: محمّد بن أحمد الذهبي (المتوفّى ٧٤٨ هـ) دار المعرفة، بيروت.

حرف النون

٢٦١ـ ناسخ التواريخ: لسان الملك محمد تقي بن محمد علي (المتوفّى ١٢٩٧ هـ) طبع طهران.

٢٦٢ـ نظرية الإمامة: أحمد محمود صبحي (المعاصر) دارالمعارف، مصر.

٢٦٣ـ نقد المحصل: فخر الدين الرازي (المتوفّى ٦٠٦ هـ).

٢٦٤ـ النهاية: ابن الأثير: مبارك بن محمّد الجزري (المتوفّى ٦٠٦ هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم ـ ١٤٠٥ هـ.

٢٦٥ـ نهاية المرام: العلّامة الحلي: الحسن بن يوسف (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ) مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ قم، ١٤١٩ هـ.

٢٦٦ـ نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٤ هـ) بيروت ـ ١٣٨٧ هـ.

حرف الهاء

٢٦٧ـ الهدى الساري مقدمة فتح الباري: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢٦٨ـ هشام بن الحكم: عبدالله نعمة، دارالفكر العربي، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ .

٢٦٩ـ هوية التشيع: الدكتور الشيخ أحمد الوائلي (المعاصر) دارالكتبي، بيروت ـ ١٤٠٧ هـ .

حرف الواو

٢٧٠ـ الوافي: الفيض الكاشاني (١٠٠٧ ـ ١٠٩١ هـ) منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين ٧، اصفهان ـ ١٤٠٦ هـ .

٢٧١ـ الوحي المحمّدي: محمّد رشيد رضا (المتوفّى ١٣٥٤ هـ) طبع مصر .

٢٧٢ـ وسائل الشيعة: الحر العاملي: محمّد بن الحسن (١٠٣٣ ـ ١١٠٤ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .

٢٧٣ـ وفيات الأعيان: ابن خلّكان، أحمد بن أحمد (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ) منشورات الشريف الرضي، قم ١٣٦٤ هـ .

٢٧٤ـ وقعة صفين:نصر بن مزاحم المنقري (المتوفّى ٢١٢ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٦٥ هـ .

حرف الياء

٢٧٥ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور: عبدالملك بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (المتوفّى ٤٢٩ هـ) دارالفكر، بيروت ـ ١٣٩٢ هـ .

٢٧٦ـ ينابيع المودة: القندوزي: سليمان بن إبراهيم البلخي (المتوفّى ١٢٩٤ هـ) مطبعة اختر، اسلامبول، ١٣٠١ هـ .

٢٧٧ـ يوم الإسلام: أحمد أمين (المتوفّى ١٣٨٨ هـ) نشر مؤسسة الخانجي، مصر.

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة ٥

الشيعة لغةً و اصطلاحاً ٧

الفصل الأوّل

بيان متطلبات الظروف في عصر الرسول

القرآن الكريم والإبهامات الطارئة ٢٢

الرسالة الإسلامية والحوادث المستجدّة ٢٦

المسلمون وصيانة الدين من التحريف ٢٩

الفصل الثاني

ماهو المرتكز في أمر القيادة في

ذهن الرسول والأُمّة؟

النصوص التاريخية الّتي تؤكد انّ الخلافة بيد الله ٣٣

الفصل الثالث

ماهو مقتضى الكتاب والسنّة في صيغة الخلافة بعد الرسول؟

١- التنصيص على الخليفة في حديث بدء الدعوة ٣٧
٢- حديث المنزلة ٣٩
٣- حديث الغدير ٤٠
شبهتان واهيتان ٤٥
حصيلة البحث ٤٧
مرجعية أهل البيت الفكرية بعد الرسول ٤٨
٤- حديث الثقلين ٤٩
٥- حديث السفينة ٥٠
مقتضى الكتاب في صيغة القيادة بعد الرسول ٥٣

الفصل الرابع

ما هو السرّ في مخالفة الجمهور نص الرسولﷺ؟

مخالفتهم للرسول ﷺ في حياته ٦٤
١- اختلافهم مع النبي في الأنفال والأسرىٰ ٦٤
٢- مخالفتهم لأمر الرسول في أُحد ٦٥
٣- مخالفتهم في صلح الحديبية ٦٦
٤- مخالفتهم في تجهيز جيش أُسامة ٦٧
٥- مخالفتهم النبيﷺ في احضار القلم والدواة ٦٩
مخالفة الجمهور نصوص الرسول ﷺ بعد وفاته ٧٢
١- التصرّف في أذان الفجر: ٧٢
٢- الحيلولة بين فاطمة وميراثها: ٧٢
٣- النهي عن متعة الحج: ٧٥
٤- اسقاط سهم ذوي القربى من الخمس بعد وفاة الرسول : ٧٧
٥- قطع سهم المؤلّفة قلوبهم: ٧٨

الفصل الخامس

مبدأ التشيّع و تاريخ تكوّنه

الشيعة في كلمات المؤرّخين وأصحاب الفرق ٨٩
روّاد التشيّع في عصر النبي ٩٢
الكتب المؤلّفة حول روّاد التشيّع ٩٦

الفصل السادس

فرضيات وهمية لمبدأ التشيّع

الفرضية الأُولى: الشيعة ويوم السقيفة ١٠٢
الفرضية الثانية: التشيّع صنيع عبداللّه بن سبأ ١٠٧
نظر المحقّقين في الموضوع ١١٤
عبداللّه بن سبأ، أُسطورة تاريخية ١١٩
الفرضية الثالثة: التشيع فارسي المبدأ أو الصبغة ١٢٧
شهادة المستشرقين على أنّ التشيّع عربي المبدأ ١٢٩
تحليل النظرية الثانية: ١٣٣

الفرضية الرابعة: الشيعة ويوم الجمل ١٤٠
أصحاب أميرالمؤمنين ١٤١
الفرضية الخامسة: الشيعة ويوم صفين ١٤٣
الفرضية السادسة: الشيعة والبويهيون ١٤٤
الفرضية السابعة: الشيعة والصفوية ١٤٦
زلّة لاتستقال ١٤٧

الفصل السابع

صيغة الحكومة عند أهل السنّة

آيتان حول الشورى ١٥٩
خلافة الخلفاء ومسألة الشورى ١٦١
السقيفة وخلافة أبي بكر ١٦٢
نقاش مع الخليفة ١٦٣
مأساة السقيفة ١٦٥
الخلفاء وتناسي الشورى ١٧١
شورى سداسية أو لعبة سياسية؟ ١٧٤
إجابة عن سؤال ١٧٧

الفصل الثامن

نصوص الخلافة والركون إلى الأمر الواقع

تسنّم الامام مقاليد الحكم بعد ربع قرن ١٨٧
إغارة معاوية على البلاد الآمنة ١٩٣

الفصل التاسع

الشيعة في العصرين الأموي والعباسي

الشيعة في العصر الأموي ١٩٨
رسالة الامام الحسين إلى معاوية ٢٠٠
بيان معاوية إلى عماله ٢٠٤
ضحايا الغدر الأموي ٢٠٧
الشيعة في العصر العباسي ٢١١

الفصل العاشر

مع الشيعة الإمامية في عقائدهم

رسائل موجزة حول عقائد الشيعة ٢٢٧
١- ما كتبه الامام الرضا عليه السلام للمأمون في محض الإسلام ٢٢٩
٢- عرض السيّد عبدالعظيم الحسني عقائده على الإمام الهادي ٢٣١

٣- رسالة الصدوق في عقائد الإمامية ٢٣٣
٤ ـ أمالي الصدوق ٢٣٥
٥- جمل العلم والعمل للسيّد الشريف المرتضى ٢٣٥
بيان ما يجب اعتقاده في أبواب التوحيد ٢٣٦
٦- البيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان للكراجكي ٢٣٨
في توحيده سبحانه ٢٣٨
في عدله سبحانه ٢٣٩
في النبوة العامّة والخاصّة ٢٤٠
في الإمامة والخلافة ٢٤٢
في التوبة والحشر والنشر ٢٤٦
٧- العقائد الجعفرية للشيخ الطوسي ٢٥٠
ماهو الهدف من نقل هذه الرسائل؟ ٢٦٠
الفوارق بين الشيعة والمعتزلة ٢٦١
الفوارق بين الإمامية والأشاعرة ٢٦٣
الفوارق بين الشيعة وسائر الفرق ٢٦٧
المسألة الأُولى: وجوب تنصيب الإمام على اللّه سبحانه ٢٦٨
المسألة الثانية: عصمة الإمام ٢٧٣

حقيقة العصمة ٢٧٣
الدليل على لزوم عصمة الامام بعد النبيّ ٢٧٦
ما هو المراد من الظالم؟ ٢٨٣
العصمة في القول والرأي ٢٨٥
المسألة الثالثة: الإمام المنتظر ٢٨٧
المسألة الرابعة: التقية ٢٩٢
مفهومها ٢٩٣
غايتها ٢٩٤
دليلها في القرآن والسنّة ٢٩٦
اتّقاء المسلم من المسلم في ظروف خاصّة ٣٠٣
الظروف العصيبة التي مرّت بها الشيعة ٣٠٦
كتاب معاوية إلى عماله ٣٠٦
حدّ التقيّة ٣١٠
التقية المحرّمة ٣١٢
المسألة الخامسة: البداء عند الشيعة الإمامية ٣١٦
البداء في القرآن الكريم ٣٢١
البداء في الروايات ٣٢٣
الف ـ الصدقة وأثرها في دفع البلاء ٣٢٣

ب ـ أثر الاستغفار في الرزق ٣٢٤
ج ـ الدعاء وآثاره ٣٢٤
د ـ أثر صلة الرحم ٣٢٦
البداء في مقام الثبوت والاثبات ٣٢٩
بحث في قوله تعالى: ﴿**يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب**﴾ ٣٣١
الأثر التربوي للاعتقاد بالبداء ٣٣٧
البداء في مقام الاثبات ٣٣٩
تلميحات إلى البداء في الذكر الحكيم ٣٤١
تلميحات للبداء في الروايات ٣٤٣
المسألة السادسة: الرجعة ٣٥١
ملاحظات جديرة بالانتباه حول الرجعة ٣٥٥
المسألة السابعة: زواج المتعة ٣٥٨
النكاح المنقطع في القرآن الكريم ٣٥٩
١- الحمل على النكاح الدائم يستلزم التكرار بلا وجه ٣٦٠
٢- تعليق دفع الأُجرة على الاستمتاع ٣٦١
٣- تصريح جماعة من الصحابة بشأن نزولها ٣٦١
شبهات ضعيفة حول دلالة الآية ٣٦٣
المنكرون للتحريم ٣٦٩

كبرت كلمة تخرج من أفواههم ٣٧١
المسألة الثامنة: متعة الحج ٣٧٤
المسألة التاسعة: مسح الأرجل في الوضوء ٣٨٣
وقفة مع آية الوضوء ٣٨٤
أدلّة القائلين بالغسل ونقضها ٣٨٨
المسألة العاشرة: السجود على الأرض ٣٩٤
١- اختلاف الفقهاء في شرائط المسجود عليه ٣٩٥
٢- الفرق بين المسجود له والمسجود عليه ٣٩٧
٣- السنّة في السجود في عصر الرسول وبعده ٣٩٨
المرحلة الأُولى: السجود على الأرض ٣٩٩
تبريد الحصى للسجود عليها ٣٩٩
الأمر بالتتريب ٤٠١
الأمر بحسر العمامة عن الجبهة ٤٠٢
المرحلة الثانية: الترخيص في السجود على الخمر والحصر ٤٠٣
المرحلة الثالثة: السجود على الثياب لعذر ٤٠٤
حصيلة البحث ٤٠٦
ما هو السر في اتّخاذ تربة طاهرة؟ ٤٠٧
المسألة الحادية عشرة: عدالة الصحابة ٤١١

الصحابة في القرآن الكريم ٤١٧
الردّة بعد وفاة الرسولﷺ ٤٢٠
المسألة الثانية عشرة: في عالمية رسالة النبي ﷺ وخاتميتها ٤٣١
تمهيد: ملامح الشريعة الإسلامية ٤٣١
الخاتمية في الذكر الحكيم ٤٣٣
الخاتم وما يراد منه ٤٣٨
الخاتمية في الأحاديث النبوية ٤٤٤
الخاتمية في أحاديث العترة الطاهرة ٤٤٧
أسئلة حول الخاتمية ٤٥٠
السؤال الأوّل: تنصيص القرآن على أنّ جميع أهل الشرائع ينالون ثواب الله ٤٥٠
فكرة الشعب المختار ٤٥١
الانتماء إلى اليهودية والنصرانية مفتاح الجنة ٤٥١
الهداية في اعتناق اليهودية والنصرانية ٤٥٢
السؤال الثاني: لماذا ختمت النبوة التبليغية ؟ ٤٥٤
السؤال الثالث: لماذا حرم الخلف من المكاشفة الغيبية؟ ٤٥٦
السؤال الرابع: ادّعاء النقص في التشريع الإسلامي ٤٥٦
الجواب وفيه أمران ٤٥٧

١. التشريع ذو مادة حيوية، وفيه أُمور ٤٥٧
ألف. الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة ٤٥٧
ب. إنّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد عند العدلية ٤٥٩
ج. التشريع الإسلامي ذو مادة حيوية ٤٦١
د. تشريع الاجتهاد وعدم غلق بابه ٤٦٣
هـ . حقوق الحاكم الإسلامي أو ولاية الفقيه ٤٦٤
٢. مرونة التشريع الإسلامي وفيه أُمور ٤٦٤
ألف. كونه جامعاً بين الدعوة إلى المادّة والروح ٤٦٥
ب. النظر إلى المعاني لا إلى الظواهر ٤٦٥
ج. الأحكام الّتي لها دور التحديد ٤٦٦
السؤال الخامس: القوانين الثابتة والحياة المتطورة ٤٦٧
الجانب الثابت من حياة الإنسان ٤٦٧
الجانب المتغيّر في الحياة الإنسانية ٤٦٩
نماذج من الأحكام المتغيّرة حسب تغيّر الظروف ٤٧١
١. في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية ٤٧١
٢. في العلاقات الدولية التجارية ٤٧٢
٣. في مجال الدفاع عن حريم الإسلام ٤٧٢
٤. في نشر العلم والمعارف والثقافة ٤٧٤
٥. في مجال إقامة النظام ٤٧٤

٦. في مجال المبادلات المالية ٤٧٥
الشيعة والخاتمية ٤٧٦
كتاب علي وإملاء رسول الله ٤٧٧
مصحف فاطمة ٤٨٧
ما هو مصدر روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام ؟ ٤٨٩
١. النقل عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٤٨٩
٢. النقل عن كتاب علي عليه السلام ٤٩٠
٣. الإلهام أو تحديث الملائكة ٤٩١
المحدّث في الإسلام ٤٩١
روايات الشيعة حول المحدَّث ٤٩٣

الفصل الحادي عشر

الأئمّة الاثنا عشر

الأئمة الاثنا عشر في حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ٤٩٦
فـي انطباق السمات الواردة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أئمة أهل البيت عليهم السلام ٥٠٠
الامام الأوّل: الامام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ٥٠٦
مكوّنات الشخصية الإنسانية ٥٠٧

مكوّنات شخصية الإمام علي عليه السلام ٥٠٨
١. الإمام علي عليه السلام والوارثة من الأبوين ٥٠٨
٢. الإمام علي عليه السلام وتربيته في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٥١١
النبي يأخذ علياً إلى بيته ٥١٣
علي في غار حراء ٥١٤
٣. البيئة الرسالية وشخصية الإمام ٥١٦
البعد المعنوي لشخصية الإمام عليه السلام ٥١٧
تسليط الضوء على شخصيته السامية ٥١٩
النبوة والإمامة توأمان ٥٢٢
قصة الغدير ٥٢٣
مصادر الواقعة ٥٢٦
واقعة الغدير ورمز الخلود ٥٢٧
شذرات من فضائله ٥٣١
الامام الثاني: أبو محمد الحسن بن علي المجتبى عليه السلام ٥٣٣
ألقابه عليه السلام ٥٣٤
علمه عليه السلام ٥٣٤
زهده عليه السلام ٥٣٥
حلمه عليه السلام ٥٣٥

إمامته عليه السلام ٥٣٦
صلحه عليه السلام مع معاوية ٥٣٨
شهادته ودفنه ٥٣٩
فرح معاوية بموته ٥٤١
الإمام الثالث: الحسين بن علي بن أبي طالب سيّد الشهداء عليه السلام ٥٤٢
ولادته عليه السلام ٥٤٢
خصائصه عليه السلام ٥٤٢
كفاحه وجهاده الرسالي ٥٤٣
إباؤه للضيم ومعاندة الجور ٥٤٣
الإمام الحسين عليه السلام وكربلاء ٥٤٦
رفضه البيعة ليزيد ٥٤٦
خروجه من مكة ومكاتبة أهل الكوفة له ٥٤٧
الدافع الواقعي للهجرة إلى العراق ٥٤٩
شهادته عليه السلام ٥٥٦
الإمام الرابع: علي بن الحسين بن علي زين العابدين عليه السلام ٥٥٧
ولادته وجوانب من سيرته عليه السلام ٥٥٧
هيبته ومنزلته العظيمة ٥٥٨
زهده وعبادته ومواساته للفقراء ٥٥٩

الثروة العلمية للامام ٥٦١
رسالة الحقوق ٥٦٤
شهادته عليه السلام ٥٦٤
الإمام الخامس: أبوجعفر محمّد بن علي بن الحسين : الباقرعليه السلام ٥٦٥
أقوال العلماء فيه عليه السلام ٥٦٥
مناظراته ٥٦٨
الإمام السادس: جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ٥٧٠
ولادته وخصائصه عليه السلام ٥٧٠
مناقبه عليه السلام ٥٧٢
حياته العلمية عليه السلام ٥٧٣
نتف من أقواله عليه السلام ٥٧٧
من أقوال العلماء والمحدّثين فيه عليه السلام ٥٧٨
وفاته عليه السلام ٥٧٩
الإمام السابع: أبوالحسن موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام ٥٨٠
ولادته عليه السلام ٥٨٠
إمامتهعليه السلام ٥٨٠
جوانب من سيرته العطرة عليه السلام ٥٨١
وفاته عليه السلام ٥٨٦

الإمام الثامن: علي بن موسى بن جعفر : الرضا عليه السلام ٥٨٨
ولادته عليه السلام ٥٨٨
إمامته عليه السلام ٥٨٨
أقوال العلماء فيه عليه السلام ٥٨٨
الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد ٥٩١
الإمام الرضا عليه السلام وصلاة العيد ٥٩٥
من شعر أبي نؤاس فيه عليه السلام ٥٩٧
شهادته عليه السلام ٥٩٨
الإمام التاسع: محمّد بن علي بن موسى : الجواد عليه السلام ٥٩٩
ولادته عليه السلام ٥٩٩
إمامته عليه السلام ٥٩٩
استقدامه إلى بغداد ٦٠٠
رجوع الجواد إلى المدينة ٦٠٣
الإمام العاشر: أبوالحسن علي بن محمّد بن علي الهادي عليه السلام ٦٠٥
ولادته وإمامته عليه السلام ٦٠٥
المتوكّل ومواقفه الشنيعة مع الإمام عليه السلام ٦٠٦
آثاره العلمية ٦٠٨
شهادته عليه السلام ٦٠٩

الإمام الحادي عشر: أبو محمّد الحسن بن علي العسكري عليه السلام ٦١١
ولادته وإمامته عليه السلام ٦١١
الإمام الثاني عشر: المهدي المنتظر عليه السلام ٦١٧
في من رأى المهدي في بيت الإمام العسكري ٦٢٣
أسئلة مهمة حول الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه ٦٢٦
١. كيف يكون إماماً وهو غائب؟ وما فائدته ؟ ٦٢٧
٢. لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟ ٦٣١
٣. الإمام المهدي وطول عمره ٦٣٢
٤. ما هي علائم ظهوره عليه السلام ؟ ٦٣٥
حصيلة البحث ٦٣٨

الفصل الثاني عشر

دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية

تمهيد ٦٣٩
١ و ٢ ـ قدماء الشيعة وعلم البيان وعلم النحو ٦٤٤
٣- قدماء الشيعة وعلم الصرف ٦٥١
٤- قدماء الشيعة وعلم اللغة ٦٥٢
٥- قدماء الشيعة وعلم العروض ٦٥٥
٦- قدماء الشيعة وطرائف الشعر ٦٥٦

١- قيس بن سعد بن عبادة ٦٥٧
٢- الكميت (٦٠ ـ ١٢٦ هـ) ٦٥٨
٣- السيد الحميري (المتوفّى ١٧٣ هـ) ٦٥٩
٤- دعبل الخزاعي (المتوفّى ٢٤٦ هـ) ٦٥٩
٥- أبو فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ) ٦٦٠
٧- قدماء الشيعة وعلم التفسير ٦٦٢
مجازات القرآن ٦٦٥
التفسير بصور متنوّعة ٦٦٥
الشيعة والتفسير الموضوعي ٦٦٦
الشيعة والتفسير الترتيبي ٦٦٧
٨- قدماء الشيعة وعلم الحديث ٦٦٨
اهتمام الشيعة بتدوين الحديث ٦٧٠
طبقات محدثي الشيعة ٦٧١
الطبقة الأُولى ٦٧١
الطبقة الثانية ٦٧٢
الطبقة الثالثة ٦٧٣
٩- قدماء الشيعة والفقه الاسلامي ٦٧٥
فقهاء الشيعة في القرنين الأوّلين ٦٧٦

أصحاب الجوامع الفقهية في القرن الثالث ٦٧٧
فقهاء الشيعة في القرن الرابع ٦٧٨
مشاهير الفقهاء في القرن الخامس ٦٧٩
١٠- قدماء الشيعة وعلم أُصول الفقه ٦٨٠
١١- قدماء الشيعة وعلم المغازي والسير ٦٨٥
١٢- قدماء الشيعة وعلم الرجال ٦٨٩
١٣- قدماء الشيعة والعلوم العقلية ٦٩٠
متكلّمو الشيعة في القرن الثاني ٦٩٣
متكلّمو الشيعة في القرن الثالث ٦٩٨
متكلّموا الشيعة في القرن الرابع ٧٠٢
مشاهير أئمّة الفلسفة بعد القرن الرابع ٧٠٩
١٤- قدماء الشيعة والعلوم الكونية ٧١٢
الجغرافية وتقويم البلدان ٧١٦

الفصل الثالث عشر

في بلدان الشيعة وأماكن تواجدهم

بلدان الشيعة ٧١٧
التشيّع حجازي المحتد والمولد ٧١٨
التشيّع عراقيّ النشوء والنموّ ٧٢١

الشيعة في اليمن ٧٢٥
الشيعة في سوريا ولبنان ٧٢٨
الشيعة في مصر ٧٣٠
الشيعة في إيران ٧٣٢
أسباب اعتناق الفرس للإسلام ولمذهب التشيّع ٧٣٢
١- ما هو السبب لدخول الفرس في الإسلام؟ ٧٣٣
٢- ما هو السبب الحقيقي لولائهم آل البيت عليهم السلام؟ ٧٣٣
٣. سببان مزعومان: الإصهار، وإرادة هدم الإسلام ٧٣٨
أوّلاً: هل الاصهار كان سبباً للولاء؟ ٧٣٨
ثانياً: إرادة هدم الإسلام ٧٣٩
دول الشيعة ٧٤٠
الجامعات العلمية للشيعة ٧٤١
١ ـ المدينة المنورة ٧٤١
٢- الكوفة وجامعها الكبير ٧٤٢
٣- مدرسة قم والري ٧٤٤
٤- مدرسة بغداد ٧٤٦
٥- مدرسة النجف الأشرف ٧٤٧
٦- مدرسة الحلّة ٧٤٩

٧- الجامع الأزهر ٧٥٠
٨ ـ مدارس الشيعة في الشامات ٧٥١
جامعات أُخر للشيعة في أقطار العالم ٧٥٢
عدد الشيعة ٧٥٣

الفصل الرابع عشر

مصادر الأُصول والفروع عند الإماميّة

الجوامع الحديثية الأخيرة ٧٥٨
خاتمة المطاف: بيان لكتّاب المقالات ومؤرخي العقائد ٧٦٠
الفهارس الفنية ٧٧١
١. فهرس الآيات القرآنية ٧٧٣
٢. فهرس مصادر الكتاب ٧٨٣
٣. فهرس المحتويات ٨١٧